الجمهوريّة الجزائريـة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

كلية: أصول الدين

قسم: الكتاب والسنة

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل: .....

أثر ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم

معارج التفكر ودقائق التدبر "لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني" أنموذجا

-دراسة نقدية-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه ل م د تخصص التفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالبة:

مريم بوعافية

إشراف الأستاذة:

أ.د.حدة سابق

أعضاء المناقشة	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
أ. د محمد لمين بوروبة	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة–	رئيسا
أ.د.حدة سابق	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة–	مشرفا ومقررا
د. عبد الرحيم ثابت	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة–	عضوا
د. عبد القادر شكيمة	أستاذ	جامعة الشهيد حمة لخضر –الوادي–	عضوا
أ.د. عمر حيدوسي	أستاذ	جامعة الحاج لخضر –باتنة 01–	عضوا

السّنة الجامعيّة 1441–1442هـ / 2020– 2021م

الجمهوريّة الجزائريـة الدّيمقراطيّة الشّعبيّـة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة

كلية أصول الدين
قسم: الكتاب والسنة

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل: .....

أثر ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم

معارج التفكر ودقائق التدبر "لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني" أنموذجا

-دراسة نقدية-

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الإسلامية

تخصص تفسير وعلوم القرآن

إعداد الطالبة:
مريم بوعافية

إشراف الأستاذة:
أ.د.حدة سابق

أعضاء المناقشة	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
			رئيسا
أ.د.حدة سابق	أستاذ	جامعة الأمير عبد القادر –قسنطينة	مشرفا ومقررا
			عضوا
			عضوا
			عضوا
			عضوا

السّنة الجامعيّة 1441-1442هـ / 2020- 2021م

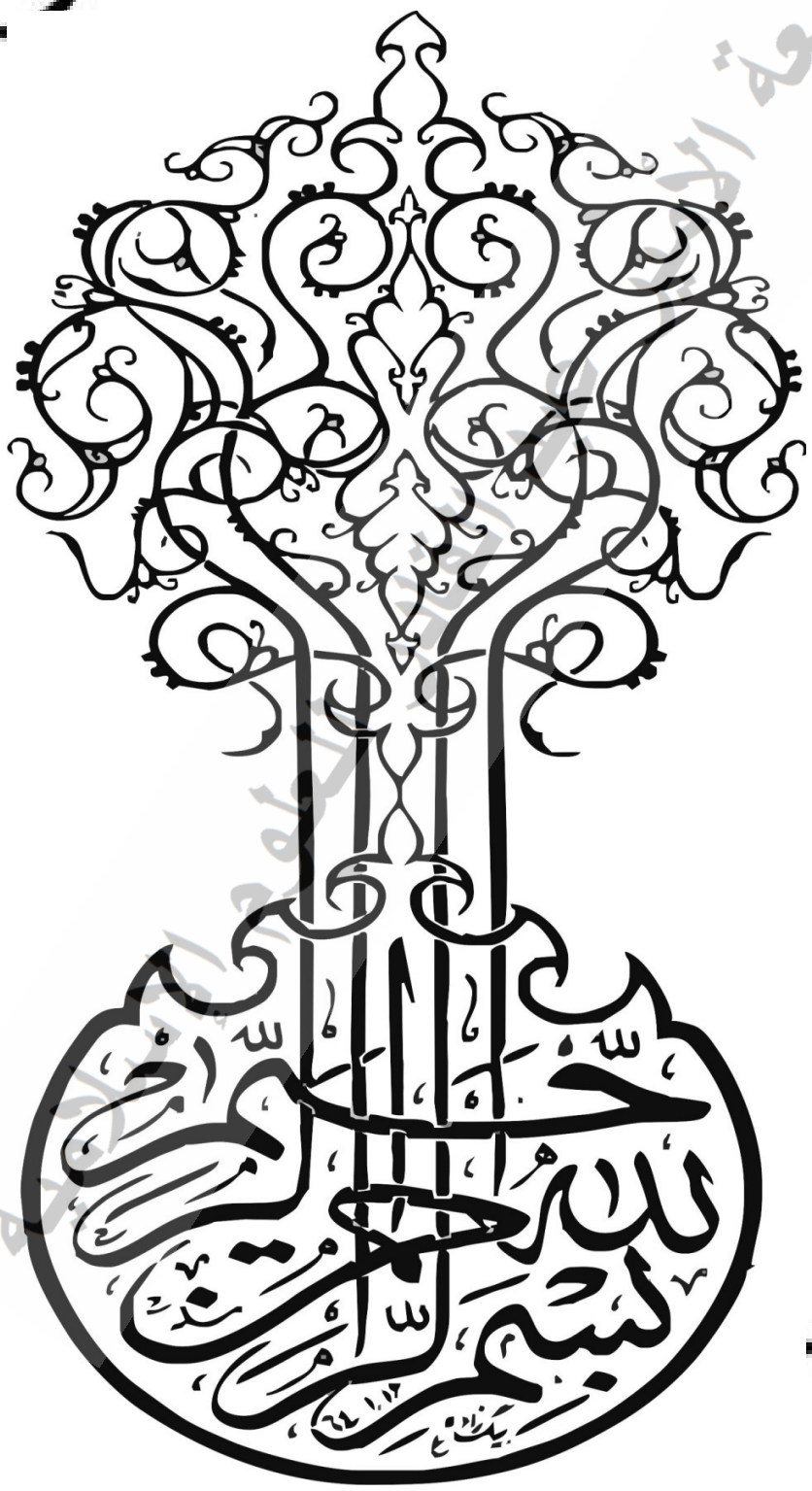
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء:

إلى كل من كان له فضل عليّ...

أسأل الله أن يجعل هذه الرسالة في ميزان
حسناتهم أجمعين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير:

أوّل الشكر وآخره لله العلي القدير أن أتم نعمته عليّ بإتمام هذا البحث ويسّره لي، فله الحمد حمدا كثيرا طيّبا مباركا فيه.

ثم أزف فائق الشكر الجزيل لأستاذتي الفاضلة: الدكتورة حدة سابق لقبولها الإشراف على الرسالة، ولما خصتني به من توجيه وتشجيع، فأسأل الله أن يبارك فيها وأن يرزقها الصحّة والعافية.

وكذا إلى الأستاذ المشرف المساعد الدكتور محمد خليل جيجك، الذي لم يأل جهدا في نصحي وإرشادي خلال فترة إقامتي بتركيا رغم كبر سنّه وكثرة أشغاله، حفظه الله ورفع من مقامه.

كما أتقدم بوافر الشكر والتقدير إلى أساتذتي الأجلاء أعضاء اللّجنة، الذين تفضلوا بقراءة الرسالة لمناقشتها وتقويمهما وإثرائها بآرائهم السديدة، سائلة الله أن يجعلها في ميزان حسناتهم.

ولا يفوتني أن أتقدم بوافر شكري وتقديري لجميع من أعانني في البحث من الأساتذة الأفاضل، وأخصّ بالذكر منهم د.رمضان يخلف صاحب فكرة هذه الرسالة وواضع البذور الأولى لمشروع الدفعة الذي رسالتي جزء منه، وكذا د.أبو بكر كافي، ود.مساعد الطيار، ود.عادل مقراني، وأ.فتحي بودفلة، ود.عزيزة سلولة، إذ كان لتوجيهاتهم ونصائحهم أبرز الأثر –بعد توفيق الله سبحانه– في إنجاز هذا البحث وإتمامه، وإني لا أملك لهم ثوابا إلا الدعاء، فأسال ربي أن يبارك فيهم.

وشكري وتقديري لجامعة الأمير عبد القادر ولأساتذتها الأفاضل الذين تشرفت بالدراسة على أيديهم، ولكل المسؤولين فيها، وكذا أشكر جامعة يلدريم بايزيد التي هيأت لي فرصة الالتحاق بركب طلاب الدراسات العليا فيها، فقضيت معهم سنة لقيت فيها حفاوة الاستقبال وطيب العشرة.

سدّد الله خطى الجميع في مسيرة العلم النافع والعمل الصالح، وتوّج مساعيهم الحميدة بالقبول الحسن والثواب الجزيل، إنه سميع مجيب.

مقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه ونستعينه ونستغفرُه ونستهديه ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا ومن سيِّئات أعمالِنا من يهدِهِ الله فلا مُضِلَّ له ومن يُضلِل فلا هادِيَ له وأَشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[آل عمران: 102].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[النساء: 1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب70- 71].

أما بعد:

فإنَّ من أشرف العلوم منزلة، وأسماها مكانة، وأجلّها قدرا علم التفسير؛ إذ شرف العلم من شرف ما يتعلق به، ولا أشرف من كلام الله ﷻ الذي ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت: 42]، فهو مُعجزةُ الله على أرضه وحجَّته على عبادِهِ، لا تنقضي عجائبُه، ولا تنفذ معارفه، ولا تنضب فوائده، منبع العلومِ ومفتاحُ القلوب وبه تنار الدروب، خير ما بُذلت له الأوقات، وصُرفت إليه الجهود والطاقات، وزُينت به الصدور والحافظات.

وعلم التفسير هو الوسيلة في فهم كتاب الله ﷻ وتدبره، لذا نذر خيرة علماء السّلف _منذ عهد مبكّر_ أعمارهم بيانا لمعانيه، وسخّروا نفيس أوقاتهم كشفا لأسرار دلالاته، وإيضاحا لهداياته، واقتفى أثرهم من جاء بعدهم لتتواصل فيه الجهود جيلا بعد جيل، فيُسلّم كل منهم المشعل إلى من خلفه، فاستخرجوا نفيس درره، ونهلوا من معينه، وارتشفوا من سلسبيله العذب؛ وكان ثمرة ذلك مكتبة تفسيرية واسعة تفخر بها المكتبة القرآنية خاصة والمكتبة الإسلامية على وجه العموم.

والناظر في هذه الجهود المباركة التي بذلها علماء التفسير في القديم والحديث يلحظ أنّه رغم تعدد مناهج المفسرين في بيان معاني القرآن الكريم وتنوع طرائقهم في سبيل إيضاحه؛ إلا أنّ ثمّة سمة اشترك فيها جل من فسّره كاملا، حتى أصبحت ملازمة له لا ينصرف ذهن القارئ إلى غيرها ترجع إلى الناحية المنهجية الشكلية في ترتيب السور، إذ يفتتحون تفاسيرهم بسورة (الفاتحة) ويختتمونها بسورة (الناس)، معتمدين في ذلك الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم؛ إلى أن ظهرت في العصر الحديث بعض الحركات الإصلاحية التجديدية التي حمل لواءها عدد من المعاصرين، ومن هؤلاء من فكّر في طرائق

جديدة تقرب الناس من أجواء التنزيل، وتوصلوا إلى أنّ ترتيب سور القرآن الكريم حسب نزولها أثناء تفسيرها هو السبيل لذلك، إذ يتسنى وضع القارئ في الإطار التاريخي للتنزّيل من جهة، ومن جهة أخرى يمكن استثماره في تربية الأمة التي اتسعت الهوّة بينها وبين معاني كتاب ربها وهداياته بابتعادها عن عصر التنزيل؛ فظهرت مجموعة من التفاسير التي خالف بها أصحابها المعهود عند السلف والخلف.

وهذه المخالفة التي لا نجد لها سبقا في حركة التفسير أثارت حافظة عدد من الباحثين وعورضت بشدّة ووجهت لها انتقادات حادة، فدعوا إلى إبطالها ورفضها جملة، غير مفرّقين بين الجهود المبذولة فيها؛ والنظرة الموضوعية تجعلنا لا نقرهم على ذلك، بل تدعوا إلى دراسة هذه الجهود كل على حدة، وذلك بمعرفة أسباب اختيار أصاحبها لترتيب السور وفق نزولها ومبرراتهم، ومدى سلامة الترتيب المعتمد عند كل واحد منهم، ثم بيان الإضافات المحتملة والسلبيات والإيجابيات المترتبة عليه، تماشيا مع أصول المنهج العلمي السليم؛ ومن أبرز الجهود التي كانت محل نقد وموضع جدل تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني الذي ختم به مسيرته العلمية، استند فيه على الترتيب النزولي للسور، فتأثر به وأثر ذلك على بيانه لمعاني كتاب الله ﷻ.

ومن هنا تظهر الحاجة إلى تتبع أثر ترتيب النزول في هذا التفسير، ودراسته دراسة نقدية، تتلمس المواضع التي أجاد فيها المفسر فكانت من مظاهر التجديد المفيد الذي يحسب له، وتقوّم تلك التي جانب فيها الصواب باعتماده له، حتى لا يؤثر اختياره لهذا الترتيب على جهده التدبري فيُنبذ لاتخاذه منهجا له.

ولما تبنّت لجنة فريق التكوين في الدكتوراه مشروع للدّفعة بعنوان: (أثر ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم)، اخترت بعد استخارة الله ﷻ، ثم استشارة أهل العلم إضافة إلى سبق بيانه الكتابة في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، فجاءت رسالتي معنونة بـ:

"أثر ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أنموذجا –دراسة نقدية–"

فأسأل الله تعالى التوفيق لما فيه الخير والسداد.

أولا. إشكالية البحث:

تواصلت الجهود في التفسير وفق الترتيب النزولي للسور رغم ما حُفّ به من مخاطر ومحاذير، فقد تبناه عبد الرحمن حبنكة الميداني وسار عليه في تدبره بعد سنوات عديدة من ظهوره، بل جعله من قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، محاولا توظيفه في بيان معاني القرآن الكريم، ومُبديا تفاعلا معه أثناء تدبره للسور؛ فيقف القارئ لتفسير (معارج التفكر) على اجتهادات المفسر في ذلك وقد يتساءل عن قيمتها ومدى إمكانية الأخذ بها والاستفادة منها، وهذا مما لم يلق عناية كافية من قبل الباحثين، إذ لازال يحتاج إلى بحث وتحليل ونقد يزيل اللّبس عن عدد من المسائل التي يطرحها هذا الترتيب.

وسعيا مني لجمع شتات الموضوع في بحث علمي محكم، والمساهمة في تقويم نموذج ضمن حركات التفسير المعاصرة، جاء هذا البحث الذي يثير سؤالا رئيسا وهو:

ما أثر ترتيب النزول على تفسير القرآن الكريم من خلال تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)؟

والإجابة عن هذا السؤال تقتضي أولا الإجابة عن الأسئلة الفرعية الآتية:

- ما هي حقيقة التفسير وفق ترتيب النزول؟ وما هو موقف العلماء من مشروعيته ؟ ومن هم أعلامه؟
- هل أثر ترتيب السور وفق نزولها في منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في تدبره للسور والمصادر التي استند إليها؟
- ما هي دوافع وأسباب ومبررات اختيار المفسر لترتيب السور وفق نزولها في تفسيره؟
- ما هي ملامح التفسير وفق ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)؟
- هل أثّر ترتيب السور وفق نزولها على توظيف المفسر لبعض مباحث علوم القرآن والتفسير في تدبره لكتاب الله ﷻ؟

ثانيا. أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من اعتبارات كثيرة:

– تعلّق البحث بتفسير القرآن الكريم بشكل عام، وباتجاهات التفسير المعاصرة التي خالفت المشهور في عرف المفسرين من جهة مراعاة الترتيب النزولي بشكل أخص.

– كون البحث يخوض في غمار الأبحاث المعاصرة؛ إذ دراسة النتاجات الفكرية في أي مجال من

أهم معالم البحث العلمي في هذا العصر، ولعل من أهمها الاهتمام بالدراسات المستحدثة في مجال القرآن الكريم عامة والتفسير خاصة؛ تلمسا لمحاسنها وكشفا عن هفواتها، لاتباع الحسن والإشادة به والتحذير مما سواه.

– تخطي ما قيل في ذم التفسير وفق الترتيب النزولي وأصحابه أو مدحهم بظاهر ما اعتمدوه، إلى معرفة هذه التفاسير ودراستها من مختلف جوانبها، إذ لابد من تقويم ما استحدثوه والتنبيه على ما فيه من إيجابيات وسلبيات.

– إفراد نتاج علمي مميّز ضمن سلسة حلقات التفسير وفق الترتيب النزولي بالدراسة، وتخصيصه بالبحث تحليلا ونقدا، لما في ذلك من أهمية في إعطاء أحكام عن دراية بجوانب التفسير المختلفة، وإزالة اللّبس عن عدد من القضايا التي يطرحها ترتيب النزول.

– إن مناقشة ما بُني من قضايا على التفسير وفق ترتيب النزول في أحد أهم التفاسير التي سارت عليه وتدبرت القرآن على وفقه، له أثره المباشر في فهم معاني القرآن الكريم، وبالتالي فإن ثمرة البحث لا تقتصر على قارئ التفسير فحسب، بل تتعداه إلى كل مهتم بعلم التفسير خاصة، وبالدراسات القرآنية والإسلامية عامة.

ثالثا. أسباب ودوافع اختيار البحث:

حملني للكتابة في هذا الموضوع جملة من الأسباب والدوافع منها:

– جدّة موضوع البحث؛ فقد ثبت لي –بعد البحث– أن الموضوع المراد دراسته لم يخصص بدراسة علمية مستقلة، داخل الجزائر أو خارجها، وما كتب فيه لا يتعدى جزئيات قليلة متناثرة في بعض الأبحاث والمقالات المنشورة.

– كون الحديث عن التفسير وفق ترتيب النزول من أبرز القضايا المطروحة في ساحة الدراسات المعاصرة.

– وجود دراسات اهتمت بترتيب النزول لأغراض غير علمية ولا منصفة، يدعونا إلى البحث بمنهج علمي، بعيدا عن التعصب في حقيقة التفسير وفق الترتيب النزولي، رغبة في المساهمة في التعريف به وضبط أسس التعامل معه.

– كون التفسير وفق ترتيب النزول، تبناه أحد أعلام التدبر المعاصرين، ممن عُرف بين أقرانه بمكانة علمية مرموقة، فلا بد من الاستماع لما قدمه ثم تقويم نظرته التجديدية المبنيّة على طريقة مستحدثة خالف

بها المعهود عند السلف.

- شمولية التفسير محل الدراسة وموسوعيته، نظرا لتأخره وحداثته؛ الأمر الذي كفل له استيعاب جهود السابقين، سواء من ألّف منهم وفق الترتيب المصحفي أو وفق الترتيب النزولي.
- الرغبة في تتبع تطبيقات المفسر لترتيب النزول أثناء تدبره للسور، فقد أظهر عنايته وحرصه على توظيفه في تفسيره في نواح عدة، امتثالا منه لإحدى قواعد التدبر الأمثل التي رسمها لتدبر كتاب الله ﷻ.
- استمرار التأليف في تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، رغم حدة الانتقادات الموجهة له، حيث ظهرت بعد تفسير (معارج التفكر) تفاسير سارت على نهجه.

رابعا. أهداف البحث:

تتجلى أهداف البحث في نقاط:

- بيان حقيقة التفسير وفق ترتيب النزول.
- التنبيه إلى منهج عبد الرحمن حبنكة في تدبر آيات الذكر الحكيم، تجلية لأثر ترتيب السور حسب نزولها في أهم المصادر التي استند عليها.
- بيان دوافع وأسباب ومبررات اختيار المفسر للتفسير وفق ترتيب النزول، ونقدها نقدا علميا.
- تقويم اتجاه المفسر وتطبيقاته للتفسير وفق ترتيب النزول، وبيان مدى تفاعل المفسر معه وكيفية توظيفه واستفادته منه للوصول إلى تدبر الآيات تدبرا سليما، ومناقشة ما ذكره ونقده.
- محاولة إبراز البعد المقاصدي في تطبيقات المفسر للتفسير وفق ترتيب النزول.
- توضيح أثر ترتيب النزول في أهم مباحث التفسير وعلوم القرآن ذات الصلة الوثيقة به، إظهارا للإيجابيات وتقويما للسلبيات التي صاحبت اعتماد المفسر لترتيب النزول.
- التنبيه إلى إضافات المفسر للتفسير وفق ترتيب النزول، وما اخفق فيه مما لابد أن يجتنب، وذلك يسهم في الخروج بجدوى هذه الطريقة في تفسير القرآن الكريم .

خامسا: الدراسات السابقة:

لم أدخر جهدا في البحث عن أي دراسة تخدم موضوع الرسالة داخل الجزائر أو خارجها، وكلّ ما حصلت عليه مجموعة من البحوث والدراسات، قسّمتها إلى نوعين ورتّبت البحوث داخل كل نوع وفق تاريخ صدورها ليظهر تسلسل الكتابة في الموضوع:

النوع الأول. الدراسات التي كتبت في موضوع التفسير وفق ترتيب النزول:

تعددت الدراسات المعاصرة التي كتبت في موضوع التفسير وفق ترتيب النزول، وقد تناول بعضها الحديث عن تفسير عبد الرحمن حبنكة الميداني، منها:

1. رسالة ماجستير بعنوان: **جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم منذ القرن الرابع عشر الهجري**، مقدمة من الباحث: أحمد بشير قباوة، بإشراف: د. محمد نبيل غنايم، لقسم الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة 2004م؛ قسّم الباحث هذه الرسالة إلى بابين تحدث في الأول عن التفاسير التقليدية ثم خصّ الثاني بالحديث عن التفاسير التجديدية، وذكر ضمنها التفاسير التجديدية الترتيبية التي رُتبت السور فيها بحسب ترتيب النزول، وقد دبّج الحديث عنها بمناقشة حكم هذا الترتيب ثم أشار باختصار دون تفصيل إلى منهج ثلاثة مفسرين ألّفوا وفقه ومنهم مفسرنا، فكان جهده فاتحة ما أُلّف حول منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، وهذا الأخير فصّلت فيه في البحث مع تتبع أثر ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر) الذي أغفله الباحث ولم ينبّه إليه أصالة.

2. رسالة دكتوراه بعنوان: **تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول –دراسة وتقويم–**، لطه محمد فارس، بإشراف د. نور الدين عتر، نوقشت سنة 2006م بجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان، وطُبعت لأول مرة عام 2011م بدار الفتح الأردنية، وهذه الرسالة من أهم الرسائل التي تحدثت عن موضوع التفسير وفق ترتيب النزول استقلالا وفصّلت في عدد من جوانبه وحيثياته، وشملت التفاسير الخمسة التي نُسجت وفقه.

واختيار الباحث للتطبيق على عدد من التفاسير جهد يذكر فيشكر، ولكن كثرة مجلداتها وتنوع مادتها العلمية جعل جهده ينقسم بينها، فغاب عنه عدد من المسائل الجوهرية التي يختص بها كل تفسير عن الآخر، وخاصة تفسير (معارج التفكر) حيث أغفل جملة من القضايا التي تتصل باعتماده لترتيب النزول أو أشار إليها بشكل عابر دون أن يحلّلها أو يحاول تقييمها وتقويمها؛ لذا فإن هذه الدراسة قد تشترك مع بحثي في بعض الجوانب خاصة النظرية منها، ولكنها تفترق عنه في الجوانب التطبيقية إذ لم

يعن الباحث بتتبع أثر ترتيب النزول وتطبيقات المفسر له أثناء تدبره لسور القرآن الكريم وهو أهم ما حرصت على بيانه.

أضف إلى ذلك أنّ الباحث وقع في خلل منهجي في الخطة التي اعتمدها في رسالته، فالقارئ له يقف على أنّه طبّق على التفاسير ببيان موقف أصحابها من القضايا ذات الصلة بترتيب النزول قبل أن يُعرّف بهم ويذكر سبب اختيارهم ومستندهم، حيث أرجأ ذلك إلى الباب الثاني والأخير من الرسالة.

3. مقال بعنوان: **تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول**، لمحمد علي لساني وسمية ذو القدرينا، نُشر في العدد الرابع عشر لمجلة العلوم الإسلامية بجامعة إعداد المدرسين بطهران سنة 2007م، تحدثا فيه عن إمكانية الوقوف على ترتيب النزول وضرورته وأهميته، وقد اعتمدا على التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة، وختماه بالإشارة إلى الطريق الأمثل في التعامل مع التفسير وفق ترتيب النزول، في محاولة للتوفيق بينه وبين التفسير وفق الترتيب المصحفي، وهذا المقال رغم كونه مختصرا إلى أنه تميّز بالدقة في التقاسيم التي نبّه إليها، كما حوى توجيهات قيّمة للكثير من المسائل التي طرحها.

4. بحث بعنوان: **منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول –قراءة في كتاب الجابري فهم القرآن الحكيم–**، د.سليمان محمد الدقور، شارك به الباحث في مؤتمر التعامل مع النصوص الشرعية الذي أقامته الجامعة الأردنية سنة 2008م، وقسّمه إلى شقين تحدث في الأول منهما عن مفهوم المنهج وموقف العلماء منه وجدواه العلمية والمنهجية وساهم بذلك في التأصيل له ولو باختصار، ثم حاول في الشق الثاني التطبيق على تفسير الجابري، وهو بحث مفيد نافع في بابه.

5. مقال بعنوان: **تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول –منبعه وفوائده–**، لمحمد مجلي نشر في العدد الأول لمجلة علوم الشريعة والقانون بالجامعة الأردنية سنة 2010م، عُني الباحث فيه بدراسة الروايات والآثار التي وردت في ترتيب سور القرآن حسب نزولها في المطلب الأول، ثم خصص المطلب الثاني للحديث عن فوائد تفسير القرآن حسب النزول، وهو بحث مختصر قدم فيه الباحث جهدا مشكورا خاصة في الحديث عن الروايات.

6. بحث بعنوان: **التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان**، لمصطفى مسلم شارك به في أحد المؤتمرات ونشره في ملتقى أهل التفسير سنة 2011م، ذكر فيه صاحبه دوافع ثلاثة مفسرين اعتمدوا التفسير وفق ترتيب النزول ومنهم مفسرنا، ثم حاول مناقشتها ليصل إلى عدم جدوى ما استحدثوه لضعف الحجج والبراهين التي استندوا عليها، ولم يُعن بسبر أغوار هاته التفاسير كما يوحي إلى ذلك عنوان البحث، فجاء البحث قاصرا على ما تضمنه.

7. رسالة دكتوراه بعنوان: **عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل**، مقدمة من الباحث عبد الرحمن نصر تحت إشراف: د. خيري أحمد الفقي، نوقشت سنة 2015م بجامعة الأزهر وطبعت لأوّل مرة سنة 2016م بدار الإمام الرازي المصرية، وعنوان هذه الرسالة يوحي إلى مضمونها فقد انصب جهد الباحث على بيان فساد فكرة التفسير وفق ترتيب النزول والآثار المترتبة عليها، وركّز على تفسيرين فقط، وهما التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة وتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، عرّف بهما باختصار وذكر أسباب اختيارهما لترتيب النزول والمآخذ على كل واحد منهما، دون أن يبحث في آثار اعتمادهما للفكرة فضلا عن تتبع تطبيقاتها ودراستها وتحليلها وتقويمها، وهو أهم ما اجتهدت بحثه في تفسير عبد الرحمن حبنكة الميداني فقد خصصت له معظم فصول البحث؛ وما يؤخذ على الباحث أنه انطلق في بحثه بأحكام مسبقة، بل حكم ببطلان التفسير وفق ترتيب النزول قبل دراسته كما صرح في العنوان.

8. مقال بعنوان: **التفسير المعاصر للقرآن الكريم وفق مرويات النزول –عرض ونقد–**، بقلم د. إبراهيم رحماني، نُشر في العدد الثاني من مجلة الشهاب التابعة لمعهد العلوم الإسلامية بجامعة الوادي في الجزائر، سنة 2016م، تحدث فيه الباحث عن الجهود المعاصرة في التفسير وفق ترتيب النزول ثم قام بنقدها باختصار، دون تفصيل سائرا على خطى ما قيل قبله ذما للتفسير وفق ترتيب النزول.

9. بحث بعنوان: **القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول**، لسعيد بوعصاب، طُبع لأول مرة سنة 2017م بدار الأمان المغربية، وهو من أنفع الدراسات المنهجية النقدية التي كُتبت بموضوعية حول التفسير وفق ترتيب النزول، وقد أفدت من تلك الإشارات التي تحدث فيها عنه رغم أنه لم يفصّل، بل كانت ومضات فقط نبّه بها إلى كيفية التعامل معه وطريقة مناقشته، ولم يكن لتفسير (معارج التفكر) فيها نصيب كبير، إذ ختم الباحث بقراءة نقدية لكتاب محمد الجابري (فهم القرآن الحكيم).

10. مقال بعنوان: **ترتيب النزول وأثره في تفسير القرآن الكريم**، بقلم د. إحسان طه ياسين، نُشر في العدد الثامن من مجلة الأطروحة ببغداد سنة 2017م، وهذا المقال ركّز فيه صاحبه على أهمية وضرورة ملاحظة مراحل التنزيل وأزمانه –ترتيب النزول– في تفسير القرآن الكريم، وهو وإن أشار إلى التفاسير التي ألفت وفق هذا الترتيب إلا أنه لم يطبق عليها أو يظهر أثر ترتيب النزول في أحدها، وقد مال إلى السطحية في بحث الموضوع مستشهدا في كثير من الأحيان بكلام مفسرنا في قضايا ترتيب النزول دون مناقشته أو تحليله فضلا عن تقييمه وتقويمه.

11. مقال بعنوان: **التفسير بحسب النزول عند الحداثيين –الشيخ عبد القادر ملا حويش أنموذجا–**، لآمنة فاضل فياض، نشر في العدد السابع والعشرين لمجلة جامعة بغداد للدراسات الإسلامية بالعراق سنة 2018م، وهذا البحث تميّز بكثرة المصادر التي أفادت منها الباحثة في حديثها عن التفسير وفق ترتيب النزول، وربما ما يؤخذ عليه هو الانتقاد الحاد له، حيث صنفته الباحثة ضمن المناهج المنحرفة في علوم القرآن الكريم ومناهج التفسير الحديثة، وأطلقت مصطلح "الحداثيين" على كل من ألّف على وفقه، والحقيقة أنّ هذا لا يستقيم إذ لابد من التفصيل، وترك الأحكام العامة التي لا تتماشى مع أصول المنهج العلمي السليم، وقد خصّت الباحثة القسم التطبيقي الذي أخذ الجزء الأكبر من المقال بالحديث عن تفسير (بيان المعاني)، إكمالا لمشوارها مع هذا التفسير الذي كانت جهود صاحبه في علوم القرآن هو موضوع رسالتها للماجستير.

وقد اقتصرت هنا على أهم الدراسات التي كُتبت في موضوع التفسير وفق ترتيب النزول، مما يشترك مع بحثي في بعض جوانبه بحيث يوهم موضوعها التداخل معه أو الاغناء عنه؛ وإلا فهناك بحوث أخرى أشارت إلى الموضوع استفدت منها وقيّدت ذلك في مواضعه.

ويتبيّن لنا مما ذكر آنفا، أنّ معظم الدراسات قد ابتعدت عن تتبع أثر اعتماد المفسرين لترتيب النزول في التفاسير التي أُلفت وفقه، فهي إما تناولت جميع التفاسير غير مخصصة أحدها بالدراسة والبحث والتدقيق، أو أنها اكتفت بالحديث عن التفسير وفق ترتيب النزول بشكل عام وناقشت دوافع وأسباب من ألّف وفقه دون الخوض في الدراسة التطبيقية، وحتى المقالات التي حاول أصحابها التطبيق على أحد التفاسير، فلم أقف على من طبّق على تفسير (معارج التفكر) كما هو الحال بالنسبة لغيره ممن ألّف قبله وبعده، وهو ما يجعل بحثي فاتحة ما ألّف في الموضوع استقلالا ويميّزه عن الدراسات السابقة له.

النوع الثاني. الدراسات التي ألفت حول تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر):

إذا كان النوع الأول يضم الدراسات التي تحدثت أساسا عن التفسير وفق ترتيب النزول وأشارت إلى تفسير (معارج التفكر)، فإن النوع الثاني يشمل الدراسات التي أُلّفت استقلالا حول التفسير ونبهت إلى قضية الترتيب النزولي للسور عند المفسر، وهذه أبرزها:

1. رسالة ماجستير بعنوان: **منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير**، مقدمة من الباحث: نادي حسن صبرا، إشراف: د. محمد المجالي، لكلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية سنة 2006م، وهذه الرسالة حازت قصب السبق في إفراد منهج المفسر بالبحث، وتخصيصه بدراسة مستقلة

محكمة وهذه مزيّة تحسب للباحث، إضافة إلى أنه تطرق إلى الحديث عن استخدام ترتيب النزول في التفسير باختصار، محاولا الإلمام بالكثير من القضايا المرتبطة بمنهج المفسر في تفسيره.

وهذه الرسالة رغم سبقها وأهميتها في الحديث عن منهج المفسر إلا أن ما يؤخذ عليها هو ضعف الاستقراء وعدم التفصيل في بعض القضايا ذات الارتباط الوثيق بالمنهج، مثل علم المناسبات الذي أشار إليه بشكل عابر بينما خصصته بمبحث مستقل في دراستي هذه؛ إضافة إلى أنّ صاحبها لم يوفّق كثيرا في التبويب للرسالة حيث جعل مثلا المبحث الخاص بالتفسير بالرأي في ثلاث صفحات رغم أهميته في إبراز جهود المفسر واجتهاداته والتي يدرج ضمنها تطبيقاته للتفسير وفق ترتيب النزول، بينما جعل المبحث السابق له في ثلاثين صفحة.

2. مقال بعنوان: **منهج عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)**، إعداد: جهاد محمد النصيرات وعبيدة عبد الحكيم أسعد، نشر بمجلة كلية الشريعة بالجامعة الأردنية في العدد الثاني الصادر سنة 2013م، وهذا البحث لم يأتيا فيه بجديد يذكر، بل كان مجرد تلخيص للرسالة التي يشترك معها في العنوان وقد سبق الإشارة إليها.

3. مقال بعنوان: **ضوابط التفسير عند عبد الرحمن حبنكة الميداني**، بقلم أسماء زعيتر ونصار أسعد، نُشر في العدد الأول من مجلة كلية الشريعة بجامعة دمشق سنة 2016م، وهو بحث فيه جهد مشكور عموما حاولا فيه الإلمام بالضوابط المعتمدة عند المفسر في تدبره للسور، وذكرا منها ترتيب الآيات والسور موضع الدراسة بحسب ترتيب النزول ضمن الضوابط الممهدة لعملية التفسير؛ ولما جاء البحث في مقال كانت المادة العلمية فيه مختصرة، ولو أُفرد الموضوع بالتأليف في كتاب أو رسالة لكان أنفع.

4. رسالة ماجستير بعنوان: **المناسبات عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه (معارج التفكر ودقائق التدبر)**، إعداد: آلاء اسماعيل عبد الرحمن، تحت إشراف: د. بشير محمد محمود، مقدمة لقسم الدراسات الإسلامية بجامعة المنيا بمصر سنة 2017م، وهذه الرسالة كما هو واضح من عنوانها اهتمت بدراسة أحد المباحث القرآنية في تفسير (معارج التفكر)، والذي خصصته بمبحث في هذه الرسالة لصلته الوثيقة بترتيب النزول، والباحثة بذلت جهدا في إبراز تلك الصلة، ويؤخذ عليها نقلها عن الرسالة التي خُصّت ببحث منهج المفسّر دون تحر، مما فوّت عليها تحرير عدد من القضايا وسيأتي التنبيه إليها في مواطنها.

5. رسالة ماجستير بعنوان: **جهود الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في الدراسات القرآنية**، من إعداد محمد محسن سرحان وإشراف: د. محب جلال عبد الفراج، مقدمة لكلية أصول

الدين والدعوة بالمنصورة جامعة الأزهر عام 2018م؛ عرّف فيها الباحث بالمفسر وتفسيره (معارج التفكر) باعتباره أهم جهوده في الدراسات القرآنية، وتطرّق لمسألة التفسير بحسب ترتيب النزول بشكل عابر دون تفصيل، وما يحسب لهذه الرسالة هو استقصاء جهود المفسر في الدراسات القرآنية إذ لم يفوّت منها شيئا، فهي مفيدة في بابها قاصرة على ما تضمنه عنوانها.

وهذه الرسالة أفادني بها صاحبها في زيارتي لمصر فهي غير متوفرة على الشبكة وكذلك الرسالة السابقة الذكر، فجزاهم الله خيرا.

6. رسالة دكتوراه بعنوان: **قواعد التدبر القرآني بين التنظير والتطبيق عند عبد الرحمن حبنكة الميداني (قواعد التدبر الأمثل ومعارج التفكر) أنموذجا**، إعداد: رشيد بوعافية، وإشراف: د. منصور كافي، مقدمة لقسم أصول الدين بجامعة باتنة .1. سنة 2019م، وعنوان الرسالة يدل على مضمونها فقد عُني فيها الباحث بقواعد تدبر القرآن الكريم تنظيرا وتطبيقا، فكان الحديث عن إتباع ترتيب النزول في التفسير من بين القضايا التي طرقها باعتبارها إحدى قواعد التدبر الأمثل، محاولا مناقشة بعض ما قاله المفسر والرد على من تحامل عليه فكانت له وقفات محمودة، ورغم ذلك فإن المسألة لم تأخذ حقها من البحث في الرسالة، حيث اهتم الباحث باختيار المفسر وما قاله في (قواعد التدبر) مقارنة مع ما جاء في (معارج التفكر) باختصار.

7. رسالة ماجستير بعنوان: **القضايا العلمية في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني –دراسة ونقد–**، إعداد: باسم فارس أبو رميلة، وإشراف: د. حسن السلوادي، مقدمة لقسم أصول الدين في جامعة الخليل بفلسطين عام 2019م، وهذه الرسالة كما هو واضح من عنوانها اختصت بإبراز القضايا العلمية في تفسير المعارج وهذا لم يكن مجال بحثنا، وإنما التقت مع رسالتي في القسم النظري منها عند التعريف بالمفسر وتفسيره، وما ألمحت إليه حول التفسير وفق ترتيب النزول، وقد اعتمد الباحث في ذلك على ما قاله غيره ووفر جهده للشق التطبيقي من الرسالة.

وبعد عرض هذه الدراسات يمكن القول: إنّ تفسير (معارج التفكر) لم يُعدم من البحث، فقد اهتم بدراسته عدد من الباحثين، وشملت هذه الدراسات جوانب متعددة منها ما تعلق بمنهجه العام ومنها ما انصب على قضايا محددة في تفسيره، وهي كما يظهر من عناوينها وخططها تعالج موضوعات محددة التقت في بعض جزئياتها مع رسالتي، وقد أفدت منها ولكن لم أقتصر عليها بل انتهجت أسلوب التتبع والاستقراء للوصول إلى موقف المفسر من المسألة محل الدراسة ثم اطلع على ما كُتب حولها، وهذا

ما يسر لي كشف بعض الهنات التي وقع فيها بعضهم وقد أشرت إليها في مواضع معينة.

وبناء عليه فلا نكاد نقف على أي دراسة علمية مؤصِّلة لموضوع التفسير وفق ترتيب النزول وأثره في تفسير عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دراسة نقدية تضيء جوانبه، وتجمع تطبيقات المفسر للتفسير وفق ترتيب النزول أثناء تدبره للسور والآيات وأبعادها المقاصدية، وتكشف عن أثر ترتيب النزول في مباحث علوم القرآن والتفسير ذات الاتصال الوثيق به، إبرازا للمزايا وتقويما للهنات؛ وهذا الذي سأحاول التركيز عليه وتجليته في هذا البحث -بإذن الله-.

سادسا. أهم المصادر والمراجع:

إنّ تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) يأتي في مقدمة مصادر هذا البحث، وهو مطبوع في خمسة عشر مجلد متوفر بدار القلم، والكتاب الثاني هو (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ) للمؤلف نفسه، والذي ضمنه أربعين قاعدة حاول امتثالها في تدبره للسور ويعتبر بمثابة مقدمة لتفسيره، فهذان المصدران كانا الأساس في معرفة أقوال الشيخ وآرائه وتتبع تطبيقاته للتفسير وفق ترتيب النزول.

إضافة إلى جملة من المصادر والمراجع أعانت في إخراج البحث في هذه الصّورة، حيث أفدت منها في بناء صرحه على تفاوت بينها، أذكر منها الكتب التي اهتمت بنزول القرآن عامة وبترتيب النزول والتفسير على وفقه على وجه الخصوص، منها: تنزيل القرآن لابن شهاب الزهري، وتأريخ القرآن لإبراهيم الأبياري.

وكذا بعض كتب التفسير، سواء منها ما رُتِّب على ترتيب المصحف مثل: جامع البيان للطبري، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، والتحرير والتنوير لابن عاشور، أو تلك التي وافقت المفسر ورتبت على ترتيب النزول، وما كُتب من دراسات حولها، وأذكر منها التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة، وبيان المعاني لملا حويش، ومحمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم لفريد مصطفى سليمان.

واستعنت أيضا ببعض كتب علوم القرآن، ومنها البرهان في علوم القرآن للزركشي والإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

كما أن هذا البحث لا يمكنه الاستغناء عن دواوين السنة وكتب الحديث مثل الصحيحين، وسنن الترمذي، ولا عن معاجم اللغة العربية، كجمهرة اللغة لابن دريد ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس.

ولم أهمل الدراسات الحديثة من الرسائل الجامعية والمقالات والبحوث التي لها صلة بالموضوع وقد أشرت إلى أهمها في الدراسات السابقة للموضوع.

وسيقف القارئ على جميع ما ذكرت وغيرها في ثبت المصادر والمراجع ضمن الفهارس الفنية التي ألحقتها بالبحث.

سابعا. منهج البحث:

تطلب تنوع المادة العلمية في هذا البحث الاعتماد على جملة من المناهج المتكاملة فيما بينها، فالدراسة النقدية لأثر ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم والتطبيق على تفسير (معارج التفكر) تستدعي اتباع المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية للبحث عامة، وترتكز عليه بشكل أخص في تتبع تطبيقات عبد الرحمن حبنكة الميداني للتفسير وفق ترتيب النزول أثناء تدبره للسور، وكذا خلال تتبع أثر هذا الترتيب في بعض مباحث علوم القرآن والتفسير في تفسيره التدبري، مما يسّر جمع الشواهد والأمثلة الكافية التي رُتبت وفق مواقعها في فصول البحث، ومكّن من الخروج بصورة متكاملة عن المسألة محل الدراسة، مما يعطي مصداقية للنتائج التي يتوصل إليها؛ وحتى أقف على هذه الأخيرة كان لابد من الاستناد إلى مناهج تتلاقح مع المنهج الاستقرائي وعلى رأسها المنهج التحليلي الذي عمدت إليه في تحليل المادة العلمية التي جمعت لأتمكن من الوصول إلى حقيقة أثر ترتيب النزول في التفسير، وأناقش ذلك بما يتسق وأمانة البحث العلمي وموضوعيته لأكشف الإيجابيات والسلبيات، ولأظهر محاسن ومساوئ التفسير وفق ترتيب النزول عامة فوظفت بذلك المنهج النقدي أيضا.

وإلى جانب هذه المناهج فقد تطلب الحديث مثلا عن أصول فكرة الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، وكذا البحث في مسار حركة التفسير وفق هذا الترتيب الاستعانة بالمنهج التاريخي.

وأثناء الحديث عن التفسير وفق ترتيب النزول في ثنايا البحث كان لابد من إظهار أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين التفسير وفق الترتيب المصحفي، كما كان لابد من المقارنة في الكثير من الأحيان بين موقف المفسر من المسألة محل الدراسة وما قرره غيره من العلماء والمفسرين؛ ولاشك أن السبيل إلى بحث مثل هذه القضايا يكون من خلال المنهج المقارن.

ولم يعدم البحث من المنهج الوصفي والذي يظهر جليا عند التعريف بالكتاب محل الدراسة وأجزائه وطبعاته، ووصف المنهج العام لصاحبه فيه.

ومن خلال ما سبق فإن المناهج المتبعة في البحث هي: المنهج الاستقرائي والتحليلي والنقدي والتاريخي والمقارن والوصفي.

*** منهجي في كتابة البحث:**

حرصت خلال كتابة أصل البحث وهوامشه على اعتماد منهجية اجتهدت في أن تكون موحدة، وهنا أشير إلى أهم ما ينبغي التنبيه عليه:

1. كتابة الآيات وتهميشها: اعتمدت في كتابة الآيات على رواية حفص عن عاصم، نقلا عن مصحف المدينة النبوية، وعزوتها إلى سورها في متن الرسالة تفاديا لإثقال الهوامش بكثرة الإحالات.

2. تخريج الأحاديث: حاولت تخريج معظمها تخريجا فنيا بإحالتها إلى مظانها من دواوين السنة، فإذا كان الحديث في الصحيحين اكتفيت بالعزو إلى أحدهما، أما إذا كان في غيرهما فقد حرصت على الإشارة إلى أقوال النقاد فيه تصحيحا وتضعيفا.

3. التعريف بالأعلام: اجتهدت في الترجمة للأعلام الذين نقلت أقوالهم أو ورد ذكرهم في متن الرسالة عند أوّل ذكر لهم غالبا، لكن قد أُأخره لضرورة مثل التعريف بالمفسر محل الدراسة؛ وقد اكتفيت بتعريف موجز لهم، وأحلت على مصادر الترجمة لمن أراد الاستزادة؛ وتركت الترجمة للصحابة والتابعين والأئمة المشهورين الذين علا ذكرهم وانتشر فضلهم، فلا توفي قدرهم ترجمة يسيرة، واستثنيت من ذلك الترجمة لابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما لأنهما شكلا أحد أهم حلقات التفسير وفق ترتيب المصحف؛ واكتفيت في الترجمة للباحثين المعاصرين بمن كان للترجمة له صلة وثيقة بالبحث مثل الترجمة لأصحاب التفاسير وفق ترتيب النزول، واستغنيت عن الترجمة للبقية طلبا للاختصار وتحاشيا لإثقال الهوامش.

4. عملية التوثيق والتهميش:

– اتبعت منهجا ثابتا في كامل البحث، حيث أرجأت ذكر معلومات النشر والطباعة إلى ثبت المصادر والمراجع، واكتفيت بذكر اسم المؤلَّف ثم اسم المؤلِّف ثم الجزء أو المجلد وأختم بذكر الصفحة، أما إذا ذكر أحدهما في المتن فلا أكرره في الهامش، وذلك لتجنب الإطالة في ذكر المصادر والمراجع وخاصة في بعض المواضع التي قد أذكر في الهامش الواحد عددا منها.

وقد ذكرت اسمي المؤلَّف والمؤلِّف كاملين –غالبا– عند أول ورودهما في البحث، ثم اختصره بعد ذلك، مثل: (معارج التفكر ودقائق التدبر) و(قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ) أقول: (معارج التفكر) و(قواعد التدبر)، وهذا بالنسبة للمصادر التي اعتمدتها في البحث.

أمّا كتب التراجم فاختصرت أسماءها في الهامش حتى عند أوّل ذكر لها تخفيفا، واكتفيت بالإحالة على ثبت المصادر والمراجع.

وبالنسبة للكتب التي تتفق في أسمائها فقد ذكرت اسمها كاملا عند كل ذكر لها تجنبا للالتباس بينها، مثل: البرهان في علوم القرآن للزركشي، والبرهان في تناسب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي.

– حرصت على استخدام الطبعة نفسها في تعاملي مع الكتب؛ فإذا تعددت الطبعات نبهت إلى ذلك مثل: (قواعد التدبر الأمثل) الذي اعتمدت فيه الطبعة الخامسة، فإذا نقلت من الطبعة الأولى أشرت إلى ذلك.

– إذا كانت المعلومة في صفحتين متتاليتين أشرت إلى كليهما فأقولُ مثلا: ص34– 35، وإذا اعتمدت على أكثر من صفحتين أقول: ص34 وما بعدها، أما إذا كانت الصفحات غير متتالية فأقول مثلا: ص34– ص39.

– لم ألتزم بذكر "المصدر نفسه" أو "مصدر سابق" عند ذكر تفسير (معارج التفكر) أو (قواعد التدبر)، وذلك لتجنب الوقوع في الخلط لتكررها كثيرا.

ثامنا. خطة البحث:

جعلت البحث في أربعة فصول، قبلها مقدمة وبعدها خاتمة ومجموعة من الفهارس.

المقدمة: تضمنت عناصرها المعروفة في الدراسات الأكاديمية.

الفصل الأول: تحدثت فيه عن الترتيب المصحفي والترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، وتفرع إلى مبحثين؛ المبحث الأول خصصته للحديث عن الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم والذي قُسّم بدوره إلى مطالب ثلاثة، مهّدت في الأول منها للموضوع من خلال الإشارة إلى مراحل جمع القرآن الكريم وترتيب السور في المصحف الشريف، ثم جعلت الثاني للتفصيل في مذاهب العلماء في هذا الترتيب، وختمته بالكلام عن تفسير القرآن الكريم وفق هذا الأخير.

المبحث الثاني تطرقت فيه للترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، وقد قسّم كسابقه إلى مطالب ثلاثة، خُصّ الأول منها بالحديث عن الروايات الواردة في هذا الترتيب، ثم تحدثت في الثاني عن مصادر البحث فيه وفوائد معرفته وأصول فكرة ترتيب السور على وفقه، ثم ختمت بالحديث في الثالث عن تفسير القرآن الكريم على ترتيب نزول السور.

الفصل الثاني: خصصته للمفسر وتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)، واشتمل على مبحثين؛ المبحث الأول جعلته للتعريف بعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وتفسيره، وقسمته إلى مطالب ثلاثة؛ بدأت في الأول منها بالتعريف بالمفسر، وحاولت في الثاني التعريج على جهوده التفسيرية قبل الشروع في تأليف تفسيره التدبري للقرآن الكريم الذي عرّفت به في خاتمة مطالب هذا المبحث.

المبحث الثاني وفيه تحدثت عن مصادر عبد الرحمن حبنكة الميداني في تفسيره (معارج التفكر)، ونثرت مادته في ثلاثة مطالب؛ ضم الأول الحديث عن أهم مصدرين له وهما القرآن الكريم والسنة النبوية، والثاني كان للكلام عن نقل المفسر لأقوال الصحابة والتابعين وعنايته بعلوم العربية، أما الثالث فأظهرت من خلاله رجوع المفسر إلى أهل الكتاب وكذا إعماله لفهمه واجتهاده.

الفصل الثالث: جعلته للحديث عن الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، وتفرعت مادته إلى مبحثين؛ المبحث الأول عرضت فيه لاختيار المفسر لترتيب السور وفق نزولها في تفسيره من خلال مطالبه الثلاثة؛ حيث تحدثت في الأول منها عن أصالة فكرة ترتيب السور حسب نزولها عند المفسر وكذا عن التأصيل لها واعتمادها منهجا، وركزت في الثاني على ذكر وتقويم الأسس العامة لمنهج التفسير وفق ترتيب النزول عند المفسر، وأفردت المطلب الأخير بعرض وتقويم أسباب ودوافع اختيار المفسر للمنهج.

المبحث الثاني أوضحت فيه ملامح التفسير وفق ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، وقد بيّنتها في ثلاثة مطالب؛ الأول خصصته لتدبره التحليلي، والثاني لتدبره الموضوعي أما الثالث فحاولت من خلاله إبراز البعد المقاصدي في تطبيقات المفسر لترتيب النزول.

الفصل الرابع: تناولت فيه أثر ترتيب النزول في بعض مباحث علوم القرآن والتفسير في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، وتطلبت مادته العلمية تقسيمه إلى مباحث ثلاثة؛ خُصّ المبحث الأول منها بالكلام عن أثر ترتيب النزول في مبحث المكي والمدني وقسّمته إلى ثلاثة مطالب؛ وضّحت في الأول منها الاصطلاح المعتبر عند المفسر في تعريفه له ومسلكه في بيان السور المكيّة، وفي الثاني بحثت مسألة الآيات المدنية في السور المكية في تفسير المعارج، أما الثالث فكان زبدة ما سبق عرضه وجاء تحت عنوان المكي والمدني حسب ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر) –عرض ونقد–.

المبحث الثاني تطرقت فيه لأثر ترتيب النزول في علم المناسبات في تفسير (معارج التفكر)، من خلال مطلبين اثنين؛ جعلت الأول منها مدخل إلى علم المناسبات، أما الثاني فعرضت فيه لموقف

المفسر من هذا العلم، وتوظيفه لترتيب النزول في بيان المناسبات بين السور ثم بيّنت الآثار العلمية التي ترتبت عن ذلك، جامعة مضمونه تحت عنوان: علم المناسبات حسب ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر) –عرض ونقد–.

المبحث الثالث أُفرد بالحديث عن أثر ترتيب النزول في تدبر آيات القصص القرآني في تفسير (معارج التفكر)، وفرعته إلى مطلبين؛ عرضت في الأول منها للقصص القرآني عند عبد الرحمن حبنكة الميداني من خلال التعريف بالقصص القرآني والتنبيه على موقف المفسر من أهم القضايا المتعلقة بها، والتعريج على منهجه في عرضها، أما المطلب الثاني فقد وقفت فيه على مكانة الترتيب النزولي في دراسة آيات القصص القرآني، ثم حاولت المقارنة بين دراسة القصة القرآنية وفق ترتيب النزول وترتيب المصحف، وختمته بذكر الآثار العلمية لتدبر القصص القرآني وفق ترتيب النزول عند المفسر، كل ذلك بحثته تحت عنوان القصص القرآني وفق ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) –عرض ونقد–.

خاتمة: وتأتي في نهاية البحث لتضم أهم النتائج التي توصلت إليها، وترصد أهم التوصيات.

ويحسن التنبيه بعد هذا العرض إلى أن طبيعة المادة العلمية للفصل الثالث والرابع خاصة أي غالب القسم التطبيقي، اقتضت أن يكون حجمهما أكبر من سابقيهما نظرا لكثرة النماذج، وهذا من متطلبات البحث فلا ينطبق عليها شرط عدم التناسق، وقد توخيت الملاءمة والمجانسة بين مطالب المبحث الواحد ثم بين مباحث الفصل الواحد قدر المستطاع.

تاسعا. صعوبات البحث:

يقف بين الباحث وما يصبو إلى تحقيقه والوصول إليه في البحث جملة من الصعوبات، ولعل من أهم ما واجهني مدة إعداد الرسالة ما ألخصه في النقاط الآتية:

– سعة المادة العلمية وتشعّبها، فالتفسير محل الدراسة التطبيقية وحده في ستة عشر مجلدا في كل مجلد زهاء ستّ مئة صفحة، وقد حوى علما غزيرا حتى أطلق عليه بعضهم بالموسوعة التفسيرية رغم عدم اكتماله، لذا فإنّ تتبع أثر ترتيب النزول يحتاج إدامة نظر في التفسير وقراءته عديد المرات، وتقويمه يحتاج إلى حاسّة نقدية، وفكر متقد، ولتحقيق ذلك لابد من جهد كبير، وبحث متواصل وتفرغ تام، ويصعب إدراك ذلك كله وقد بذلت فيه المستطاع.

– وجدت صعوبة في ضبط خطة البحث والوصول إلى تصور منهجي لكيفية معالجته، مع الإلمام بجميع جوانب الموضوع.

– قلة الدراسات السابقة في التفسير وفق ترتيب النزول عامة وحول منهج عبد الرحمن حبنكة على وجه الخصوص عند بداية البحث في الرسالة، وصعوبة الحصول على ما كُتب حولهما إذ أغلب الدراسات غير منشورة وفي عديد البلدان، مما تطلب ضرورة الوصول إلى أصحابها وطلبها وقد تمكّنت ولله الحمد من الظفر بها ولو في مرحلة متقدمة من البحث.

وفي الختام أحمد الله الذي أعان وسدد وفتح علي بجمع هذه المادة العلمية، فله الحمد والمنّة أولا وآخرا؛ وإني لا أدعي مقاربة الكمال في هذه الرسالة فضلا عن بلوغه، فهي جهد مبتدئ مقل، ولكن حسبي أني اجتهدت، وإلى الصواب قصدت، فإن وُفقت فيما بذلت فهو فضل من الله ﷻ، وإن كان غير ذلك فمن زلات قلمي وتقصيري، وأسأل الله أن لا يحرمنا أجر المجتهدين.

وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول:

الترتيب المصحفي والترتيب النزولي لسور القرآن الكريم

المبحث الأول:

الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم

المبحث الثاني:

الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

أنزل الله سبحانه وتعالى على عباده رسلا مبشرين ومنذرين وأيّدهم بالآيات والبراهين التي انقضت بوفاتهم، وكان خاتمهم سيّد الأولين والآخرين محمدا ﷺ الذي كانت معجزته قرآنا حفظه الله في حياته وبعد وفاته، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر: 9].

أوحى به الله إليه بواسطة جبريل عليه السلام وكان نزوله منجما طيلة فترة نبوته، منه ما نزل قبل الهجرة ومنه ما نزل بعدها حتى اكتمل نزوله قبل انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

دوّن عدد من الصحابة رضي الله عنهم القرآن الكريم أوّلا بأوّل ولم يفُتهم منه شيء فقد كانوا يلازمون النبي ﷺ في حلّه وترحاله، وسار على هذا النهج الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم فجمعوا القرآن الكريم في الصحف ثم نسخوها في المصاحف على عهد عثمان رضي الله عنه ورتُبت خلاف الترتيب الذي نزلت على وفقه؛ لذا فإن الترتيب المصحفي الموروث إلى يومنا هذا على غير ترتيب نزول القرآن الكريم ولكل منهما خصائصه وأهميته.

والحديث عن الترتيب المصحفي والترتيب النزولي من الأهمية بمكان ولا يستقيم البحث في أحدهما إلا بالتعريج على الآخر، ولاسيما وقد اقترن بهما أحد أهم العلوم الخادمة لكتاب الله ﷻ وهو علم التفسير.

وكان هذا دافعا للتقديم للبحث بفصل من مبحثين؛ الأول منهما خصِّص للحديث عن ترتيب المصحف وما يرتبط به ويمهّد لموضوع البحث.

والثاني للحديث عن ترتيب النزول وتفسير القرآن الكريم على وفقه.

المبحث الأول:
الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم.

نزل القرآن الكريم مفرقا على النبي ﷺ زمن نبوّته ورسالته، فكان ﷺ كلما نزل عليه الشيء من القرآن أمر الصحابة ﷺ أن يضعوا كل آية في موضعها من السورة حتى اكتملت جميعها، لا يظهر ما نزل منها مفرقا وما نزل دفعة واحدة إلا عن طريق الروايات الثابتة في ذلك.

وإن كان النبي ﷺ أرشد كُتاب الوحي إلى مواضع الآيات من السور زمن النزول كما قال بذلك جمهور العلماء[1]، فإن الترتيب المصحفي للسور لم يكن الحال فيه كذلك فقد اختُلف فيه وخالف بدوره الترتيب النزولي، وهذا ما يسوقنا إلى بسط الحديث حوله في المطالب الثلاثة لهذا المبحث؛ وذلك من خلال التعريج على جمع القرآن الكريم وترتيب سوره في مطلب أول، ثم بيان مذاهب العلماء في هذا الترتيب في مطلب ثان، وأختم بالمطلب الثالث الذي جعلته تحت عنوان تفسير القرآن الكريم وفق الترتيب المصحفي.

[1] _ صدّر ابن الزبير الغرناطي باب التعريف بترتيب السور بقوله: "اعلم أولا أن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين". البرهان في تناسب سور القرآن، ص182. ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، مج1، ص256/ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ج2، ص394.

المطلب الأول: جمع القرآن الكريم وترتيب سوره.

إن الناظر في ترتيب السور في المصحف يجدها قد جُمعت على نسق بديع، وترتيب فريد، أبهر الدارسين وأعجز عن محاكاته المعاندين حفظ الله ﷻ به كتابه من كل تحريف وتغيير.

وفي هذا المطلب أتحدث بإيجاز عن كتابة القرآن الكريم وجمعه في الصحف ثم نسخه في المصاحف في فرع أوّل، لانتقل بعد ذلك إلى التعريف بالترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم باعتباره مصطلحا مركبا في فرع ثان، إذ إنّ من أصول المنهج العلمي السويّ التعريف بالمصطلحات التي لها ارتباط وثيق بأصل الدراسة.

الفرع الأول: جمع القرآن الكريم.

تكفّل الله سبحانه وتعالى بحفظ القرآن الكريم فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: 9] وسخّر لذلك الرجال الذين يصونونه من كل تحريف وتبديل.

وفي هذا الفرع حديث عن جمع القرآن الكريم[1] وكتابته في مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: كتابة القرآن الكريم في عهده ﷺ.

حُفظ القرآن الكريم على عهده ﷺ في الصدور كما حُفظ في السطور، فقد اتخذ النبي ﷺ كُتّابا للوحي مهمتهم جمع وضبط وتوثيق كل آية تنزل عليه ﷺ فور سماعها من فيه الشّريف، فكان كل ما نزل عليه القرآن، أمر كُتاب الوحي بتدوينه.

عن عثمان ﷺ: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من كان يكتب فيقول: «ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»[2].

---

[1] _ يطلق جمع القرآن ويراد به في اصطلاح العلماء أحد معنيين، الأول: جمعه في الصدور بمعنى حفظه واستظهاره، والثاني: جمعه في السطور بمعنى كتابته وتدوينه سواء كانت كتابة مفرقة أو مرتبة وهو المعنى المراد التفصيل فيه؛ وأضاف بعضهم جمعا ثالثا وهو جمعه بمعنى تسجيله تسجيلا صوتيا أمثال فهد الرومي. ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، ج1، ص197/ مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص65/ جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، فهد الرومي، ص4 وما بعدها/ علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص161 وما بعدها/ المدخل إلى علوم القرآن الكريم، محمد فاروق النبهان، ص105.

[2] _ أخرجه الترمذي في سننه، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، رقم: 3086، ج5، ص272. وعلق عليه قائلا: "هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث عوف، عن يزيد الفارسي عن ابن عباس". وقال الألباني: ضعيف. ينظر: ضعيف سنن الترمذي، ص380- 381.

وكما أمرهم ﷺ بتدوين القرآن الكريم فقد نهاهم عن كتابة غيره مخافة أن يختلط به ما ليس منه، فعن أبي سعيد الخذري ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه»[1].

ومن ثمّ فإن اللّبنة الأولى لكتابة القرآن الكريم كانت في العهد النبوي بأمر منه ﷺ، فهي كما قال الحارث المحاسبي[2]: "ليست بمحدثة؛ فإنّه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنّه كان مفرّقا في الرِّقاع والأكتاف والعسب"[3].

فلم ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن كلّه مكتوبا، ولكنّه لم يُجمع في مصحف واحد مُرتّبا على ترتيب معين لانتفاء الحاجة إليه، حيث كان الوحي ينزل فيحفظه القراء ويوثّقه الكتبة، فعن زيد بن ثابت ﷺ قال: "قُبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جُمع في شيء"[4].

وهذه من أهم مزايا وخصائص الجمع في هذه المرحلة حيث أنّ القرآن الكريم كان مرتب الآيات ضمن السورة الواحدة وهو المشهور عند جمهور العلماء، لكن هذه السور لم تكن مجموعة في صحيفة واحدة وفق ترتيب موحد[5].

قال الخطابي[6]: "كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ، لكن غير مجموع في مصحف واحد ولا مرتب السور"[7].

---

[1] _ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، رقم: 3004، ص1201.

[2] _ هو: الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله، كان عالما فهما، وواعظا مبكيا، ولد بالبصرة ومات ببغداد، له مصنفات في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم، منها: فهم السنن، آداب النفوس، الرعاية لحقوق الله ﷻ، توفي سنة: 243هـ. ينظر: طبقات الصوفية، أبو عبد الرحمن السُّلمي، ص58/ تهذيب التهذيب، ج2، ص116- 117/ الأعلام، الزركلي، ج2، ص153.

[3] _ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص206.

[4] _ وقال الخطابي: "إنما لم يَجمع ﷺ القرآن في المصحف لما كان يترقَّبُه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته، فلمّا انقضى نزوله بوفاته، ألهم الخلفاء الراشدين ذلك، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة، فكان ابتداء ذلك على يد الصدِّيق، بمشورة عمر". ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، ج9، ص12/ الإتقان، السيوطي، ج2، ص377.

[5] _ ينظر باقي خصائص ومزايا جمع القرآن في عهده ﷺ: مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص202 وما بعده/ جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، فهد الرومي، ص10/ المدخل إلى علوم القرآن، محمد فاروق النبهان، ص109.

[6] _ هو: حمد بن محمد بن إبراهيم البستي أبو سليمان، الفقيه المحدث الأديب، من أهل كابل، من مصنفاته: معالم السنن في شرح سنن أبي داود، شرح البخاري، بيان إعجاز القرآن، توفي سنة: 388هـ. ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص1205/ طبقات الفقهاء الشافعية، ابن الصلاح، ج1، ص467.

[7] _ فتح الباري، ابن حجر، ج9، ص12/ الإتقان، السيوطي، ج2، ص378. ينظر: مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص204/ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص119 وما بعدها.

ويقول مكي بن أبي طالب[1]: "القرآن كان على عهد النبي ﷺ، متفرقا في صدور الرجال؛ لأنه نزل في نيف وعشرين سنة، شيئا بعد شيء وقيل: في عشرين سنة.

وتواترت الرواية أنه مات ﷺ، وهو غير مجموع في صحف لم يختلف في ذلك"[2].

المرحلة الثانية: جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

انتقل النبي ﷺ إلى جوار ربّه وتولى الخلافة بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قائد حروب الرّدة التي شارك فيها عدد من حُفاظ القرآن الكريم واستشهد الكثير منهم خاصة في موقعة اليمامة[3]، التي خشي الصحابة رضي الله عنهم بعدها وعلى رأسهم عمر رضي الله عنه ضياع شيء من القرآن الكريم بوفاة بعض القراء والحفظة، فأشاروا على الصديق رضي الله عنه بجمع القرآن الكريم في مصحف واحد[4]، وقد استحسن رأيهم بعد حسن النّظر في الأمر واقتناعه بضرورة ذلك، فأمر زيد بن ثابت رضي الله عنه الذي كان يكتب الوحي بين يديه ﷺ بخط القرآن الكريم ونسخ ما كُتِب في العهد النبوي وجمعه في مصحف واحد بعدما كان مفرقا، يقول ابن عطية[5]: "كان القرآن في مدة رسول الله ﷺ متفرقا في صدور الرجال وقد كتب الناس منه في صحف

---

(1) _ هو: مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي أبو محمد، مقرئ عالم بالتفسير والعربية، ولد بالقيروان سنة 355هـ، ثم سكن قرطبة، من مؤلفاته: مشكل القرآن، والإبانة عن معاني القراءات، توفي سنة: 432هـ. ينظر: إنباه الرواة، القفطي، ج1، ص302/ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج5، ص274/ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج17، ص591.

(2) _ الإبانة عن معاني القراءات، ص105.

(3) _ وقعت سنة 11هـ تحت قيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث وُجّه في جيش كبير إلى بني حنيفة أتباع مسيلمة الكذاب في اليمامة، فدارت بينهما معركة حامية ختمت بنصر المسلمين وقتل مسيلمة وهزيمة قومه وعودة من سلم منهم إلى الإسلام، وقد استشهد فيها عدد كبير من الصحابة رضي الله عنهم من الأنصار والمهاجرين ومن بينهم سبعون قارئا. ينظر: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مج2، ص218 وما بعدها/ البداية والنهاية، إسماعيل ابن كثير، ج6، ص359 وما بعدها/ الفتوح الإسلامية عبر العصور، عبد العزيز العمري، ص103.

(4) _ وقد حكى تفصيل ذلك أخبر الناس بما وقع، فعن زيد بن ثابت أنّه قال: "أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر، فقال أبو بكر: إنّ عمر أتاني فقال: إنّ القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالنّاس...وإنّي لأرى أن تجمع القرآن، قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتّى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلّم، فقال أبو بكر: إنّك رجل شابّ عاقل ولا نتّهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، تتبع القرآن فاجمعه...قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله النّبي ﷺ، فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتّى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرّقاع والأكتاف والعسُب وصدور الرجال...". أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: 128]، رقم: 4402، ج6، ص71.

(5) _ هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي أبو محمد، مفسر فقيه أندلسي، روى عن الحافظ أبيه، وأبو عبد الله محمد بن فرج، وروى عنه: أبو بكر بن أبي جمرة، وأبو محمد عبد المنعم، من أشهر مؤلفاته: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب=

وفي جريد...، فلما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق ﷺ بجمع القرآن مخافة أن يموت أشياخ القراءة كأُبي وزيد وابن مسعود فيذهب فندبا إلى ذلك زيد بن ثابت فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد منه ﷺ"[1].

وكان ذلك بإشراف ودعم عدد من كبار الصحابة وفق منهج دقيق رسمه الصديق، يدل على شدة حرصهم ودقة استيثاقهم[2].

يقول زيد بن ثابت: "فتتبعت القرآن أجمعه في الرقاع والأكتاف، والعسب وصدور الرجال"[3]، وعلّق عليه ابن حجر[4] قائلا: "كان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط"[5].

وبعد هذه الجهود "تم جمع القرآن في صحف بإشراف أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة وأجمعت الأمة على ذلك دون نكير، وكان ذلك منقبة خالدة لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل لأبي بكر في الإشراف، ولعمر في الاقتراح، ولزيد في التنفيذ"[6]، ولكل من ساهم في جمعه.

وقد اتفق العلماء على أنه قد كُتبت نسخة واحدة فقط، حُفظت عند إمام المسلمين أبي بكر ﷺ، وكانت مرتبة الآيات داخل السورة الواحدة باتفاق، أما ترتيب السور فمختلف فيه هل رُتبت في هذا الجمع أم أن ترتيبها كان بعده أي على عهد عثمان ﷺ[7].

=العزيز، توفي سنة: 541هـ وقيل سنة 546هـ. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، ج3، ص439/ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري، ج2، ص526.

[1] _ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج1، ص49.

[2] _ وقد بُني هذا المنهج على أسس أربعة: ما كتب بين يدي الرسول ﷺ، ما كان محفوظا في صدور الرجال، أن لا يقبل شيئا مكتوبا حتى يشهد شاهدان على أنه كتب بين يدي الرسول ﷺ، أن لا يقبل من صدور الرجال إلا ما تلقوه من فم الرسول ﷺ. ينظر تفصيل المسألة: جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين السخاوي، ص163/ الإتقان، السيوطي، ج2، ص383/ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص206/ المدخل إلى علوم القرآن، محمد فاروق النبهان، ص112- 113/ جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، فهد الرومي، ص15.

[3] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، رقم: 4986، ج6، ص183.

[4] _ هو: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني أبو الفضل، المصري الشافعي ويعرف بابن حجر، من أئمة العلم والتاريخ، ولد سنة 773هـ، من مؤلفاته: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، نزهة النظر، النكت على ألفية العراقي، توفي سنة: 852هـ. ينظر: الضوء اللامع، السخاوي، ج2، ص36/ شذرات الذهب، العكري، ج7، ص270/ البدر الطالع، الشوكاني، ج1، ص61.

[5] _ فتح الباري، ج9، ص14.

[6] _ جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، عبد القيوم السندي، ص21. ينظر: المدخل إلى علوم القرآن، محمد فاروق النبهان، ص113.

[7] _ ينظر: مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص207- 208/ المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله الجذيع، ص102 وما بعدها.

المرحلة الثالثة: نسخ الصحف في المصاحف في عهد عثمان ﷺ.

تميزت فترة حكم عثمان ﷺ بالفتوحات التي اتسعت بها رقعة الدولة الإسلامية، وشهدت انتشار الصحابة في الأمصار فاتحين ومعلمين، وكان كل واحد منهم يُقرِئُ الناس بالحرف الذي تلقاه من رسول الله ﷺ، ونتيجة لذلك اختلف القُراء في أوجه القراءات وكان بعضهم يُنكر على بعض، فسخّر الله ﷻ من تفطن إلى هذا الخلاف وهو حذيفة بن اليمان ﷺ، حيث أرشد أمير المؤمنين عثمان ﷺ لاختلاف المسلمين من أهل الشام والعراق في وجوه القراءة[1] وصادف أنّ عثمان ﷺ أيضا وقع له نحو ذلك[2]، فقرر بعد استشارة أعلام الصحابة جمع القرآن الكريم ونسخه بالمصاحف ثم الإرسال بها إلى الأمصار إماما لهم عند الاختلاف، وأمر بحرق ما عدا تلك النسخ.

وقد أقره الصحابة ﷺ على هذا العمل الذي سلك فيه أسلم أصول الدقة والتحري[3]، ولعل أبرز ما تميّز به جمع القرآن الكريم على عهده هو ترتيب السور على الوجه المعروف منذ جيل التلقي إلى يومنا هذا.

---

(1) _ عن أنس بن مالك ﷺ: "أنّ حذيفة بن اليمان، قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة: "أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك"، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم"، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف، أن يحرق". أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، رقم: 4987، ج6، ص183- 184.

(2) _ وهي تلك الحادثة التي رواها أبو بكر بن أبي داود عن أبي قلابة قال: "لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرّجُل، والمعلم يعلم قراءة الرّجُل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين...حتى كَفَر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان، فقام خطيبا فقال: "أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافا، وأشد لحنا، اجتمعوا يا أصحاب محمد واكتبوا للناس إماما"". يقول محقق الكتاب محب الدين عبد السجان عن إسناد الأثر: رجاله ثقات، إلا أن أبا قلابة كثير الإرسال، ولم يصرح هنا بمن حدث به، فيكون الإسناد منقطعا. كتاب المصاحف، ج1، ص204.

(3) _ ينظر تفصيل خطوات هذا الجمع وأهم خصائصه ومزاياه وإقرار الصحابة له وتلقيه بالقبول: مناهل العرفان، ج1، ص211 وما بعدها/ علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص172 وما بعدها/ جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، فهد الرومي، ص24 وما بعدها.

قال الحاكم[1]: "جمع القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جُمع بعضه بحضرة الرسول ﷺ، ثم جمع بعضه بحضرة أبي بكر الصديق، والجمع الثالث هو في ترتيب السورة، كان في خلافة عثمان بن عفان ﷺ أجمعين"[2]، وهذا الترتيب يطلق عليه الترتيب المصحفي وهو مخالف للترتيب النزولي.

وممَّا تقدم يمكن القول: أنّ جمع القرآن الكريم وحفظه مزية تفخر بها الأمة الإسلامية، حيث ضُبط كتابة في عهده ﷺ، وجُمع في مصحف واحد على عهد أبي بكر الصديق ﷺ، ثم نُسخ في صُحف مرتبة الآيات والسور خلاف ترتيب نزولها على عهد عثمان ﷺ، وقد حظيت بالقبول عند السلف ونُقلت بالتواتر إلى الخلف.

قال الزركشي[3]: "فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة وكان هذا الاتفاق من الصحابة سببا لبقاء القرآن في الأمة ورحمة من الله على عباده وتسهيلا وتحقيقا لوعده بحفظه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر: 9] وزال بذلك الاختلاف واتفقت الكلمة"[4] على هذا الترتيب الذي اشتهر بالترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم، والذي سيأتي التعريف به.

الفرع الثاني: ترتيب سور القرآن الكريم.

أنزل الله ﷻ الكتاب نورا وهداية للبشرية جمعاء يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم، يُنظم لهم أمور حياتهم وشؤونهم الدينية والدنيوية.

وكما رتَّب القرآن الكريم للناس حياتهم فقد رتِّب هو أيضا على نسق واحد وترتيب فريد، سيأتي التعريف به لأهميته، إذ إنّ الوقوف على المراد منه بيانا للمصطلح وتفريقا بينه وبين الترتيب النزولي، يمثل لبنة أولى ومدخلا أساسا لفهم مقاصد البحث.

---

(1) _ هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم، أبو عبد الله النيسابوري الشافعي، الشهير بالحاكم، من أكابر علماء الحديث والمصنفين فيه، ولد سنة 321هـ، من مؤلفاته: تاريخ نيسابور، المستدرك على الصحيحين، معرفة علوم الحديث، توفي سنة: 405هـ. ينظر: تاريخ مدينة السلام، الخطيب البغدادي، مج3، ص509/ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، ج4، ص155.

(2) _ المستدرك على الصحيحين، كتاب: التفسير، ج2، ص249.

(3) _ هو: محمد بن بهادر بن عبد الله بدر الدين الزركشي أبو عبد الله، الشافعي المصري الفقيه الأديب المفسر، ولد سنة 745هـ، من مصنفاته: البرهان في علوم القرآن، البحر المحيط في أصول الفقه، إعلام الساجد بأحكام المساجد، توفي سنة794هـ. ينظر: الدرر الكامنة، ابن حجر، ج5، 133/ شذرات الذهب، عبد الحي العكري، ج6، ص335 .

(4) _ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص237.

وانطلاقا من ذلك فقد خصصت هذا الفرع للتعريف بالمصطلح المركب "ترتيب السور" إفرادا وتركيبا.

1. تعريف الترتيب لغة واصطلاحا:

أ. لغة:

الترتيب من رَتَب يرتُب رُتوبا، أي ثبت ودام فلم يتحرك، واستقر في المقام الصعب ورتّبه ترتيبا أثبته وأقرّه وجعله في مرتبته، يُقال: رتب رتوب الكعب أي انتصب انتصابه، والتُّرْتُبُ والتُّرْتَبُ كلّه الشيء المقيم الثابت، وأمر تُرْتَبٌ على تُفْعَلٍ بضم التاء وفتح العين أي ثابت، والرُّتْبةُ والمرْتَبَةُ المنزلة عند الملوك ونحوها، وعيش راتب: ثابت دائم، وأمر راتب أي دار ثابت، يقال يترتب عليه كذا يستقر وينبني[1].

فالترتيب إذا يطلق ويراد به في اللغة الشيء الثابت المستقر في مكانه، فما المراد به في الاصطلاح؟

ب. اصطلاحا:

"جعل الأشياء الكثيرة بحيث يُطلق عليها اسم الواحد ويكون لبعض أجزائه نسبة إلى البعض بالتقدم والتأخر"[2].

وإذا نظرنا إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي في محاولة للتوفيق بينهما، نجد أنّ الترتيب هو وضع عدد من الأشياء التي يكون بينها رابط مشترك على نسق معين لتكون ثابتة مستقرة، فهل ينطبق هذا المعنى على ترتيب السور؟

قبل الإجابة عن هذا لابد من معرفة المراد بلفظ "السورة" أولا.

2. تعريف السورة لغة واصطلاحا:

أ. لغة:

السُّورة في اللغة مفرد سُوَرٌ، بالهمز وبتركه وأَكثر القراء على ترك الهمزة فيها[3].

---

[1] _ ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، ج1، ص150/ لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، ج1، ص409/ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، ج2، ص481/ المعجم الوسيط، مجموعة مؤلفين، ج1، ص326.

[2] _ التعريفات، علي الجرجاني، ص78. ينظر: الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد الأنصاري، ص69/ التوقيف على مهمات التعاريف، محمد المناوي، ص170.

[3] _ ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص434/ لسان العرب، ابن منظور، ج4، ص384/ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز آبادي، ج1، ص84-85/ التعاريف، المناوي، ص419/ الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، ص778-779/ تاج العروس، الزبيدي، ج11، ص485.

فمن قال بالهمز جعلها من سؤر الكأس، والسؤر البقية والفُضلة، يقال: هذه سؤرة من القرآن وسؤر منه، أي بقيّة وقِطعة منه فكأنها قطعة مفردة من جملة القرآن.

ومن قال بغير الهمز جعلها من سؤرة الأسد بمعنى القوة، لأن قوة السُّورة أكثر من قوة الآية، أو من السُّور بمعنى الجماعة، يقال: لفلان سُور من الإبل أي جماعة، والسورة مشتملة على جماعة الآيات، أو من السُّور المحيط بالأبنية لأن السورة محيطة بالآيات والكلمات والحروف، مشتملة على المعاني: من الأمر والنهى، والأحكام، وقيل بارتفاعها لأنّها كلام الله أو لكونها منزلة كمنازل القمر.

ويُقال: إن السور (بلا همز) بمعنى الرفعة والمنزلة، وسور القرآن هكذا متفاوتة: بعضها فوق بعض من جهة الطول والقصر، وكذا في الفضل والشرف والرُتبة، قال النابغة[1]:

ألم تـــر أن الله أعطـــاك ســـورة تـــرى كـــلّ ملـــك دونهـــا يتذبـــذب[2].

معناه: أعطاك رفعة وشرفا ومنزلة.

فكل سورة من القرآن لها درجة رفيعة ومنزل عال يرتفع القارئ منها إلى درجة أخرى ومنزل آخر إلى أن يستكمل القرآن، ويُقال: "سُميت السُّورة من القرآن سُورَة لأَنها درجة إلى غيرها"[3].

ومن ثمّ فإن منشأ الخلاف بين اللغويين في معنى "السورة" راجع إلى أصل الكلمة هل تهمز أم أنّها غير مهموزة؟ وهذا يسوقنا إلى البحث عن المعنى الاصطلاحي لها.

ب. اصطلاحا:

عُرّفت السورة في الاصطلاح بتعاريف عدة اختلفت في مبانيها واتفقت في معانيها ولعل من أضبطها وأوضحها:

تعريف الجعبري[4] قال: "حدّ السورة: قرآن يشتمل على آي ذي فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث

---

[1] _ هو: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري أبو أمامة، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء، ذكر أهل الرواية أنه إنما لقب النابغة لقوله "فقد نَبَغتْ لهم منا شؤون...". ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ج11، ص5/ جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، ص253.

[2] _ ديوان النابغة الذبياني، ص25.

[3] _ ينظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ج8، ص608.

[4] _ هو: إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبري الخليلي أبو إسحاق، ولد سنة 640هـ، كان عالما بالقراءات من فقهاء الشافعية، له نحو مئة كتاب أكثرها مختصر، منها: كنز المعاني شرح حرز الأماني، نزهة البررة في القراءات العشرة، عقود الجمان في تجويد القرآن، توفي سنة: 732هـ. ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ج14، ص184/ الدرر الكامنة، ابن حجر، ج1، ص55/ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين العليمي، ج2، ص152.

آيات"[1].

وقال الكافيجي[2]: "السورة الطائفة المترجمة توقيفا، أي: المسماة باسم خاص"[3].

وعرّفها الزرقاني[4]: "بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع"[5].

ويقول فضل حسن عباس: "السورة في الاصطلاح هي طائفة من القرآن لها بداية ونهاية، واسم خاص بها يميّزها عن غيرها بتوقيف من النبي ﷺ"[6].

وهذا التعريف من أشمل وأوضح ما قيل في معنى السورة، فهو المختار المعتمد هنا، وبه يتضح المراد من هذا البحث[7].

3. تعريف الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم باعتبار تركيبه:

يتجه الباحثون في موضوع "الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم" إلى بحث مذاهب العلماء في ترتيب السور مباشرة دون الخوض في بيان المراد منه، إذ لم أقف في تعريف هذا المركب الإضافي إلا على تعريفين لباحثين معاصرين:

- تعريف "طه عابدين طه" الذي قال فيه: "المراد بترتيب القرآن الكريم: كيفية وضع كل سورة من سور القرآن الكريم في موضعها الذي عليه اليوم في المصحف من حيث الترتيب بصورة ثابتة"[8]، وقد أوجز الباحث وأحسن التعريف به وبيان المراد منه.
- تعريف "نادي صبرا" الذي حاول فيه إسقاط المعنى الاصطلاحي لكلمة "الترتيب" على مصطلح "ترتيب القرآن"، فقال: "فترتيب القرآن بهذا المعنى هو: جعل سوره بشكل يطلق عليها اسم

---

[1] _ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص264/ الإتقان، السيوطي، ج2، ص347.

[2] _ هو: محمد بن سليمان الرومي الحنفي الكافيجي أبو عبد الله، كان إماما مبرزا في علم الكلام والنحو واللغة، ولد سنة: 788هـ، من مؤلفاته: التيسير في قواعد التفسير، شرح قواعد الإعراب، شرح كلمتي الشهادة، توفي سنة: 879هـ. ينظر: بغية الوعاة، السيوطي، ج1، ص117/ الشقائق النعمانية، طاشكبري زادة، ص40.

[3] _ التيسير في قواعد علم التفسير، ص35.

[4] _ هو: محمد عبد العظيم الزرقاني المصري، من علماء الأزهر تخرج بكلية أصول الدين وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث، من مؤلفاته: مناهل العرفان في علوم القرآن وبحث في الدعوة والإرشاد، توفي سنة: 1367هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ج6، ص210.

[5] _ مناهل العرفان، ج1، ص285.

[6] _ إتقان البرهان في علوم القرآن، ج1، ص443.

[7] _ فعنوان الرسالة: "أثر ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم" وقد يتبادر إلى ذهن القارئ له أنّ المراد ترتيب النزول عامة، والذي يشمل ترتيب السور وترتيب الآي، ولكن البحث محصور في ترتيب السور فقط دون البحث عن ترتيب الآي إلا بما يخدم الموضوع، لذا كان معرفة المراد من "السورة" من الأهمية بمكان.

[8] _ ترتيب سور القرآن الكريم دراسة تحليلية لأقوال العلماء، ص31. (مقال)

واحد (القرآن) ويكون لبعضها علاقة واتصال ببعضها الآخر من سابق ولاحق (المناسبات بين السور) فيكون لكل سورة مرتبة خاصة بها تؤدي دورها ووظيفتها من خلالها"[1].

أوضح الباحث في هذا التعريف بأنّ مجموع السور يُطلق عليه القرآن، محاولة منه التوفيق بينه وبين المعنى الاصطلاحي لكلمة "الترتيب"، مما جعله يجزم بأنّ لكل سورة اتصالا بالسورة التي قبلها وبعدها، رغم أن المسألة فيها خلاف بين العلماء، سيأتي تفصيله.

وبناء على ذلك فإن التعريف الأول أشمل وأوضح، فترتيب السور يُطلق ويراد به: ترتيبها في المصاحف التي بين أيدينا اليوم، المبدوءة بسورة (الفاتحة) المختتمة بسورة (الناس) وفق صورة ثابتة، لم تتغير مذ تم جمعها في مصحف واحد على عهد الصحابة ﷺ؛ أما إذا أُريد غير ذلك فهو يقيّد فيُقال مثلا: ترتيب السور بحسب النزول، ترتيب السور المكية، ترتيب السور المدنية وغيرها من المصطلحات.

وخلاصة القول: أنّ من أسمى مظاهر الحفظ الذي تكفل الله ﷻ به للقرآن الكريم تلك العناية الخاصة التي لقيها مذ نزول الوحي، حيث حفظ في الصدور والسطور ولم يقبض النبي ﷺ إلا وقد كتب كلّه، ثم حمل الراية بعده أصحابه ﷺ فكان هو محور حياتهم عُنوا به، وحرصوا على جمعه وضمه في مصحف واحد، وكان ذلك عبر مراحل تُوجت بالإجماع على المصحف الإمام في عهد الخليفة عثمان ﷺ، والذي رُتّبت فيه الآيات والسور وفق الترتيب المصحفي وتواتر نقله على صورته الثابتة المفتتحة بسورة (الفاتحة) والمختتمة بسورة (الناس) في الأمة الإسلامية جيلا بعد جيل، فاتفق العلماء من السلف ومن جاء بعدهم على توقيفية ترتيب آياته أما ترتيب السور فقد اختلف في حكمه على مذاهب سيأتي تفصيلها.

[1] _ منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، ص34.

المطلب الثاني: مذاهب العلماء في الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم.

رُتب المصحف الذي بين أيدينا اليوم والذي جمع سور القرآن الكريم وفق ترتيب خاص ثابت انقسم العلماء في حكمه بين قائل بالتوقيف وقائل بالاجتهاد، وآراؤهم مبثوثة في كتب علوم القرآن بحيث لا يكاد يخلو من ذكرها مصنّف قديم وحديث؛ فتُذكر الأقوال وتُناقش الآراء والأدلة أحيانا، وفي أحايين أخرى يكتفي أصحابها بذكر الرأي الراجح، معتمدون في ذلك على الأدلة التي تدعَم القول الذي ذهبوا إليه انتصارا لما ترجّح لديهم.

وجملة هذه الأقوال ثلاثة:

القول الأول: إنّ ترتيب السور توقيف من النبي ﷺ.

القول الثاني: إنّ ترتيب السور اجتهاد من الصحابة في عهد عثمان ﷺ.

القول الثالث: إنّ ترتيب بعض السور توقيفي وبعضها الآخر اجتهادي.

ويرجع سبب هذا الاختلاف بين العلماء إلى ما ورد من روايات مأثورة عن الصحابة ﷺ، احتج بها كل فريق على صحة ما ذهب إليه، ويمكن الجمع بين الفريق الثاني والثالث لأنّ كليهما يقول بالاجتهاد وإن اختلفوا في عدد السور كلّها أو بعضها؛ ومن ثمّ يمكن حصر الخلاف في فريقين اثنين الأول يمثله القائلون: إن ترتيب السور توقيفي لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، والثاني يمثله القائلون: إن ترتيب السور اجتهادي فيه مجال لرأي ونظر الصحابة ﷺ.

وسأعرض هذه الأقوال محاولة في ذلك إجمال القول في موقف وأدلة كل منهما، للوصول إلى الرأي الراجح الذي يليق بإعجاز القرآن الكريم ويبرز مكانته.

الفرع الأول: القائلون بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم.

ذهب جماعة من العلماء إلى أن ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه اليوم توقيفي لا مجال للرأي فيه والاجتهاد، فقد تلقاه النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن ربّ العزة، كما تلقى ترتيب الآيات فلم توضع سورة في موضعها إلا بأمر منه ﷺ، "وحين جمعه أبو بكر الصديق ﷺ ثم عثمان كان جمعه على الترتيب الذي ترك رسول الله ﷺ عليه الناس"[1].

[1] _ المقدمات الأساسية في علوم القرآن، الجذيع، ص131.

قال البغوي[1]: "كان رسول الله ﷺ يُلقن أصحابه ويُعلّمهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل صلوات الله عليه إياه على ذلك، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السور التي يذكر فيها كذا...فثبت أنّ سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيبه، فإنّ القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا... فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة، وكان هذا الاتفاق من الصحابة سببا لبقاء القرآن في الأمة رحمة من الله ﷻ على عباده، وتحقيقا لوعده في حفظه، كما قال الله ﷻ"[2].

وقد نسب الآلوسي[3] هذا القول إلى جمهور العلماء قائلا: "وأمّا ترتيب السور ففي كونه اجتهاديا أو توقيفيا خلاف والجمهور على الثاني"[4]، أي: على أنّ الترتيب توقيفي من النبي ﷺ وليس باجتهاد من الصحابة ﷺ.

وأكّد ذلك عدنان زرزور بقوله: "أما ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنّه توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء"[5].

وأقوال العلماء في النص على أنّ هذا الترتيب توقيفي كثيرة[6].

قال أبو عمرو الداني[7]: "القول عندنا في تأليف السور وتسميتها وترتيب آيها في الكتابة، أنّ ذلك توقيف من رسول الله وإعلام منه به لتوفر مجيء الأخبار بذلك واقتضاء العادة بكونه كذلك

---

[1] _ هو: الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي أبو محمد، الملقب بركن الدين ومحيي السنة، محدث فقيه مفسر، من مؤلفاته: شرح السنة، معالم التنزيل، والتهذيب في فقه الشافعية، توفي سنة 516هـ وقيل سنة 510هـ. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج2، ص136/ طبقات الشافعية، السبكي، ج7، ص75.

[2] _شرح السنة، ج4، ص521 وما بعدها.

[3] _ هو: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي أبو الثناء، مفسر محدث وأديب، من أهم تصانيفه: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الرسالة اللاهورية، والأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية، توفي سنة: 1270هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ج7، ص176/ معجم المفسرين، عادل نويهض، ص665.

[4] _ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج1، ص27.

[5] _ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص137.

[6] _ ينظر تفصيلها: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص257/ الإتقان، السيوطي، ج2، ص405 وما بعدها/ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص287 وما بعدها.

[7] _ هو: عثمان بن سعيد بن عثمان من موالي بني أمية، المعروف بأبي عمر الداني لنزوله بدانية بالأندلس، الإمام العلم أحد حفاظ الحديث وعالم بالقراءات، ولد سنة 371هـ، من مؤلفاته: النشر في القراءات العشر، التيسير في القراءات السبع، المقنع في رسم المصاحف ونقطها، توفي سنة: 444هـ. ينظر: معرفة القراء الكبار، الذهبي، ج1، ص406/ نفح الطيب، المقري، ج2، ص135.

وتواطؤ الجماعة واتفاق الأمة عليه"[1].

وقال ابن الزبير الغرناطي[2]: "إن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين"[3].

والأدلة التي حاول أصحاب هذا الفريق تدعيم مذهبهم بها كثيرة منها ما هو نقلي ومنها هو عقلي ولعل من أبرزها:

أ. **أدلتهم من المأثور**: استند أصحاب هذا القول إلى عدد من الأحاديث والروايات المأثورة، ومن أهمها:

1. ما روي من تسمية سورة (الحمد لله رب العالمين) بفاتحة الكتاب، فعن عُبادة بن الصامت ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[4]، وفي هذه التسمية ما يدل على أنّ ترتيب سور القرآن الكريم كان بأمر منه ﷺ وإلا لما كان لتسميتها بفاتحة الكتاب معنى، وقد صح أنّ هذه السورة ليست أوّل سور القرآن نزولا[5]، فهي إذا فاتحة الكتاب من حيث الترتيب والتلاوة.

2. ما روي في تحزيب الصحابة ﷺ للقرآن الكريم.

فعن أوس بن حذيفة الثقفي قال: "سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاثة عشرة، وحزب المفصل وحده"[6].

وقد ذكر ابن حجر الأثر وعلّق عليه قائلا: "فهذا يدل على أنّ ترتيب السور على ما هو في

---

(1) _ البيان في عد آي القرآن، ص40.

(2) _ هو: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر، المحدث المؤرخ المفسر المقرئ، ولد سنة 627هـ، من مؤلفاته: ملاك التأويل في متشابه اللفظ من التنزيل، البرهان في ترتيب سور القرآن، توفي سنة: 708هـ. ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ج1، ص188/ شذرات الذهب، عبد الحي العكري، ج6، ص16.

(3) _ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، ج1، ص90.

(4) _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الآذان، باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات، رقم: 756، ج1، ص151. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج». أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم: 395، ج1، ص170.

(5) _ ينظر: جمال القراء، السخاوي، ص39/ المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، أبو شامة المقدسي، ص31/ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص206/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص158 وما بعدها/ المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ص110.

(6) _ أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: تحزيب القرآن، رقم: 1393، ج2، ص524. قال الألباني: ضعيف. ينظر: ضعيف أبي داود، ج2، ص69.

المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ"[1].

ودلالة هذا الأثر على أنّ ترتيب السور كان منذ زمن النبوة واضحة، فكيف يمكن لهم أن يحزبوا القرآن الكريم ويقسموه إلى سور وهم لا يعرفون ترتيبه، ويختلفون بينهم في الترتيب! فقد كان الحفظة من صحابة رسول الله ﷺ يتلونه على ترتيب معروف لديهم، ويختمونه في كل أسبوع أو شهر أو أكثر من ذلك أو أقل وفق هذا الترتيب، يبدؤون من أوّله إلى أن يختموه.

3. استدلوا كذلك بجملة من الأحاديث والروايات التي جاء فيها بيان من النبي ﷺ وإشارة إلى ترتيب السور متوالية وفق ترتيبها في المصحف اليوم، منها:

ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها "أنّ النّبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جمع كفَّيه، ثمّ نفث فيهما فقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرّات"[2].

وفي هذا دلالة على أنّه ﷺ كان يرتب السور على ترتيبها في المصحف.

4. استندوا كذلك إلى قول النبي ﷺ: «أعطيت مكان التّوراة السّبعَ، وأعطيت مكان الزّبور المئين، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفضّلت بالمفصّل»[3].

وهذا الحديث استدل به أبو جعفر النحاس[4] على أنّ القرآن الكريم كان مؤلفا في عهد رسول الله ﷺ وأعقبه بقوله: "فهذا التأليف من لفظ رسول الله وهذا أصل من أصول المسلمين لا يسعهم جهله لأن تأليف القرآن من إعجازه ولو كان التأليف عن غير الله ﷻ ورسوله عليه السلام لسوعد بعض الملحدين على طعنهم"[5].

---

[1] _ فتح الباري، ج9، ص43.

[2] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات، رقم: 5017، ج6، ص190.

[3] _ أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند الشاميين: حديث واثلة بن الأصقع رضي الله عنه، رقم: 16982، ج28، ص188 . قال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، عمران بن القطّان...حسن الحديث، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، غير أبي داود الطيالسي فمن رجال مسلم، وأخرج له البخاري تعليقا".

[4] _ هو: أحمد بن محمد النحاس أبو جعفر، النحوي المصري، أخذ عن الأخفش والمبرد والزجاج، من مؤلفاته: إعراب القرآن، معاني القرآن، الكافي في النحو، توفي سنة: 338هـ. ينظر: إنباه الرواة، القفطي، ج1، ص136/ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج1، ص99.

[5] _ الناسخ والمنسوخ، ص482.

وبناء على هذا، فما دام تقسيم السور على هذا النحو كان معروفا على عهده ﷺ كما جاء في الحديث، فإن ترتيب السور داخل هذا التقسيم كان من باب أولى مُرتبا بفعله معروفا محفوظا.

ب. أدلتهم من المعقول:

1. استدلوا بترتيب السور المتجانسة في القرآن الكريم بأنّها لم تُرتب على نسق واحد، فلو كان الترتيب اجتهاديا لروعي ضمها إلى بعضها، فالحواميم جُعلت متتالية بخلاف المسبحات، والطواسين رُتبت بخلاف المبدوءات بـ (ألم).

2. قالوا إنّ جمع القرآن الكريم في الصدور كان قبل جمعه في السطور، وقد كان من الصحابة ﷺ من جمعه حفظا في عهده ﷺ مرتبا في آياته وسوره، ثم جُمع بعد ذلك في مصحف واحد حفظا له من التحريف.

3. إجماع الصحابة على المصاحف التي كتبت في العهد العثماني، وتحريق ما سواه من الصحف والمصاحف المخالفة، كما أمرهم بذلك عثمان ﷺ[1].

4. أكّدوا ما ذهبوا إليه بما بين سور القرآن الكريم من اتساق وانسجام بعضها مع بعض، وقالوا أنّ المناسبات بين السور لا تقل عن النظم ووجه ارتباط الآيات بعضها ببعض في السورة الواحدة.

5. قالوا إن العقل لا يمكن أنّ يتصور أن هذا الكتاب الذي حظي بعناية وإجلال وتقديس في الملأ الأعلى والأدنى بما لم يلقه كتاب سابق، تُرِك دون أن توضع كل سورة في موضعها وموقعها الذي يلائمها.

وهذه أهم الأدلة التي أثبت بها أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه، وهي أدلة قويّة رجّح بها عدد من كبار العلماء القول بتوقيفية الترتيب المصحفي، وقد أوجزت القول فيها وأرشد القارئ إلى من فصّل

---

[1] _ عن أنس ﷺ أن عثمان ﷺ بعد نسخ الصحف في المصاحف "أرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف، أن يحرق". أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: جمع القرآن، رقم: 4987، ج6، ص183- 184.

وقد رُوي أنّ ابن مسعود ﷺ رفض إحراق مصحفه في البداية لما وصل إليه المصحف الذي أرسله إليه عثمان ﷺ من المدينة إلى الكوفة، لكنّه بعد ذلك رجع إلى ما أجمع عليه الصحابة ﷺ. ينظر: المصاحف، ابن أبي داود، ص88 وما بعدها/ المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد أبو شهبة، ص326 وما بعدها/ دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص62/ المصاحف المنسوبة للصحابة والرد على الشبهات المثارة حولها، محمد بن عبد الرحمن الطسان، 336 وما بعدها.

فيها من العلماء والباحثين[1].

الفرع الثاني: القائلون بالاجتهاد في ترتيب سور القرآن الكريم.

سبق أن أشرت إلى ضمّ القائلين بالاجتهاد في ترتيب بعض سور القرآن الكريم إلى القائلين بالاجتهاد في ترتيب جميع السور، وبناء على ذلك قُسّم هذا الفرع إلى قسمين إليك بيان كل واحد منها بإيجاز:

أولا: القائلون أنّ ترتيب السور من اجتهاد الصحابة ﷺ في عهد عثمان ﷺ.

ذهبت طائفة من العلماء إلى أنّ ترتيب السور على ما هو عليه اليوم في المصحف اجتهادي، رُتّب على هذا النسق باجتهاد من الصحابة ﷺ في عهد عثمان ﷺ، وذهب إلى هذا القول عدد من كبار العلماء بل نسبه بعضهم إلى جمهور العلماء[2].

قال أبو بكر الباقلاني[3]: "يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد رتب سوره على ما انطوى عليه مصحفُ عثمان، كما رتب آياتِ سوره، ويمكن أن يكون قد وكَلَ ذلك إلى الأمة بعده، ولم يتولّ ذلك بنفسه ﷺ، وأن هذا القول الثاني أقربُ وأشبه أن يكون حقا"[4].

قال السيوطي[5]: "وأما ترتيب السور فهل هو توقيفي أيضا أو هو باجتهاد من الصحابة خلاف، فجمهور العلماء على الثاني منهم مالك والقاضي أبو بكر في قوليه"[6].

وقد أكّد أصحاب هذا الرأي ما ذهبوا إليه بجملة من الأدلة، أبرزها:

---

(1) _ ينظر: الإتقان، السيوطي، ج2، ص411/ إتقان البرهان، فضل عباس، ج1، ص452 وما بعدها/ علوم القرآن، نور الدين عتر، ص44- 45/ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان زرزور، ص138.

(2) _ أمثال: ابن الزبير الغرناطي، والزركشي، وابن حجر. ينظر: البرهان في تناسب سور القرآن، ج1، ص182/ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص257/ فتح الباري، ج9، ص40.

(3) _ هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر الباقلاني البصري، الفقيه الأصولي المتكلم المشهور، ولد سنة 338هـ، من مؤلفاته: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، الانتصار للقرآن، وهداية المسترشدين، توفي سنة: 403هـ. ينظر: تاريخ مدينة السلام، الخطيب البغدادي، ج3، ص364/ ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض، ج7، ص44.

(4) _ الانتصار للقرآن، ج1، ص60.

(5) _ هو: عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر بن محمد الخضيري أبو الفضل الأسيوطي الشافعي، كان إماما حافظ ومؤرخا أديبا، ولد سنة: 809هـ، له نحو 600 مصنف في شتى الفنون منها: الدر المنثور في التفسير بالمأثور وكشف المغطى في شرح الموطأ وتدريب الراوي، توفي سنة 911هـ. ينظر: حسن المحاضرة، السيوطي، ج1، ص335/ هدية العارفين، إسماعيل البغدادي، مج1، ص534.

(6) _ الإتقان، ج2، ص405.

أ. أدلتهم من المنقول:

1. ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: "صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلتُ: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعة، فمضى. فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها..."[1].

وهذا الحديث فيه دلالة على أنّ النبي ﷺ لم يرتب بين السور في قراءته، فقدّم سورة (النساء) على سورة (آل عمران) أي عكس ترتيبهما.

2. استدلوا بما روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: "قلت لعثمان بن عفان ﷺ: ما حملكم أن عمدتم إلى براءة وهي من المئين وإلى الأنفال وهي من المثاني، فجعلتموهما في السبع الطوال، ولم تكتبوا بينهما سطرا: (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ قال عثمان: كان النبي ﷺ مما ينزل عليه الآيات، فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له: "ضع هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا"، وتنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك، فكانت الأنفال من أول ما نزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فمن هناك وضعتها في السبع الطول، ولم أكتب بينهما سطرا: (بسم الله الرحمن الرحيم)"[2].

3. استدلوا بما روي عن عائشة ﷺ في قصة الرجل العراقي الذي استفسر عن تأليف المصحف، قائلا: "يا أم المؤمنين أريني مصحفك، قالت: لم؟ قال لعلي أؤلف القرآن عليه فإنّه يقرأ غير مؤلف، قالت: وما يضرك أيه قرأت قبل، إنّما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار...وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده"[3].

ب. أدلتهم من المعقول:

1. قالوا: لو كان ترتيب السور بتوقيف من النبي ﷺ لظهر وفشا ونقل مثله، وفي العلم بعدم ذلك النقل دليل على أنّه لم يكن منه توقيف فيه.

2. قالوا: إن الخلاف في ترتيب السور دون الخلاف في ترتيب الآيات في سورها، مما يدل على أن أمر ترتيب السور مغاير لموضوع ترتيب الآيات.

---

[1] _ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم: 772، ج1، ص306.

[2] _ أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: الصلاة، باب: الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، رقم: 786، ج2، ص90. قال شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل: "إسناده ضعيف ومتنه منكر"، وقال الألباني: ضعيف. ينظر: ضعيف أبي داود، ج1، ص306 وما بعدها.

[3] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، رقم: 4993، ج6، ص185.

3. استدلوا باختلاف مصاحف الصحابة ﷺ فيما بينها ومخالفتها لترتيب المصحف العثماني، فترتيب مصحف ابن مسعود غير ترتيب مصحف عليّ وكذا مصحف أبيّ بن كعب؛ وقالوا لو كان عندهم عن النّبي ﷺ توقيف في ترتيب سور القرآن الكريم لما اختلفوا.

وهذه من أهم الأدلة التي استند إليها أصحاب هذا القول، وقد فصّل فيها القائلون بها وغيرهم ممن بحث في مسألة ترتيب السور وذكروا غيرها مما لا يسع المقام لتفصيلها[1].

ثانيا: القائلون بترتيب بعض السور توقيفي وبعضها الآخر اجتهادي.

ذهب أصحاب هذا القول إلى أنّ ترتيب أكثر سور القرآن الكريم كان بتوقيف منه ﷺ، والقليل منه كان باجتهاد من الصحابة ﷺ، بعضهم حصرها في سورتي (التوبة) و(الأنفال)، وبعضهم لم ينص على عدد معين من السور.

فالسور التي ثبتت الأدلة في ترتيبها توقيفي، وما لم يرد فيه دليل قالوا إنّ النبي ﷺ تركه لاجتهاد الصحابة.

وقد قال به جمع من العلماء، وإليك نتف من أقوالهم:

قال ابن عطية: "وظاهر الآثار أن السبع الطول والحواميم والمفصل كان مرتبا في زمن النبي عليه السلام، وكان في السور ما لم يرتب، فذلك هو الذي رتب وقت الكتب"[2].

قال ابن حجر: "ترتيب السور بعضها إثر بعض كان يقع بعضه منهم بالاجتهاد..."[3].

وقال السيوطي: "والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي إلا براءة والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سورا ولاء على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ فلا يرد حديث قراءته النساء قبل آل عمران؛ لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب، فلعله فعل ذلك لبيان الجواز"[4].

---

[1] _ ينظر: الانتصار، الباقلاني، ج1، ص278/ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص257/ الإتقان، السيوطي، ج2، ص405/ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص287/ المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ص327/ اللآلئ الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين، ص38.

[2] _ المحرر الوجيز، ج1، ص50.

[3] _ فتح الباري، ج9، ص15.

[4] _ الإتقان، ج2، ص411. قال البيهقي في (المدخل): "كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتب سوره وآياته على هذا الترتيب، إلا الأنفال وبراءة". ينظر: المصدر السابق، ج2، ص408.

وقد عدّ الإمام الزرقاني هذا المذهب أمثل الآراء، قائلا: "وقد ذهب إلى هذا الرأي فطاحل العلماء، ولعله أمثل الآراء"[1].

بل نسب محمد الطاهر بن عاشور[2] هذا القول إلى الجمهور، حيث قال في سياق حديثه عن ترتيب السور: "على أنّ الجمهور جزموا بأن كثيرا من السور كان مرتبا في زمن النبي ﷺ"[3]، واستدلوا بجملة من الأدلة كانت مزيجا بين أدلة القول الأول والثاني[4].

الفرع الثالث: مناقشة وترجيح.

استند العلماء القائلون منهم بالتوقيف أو بالاجتهاد في جميع أو بعض سور القرآن الكريم إلى أدلة من المأثور وأخرى من المعقول دعّموا بها صحة ما ذهبوا إليه، والأقوال الثلاثة ليس فيها ما يقدح في الدين أو يطعن في صحّة القرآن الكريم فقد صدرت من علماء أجلاء؛ لذا فإنّ الترجيح بينها ليس بالأمر الهيّن الذي يمكن لمبتدئة مثلي أن تفصل فيه، ولكنّي سأستند إلى ما ذهب إليه العلماء في محاولة للخروج بالرأي الذي استقر عليه أكثر من بحث المسألة قديما وحديثا.

أقول وبالله التوفيق: إنّ المتتبع لأقوال العلماء المحققين والباحثين الذي عُنُوا بمسألة ترتيب السور في المصحف، يلحظ أنّ منهم من رجّح أحد الأقوال على الآخر بما ثبت لديه من أدلة وقد نبهت على بعضهم سابقا، بينما حاول آخرون التوفيق بين الأقوال بالتنبيه إلى موضع الخلاف، حيث اعتبر الزركشي وسبقه في ذلك ابن الزبير الغرناطي أنّ الخلاف بين القول بالتوقيف والقول بالاجتهاد يرجع إلى اللفظ، لأن الصحابة ﷺ جمعوا القرآن الكريم على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ، ومن قال بالاجتهاد اعترف بأنهم رتبوه بحسب ما سمعوه، "فآل الخلاف إلى أنّه هل ذلك بتوقيف قولي أم مجرد استناد فعلي؟"[5].

يقول ابن الزبير: "فكيف ما دار الأمر، فمنه ﷺ عُرِف ترتيب السور، وعلى ما سمعوه منه بنوا جليل ذلك النظر، فإذًا إنما الخلاف هل ذلك بتوقيف قولي أو بمجرد استناد فعلي بحيث بقى لهم فيه

---

[1] _ مناهل العرفان، ج1، ص290.

[2] _ هو: محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين التونسين، وشيخ جامع الزيتونة، مفسر لغوي نحوي، من مصنفاته: التحرير والتنوير، موجز البلاغة، ومقاصد الشريعة الإسلامية، توفي سنة: 1284هـ. ينظر: شجرة النور الزكية، محمد مخلوف، ج1، ص560/ الأعلام، الزركلي، ج6، ص173.

[3] _ التحرير والتنوير، ج1، ص88.

[4] _ ينظر تفصيلها: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص257/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص405/ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص290/ المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ص329.

[5] _ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص257.

مجال للنظر؟ فهذا موضع الخلاف"[1].

وبناء على ما تقدم فإنّ أصحاب هذا الرأي حسموا الأمر بين الفريقين في محاولة للتوفيق بينهما، وسلّموا أنّ ترتيب السور كان بتوقيف منه ﷺ، وحصروا الخلاف في دائرة التوقيف القولي أو الاستناد الفعلي.

أما السيوطي فقد فصّل في المسألة وذكر أدلة القولين ونسب القول بالاجتهاد إلى جمهور العلماء كما سبق بيانه، ثم اختار "أن ترتيب كل السور توقيفي، سوى الأنفال وبراءة"[2]، مؤكدا في الختام على القول بالتوقيف فيما استقر عليه ترتيب المصحف العثماني، بقوله: "فالحاصل أني أقول: ترتيب كل المصاحف بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية، ورتب أولئك [يقصد بعض الصحابة أمثال أبيّ وابن مسعود] على ما كان عندهم، ولم يبلغهم ما استقر، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبتة في مصاحفهم بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات المنسوخات، ولم يبلغهم النسخ"[3].

والأدلة متكاثرة على أنّ ترتيب السور في المصحف توقيفي، لأن القائلين بالاجتهاد يُقرون أنّ معظم السور كان ترتيبها بتوقيف منه ﷺ، والدليل على ذلك أنّ الخلاف الذي عززوا به موقفهم كان يدور حول مجموعة قليلة من السور، وبالتالي فباقي السور رُتبت بتوقيف منه ﷺ وإلا لنقل إلينا الخلاف بالأخبار المتواترة عن الصحابة ﷺ، وحتى تلك السور التي دار حولها الخلاف وقع الإجماع فيها على ما استقر ترتيبها عليه في المصحف العثماني.

قال الآلوسي: "وإجماع الصحابة في المآل على هذا الترتيب وعدولهم عما كان أولا من بعضهم على غيره من الأساليب، وهم الذين لا تلين قناتهم لباطل، ولا يصدهم عن إتباع الحق لوم لائم ولا قول قائل، أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما، ولم يدع عندهم خيالا ولا وهما...وبالجملة بعد إجماع الأمة على هذا المصحف لا ينبغي أن يصاخ إلى آحاد الأخبار، ولا يشرأب إلى تطلع غرائب الآثار"[4].

فعدد سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة فكيف يسكت الصحابة ﷺ ولا ينقلون إلينا كيفية ترتيب كل سورة مع التي تليها، ولا الطريقة التي اتبعوها في هذا الترتيب مع أنهم كانوا حريصين

---

[1] _ البرهان في تناسب سور القرآن، ص183.

[2] _ الإتقان، ج2، ص411/ نظم الدرر في تناسب السور، ص60.

[3] _ تناسق الدرر في تناسب السور، ص61.

[4] _ روح المعاني، ج1، ص28.

على نقل كل ما يتعلق بالقرآن الكريم إلى الخلف من بعدهم، فالقراءات القرآنية مثلا على اختلافها وكثرتها نقلت إلينا ولا زالت محفوظة بالسند المتصل إليه ﷺ، فكيف لا ينقل إلينا طريقة ترتيب هذه السور؟! كما أنّ الحديث النبوي جُمع هو أيضا ولكن لم يرتبوه على طريقة معيّنة.

نعم ربما يكون قد وقع الاجتهاد في ترتيب بعض السور كما دلت على ذلك الآثار التي استندوا إليها، ولكن الاجتهاد "ليس في الترتيب، وإنما في ترجيح ما كان عليه الأمر في عهد النبوة، ولهذا اختلف ترتيب مصحف عثمان عن ترتيب مصحف ابن مسعود، الذي جعل سورة النساء مقدمة على سورة آل عمران، ويبدو أنّ اللجنة الرباعية التي أعدت مصحف عثمان رجحت تقديم سورة آل عمران على النساء، ورأت أن ذلك الترتيب هو الأرجح في ثبوته عن النبي ﷺ"[1].

فكل هذه الأدلة بالإضافة إلى الأدلة التي سبق ذكرها والتي أيّد بها القائلون بالتوقيف ما ذهبوا إليه هي أدلة قويّة، توحي إلي أنّ ترتيب السور الذي استقر عليه المصحف العثماني توقيفي لا مجال فيه للرأي والاجتهاد، وهذا ما يتماشى مع عظمة القرآن الكريم ومنزلته.

وقد اجتمعت كلمة الكثير ممن كتب في علوم القرآن من المعاصرين على القول بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم[2].

قال صبحي الصالح بعدما تحدث عن ترتيب الآي: "وأمّا ترتيب السور فتوقيفي أيضا، وقد علم في حياته ﷺ، وهو يشمل السور القرآنية جميعا ولسنا نملك دليلا على العكس، فلا مسوغ للرأي القائل: إن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة، ولا للرأي الآخر الذي يفصل: فمن السور ما كان ترتيبه اجتهاديا، ومنه ما كان توقيفيا"[3].

وفي الختام أنبه إلى مسألة مهمة، وهي أنه وإن كان هناك خلاف بين القائلين بالتوقيف والاجتهاد في ترتيب المصحف باعتباره مسألة علمية، إلا أن كليهما يؤكد على وجوب احترام ما استقر

---

(1) _ المدخل إلى علوم القرآن الكريم، محمد فاروق النبهان، ص137.

(2) _ ينظر: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد ابن باديس، ص369/ ترتيب سور القرآن الكريم، طه عابدين طه، ص52 (مقال)/ محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري، ص72/ المحرر في علوم القرآن، مساعد الطيار، ص197/ معجم علوم القرآن، إبراهيم محمد الجرمي، ص88/ نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد، ص26.

وإن كان من المعاصرين من رجّح القول بالاجتهاد، قال الجذيع: "وحاصل خلافهم: ترجيح المذهب الثّاني لقوّة دليله، وهو أنّ ترتيب السّور كان باجتهاد من الصّحابة". المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ص135. ينظر: حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول، محمد رفيق، ص20.

(3) _ مباحث في علوم القرآن، ص71.

عليه ترتيب، خاصة في كتابة المصحف[1].

وقد كتب الزرقاني في احترام هذا الترتيب فقال: "وسواء أكان ترتيب السور توقيفيا أم اجتهاديا فإنه ينبغي احترامه خصوصا في كتابة المصاحف لأنه عن إجماع الصحابة والإجماع حجة. ولأن خلافه يجر إلى الفتنة ودرء الفتنة وسد ذرائع الفساد واجب"[2].

وإذا كان التوقيف هو المذهب الذي سار عليه أكثر المعاصرين المهتمين بالدراسات القرآنية، فهل هذا هو مذهب عبد الرحمن حبنكة الميداني أيضا صاحب التفسير الذي تدور حوله الرسالة؟ أم أنّه قال بالاجتهاد خاصة وأنه اعتمد على ترتيب النزول في تدبره للقرآن الكريم؟

ستأتي الإجابة عن هذا التساؤل والتفصيل فيه في إحدى فروع هذه الرسالة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

[1] _ وقد فصّل طه عابدين طه القول في حكم التزام ترتيب السور في الكتابة وفي التلاوة والصلاة. ينظر: ترتيب سور القرآن الكريم – دراسة تحليلية لأقوال العلماء–، ص73. (مقال)

[2] _ مناهل العرفان، ج1، ص291. ينظر: اللآلئ الحسان، موسى شاهين، ص43/ دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص64.

المطلب الثالث: تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب المصحف.

تصدّى لتفسير كتاب الله ﷻ علماء أجلاء أفنوا أعمارهم في سبيل بيان معانيه متبعين في ذلك الترتيب المصحفي للسور، حيث اقترن تفسير القرآن الكريم بهذا الأخير.

وهذه العلاقة الوثيقة بين ترتيب المصحف وتفسير القرآن الكريم أردت التفصيل في بعض ما يؤكدها في الفروع الثلاثة لهذا المطلب؛ حيث خصصت الأول منها لبيان أقسام تفسير القرآن الكريم باعتبار ترتيب السور، والثاني جعلته للحديث عن عناية السلف بالترتيب المصحفي في تفسيرهم للقرآن الكريم، وختمت ببيان حكم مخالفة الترتيب المصحفي في التفسير في فرع ثالث.

الفرع الأول: أقسام تفسير القرآن باعتبار ترتيب السور.

تعددت مناهج التأليف في علم التفسير وتنوعت عبر مر العصور، وصُنّفت التفاسير على أساس ذلك بالنّظر إلى اعتبارات عدّة[1]، أخصّ بالذكر منها تلك التي تأخذ ترتيب السّور ضابطا تقسّم على أساسه تفسير القرآن الكريم قسمين:

1. التفسير وفق الترتيب المصحفي للسور.
2. التفسير وفق الترتيب النزولي للسور.

وفيما يلي التعريف بهما، للوقوف على المراد بكل منهما.

أولا. تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب السور في المصحف:

قبل التعريف بهذا المصطلح المركب يحسُن التعريف أولا بمصطلحي "التفسير" و "ترتيب المصحف" من الناحية اللّغوية ثم من الناحية الاصطلاحية، لكي يكون تعريفهما مدخلا لبيان المراد منه.

أ. تعريف التفسير لغة واصطلاحا:

.لغة: التفسير في اللغة مأخوذ من مادة "فسر" والمتتبع لمعاني هذه اللّفظة في اللغة يجدها تدور حول معنى الكشف والبيان والوضوح.

---

[1] _ أفاضت كتب علوم القرآن وكتب اتجاهات ومناهج المفسرين في الحديث عنها، ومنها: التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي، مناهج المفسرين من العصر الأول إلى العصر الحديث لحمود النقراشي السيد علي، التفسير والمفسرون أساسياته اتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث لفضل حسن عباس وغيرها كثير.

قال ابن فارس[1]: "الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه، من ذلك الفَسْرُ، يقال: فسَرت الشيء وفسّرته"[2].

وقال الراغب[3]: "الفسر إظهار المعنى المعقول والتفسير في المبالغة كالفسْر، والتفسير قد يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل، ولهذا يقال تفسير الرؤيا وتأويلها"[4].

وقال الآلوسي: "ولعله [يقصد التفسير] يرجع لمعنى الكشف كما لا يخفى، بل كل تصاريف حروفه لا تخلو عن ذلك كما هو ظاهر لمن أمعن النظر"[5].

وصفوة القول إنّ مادّة "فسر" تدور معانيها في اللغة حول الكشف والبيان والإظهار والإيضاح، فتفسير الكلام إيضاحه، وبيانه، وإظهاره، والكشف عن المراد منه.

.**اصطلاحا**: تعدّدت عبارات أهل العلم في تعريفهم للتفسير، وتنوَّعت أقوالهم في بيان معناه المراد منه، فاختلفت اصطلاحاتهم بموجب الزاوية التي نظروا منها إليه، ولكن أقوالهم تصبُّ كلها في مصبٍّ واحد، وهو الدّلالة اللغوية لكلمة تفسير، ولذا فإنّ اصطلاحاتهم "وإن كانت مختلفة من جهة اللَّفظ إلَّا أنَّها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه"[6].

ولقد اطلعت على العديد منها مما لا يسع المقام لسرده[7]، ولعلَّ من أهمها:

1. عرفه ابن جزي[8]:بقوله: "معنى التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه والإفصاح بما يقتضيه أو إشارته

---

[1] _ هو: أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب أبو الحسين الرازي، من أكابر أئمة اللغة، كان فقيهًا شافعيًا حاذقًا ثم انتقل إلى مذهب مالك في آخر أمره، من مصنفاته: المجمل في اللغة، متخير الألفاظ، وحلية الفقهاء، توفي سنة: 395هـ. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج1، ص118/ الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، ج7، ص181.

[2] _ مقاييس اللغة، ج4، ص504.

[3] _ هو: الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني) المعروف بالراغب، أديب لغوي حكيم ومفسر، من مؤلفاته: المفردات في غريب القرآن وأفانين البلاغة، قيل أنّه معتزلي ولكنه من أئمة السنة كما نقل ذلك السيوطي، توفي سنة: 502هـ على خلاف في ذلك. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج18، ص121/ بغية الوعاة، السيوطي، ج2، ص297.

[4] _ المفردات، ص636.

[5] _ روح المعاني، ج1، ص5.

[6] _ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج1، ص12.

[7] _ من أهم من فصّل فيها وحلّل ما تضمنته تحليلا نفيسا مساعد الطيار –حفظه الله–. ينظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر، ص65 .

[8] _ هو: محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله ابن جزي الكلبي أبو القاسم الغرناطي المالكي، الفقيه الأصولي اللغوي، كان من أهل غرناطة ثم انتقل إلى فاس بالمغرب وتوفي بها، من مؤلفاته: التسهيل في علوم التنزيل، القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية، والمختصر البارع في قراءة نافع، توفي سنة :741هـ. ينظر: الإحاطة، لسان الدين ابن الخطيب، مج 3، ص20/ الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلاني، ج5، ص88.

أو نحوه"[1].

2. عرفه أبو حيان[2] فقال: "التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك"[3].

3. وعرفه الزركشي في موضعين، قال في الأول: "التفسير علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه"[4].

وأما الثاني فقال فيه: "هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها، وزاد فيها قوم، فقالوا: علم حلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعبرها وأمثالها"[5].

4. وعرف ابن عاشور علم التفسير فقال: "هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع"[6].

5. كما عرف ابن عثيمين التفسير بقوله: "بيان معاني القرآن الكريم"[7]، وهذا من أيسر التعاريف وأخصرها وأقربها إلى بيان المراد[8].

وأرى أنه بالجمع بين التعريفين السابقين يتبين المراد من التفسير ويتضح المقصود منه، وهو: "بيان معاني القرآن الكريم وما يستفاد منها".

إذ التفسير يشمل كل ما صدر من المفسرين مما يقال فيه بيان للقرآن الكريم ممن اختصر منهم أو

---

(1) _ التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص15.

(2) _ هو: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي أثير الدين، أبو حيان الأندلسي، من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات، ولد سنة 654هـ، من مصنفاته: البحر المحيط، طبقات نحاة الأندلس، وتحفة الأريب، توفي سنة: 745هـ. ينظر: الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلاني، ج6، ص58/ بغية الوعاة، السيوطي، ج1، ص280.

(3) _ تفسير البحر المحيط، ج1، ص121.

(4) _ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص13.

(5) _ المصدر نفسه، مج2، ص148.

(6) _ التحرير والتنوير، ج1، ص11.

(7) _ أصول في التفسير، ص23.

(8) _ وقد اختاره عادل مقراني –حفظه الله– في تعريفه للتفسير، ونبه إلى أنه من أحسن التعاريف وأرجحها، معلّلا ذلك بعدد من الأوجه. ينظر: اختلاف المفسرين –دراسة تحليلية نقدية–، ص35.

توسع في ذلك، كما أنه يضم ما أرشد إليه أهل التفسير والعلم بالقرآن الكريم، مما يمكن أن يستفاد من معاني القرآن الكريم من أحكام وحكم.

ب. تعريف "ترتيب السور في المصحف":

هذا المصطلح سبق التعريف به، فهو يطلق ويراد به ترتيب السور في المصاحف التي بين أيدينا اليوم والمبدوءة بسورة (الفاتحة) المختتمة بسورة (الناس) وفق صورة ثابتة، لم تتغير مذ تم جمعها في مصحف واحد على عهد الصحابة ﷺ[1].

ج. بيان معنى "تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب السور في المصحف" باعتبار تركيبه:

بعد التعريف بما سبق يمكن القول إنّ "تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب السور في المصحف" يطلق ويراد منه: "**بيان معاني سور وآيات القرآن الكريم وفق تسلسل ترتيبها الذي عليه اليوم في المصحف**".

فيشمل هذا التعريف كل التفاسير التي رتّبها أصحابها على ترتيب المصحف، على اختلافها وتنوع مناهجها، ويمثله جمهور المفسرين قديما وحديثا.

ثانيا. تفسير القرآن الكريم وفق الترتيب النزولي للسور:

يحسُن التنبيه هنا إلى أنّ هذا المصطلح المركب قد تم التعريف بأكثر المفردات الواردة فيه، حيث عرفنا المراد من "التفسير" و"الترتيب" و"السورة" ولم يبق إلا بيان المراد من مصطلح "النزول".

أ. بيان المعنى اللغوي والاصطلاحي لمادة "النزول":

.**لغة:** يطلق النزول ويراد به في لغة العرب عدة معان منها: الانحطاط من علو يُقال نزل فلان من الجبل، كما يطلق ويراد به الحلول بالموضع، يقال نزل فلان بالمدينة أي حل بها. والمنزل موضع النزول وكذلك المنزلة، وتأتي أيضا بمعنى المكانة[2].

.**اصطلاحا:** يراد بلفظ "النزول" في الاصطلاح عدة معان لا يسع المقام للتفصيل فيها، والمقصود بيانه هنا هو ما نزل من القرآن الكريم منجما على النبي ﷺ طيلة فترة نبوته، وقد جاء هذا المعنى في قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾[الفرقان: 32].

---

[1] _ ينظر: الفرع الثاني من المطلب الأول من هذا المبحث، ص9.

[2] _ ينظر: الصحاح، الجوهري، ج5، ص107/ المفردات، الراغب الأصفهاني، ص799/ لسان العرب، ابن منظور، ج11، ص656.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[الإسراء: 106].

ب. بيان معنى "ترتيب نزول السور":

سبق وأن بيّنا المراد من كلمة "الترتيب" وكذا مادة "النزول" و"السورة"، وبناء على ذلك يمكن القول: إنّ "ترتيب نزول السور" يطلق "ويراد به أن يوضع ما نزل أولا ثم الذي تلاه في النزول، ثم الذي يليه إلى انتهاء عصر الرسالة، وانقطاع الوحي بانتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى"[1].

بمعنى أن توضع السورة التي نزلت أولا على النبي ﷺ ثم السورة التي تليها ثم التي بعدها إلى آخر سورة نزلت، وهذا على فرض أنّ السور نزلت دفعة واحدة، لكن من المعلوم أنّ الكثير من السور لم تنزل دفعة واحدة فكيف يكون ترتيبها؟ وهل هناك ترتيب نزولي ثابت مقطوع به لسور القرآن الكريم؟

هذه من الأهم الإشكالات التي ترد على الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم والتي سيأتي الحديث عنها في المبحث الثاني من هذا الفصل بإذن الله.

ج. بيان معنى "تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب نزول السور" باعتبار تركيبه:

بعد أن عرفنا المراد من المصطلحات السابقة نأتي لبيان المراد من "تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب نزول السور"، وقد وقفت له على مجموعة من التعاريف تنوعت مضامينها بحسب اختلاف نظرة كل واحد منهم إلى المراد من هذا النوع من التفسير، وقد قسمتها إلى مذهبين إليك بيانهما باختصار:

.**المذهب الأول**: اعتنى أصحابه في التعريف بتفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول بالناحية المنهجية الشكلية، التي تُرتب على أساسها التفاسير التي اتبعته[2].

يقول نادي صبرا "التفسير بترتيب النزول معناه: استخدام طريقة ترتيب سور القرآن الكريم حسب نزولها في بيان المراد من كلام الله تعالى...وتقوم هذه الطريقة ابتداء على تقسيم سور القرآن الكريم إلى مكية ومدنية، ومن ثم ترتيب سور كل قسم منها، والقيام بعد ذلك بتفسير هذه السورة على منهج كل مفسر من المفسرين الذين استخدموا هذه الطريقة، والذين اختلفت مناهجهم وتعددت، بحسب اتجاه كل منهم، وأفكاره وتأثراته"[3].

---

[1] _ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص88.

[2] _ أقصد هنا التفاسير المعاصرة التي رُتبت وفق الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، أذكر منها: التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة، وبيان المعاني لملا حويش، ومعارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حبنكة الميداني. وسيأتي التعريف بها في فرع لاحق.

[3] _ منهج حبنكة الميداني في التفسير، ص46.

وعرفه سليمان الدقور فقال: "إن تفسير القرآن حسب ترتيب النزول يقصد به تناول سور القرآن الكريم وآياته بالبيان والشرح والتوضيح، حسب نزولها لا حسب ترتيبها في المصحف كما هو بين أيدينا"[1].

وإلى قريب من هذا ذهب سعيد بوعصاب، قائلا: "تفسير القرآن حسب النزول: ويقصدون بذلك تناول المفسر لتفسير سور القرآن الكريم من خلال بيان معاني الآيات وشرحها حسب نزولها التاريخي"[2].

فهؤلاء الباحثون عُنوا بالناحية الشكلية المنهجية التي تسبق العملية التفسيرية، حيث جعلوا المراد منه هو استخدام طريقة ترتيب سور القرآن حسب نزولها في بيان مراد الله ﷻ، والتي أساسها هو ترتيب السور وفق تاريخ نزولها، ثم تفسيرها بحسب منهج كل مفسر، إشارة منهم إلى التفاسير التي ألفت وفقه.

المذهب الثاني: عُني أصحابه بالمضمون، وما لابد من أخذه بعين الاعتبار أثناء العملية التفسيرية لمن اتخذه منهجا له.

1.يقول عمران سميح نزال: "التفسير التاريخي للقرآن الكريم"، "هو بيان معاني آيات وسور القرآن الكريم بحسب أصول التفسير المعروفة في مذاهب التفسير الإسلامي، مع أخذ المعارف والمعلومات التاريخية لهذه الآيات وأثرها على مناسبة النزول وأسبابه بعين الاعتبار، وذلك بمعرفة تاريخ نزول الآية أو السورة، وما نزل قبلها وما نزل بعدها من الآيات والسور القرآنية وكأنها في نظم واحد، وكأنها في نزول مترابط في سياقه ومعانيه وموضوعاته"[3].

نبّه الباحث هنا على ضرورة مراعاة تاريخ النزول أثناء العملية التفسيرية إذ هو أساس هذا النوع من التفسير، فالتفسير التاريخي على قوله "ليس مجرد إتباع الترتيب التاريخي لنزول سور القرآن الكريم، وإنما هو منهج دراسة وتحليل وتدبر"[4].

2. ويقول محمد علي لساني في تعريفه للتفسير بحسب ترتيب النزول: "التفسير الذي يُعنى ببحث الترتيب الزمني للقرآن الكريم، وهو متأخر حيث يسلط الأضواء على الترتيب الزمني لنزول القرآن، أو

---

[1] _ منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، ص56. (مقال)

[2] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، ص111.

[3] _ الوحدة التاريخية للسور القرآنية، ص68.

[4] _ المرجع نفسه، ص69.

التاريخ للقرآن الكريم، حيث يستعين بروايات مختلفة مكية ومدنية، وبأسباب النزول، وترتيب النزول، والناسخ والمنسوخ، تأريخ حياة الرسول الأكرم ﷺ، ويفيد من إشارات القرآن لبعض الأحداث التي أرخت الرسالة النبوية من مثل بدء الجهر بالدعوة، هزيمة الروم، غزوة بدر، غزوة تبوك، هذا اللون في التفسير، عينت مجموعة من الآيات ذات العلاقة بالحادثة الزمنية، سواءا كانت هذه الآيات سورة كاملة أو جزءا منها"[1].

وهذا التعريف جعل قوامه البحث في الترتيب الزمني لنزول القرآن، ونبه إلى العلوم التي يفيد منها المفسر في تعيين زمن نزول الآيات والسور والترتيب الزمني لها، مما من شأنه أن يعين على فهمها، ويقصد هنا المرحلة التي تسبق العملية التفسيرية، لأن التفسير بعد هذه المرحلة على حسب ما يقول يتخذ لونين اثنين:

الأول: التفسير بحسب ترتيب نزول الآيات[2].

الثاني: التفسير بحسب ترتيب نزول السور، وهو الذي يهمنا هنا ويقول فيه: "هذا اللون يعتمد تفسير آيات السورة كاملة...وهو يحفظ لسور القرآن الكريم هويتها وشخصيتها، لكنه يرتبها حسب نزول آيات مفتتحها، وهو يشرع في تفسير أول السور نزولا في مكة لينتهي بآخر سورة نزلت في المدينة"[3].

فيكون الباحث بذلك قد نبه إلى مرحلتين الأولى تسبق العملية التفسيرية يعيّن فيها زمن نزول الآيات والسور، والثانية يشرع فيها بالتفسير حسب نزول السورة، وهذه الأخير يعتمد في ترتيبها على بدايتها.

وبعد هذه الالتفاتة السريعة إلى المراد بالتفسير حسب ترتيب النزول، يمكن القول إنّ الاختلاف في تعريفه يرجع إلى أسباب عدة ألخصها فيما يلي:

– حداثة هذا النوع من التفسير، إذ لم تتضح الرؤى حول المراد منه، فلم يعرف إلا عند عدد قليل من المعاصرين.

---

[1] _ تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، ص84. (مقال)

[2] _ وقد أشار الباحث في هذا النوع إلى تفسير بعنوان: (التفسير المتدبر للقرآن الكريم على حسب النزول) لمهدي بازركان، ونبه إلى أنه لم يقف على غيره، وقد بحثت عنه لكن لم أقف عليه ولا على غيره وفق هذا النوع. ينظر: تفسير القرآن بحسب ترتيب النزول، ص84. (مقال)

[3] _ ترتيب القرآن بحسب النزول، ص87. (مقال)

– إغفال التعريف به من قبل من اعتمده في تفسيره للقرآن الكريم، مما ساهم في اختلاف وجهات النظر حوله.

– تعريفه بالنظر إلى من طبقه واعتمده في تفسير القرآن الكريم، ويمثله أصحاب المذهب الأول فنظرتهم له كانت قاصرة على أصحاب التفاسير فقط.

– تعريفه بما ينبغي أن يُراعى فيه، ومحاولة التنظير له بذكر مقوماته وأسسه، أمثال عمران سميح نزال.

– التعريف به على أساس المراحل التي لابد أن يمرّ بها من يفسّر القرآن الكريم على وفقه، بغض النّظر عن اعتماد كلّها أو إهمال بعضها من قبل من اعتمده.

وفي الختام أنوّه إلى أن هذه التعاريف اتفقت على أن التفسير وفق ترتيب النزول لابد أن يراعى فيه الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، ومن ثمّ فإن مفهوم "تفسير القرآن وفق ترتيب نزول السور" الذي هو موضوع هذا البحث هو: "**بيان معاني سور القرآن الكريم وفق تسلسل ترتيبها النزولي**".

وهذا المفهوم يدخل ضمنه كل ما يصدر من المفسرين مما يقال فيه بيان للقرآن الكريم مما اعتُمد فيه الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، على اختلاف مناهج من اعتمده وتباين آليات تطبيقه.

وبهذا يتضح الفرق الجوهري بين التفسير وفق الترتيب المصحفي والتفسير وفق الترتيب النزولي للسور، وهو اختلاف طريقة ترتيب السور داخل كل واحد منهما، وهذه بلا شك سيكون لها أثر في تفسير القرآن الكريم، سأحاول توضيحه في هذه الدراسة من خلال تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) لعبد الرحمن حبنكة الميداني.

الفرع الثاني: عناية السلف بترتيب المصحف في تفسيرهم للقرآن الكريم.

يسوقنا الحديث عن تفسير السلف إلى الحديث عن واقع التفسير في العهد النبوي زمن نزول الوحي، لأنه يمثل البذور الأولى لهذا العلم فالنبي ﷺ هو المبيّن الأول لمعاني القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: 44]، وإن كان قد اقتصر البيان في هذه المرحلة على تفسير ما أُشكل وتوضيح ما غمض فهمه على الصحابة ﷺ أهل الفصاحة والبيان، لاسيما آيات الأحكام على سبيل الإجمال لا التفصيل[1].

---

[1] _ ينظر تفصيل اختلاف العلماء في مقدار ما فسّره النبي ﷺ: التفسير والمفسرون، الذهبي، ج1، ص38 وما بعدها/ التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل عباس، ج1، ص133.

فعن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: " لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾[الأنعام: 82] شقّ ذلك على المسلمين، فقالوا: يا رسول اللّه، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس ذلك إنّما هو الشّرك ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنيّ لا تشرك باللّه إنَّ الشِرك لظلم عظيم»"[1].

وقد سار الصحابة على نهجه ﷺ في تفسير القرآن الكريم، فكانوا يُسألون فيجيبون ويوضّحون، ولعل خير من نمثل به هو حبر الأمة ابن عباس ﷺ[2]، فقد روى ابن جرير الطبري[3] بسنده عن ابن أبي مليكة، قال: "رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، فيقول ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله"[4].

وهنا بدأت تظهر ملامح تلقي التفسير وفق ترتيب ثابت[5]، يؤكد ذلك ما صرح به مجاهد بن جبر ﷺ[6] قائلا: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها"[7].

وفي هذا الأثر دلالة على أنّ مجاهدا ﷺ أخذ التفسير عن ابن عباس ﷺ مرتبا، فسؤاله له كان

---

(1) _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾[النساء: 125]، رقم: 3360، ج4، ص141.

(2) _ هو: عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد المناف أبو العباس القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، حبر الأمة وبحرها، روى عن النبي ﷺ وعن عمر وعلي ومعاذ، وروى عنه عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وأبو الطفيل، توفي سنة: 68هـ وقيل غيرها. ينظر: أُسد الغابة، ابن الأثير، ج3، ص291.

(3) _ هو: محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام الحافظ، كان مجتهدا في أحكام الدين فلا يقلد أحدا، تتلمذ على يد محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب وغيره، وأخذ عنه: أحمد بن كامل القاضي وآخرون، من مؤلفاته: جامع البيان في تفسير القرآن، تاريخ الأمم والملوك، وتهذيب الآثار، توفي سنة: 310هـ. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج4، ص191/ تذكرة الحفاظ، الذهبي، ج2، ص201.

(4) _ جامع البيان في تأويل القرآن، ج1، ص90.

(5) _ أي في عهد الصحابة ﷺ، وقد غفل بعض الباحثين أمثال عبد الجواد خلف عن هذه المرحلة، بل أكدوا أنه لم يأخذ التفسير فيها شكلا منتظما يتماشى مع ترتيب السور، أو حتى ترتيب آيات السورة الواحدة. ينظر: مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، ص99.

(6) _ هو: مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي مولى السائب بن أبي السائب، ولد سنة21هـ، من أعيان مدرسة التفسير بمكة، أخذ التفسير عن ابن عباس ﷺ ، اختلف في وفاته فقيل سنة: 102هـ. وقيل غير ذلك. ينظر: طبقات الفقهاء، أبو إسحاق الشيرازي، ص69/ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج4، ص450.

(7) _ جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ج4، ص409/ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، كتاب: التفسير، باب: بسم الله الرحمن الرحيم من سورة البقرة، رقم: 3105، ج2، ص307. قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم. ولم يخرجاه بهذه السياقة".

وفق ترتيب معين ولا شك أنّه وفق ترتيب المصحف، فقد كانوا يسألون مشايخهم من أوّل القرآن الكريم إلى آخره يستفسرون عن معانيه، ويمكن اعتبار صنيعه هذا من البذور الأولى لظهور سمات تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب المصحف[1]، والذي زادت العناية به بعد ذلك وخاصة بعد أن ظهرت سمات الضبط والكتابة في الدفاتر والألواح للحديث النّبوي وإلى جانبه التفسير، وبدأت مرحلة التدوين التي تبعتها مرحلة التصنيف على الأبواب وكان التفسير يجمع على أنّه باب من أبواب الحديث ويُرتب في الباب وفق الترتيب المصحفي[2].

وغالب تفاسيرهم في هذه المرحلة كانت عبارة عن صحف تروى بالأسانيد يُثبت فيها أصحابها ما نُقِل إليهم من معاني القرآن الكريم عن الصحابة والتابعين ﷺ خشية الضياع، فلم يكن للتدوين في هذه المرحلة أوفر الحظ والنصيب، وقد وصل إلينا نزر يسير من هذه التفاسير مثل تفسير مجاهد الذي اقتصر على تفسير بعض آيات القرآن الكريم وقد رتبه على ترتيب المصحف[3].

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث، "فأصبح علما قائما بنفسه، ووضع التفسير لكل آية من القرآن، ورتّب ذلك على حسب ترتيب المصحف، وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجه المتوفى سنة 273هـ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة 310هـ...وغيرهم من أئمة هذا الشأن"[4].

وقد اختلف العلماء وأصحاب التراجِم في أول من فسّر القرآن الكريم وفق الترتيب المصحفي[5]، ولا يهمنا بالضبط أوّل من وضع تفسيرا على الترتيب المصحفي، وإنما الذي يهمنا في هذا المقام هو أنّ التفسير وفق ترتيب المصحف هو الأسبق في التأليف في علم التفسير، فهو أصيل له جذور عريقة تزامنت مع البدايات الأولى لتدوين التفسير، كما أنه الأكثر اعتمادا من قبل المفسرين عبر مر العصور، إذ كل من أراد تفسير القرآن لجأ إلى المصحف فاتّبع ترتيبه، وربما يرجع ذلك لسهولة التفسير

---

(1) _ ينظر: تفسير التابعين، محمد الخضيري، ج1، ص36 وما بعدها.

(2) _ ومثاله صنيع البخاري في جامعه، حيث خصّص كتابا لتفسير القرآن الكريم، رتّب مضمون أبوابه على الترتيب المصحفي لسور وآيات القرآن الكريم. ينظر: الجامع الصحيح، كتاب: تفسير القرآن، ج6، ص16.

(3) _ ينظر: تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر، ص193.

(4) _ التفسير والمفسرون، الذهبي، ج1، ص105.

(5) _ فقيل الفراء (ت: 207هـ)، وقيل ابن ماجه (ت: 273هـ)، وقيل غيرهما. وهي مسألة ليست بالسهلة كما قال الذهبي: "ليس من السهل معرفة أول من دَوَّن تفسير كل القرآن مرتَّباً... ولا نستطيع أن نُعيِّن بالضبط المفسِّر الأول الذي فسرَّ القرآن آية آية، ودوَّنه على التتابع وحسب ترتيب المصحف"، وهو وإن لم يعيّن أول من صنف بالتحديد إلا أنه أكد على أن الفراء مسبوق في تدوين التفسير. ينظر تفصيل المسألة: الفهرست، ابن النديم، ص99/ التفسير والمفسرون، ج1، ص105/ مناهج المفسرين من العصر الأول إلى العصر الحديث، محمود النقراشي، ص35- 36.

إذا اتبع فيه صاحبه ترتيبا هو محل اتفاق بين الأمة سلفا وخلفا، أضف إليه انتفاء الدواعي التي تؤدي إلى مخالفة هذا الترتيب واتباع غيره وهو ترتيب النزول.

وخلاصة ذلك: أنّ التفسير وفق الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم له أصل في تفسير السلف حيث ظهرت بذوره الأولى في عهد الصحابة ﷺ، ثم زادت العناية به بعدهم لاسيما في عصر التدوين حيث دوّن باعتباره فرعا من فروع الحديث، ثم استقل ووضعت فيه مؤلفات مخصوصة رُتبت فيها السور وفق الترتيب المصحفي.

والعناية بالتفسير وفق ترتيب المصحف العثماني تعد مظهرا من مظاهر تعظيم السلف رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم لما أجمع عليه الصحابة ﷺ في عهد عثمان ﷺ، إذ لم يرو من الضرورة أن يتبعوا غيره.

وهنا لابد من التنبيه إلى مسألة غاية في الأهمية وهي أنه لابد من التفريق بين حكم الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم باعتباره مسألة علمية فصّلت الحديث عنها أثناء بيان مذاهب العلماء في الترتيب المصحفي، وبين حكم تغيير الترتيب المصحفي وما يترتب عليه من مسائل عملية وأهمها مخالفته في تفسير القرآن الكريم التي لم تعرف عند المتقدمين، بينما ظهر في العصر الحديث من خالفهم، وهذه المخالفة تستدعي البحث في حكمها وبيان أقوال العلماء فيها وهو ما سيأتي التفصيل فيه في الفرع الموالي.

الفرع الثالث: حكم مخالفة الترتيب المصحفي في تفسير سور القرآن الكريم.

فسّر العلماء من السّلف ومن تبعهم من الخلف القرآن الكريم وفق ترتيب السور في المصحف الشريف، ولم يُعرف منهم من خالف هذا الترتيب في تفسيره للقرآن الكريم كاملا[1]؛ لذا فإنّ بيان حكم مخالفة ترتيب المصحف في التفسير واتباع الترتيب النزولي بديلا عنه لم تدع الحاجة إليه ولم تتوافر الدواعي لبيان مشروعيته عند السلف.

---

(1) _ وهنا لابد من التنبيه إلى قيود ثلاثة، كالآتي:

– "السور": المبين حكمه هنا هو تفسير السور وفق ترتيب النزول، وليس تفسير الآيات وفق ترتيب نزولها.

– "التفسير": الحديث هنا مختص بتفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، ويخرج بهذا القيد ترتيب القرآن الكريم وفق ترتيب النزول وغيره مما ليس مجال البحث في هذا المقام، لأن الكثير من الباحثين يجزم بعدم صلاحية هذه الطريقة مباشرة، والسبب هو الخلط بين التفسير وفق ترتيب النزول وبين إعادة ترتيب المصحف.

– "كاملا": وهذا القيد جد ضروري يخرج به ما أُلف في تفسير بعض سور القرآن الكريم أو ما أُلف في موضوعات خاصة، فهذا كان معروفا عن السلف.

إلا أنّ ظهور تفاسير رُتبت سورها على الترتيب النزولي يدفع إلى ضرورة البحث عن حكم مخالفة ترتيب المصحف في التفسير، لأنّ هذه المسألة وإن لم تكن مطروحة في قرون مضت فلا بد من بيان حكمها في العصر الراهن، وقد وقفت فيها على قولين:

.أولا: القول بالمنع.

بحثت في كلام العلماء المتقدمين والمتأخرين لعلي أجد بينهم من بيّن حكم مخالفة ترتيب المصحف في التفسير وقال بعدم جوازه، فلم أقف إلا على رسالة محققة بعنوان: "الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس"، بيّن فيها صاحبها[1] حكم مخالفة ترتيب السور في تفسير القرآن الكريم قائلا: "فالسنّة في قراءة المصحف، وفي التعليم والتعلم، والتهجد في الصلاة والقراءة، ودرس التفسير، أن يكون من الفاتحة للبقرة إلى المعوذتين هابطا على ترتيب سور التنزيل، ولم نر في الحرمين، ولا بمصر، ولا بالمغرب تونس وفاس وغيرهما، من يدرس التفسير منكسا.

وتعين حجة إجماع المفسرين من البخاري وابن جرير الطبري ...أنهم يفسرونه على ترتيب المصحف هابطين، وانظر إلى ما قالوا في المناسبة، ابتداء القرآن بالفاتحة وختمه بالمعوذتين، وما فيه من حسن الافتتاح والاختتام"[2].

وقد بنى حكمه هذا على القول بالتوقيف في ترتيب السور، حيث اعتبر حكم مخالفة ترتيب المصحف في التلاوة والتفسير والتعليم وحكم مخالفة ترتيب الآيات في سورها سيان[3]، وهذه المسألة فيها نظر وتحتاج إلى تفصيل يُظهر الفرق بين حكم مخالفة ترتيب المصحف في الكتابة والتلاوة وبين حكم مخالفتها في التفسير، إذ سبق التنبيه على إجماع العلماء على القول بالتوقيف في ترتيب الآيات، أما ترتيب السور ففيه خلاف[4]، أضف إلى ذلك أنه لم يصلنا نص من العلماء القائلين بالتوقيف في

---

(1) _ هو: محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري أبو عبد الله، ولد في المغرب سنة (1142هـ) وبها نشأ وتلقى العلم على أيدي مشايخها، كان إماما فقيها محدثا مسندا، من مؤلفاته: المزايا فيما حدث من البدع في أم الزوايا، النوازل، الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس، توفي سنة: 1239هـ. ينظر: الإعلام بمن حل مراكش، العباس السملالي، ج6، ص192/ فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، ج2، ص844.

(2) _ الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس، محمد عبد السلام الناصري، ص46.

(3) _ يقول: "وأما حكم تنكيس السور بحيث يبتدئ التلاوة في المصحف من الفاتحة ثم المعوذتين، أو التعليم...أو تأليف التفسير صاعدا كذلك حتى يختم بالبقرة، فإنه متوقف على ترتيب السور في مصحف عثمان، هل هو توقيفي أيضا؟ فيكون الجواب فيه كالجواب في تنكيس الآي سواء بسواء". الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس، محمد بن عبد السلام الناصري، ص29.

(4) _ وقد فصل طه محمد فارس محقق الرسالة في هذه المسألة بما يغني عن الحديث عنها في هذا المقام. ينظر: تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص161/ الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس، ص29- 30.

ترتيب السور صرح فيه صاحبه بعدم جواز مخالفته في التفسير[1]؛ وقد عزّز موقفه أيضا بإجماع المفسرين من السلف ومن جاء بعدهم على التفسير وفق ترتيب المصحف.

وقوله هذا سبق ظهور التفاسير التي خالف فيها أصحابها ترتيب المصحف، فلم يكن ردا عليها ولا بيانا لحكمها، وقد سكت العلماء المعاصرون عن الحكم بعدم جوزاها، إذ لم أقف على فتوى صريحة تحرم صنيعهم وجل ما يمكن تسجيله هنا هي اعتراضات لعدد من الباحثين الذين ناقشوا المسألة وإليك نزر من أقوالهم:

يقول فضل عباس متحدثا عن صنيع محمد عزة دروزة في تفسيره: "والحق أن صنيع مفسرنا الفاضل انفرد به، دون أن يجد أحدا من قبله يستأنس به على فعله. وليس هذا أنني أحكم بحرمة هذا العمل وعدم جوازه، فأنا الآن لست في مجال الفتيا، لكن الذي أود أن أشير إليه وأقرره، أن هذا الصنيع لم يسبق إليه أولا من جهة، وهو باب ذو خطر عظيم على القرآن من جهة ثانية، ولن يؤدي النتائج التي توخاها المؤلف من جهة ثالثة"[2].

فهو لم يتجرأ على الحكم بعدم جواز هذه الطريقة رغم بيانه لمحاذيرها.

ويقول عدنان زرزور: "أما ترتيب سور القرآن بحسب النزول لا للتدوين في المصاحف، ولكن في كتب التفسير أو بغرض التفسير، فقد ذهب إلى جوازه بعض العلماء وإن كنا نراه غير مستساغ، لأن فيه خدشا لصورة الإجماع"[3].

ويقول سليمان الدقور: "ويمكن أن نخلص إلى أن جمهور العلماء على عدم جواز هذا المنهج في تفسير القرآن الكريم لما فيه من مخالفة لما أجمعت عليه الأمة في ترتيب القرآن الكريم، ولا أدل على ذلك من المسلك الذي سلكه جمهور المفسرين في تفسير القرآن حسب ترتيب المصحف"[4].

وإلى قريب من هذا ذهب نادي صبرا، فهو يرى أنّ "عدول جماهير المفسرين عن استخدام ترتيب النزول في التفسير يمكن أن يعد من قبيل الإجماع العملي على حكم هذا الاستخدام"[5]، ثم يختم حديثه بقوله: "استخدام هذه الطريقة في إنشاء تفسير للقرآن أمر لا يجيزه أكثر العلماء من المفسرين

---

[1] _ فلو ثبتت رواية أو نص في ذلك لظهر وانتشر خبره بين السلف وتناقله من بعدهم من الخلف.

[2] _ التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ج3، ص188.

[3] _ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص141.

[4] _ منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، ص9. (مقال)

[5] _ منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، ص48.

وغيرهم، لما فيه من تغيير في ترتيب القرآن والذي أجمعت عليه الأمة الإسلامية من لدن رسول الله ...إلى عصرنا الحاضر"[1].

ومما سبق عرضه يتبيّن أن الباحثين الذين قالوا بعدم جواز مخالفة الترتيب المصحفي في التفسير استندوا على مخالفة ما أجمع عليه الصحابة ﷺ، وعلى عدم مخالفة المفسرين لترتيب المصحف في تفاسيرهم.

ثانيا: القول بالجواز:

شهد أواخر القرن الرابع عشر الهجري ظهور عدد من التفاسير التي خالفت ترتيب المصحف في تفسيرها للقرآن الكريم كاملا، وقد أدرك من بادر بهذا الصنيع ضرورة طلب الفُتيا من علماء عصره لما غاير منهج السلف في بيانه لمعاني القرآن الكريم، وهو محمد عزة دروزة الذي يُعد من أوائل من اتخذ الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم بديلا عن الترتيب المصحفي في تفسير القرآن الكريم كاملا.

يقول: "وقد قلّبنا وجوه الرأي حول هذه الطريقة، وتساءلنا عمّا إذا كان فيها مساس بقدسية المصحف المتداول، فانتهى بنا الرأي إلى القرار عليها لأنّ التفسير ليس مصحفا للتلاوة من جهة، وهو عمل فني أو علمي من جهة ثانية، ولأن تفسير كل سورة يصح أن يكون عملا مستقلا بذاته، لا صلة له بترتيب المصحف، وليس من شأنه أن يمسّ قدسية ترتيبه من جهة ثالثة.

ولقد أُثر عن علماء أعلام، قدماء ومحدثين تفسيرات لوحدات وسور قرآنية دون وحدات وسور...ولم نر نقدا أو إنكارا لهذا وذاك، مما جعلنا نرى السير على هذه الطريقة سائغا...ومع ذلك فقد رأينا أن نستوثق من صحة ما ذهبنا إليه فاستفتينا سماحة الشيخ أبي اليسر عابدين مفتي سورية والشيخ عبد الفتاح أبا غدة، الذي كان من المرشحين لإفتاء مدينة حلب، فتلقينا منهما جوابا مؤيّدا"[2].

يُفهم من كلام دروزة التماسه لما يُبرر ما أقدم عليه من طريقة مستحدثة، خاصة وأنّه لقي نقدا وإنكارا مما دفع به إلى الاستيثاق بطلب الفُتيا، فتلقى أجوبة مؤيّدة هذا نصها:

يقول الشيخ أبو اليسر عابدين[3]: "إنّ التأليف والتصنيف تابع لأغراض المؤلفين حسبما يعرض

---

[1] _ منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، ص49.

[2] _ التفسير الحديث، ج1، ص10.

[3] _ هو: محمد بن محمد أبي الخير عابدين أبو اليسر، ولد سنة 1307هـ بدمشق درس في كليتي الحقوق والشريعة، وكان المفتي العام لسورية سنة: 1954م، كما مارس مهنة الطب ثلاثين سنة، شارك في النضال ضد الاستعمار الفرنسي لبلده، من مؤلفاته: أغاليط المؤرخين، توفي سنة: 1401هـ. ينظر: تتمة الأعلام، محمد خير رمضان، ص238.

لهم من أشكال، لإظهار الفوائد التي يطلعون عليها، وليس التفسير بقرآن يُتلى حتى يُراعى فيه ترتيب الآيات والسور، فقد يُعنّ للمفسر أن يفسر آية ثم يترك ما بجانبها لظهور معناها وقد يفسر سورة ثم يترك ما بعدها اعتمادا على فهم التالي، ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور، والله أعلم"[1].

ويقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة[2]: "إنّ شبهة المنع لهذه الطريقة آتية من جهة أنّها طريقة تخالف ما عليه المصحف الشريف اليوم من الترتيب المجمع عليه والمتواتر إلى الأمة نقله جيلا بعد جيل.

ودفع هذه الشبهة: أنّ المنع يثبت فيما لو كان هذا الصنيع مسلوكا من أجل أن يكون هذا الترتيب مصحفا للتلاوة، أي ليتلو الناس القرآن على النحو الذي سلكتموه، أما وإن الغرض للمفسّر والقارئ معا غير هذا فلا مانع من سلوكه إطلاقا..."[3].

وخلاصة هذه الفتاوى هو جواز تفسير سور القرآن الكريم وفق ترتيب النزول فلا مانع منه في نظر الشرع، وذلك لعدم ثبوت نص صريح عن أئمة السلف فيه خلاف ذلك.

يقول أحد الباحثين: "أهم دليل يمكن الاستناد إليه هو سكوت الروايات بهذا الخصوص، فلم تمنع الروايات منه، فيُفهم بقاؤه على الإباحة"[4].

وقد استأنس بهذه الفتاوى سامر رشواني في حديثه عن "الترتيب الموضوعي وسؤال المشروعية"، فيقول متحدثا عن محمد عزة دروزة: "وتأسيسا على ذلك اعتبر منهجه في درس القرآن منهجا مشروعا، لا سيما أنه عزز ذلك بفتوى عالمين طلب منهما المشورة فأذنا له واستحسنا طريقته...فإذا أضيف إلى ذلك تشجيع كثير من العلماء لهذا المنهج في التفسير بل محاولتهم التطبيقية فيه تكون مسألة الشرعية قد حسمت حيث استند إلى أسس قوية وأدلة معتبرة"[5].

ومن هذا النقل نستخلص أن الباحث وإن لمن يتحدث عن مشروعية التفسير وفق ترتيب

---

[1] _ التفسير الحديث، دروزة، ص10-11.

[2] _ هو: عبد الفتاح بن محمد بن بشير أبو غدة، الفقيه المحدث ولد بحلب سنة 1336هـ وتعلم على يد كبار العلماء بها وبدمشق، كما أخذ من علماء الهند وباكستان وتركيا وغيرها، اختير مفتيا لمدينة حلب، ثم سافر إلى السعودية وأكمل بقية حياته فيها، من مؤلفاته: صفحات من صبر العلماء، لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، توفي سنة: 1417هـ. ينظر: إتمام الأعلام، نزار اباضة ومحمد رياض، ص161.

[3] _ التفسير الحديث، دروزة، ج1، ص10.

[4] _ تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، محمد علي لساني وسمية ذو قدرينا، ص87. (مقال)

[5] _ منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ص60.

النزول، إلا أن اعتماده على الفتاوى يوحي بقبوله لها، ومن ثمّ فإن الاستناد إليها فيما صدرت فيه هو من باب أولى.

أضف إلى ذلك أنّ هذه الطريقة ليست فيها مساس بقدسية المصحف، فهو لم يدع إلى إعادة ترتيبه وتلاوته كذلك، إذ لابد من التفريق بين دعوى إعادة ترتيب المصحف الشريف وبين تفسير القرآن وفق ترتيب النزول وهو ما سيأتي تفصيله في المبحث الثاني بإذن الله[1].

وبعد عرض موقف العلماء والباحثين في حكم مخالفة الترتيب المصحفي، أردت التأكيد على جملة من الأمور أهمها:

– أن حكم مخالفة الترتيب المصحفي في تفسير القرآن الكريم سكت عن بيانه علماء السلف، إذ لم يثبت عنهم رواية أو نص في القول بحرمته وعدم جواز مخالفته.

– أن القول بالتوقيف أو الاجتهاد في ترتيب السور ليس ضابطا في بيان موقف العلماء من حكم مخالفته في التفسير، إذ لم يثبت نص عن السلف في ذلك، أما المعاصرون فمنهم من قال بالتوقيف في ترتيب السور وخالفه وفسّر القرآن على ترتيب النزول[2].

– أن من العلماء من جوّز تفسير القرآن الكريم كاملا وفق ترتيب النزول بإصدار فتاوى، وإن كانت هذه الأخيرة لم تسلم من النقد[3].

– أنه لم تصدر فتوى من العلماء تحرّم تفسير القرآن الكريم كاملا وفق ترتيب النزول، وهذا يبقي القول فيها على الجواز، ولكن بضوابط سأحاول إثباتها في ثنايا هذا البحث، كل في موضعه.

وفي الختام وخروجا من الخلاف أقول: إن سكوت العلماء عن بيان حكم مخالفة الترتيب المصحفي في التفسير واتباع الترتيب النزولي، واعتماد هذا الأخير من قبل عدد من المعاصرين يدعونا إلى

---

[1] _ وقد ذكر عبد الرزاق حسين فتاوى صدرت عن اللجنة الدائمة، أكد بها رده لدعوى إعادة ترتيب سور القرآن حسب نزولها مهما كانت التبريرات والتي ذكر منها صنيع دروزة في تفسيره، لكن الفتاوى ليس فيها تصريح بعدم جواز التفسير وفق الترتيب النزولي. ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم، ص250- 251.

[2] _ ونمثل هنا بملا حويش الذي يقول في ترتيب المصحف: "وهذا الترتيب لا محيد عنه البتة لأنه أمر توقيفي. أما ما جرينا عليه في هذا التفسير فللأسباب المبينة في خطبة الكتاب ليس إلا". بيان المعاني، ج1، ص25.

[3] _ فقد رد عليها وناقشها عدد من الباحثين. ينظر: محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، فريد مصطفى سليمان، ص115 وما بعدها/ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص403 وما بعدها/ عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، عبد الرحمن نصر، ص368.

البحث في جدوى ما أقدموا عليه؛ بحث يفك الغموض ويزيل اللبس عن صنيعهم، وذلك بدارسة دوافع وأغراض من تبناه من المفسرين، ثم النظر في إمكانية تطبيقه ومدى فعاليته في التفسير، قبل التسرع والاندفاع والقول بحظر هذه الطريقة مباشرة لمخالفته لما درج عليه السلف، وهو ما سأجتهد في بيانه فيما يتعلق بتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

وصفوة القول: أن القرآن الكريم حفظه الله تعالى عبر مر العصور؛ فقد كُتب على عهده ﷺ، وجُمع في مصحف واحد في خلافة الصديق ﷺ ثم نسخ في المصاحف مرتب الآيات والسور على عهد عثمان ﷺ، واجتمعت الأمة على ذلك وتواتر نقل القرآن الكريم وفق ترتيب المصحف، وهذا الأخير انقسم فيه العلماء على مذاهب ثلاث: أرجحها هو القول بالتوقيف فيما استقر عليه المصحف في العهد العثماني، وهم وان اختلفوا في ذلك فإنهم اتفقوا على ضرورة احترامه خاصة في كتابة المصاحف، أما في التفسير فقد ظهر التأليف على وفق هذا الترتيب مع البدايات الأولى لعلم التفسير وعليه دأب المفسرون في تدوين أسفارهم من العصر الأول إلى العصر الحديث، فالتفسير وفق ترتيب المصحف هو المشهور المعروف المتداول بين المفسرين وقد نقل في حكم مخالفته قولان، زادت الحاجة إلى بيانهما بعد ظهور تفاسير اعتمدت الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، والتفصيل في بعض القضايا التي ترتبط بهذا الأخير هو موضوع المبحث الموالي.

المبحث الثاني:

الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.

أنزل الله ﷻ على المصطفى ﷺ القرآن الكريم منجما طيلة فترة نبوّته، منه ما كان ينزل ابتداء ومنه ما كان ينزل جوابا لسؤال وُجه له ﷺ أو كان سببه واقعة أو حادثة وقعت زمن الوحي؛ ولا شك أنّ هذا النزول لم يكن موافقا للترتيب الذي عليه المصحف اليوم، إذ إنّ عددا من السور نزلت دفعة واحدة وغيرها عكس ذلك، بل إنّ منها ما بقي مفتوحا عددا من السنوات ينزل في تلك الفترة العديد من السور والآيات قبل أن يكتمل نزولها.

وفي هذا المبحث سيأتي التفصيل في بعض القضايا ذات الارتباط الوثيق بالترتيب النزولي لسور القرآن الكريم في مطالب ثلاثة؛ أتناول في الأول منها الروايات الواردة في ترتيب نزول السور بالبحث والدراسة، وفي الثاني أتحدث عن تاريخ ترتيب النزول، وأختم بإيضاح علاقة تفسير القرآن الكريم بترتيب نزول السور وهو بغية هذا المبحث والنافذة التي نطل منها على ما سيأتي عرضه في الفصول اللاحقة في مطلب ثالث.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الأول: الروايات الواردة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم.

تناقلت الأمة الإسلامية الترتيب المصحفي بعد الجمع العثماني جيلا عن جيل حتى ذاع وشاع وعُلم موقع كل سورة منه في جل البقاع، أما الترتيب النزولي فقد نُقلت إلينا في بيانه روايات وآثار عن الصحابة والتابعين الأخيار، ورد في بعضها ترتيب مجمل السور وجاء في أخرى ترتيب بعض السور دون بعض، سيأتي تفصيل الحديث عن كل مجموعة في فرع مستقل.

الفرع الأول: الروايات الواردة في ترتيب نزول مجمل سور القرآن الكريم.

جاء في بيان ترتيب نزول سور القرآن الكريم كاملا عدد من الروايات منها المسندة ومنها غير المسندة، اهتم عدد من الباحثين بإحصائها وتتبعها ودارسة حال رجالها، ما أغناني عن التفصيل فيها في هذا المقام طلبا للاختصار[1]، وإنما سأكتفي هنا ببيان خلاصة ما توصلت إليه هذه الأبحاث[2] في نقاط ثلاث:

أولا. المصادر التي ذكرت فيها الروايات: وردت روايات ترتيب القرآن الكريم كاملا حسب النزول في عدد من المصادر أُسندت في عدد منها بينما حذف إسنادها في أخرى[3]، وسأكتفي بذكر

---

(1) _ وقد كنت شرعت في تتبع وجمع كل الروايات الواردة في ترتيب النزول محاولة بيان أسانيدها ودراسة حال رجالها ثم الحكم عليها، لكني عدلت عن ذلك لما وجدتها كثيرة والتفصيل فيها يتطلب الإفراد ببحوث مستقلة.

(2) _ أقصد هنا تلك البحوث التي عُنيت بجمع الروايات وخصّتها بالدراسة والبحث والتحقيق سندا ومتنا وأذكر منها: ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص35 (مقال)/ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص112/ تفسير القرآن على ترتيب النزول (منبعه وفوائده)، محمد مجلي، ص255 (مقال)/ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص253 وما بعدها/ المكي والمدني في القرآن الكريم، محمد السريع، ص54.

(3) _ أحصاها محمد مجلي فوجدها أربعة عشرة رواية، يقول: "بلغت الروايات والآثار التي رتبت سور القرآن وفق تاريخ نزولها الأول فالأول، حسبما توصلت إليه أربع عشرة رواية وأثرا، وهذه الروايات منها ما وقفت على سنده، ومنها ما ذكر من غير سند، تحت مسمى "مصحف"". تفسير القرآن على ترتيب النزول، ص255. (مقال)

أهم المصادر التي ذكرت فيها الروايات مسندة[1]، وهي: تنزيل القرآن[2]، فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة[3]، التنبيه على فضل علوم القرآن[4]، دلائل النبوة[5]، مقدمة كتاب المباني لنظم المعاني[6]. وهذه أهم المصادر التي ذكرت فيها الروايات وإن كانت ذكرت في مصادر أخرى منها: تاريخ اليعقوبي[7]، النكت والعيون[8]، الإتقان في علوم القرآن[9]، تأريخ القرآن[10] وغيرها.

ثانيا. ترتيب السور ضمن الروايات: اختلفت الروايات فيما بينها في ترتيب السور ونقص عدد من السور في بعضها، مما أفقد الثقة فيها.

---

[1] _ وذلك لأن غير المسندة لا يمكن الحكم عليها صحة وضعفا للجهل بإسنادها، ومن ذلك الترتيب الذي ذكره الزركشي ثم قال: "...فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة وعليه استقرت الرواية من الثقات وهي خمس وثمانون ذكر ترتيب ما نزل بالمدينة وهو تسع وعشرون سورة..."، فلم يذكر لنا سلسلة الإسناد حتى نتمكن من دراسته ومن ثم موافقته في الحكم الذي أصدره أو مخالفته، وقد أحصى طه محمد فارس الروايات المسندة وبلغت عنده تسع روايات صنفها ورتب سورها في جدولين. ينظر: البرهان في علوم القرآن، مج1، ص193- 194/ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، ص147 وما بعدها.

[2] _ قال ابن شهاب الزهري: "هذا كتاب تنزيل القرآن، وما شاء الله أن يعلم الناس ما أنزل بمكة وما أنزل بالمدينة، فأول ما أنزل الله بمكة...ثم يأتي ما أنزل بالمدينة...". ينظر: تنزيل القرآن، ص23.

[3] _ جاء في الكتاب أثر رواه ابن الضريس عن ابن عباس من طريق عطاء. ينظر: فضائل القرآن، ابن الضريس، ص33 وما بعدها.

[4] _ ذكرت فيه الرواية المشهورة لصاحب الكتاب التي يرويها بسنده عن ابن واقد أنه قال: "من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته...". ينظر: التنبيه على فضل علوم القرآن، أبو القاسم النيسابوري، ص307- 308.

[5] _ روى أبو بكر البيهقي روايتين الأولى عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن ذكر فيها ترتيب مجمل سور القرآن الكريم، وذكر رواية أخرى عن ابن عباس من طريق مجاهد بيّن فيها أول ما نزل من القرآن الكريم وكذا السور التي سقطت من الرواية الأولى ولم يذكر متن الرواية. ينظر: دلائل النبوة، ج7، ص142- 143- 144.

[6] _ ورد في المقدمة ثلاث روايات اثنين منها مسندة إلى ابن عباس ﷺ الأولى من طريق أبي صالح والثانية من طريق عطاء، أما الثالثة فقد أسندها إلى علي بن أبي طالب ﷺ. ينظر: مقدمتان في علوم القرآن، ص8 وما بعدها.

[7] _ ذكر فيه ترتيب ما نزل من القرآن بمكة ثم ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة. ينظر: تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي، ج2، ص32- ص43.

[8] _ قال أبو الحسن الماوردي: "فقد روي في ترتيب السور المكية والمدنية أحاديث، أوفاها ما رواه آدم بن أبي أناس، عن عطاء الخرساني قال بلغنا أن هذا ما نزل من القرآن بمكة والمدينة الأول فالأول.." وختم هذه الرواية بقوله: "ولم تكن الفاتحة والله أعلم ضمن ما ذكره وقد اختلف الناس في نزول السور اختلافا كثيرا، لكن وجدت هذا الحديث أوفى وأشفى فذكرته".ينظر: النكت والعيون، ج6، ص309- 310.

[9] _ نقل فيه السيوطي رواية محمد بن الحارث بن أبيض. ينظر: الإتقان، ج1، ص167.

[10] _ رسم جدولا جمع فيه ترتيب أربعة مصاحف من بينها مصحف ابن عباس الذي كان على ترتيب النزول. ينظر: تأريخ القرآن، إبراهيم الأبياري، ص87 وما بعدها.

يقول محمد علي الحسن: "على أنّ المدقق في هذه الآثار يلحظ فيها اضطرابا من حيث الزيادة والنقصان ومن حيث التقديم والتأخير، فقدمت ما حقه التأخير وأخرت ما حقه التقديم وما دام أمر هذه الآثار بهذه الحال فلا يصلح أن نعوّل عليها في إفادة الترتيب الزمني لنزول السورة القرآنية"[1].

وقد رسم طه محمد فارس جدولين رتّب فيهما السور المكية في جدول والمدنية في آخر حسب ما جاء في الروايات التسع التي ذكرها ثم علّق عليه بقوله: "ومن خلال النظر في كلا هذين الجدولين والمقارنة بين تراتيب النزول التي وردت فيهما، وما بينها من اختلاف؛ سواء بالتقديم والتأخير، أو بالزيادة والنقصان، أو باختلاف مكان النزول، نشعر بعدم الاطمئنان والثقة بهذه الروايات"[2].

ثالثا. الحكم على الروايات: بعد تتبع عدد من الباحثين لروايات ترتيب نزول سور القرآن الكريم ودراستهم لأسانيدها ومتونها وبيان حالها تنوعت طريقة عرضهم للروايات لكنهم اتفقوا على الحكم بضعفها وعدم صلاحية الاحتجاج بها[3]، فهي لا ترقى للاعتماد عليها خاصة "وأنّ الترتيب الذي يخبر به الصحابي له حكم المرفوع، لأنّه من باب الرواية فيما لا اجتهاد فيه، ويشبه في حكمه حكم معرفة سبب النزول، ولذلك فلا طريق لتلك المعرفة إلا بالنقل الصحيح، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتمحيص والترجيح، والمعوّل عليهم في الترتيب هم الصحابة والتابعين"[4].

قال السيوطي: "ما كان عن صحابي فهو مسند مرفوع، إذ قول الصحابي فيما لا مدخل فيه للاجتهاد مرفوع، أو تابعي فمرسل، وشرط قبولهما صحة السند؛ ويزيد في الثاني أن يكون راويه معروفا بأن لا يروي إلا عن الصحابة، أو ورد له شاهد مرسل أو متصل ولو ضعيفا"[5].

وأسانيد هته الروايات منها الضعيفة ومنها الضعيفة جدا بل فيها الموضوعة، لجهالة بعض رواتها أو ضعفهم أو اتهامهم بالكذب والوضع وغيرها من العلل التي تقدح في صحة الرواية، وهذا من ناحية الإسناد أما من ناحية المتن فقد أسقطت الروايات عددا من السور، كما خالفت في ترتيبها الروايات الصحيحة الثابتة في ترتيب بعض السور وبيان مكيها ومدنيها.

---

[1] _ ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص41. (مقال)

[2] _ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، ص126 وما بعدها.

[3] _ ينظر تفصيل الحكم على كل رواية على حدى: ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص35 وما بعدها (مقال)/ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص91 وما بعدها/ تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول، محمد مجلي، ص255 وما بعدها (مقال)/ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص253 وما بعدها.

[4] _ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص89.

[5] _ التحبير في علم التفسير، ص86.

يقول محمد علي الحسن: "إن ما نسبه المؤلفون إلى أعلام الصحابة والتابعين كعلي بن أبي طالب وابن مسعود وابن عباس، وعكرمة وغيرهم. في دعواهم ترتيب القرآن النزولي لم يصح بحال من الأحوال، إنها دعاوي وإذا لم يقم أصحابها عليها البيّنات فهم أدعياء"[1].

ويقول طه محمد فارس: "من خلال استعراض روايات ترتيب النزول التي وقفت عليها، ودراستها سندا ومتنا، وتتبع نواقضها مما صح في الروايات، يمكننا القول أنها لا تصلح للاحتجاج في مثل هذا الأمر؛ لشدة ضعف أسانيدها، ومخالفة متونها لما صح في بيان المكي والمدني، إضافة لما اعترى متونها من خلل واضطراب في ترتيب السور، والله أعلم"[2].

و يختم محمد مجلي دراسته للروايات بقوله: "إن الروايات والآثار التي ذكرت ترتيب نزول سور القرآن الأول فالأول لا مجال لقبولها سندا ومتنا"[3].

أقول: إن الترتيب النزولي الذي سبق زمنيا الترتيب المصحفي له أصل إجمالا فقد تزامن مع نزول الوحي، ولكن وجود رواية صحيحة ثابتة عن النبي ﷺ أو عن أحد من الصحابة أو التابعين ﷺ في ترتيب كل السور حسب النزول –وهو مما لا مجال للرأي فيه– أمر مستبعد، فلم يثبت عنهم شيء بدليل معتبر فكل ما أثر لا يمكن الجزم بصحته، إضافة إلى اختلاف الروايات فيما بينها في عدد وترتيب السور.

ومما يمكن أن يستأنس به هنا هو اجتهاد كبار العلماء في وضع ضوابط يُميّز بها القرآن المكي عن المدني[4]، فلو كان هذا الترتيب متيسرا لما كلّفوا أنفسهم عناء البحث في ذلك، فإذا عُلم الترتيب النزولي عُلمت السور المكية والمدنية.

---

[1] _ ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص49. (مقال)

[2] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص132.

[3] _ تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول، ص261. (مقال)

[4] _ ينظر: الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، مكي بن أبي طالب، ص114 وما بعدها/ جمال القراء، السخاوي، ص337/ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص188– 189/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص106 وما بعدها.

الفرع الثاني: الروايات الواردة في ترتيب نزول بعض سور القرآن الكريم.

تحدثت في الفرع الأول من هذا المطلب عن الروايات الواردة في ترتيب نزول مجمل سور القرآن الكريم، أما هذا الفرع فسيأتي لبيان الروايات الواردة في ترتيب نزول بعض سور القرآن الكريم، ولا يُقصد في هذا المقام استيعابها بل التمثيل لها بما تتضح به معالم الموضوع وكيفية الاستفادة منه في ترتيب نزول سور القرآن الكريم.

فأقول وبالله التوفيق:

عُرف الصحابة ﷺ ومن جاء بعدهم من التابعين بعنايتهم الفائقة وضبطهم الدقيق لكل ما يتعلق بكتاب ربهم، فهذا ابن مسعود ﷺ يقول: "والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم منّي بكتاب الله، تبلّغه الإبل لركبت إليه"[1].

وقد رُويت عنهم عدد من الروايات يمكن أن نستخلص منها ترتيب نزول بعض السور، وهذه الروايات يدخل معظمها في علم "أول وآخر ما نزل من القرآن الكريم" الذي اهتم به من جاء بعدهم ممن ألف في علوم القرآن الكريم[2]، ويندرج ضمنه مسائل أربعة وهي: أول ما نزل من القرآن بمكة وآخر ما نزل من القرآن بها، وأول ما نزل بالمدينة وآخر ما نزل بها، ويدخل تحت هذه الأربعة أنواع أخرى منها: أول أو آخر ما نزل من القرآن مطلقا، أول أو آخر ما نزل من القرآن حول موضوع معين، آخر سورة نزلت كاملة بالمدينة وغيرها مما اهتم ببحثه جل من كتب في القرآن وعلومه، اخترت منهما نوعين من باب التمثيل بما يفي بالغرض.

النوع الأول: بيان أول ما نزل من القرآن بمكة.

وقع خلاف بين العلماء في تحديد أول سورة أنزلت على النبي ﷺ بإطلاق[3]، ومنبع الخلاف

---

[1] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم: 5002، ج6، ص187.

[2] _ فقد عدّه الزركشي النوع العاشر من علوم القرآن، بينما جعله السيوطي النوع السابع، ينظر: البرهان في علوم القرآن، مج1، ص206 / الإتقان، ج1، ص158.

[3] _ أي ليست مقيدة بموضوع معين.

يتعلق بتعدد الروايات التي نصت على ذلك[1]، إلا إنّ الذي عليه جمهور العلماء هو أنّ أول ما نزل هو صدر سورة (العلق).

عن عائشة ﵂ أنها قالت: "أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد، الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها، حتى فجِئه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، فقال له النبي ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: 1] – حتى بلغ – ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: 5]» فرجع بها ترجف بوادره"[2].

قال ابن الجوزي[3]: "واختلفوا في أول ما نزل من القرآن: فأثبت المنقول أن أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: 1]، رواه عروة عن عائشة وبه قال قتادة وأبو صالح. وروي عن جابر بن عبد الله: أن أول ما نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[المدثر: 1].

والصحيح أنه لما نزل عليه اقرأ باسم ربك رجع فتدثر فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[المدثر: 1]"[4].

قال ابن تيمية[5]: "أول ما أنزل من القرآن ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[العلق: 1] عند جماهير العلماء وقد

---

[1] _ تركت التفصيل في هذه الأقوال طلبا للاختصار ولكون الغرض من إيرادها هو التنويه بجهود العلماء في بيان ترتيب نزول السور، وينظر تفصيل القول فيها: جمال القراء، السخاوي، ص39/ المرشد الوجيز، أبو شامة المقدسي، ص31/ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص206/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص158 وما بعدها/ المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ص110 وما بعدها.

[2] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التعبير، باب: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، رقم: 6982، ج9، ص29.

[3] _ هو: عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن عبيد الله بن عبد الله البكري، أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي البغدادي الحنبلي، كان مبرزًا في التفسير والوعظ والتاريخ، من مصنفاته: زاد المسير في علم التفسير، والمنتظم في التاريخ، توفي سنة: 597 هـ. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج3، ص140/ طبقات المفسرين، السيوطي، ج1، ص50.

[4] _ زاد المسير في علم التفسير، ج1، ص12- 13.

[5] _ هو: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني أبو العباس، الحنبلي الدمشقي، أخذ عن: عبد الحليم بن تيمية ومجد الدين ابن عساكر، من مؤلفاته: درء تعارض العقل والنقل، الرسالة التدمرية، والعقيدة الواسطية، أخذ عنه: ابن قيّم الجوزية، وإسماعيل ابن كثير، توفي سنة: 728هـ. ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، ج4، ص192/ فوات الوفيات، الكتبي، ج1، ص74.

قيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[المدثر: 1] روي ذلك عن جابر. والأول أصح"[1].

وقال ابن القيم[2]: "ثم أكرمه الله بالنبوة...فأول ما نزل عليه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[العلق: 1] هذا قول عائشة والجمهور"[3].

وهذه الأقوال وغيرها تعبّر عن مدى عناية العلماء ببيان زمن وترتيب نزول السور، وإن اختلفوا في ذلك على مذاهب مستندها هو النقل عن الصحابة والتابعين ﷺ، ولا يُعمل العقل فيه إلا فيما ظاهره التعارض بالجمع أو الترجيح.

النوع الثاني: آخر سورة نزلت جملة على الرسول ﷺ.

اختلف العلماء في تحديد ذلك على أقوال منهم من ذهب إلى أنّ آخر سورة نزلت (براءة)، وقيل: سورة (المائدة)، وقيل: سورة (النصر)[4].

والقول الذي عليه أكثر العلماء هو أنّ سورة (النصر) هي آخر سورة نزلت بتمامها بالمدينة على الرسول ﷺ، فترتيبها في النزول الأخير وقد حكى الإجماع على ذلك عدد منهم.

روى مسلم في صحيحه عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أنّه قال: "قال لي ابن عباس: "تعلم...آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعا؟ قلت: نعم، إذا جاء نصر الله والفتح، قال: صدقت"[5].

وقال عنها القرطبي[6]: "وهي مدنية بإجماع...وهي آخر سورة نزلت جميعا؛ قاله ابن عباس في صحيح مسلم"[7].

---

[1] _ مجموع الفتاوى، ج16، ص255.

[2] _ هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد أبو عبد الله الدمشقي الحنبلي، من أشهر شيوخه: ابن تيمية الحراني، وأبي نصر ابن الشيرازي، من مؤلفاته: الوابل الصيِّب من الكلم الطيب، التبيان في أقسام القرآن، وجلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام، توفي سنة: 751هـ. ينظر: الدرر الكامنة، ابن حجر العسقلاني، ج5، ص137/ بغية الوعاة، السيوطي، ج1، ص62.

[3] _ زاد المعاد في هدي خير العباد، مج1، ص83 .

[4] _ ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص210/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص183.

[5] _ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: في حديث الهجرة، رقم: 3024، ص1210 .

[6] _ هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح أبو عبد الله، الأنصاري الأندلسي القرطبي المالكي، فقيه مفسر عالم باللغة من أبرز مصنفاته تفسيره الجامع لأحكام القرآن، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكار في أفضل الأذكار، توفي سنة: 761هـ. ينظر: الوافي بالوفيات، الصفدي، ج2، ص87/ الديباج المذهب، ابن فرحون، ج2، ص308- 309.

[7] _ الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص229.

ومن ثمّ فإنّ من أبرز أنواع علوم القرآن التي يمكن الاستعانة بها أثناء البحث في الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم علم "أول ما نزل وآخر ما نزل في القرآن الكريم"، فقد اهتم به الصحابة ﷺ ومن جاء بعدهم اهتماما بالغا وثبتت فيه روايات صحيحة تفيد مواقع بعض السور.

وصفوة القول في ذلك كله: أنّ ترتيب نزول جميع سور القرآن الكريم لا يتأتى إلا بالرواية الصحيحة عن الصحابة ﷺ وهذا ما لم تسعفنا به الروايات الواردة في ذلك، فهي ضعيفة غير صالحة للاحتجاج بها؛ وما ثبت هو ترتيب بعض السور وقد شكلت حلقات ثابتة من سلسلة الترتيب النزولي.

واستبعاد وجود ترتيب نزولي لسور القرآن الكريم كاملا لضعف الروايات الواردة في ذلك، مع صحّة بعض الروايات في ترتيب بعض السور، يدفعنا للبحث عن مصادر أخرى يمكن الاستعانة بها للوصول إلى الترتيب النزولي ولو بشكل تقريبي، وقد أشار إليها محمد علي الحسن بقوله: "وبالجملة فإن ترتيب السور من حيث النزول أمر معاكس لمنطق الواقع والمعقول والمنقول جميعا لسبب يسير جدا هو أنه غير كائن ولا يمكن أن يكون أصلا. أما معرفة الترتيب النزولي فنكتفي بمعرفة نزول النجوم القرآنية المتفرقة في السور القرآنية، وهذا أمر يمكن التوصل إليه بمراجعة أسباب النزول أحيانا أو معرفة الوقائع والأحداث والمناسبات التي نزلت بشأنها الآيات، أو بأخبار الصحابة ...وقد تأتي الآيات القرآنية بتصريحات أو إشارات بأولوية نزول نجم وسبقه لنجم آخر بل وقع التصريح بنسخ آية لآية..."[1]. والتفصيل في هذه المصادر سيكون موضوع فاتحة فروع المطلب الموالي.

[1] _ ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص 47-48. (مقال)

المطلب الثاني: تاريخ ترتيب نزول سور القرآن الكريم.

حظي علم نزول القرآن الكريم باهتمام الكثير من المؤلفين –القُدامى والمحدَثين– في مدوناتهم في علوم القرآن، فقد وضعوا في ذلك عشرات البحوث والمجلدات والرسائل، حتى أضحى هذا العلم من أهم المسائل التي بُحثت في علوم القرآن، والحديث عنه متعدد الجوانب والأنحاء، سيقتصر الاهتمام في هذا المطلب بما يُمهد لنا البحث في الفصول اللاحقة، وذلك بذكر مصادر البحث في الترتيب النزولي للسور في فرع، ثم بيان فوائد العلم بتاريخ ترتيب النزول في فرع ثان، وأختم بالحديث عن أصول فكرة ترتيب النزول في فرع أخير، فيكون مجموعها ثلاثة فروع شكلت المادة العلمية لهذا المطلب.

الفرع الأول: مصادر البحث في الترتيب النزولي للسور.

تواتر نقل المصحف الشريف بين الأجيال المتعاقبة وفق ترتيب المصحف الذي يبدأ بسورة (الفاتحة) ويختتم بسورة (الناس)، بينما لم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى الترتيب النزولي للسور فهو ظني في معظمه إذ لم تثبت رواية في ترتيبه كاملا في المصادر التي ذكرت الروايات، وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن مصادر أخرى تعين على الوصول إليه ولو بصورة تقريبية، ففي ما أثبته العلماء في بعض مؤلفاتهم إشارات ودلالات ترشد الباحث وتعينه على الوصول إلى زمن النزول ومعرفة المتقدم والمتأخر من السور، فهي بذلك بمثابة قرائن يستعان بها في معرفة الترتيب الزمني للنزول.

وبناء على ذلك يمكن تقسيم مصادر البحث في تاريخ ترتيب نزول السور إلى قسمين[1]:

أولا: مصادر أصلية.

وتتمثل في كتب السنة التي جمعت الأحاديث النبوية وآثار الصحابة ﷺ، مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما، فقد نقلت الكثير من التفاصيل حول آيات وسور القرآن الكريم، بيانا لمعانيها أو تحديدا لمن نزلت فيهم أو دلالة على مكان أو زمن النزول.

وعليه فلو ثبتت رواية فيها دلالة على الزمن وكان لها ارتباط بسورة أو آية فهي أحد أهم المصادر لتحديد تاريخ نزولها ومعرفة ترتيبها.

---

[1] _ تركت التمثيل لكل مصدر من هذه المصادر طلبا للاختصار، إذ معظمها إما سبق التمثيل له مثل الروايات التي جاءت في كتب السنة أو سيأتي ذكر أمثلة عنه فيما سيأتي من هذه الرسالة، وأكتفي هنا بالتنبيه إلى بعض المراجع التي فصّلت الحديث فيها، ينظر: أهمية العلم بتاريخ النزول، أحمد شكري وعمران نزال، ص41/ منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، نادي صبرا، ص36.

ويُلحق بهذا القسم المصادر التي ذكرت فيها روايات ترتيب نزول مجمل سور القرآن الكريم، وقد سبق الحديث عنها أثناء الحديث عن الروايات الواردة في ترتيب النزول في الفرع الأول من المطلب الأول من هذا المبحث.

ثانيا: مصادر تبعية.

ومن أهم تلك المصادر:

1. **كتب علوم القرآن الكريم:** والتي ضمت جملة من العلوم يعد بعضها من أهم روافد البحث في ترتيب نزول السور[1]، ومن أهم تلك العلوم:

– **علم أوّل وآخر ما نزل من القرآن الكريم:** وقد سبق الحديث عنه والتمثيل له في الفرع السابق.

– **علم المكي والمدني:** يقف الباحث في هذا العلم على مدى عناية من كتب فيه ببيان زمن نزول الآيات والسور القرآنية والإشارة إلى ترتيب نزولها، وذلك في محاولتهم لبيان نوع السورة وتحديد المكية والمدنية منها، وكذا الفصل في السور المختلف فيها بالاعتماد على جملة من المرجحات منها ما يتعلق بالرواية والأثر ومنها ما يحتاج إلى الاجتهاد والنظر، ولاشك أنّ تقسيم السور إلى مكية ومدنية والفصل فيها يعتبر خطوة أولى في الترتيب النزولي لها، ليتأتى بعدها ترتيب السور في كل قسم[2].

– **علم أسباب النزول:** تضمنت الكثير "من روايات أسباب النزول النص على وقت نزول الآية أو التلميح إليه، مما يعين الباحث في ترتيب النزول على تلمس طريقه ومحاولة تحديد وقت نزول الآية، وقد يتطلب الأمر من الباحث التدقيق في الرواية لاستخراج قرائن تعينه على تحديد وقت نزول الآية كذكر مكان ما فيها، أو من خلال اسم الصحابي راوي سبب النزول وما أشبه ذلك"[3].

– **علم الناسخ والمنسوخ:** يرتكز البحث في هذا العلم على معرفة المتقدم والمتأخر في النزول، فالمتأخر في زمن تشريعه ناسخ والمتقدم منسوخ ولا ريب أن ذلك خير معين على الترتيب النزولي للسور،

---

[1] _ أقصد في هذا المقام كتب علوم القرآن بشكل عام، سواء تلك التي جمعت عددا من العلوم أو التي أفردت أحدها بالتصنيف.

[2] _ فقد عُني المؤلفون مثلا في هذا النوع من علوم القرآن بذكر الروايات الواردة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم سواء من أفرده بالتأليف أو من خصص له قسما في كتابه حيث تذكر الروايات ضمن مبحث المكي والمدني، مثل صنيع ابن الضريس وابن شهاب الزهري والزركشي. ينظر: فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، ص33/ تنزيل القرآن، ص23/ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص193.

[3] _ أهمية العلم بتاريخ النزول ومصادره، ص45.

فإذا ثبت النسخ عُلم الترتيب، والعكس أيضا صحيح فإذا علم الترتيب بين موضعين عُلم الناسخ والمنسوخ منهما؛ فالعلاقة بين ثبوت النسخ وترتيب النزول وثيقة ولا غنى لأحدهما عن الآخر.

– **علم المناسبات:** حرص جمع من العلماء وفي مقدمتهم المفسرون لكتاب الله ﷻ على الكشف عن أسرار ترتيب آيات وسور القرآن الكريم، واستخراج ما بينها من روابط عُرفت بالمناسبات، وقد اتخذها بعضهم قرائن اعتمدها في بيان ترتيب بعض السور والتنبيه على المتقدم في النزول والمتأخر منها.

فنجد الآلوسي مثلا حين بيّن أوجه الترابط بين السورتين للدلالة على أنّ سورة (هود) نزلت بعد سورة (يونس)، يقول: "ووجه اتصالها بسورة يونس عليه السلام أنه ذكر في سورة يونس قصة نوح عليه السلام مختصرة جدا مجملة فشرحت في هذه السورة وبسطت فيها ما لم تبسط في غيرها من السور ولا سورة الأعراف على طولها... فكانت هذه السورة شرحا لما أجمل في تلك السورة وبسطا له ثم إن مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك فإن قوله تعالى هنا: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: 1] هو نظير قوله سبحانه هناك: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: 1] بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط أيضا حيث ختمت بنفي الشرك وإتباع الوحي وافتتحت هذه ببيان الوحي والتحذير من الشرك"[1].

وقال ابن عاشور: "نزلت هذه السورة بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف. وقد عدت الثانية والخمسين في ترتيب نزول السور"[2].

2. **كتب السيرة والمغازي:** وهذه المصادر حوت الكثير من القرائن والإشارات المعينة على التأريخ والمفيدة في بيان زمن نزول السور القرآنية، ومعرفة الوقائع والأحداث التي نزلت بشأنها الآيات.

وهذه باختصار أهم المصادر التي يمكن الاستعانة بها في طريق البحث عن زمن نزول السور، بهدف الوقوف على ترتيبها.

وفي الختام أقول: إن هذه المصادر تعتبر خير مُعين لمن استفاد منها وأحسن استغلالها في محاولة الوصول إلى الراجح مما ذُكر فيها بغية الكشف عن الترتيب النزولي للسور الذي هو ظني في معظمه، وقد أوجزت القول فيها طلبا للاختصار وإلا فالحديث عن ما تضمنته من إشارات شيّق، والبحث بهدف التأريخ لكل سورة شاق، يحتاج إلى بحوث جادة تكشف اللّثام عنه.

---

[1] _ روح المعاني، ج6، ص189.

[2] _ التحرير والتنوير، ج11، ص312.

الفرع الثاني: فوائد معرفة تاريخ ترتيب النزول.

إن محاولة تفسير آيات وسور القرآن الكريم مع مراعاة البعد الزماني والمكاني للنزول كان ديدن الكثير من المفسرين منذ عهد مبكر وحتى العصر الحديث[1]، الذي زاد فيه الاهتمام بذلك بظهور تفاسير حاول أصحابها بيان معاني القرآن الكريم بحسب ترتيب نزول السور.

قال الفيروز آبادي[2]: "اعلم أن نزول آيات القرآن، وأسبابه، وترتيب نزول السور المكية، والمدنية، من أشرف علوم القرآن"[3].

وسيأتي هذا الفرع لإبراز هذه الأهمية والتي تتلخص في نقاط:

1- السير على خطى السلف واتّباع هديهم في تفسير آيات وسور القرآن الكريم، فقد اهتم الصحابة ﷺ ببيان تاريخ النزول، بل يمكن القول: إنّ اللّبنات الأولى لهذا العلم ترجع إلى عصر النبوة إذ إنّ "المنهج النبوي في تعليم القرآن كان أيضا يساير تاريخ نزول آيات وسور القرآن الكريم في مكة والمدينة، وهذا يوضح التلازم بين تاريخ نزول القرآن وبين السيرة النبوية العطرة وسيرة الذين آمنوا من الصحابة وغيرهم ﷺ"[4].

فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يقول في نزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: 3]: "إني لأعلم حيث أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حين أنزلت: يوم عرفة وإنا والله بعرفة "[5].

وهذا الأثر وإن دل على شيء فإنه يدل على حرصهم ﷺ وشدة استيثاقهم واهتمامهم بكل تفاصيل الوحي، يقول مناع القطان: "فجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون

---

[1] _ وقد فصّل في هذه المسألة وبحثها ومثّل لها عبد السلام بن صالح بما يغني عن بسط القول فيها هنا. ينظر: أثر التاريخ في تفسير القرآن الكريم، ص13 وما بعدها. (مقال)

[2] _ هو: محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروز آبادي أبو الطاهر، من أئمة اللغة والأدب، ولد سنة: 729هـ، وأخذ العلم عن عن كبار علماء عصره مثل ابن القيم والعز بن جماعة، وتتلمذ له جماعة من الأكابر كالصلاح الدين الصفدي، من مؤلفاته: القاموس المحيط، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، توفي باليمن سنة: 817هـ. ينظر: إنباء الغمر، ابن حجر، ج7، ص159/ بغية الوعاة، السيوطي، ج1، ص273.

[3] _ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، ص100.

[4] _ أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره، أحمد شكري وعمران نزال، ص8.

[5] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة: 3]، رقم: 4606، ج6، ص50.

منازل القرآن آية آية ضبطا يحدد الزمان والمكان، وهذا الضبط عماد قوي في تاريخ التشريع يستند إليه الباحث في معرفة أسلوب الدعوة، وألوان الخطاب، والتدرج في الأحكام والتكاليف"[1].

2- الاستعانة بتاريخ ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم، إذ إنّ الوقوف على زمن نزول الآية أو السورة وما نزل قبلها وبعدها يعين على فهمها ومعرفة مدلولاتها.

ومثاله سورة (الكافرون) فمن يقرأها قد يفهم من قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:6] إسقاط فريضة الجهاد على المسلمين وذلك لأنّها من أواخر السور في ترتيب المصحف، "ولكن إذا علم أنّ السورة نزلت بمكة أدرك أن هذه السورة علاج للمرحلة التي كان فيها الرسول ﷺ بمكة وليست دليلا على عدم مشروعية الجهاد"[2].

3- الوقوف على التدرج فيما شُرع للناس إيجابا أو تحريما؛ ومن حكم التدرج في التشريع التيسير ومراعاة حال المخاطبين، والأمثلة على ذلك كثيرة ولعل من أشهرها التدرج في تحريم الخمر[3]، فلم ينزل تحريم الخمر دفعة واحدة وذلك لمشقة تركه على النفوس دفعة واحدة، بل جاء عبر مراحل حتى إذا أصبح الجو ملائما جاء الحكم الصريح الجازم في المدينة النبوية بتحريمها[4].

وهنا تكمن أهمية معرفة تاريخ ترتيب النزول، إذ بدونه يختل الفهم، و لولاه لما عرفنا أحد أهم خصائص الدعوة والتشريع وهي خاصية التدرج، والتي لابد من جعلها منهجا في الدعوة إلى الله، فلكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليبها وهذا هو منهج النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة الإسلام في مكة والمدينة.

4- مسايرة أحداث السيرة النبوية، فالقرآن الكريم لم ينزل دفعة واحدة بل كان ينزل منجما على النبي ﷺ، الذي كان يعلم أصحابه الآيات التي تنزل كل مرة ويوجههم لما فيها من أحكام وحكم،

---

(1) _ مباحث في علوم القرآن، ص49.

(2) _ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص138.

(3) _ قال القرطبي: "تحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة؛ فإنهم كانوا مولعين بشربها، وأول ما نزل في شأنها ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[البقرة: 219] أي في تجارتهم؛ فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس...ولم يتركها بعض الناس...فنزلت هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾[النساء: 43] فتركها بعض الناس...وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة حتى نزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ ﴾[المائدة: 90] فصارت حراما عليهم حتى صار يقول بعضهم: ما حرم الله شيئا أشد من الخمر". الجامع لأحكام القرآن، ج6، ص286.

(4) _ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فإن الخمر حرمت سنة ثلاث بعد أحد باتفاق الناس". مجموع الفتاوى، ج14، ص117.

وذلك أن هذه الآيات منها ما يكون فيه جواب لسؤال وُجه إلى النبي ﷺ، أو توضيح لواقعة معينة وما يستنبط منها من عبر، أو وعيد لمن خالف أوامر الله ﷻ أو وعد بالجنان لمن أطاع الرحمن، ومن ثمّ فإن الاستفادة من هذا المنهج النبوي من الأهمية بمكان.

5– الترجيح بين الأقوال المتعارضة ومعرفة الصحيح أو الأرجح منها، إذ يعد العلم بتاريخ ترتيب النزول من أهم الروافد التاريخية في علم التفسير.

فقد اختلف الصحابة ﷺ في عدة المتوفى عنها زوجها وهي حامل هل تنقضي عدتها بوضع حملها، أو لابد لها من إكمال أربعة أشهر وعشرا كما جاء في الآية؟

فما كان جواب عبد الله ابن مسعود ﷺ إلا أن قال: "أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرّخصة، لنزلت سورة النّساء القصرى بعد الطّولى ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: 4]"[1].

وفي هذا الأثر دلالة على أنّ ابن مسعود ﷺ احتج بزمن نزول السورتين وهما سورة (الطلاق) وسورة (البقرة) للفصل في حكم شرعي اختُلف فيه؛ فسورة (الطلاق) التي بيّنت أنّ عدة المرأة الحامل أن تضع حملها في قوله ﷻ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[الطلاق: 4] قد نزلت بعد سورة (البقرة) التي جاء فيها ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾[البقرة: 234].

وهنا تظهر أهمية مراعاة ترتيب نجوم التنزيل فما كان له ﷺ أن يبرهن على صحة القول الأول إلا لعلمه بترتيب السور نزولا، فالزّلة في هذا الباب خطيرة، ولها آثار وخيمة في استنباط الأحكام.

6– الاستفادة من ترتيب النزول في بعض مباحث علوم القرآن وعلى رأسها معرفة الناسخ والمنسوخ إذ المتأخر ينسخ المتقدم، وكذا معرفة المكي من السور والمدني منها والمطلق والمقيد، فإذا جُهل زمن النزول وقع اللّبس في فهم المراد من الآيات القرآنية، وما يستنبط منها من أحكام شرعية، إذ الاستدلال على نسخ ما في بعض السور المتأخرة نزولا لبعض ما تقدمها نزولا يتيسر بمراعاة ترتيب نجوم التنزيل.

فعن سعيد بن جبير قال: "قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمنا متعمّدا من توبة؟ قال: لا، قال: فتلوت عليه هذه الآية التي في الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الفرقان: 68] إلى آخر الآية، قال: "هذه آيَة مكيّة نسختها آية مدنيّة": ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

---

[1] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق: 4]، رقم: 4910، ج6، ص156.

مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾[النساء: 93]"[1].

وهنا راعى ابن عباس ﷺ ترتيب نزول الآيات في قوله بالنسخ، إذ المتقدم في التنزيل وهو المكي ينسخ بالمتأخر.

ولعل خير ما نختم به في هذا المقام هو ما نبه إليه أحمد شكري وعمران نزال بقولهما: "إن علم تاريخ نزول آيات القرآن وسوره، لا يقصد حصر فهم آيات القرآن بالتاريخ الزماني والمكاني الذي نزل به القرآن، بل يسعى إلى اعتماد هذا العلم قاعدة ينطلق منها فهم أدق وأوسع وأشمل، وذلك بتحقيق معرفة حكمة نزول هذه الآيات بسبب حدث معين أو شخص أو أشخاص معينين، حيث إن العلم بمن نزل فيهم القرآن أو بسببهم أو بسبب علاقة الإسلام بهم يعين قارئ القرآن على تدبره وفهمه وتفسيره"[2].

وإذا كان لمعرفة تاريخ ترتيب نزول السور والآيات هذه الفوائد التي تبرز أهميته، فهل تعتبر إحدى المسوّغات التي تبرر تفسير القرآن الكريم كاملا وفق الترتيب النزولي للسور؟

وهل كان السعي إلى تحقيق هذه الفوائد من الأسباب التي دفعت بالمفسرين وفق ترتيب النزول إلى سلوك هذا الدرب؟

أم أنّ توظيفها في تفسير القرآن الكريم وفق المنهج الذي درج عليه السلف يفي بالغرض فلا حاجة لهذه التفاسير؟

هذه الإشكالات وأخرى سيأتي التفصيل فيها في ثنايا الرسالة بإذن الله.

الفرع الثالث: أصول فكرة الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.

يقف الباحث عن الجذور الأولى لمحاولة ترتيب سور القرآن الكريم وفق تاريخ نزولها على حقيقة مفادها أنّ هذه الفكرة ليست وليدة العصر الحديث، كما هو الحال بالنسبة لتجسيدها بظهور تفاسير وفق هذا الترتيب، وإنما كانت لها جذور قديمة في التاريخ ودوافع وأهداف تختلف باختلاف مصادرها والقائلين بها، فمنهم من هو سيء النيّة خبيث الطويّة أراد تحريف القرآن الكريم والتشكيك في مصدريته وقدسيته، ومنهم من كانت نيّته حسنة أراد خدمة القرآن الكريم يريد بذلك التجديد فهو اجتهد وقد يخطأ وقد يصيب.

---

[1] _ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: في حديث الهجرة، رقم: 3023، ص1210.

[2] _ أهمية العلم بتاريخ النزول آيات القرآن الكريم ومصادره، ص18.

وانطلاقا من ذلك يمكن تقسيم القائلين بهذه الفكرة إلى قسمين، الأول: يمثله الذين دعوا إلى إعادة ترتيب القرآن في المصحف بحسب ترتيب نزوله، والثاني: يمثله الذين اهتموا بترتيب النزول باعتبار أن القرآن أنزل كذلك ومنهم من دعا إلى تفسيره على وفق ذلك.

أولا: دُعاة إعادة ترتيب القرآن الكريم وفق نزوله.

اهتم المسلمون منذ مبعث النبي ﷺ بالقرآن الكريم سواء من حيث حفظه في الصدور أو من حيث تدوينه في السطور، حتى جاء عهد عثمان ﷺ الذي حُفظ فيه القرآن الكريم على هذا الترتيب الذي عليه المصحف اليوم، فقد أجمع عليه الصحابة ﷺ وتناقله المسلمون بعدهم عبر مر العصور.

ولكن هناك من حاول التّشكيك في مصدرية الجمع العثماني للقرآن الكريم ودعا إلى ضرورة إعادة ترتيبه وفق ترتيب النزول، وفي هذا العرض سأكتفي بذكر نماذج من التاريخ زعم أصحابها بضرورة إعادة النظر في الترتيب المصحفي.

1. الشيعة: إذا قلبنا صفحات التاريخ نجد أن الشيعة[1] كانوا أوّل من تصدى ودعا إلى إعادة ترتيب المصحف وذلك لاعتقادهم أنّ أوّل من جمع القرآن الكريم بعد رسول الله ﷺ هو علي بن أبي طالب ﷺ[2]، فمن المسلمات عندهم أن المصحف العلوي مرتب وفق ترتيب النزول، وإليك نزر من أقوالهم:

يقول أحد أعيانهم: "وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام القرآن المنزل من أوله إلى آخره، وألفه بحسب ما وجب من تأليفه، فقدم المكي على المدني، والمنسوخ على الناسخ، ووضع كل شيء منه في محلِّه"[3].

وجاء في الميزان: "قد ورد عن علي أنه جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي ﷺ

---

[1] _ أطلق لفظ الشيعة في العصر الأول على الذين شايعوا عليا ﷺ وقدّموه على سائر الصحابة ﷺ، ثم أصبح يطلق بعد ذلك على كل رافض لخلافة الأئمة الثلاثة المتمسك بالقول بعصمة أهل البيت، وهم فرق وطوائف منهم من هو أقرب للحق ومنهم من يعتقد ما يخرجه عن دائرة الإسلام والمسلمين. ينظر: مقالات الإسلاميين، علي بن إسماعيل الأشعري، ص5 وما بعدها/ الفرق بين الفرق، عبد القاهر الأسفراييني، ص22 وما بعدها/ الملل والنحل، محمد الشهرستاني، ج1، ص145 وما بعدها.

[2] _ قال ابن النديم: "ترتيب سور القرآن في مصحف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. قال بن المنادي: حدثني الحسن بن العباس قال أخبرت عن عبد الرحمن بن أبي حماد عن الحكم بن ظهير السدوسي عن عبد خير عن علي عليه السلام أنّه رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي ﷺ فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداؤه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمع القرآن، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه، وكان المصحف عند أهل جعفر. ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسني رحمه الله مصحفا قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن على مر الزمان وهذا ترتيب السور من ذلك المصحف". الفهرست، ص41.

[3] _ المسائل السروية، الشيخ المفيد، ص80.

أخرجه ابن أبي داود وهو من مسلمات مداليل روايات الشيعة"[1].

والغريب أنهم يجزمون بوجود هذا المصحف ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث لإثبات وجوده يقول أحد مشايخهم: "إن وجود مصحف لأمير المؤمنين عليه السلام يغاير القرآن الموجود في ترتيب السور مما لا ينبغي الشك فيه، وتسالم العلماء الأعلام على وجوده أغنانا عن التكلف لإثباته"[2]، لكن هل هذا المصحف موجود فعلا ولا زالوا يستندون إليه وهو بين أيديهم اليوم؟

يجيب على ذلك ما يرويه صاحب الكافي "عن سالم بن سلمة قال: "قرأ رجل على أبي عبد الله عليه السلام وأنا أستمع حروفا من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله عليه السلام: كف عن هذه القراءة اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام القائم عليه السلام قرأ كتاب الله عز وجل على حده، وأخرج المصحف الذي كتبه عليّ عليه السلام، وقال: أخرجه عليّ عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه، فقال لهم: هذا كتاب الله عز وجل كما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وآله، وقد جمعته من اللوحين، فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبدا، إنما كان عليّ أن أخبركم حين جمعته لتقرءوه"[3].

وهذا ما بنى عليه الشيعة اعتقادهم أن المهدي المنتظر دخل في السرداب ومعه المصحف ولم يزل هناك، وسيُخرج معه المصحف عند خروجه[4].

وهذه الأوهام تصدى لها علماء المسلمين وأكدوا على أن هذا المصحف لا وجود له، بل هو من أباطيل وخرافات الشيعة التي يتمسكون بها دون دليل[5]، "والإمام علي، مثل كثير من الصحابة، كان يكتب لنفسه كل آية ساعة نزولها. ومن هذا وبهذا اجتمعت عند ستة أو سبعة من الصحابة سور وآيات على ترتيب نزولها. وكان هذا من الاهتمام لا من الاختلاف"[6].

و اعتقادهم في مصحف الإمام علي أنه هو الحق وأنه يخالف ترتيب المصحف دفعهم إلى

---

[1] _ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ج12، ص128.

[2] _ البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الموسوي الخوئي، ص223.

[3] _ الأصول من الكافي، محمد الكليني، كتاب: فضل القرآن، باب: النوادر، رقم:23، ج2، ص633.

[4] _ فقد جاءت نصوص عندهم تأمرهم بالعمل بالقرآن ريثما يخرج مصحفهم مع إمامهم المنتظر. ينظر: أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، ناصر بن عبد الله القفاري، ج1، ص256/ الشيعة والسنة، إحسان إلهي ظهير، ص88 وما بعدها.

[5] _ ينظر تفصيل الحديث عن هذه الفرية ورد العلماء عليها: أصول مذهب الشيعة، ناصر بن عبد الله القفاري، ج1، ص261 وما بعدها.

[6] _ الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، موسى جار الله، ص126. ينظر: المصاحف المنسوبة للصحابة، محمد الطسان، ص444.

المطالبة بضرورة إعادة ترتيب القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، ونضرب مثالا لأحد المعاصرين الشيعة الذي وضع رسالة بعنوان: (ترتيب سور القرآن حسب التبليغ الإلهي)[1] زعم فيها أن بترتيب القرآن حسب النزول تزول جميع الاختلافات بين الشعوب، وهذا من الأغراض التي أظهرها وصرح بها وما يخفونه أعظم.

ويحسن التنبيه في ختام الحديث عن هذه الطائفة إلى أن لهم جهودا في تفسير الآيات والسور وفق ترتيب نزولها، أشار إليها من كتب في التفسير وفق ترتيب النزول من الشيعة أنفسهم[2].

2. **المستشرقون**: لعل من أهم من سار على نهج الشيعة واقتفى أثرهم في الترويج لفكرة إعادة ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله أتباعهم من المستشرقين[3] فقد تبنى هذه الدعوة الكثير منهم[4]، بل منهم من اعتمد التسلسل الزمني للنزول في ترجمة معاني القرآن الكريم[5]، ولم يكن بحثهم في

---

[1] _ وهي للميرزا باقر وقدم لها محمد الباقر ولم أتمكن من الحصول عليها. ينظر: تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص15/ القرآن الكريم في المنظور الاستشراقي، محمد أبو ليلة، ص206.

[2] _ منها: التفسير المتدبر للقرآن الكريم حسب النزول لمهدي بازركان. ينظر: تفسير القرآن بحسب ترتيب النزول، محمد علي لساني وسمية ذو القدرينا، ص85. (مقال)

وقد وقفت على عناوين وملخصات لعدد من المقالات عند باحثين شيعة حول التفسير وفق ترتيب النزول، ولكن لم أتمكن من الحصول عليها، وإليك بعضها إتماما للفائدة: اتجاه جديد في تفسير القرآن وفق ترتيب النزول لعبد الكريم بهجت بور، أسس تفسير القرآن حسب ترتيب النزول لحسين هاشمي، نقد جدوى التفسير حسب النزول لمحمد علي ايازي.

[3] _ المستشرقون: هم المفكرون والباحثون الغربيون الذين عملوا على دراسة الشرق والحضارات الشرقية وما يتعلق بها، ظهروا في جميع مناطق أوروبا وخاصة الدول الاستعمارية، تعلموا اللغة العربية وكتبوا عن الإسلام وعن الأديان، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، منهم من هو حسن النيّة وأكثرهم كان همه الطعن في الإسلام وتشويه محاسنه وتحريف حقائقه. ينظر: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفيتش، ص21 وما بعدها/ الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص17/ الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، أحمد السايح، ص10.

[4] _ أمثال: وليم موير، نولكه، بلاشير، غريم، كولد زيهر، جاك بريك وغيرهم، "ولعل من أشهر هذه الجهود ترتيب السور حسب النزول الذي بدأه فيل (**Gotthol Wail**) سنة 1844م، وأكمله نولدكه سنة 1860م، وصححه صاحبه شافلّي (**Schwally**) سنة 1872م، وهو المعروف "بترتيب نولدكه"". أهمية العلم بتاريخ النزول ومصادره، ص35. ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص175/ آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، عمر رضوان، ج2، ص492 وما بعدها/ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه فارس، ص16 وما بعدها/ محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، فريد مصطفى سليمان، ص127/ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص246.

[5] _ وهو المستشرق الفرنسي بلاشير، حيث رتب كتابه ترجمة القرآن الكريم على وفق النزول ثم عدل عن ذلك ورتبه وفق ترتيب المصحف. ينظر: القرآن نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، بلاشير، ص25 وما بعدها/ مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص177/ آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، عمر رضوان، ج2، ص499/ دراسة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية التي أعدها ريجيس بلاشير، فودي سوريبا، ص8 وما بعدها.

هذا الترتيب من باب الفضول بل كانت لهم أغراض وأهداف[1] سعوا إلى تحقيقها والوصول إليها معتمدين على أسس ومناهج قابلة للأخذ والرد ولا تسلَم من النقص بل النقض، ويمكن وصف هذه الدراسات بأنها "دراسات وقراءات ناقضة لتاريخ نزول القرآن والنبي والسيرة النبوية"[2]، لأنها وإن كانت فيها فائدة وحسن نيّة أحيانا، ففيها طعن وخبث طوية في كثير من الأحيان، فهي تصبوا إلى المساس بقدسية القرآن والتشكيك في مصدريته.

3. **الباحثون المعاصرون**: تسرب فكر الشيعة في الدعوة إلى إعادة ترتيب المصحف وفق النزول إلى عدد من المعاصرين، فقد تعالت أصوات بعض الباحثين من غير الشيعة متأثرة بالدراسات الاستشراقية، تنادي إلى إعادة ترتيب سور القرآن حسب نزولها، لعدم جدوى الترتيب الموجود في المصاحف ومنهم الباحث يوسف الراشد وذلك في رسالة تقدم بها إلى الأزهر بعنوان: (رتبوا القرآن كما أنزله الله) قال فيها: "ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن؛ لأنه يخالف منهج التدرج التشريعي الذي رُوعي في النزول، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة لأن القارئ إذا تنقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذي كان فيه"[3].

فعلى قول هذا الباحث فإن الأمة مذ نزول القرآن الكريم ثم ترتيبه على الترتيب الموجود اليوم في المصاحف لم تدرك الفائدة من نزول القرآن، ولم تستطع أن تتخذه منهج حياة، لذلك سادت الفوضى والفساد وانحلال الأخلاق! وحاشا أن يؤدي الترتيب الذي أجمعت عليه الأمة إلى هذا، أنسي هذا وغيره كيف كان القرآن الكريم مصدرا لشحذ الهمم، وازدهار الأمم، وتشييد الحضارات التي ما زال العالم يشهد لها إلى اليوم.

---

[1] _ ينظر أهداف الدعوة إلى ترتيب المصحف بترتيب النزول في: عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، عبد الرحمن نصر، ص62 وما بعدها.

[2] _نقد الاستشراق، رضوان السيد، ص6. (مقال)

[3] _ وقد كتب محمد عبد الله دراز تقريرا رفعه إلى إدارة الأزهر الشريف بخصوص هذه الرسالة، تحت عنوان: (النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله)، ذكر فيه ما قاله صاحب الرسالة ورد عليه بجواب علمي هادئ يقول فيه: "...وليس الانتقال من أحد النوعين إلى الآخر كما ظن المؤلف انتقالا من مقصد جديد أو إلى جو غريب، فإن مقاصد القرآن وأهدافه في السور المكية والمدنية واحدة: وهي إصلاح العقائد، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات، وإنما يفترق المكي عن المدني بالاجمال والتفصيل". ينظر: النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله، ص60 وما بعدها. (مقال)

وقد تجسد ما كان يصبوا إليه دعاة إعادة الترتيب المصحفي في كتاب[1] سماه صاحبه: "القرآن الكريم بالتسلسل التاريخي وفقا للأزهر بالرسم الكوفي المجرد والإملائي والعثماني مع علامات الترقيم الحديثة ومصادر القرآن وأسباب النزول والقراءات المختلفة والناسخ والمنسوخ ومعاني الكلمات والأخطاء اللغوية والإنشائية"[2].

والكتاب كله شبهات وطعن في القرآن الكريم وفي الرسول ﷺ.

وصفوة القول فيما سبق عرضه أن دعوة إعادة ترتيب المصحف الشريف ذات أصول شيعية روّج لها المستشرقون، واغتر بها عدد من الباحثين المعاصرين، نسأل الله أن يسكت مثل هذه الأصوات، وأن يثبّت المسلمين على ما أجمع عليه الصحابة ﷺ.

ثانيا: المهتمون بترتيب النزول باعتباره أحد العلوم الخادمة لكتاب الله ﷻ.

إن البحث في الترتيب الزمني للنزول كغيره من العلوم الخادمة لكتاب الله ﷻ، من حيث وجوده وإدراك معناه ومعرفة أنّ القرآن الكريم نزل وفق ترتيب معين كان منذ عهد النبي ﷺ لأن هذا الترتيب لازم نزول الوحي، غير أنّ إفراده بالدراسة كمبحث مستقل من مباحث علوم القرآن لا نكاد نلمحه في مؤلفات المتقدمين بل وحتى عند المتأخرين، فمادته عبارة عن أبحاث متناثرة متداخلة مع علوم أخرى خاصة علوم القرآن والتفسير، وربما يرجع ذلك إلى سببين رئيسين:

1. صعوبة الحديث عن الترتيب الزمني للنزول، وكثرة الاختلاف فيه.

يقول الماوردي[3] بعد سرده للترتيب الذي رآه أوفى ما قيل في باب ترتيب السور بمكة والمدينة: "وقد اختلف الناس في نزول السور اختلافا كثيرا، لكن وجدت هذا الحديث أوفى وأشفى فذكرته"[4].

ويقول محمد علي الحسن: "إن الحديث عن نزول القرآن متعدد الجوانب والأنحاء. وقد استهل المؤلفون –القدامى والمحدثون– الحديث عنه في علوم القرآن...وتعددت جوانب هذا النزول ما نزل بمكة

---

[1] _ قلت كتاب وحاشا أن يسمى مصحفا، إذ أن مضمونه وما صُدر به فيه طعن قبيح ومساس صريح بقدسية القرآن الكريم.

[2] _ ألفه سامي الذيب وهو مسيحي من أصل فلسطيني، دكتور في القانون من جامعة فريبورغ، ترجم القرآن بالتسلسل التاريخي إلى الفرنسية والإنكليزية والإيطالية. ينظر: القرآن الكريم بالتسلسل التاريخي، ص2 وما بعدها.

[3] _ هو: علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي الشافعي، روى عن الحسن بن علي الجبلي ومحمد بن عدي المنقري، وروى عنه أبو العز بن كادش، من مؤلفاته: أدب الدنيا والدين، الأحكام السلطانية، وتفسيره النكت والعيون، توفي سنة: 450هـ. ينظر: طبقات الشافعية، السبكي، ج5، ص267/ طبقات المفسرين، السيوطي، ج1، ص71.

[4] _ النكت والعيون، ج6، ص310.

وما نزل بالمدينة. أسباب النزول ...ترتيب النزول...وقد قامت نظريات في كل جانب، ولكن بقي الحديث صعبا عن الترتيب الزمني للنزول، فمنذ عهد عثمان بن عفان وهذا الموضوع موضع أخذ ورد..."[1].

2. تداخل الحديث عن الترتيب الزمني للنزول مع بعض مباحث علوم القرآن خاصة علم المكي والمدني، إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر.

والقول بقلة الدراسات في هذا الباب لا يعني ندرتها، فقد كان لعلماء المسلمين جهود في هذا الباب، سأنبه إلى أشهرها باختصار[2]:

– قصيدة "تقريب المأمول في ترتيب النزول"[3].

– المؤلفات في علوم القرآن على وجه العموم فقد حوت إشارات إلى مبحث ترتيب النزول، وخير شاهد على ذلك هو حديثهم عن أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن الكريم.

– المؤلفات في تاريخ القرآن وتاريخ المصحف: أذكر منها كتاب (تاريخ القرآن) الذي خُص الفصل الرابع من الباب الثاني منه بالحديث عن ترتيب آيات القرآن وسوره، وجاءت فيه إشارة إلى ترتيب النزول دون تفصيل[4].

– المقالات والبحوث التي تحدثت عن ترتيب نزول سور القرآن الكريم وخصته بالدراسة والبحث، محاولة جمع شتاته، وكان منها دراسات متميزة شكلت بدايات التأصيل لهذا العلم العريق الأصول[5].

وهذا بالنسبة للأبحاث والدراسات التي يمكن أن نقول أنها شكلت الناحية التنظيرية لمبحث ترتيب نزول سور القرآن الكريم، والتي حاول فيها أصحابها بيان أهمية العلم بترتيب النزول وصعوبة البحث فيه، كما ركزوا على الروايات الواردة في هذا الترتيب وتتبعوها بالنقد والتمحيص، ليبيّنوا مدى صحتها وإمكانية اعتماد هذا الترتيب.

---

(1) _ ترتيب نزول القرآن، ص33. (مقال)

(2) _ ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص63 وما بعدها/ أهمية العلم بتاريخ النزول ومصادره، أحمد شكري وعمران نزال، ص26 وما بعدها.

(3) _ نظمها برهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري (ت:732هـ). ينظر: قصيدة تقريب المأمول في ترتيب النزول، ص3 وما بعدها.

(4) _ تاريخ القرآن الكريم، لمحمد طاهر الكردي، ص67 وما بعدها.

(5) _ أذكر منها مقال بعنوان: "ترتيب نزول القرآن" لمحمد علي الحسن، وقد نبهت إلى غيره في عديد المواضع من هذه الدراسة.

أما الناحية التطبيقية فقد تجسدت بظهور تفاسير اهتم أصحابها بهذا الترتيب ففسروا القرآن الكريم كله على وفقه لا على ترتيب المصحف، مصرحين بحسن نواياهم وسلامة مقصدهم، حيث أرادوا السبق والتجديد ومحاولة النهوض بالأمة بتوظيف طرق مستحدثة في دراسة القرآن الكريم، ولم يقصدوا من ذلك وضع مصحف آخر يخالف ترتيبه الترتيب المجمع عليه كما صرح بذلك دروزة وغيره[1]، وإن كانوا قد وقعوا في زلات وهفوات على تفاوت بينهم، إذ إنّ سلامة المقصد ليست دائما دليل على صحة العمل[2].

وخلاصة القول في ذلك كله: أنه لا يمكن إطلاق حكم عام على كل من اهتم بترتيب سور القرآن الكريم على وفق نزولها التاريخي، بل إن أغراض البحث في هذا الترتيب هي التي تحدد ذلك وقد تعددت بتعدد نوايا أصحابها، فمن هؤلاء من قاده التعصب العقدي والغلو المذهبي إلى الطعن في الترتيب الذي أجمع عليه الصحابة ﷺ والدعوة إلى إعادة ترتيب القرآن حسب النزول، ومنهم من كان سيّء النيّة خبيث الطويّة دعا إلى إعادة ترتيب القرآن بهدف الطعن فيه والتشكيك في قدسيته، وآخرين دعوا إلى الاستغناء عن هذا الترتيب واستبداله بترتيب النزول لعدم جدوى هذا الترتيب وعدم مسايرته لما استجد من أحداث.

ومن جهة أخرى نجد من اهتم بترتيب النزول تنظيرا أو تطبيقا باعتباره أحد العلوم الخادمة لكتاب الله ﷻ، حيث دعوا إلى التوفيق بين الترتيبين لا إهمال ومعارضة الترتيب المصحفي للقرآن الكريم.

---

[1] _ ينظر: التفسير الحديث، ج1، ص10/ بيان المعاني، ملا حويش، ج1، ص4.

[2] _ سيأتي تفصيل الحديث عن أهدافهم وأسباب إتباعهم لترتيب السور وفق نزولها في الفرع الأول من المطلب الثاني من هذا المبحث.

المطلب الثالث: تفسير القرآن الكريم وفق الترتيب النزولي للسور.

ظهرت في العصر الحديث مجموعة من التفاسير خالف فيها أصحابها ترتيب المصحف واعتمدوا ترتيب النزول، وكان هدفهم من ذلك تحقيق أغراض معينة والوصول إلى نتائج أفصحوا عنها.

والحديث عن مسألة تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول لازالت محل بحث بين العلماء سواء من الناحية التأصيلية أو الناحية التطبيقية، لذا آثرت في هذا المطلب الحديث عن التفاسير التي رتبت وفق ترتيب النزول باختصار في فرع أول، ثم بيان موقف العلماء من تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول في فرع ثان.

الفرع الأول: مسار حركة التفسير وفق الترتيب النزولي.

مسّ التجديد الكثير من العلوم، وبات هو سمة العصر ودليل تغيّر الفهوم، وقد كان لعلم التفسير نصيب من ذلك[1]، حيث اتجه عدد من العلماء والمجتهدين الذين حملوا لواء الحركات الإصلاحية والتجديدية في العصر الحديث إلى التفكير في مناهج وطرق مستحدثة تقرب الناس من كتاب ربهم، بعد أن اتسع الخرق بين المسلمين وهدايات القرآن الكريم.

ولعل من أبرز المحاولات التجديدية وأجرئها في القرن الرابع عشر الهجري[2]، تلك التي هدفت إلى تقريب الناس من أجواء النزول القرآني، عن طريق ترتيب سور القرآن الكريم في كتب التفسير بحسب نزولها، حيث اتخذته بديلا عن الترتيب المتواتر المعهود للمصحف الشريف، رغبة منها في إعادة تشكيل المنهج الزمني إذ هو الأنسب لإصلاح الأمة وفق الطريقة التي سلكها القرآن الكريم على رأيهم، فظهر ما

---

(1) _ عُرّف التجديد في التفسير بعدد من التعاريف لعل من أنسبها هنا ما عرفه به أحمد الشرقاوي فقال: "التجديد في التفسير: يعني التجديد في مناهجه وطرائقه بما يفي بحاجة العصر ومتطلباته وبما يكشف عن وفاء القرآن وهدايته وتباينه". التجديد في تفسير القرآن فريضة شرعية وضرورة حضارية، ص3. (مقال). ينظر: التجديد في التفسير في العصر الحديث، دلال بنت كويران، ص50/ التجديد في التفسير نظرة في المفهوم والضوابط، عثمان أحمد، ص13.

(2) _ وهو على قول الكثير من الدارسين بداية لعصر التجديد العام في العلوم الإسلامية بشكل عام وفي التفسير بشكل خاص، حيث ظهرت ملامح التجديد في التفسير مع بدايات القرن الميلادي العشرين. ينظر: القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب، ص111/ منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، سليمان الدقور، ص5. (مقال)

يسمى بتفسير القرآن الكريم حسب النزول[1].

ويعتمد هذا الأخير على الترتيب الزمني لنزول سور القرآن الكريم أثناء تفسيرها كما سبق التعريف به، حيث تفسّر فيه السور المكية من أوّل سورة نزلت إلى آخر سورة، ثم تفسّر السور المدنية كذلك، وقد أُلّف وفقه عدد من التفاسير سيأتي الحديث عنها باختصار في هذا الفرع، مع محاولة التركيز على دوافع ومقاصد كل واحد منها؛ إذ الهدف الأساسي من التعريف بها أنّ يستحضر معي القارئ هذه الحلقات التي شكلت سلسلة التفسير حسب ترتيب النزول في العصر الحديث ليتمكن من متابعة ومقارنة ذلك مع صاحب التفسير محل البحث، ويعرف موقعه منها.

1. التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة[2]: إذا دُق باب التفسير حسب ترتيب النزول لعل أول من يجيب هو دروزة، فهو من رفع لواءه في العصر الحديث[3] ونافح عنه وطلب الفُتيا من علماء عصره وأفتي بجواز صنيعه في (التفسير الحديث) الذي فسّر فيه القرآن الكريم كاملا على وفق الترتيب الزمني لنزول السور، مستبعدا أن يكون في ذلك مساس بقدسية المصحف المتداول[4]؛ وهو وإن خالف في صنيعه هذا جمهور المفسرين، ورغم إقراره بأنه "ليس بالإمكان تعيين ترتيب صحيح لنزول السور القرآنية جميعها..."[5] فقد كان مصرا على طريقته معتزا بها غير آبه لشدة النقد الموجه إليها، يقول: "لم

---

[1] _ هنا خصصت الحديث عن التفاسير التي اعتنت بتفسير القرآن الكريم كاملا، وأنبه إلى أنها سُبقت بعدد من الأبحاث والدراسات التي عُنيت بدراسة عدد من الموضوعات أو السور القرآنية حسب ترتيب النزول، منها صنيع سيد قطب في كتابه (مشاهد القيامة في القرآن) وكذا عائشة عبد الرحمن في (التفسير البياني للقرآن الكريم)، إذ راعى صاحب الكتاب الأول الترتيب التاريخي في عرض المشاهد وتبويبها حسب ترتيب السور التي وردت فيها، وحاولت بنت الشاطىء الاعتماد على ترتيب النزول في تفسيرها لبعض السور مثل سورتي (العلق) و(القلم). ينظر: مشاهد القيامة في القرآن، ص58 وما بعدها/ التفسير البياني للقرآن الكريم، ج2، ص13- ص39.

[2] _ هو: محمد عزّة بن عبد الهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة، مفكر وكاتب ومناضل قومي، ولد سنة: 1305هـ/ 1887م في مدينة نابلس الفلسطينية، وأقام في دمشق وحصل على الجنسية السورية، ثقّف نفسه بكثرة القراءة، ولم يتلقى العلم على أيدي علماء متخصصين إلا في فترات قصيرة ومتقطعة، ترك أكثر من خمسين كتاب في علوم شتى تتعلق بالعروبة والإسلام والتاريخ العام، وفي مقدمتها التفسير الحديث، سيرة النبي ﷺ من القرآن، الوحدة العربية، توفي سنة: 1404هـ/ 1984م ودفن في دمشق. ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، محمد عزة دروزة، مج1، ص8 وما بعدها/ تتمة الأعلام، محمد خير رمضان، ج2، ص196.

[3] _ حيث ذهب عدد ممن اهتم بالتفسير حسب ترتيب النزول إلى أنه لم يُسبق إلى هذا، يقول فضل عباس: "فلقد كان بدعا من المفسرين، ولا نعلم أن أحدا قبله سلك هذا المسلك"، تم تقديم التفسير للطباعة في دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، سنة 1961م وصدر الجزء الأول منه سنة 1962م، وآخر جزء سنة 1964م، وجاء في اثني عشر مجلدا، وبعدها طبع عدة طبعات. ينظر: التفسير والمفسرون، فضل عباس، ج3، ص186/ محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، فريد مصطفى، ص130/ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، طه فارس، ص652/ منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، سليمان الدقور، ص7. (مقال)

[4] _ ينظر: التفسير الحديث، ج1، ص9.

[5] _ المرجع نفسه، ج1، ص13.

يكن ما يمكن أن يوجه من مآخذ إلى ترتيب نزول السور ليغير ما قرّ رأينا عليه. لأننا رأيناه على كل حال يظل مفيدا في تحقيق ما استهدفناه والمنهج الذي ترسّمناه، وخاصة بالنسبة إلى فائدة تتبع صور التنزيل القرآني مرحلة فمرحلة والاستشعار بجو هذه الصور، حيث يكون ذلك ادعى إلى تفهم القرآن وحكمة التنزيل"[1].

وقد رسم دروزة منهجا سار عليه في تفسيره للقرآن الكريم وفهمه، نص عليه في المقدمة وقدّم شرحا وافيا له في كتابه (القرآن المجيد)[2]، كما نص على عدد من المسائل أذكّر باثنين منها:

الأولى: بواعث اعتماد المفسر للتفسير حسب ترتيب النزول: صرّح محمد عزة بدوافعه لإتباع هذه الطريقة في التفسير، قائلا: "انبثقت فينا فكرة كتابة تفسير شامل، بقصد عرض القرآن بكامله...نظهر فيه حكمة التنزيل، ومبادئ القرآن ومتناولاته العامة، بأسلوب وترتيب حديثين، متجاوبين مع الرغبة الشديدة الملموسة عند كثير من شبابنا الذين يتذمرون من الأسلوب التقليدي ويُعرضون عنه، مما أدى إلى انبتات الصلة بينهم وبين كتاب دينهم المقدس، ويدعو إلى الأسف والقلق"[3].

الثانية: فوائد وأهمية اتباع المفسر للتفسير حسب ترتيب النزول ومقاصده منه، وهذه أفصح عنها بقوله: "ولقد رأينا أن نجعل ترتيب التفسير وفق ترتيب نزول السورة، بحيث تكون أولى السور المفسرة الفاتحة ثم العلق...إلى أن تنتهي السور المكية، ثم سورة البقرة فسورة الأنفال إلى تنتهي السور المدنية؛ لأننا رأينا هذا يتسق مع المنهج الذي اعتقدنا أنه الأفضل لفهم القرآن وخدمته. إذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمنا بعد زمن، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحله بشكل أوضح وأدق، وبهذا وذاك يندمج القارئ في جو القرآن وجو ظروفه ومناسباته ومداه، ومفهوماته وتتجلى له حكمة التنزيل"[4].

وما قاله المفسر يدل على مدى عنايته بالقرآن الكريم ومحاولة تفعيله في إصلاح المجتمع باتباعه لترتيب النزول، لكن كون ما سار عليه في ترتيب السور هو الأفضل لفهم القرآن وخدمته فيه نظر

---

[1] _ التفسير الحديث، ج1، ص13.

[2] _ وهو كما قال صاحبه: كتاب في تنزيل القرآن وأسلوبه وأثره وتدوينه وجمعه وترتيبه وقراءته ورسمه ومحكمه ومتشابهه وقصصه وغيبياته ومناهج تفسيره، والطريقة المثلى إلى تفسيره وفهمه، ويعد بمثابة مقدمة (التفسير الحديث)، وقد ألفه بعد فراغه من كتابة مسودات التفسير سنة 1945م. ينظر: التفسير الحديث، مقدمة الطبعة الأولى، ج1، ص6/ القرآن المجيد، ص1.

[3] _ وفي الطبعة الثانية يقول: "ونزيد على ما قلناه في الطبعة الأولى فنقول: إن الحاجة تشتد إلى ذلك يوما بعد يوم بنسبة ما يتعرض له شبابنا من تيارات جارفة عاصفة...". التفسير الحديث، ج1، ص5.

[4] _ المرجع نفسه، ج1، ص9.

ومناقشة مقاصده والحكم على مدى تحقيقها أرى أنه يحتاج إلى سبر لأغوار التفسير وتتبع لمكنوناته مما لا يسع المقام للتفصيل فيه [1].

2. **تفسير بيان المعاني لعبد القادر ملا حويش**[2]: تزامن ظهور هذا التفسير مع (التفسير الحديث)[3]، وإن لم يُكتب له الانتشار في العالم الإسلامي كسابقه، إذ إنّ نُسخ التفسير قليلة جدا فقد طُبع طبعة واحدة على نفقة المؤلف في مطبعة الترقي في دمشق سنة 1382هـ/ 1962م[4]، فسّر فيه ملا حويش القرآن الكريم كله وفق الترتيب النزولي للسور، ووزعه مجانا على تلاميذه.

وقد قسّم تفسيره إلى أجزاء إضافة إلى المقدمة والخاتمة، يقول: "جعلته في ثلاثة أجزاء، اثنين لما نزل في مكة المكرمة، وواحد لما نزل في المدينة المنورة، وبدأته بمقدمة تحتوي على اثني عشر مطلبا تُشير إلى ما أودعته فيه من المآخذ والأصول والرموز، وختمته بخاتمة ترمي إلى ما كان فيه من الوقائع والحوادث"[5].

والناظر في مقدمة التفسير يجد أن المفسر قد أبان فيها عن منهجه وما حواه تفسيره معرّفا به

---

[1] _ ينظر: محمد عزة دروزة ومنهجه في التفسير، يامنة القيقلان، ص74 وما بعدها/ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص408 وما بعدها/ عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، عبد الرحمن نصر، ص350 وما بعدها.

[2] _ هو: عبد القادر بن محمد حويش بن محمود بن خضر آل غازي العاني، ولد في بلدة عانة العراقية سنة 1297هـ/ 1880م، وأقام في دير الزور شرق سوريا، من شيوخه حسين الغزاوي الأزهري وبدر الدين الحسيني، تقلد عددا من الوظائف القضائية بالإضافة إلى قيامه بالوعظ والخطابة والتدريس، كان من أهل العلم والفضل والأخلاق الرفيعة مع ميله إلى النزعة الصوفية، من أبرز مؤلفاته: بيان المعاني، أحسن البيان في تجويد القرآن، القول السديد في علم التوحيد وغيرها، توفي سنة: 1398هـ/ 1978م. ينظر: بيان المعاني، ملا حويش، ج6، ص524/ إتمام الأعلام، نزار أباضة ومحمد رياض، ص163.

[3] _ وهو القول الذي ترجح بعد البحث في المسألة؛ إذ أن (التفسير الحديث) و(بيان المعاني) تزامن ظهورهما ولم يتأثر أحدهما بالآخر، فكلاهما ذهب إلى أنه لم يُسبق إلى هذه الطريقة في التفسير ولم يشر أحدها إلى الآخر، ضف إلى ذلك أنهما قد طُبعا في أوقات متقاربة. وأشير هنا إلى أن من الباحثين من قال أيضا بأسبقية تفسير (بيان المعاني) وأكّد على أولويته في التفسير على ترتيب النزول يقول محمد علي ايازي: "ولم يقدم أحد فيما علمنا تفسيرا بهذا الترتيب، وإن كان قد ألف بعده، "محمد عزة دروزة" تفسيره المسمى بـ(التفسير الحديث) بهذا الترتيب". المفسرون حياتهم ومنهجهم، ص219. ينظر: الشيخ عبد القادر ملا حويش ومنهجه في تفسيره بيان المعاني، صفية العرابي، ص425/ التفسير بحسب النزول عند الحداثيين الشيخ عبد القادر ملا حويش أنموذجا، آمنة فياض، ص425. (مقال)

[4] _ تم الفراغ من طباعته بعد حوالي ست سنوات من ذلك، قال في الخاتمة: "تمت طباعته في ربيع الآخر سنة 1388هـ الموافق لـ تموز سنة 1968م"، وقال طه محمد فارس: "أخبرني أبو الهادي -أحد معارف المفسر- بأن الأستاذ ملا حويش طبع كتابه على نفقته الخاصة، وقام بتوزيع الكتاب على إخوانه وتلامذته مجانا". ينظر: بيان المعاني، ج6، ص525/ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، ص646.

[5] _ بيان المعاني، ج1، ص5.

باختصار[1]، كما نبه إلى عدد من المسائل يهمنا منها اثنتين:

الأولى: بواعث اختيار المفسر لترتيب النزول بديلا عن الترتيب المصحفي؛ أبان عنها بقوله:"وقد علمت بالاستقراء أن أحدا لم يُقدِّم تفسيره بمقتضى ما أشار إليه الإمام عليه السلام[2]، ويكفي القارئ مؤنة تلك الاختلافات وتدوينها، ويعرِّفه كيفية نزوله، ويوقفه على أسباب تنزيله، ويذيقه لذة معانيه، وطعم اختصار مبانيه بصورة سهلة يسرة موجزة خالية من الرد والبدل، سالمة من الطعن والعلل، مصونة من الخطأ والزلل. فعَنَّ لي القيام بذلك، إذ لا مانع شرعي يحول دون ما هنالك، وأراني بهذا متبعا لا مبتدعا، مؤمِّلا أن يكون عملي هذا سنة حسنة...لما رأيت من الفوائد الجليلة، التي ستقر بها عين القارئ إن شاء الله"[3].

ثم قال: "وحقا إن أهل هذا العصر بحاجة ماسة إلى تفسير كهذا، جامع مانع، جار على أسلوب حسن، بسيط مختصر، غزير كاف، يطلعهم على حقائق كتاب الله بصورة قد يستوي فيها الخاص والعام، وهذا غاية ما أقصده من المجيب السميع، ومنه المعونة والتوفيق إلى سواء السبيل"[4].

وقوله هذا يُظهر أن المفسر معتز بما قدمه، مفتخر بما لم يُسبق إليه على قوله، مؤمل أن يكون سنة حسنة يقتدي بها من يؤلف بعده في تفسير القرآن الكريم.

الثانية: فوائد وأهمية اختيار المفسر لترتيب النزول؛ أجمل الحديث عنها قائلا: "وليعلم أن تفسيره على رأي الإمام علي كرم الله وجهه لا يشك أحد بأنه كثير الفائدة عام النفع، لأن ترتيب النزول غير التلاوة، ولأن العلماء رحمهم الله لما فسروه على نمط المصاحف اضطروا لأن يشيروا لتلك الأسباب بعبارات مكررة، إذ بين ترتيبه في المصاحف وترتيبه بحسب النزول بعد، يرمي للزوم التكرار بما أدى لضخامة تفاسيرهم، ومن هذا نشأ الاختلاف بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والأخذ والرد فيما يتعلق فيهما"[5].

---

[1] _ بيان المعاني، ج1، ص4 وما بعدها. وينظر التفصيل فيما كتب حول منهجه: المفسرون حياتهم ومنهجهم، محمد علي ايازي، ص221 وما بعدها/ الشيخ عبد القادر ملا حويش ومنهجه في تفسيره بيان المعاني، صفية العرابي، ص86/ الشيخ عبد القادر ملا حويش ومنهجه في تفسير آيات الأحكام من خلال تفسيره (بيان المعاني)، أسيل أحمد حسين، ص35 وما بعدها.

[2] _ إشارة منه إلى أنه أول من ألف على هذه الطريقة، وأنه لم يسبق إليها وقد أكد على ذلك في عدد من المواضع. ينظر: بيان المعاني، ج2، ص270/ ج6، ص523.

[3] _ بيان المعاني، ج1، ص4.

[4] _ المرجع نفسه، ج1، ص5.

[5] _ المرجع نفسه، ج1، ص4.

وبناء على ذلك فإن ملا حويش حاول أن يبرر سبب اختياره لترتيب النزول بديلا عن الترتيب المصحفي فذكر أنه كثير الفائدة عام النفع، ونحن وإن سلمنا له بهذه فلا نسلم له قوله إن الترتيب المصحفي كان سببا للتكرار مما أدى إلى ضخامة التفاسير، إذ إن هناك تفاسير على ترتيب المصحف حجمها أقل من حجم تفسيره بكثير![1].

فقد كان الأولى به وإن دافع عن تفسيره أن لا ينسف باقي التفاسير ويلصق بها ما هي منه براء، ويغمز كبار المفسرين باتباعهم لترتيب المصحف إذ ذلك ليس من أصول المنهج العلمي السليم في تقويم جهود السابقين.

3. تفسير القرآن المرتب منهج لليسر التربوي لأسعد أحمد علي[2]: بعد زهاء خمس عشرة سنة من ظهور النواة الأولى لتفسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول[3] والتي تشكلت من التفسيرين السالفي الذكر، ظهر تفسير ثالث وهو (تفسير القرآن المرتب) الذي طُبع عدة طبعات كانت الأولى منها سنة 1979م[4].

ألّف الرجل تفسيره في فترة وجيزة أقل من شهرين، حيث أشار إلى أنه شرع في تفسيره صبيحة يوم الأحد 16 رمضان سنة 1398هـ، وفرغ منه صبيحة يوم الأحد 6 ذي القعدة 1398هـ[5]، وكان مستنده في الترتيب النزولي الذي بنى عليه تفسيره هو الرواية، قال: "لقد استأنست برواية عبد الله ابن

---

[1] _ ينظر مناقشة المؤلف والرد عليه: التفسير والمفسرون، فضل عباس، ج3، ص256- 275/ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص650 وما بعدها/ التفسير بحسب النزول عند الحداثيين الشيخ عبد القادر ملا حويش أنموذجا، آمنة فياض، ص425.(مقال)

[2] _ هو: أسعد أحمد علي من مواليد سنة 1938م في مدينة اللاذقية بسوريا، خريج كلية الحقوق بجامعة دمشق، تحصل على دكتوراه في الفلسفة وأخرى في الأدب وثالثة في الفن والعرفان، له مؤلفات في الفلسفة والأدب واللغة والتربية والسياسة والإسلام والتاريخ منها: تفسير الحديث النبوي في دروس عصرية، فرح الصائمين والصائمات، في أضواء القرآن. ينظر: -أسعد علي-: الموسوعة الحرة ويكيبيديا wikipedia.org/ موقع اتحاد كتاب العرب في سوريا والوطن العرب www.awu.dam.org، موقعه على الشبكة العالمية (الأنترنت): www.assadali8.com.

[3] _ مقارنة مع صدور أول مجلد لكل من (التفسير الحديث) و(بيان المعاني).

[4] _ طبع في دار السؤال في دمشق عدة طبعات: الطبعة الأولى والثانية سنة: 1985م، والثالثة سنة: 1990م، والرابعة سنة: 1996م.

[5] _ وهذه ربما سابقة أن يكون عدد الأيام التي فسّر فيها القرآن الكريم أقل حتى من عدد سوره!!، وإن كان نبه إلى أن فكرت التفسير والترتيب وفق النزول قد سبقت ذلك في عدد من المقالات أو كما سماها "التجارب الخمسة الممهدة لهذا التفسير". ينظر: تفسير القرآن المرتب، ص4 وما بعدها.

عباس وغيرها من الروايات"[1].

وأثناء الحديث عن هذا التفسير أردت تبيان مسألتين:

الأولى: بواعث اختياره لترتيب النزول بديلا عن الترتيب المصحفي، وهذه ألمح إليها في العنوان، فقد أراد الوصول إلى منهج لليسر التربوي على قوله، استلهمه من ترتيب نزول السور المكية والمدنية وهو المنهج الذي طبقه النبي ﷺ خلال ثلاث وعشرين سنة[2]، تتبع فيه: "تفاصيل السيرة النبوية، وتدرج نزول آيات القرآن على النبي بدءا بالآيات الأولى من سورة العلق، وانتهاء بسورة النصر، مرورا بما بينهما من السور وفق تاريخ نزولها"[3].

كما أنه أراد أن يتأمل القرآن الكريم تأملا تطوريا، يقول: "إن ترتيب هذه السور وفق الجمع مختلف جدا، فالأولى في التنزيل هي السادسة والتسعون في الجمع، الثانية هي الثامنة والستون...، ندع ما بين التنزيل والجمع من اختلاف، ونعمد إلى التأمل التطوري لاكتشاف الحكمة التربوية الخالدة..."[4].

الثانية: فوائد التفسير وفق ترتيب النزول ومقاصده من اختيار له، وقد نبه إلى عدد منها في ثنايا تفسيره للسور وإليك بعضها:

قال: "ما أودع في هذه السور من منهجية التربية اليسيرة، يظل صالحا للنفس البشرية حيث وجدت، وهذا الوجه الاعجازي الأعمق لمعرفة النفس وما فوقها...لذلك سرت في هذا التفسير وفق الترتيب التاريخي للنزول"[5].

وقال: "التأمل الترتيبي يمنح المتأمل تفتحات على عالم النفس وعلائقه بالعالم المادي وبالعالم العلوي..."[6].

---

[1] _ تفسير القرآن المرتب، ص11.

[2] _ و قد قسّم هذا المنهج إلى ستة مستويات لكل واحد منها عنوان وفسر في كل منها تسع عشرة سورة، ويندرج تحت كل واحد منها أربع جهات لكل جهة عنوان، فصّل فيها طه محمد فارس في دراسته للكتاب. ينظر: تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، ص794 وما بعدها.

[3] _ تفسير القرآن المرتب، ص35.

[4] _ المرجع نفسه، ص36.

[5] _ المرجع نفسه، ص11.

[6] _ المرجع نفسه، ص103.

كما تحدث عن الفوائد التربوية التي تتحقق باعتماد ترتيب النزول قائلا: "يزيد هذه الفوائد التربوية وضوحا أن ننتبه إلى تتابع السور وفق التنزيل؛ لأن انتباهنا هذا يتدرج بنا في معايشة الدعوة النبوية خطوة خطوة، ولأننا نكتشف حكمة اليسر التربوي في منهج التطور المتصل بطبيعة الإنسان إلى أيام الناس هذه..."[1].

وغيرها من النصوص، فهو يحاول في كل مرة الإشارة إلى المعنى الذي من أجله اختار ترتيب النزول والفائدة التي يحرص على بيانها[2]، وكلامه في ذلك منه ما هو واضح مفهوم، ومنه ما هو غامض يشكل عليك مراده منه[3]، لذا فأقول فيه ما نبهت إليه سابقا وهو أن هذا التفسير يحتاج كغيره إلى دراسة مفصلة تكشف اللثام عن تفاصيله، وتبني الأحكام التي تتوصل إليها في حقه على أسس سليمة أساسها الاستقراء والتتبع لموقف المفسر من كل مسألة يطرحها.

4. معارج التفكر ودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني:

صدرت الطبعة الأولى من هذا التفسير سنة 1420هـ/ 2000م، أي بعد عشرين سنة من صدور آخر تفسير وفق ترتيب النزول، وتفصيل الحديث عن المفسر ومنهجه وأثر ترتيب النزول في تفسيره هو مضمون ما سيأتي من فصول هذه الرسالة.

وأرى أن أنبه في هذا المقام إلى نقطتين:

الأولى: تعاقب الجهود إعلاء لراية التفسير وفق ترتيب النزول، واستمرار حركة التأليف على وفقه في العصر الحديث، رغم قلتها مقارنة مع التأليف بحسب ترتيب المصحف، وصنيع المفسر محل الدراسة خير شاهد على ذلك.

الثانية: وهي أن مفسرنا قد سُبق في التأليف بعدد من التفاسير على تفاوت بينها في المضامين والمقاصد والأهداف، وهذا ما يزيد من أهمية البحث في أثر تلك الجهود على تفسيره، لنرى هل سار على منهجها شكلا ومضمونا، أم أنه وإن وافقها شكلا فقد خالفها في المضمون وطريقة العرض.

وبعد عرض مسار حركة التفسير وفق ترتيب النزول والتي تجسّدت في ثلاثة تفاسير سبقت تفسير (معارج التفكر)، أنبه إلى أنها ظهرت عليها سمات مشتركة لخصتها في نقاط:

---

[1] _ تفسير القرآن المرتب، ص36.

[2] _ ينظر: المرجع نفسه، ص10- 67- 109- 408.

[3] _ وقد وفّى طه فارس القول في مناقشة ما قاله. ينظر: تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص715- 716.

1. كون روادها ثلاثتهم من بلاد الشام إما مولدا وإما إقامة.
2. النشأة العلمية إذ إنّ اثنين منهم لم يتخصصوا في الميدان الديني، ولم يتلقوا العلوم الشرعية على أيدي أهلها ومشايخها، بل كانت لهم ثقافة أو درسوها منفردين، أما ملا حويش فقد تلقى العلم على يد عدد من مشايخ أهل زمانه.
3. الاعتماد على الرواية والأثر في ترتيب النزول، وإن اجتهدوا في ترتيب بعض السور[1].
4. محاولتهم استلهام منهج مفيد في التربية والبناء.
5. الكشف للقراء عن الحكمة من تدرج التشريع حسب الحوادث مما يعين على فهم ملابسات الأحكام، في محاولة منهم لحل بعض المشكلات المعاصرة.
6. توثيق صلة المسلمين بكتاب ربهم، إذ إنّهم اعتبروا أن تفسير القرآن الكريم حسب النزول سبب في زيادة فهم القرآن الكريم، كشفا عن هداياته وحكمه وأحكامه، وهذا من أبرز الأدلة على سلامة مقصدهم في اعتمادهم لترتيب النزول، وإن كانت سلامة المقصد ليست دليلا دائما على صحة العمل.
7. السلامة مما وقع فيه المفسرون من أخطاء.

وهذه النقاط الخمسة الأخيرة تعد من أهم الأسس والمقاصد التي توخى رواد التفسير حسب ترتيب النزول قبل تفسير المعارج تحقيقها، وإن كانت هذه التفاسير لازالت تحتاج إلى دراسات لمعرفة أبعادها وتقويمها ثم الحكم عليها.

وقبل أن أطوي الحديث عن حركة التفسير حسب ترتيب النزول أردت التنبيه إلى أنه لم يكن تفسير (معارج التفكر) هو الحلقة الأخيرة من سلسلة التفسير حسب ترتيب النزول بل أُلّف بعده[2]، ولعل أهم ما نمثل به هو تفسير: **فهم القرآن الحكيم –التفسير الواضح حسب ترتيب النزول– لمحمد عابد الجابري**[3] الذي كان له هو الآخر خطة قسّم على أساسها تفسيره، وأسباب ودوافع

---

(1) _ وقد اختلفت الروايات التي اعتمدوا عليها، لكن ما أردت التنبيه إليه هو أنّ مستندهم الرواية رغم عدم الجزم بصحة إحداها كما سبق بيانه. وقد فصّل القول في ترتيب كل واحد منهم وناقشه طه فارس. ينظر: تفاسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، ص185 وما بعدها.

(2) _ فهناك بحوث ودراسات في ميدان التفسير لا زالت تحاك وفقه وتُرتب السور فيها وفق ترتيب النزول، أذكر منها: ترتيب نزول سور القرآن الكريم لمحمد هلال، ونظرات في الهدى المنهاجي في القرآن الكريم –من خلال السور حسب ترتيب النزول للشاهد البوشيخي.

(3) _ هو: محمد عابد الجابري، من مواليد سنة 1354هـ/1935م، مفكر وفيلسوف عربي من المغرب، حصل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من كلية الآداب بالرباط، له حوالي ثلاثين مؤلفا في قضايا الفكر المعاصر أهمها: سلسلة نقد العقل العربي، مدخل إلى القرآن والدين والدولة وتطبيق الشريعة، توفي سنة: 2010م في الدار البيضاء المغربية بعد مسيرة 75 عاما. ينظر: حفريات في الذاكرة من بعيد، محمد عابد الجابري، ص37/ –محمد عابد الجابري–: الموسوعة الحرة ويكيبيديا **wikipedia.org**.

أكد بها اختياره لتتبع مراحل النزول، ومقاصد استهدف إلى تحقيقها فالتقى في بعضها مع من سبقه وخالفهم في قضايا عديدة[1]، وقد قامت حوله العديد من الدراسات تقويما لما كتبه ونقدا للأفكار التي طرحها[2].

وفي الختام أقول: إن حركة التفسير وفق ترتيب النزول شهدت ظهور عدد من التفاسير التي رُتبت سورها وفق ترتيب نزول القرآن الكريم، وهذه الأخيرة وإن اتفقت في الناحية الشكلية المنهجية واشتركت في بعض المسائل التي بُنيت عليها أو قصدت تحقيقها، فقد تنوعت مضامينها حيث كان لكل مفسر اتجاهه وطريقته في التفسير وخطة سار عليها في مسايرته لترتيب النزول أثناء تفسيره للسور.

وقد انقسم العلماء حول جدوى هذه التفاسير إلى قسمين التفصيل فيهما هو موضوع الفرع الموالي.

الفرع الثاني: موقف العلماء من تفسير القرآن الكريم كاملا وفق ترتيب نزول السور.

شغلت مسألة تفسير القرآن الكريم كاملا وفق ترتيب نزول السور بال الكثير من الباحثين المعاصرين[3]، حيث أشار إليها بعضهم في سياق حديثه عن الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم، وأفردها آخرون برسائل وبحوث مستقلة[4] .

---

[1] _ ينظر: فهم القرآن الحكيم، محمد عابد الجابري، ص8 وما بعدها.

[2] _ إذ خصّه العديد من الباحثين بالقسم التطبيقي في حديثهم عن التفسير وفق ترتيب النزول. ينظر: منهج التعامل مع النص القرآني –قراءة في كتاب الجابري "فهم القرآن الحكيم"–، سليمان الدقور، ص18 (مقال)/ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب، ص122/ التفسير المعاصر للقرآن الكريم وفق مرويات النزول، إبراهيم رحماني، ص31 وما بعدها. (مقال)

[3] _ أي بعد ظهور التفاسير التي خالفت الترتيب المصحفي، وهي مما انفرد به هذا العصر.

[4] _ كُتب في الموضوع عدد لا بأس به من البحوث، لعل من أهمها:

- التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان، مصطفى مسلم، (مقال).
- تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس.
- عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، عبد الرحمن نصر أحمد نصار.
- القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب.
- تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول (منبعه وفوائده)، محمد مجلي (مقال).
- التفسير المعاصر للقرآن الكريم وفق مرويات النزول "عرض ونقد"، إبراهيم رحماني (مقال).
- تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، محمد علي وسمية ذو القدرينا (مقال).
- منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، سليمان محمد الدقور (مقال).

وبعد تتبع لتلك المحاولات رأيت أنّ أقسم موقف العلماء من هذه المسألة إلى قسمين:

القسم الأول: يمثله الذين حذّروا من هذه الطريقة في التفسير وقالوا بحظرها، رافضين مبدأ تفسير القرآن الكريم كاملا حسب ترتيب نزول سوره.

حيث أنكر عدد من العلماء والباحثين المعاصرين على من اتبع ترتيب نزول السور في تفسيره للقرآن الكريم، ورأوا أن الأخذ به ليس بصائب، موجهين لهم جملة من الانتقادات كان أساسها يرتكز على عدد من النقاط نذكر منها[1]:

- مخالفة الترتيب المتواتر الذي أجمع عليه الصحابة ﷺ وتناقلته الأمة جيلا بعد جيل.
- اتباع ترتيب غير مقطوع به، إذ لم تثبت رواية صحيحة لترتيب السور من أوّلها إلى آخرها.
- وهن وضعف الأهداف والمقاصد التي برر بها أصحاب التفاسير مخالفتهم للترتيب المصحفي، وعدم تحقق الفوائد التي سعوا إليها.
- كون اعتماد ترتيب النزول في التفسير يحرِم المفسر من استنباط اللطائف والملح الدقيقة المرتبطة بترتيب السور في المصحف، كما أنه يفوّت على القارئ ما توصل إليه العلماء في علم المناسبات.
- فتح الباب أمام الطاعنين في القرآن الكريم من الشيعة وأفراخهم المستشرقين وأذنابهم من الباحثين المعاصرين، لدس سمومهم إذ هم طالما دعوا إلى إعادة ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره.

وبعد ذكر هذه المحاذير أترك القارئ يستمع إلى نزر من أقوال الممثلين لهذا القسم، ليقف على حدّة النقد الموجه إلى تفسير القرآن الكريم كاملا وفق ترتيب نزول السور:

1. أفصح محمد شعباني عن رفضه لهذه الطريقة صراحة، إذ نجده يعنون لإحدى فقرات مقدمة تحقيقه بـ "رفض تفسير القرآن حسب نزوله"[2]، فقد بيّن موقفه منه ابتداء ليذكر بعد ذلك مستند كل من محمد عزة دروزة وأسعد علي، ثم يعلق قائلا: "وهي كلها اعتبارات متداخلة وتبريرات ضعيفة لتغيير الترتيب

---

[1] _ وقد نبهت إلى أهمها باختصار وإلا فقد فصّلوا فيها وناقشوها وذكروا نقاط أخرى. ينظر: مقدمة تحقيق البرهان في علوم القرآن، محمد شعباني، ص 66 -67/ المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم، ص4-5 (مقال)/ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص200- 201/ التفسير المعاصر للقرآن الكريم وفق مرويات النزول، إبراهيم رحماني، ص34 وما بعدها (مقال)/ تفسير القرآن الكريم على ترتيب نزوله منبعه وفوائده، محمد مجلي، ص262 وما بعدها. (مقال)

[2] _ مقدمة تحقيق كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن، ص63.

المجمع عليه المنقول إلينا بالتواتر جيلا بعد جيل، ونحن مع أبي بكر الأنباري في أن "اتساق السور كاتساق الآيات والحروف كله عن النبي ﷺ، وأن من قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن"[1].

ولذلك فإننا لا نملك إلا التمسك بالقول بتوقيفية ترتيب السور، وأن دعوى إعادة ترتيب القرآن مردودة -في نظرنا-..."[2].

ونستخلص من كلامه هذا أنّ رده لتفسير القرآن حسب ترتيب نزوله وحكمه بضعفه يرجع إلى أمور ثلاثة:

- الصعوبات التي تواجه ترتيب القرآن وفق النزول، وعدم إمكان تعيين ترتيب صحيح[3].
- ضعف التبريرات التي استند إليها أصحاب هذا الاتجاه لتغيير الترتيب المجمع عليه.
- التمسك بالقول بتوقيفية ترتيب السور حفاظا على نظم القرآن الكريم.

2. ذهب عدنان زرزور إلى أنّ تفسير القرآن حسب ترتيب نزوله غير مستساغ، وقد لخص موقفه منه بقوله: "ترتيب سور القرآن الكريم بحسب النزول، لا للتدوين في المصاحف، ولكن في كتب التفسير، أو بغرض التفسير فقد ذهب إلى جوازه بعض العلماء، وإن كنا نرى أنه غير مستساغ لأن فيه خدشا لصورة الإجماع السابق، وقد لا يكون كذلك ممكنا بغير قدر من التجاوز، لأن السورة من القرآن لم تكن تنزل دائما مرة واحدة...فالترتيب بحسب النزول لا يمكن وصفه بالدقة...إلى جانب ما فيه من تضخيم مرحليّة البناء، وتضييق ساحة النص القرآني الذي أراد الله تعالى له أن يكون عاما شاملا، يعين تنجيمه وأسباب نزوله على مزيد من الفهم، لا على الانغلاق في حدود البيئة أو الزمان...ولعل هذا أن يكون أحد الأسباب الحاسمة في ترجيح رأي من يقول إن ترتيب السور جميعها كان بتوقيف..."[4].

وقد عبّر عن موقفه هذا في ختام حديثه عن حكم مخالفة ترتيب المصحف، مفرّقا بين طباعة المصحف على غير هذا الترتيب إذ قال بعدم جوازها[5]، وبين التفسير حسب ترتيب النزول الذي رأى أنه غير مستساغ لما فيه من خدش لإجماع الصحابة ﷺ على ترتيب السور وغيرها من الأسباب التي أفصح عنها.

---

(1) _ ينظر قوله: الإتقان، السيوطي، ج2، ص306- 307.

(2) _ مقدمة تحقيق كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن، ص65.

(3) _ نبه إليها من خلال ما ذكره دروزة في مقدمة تفسيره. ينظر: مقدمة تحقيق كتاب البرهان في ترتيب سور القرآن، ص65.

(4) _ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص141.

(5) _ ينظر: المرجع نفسه، ص140.

3. رأى أحمد شكري وعمران نزال أنّ ترتيب السور في التفسير بحسب النزول خلاف الأصل وفي ذلك يقولان: "ظهرت مجموعة من التفاسير الحديثة مرتبة حسب النزول، وإن كنا نخالف هؤلاء في هذا المنحى، ونرى أن الالتزام بترتيب المصحف في تفسيره هو الأصل، وأن العلم بتاريخ نزول الآيات لا يستدعي تغيير ترتيب المصحف ولكنّه يعين على الفهم التام للآية"[1].

4. واعتبر محمد مجلي أنّ خطر تفسير القرآن على ترتيب النزول أكبر من نفعه، حيث يقول: "أن الفوائد التي ذكرت لترتيب سور القرآن على حسب النزول، ما هي إلا سراب، وإن سلمنا بحسن نية قائليها، فإن خطرها أكبر من نفعها، وعليه فالواجب ترك الإقدام على تغيير ترتيب المصحف، الذي تناقلته الأمة جيلا عن جيل"[2].

5. رد مصطفى مسلم على من اعتمد ترتيب نزول السور في التفسير بقوة حيث فصّل فيما قاله من سبقه وأضاف على ذلك أنه قرن بين صنيع هؤلاء المفسرين ومساعي المستشرقين، قائلا: "على الرغم من حسن الظن بنوايا أصحاب هذا المنهج ودوافعهم فقد حققوا بصنيعهم هذا نصف مراد المستشرقين الذين بذلوا الكثير لحمل علماء المسلمين على أمرين اثنين:

أولهما: إعادة ترتيب سور القرآن الكريم حسب النزول.

ثانيهما: إعادة ترتيب الآيات في سور القرآن حسب النزول بغية التلاعب بالنص الكريم، وإزالة قدسيته من القلوب"[3].

وتابعه عبد الرحمن نصر ناصحا السالكين له بالرجوع عما أقدموا عليه، لأن في جهودهم مساعدة للمستشرقين ولو عن غير قصد، يقول: "وعليه فأولى بأصحاب هذا الرأي أن يعودوا إلى رأي الأمة وألا يخرقوا إجماعها، لأن في عملهم هذا مساعدة للمستشرقين (ولو عن غير قصد) لإدراك أهدافهم، وهو ما نربأ بالمسلم أن يقع فيه، أو أن يكون من دعاته ومناصريه.

ولو لم يكن في هذا العمل إلا خرق الإجماع والخروج على مألوف الأمة لكان ذلك كافيا في رد هذا العمل، والتنبيه والنصيحة لمن قام به"[4].

---

[1] _ أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره، ص30.

[2] _ تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول منبعه وفوائده، ص264. (مقال)

[3] _ التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان، الخاتمة. (مقال)

[4] _ عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب ترتيب التنزيل، ص533.

وهذه أهم الأقوال التي وقفت عليها بيانا لموقف المخالفين لتفسير القرآن الكريم وفق ترتيب نزول سوره، الداعين إلى التخلي عنه لما فيه من خرق للإجماع وضعف في المستند، ووهن في الأهداف والمقاصد.

وفي ختام الحديث عن هذا القسم وأصحابه أرى أنّ الانتقادات التي لقيها التفسير وفق ترتيب النزول والمحاذير التي حُفت به كانت عامة، فرغم أنها وجهت للتفاسير التي ألفت في هذا الباب إلا إن النقد لم يصل إلى مضمونها، حيث ارتكز على أمرين:

– الناحية الشكلية وكيفية ترتيب السور: حيث ركز جميع من رفض هذه الطريقة عليها، وذلك لمخالفة أصحاب التفاسير وفق ترتيب النزول الترتيب المصحفي القطعي والذي كان سنّة السلف في تأليفهم للتفسير، وإتباعهم ترتيب غير مقطوع به.

– مناقشة بعضهم للدوافع والأهداف والفوائد التي صرح بها المؤلفون في مقدمات تفاسيرهم.

ورغم أهمية هذين العنصرين وكونهما الأساس الذي يُبنى عليه النقد، إلا أنّ الحكم على تلك المحاولات التفسيرية يبقى قاصرا، قصور البحث فيها وعدم توفيتها حقها، بمراجعة صلب التفاسير ومناقشة فحوى الآراء والأفكار المبثوثة فيها، والتي كانت نتيجة إتباع المفسرين الترتيب النزولي بديلا عن الترتيب المصحفي.

وهذا ما يُبقي الباب مفتوحا لدراسة التفاسير التي ألفت في هذا الباب، ويزيد من أهمية البحث في تفسير (معارج التفكر) على وجه الخصوص، الذي لابد أنّ صاحبه وقف على بعض الأقوال[1] ومع ذلك أصرّ على التأليف وفقه.

القسم الثاني: يمثله الذين قالوا بمشروعية تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب نزول سوره.

ذهب جمع من الباحثين إلى القول بصلاحية تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب نزول السور لحاجة الأمة إليه وأهميته في فهم القرآن الكريم إذ له قيمته العلمية، فهذا التفسير لم يُعرف عند السلف ولم تصلنا أدلة على منعه أو القول به ولكن نجد من أقوالهم ما يشير إلى أهمية فهم القرآن الكريم وفق ترتيب النزول.

---

[1] ـ إذ أوصى مصطفى مسلم في خاتمة مقاله: "بتوجيه نداء إلى فضيلة الشيخ عبد الرحمن حبنكة الذي لازال على قيد الحياة ولازال يعمل في استكمال تفسيره. أن يعيد النظر فيما أقدم عليه من هذا المنهج ويرتب بنفسه ما طبعه ويكمل طبع ما بقي من التفسير حسب ترتيب المصحف، ليقطع دابر الاختلاف، وتوفيراً لجهوده ولسد الذريعة أمام المتربصين بالقرآن وأهله، وقطع أطماعهم في النيل من قدسيته". التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان، الخاتمة. (مقال)

يقول الشاطبي[1]: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلًا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل، وإلا لم يصح، والدليل على ذلك أنّ معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أن المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه، دل على ذلك الاستقراء، وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل ما لم يفصل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله"[2].

ونلمس دفاع الممثلين لهذا القسم من بيانهم لفوائده، وحديثهم عن جدوى هذه الطريقة في تفسير القرآن الكريم كاملا؛ وطبعا نجد أوّل من يحمل مشعل الدفاع عنه هم أصحاب التفاسير أنفسهم حيث عددوا فوائده وبيّنوا قيمته العلمية وقد سبق بيان ذلك، وأكتفي هنا بالإشارة إلى ما قاله ملا حويش الذي كان حريصا على بيان أفضلية ما بدأه وتميزه على غيره، حيث يرى أن طريقته في التفسير سترى رواجا بعده وتكون أكثر نفعا من غيرها، يقول: "فإني أتخيل بعد طبع هذا السّفر البديع الصّنع الذي لم يطرقه قبلي طارق عكوف العلماء على ما جريت عليه وإظهار تفاسير جمة من نوعه إن شاء الله تكون أكثر نفعا من غيرها"[3].

وقد أيّد هؤلاء المفسرين عدد من الباحثين، وأترك القارئ يستمع إلى نزر من أقوالهم:

1. نبه عبد الرحمن الشهري إلى الفرق الشاسع بين تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وبين إعادة ترتيب السور في المصحف قائلا: "هناك فرق شاسع جداً بين أمرين:

– الدعوة إلى تفسير القرآن بحسب ترتيب النزول بحسب ما يثبت صحته ويقارب.

– والدعوة إلى إعادة ترتيب القرآن في المصحف بحسب النزول.

فالأول مشروع وله فوائد، والثاني باطل ولم يقل به أحد"[4].

2. أشار محمد علي وسمية ذو القدرنيا إلى التكامل بين منهج السلف وهذا المنهج المستحدث ودعوا إلى ضرورة الجمع والتوفيق بينهما، لأن هذا الأخير: "لا يعارض ولا يناقض اللون التفسيري بحسب ترتيب سور المصحف...فاللونان غير متعارضين؛ لأن هدفهما واحد، بل إن كل واحد منهما مكمل للآخر ويمكن الجمع بينهما، بل إنه يساهم في التقليل من نسبة الخطأ ويفيد في تعيين المراد من

---

[1] _ هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي أبو إسحاق، المشهور بالشاطبي، فقيه أصولي محقق، من مؤلفاته: الموافقات في أصول الشريعة والاعتصام، توفي سنة: 790هـ. فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، ج1، ص191/ الأعلام، الزركلي، ج1، ص75.

[2] _ الموافقات، مج4، ص256.

[3] _ بيان المعاني، ج6، ص523.

[4] _ التفسير حسب ترتيب النزول. (مقال)

آيات القرآن، ويعين على الفهم"[1].

ويقولان: "مع الأخذ بعين الاعتبار الإيجابيات والسلبيات التي يتضمنها كل لون من التفسير، فإن الحل الأمثل هو الجمع بين هذين اللونين ليساعدنا في تدارك سلبياتهما ورسم لون أحسن وأكمل، خال من المثالب كثير الفوائد"[2].

3. وأورد سعيد بوعصاب كلاما قيّما دقيقا في حديثه عن التفسير وفق ترتيب النزول أذكره هنا إتماما للفائدة ولعله خير ما نختم به، يقول فيه: "إن الدعوة إلى تفسير القرآن الكريم حسب النزول قد صدرت من علماء ذوي شأن فينبغي أن نستمع لها، وأن يهتم العلماء والمتخصصون في مجال الدراسات القرآنية بهذه الدعوة، دراسة، ونقدا وتحليلا، وذلك باعتمادهم على عنصرين اثنين:

العنصر الأول: دراسة المقاصد والأغراض العامة والخاصة التي توخاها من يقتنع بهذا المنهج.

العنصر الثاني: مدى إمكانية تطبيق والاستجابة لهذا المطلب، وهل هناك تصور منهجي دقيق، يمكنه أن يحفظ لنا قدسية القرآن في ترتيبه، وفي نفس الوقت يمكن أن يفيدنا فيما رآه هؤلاء السادة في فوائد هذا المنهج، إن كان ثمة فوائد"[3].

وفي كلامه هذا دعوة إلى الاهتمام بما صدر في تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، والتريث وعدم التسرع برده مباشرة، إذ لابد من دراسة التفاسير التي ألفت على وفقه وسبر أغوارها بهدف الوقوف على مدى إمكانية تطبيقه، والتوصل إلى كيفية تعامل أصحاب هذا الاتجاه مع الإشكالات التي قد ترد في ثنايا التفسير والتي كانت سبب الانتقادات التي وُجهت له، والبحث في المقاصد والأغراض التي رسمها كل مفسر هل تجسدت أم لا؟ وبيان أثر ذلك في تفسير القرآن الكريم ومن ثم الحكم على كل محاولة في هذا الباب على حدة.

---

[1] _ تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، ص80.

[2] _ تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، ص90. (مقال)

[3] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب، ص144.

خلاصة القول: إن ترتيب نزول سور القرآن الكريم مما لم تسعفنا به الرواية إذ لم تثبت رواية صحيحة في ترتيبه كاملا، عدا تلك الروايات التي أثبتت مواقع بعض السور من حلقات هذا الترتيب، والتي يمكن الاستعانة بها في الوصول إليه ولو بشكل تقريبي، مع الاعتماد على المصادر التي تحدثت عن ترتيب النزول، نظرا لما تضمنته من قرائن وإشارات يحسن الاستفادة منها في التأريخ لكل سورة. والقول بعدم قطعية هذا الترتيب لا يعني غض الطرف عن تلك الجهود وعدم البحث فيها، إذ لابد من التفريق أولا بين الدعوة إلى إعادة ترتيب سور القرآن الكريم وبين تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، الذي ألّفت على نسقه عدد من التفاسير سبقت تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) الذي هو موضوع هذه الرسالة، وقد لاقت نقدا حادا وحُفّت بها العديد من المحاذير، وهذا لا يعني أنه لا يوجد مؤيدون له بل انقسمت كلمة الباحثين بين مؤيد ومعارض، وهذا يفتح الباب أمام الدارسين لمعرفة صلاحيته وأهميته ومدى تأثيره في تفسير القرآن الكريم عند كل مفسر سار عليه...

.ومن ثمّ فقد جاء موضوع البحث في هذه الرسالة استجابة لما سبق الدعوة إليه، ليعنى البحث بأحد أهم التفاسير التي ألفت وفق ترتيب النزول، وذلك بسبر أغواره وبيان الإضافات المحتملة والسلبيات والإيجابيات المترتبة على مثل هذه الأعمال والجهود في مجال التجديد في التفسير وعلومه.. وحسبي في هذا الفصل أن أكون قد أوضحت أهم المسائل المرتبطة بالترتيب المصحفي، وكذا تلك المتعلقة بالترتيب النزولي بما يخدم باقي فصول الرسالة، ويزيل اللّثام عما قد يُشكل فهمه فيها....

..

الفصل الثاني:

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)

المبحث الأول: التعريف بعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)

المبحث الثاني: مصادر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

حظي القرآن الكريم بعناية العلماء والباحثين بما لم يلقه كتاب قبله ولا بعده قط، إذ ما زال العلماء مذ نزوله إلى يوم الناس هذا يتعاقبون على دراسته، نهلا من معينه الذي لا ينضب، وتزودا من معارفه وهداياته.

وقد كان لعلماء التفسير أوفر الحظ والنصيب من ذلك؛ فقد أدركوا كبير فضل الله عليهم، فصرفوا هممهم لتدبر كتاب الله ﷻ، واجتهدوا في فهم مراده ﷻ فكان من ذلك المؤلفات العظيمة في التفسير من القديم وحتى العصر الحديث.

ولعل من أهم ما ألف في العصر الحديث في تفسير القرآن الكريم عامة وفي التفسير وفق ترتيب النزول على وجه الخصوص تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، الذي خصصت هذا الفصل للحديث عنه وعن صاحبه تعريفا بهما وبيانا لأهم المصادر التي استند إليها في تدبره في مبحثين اثنين؛ حرصا على ربط الجانب النظري (التفسير وفق ترتيب نزول سور القرآن الكريم) بالجانب التطبيقي (أثره في تفسير معارج التفكر ودقائق التدبر)، ولعل هذا من أهم الحلقات التي ينبغي تجليتها من باب التأسيس العلمي لموضوع الدراسة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

التعريف بعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).

يعد عبد الرحمن حبنكة الميداني واحدا من أهم الشخصيات المعاصرة التي برزت في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، فقد حجز لنفسه مكانة بين معاصريه، وكان له شأن بين الناس.

إذ كان من المبرزين في الدعوة والإصلاح، كما اشتغل بالتأليف والكتابة في ميادين شتى، لعل من أهمها ميدان الدراسات القرآنية عامة والتفسير على وجه الخصوص، الذي عُني به تنظيرا وتطبيقا وخلّف وراءه في ذلك الكثير من المجلدات كان خاتمتها تفسيره التدبري (معارج التفكر ودقائق التدبر).

ومن أجل ذلك فقد خصصت هذا المبحث للتعريف بالشيخ والوقوف على أهم مراحل حياته وعناوين مصنفاته ومختلف آثاره في المطلب الأول، أما المطلب الثاني فكان للحديث عن جهوده -رحمه الله- التفسيرية قبل كتابة تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)، والتعريف بهذا الأخير هو موضوع خاتمة مطالب هذا المبحث.

المطلب الأول: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني حياته وآثاره.

يقوم الحديث في هذا المطلب عن حياة المفسّر الشخصية بما تضمنته من مراحل مختلفة، ساهمت في تكوين شخصيته العلمية وكان لها كبير الأثر في أفكاره ومؤلفاته، وذلك في فرعين اثنين.

الفرع الأول: سيرة عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

اهتم بترجمة عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني عدد من الباحثين المعاصرين، دوّنوا تفاصيل حياته وعصارة تجاربه ومسيرته العلمية والعملية، اختصرتها في نقاط:

1. اسمه ونسبه:

هو عبد الرحمن بن حسن بن مرزوق بن عرابي بن غُنيم حبنكة[1] الميداني[2]، وترجع أصول أسرته إلى عرب بني خالد، وهي إحدى القبائل العربية المعروفة وتمتد منازلها إلى بادية حماة من أرض الشام[3].

2. مولده ونشأته:

ولد الشيخ -رحمه الله- في عام 1345هـ الموافق لعام 1927م في حي الميدان جنوب مدينة دمشق السورية، لأب من أعلام علماء دمشق وهو الشيخ حسن حبنكة الميداني[4]، وأم لقبت بـ"ست

---

[1] _ لفظ حبنكة تحريف بدويّ للفظ حَبَكَهُ، أو حَبَّكَهُ، بمعنى وثقه، وقيل: أصل اللفظ: حبُّ اللُّقا، يعني في الحرب. ينظر: كتاب العين، خليل بن أحمد الفراهيدي، ج3، ص66. الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص35.

[2] _ الميداني: نسبة إلى منطقة الميدان في دمشق سوريا. وقد حكى الشيخ عبد الرحمن حبنكة في ترجمته لوالده أنّ هذا النسب بدأ مع أبيه حين كان في المدرسة الابتدائية وسأله شيخه عن اسمه، فقال: حسن حبنكة، فاستصعب الشيخ الاسم فسأله عن سكنه، فقال: في حي الميدان، فقال له شيخه: إذن أنت حسن الميداني.

ثم اشتهر هذا اللقب بعد ذلك وعُرفت به أسرته بعده؛ وهذا اللقب هو الذي يجعل كثير من الناس يخلط بين الابن عبد الرحمن وأبيه حسن لشهرة كليهما به. ينظر: الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص35-36.

[3] _ ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني العالم المفكر المفسر، عائد الجراح، ص12/ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص35.

[4] _ هو: حسن بن مرزوق بن عرابي بن غُنيم حبنكة الميداني، ولد حوالي سنة 1326هـ/ 1908م ونشأ في أسرة بدوية محبّة للعلم وأهله، استقى العلم من كبار العلماء والشيوخ أمثال: عبد القادر الأشهب ومحمود العطار، كما تتلمذ على يديه ثلة من المعاصرين أمثال ابنه عبد الرحمن ومحمد سعيد رمضان البوطي وغيرهم كثير، توفي سنة 1398هـ/ 1978م. ينظر:
الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص35 وما بعدها/ نثر الجواهر والدرر، يوسف المرعشلي، ص361.

الشام" وهي نظمية بنت إبراهيم السودان[1] التي وضعته في غياب والده حين كان لاجئا في الأردن عقب توقف الثورة السورية.

عاش عبد الرحمن في بيت جده[2] إلى أن جمع الله بعد سنتين شمل أبيه بالعائلة[3] والتي كان ينفق عليها الحاج مرزوق بما يعود عليه من تربية الأغنام واستثمار أصوافها وألبانها وما ينتج عنها، مفرِّغا ابنه حسن لطلب العلم والدعوة والإرشاد[4].

وفي هذه البيئة الطيّبة المحبة للعلم وأهله نشأ مفسرنا، حيث "كان بيته أول بيئة علمية فتح عليها عينيه، إذ كان ذلك البيت مثابة لطلاب العلم الشرعي لا تكاد حلقاته تخلو منهم ليل نهار"[5]، فأبوه الداعية المربي الذي غرس فيه حب طلب العلم وكان له الفضل في تعليمه وتوجيهه وانتظامه في سلك طلاب العلوم الشرعية، وقد أحاطه بعناية فائقة وأعده ليكون خليفة من بعده في العلم والدعوة.

بدأ عبد الرحمن التعلم في مدرسة وقاية الأبناء الابتدائية[6] ثم التحق بمدرسة والده معهد التوجيه الإسلامي[7] فكان أول معين استقى منه أصول العلوم الشرعية، يقول: "ولوالدي يعود فضل تربيتي وتأديبي، وتعليمي علوم الإسلام، وانتظامي في سلك طلاب علوم الشريعة الإسلامية في مدرسته الشرعية، التي أسسها وربى طلابه وعلمهم بنفسه، حتى آتت أكلها طيبة مباركة، وقد كنت أحد من

---

(1) _ لقبت من قبل بعضهم "بست الشام وأم طلبة العلم"، وذلك لتميزها بخدمة طلبة العلم فهي لا تمل من تقديم كل ما يحتاجه من يتلقى العلم عند زوجها من الطعام والشراب، بل وتهدي للطلبة الجبب في أيام العيد من صنع يدها. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص 12-13/ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص46- 47.

(2) _ هو: الحاج مرزوق الذي عُرف بتدينه ومواظبته على الطاعات، وحب فعل الخير، وبره بوالديه، وقد كان يقرأ ويكتب ويكثر من تلاوة القرآن، وكان ذا رغبة صادقة في أن يكون ولده (حسن) عالما. ينظر: الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص40.

(3) _ وقد تحدث عن فترة خروج أبيه مع الثائرين ضد فرنسا وختمها بقوله: "وفي هذه الأثناء كانت أمي حاملة بي، وولدت له وهو بعيد عن أهله ووطنه، ثم لما هدأت الأوضاع عاد إلى دمشق، وجمع طائفة من علماء الشام على عقيقة ولده الذكر الأول (عبد الرحمن) كاتب هذه الترجمة". الوالد الداعية المربي، ص50.

(4) _ ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص11 وما بعدها/ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ج3، ص59/ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص39 وما بعدها.

(5) _ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ج3، ص 59.

(6) _ وهي تابعة للجمعية الغراء، وقد كان والده مديرا لها. ينظر: الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص61.

(7) _ أسسها الشيخ حسن حبنكة، وهي مدرسة داخلية مجانية سماها (جمعية التوجيه الإسلامي)، ومن ثم سميت (معهد التوجيه الإسلامي)، وقد كان هذا المعهد يتبع طريقة ممنهجة لتخريج الطلبة حيث يقوم فيه التعليم على شكل حلقات علمية، وكان الشيخ حسن يكلف طلابه ويلزمهم بإعطاء دروس عامة ومواعظ للناس في المساجد ويدربهم على الخطابة أمام الجماهير. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص15 وما بعدها/ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص95 وما بعدها.

تعلم في حلقاتها وتربى في كنفها"[1].

ومما حرص الوالد على غرسه في ولده ودربه عليه هو فن الخطابة أمام الجماهير، يقول: "أذكر أنه كتب لي خطبة محبَّرة، وأنا في نحو الرابعة عشر من عمري، وكلفني أن أخطبها في الناس وأصلي بهم صلاة العيد"[2].

وهكذا نشأ مفسرنا في بيت أسس على دين وتقوى، فيه القرآن يُتلى، ومنه العلم يُطلب.

3. تحصيله العلمي وبداية مشواره التعليمي:

بعد أن تخرج الشيخ من معهد والده ضمن الدفعة الثالثة عام 1367هـ/ 1947م وهو لم يتجاوز العشرين عاما، أُسند إليه تدريس جملة من المواد رغم سنه المبكرة، يقول: "لقد كنت يومئذ [يقصد زمن تدريسه للدفعة الرابعة]...أستاذا لجملة مواد منها: الأدب، الإنشاء، البلاغة، العروض، الفقه، الأصول، المنطق"[3] "...وغيرها من العلوم الشرعية والعربية والعقلية حتى سنة 1370هـ"[4]. أي درّس لمدة ثلاث سنوات، ليخرج بعدها رفقة عدد من طلاب والده إلى القاهرة، وهناك التحق بكلية الشريعة بالأزهر وحاز على الشهادة العالية[5] ثم على شهادة العالمية مع إجازة في التدريس[6].

بعدها رجع إلى سورية وصار أستاذا في ثانويات دمشق العامة ومعاهدها الشرعية لمدة ست سنوات، ليسند إليه بعد ذلك إدارة التعليم الشرعي التابعة لوزارة الأوقاف عام 1960م، وكانت المهمة صعبة هناك وذلك لأن الشيخ –رحمه الله– كان عليه تحدي ومواجهة النظام المنهار للتعليم الشرعي، وكذا النظام السياسي الذي يحارب كل ما يمت للإسلام بصلة؛ ورغم ذلك فإنّه تمكن من خدمة الإسلام والمسلمين بإدارته الرشيدة والأنظمة والمناهج العلمية التي رسمها، ولا أدل على ذلك من تأسيس عدد من المدارس الشرعية في بعض المحافظات السورية، مع إنشاء ثانويتين شرعيتين للإناث في دمشق وحلب لأول مرة، ثم أصبح عضوا من أعضاء هيئة البحوث في وزارة التربية والتعليم في سوريا[7].

---

(1) _ العقيدة الإسلامية وأسسها، حبنكة الميداني، ص9.

(2) _ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص142.

(3) _ المرجع نفسه، ص132.

(4) _ العقيدة الإسلامية وأسسها، حبنكة الميداني، ص9.

(5) _ وهي تعادل ليسانس في الشريعة، وكان ذلك سنة 1373هـ. ينظر: المرجع نفسه، ص10.

(6) _ وهي تعادل ماجستير في التربية وعلم النفس. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص18.

(7) _ ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص15 وما بعدها/ العقيدة الإسلامية وأسسها، حبنكة الميداني، ص9- 10/ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ج3، ص60/ القضايا العلمية في تفسير "معارج التفكر ودقائق التدبر"، باسم فارس، ص3 وما بعدها.

وهذه أهم المحطات التي ميّزت الفترة التي قضاها في بلده قبل سفره.

4. رحيله إلى المملكة:

بعد الأحداث التي جرت في سوريا وحرب 1387هـ/ 1967م[1] رحل الشيخ -رحمه الله- إلى المملكة العربية السعودية، وعمل مدرسا في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض لمدة سنتين.

ثم انتقل عمله إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في مكة المكرمة، التي أصبحت فيما بعد إحدى مؤسسات جامعة أم القرى، والتي تولى التدريس فيها قرابة ثلاثين عاما؛ درّس أثناءها مواد مختلفة دينية ودعوية وإنسانية وعقلية، وأشرف على بعض رسائل الماجستير والدكتوراه، وتخرج على يديه ثلة من الطلاب المجدين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

وبالإضافة إلى عمله الرسمي الأكاديمي فقد كان يقوم بالتوجيه والتثقيف والدعوة العامة في الندوات والمحاضرات والمؤتمرات العلمية[2]، كما كان ينشط في وسائل الإعلام المختلفة[3]، ويؤلف في فنون شتى، وهذا يدل على سعة علمه، وتعدد معارفه، والتي كانت ثمرة نشأته المباركة ومثابرته في التحصيل ومطالعاته الكثيرة والمتنوعة.

ولما بلغ عمره سبعين عاما، أُعفي من عمله في جامعة أم القرى وأُحيل إلى التقاعد، ليُختار بعدها عضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، كما اختير عضوا في مجلس هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية العليا والتنفيذية.

وبعد تفرغه من عمله الأكاديمي الرسمي اتجه بكل ما يملك لتدبر كتاب الله ﷻ استكمالا لما شرع فيه من قبل، وفق المنهج الذي رسمه في كتابه: (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، وسماه (معارج

---

[1] _ لما أحست السلطات السورية آنذاك بازدهار التعليم الشرعي والديني الذي كان للشيخ حسن وابنه عبد الرحمن اليد الطولى فيه، بدأت بالوقوف بوجه هذا التطور الذي يتنافى مع تصوراتها وتضييق الخناق على أصحابه وأعمالهم، حيث عُطلت جمعية التوجيه الإسلامي، ثم مُنعوا من أي نشاط إسلامي خاصة الخطابة في المساجد، وبعدها اعتقل الشيخ حسن رفقة أخيه وبعض أولاده وأعوانه، واستطاع الشيخ عبد الرحمن الإفلات من قبضة السلطات ونجا من الاعتقال ليسافر بعدها إلى المملكة.

[2] _ فقد شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية داخل المملكة وخارجها منها: مؤتمر التعليم الإسلامي، ومؤتمر الاقتصاد الإسلامي وغيرهما.

[3] _ كان للشيخ مساهمات في العديد من البرامج الأسبوعية واليومية في الإذاعة السعودية، كما امتد نشاطه إلى التلفاز فشارك في عدد من الندوات في المملكة وخارجها، واستمر في ذلك لما يزيد عن ثلاثين سنة، ومن هذه الأنشطة: برنامج (الإسلام هو الطريق) الذي دام خمس سنوات، وبرنامج يومي بعنوان (آمنت بالله).

التفكر ودقائق التدبر)[1].

كل هذه المحطات ما هي إلا دليل على مسيرة الشيخ العلمية والتعليمة الحافلة، وباعه العلمي الذي نهل منه طلاب العلم في سوريا والسعودية وبلدان العالم الإسلامي لأكثر من خمس وخمسين عاما.

5. شيوخه:

يعد معهد التوجيه الإسلامي المعين الأول الذي استقى منه الشيخ عبد الرحمن مبادئ العلوم، وعلى يد مشايخه تربى يقول: "كل تأسيسي العلمي الأساسي قبل الخروج إلى الأزهر والتعرف على علماء الأزهر في مصر...في هذه المدرسة مدرسة الوالد فدرست على الوالد ودرست على تلاميذه..."[2].

أي أنه –رحمه الله– تتلمذ على يد أبيه مؤسس المعهد الشيخ حسن حبنكة الميداني، إضافة إلى المشايخ والأساتذة الذين درسّوا في معهد التوجيه الإسلامي أمثال عمه صادق حبنكة[3]، الشيخ علي بن عبد الغني الدقر[4]، الشيخ حسين خطاب[5]، وغيرهم[6].

يقول الشيخ في حديثه عن البرنامج الذي كان يدرّس في معهد التوجيه الإسلامي : "وأذكر أنني تتلمذت بهذه الطريقة [وهي أن يختار أستاذا فيقرأ عليه كتابا يشرح له فيه مشكلاته] على الشيخ حسين خطاب، فقرأت عليه في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك...وتتلمذت أيضا على عمي الشيخ

---

(1) _ ينظر تفصيل ما سبق الإشارة إليه: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص19 وما بعدها/ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ج3، ص60 وما بعدها.

(2) _ حديث الذكريات مع الشيخ عبد الرحمن حبنكة: برنامج تلفزيوني حاور فيه د. جاسم المطوع عدد من العلماء المبدعين منهم مفسرنا وقد خصه بحلقتين منه. https://www.youtube.com/watch

(3) _ هو: صادق بن مرزوق بن عرابي بن غنيم حبنكة الميداني، ولد حوالي سنة 1338هـ/ 1918م في حي الميدان، وهو شقيق الشيخ حسن حبنكة وتلميذه حيث درس عليه العلوم العربية والإسلامية، عُرف بحكمته ورشده لذا أسند إليه إدارة معهد التوجيه الإسلامي، توفي عام: 1428هـ/ 2007م. ينظر: الوالد الداعية المربي، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص109- 110.

(4) _ هو: محمد علي بن عبد الغني الدقر، الحسيني الدمشقي، ولد عام 1294هـ/ 1877م، قيل أنه صاحب أكبر نهضة علمية في بلاد الشام، وهو رئيس الجمعية الغراء ومؤسسها، وشيخ من شيوخ معهد التوجيه الإسلامي، توفي سنة: 1362هـ/ 1943م. ينظر: رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ج2، ص140 وما بعدها/ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص56.

(5) _ هو: حسين خطاب الميداني الدمشقي، عرف بفصاحة اللسان وحسن البيان، حفظ القرآن وجمع القراءات العشر، وأقرأ الكثير من أهل الشام، من مصنفاته "إتحاف حرز الأماني برواية الأصبهاني"، توفي سنة: 1408هـ. ينظر: العناية بالقرآن وعلومه من بداية القرن الرابع عشر إلى عصرنا الحاضر، نبيل بن محمد آل إسماعيل، ص592- 593.

(6) _ ينظر: الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص117- 118.

صادق حبنكة الميداني فقرأت أنا وبعض أقراني عليه في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك..."[1].

وفي فترة تعليمه بالأزهر التقى عبد الرحمن بكوكبة من العلماء الأجلاء، وتتلمذ على شيوخ الأزهر الشريف في كلية الشريعة، أمثال محمود شلتوت[2]، عيسى منون[3]، محمد أبو زهرة[4] وغيرهم كثير.

6. لمحات من أخلاقه وعظيم أدبه:

اتسمت شخصية الشيخ -رحمه الله- بجملة من الأخلاق النبيلة، والصفات الحسنة في حياته العلمية والعملية فقد كان صبورا حكيما متواضعا، ودودا بشوشا مخلصا في عمله، كريما جوادا، شعاره الرفق واللين في تعامله مع من حوله وتربيته لأهله وطلابه، يلتمس الأعذار للآخرين ويتسامح مع كل من أساء إليه، مبدؤه ""أن يتعامل مع الله من خلال البشر". وهذا المبدأ يجعله يأخذ بمفهوم الإياس مما في أيدي الناس"[5] فهو لا ينتظر رد الجميل من أحد، زهد في الدنيا ولم يتعلق بها طلبا لمرضاة الله ﷻ.

يقول عنه محمد علي دولة: "تخلّق الشيخ الميداني بأخلاق الإسلام ونال نصيبا كبيرا من مكارم الأخلاق، كان متواضعا، لطيف المعشر، ودودا بشوشا، مخلصا في علمه – إن شاء الله - إذ كان يعزو كل فضل وتوفيق إلى الله، وكان يريد بعمله وجه الله ﷻ، ولا يريد أن يُمدَح وأن يُطرَى بما ألّف وكتب"[6].

وتروي لنا إحدى طالباته في حديثها عن اللقاءات التي كان يعقدها الشيخ فتصفه قائلة: "حباه المولى خفة ظل مع وقار- صقلت وجهه بإشراقة خاصة- وحلم، وتؤدة، وكرم ضيافة، وبديهة حاضرة؛ ففي

---

[1] _ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص98.

[2] _ هو: محمود محمد شلتوت فقيه ومفسر مصري، ولد سنة 1310هـ/ 1893م وتخرج بالأزهر سنة 1918م، عيّن وكيلا لكلية الشريعة وكان من أعضاء هيئة كبار العلماء ثم شيخا للأزهر، له عدد من المؤلفات منها: (حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدي) و(القرآن والمرأة)، توفي سنة: 1963م. ينظر: الأعلام، الزركلي، ج7، ص173/ النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي، ج1، ص447 وما بعدها.

[3] _ هو: عيسى بن يوسف بن أحمد منون الشافعي، ولد عام 1306هـ/1889م بالقدس وفيها أخذ مبادئ العلوم، ثم= =سافر إلى مصر لإتمام تعليمه حيث انتسب إلى الأزهر، ليصبح بعدها عضوا بجماعة كبار العلماء، كما أسندت إليه مشيخة أصول الدين وكذا مشيخة كلية الشريعة، توفي سنة: 1957م. ينظر: حياة علم من علماء الإسلام، يوسف عبد الرزاق ومحمد عيسى منون، ص4 وما بعدها/ تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي، عبد الفتاح أبو غدة، ص217 وما بعدها.

[4] _ هو: محمد بن أحمد أبو زهرة، ولد عام 1316هـ/ 1898م، كان عضوا للمجلس الأعلى للبحوث العلمية، ووكيلا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، أصدر أكثر من أربعين كتابا، توفي بالقاهرة عام: 1974م. ينظر: الأعلام، الزركلي، ج6، ص25/ النهضة الإسلامية، محمد رجب البيومي، ج2، ص275 وما بعدها.

[5] _ عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص32.

[6] _ العلامة الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني قصة حياة ومسيرة علم وجهاد، (مقال).

إحدى الزيارات كثر إلى حد ما عدد الطالبات، ولم يجدن مكانًا للجلوس، فقال الشيخ لأهل بيته أحضروا كَرَاسي لمن هم كَرَاسي قاصدًا بذلك معنى: (كرأسي)، ومرة قال لنا: لَبناتي لِبنات؛ امتاز الشيخ بروح شفافة، وإحساس مرهف، وعمق نظر، ورحابة صدر..."[1].

حرص مفسرنا على استغلال وقته فقد كان أغلى شيء عنده يستفيد منه ويفيد فيه ولو كان قليلا وعلى هذا المبدأ ربى طلابه، تقول زوجته: "يعتبر العلم بالنسبة إلى (الشيخ عبد الرحمن) غذاء روحه، ومعين وجدانه، ينام معه ويصحو عليه، فهو لا يُرى إلا قارئا أو كاتبا، متعلما أو معلما، متحدثا أو مناقشا، فإذا كان خارج نطاق البحث العلمي الجاد، التفت إلى الشعر والأدب عامة، وأدب المجالس خاصة، فالوقت عنده أثمن من أن يضيعه بتوافه الأمور، وإنما هو أمانة وثروة، يجب أن يستفيد ويُفيد منها، ونبراسه في ذلك قوله ﷻ: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾[الشرح: 7-8]"[2]، فحتى في آخر لحظات عمره ظل يكابد المرض ويتدبر كتاب الله ﷻ.

والشيخ اكتسب هذه الأخلاق الحميدة واتّصف بها ولم يكتف بذلك، بل حاول توريثها وتعليمها وتأصيلها في كتابه (الأخلاق الإسلامية وأسسها)، والكتاب في مجلدين كبيرين[3].

وصفوة القول في ذلك: أن مفسرنا -رحمه الله- نشأ في بيئة صالحة فيها العالم المفكر وفيها المحب للعلم الساعي لخدمة أهله، فهو سليل إحدى العائلات الدمشقية العريقة التي كان قوامها العلم وهدفها الدعوة إلى الله، وقد شابه الابن الأكبر[4] أباه وسار في العلم على خطاه، وكان أوّل من نال بركة العلم الذي أسسه وسعى فيه لتخريج كبار العلماء بإنشائه لمعهد التوجيه الإسلامي.

كانت المسيرة العلمية للشيخ جادة حافلة بالعطاءات، فمفسرنا -رحمه الله- من طلاب العلم المجدين غرف من معين والده معلمه الأول وأخذ بعده على يد عدد من كبار المشايخ في سوريا ومصر كما تولى التعليم في سن مبكرة، وقد كان لنشأته الطيبة وما امتاز به من أخلاق حسنة وسجايا كريمة أثرا في بناء شخصيته العلمية التي أكسبته مكانة بين مصاف العلماء المعاصرين، وهذا ما ميزه وجعله

---

[1] _ الشيخ عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، ابنة الزهراء، (مقال).

[2] _ عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص21.

[3] _ وقد عددت زوجته هذه الصفات وتحدثت عن مبادئه التربوية وسيرته مع من رباهم ومع أهله؛ وهي خير من يتحدث عنه فهي التي عاشرته وعاشت معه فكانت أدرى الناس به. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص34 وما بعدها.

[4] _ فقد أنجبت السيدة نظمية للشيخ حسن اثني عشر ولدا، خمسة إناث وسبعة ذكور أكبرهم الشيخ عبد الرحمن وهو الوحيد الذي تابع الدراسة في مدرسة والده، يقول: "وأنا الذي تابعت الدراسة في مدرسته من أولاده". ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص12/ الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص43- 44.

ينفرد عن سابقيه ممن ألف في تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، فهل كان لهذه الشخصية العلمية والدعوية القوية دور في جعل تفسيره يتفوق على أقرانه وأمثاله، ويخفف من حدة النقد الموجه لما استحدثوه في تفسيرهم لكتاب الله ﷻ؟

الفرع الثاني: أثار المفسر العلمية ووفاته.

ظل الميداني ينهل من العلوم الشرعية واللغوية، إلى أن أصبح علما من أعلام هذه الأمة وركنا من أركانها، وقد كان لثقافته المتنوعة واطلاعه الواسع واحتكاكه بالعلماء والشيوخ عظيم الأثر في حياته العلمية، حيث ألف كتبا كثيرة في علوم شتى وتخرج على يديه خلق كثير ليختم مسيرته بالعكوف على تدبر كتاب الله ﷻ إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.

أولا: تلاميذه.

تعد النشأة العلمية والتتلمذ على يد كبار العلماء والتمكن من العلم وسبغه بالأدب، من أهم العوامل التي تجذب طلاب العلم، وهذه الصفات اشتهر بها الشيخ -رحمه الله- وذاع صيته في الآفاق بها فقد ربى أجيالا عديدة وأخذ العلم عنه خلق كثير، حيث بدأ التدريس مبكرا في معهد والده، كما درّس في المساجد والمدارس والجامعات في مسقط رأسه سوريا وفي المملكة العربية السعودية، ولذلك يصعب في هذا المقام حصر التلاميذ الذين أخذوا عنه، وإنما أردت التمثيل لمن اشتهر ولازم الشيخ في الطلب في المعهد وفي مكة.

أ. **معهد التوجيه الإسلامي**: درّس الشيخ فيه بعدما تخرج ضمن الدفعة الثالثة مباشرة، حيث أسند إليه تدريس أعيان الدفعة الرابعة، يقول في حديثه عنها: "وكنت يومئذ أنا والشيخ محمد كريم راجح، والشيخ محمد محمد الكسواني...وآخرون قد أسند إلينا تدريس هذه الصفوف أو الحلقات التي بدأت تأخذ شكل صفوف نظامية ذات مناهج دراسية متدرجة يكمل بعضها بعضا"[1].

وممن درس على الشيخ في هذا المعهد: محمد سعيد البوطي[2]، محمد الحمدان[3]، موسى

---

[1] _ الوالد الداعية المربي، ص131.

[2] _ هو: محمد سعيد ابن ملا رمضان البوطي، ولد سنة 1434هـ/ 2013م، ألحقه والده بمدرسة الشيخ الحسن بعدما علمه مبادئ العلوم العربية والإسلامية، ثم التحق بعدها بالأزهر وهناك نال درجة الماجستير فالدكتوراه، من مؤلفاته: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية وفقه السيرة النبوية، توفي سنة: 1434هـ/ 2013م. ينظر: الوالد الداعية المربي، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص131وما بعدها/ -محمد سعيد رمضان البوطي-: الموسوعة الحرة ويكيبيديا wikipedia.org.

[3] _ هو: محمد الحمدان من (الباب) قرب مدينة (حلب)، التحق بمعهد التوجيه الإسلامي وقد كانت له دراسة سابقة لبعض العلوم العربية والدينية، تولى الإمامة والخطابة في بعض مساجد دمشق ثم سافر إلى الكويت، وتسلم وظيفة الإمامة والخطابة والتدريس. ينظر: الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص133.

لكود[1] وغيرهم كثير.

ب. بيته في مكة المكرمة: لازم الشيخ عدد من طلبة العلم في بيته، حيث كانوا لا يكادون يبرحون مجالسه أمثال: محمد علي دولة[2] وعبد الله التليدي[3] وغيرهم كثير.

ولعل من أشهر تلاميذه في هذه الفترة مجد مكي[4] يقول: "لقد حظيت بالتعرف على فضيلة الشيخ منذ قدومي إلى مكة المكرمة سنة 1400هـ، وحضرت بعض دروسه ومحاضراته في الجامعة، وقرأت أكثر كتبه، وانتفعت بها انتفاعا كبيرا، ثم كثرت زياراتي له، واتصالي به، بعد تفرغه من عمله الجامعي توجه لتفسيره التدبري...وقد زرته بصحبة الكثير من العلماء وطلبة العلم، ومنهم على سبيل المثال: الشيخ: محمد عوامة، والشيخ عبد الله التليدي، والدكتور أنس الزرقا...وغيرهم كثير.

وكنا نلقى منه كل حفاوة وتكريم، ونستفيد من توجيهاته التربوية، وفوائده العلمية"[5].

فقد كان مجد مكي من أخص تلاميذه وأبرِّهم به، حمل راية التعريف بشيخه وبما خلفه من مؤلفات وخاصة تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر) الذي اهتم به اهتماما بالغا[6].

---

[1] _ من أعيان الدفعة الرابعة، تخرج من معهد التوجيه الإسلامي سافر إلى مصر، والتحق بكلية الشريعة في الأزهر، ثم تخرج وعاد إلى سورية، وعين أستاذا للتربية الإسلامية. ينظر: الوالد الداعية المربي، حبنكة الميداني، ص133.

[2] _ هو: محمد علي دولة ولد سنة 1939م، تعلم القرآن عند الشيخ توفيق المغربي فكان أجود حافظ، وعندما انتهى من المرحلة الابتدائية انتسب إلى الجمعية الغراء وتتلمذ على يد ثلة من العلماء منهم عبد الغني الدقر وعبد الكريم الرفاعي، أصدر مجموعة من السلاسل منها: سلسلة أعلام المسلمين، سلسلة كتب قيمة، توفي سنة: 2016م. ينظر: محمد علي دولة وجاذبية الداعية، حسن قاطرجي، ص24- 25 (مقال)/ الأستاذ الداعية الناشر محمد علي دولة، عمر محمد العبسو، (مقال).

[3] _ هو: عبد الله بن عبد القادر بن أحمد بن محمد التليدي الحسني المغربي ولد سنة 1347هـ/ 1926م، حفظ القرآن والمتون وهو صغير، تنقل بين طنجة وفاس في المغرب طلبا للعلم، توفي سنة: 2017هـ. ينظر: ذكريات من حياتي، عبد الله التليدي، ص19 وما بعدها/ -عبد الله التليدي-: الموسوعة الحرة ويكيبيديا wikipedia.org.

[4] _ هو: مجد بن أحمد بن سعيد مكي، ولد في حلب السورية سنة 1376هـ/ 1957م، انتسب إلى كلية الشريعة بجامعة أم القرى في مكة المكرمة وبها تحصل على الماجستير، استلم الإمامة والخطابة في جامع الرضا بحي النعيم، وهو يعمل الآن كباحث في كلية الدراسات الإسلامية في مؤسسة قطر في الدوحة، من مؤلفاته: التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، المعين على تدبر الكتاب. ينظر: -مجد مكي-: الموسوعة الحرة ويكيبيديا wikipedia.org.

[5] _ العلامة المفكر المفسر الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، مجد مكي، (مقال).

[6] _ حيث عرّف بتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) في كتيب ماتع، أرسل به إلى الشيخ في حياته فأعجب به يقول مجد مكي: "كتبت دراسة تعريفيه موجزة عن تفسيره التدبري، وقد أرسلت له تلك الدراسة لاطلاعه عليها قبل طباعتها، فاستحسنها، واتصل بي من دمشق يشكرني عليها"، وقد نسج على نهجه تفسيره "المعين على تدبر الكتاب المبين" يقول: "وقد التمست خطى الشيخ فيما كتبه في تدبر السور المدنية، مستنيرا ببعض (قواعد التدبر الأمثل) ومستفيدا مما دونه في بعض كتبه الأخرى". ينظر: العلامة المفكر المفسر الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، (مقال)/ المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكي، (مقال).

وهذه الكثرة في طلاب الشيخ وتلاميذه لم تزده إلا تواضعا، إذ كان الشيخ زاهدا في الشهرة بعيدا عن الأضواء، غير مبال بالمناصب فقد عُرض عليه منصب مفتي للجمهورية السورية فرفضه وفرّ منه، يقول مجد مكي: "سمعت الشيخ عبد الرحمن يقول: "لقد حاول بعضهم إلزامي باستلام منصب المفتي العام، لكنني فررت منه، وأكرمني الله بالإقامة بمكة المكرمة، والتفرغ لكتابة التفسير، وهذا من فضل ربي عليّ، ولو قبلت ذلك المنصب لكنت مطية ذلولا ، وعبدا مطواعا، ولركبت سيارة فخمة سوداء تنتهي بي إلى غضب الله تعالى، فآثرت الباقي على الفاني، والعلم النافع على الزغل والزيف""[1].

ثانيا: مؤلفاته.

كان الشيخ –رحمه الله– ذا همة عالية في التأليف والتدوين، فقد أغنى المكتبة الإسلامية بالكثير من المؤلفات المتنوعة "تلك المؤلفات التي جمعت بين القديم والحديث، والتخصص الدقيق مع بعض العلوم الدنيوية الأخرى، والشمولية مع التحليل والتركيز..."[2]، فقد ترك ما يقارب "الثلاثين مجلدا في عدة سلاسل علمية...فضلا عن غيرها من الكتب والدراسات المتنوعة"[3].

وقد قُسمت مؤلفاته المطبوعة إلى سلاسل عدة سأقوم بسردها على النحو الذي سارت عليه زوجته[4].

✿ **سلسلة في طريق الإسلام:** وتضم جملة من مؤلفات الشيخ التي تحدث فيها عن العقيدة وأصول الدين والأخلاق والحضارة الإسلامية وعن الفقه والأحكام.

1- العقيدة الإسلامية وأسسها.

2- الأخلاق الإسلامية وأسسها.

3- براهين وأدلة إيمانية.

4- الصيام ورمضان في السنة والقرآن (دراسة في طريق بحوث فقه الكتاب والسنة).

5- الحضارة الإسلامية، أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم.

---

[1] _ العلامة المفكّر المفسّر الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، (مقال).

[2] _ عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة راغب الجراح، ص25.

[3] _ التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، مجد مكي، ص5.

[4] _ وقد عرّفت بها بما يفي بالغرض، لذا اكتفيت بسردها فقط طلبا للاختصار. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص51 وما بعدها.

6- روائع من أقوال الرسول ﷺ، دراسة لغوية وفكرية وأدبية.

7- الأمة الربانية الواحدة.

8- ابتلاء الإرادة بالإسلام والإيمان والعبادة.

9- تيسير فقه الزكاة (تبيين وتقنيين وترجيح).

10- فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

11- الوجيزة في العقيدة الإسلامية.

12- الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها.

13- توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية.

✿ سلسلة الدراسات القرآنية.

1- قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ

2- تدبر سورة الفرقان في وحدة الموضوع.

3- تفسير سورة الرعد في وحدة الموضوع.

4- أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع.

5- نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد(دراسة في طريق التفسير الموضوعي).

✿ سلسلة في أعداء الإسلام.

1- مكايد يهودية عبر التاريخ.

2- صراع مع الملاحدة حتى العظم.

3- أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير-الاستشراق-الاستعمار).

4- الكيد الأحمر.

5- غزو في الصميم دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسلوكي في مجالات التعليم المنهجي والتثقيف العام.

6- كواشف زيوف المذاهب الفكرية المعاصرة.

7- ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين.

8- أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية العامة تحت تنظيم الآباء

البيض.

9- التحريف المعاصر في الدين (تسلل في الأنفاق بعد السقوط في الأعماق).

✿ سلسلة من أدب الدعوة الإسلامية.

1- مبادئ في الأدب والدعوة.

2- ديوان أقباس في مناهج الدعوة وتوجيه الدعاة.

3- ديوان ترنيمات إسلامية شعر للنشيد.

4- ديوان آمنت بالله.

5- البلاغة العربية (أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها (بهيكل جديد من طريف وتليد).

✿ كتب متنوعة:

1- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة.

2- بصائر للمسلم المعاصر.

3- الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني (قصة عالم مجاهد حكيم شجاع).

ولعل من أهم آثاره العلمية التي نختم بها هنا والتي كتبها الشيخ في ختام مسيرته العلمية تفسيره التدبري (معارج التفكر ودقائق التدبر) الذي طُبع في خمسة عشرة مجلدا، فسّر فيه الشيخ السور المكية كلّها، وشرع في تدبر سورة (البقرة) ولكن حال الأجل دون إتمامها.

وبعد هذه الإطلالة تبين حبّ مفسرنا للعلم وإيثاره له وتقديمه على غيره وتجسد ذلك في إنتاجه العلمي، فالعناوين التي ارتضاها لكتبه تدل على اهتمامه بالدراسات الشرعية الإسلامية منها عامة والقرآنية على وجه الخصوص، فقد أصل لها ودافع عنها بالرد على كل المخالفين والمعاندين؛ وذلك لم يمنعه من أن يثري مكتبة الأدب الإسلامي بتأليفه في فن البلاغة والشعر ووضع الدواوين.

ثالثا: وفاته.

ابتلي الشيخ -رحمه الله- في آخر حياته بأمراض كثيرة آخرها السرطان، ومع ذلك فقد كان يسأل الله أن يعينه على إكمال تدبر كتابه ﷻ، حيث عكف عليه إلى آخر أيام حياته[1].

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج12، ص798- 799.

وقد "رجع إلى مدينة دمشق في شهر شوال من سنة 1424هـ بعد غياب خمسة وعشرين عاما عنها، واستقبل بحفاوة وتكريم، وتوافد عليه العلماء وطلبة العلم، مهنئين له بعودته الحميدة، ومستفيدين من علمه الدقيق وفكره العميق"[1]، ولكن إقامته فيها لم تدم طويلا ففي صبيحة يوم الأربعاء 25 جمادى الآخرة 1425هـ، الموافق لـ: 11 أوت 2004م، انتقل إلى رحمة ربه عن عمر يناهز الثمانين عاما تقريبا.

وقد "شيّعت جنازة الشيخ عصر يوم الأربعاء، وكانت جنازة حافلة مشهودة، خرج فيها آلاف المشيعين من العلماء والكبراء والعامة، تملؤهم الحسرة وتَمُضُّهم الأحزان، وصلِّيَ عليه في جامع الأمير مَنجَك، في حي الميدان وأتَمَّهُ عقب الصلاة شيخ قرآء الشام فضيلة الشيخ محمد كريِّم راجح، وألقى ولده الدكتور وائل قصيدة في رثائه، ثم وري في مثواه الأخير من دار الدنيا بمقبرة الجورة في حي الميدان"[2].

رابعا: مكانته العلمية.

كان الشيخ من العلماء الذين خصهم الله بالهمة العالية والقلم السيال، فقد كتب فأبدع وعمل فأنتج كتبه لا تخلو منها مكتبات أهل العلم وطلابه فضلا عن الجامعات والكليات.

حظي –رحمه الله– بمنزلة عالية ومكانة مرموقة بين علماء عصره، ولقب بألقاب علمية عدّة "حتى إن بعضهم دعاه بـ"غزالي عصره"، و آخر بأنه "أبو الغزو الفكري والثقافة الإسلامية". وبعضهم وصفه بقوله: "جمع فأوعى، وكتب فوعّى"...وقيل عنه أيضا : "إنه يغرف من معين المعقول، ويغوص بحثا عن درر المنقول""[3].

وقد زاره مرة أحد شيوخ المغرب في مراكش في موسم الحج وهو إمام وخطيب في بلده، وممن قرأ كتبه وانتفع، وقد قال له: "إنني أقف على المنبر بشخصي وأنت تتكلم"[4].

ويقول محمد علي دولة فيه بعد وفاته: "أيها الأخ الراحل: لقد فقدت فيك أخا حبيبا، وأستاذا كبيرا، وفقد فيك المسلمون معلما ناصحا، وعالما جليلا، فرحمة الله عليك إلى يوم الدين"[5].

---

[1] _ التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، مجد مكي، ص56.

[2] _ العلامة المفكر المفسر الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، محمد علي دولة، (مقال).

[3] _ عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص46.

[4] _ ينظر: المرجع نفسه، ص49.

[5] _ العلامة الشيخ عبد الرحمن حبنكة قصة حياة ومسيرة علم وجهاد، (مقال).

ولعل خير ما نختم به حديثنا عن الشيخ –رحمه الله– قصيدة بعنوان "علامة الشام" قال فيها صاحبها[1]:

علَّامة الشَّام كم في الشَّام من عَلم ... أبوك واحدهم في ذروة السَّنم

إنَّ الصفات التي أضْفَيتَ بُرْدتها ... عليَّ بعضُ صِفَاتٍ فيك من أَممِ

أنت المجلّي إذا ما البحث مُحتَدِم ... بين الرجال على نَهْج وفي فَهَمِ

وأنت من يدرك المخبوء من دُرَر ... بين النَّفائس من فعل ومن كَلِمِ

وبالرِّجال خبير قد يقلُّ له ... فينا النّظير من الأمصار والأُمم

[1] _ هو إبراهيم فودة، وقد أثبتت عائدة الجراح صورة للقصيدة بخط يد صاحبها. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص49.

المطلب الثاني: جهود عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني التفسيرية قبل كتابة تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).

يقف الباحث في الإنتاج التفسيري للشيخ عبد الرحمن على مسألة غاية في الأهمية وهي أن تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) كان ثمرة لجهود حثيثة تنظيرية وتطبيقية شكلت أرضية رصينة مهدت لميلاده.

الفرع الأول: عناية الشيخ بتفسير القرآن الكريم تنظيرا.

يرتكز علم التفسير على قواعد وأصول، حاول الميداني التنظير لها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، والذي جاء نتيجة تدبر طويل لمدة تزيد عن أربعين عاما[1] وكان فاتحة جهوده في علم التفسير.

يقول : "وبعد فقد فتح الله ﷻ علي خلال تدبري الطويل لكتابه المجيد، باستخراج أربعين قاعدة من قواعد التدبر الأمثل لكتابه، قابلة للزيادة عليها، وهذه القواعد تقدم للمتدبرين أصول التفسير الأقوم للقرآن الكريم"[2].

وهذا الفرع معقود للتعريف بالكتاب لأهميته من خلال دراسة توصيفية شكلية مختصرة، ترتكز على جملة من النقاط التي تناولتها بالعرض على النحو الآتي:

أولا: اسم الكتاب.

عنون عبد الرحمن لسفره بـ(قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، وهذا اللقب يحوي عددا من المصطلحات يحسن الوقوف على المراد بأهم مفاهيمها لتكون معانيها لبنة أولى في بيان موضوع الكتاب.

(قواعد التدبر) مركب إضافي لا يمكن بيان معناه إلا بالتعريف بشقيه "القواعد" و"التدبر" كلٌّ على حدة، لنخلُص إلى تعريف المصطلح المركب.

---

[1] _ ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص97.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص5.

أ. بيان مصطلح "قواعد التدبر" إفرادا.

- **القواعد في اللغة** جمع مفرد قاعدة وهي الأساس والأصل، فقواعد البيت أساسه وقواعد السَّحاب: أصولُها المعترِضة في آفاق السماء[1]، أما **اصطلاحا**[2]؛ فقد تعددت عبارات أهل العلم في تعريفهم للقاعدة وتقارب بعضها بعضا في بيان المراد، ومع ذلك فإن منهم من ذهب إلى أن القاعدة تكون كلية[3] والبعض الآخر ذهب أنها أغلبية[4]، وأرى أن الجمع بين القولين هو الأقرب إلى بيان المقصود منها، فالقاعدة قد يكون الحكم فيها كليا ليس فيه استثناءات وقد يكون حكمها أغلبيا يخرج منه موضع أو موضعان. يقول الشاطبي: "إن الأمر العام والقانون الشائع هو ما تقدم؛ فلا تنقضه الأفراد الجزئية الأقلية؛ لأن الكلية إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت كلية، واعتمدت في الحكم بها وعليها، شأن الأمور العادية الجارية في الوجود، ولا شك أن ما اعترض به من ذلك قليل، دل عليه الاستقراء؛ فليس بقادح فيما تأصل"[5].

ومن ثمّ يمكن تعريف القاعدة بأنها: "حكم كلي أو أغلبي ينطبق على أحكام جزئياته".

- **التدبر في اللغة:** تدور مادته حول النظر في أدبار الأمور والتفكير في عاقبتها، وما تصير إليه[6].

قال الشوكاني[7]: "يقال: تدبرت الشيء. تفكرت في عاقبته وتأملته، ثم استعمل في كل تأمل"[8].

---

(1) _ ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ج5، ص109/ المصباح المنير، الفيومي، ج2، ص510.

(2) _ ينظر: التعريفات، الجرجاني، ص219/ شرح الكوكب المنير، ابن النجار، مج1، ص30/ قواعد التفسير، خالد السبت، ج1، ص23.

(3) _ أمثال تاج الدين السبكي الذي عرفها فقال: "فالقاعدة: الأمر الكلي الذي ينطبق عليه جزئيات كثيرة يفهم أحكامها منها". الأشباه والنظائر، ج1، ص23.

(4) _ أمثال العلامة الحموي الذي ذكر تعريفها عند الفقهاء فقال: "حكم أكثري لا كلي ينطبق على أكثر جزئياته لتعرف أحكامها منه". غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، أحمد بن محمد مكي، ج1، ص51.

(5) _ الموافقات، مج4، ص175.

(6) _ لسان العرب، ابن منظور، ج4، ص268/ المصباح المنير، الفيومي، ج1، ص189.

(7) _ هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، فقيه مجتهد، قرأ على والده وعلى غيره من علماء عصره أمثال: عبد الرحمن بن قاسم المداني، ترك مؤلفات كثيرة أهمها: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، توفي سنة: 1250هـ. ينظر: البدر الطالع، الشوكاني، ج2، ص214/ الأعلام، الزركلي، ج6، ص298.

(8) _ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، ص567.

أما في الاصطلاح فقد عرف بتعاريف عدة[1]، اخترت منها ما عرفه به صاحب الكتاب فذلك أحرى لبيان المراد من كتابه، إذ بعد أن ذكر المراد من التدبر عند أهل اللغة عرفه قائلا: **"التدبر هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"**[2].

ب. تعريف "قواعد التدبر" باعتبار تركيبه:

بعد التعريف بالمصطلحات الواردة في المركب الإضافي يمكن القول: إن "قواعد التدبر" هي الأسس والأصول الهادية لمن أراد تدبر القرآن الكريم، الموصلة إلى استنباط معانيه والتفكر في دلالاته ومراميه، وهذه هي التي اجتهد المفسر في جمعها في كتاب واحد فأحصى أربعين منها.

ثانيا: طبعاته.

صدر الكتاب في عدة طبعات أهمها الطبعة الأولى والثانية.

- الطبعة الأولى: كانت سنة 1400هـ/ 1980م، وضمت 174 صفحة طبعت على شكل دفتر صغير.

وهذه الطبعة المختصرة الموجزة[3]، اشتملت على سبع وعشرين قاعدة فقط شكلت النواة الأولى للكِتاب[4].

- الطبعة الثانية: صدرت سنة 1409هـ/ 1989م، في مجلد بلغ عدد صفحاته (839) صفحة، تميزت عن سابقتها بذكر مزيد من القواعد، والإفاضة في الأمثلة التطبيقية للقواعد السابقة واللاحقة، فأوصلها إلى أربعين قاعدة دبجها بمقدمة؛ وقد أولاها الشيخ عناية فائقة، حيث قضى في تهذيبها وتنقيحها والزيادة عليها قرابة الثماني سنوات[5].

---

(1) _ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، ج1، ص540- ج4، ص90/ التعريفات، الجرجاني، ص76/ تفسير القرآن الحكيم، محمد رشيد رضا، ج5، ص233/ مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد الطيار، ص183 وما بعدها.

(2) _ قواعد التدبر، ص10.

(3) _ كما وصفها صاحب الكتاب. ينظر: قواعد التدبر، ص5.

(4) _ ينظر: قواعد التدبر، ص802.

(5) _ يقول: "بعد حوالي ثمانية أعوام من إنجاز هذا الكتاب...الذي ظهرت نواته الأولى في طبعتها الأولى...قضى الله لي بإتمام فضله فألهمني أن أرتب وأصنف ما كنت قد جمعته خلال هذه المدة من إضافات في القواعد والأمثلة، وأن أتوجه لاستخراجات أخريات فيهما". قواعد التدبر، ص802.

وهاتان الطبعتان هما أهم الطبعات لما في الثانية من زيادة في القواعد وبسط في الأمثلة على الأولى، وقد توالت الطبعات بعد ذلك، ولكن كانت كلها نَسخ لما في الطبعة الثانية دون أي زيادة أو تفصيل يذكر، ودار القلم في آخر إصدار لها وصلت إلى الطبعة الخامسة (1433هـ/ 2012م)، وهذا مما يدل على أهمية الكتاب وانتفاع طلبة العلم به وقبوله وتداوله بين الناس، ولعل ذلك يرجع إلى خصيصة تميز بها هذا السفر عن غيره وهي كثرة الشواهد والأمثلة التي أفاض فيها المفسر، والتي تعين على تدبر الآيات والتمكن من فهم القاعدة والتدرب على تطبيقها، سعيا في الوصول إلى التفسير الأقوم الذي يحمي صاحبه من الزلل ويمكنه من تدبر أمثل.

ثالثا: موضوع الكتاب ومحتواه.

حوى (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ) "جملة قواعد هادية لمن أراد أن يتدبر كلام الله بصورة فُضلى"[1] كما جاء على لسان صاحب الكتاب؛ أي أن موضوعه يدور حول الأسس والأصول التي تعين المتدبر على تدبر أقوم لكتاب الله ﷻ، سعيا لفهم معانيه والوقوف على أسراره ومراميه.

وأثناء الحديث عن موضوع الكتاب أردت التنبيه إلى عدد من المسائل أهمها:

المسألة الأولى: أنّ الكتاب قد حوى بعض القواعد التفسيرية فقط، إذ إن صاحبه قد صرح بأنه لم يستقص كل القواعد أو يحط بها جميعا، يقول: "وما أظن أنني استقصيت كل القواعد التي يمكن التوصل إليها، إلا أن ما توصلت إليه –بفضل الله وإلهامه– مهم جدا، وينبغي للمتدبر ملاحظته"[2].

المسألة الثانية: أن الكتاب يشتمل على قواعد قد سُبق إليها وأخرى اجتهد في استخراجها وقد أقر بذلك قائلا: "وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد، وشرحتها بالأمثلة، وقد أكون في بعضها مسبوقا إلى كتابته أو الإشارة إليه"[3].

المسألة الثالثة: أن المفسر استند في استخراج هذه القواعد على أسس ثلاثة:

1. السبر الشامل لآيات القرآن الكريم.

---

[1] _ قواعد التدبر، حبنكة الميداني، ص12.

[2] _ قواعد التدبر، حبنكة الميداني، ص12.

[3] _ قواعد التدبر، حبنكة الميداني، ص12.

2. الممارسة الطويلة لتدبر القرآن الكريم[1].

3. مطالعة كتب التفسير على اختلاف مناهجها.

وقد تحدث الشيخ عنها في عدد من المواضع، إليك بعضها:

قال: "وقد اعتمدت في بعضها على السبر الشامل لآيات القرآن الكريم، إذ تيسر لي ذلك بمعونة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم...فقد تبين لي أن السبر الشامل يقدم رؤى أكثر وضوحا وبصيرة للمتدبر، على أنه هو المنهج العلمي الأمثل لمعرفة حقائق الأشياء، التي لا تخضع للقواعد الكلية المجردة، المتفق عليها عند أهل العقل والمنطق التجريدي الرياضي"[2].

وقال: "وخلال ممارستي الطويلة للتدبر في القرآن العظيم، ومطالعتي لتفاسير المفسرين على اختلاف مناهجهم، تكشفت لي جملة قواعد هادية لمن أردا أن يتدبر كلام الله بصورة فضلى"[3].

المسألة الرابعة: وهي أن الكتاب جمع بين دفتيه أربعون قاعدة منها ما تعلق بالتفسير وعلوم القرآن مثل أسباب النزول والقراءات القرآنية، ومنها ما تعلق بالناحية اللغوية والبلاغية والبيانية للقرآن الكريم[4]، وقد ختم معظمها بأكثر من مثال تطبيقي يوضح القاعدة ويجليها، يعين على فهمها ويساعد على إدراك محتواها وكيفية الاستفادة منها في التدبر، وقد بيّن الغرض من ذلك فقال: "...ليس الغرض من التدبر مجرد الترف العلمي، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصل إلى كشف المعالي للتعالي بمعرفتها واكتشافها، إنما وراء الفهم غرض التذكر والعظة، والعمل بموجب العلم"[5].

وقد أردف بعض القواعد بملاحق تخدمها، ومثاله صنيعه في القاعدة التي خصّها بالحديث عن القراءات العشر، حيث أردفها بملحق "حول القراء العشرة والرواة الذين رووا قراءاتهم"[6].

---

(1) _ حيث اهتدى إلى هذه القواعد بعد ممارسة طويلة لتدبر كتاب الله تعالى، يقول في سياق حديثه عن القواعد: "وقد هدت إليها ممارسة تدبر كتاب الله بعمق وأناة، قرابة ثلث قرن أو أكثر"، وهو ما أكدته زوجته فقالت عن الكتاب: "وهو كتاب متميز فريد في نوعه، جمع فيه المؤلف ما استخرجه من قواعد لتدبر كتاب الله ﷻ، من خلال صحبته لكتاب الله...لمدة تزيد عن أربعين سنة". ينظر: قواعد التدبر، ص6/ عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص97.

(2) _ قواعد التدبر، ص6-7.

(3) _ قواعد التدبر، ص12.

(4) _ فقد جاءت القاعدة الحادية عشرة: "حول النظر فيما ورد من أسباب النزول"، والخامسة عشرة: "حول التكرير وأغراضه"، والحادية والعشرون: "حول ملاءمة الأسلوب البياني للهدف منه"، والأربعون: "حول القراءات العشر".

(5) _ قواعد التدبر، ص9.

(6) _ قواعد التدبر، ص753.

وذِكر كل القواعد والتفصيل فيها يتعذر في هذا المقام طلبا للاختصار، وسيأتي الحديث عن بعضها في باقي الفصول بما يعطي لمحة عن مضمونها فيحصل به المقصود، ويتضح به المراد.

رابعا: بين التدبر والتفسير.

اختار مفسرنا في عنونة قواعده كلمة "التدبر" بدلا من كلمة "التفسير" وقد سبق التعريف بكليهما فيما مضى، ويحسن التذكير به هنا إتماما للفائدة وبيانا للفرق بينهما.

تعريف التفسير: "بيان معاني القرآن الكريم وما يستفاد منها"

تعريف التدبر: "التدبر هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"[1].

وبالتدقيق في معاني كل منهما يظهر أن المفسر –رحمه الله– كان مدركا لكُنه الفرق بينهما[2] فاعتمد عن قصد كلمة (التدبر)، يقول تلميذه: "وهو –رحمه الله– لا يرى استخدام كلمة التفسير، التي لا تتعدى بيان المعنى وإيضاحه دون الغوص في دلالات الألفاظ وسبر المعاني، وبيان ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة، وارتباطها موضوعيا بما تفرق في القرآن المجيد"[3]، ويؤكد هذا عدد من النقاط أهمها:

– بيان المفسر للمراد من كلمة "التدبر" في اللغة والاصطلاح[4].

– الإشارة إلى الغرض من التدبر، يقول: "ليس الغرض من التدبر مجرد الترف العلمي، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصل إلى كشف المعاني للتعالي بمعرفتها واكتشافها، وإنما وراء الفهم غرض التذكرة والعظة، والعمل بموجب العلم"[5].

– بيان ما يحتاج إليه تدبر آيات القرآن الكريم، يقول: "إن تدبر آيات كتاب الله ذات المعاني المباركة التي لا ينضب معينها، يحتاج إلى بصيرة منيرة وفهم ثاقب"[6].

وخاصة إذا تعلق الأمر باستنباط القواعد فإن ذلك يحتاج إلى عمق وأناة، وفي ذلك يقول –رحمه

---

[1] _ قواعد التدبر، حبنكة الميداني، ص10.

[2] _ ينظر: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد الطيار، ص189 وما بعدها.

[3] _ التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، محمد مكي، ص11.

[4] _ ينظر: قواعد التدبر، ص10/ معارج التفكر، مج3، ص555.

[5] _ قواعد التدبر، ص9.

[6] _ قواعد التدبر، ص11.

الله-: "وقد هدت إليها ممارسة تدبر كتاب الله بعمق وأناة، قرابة ثلث قرن أو أكثر"[1].

خامسا: مكانة الكتاب بالنسبة لتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

لعل الشيخ -رحمه الله- قبل أن يشرع في تفسير كتاب الله تعالى امتثل نصيحة شيخ الإسلام في قوله أنه: "لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، وإلا يبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات فيتولد فساد عظيم"[2].

فقد أيقن مفسرنا حتمية ذلك لكل من تصدى لتفسير كتاب الله ﷻ، ويؤكد هذا ما ذهب إليه في مقدمة الطبعة الأولى حيث قال: "وكان للمفسرين مناهج في التفسير، وقد توصل كل منهم إلى قواعد وضحت له في فكره، فكانت هادية له في تفسيره، سواء أذكر هذه القواعد وأبانها منهجا له، أو لم يذكرها لكنها كانت ماثلة في تصوره..."[3].

وعلى أساس ما تقدم تبرز أهمية كتاب القواعد، فالمفسّر رسم المنهج الذي يسير عليه والطريق الذي يسلكه في التفسير قبل أن يدق بابه، وذلك بإرساء القواعد المثلى -حسب تقديره- لتدبر كتاب الله ﷻ التي تجسدت بتأليفه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ).

فقبل أن يلج باب التفسير قدم له بمقدمة، ضمت جملة من الأسس والقواعد التي سيبني عليها، ورسمت المنهج الذي سيسير عليه، فقد وضع بعده تفسيرا تدبريا للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، وخرج بذلك عن المألوف في وضع المصنفات، إذ العادة أن المقدمة آخر ما يكتب، يقول مجد مكي: "وإذا كانت عادة الكثير من المؤلفين أن يكتبوا مقدمة كتبهم بعد الانتهاء من تأليفها...فإن الشيخ كالمهندس الخبير، والبناء القدير، قد خطط لكتابه، ورسم منهجه فيه، وكتب مقدمته الوافية قبل البدء بتدبره العميق لكتاب الله ﷻ"[4].

وقد كان لهذا الكتاب مكانة خاصة بين أهل العلم كما جاء على لسان صاحبه، حيث قال: "فقد نال بفضل الله ومنته هذا الكتاب (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ) في طبعته الأولى المختصرة

---

[1] _ قواعد التدبر، ص6.

[2] _ مجموع الفتاوى، ج19، ص209.

[3] _ قواعد التدبر، ص11- 12.

[4] _ التعريف بكتاب معارج التفكر، ص10-11.

الموجزة، استحسان أهل الرأي و الفكر، و إعجاب المتخصصين بالدراسة الشرعية، لاسيما تفسير القرآن الكريم"[1].

ويشيد بهذه القواعد تلميذه مجد مكي فيقول: "وهذه القواعد في تدبر كتاب الله...هي نتيجة لدراسة دائبة، وبحوث متواصلة، وتأملات واسعة، وصحبة مستمرة لكتاب الله ﷻ"[2].

كما أنها تكشف عن الشخصية العلمية الفذة للشيخ، ورسوخ قدمه في تدبره للقرآن الكريم، حيث ألف في أصوله التي بدونها زلت أقدام الكثيرين.

وصفوة القول في ذلك كله: أنّ المفسر –رحمه الله– كانت له جهود محمودة في وضع قواعد تمكّن المتدبر من استخراج المعاني الدقيقة والهدايات العميقة لكتاب الله ﷻ.

وهذه القواعد شكلت الناحية التنظيرية لعناية المفسر بعلم التفسير، كما مهدت لظهور (معارج التفكر ودقائق التدبر) فهي بمثابة مقدمة له، إذ كانت دافعا قويا للشيخ أن ينتج تفسيرا يعتمد على ما استخرجه من قواعد، فهي الأساس الذي بنى عليه تدبره وقد سعى لتجسيدها وامتثالها لما فيها من نفع عظيم على قوله؛ وهذا بالنسبة لكتابه (قواعد التدبر الأمثل) فهل بقية مؤلفاته في تفسير القرآن الكريم كان لها دور أيضا في ظهور (معارج التفكر ودقائق التدبر)؟ وهل طبق هذه القواعد قبل الشروع في كتابة تفسيره؟

الفرع الثاني: عناية الشيخ بتفسير القرآن الكريم تطبيقا.

عندما نتحدث عن جهود الميداني في علم التفسير من الناحية التطبيقية لا نقصد أنّ الدراسات والمؤلفات الأخرى لا تُعنى بذلك[3]، بل غرضنا من هذا هو الإشارة إلى تلك الدراسات التي خصّها لتفسير القرآن الكريم[4]، والتي حاولت التمثيل لاثنين منها بما يفي بالغرض ولا يخل بالمقصود، إذ لو عرضتها كلها لطال بي المقام هنا.

---

[1] _ قواعد التدبر، ص5.

[2] _ التعريف بكتاب معارج التفكر، ص11.

[3] _ وقد سبق الحديث عن مؤلفاته، كما أننا لا نحصر جهود الشيخ في تفسير القرآن الكريم في مجال التأليف فقط بل هناك مجالات أخرى اعتنى فيها الشيخ بالتفسير، نذكر منها التدريس النظامي والمسجدي، التفسير الشفوي في وسائل الإعلام وغيرها من المجالات.

[4] _ فتفسير القرآن عند الشيخ –رحمه الله– ليس محصورا في هذه المؤلفات دون غيرها، بل إن المفسر عني بتوظيف آيات القرآن الكريم وتدبرها في جل كتبه باختلاف موضوعاتها.

الكتاب الأول: نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد.

أخرج الشيخ عبد الرحمن –رحمه الله– بعد سنة واحدة من صدور كتابه (قواعد التدبر الأمثل) نموذجا طبّق فيه بعض القواعد التي نص عليها، وكان إصداره عام 1410هـ/ 1990م.

والكتاب في مجلد واحد من ثلاث وسبعين وثلاثمئة صفحة، جمع فيه كل النصوص التي ذُكر فيها نوح عليه السلام وقومه وهي ثمانية وعشرون نصا ثم تدبرها وفق الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، وأترك القارئ يستمع إلى الشيخ وهو يحكي ذلك قائلا: "لقد رتبت هذه النصوص للدراسة على وفق ترتيب نزول السور التي هي منها، رجاء أن يكون تدبرها منسجما مع أزمان نزولها في عصر التنزيل، ومتنقلا معها مرحلة فمرحلة، بحسب نجومها المكية فالمدنية، مسايرا بها أحداث السيرة النبوية، ومقتضيات دعوة الرسول إلى دين الله في العهد المكي ثم المدني، وناظرا في سوابق النص ولواحقه، من السور التي هو منها، وشرعت في تدبرها نصا فنصا مستهديا بقاعدة التكامل فيما بينها"[1].

ومن كلام الشيخ يظهر أنه أشار إلى تطبيقه لعدد من القواعد الأربعين التي نص عليها، منها القاعدة السادسة "حول تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، واستبعاد التكرير لمجرد التأكيد ما أمكن"[2] والقاعدة التاسعة "حول تتبع مراحل التنزيل"[3].

وبعد دراسته للآيات القرآنية أردفها بذكر الأحاديث النبوية الشريفة التي جاء فيها حديث عن القصة، لتتكامل فيما بينها في معالجة جوانب القصة والوقوف على عبرها وعظاتها.

وهذه الدراسة التكاملية لنصوص القرآن الكريم كانت خطوة أولى لدراسته لموضوعات أخرى من خلال القرآن الكريم وتجربة أوليّة في ميدان الدراسات التطبيقية وفق ترتيب نزول السور، يقول: "وقد رأيت أن أقدم دراسة تدبرية لقصة نوح في القرآن، وفق المنهج الذي ارتضيته لدراسة القصص القرآني دراسة تكاملية، وخشيت أن أطيل مسترسلا في التتبعات الجزئية، فيحجب ذلك استبصار منهج الدراسة التطبيقية، الذي رأيته الأنفع والأقوم لفهم كتاب الله عز وجل"[4].

والمطالع لتفسير (معارج التفكر) يلحظ الكثير من النماذج من هذا النوع من الدراسات؛ فالمفسر

---

[1] _ نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص5.

[2] _ قواعد التدبر، ص67.

[3] _ قواعد التدبر، ص151.

[4] _ نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص6- 7.

نظّر ثم طبّق قبل أن يدق باب تفسير القرآن الكريم كاملا وفق ترتيب نزول السور، وهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على رسوخ قدمه –رحمه الله– وبعد نظره وتعظيمه لكتاب الله ﷻ.

الكتاب الثاني: تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع السورة.

تناول –رحمه الله– بالتدبر بعض سور القرآن الكريم ومن ذلك سورة (الفرقان)، وقد صدر تدبر هذه السورة ضمن وحدة موضوعها في مجلد واحد من خمسين وأربعمئة صفحة تقريبا، عام 1412هـ/ 1991م، أي بعد حوالي ثلاث سنوات من طبع كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ).

حاول المؤلف استخراج موضوع السورة الرئيس الذي تدور حوله آياتها، ليصل بعد دراسة متأنية وتدبر عميق إلى أن الآية الأولى هي التي تبوح بموضوع السورة وتكشف عنه، وهي قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: 1]، مُطبقا في ذلك القاعدة الثانية من قواعد التدبر الأمثل التي يدور موضوعها "حول وحدة موضوع السورة القرآنية"[1]، ثم يسير بعد ذلك في تدبر السورة محاولا التزام معظم القواعد التي استنبطها.

حيث جعل موضوعها يدور حول أربعة خطوط: الله، القرآن، الرسول، المرسل إليهم، كما بيّن أنّ منهج وحدة موضوع السورة القرآنية منهج شجري، لا يُشترط فيه أن ترتبط كل آية بالتي قبلها، بل إن الارتباط يكون بفرع من فروع الشجرة[2]؛ وهذا المنهج المبتكر مما فتح الله به على الشيخ فلم يسبق إلى تأصيله وتطبيقه أحدا قبله[3].

وقد ختم تدبره بثمانية ملاحق تضمنت موضوعات متصلة بالسورة، فيها فائدة لمن أراد فهم المعنى العام للسورة، والوقوف على دقائق أسرار موضوعاتها ببحوث مستقلة.

---

[1] _ قواعد التدبر، ص27.

[2] _ ينظر: تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع، ص17 وما بعدها.

[3] _ ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص99/ التعريف بكتاب معارج التفكر، مجد مكي، ص23.

وفي الختام أقول: إن هذه المؤلفات وغيرها[1] تمثل نماذج طبّق فيها المفسر القواعد التي رسمها في كتابه، وقد قدّم جهدا مشكورا كان خطوة أولية توجت بظهور تفسيره وشكلت الركيزة التي انطلق منها في العملية التفسيرية؛ فهو لم يشرع مباشرة في إنشاء تفسير للقرآن الكريم كاملا وفق ترتيب نزول السور بل مهّد له أولا بكتابه (قواعد التدبر) ثم بمؤلفاته في ميدان الدراسات الموضوعية.

وهذا التدرج في دراساته التفسيرية يدل على تعظيم الشيخ للقرآن الكريم ويعكس مكانته عنده، يقول تلميذه محمد مكي: "وقد مهدت الدراسات السابقة الواسعة، والنشأة العلمية الصالحة، والذكاء الفطري، والنبوغ المبكر، والعمل المتواصل الدؤوب، والمؤهلات العلمية المتنوعة مع إلمام واسع باللغة العربية، نحوها وصرفها وبلاغتها...هذه العوامل المتعددة هيّأت الشيخ -بفضل الله وتوفيقه- للسموِّ صعودا في (معارج التفكر)، وعمقا في (دقائق التدبر)"[2].

---

[1] _ لأن هناك مؤلفات أخرى تدبر فيها بعض السور أو الموضوعات من خلال القرآن الكريم منها: ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين مع دراسة شاملة للنصوص القرآنية في النفاق والمنافقين، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، تفسير سورة الرعد في وحدة موضوع.

[2] _ التعريف بكتاب معارج التفكر، ص22.

المطلب الثالث: التعريف بتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

كثُرت المؤلفات في تفسير القرآن الكريم واختلفت مناهج مؤلفيها فيها، خاصة في العصر الحديث الذي شهد ظهور العديد من التفاسير ولعل من أهمها (تفسير معارج التفكر ودقائق التدبر)، زبدة أعمال الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني وخلاصة أفكاره وقمة إنتاجه العلمي التدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول.

وسيأتي هذا المطلب لتقديم دراسة توصيفية للكتاب في بطاقة تعريفية مختصرة في فرع أوّل، لأعرج بعد ذلك على أهم المصادر التي استند إليها وأبيّن منهجه في تفسيره للسورة القرآنية في فرع ثان.

الفرع الأول: دراسة وصفية للكتاب.

في إطار دراسة كتب أهل العلم، يكون لزاما على الباحث التعرف على حياتهم من جهة ثم التعريف بالكتاب في دراسة شكلية توصيفية من جهة ثانية، أما الشق الأول فقد كان موضوع مطلب سابق وسيأتي في هذا الفرع الحديث عن الشق الثاني والتعريف بتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

أولا: اسمه والحكمة من تأخير تأليفه.

1. اسمه: اشتهر تفسير حبنكة الميداني باسمه المختصر (معارج التفكر ودقائق التدبر) أما اسمه الكامل فهو: (**معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله** ﷻ)، وقد سماه الشيخ بنفسه إذ طُبعت أكثر مجلداته في حياته[1]، وتداولت بعده بهذا السياق.

وهذا العنوان تضمن ثلاثة مقاطع:

– **الأول:** (معارج التفكر ودقائق التدبر تفسير تدبري للقرآن الكريم).

وضّح الميداني فيه ما كان يصبو إلى تحقيقه والوصول إليه في تفسيره، حيث أراد أن يسموَ ويرتقيَ

[1] _ سيأتي تفصيل الحديث عند ذكر طبعات الكتاب.

بفكره إلى مائدة القرآن الكريم[1] لينهل منها بقدر ما فتح الله عليه، وبقدر اجتهاده وإعماله لفكره وتأمله في آيات القرآن الكريم[2] يتأهل أن يعلو ويصعد إلى دقائق المعاني، ويتعمق فيها، وهو ما سماه بالمنهج الارتقائي الذي سعى فيه إلى تقديم الجديد، يقول في خاتمة المجلد السادس: "هذا ما فتح الله به علي من تدبر سورة (الفرقان)، وأرجو أن أكون قد قدمت في هذا التدبر...جديدا يخدم الفكر الإسلامي، ويخدم كتاب الله المجيد، ويقدم نموذجا يجد فيه المتدبرون ما يشجعهم على الاجتهاد في تدبر كتاب الله بمنهج ارتقائي لا يتوقف عند حدود النقل والجمع وحشر الأقوال المختلفة للمفسرين، دون نظر فكري شامل يهتم بقضية أن السورة القرآنية ذات موضوع واحد...بهذا يستطيع المتفكرون المتدبرون أن يخدموا كتاب الله خدمات جديدات يضيفوها إلى خدمات السابقين من علماء المسلمين الذين اهتموا بتدبر كتاب الله"[3].

هذا النص يكشف لنا أن الشيخ –رحمه الله– دعا إلى تقديم خدمات جديدات لكتاب الله ﷻ، تقوم على المنهج الارتقائي الذي عمدته النظر الفكري الشامل للقضية القرآنية، وهذا ما أكده بقوله "تفسير تدبري"، فالتدبر عند مفسرنا هو: "التفكير الدقيق العميق، الذي تلاحظ فيه العواقب ببصيرة، حتى الأطراف البعيدة التي يدل عليها النص، وبالتدبر السليم تحصل المعرفة الشاملة للنص، من أوائله حتى أواخره، ويدخل فيها اللوازم الفكرية التي يقتضيها النص قبل معناه المطابق للفظه"[4].

وهو يشير بذلك إلى أنه لا يكتفي بالمعاني الظاهرة السطحية للآيات القرآنية، بل يرنو إلى الغوص في أعماق النصوص ليسبر أغوارها ويدرك ما تحمله الآية من المعاني الظاهرة والخفية، بالاعتماد على "التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"[5]، كما جاء على لسانه.

وقد كان يدعو أن يلهمه الله ذلك وهو على سرير المرض، يقول بعد سؤاله الله الشفاء: "...وأن يمدني بالمعونة، ويهبني القوة والبصيرة النّفّاذة، والفهم السديد على مراده من آيات كتابه، حتى ينهي لي

---

(1) _ دلّ على هذا المعنى كلمة "المعارج" التي تأتي بمعنى السلالم والمصاعد وتدل على الارتقاء والسمو والعلو. ينظر: الصحاح، الجوهري، ج1، ص351/ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج4، ص304/ لسان العرب، ابن منظور، ج2، ص320/ معارج التفكر، مج12، ص731.

(2) _ يدور معنى "التفكر" في اللغة حول التأمل والاعتبار وإعمال الخاطر، يقال: تفكّر إذا ردّد قلبه معتبرا. ينظر: الصحاح، الجوهري، ج2، ص347/ مقاييس اللغة، ابن فارس، ج4، ص 446.

(3) _ معارج التفكر، مج6، ص743.

(4) _ معارج التفكر، مج3، ص554.

(5) _ قواعد التدبر، ص10.

بفيض عطائه تدبر سائر سوره، ويجعله مبينا لحقائقه، ودقائقه، ونافعا لراغبي فهم كتابه في العالمين، وخالصا لوجهه الكريم"[1].

– **الثاني**: (وفق ترتيب النزول).

لما خالف المفسر ما سار عليه أهل التفسير في أسفارهم، نبه إلى طريقة ترتيب السور في العنوان، فقد جاء ترتيب السور فيه على حسب نزولها لا على وفق ترتيبها في المصحف، وهذه من أهم القضايا التي سيأتي التفصيل فيها.

– **الثالث**: وفق منهج كتاب قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ.

ختم المفسّر العنوان بالإشارة إلى أنّ هذا التفسير هو تطبيق وامتثال للقواعد الأربعين التي سبق وأن استخرجها من تدبر كتاب الله وجمعها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ).

وهنا أردت التنبيه إلى مسألة غاية في الأهمية، وهي قضية مدى امتثاله للقواعد الأربعين التي رسمها؟

أقول وبالله التوفيق:

إذا رجعنا إلى المقدمة الأولى لكتاب (قواعد التدبر الأمثل) نجد أنّ من أهم الدوافع لكتابة هذه القواعد هو عدم مراعاتها من قبل المفسرين، يقول: "وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد، وشرحتها بالأمثلة، وقد أكون مسبوقا في بعضها...وقد يكون بعض المفسرين قد وضع في تصوره مراعاة بعضها، إلا أنني لم أجد من راعاها كلها مراعاة تامة في كل ما تدبر من كلام الله، كما أن بعض هذه القواعد لم يحظ بعناية أحد من المفسرين"[2].

وهذا الدافع هو الذي شجعه للتنظير لها ثم التطبيق عليها بعد ذلك، حيث أكّد على ذلك مرة ثانية في المقدمة العامة لتفسيره فقال عنها: "ولم أجد في المفسرين من اهتم بالتزام مضمونها، ولا بالتزام كثير منها"[3].

وقد نفهم مما سبق عرضه أنه أراد هو أن يراعيها مراعاة تامة، لأنّه عاب على المفسرين ترك العناية بها، ولكن الأمر ليس كذلك فالشيخ اعتذر عندما جاء للتطبيق عليها قائلا: "وقد رأيت من الواجب علي أن أقدم ما أستطيع تقديمه من تدبر لسور الكتاب العزيز...ملتزما على مقدار استطاعتي بمضمون

---

[1] _ معارج التفكر، مج8، ص776.

[2] _ قواعد التدبر، ص12.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص5.

القواعد التي فتح الله بها عليَّ، مع الاعتراف بأن التزامها التزاما دقيقا وشاملا عسير جدا، بل قد يكون بالنسبة إلى متدبر واحد متعذرا"[1].

فالمفسّر كتب القواعد الأربعين وحرص على امتثالها واجتهد في تطبيقها على قدر استطاعته كما نص على ذلك في الكثير من المواضع، يقول في خاتمة المجلد التاسع: "هذا ما أكرمني به الله...من عطاء في تدبر سورة (النمل- والقصص- والإسراء) التي اشتمل عليها هذا المجلد التاسع، مجتهدا في التقيد بالمنهج الذي فتح الله به عليّ في كتاب: "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ"[2].

وقال: "وقد اجتهدت في الالتزام بالقواعد الأربعين التي اشتمل عليها كتابي (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)"[3].

ويبقى الحديث عن إمكانية تطبيقها، ومدى التزام المفسر بها يحتاج إلى بحث وتحرير وربما إلى رسائل مستقلة[4].

وخلاصة القول أن المفسّر جمع في العنوان ما يدل على مضمون كتابه ومقصده منه، كما نبّه إلى الغاية من تأليفه مشيرا إلى منهجه والأساس الذي اعتمده، وهذه المعاني تنم عن أنّ اختيارها لتشكل عنوان كتابه كان عن قصد وعلم، فالمفسر أراد أن يسمو بفكره ويتعمق بنظره لينال بركة قطوف معاني آيات الذكر الحكيم بقدر ما فتح الله به عليه، كما أن العنوان تضمن ما يشوق القارئ ويجذبه إليه.

2. الحكمة من تأخير تأليفه:

جاء تأليف التفسير في السنوات الأخيرة من عمر الشيخ، فقد ألفه وعمره قارب سبعين سنة[5]، فيمكن أن يعتبر بعضهم أن الشيخ قد سبقه الزمن وتأخر في كتابة التفسير؟

لكن لقد سئل الشيخ -رحمه الله- عن سبب تأخره في كتابة تدبره لكتاب الله، وهو في السبعين

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص5.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص765.

[3] _ معارج التفكر، مج10، ص771. ينظر: مج11، ص793/ مج12، ص798.

[4] _ وسيأتي الحديث عن بعض تلك القواعد ومدى امتثال المفسر لها في عدد من المواضع من هذه الرسالة، وقد وقفت على رسالة كتبت في الموضوع تحت عنوان: قواعد التدبر القرآني بين التنظير والتطبيق عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، وهي أطروحة دكتوراه من إعداد رشيد بوعافية، بحث فيها العديد من المسائل وبقي بعضها يحتاج إلى بحث وتحرير.

[5] _ فالشيخ ولد سنة 1345هـ/ 1927م، وشرع في هذا التدبر سنة 1418هـ/ 1998م كما جاء في خاتمة المقدمة العامة للتفسير، أي بعد مرور أكثر من سبعين عاما من عمره المبارك. ينظر: معارج التفكر، مج1، ص6.

من عمره، وقد يقطع الأجل عن تحقيق الأمل؟ فأجاب قائلا: "لو شرعت في التدبر قبل ذلك لما استطعت كتابته بهذا المنهج"[1].

فلقد تعمّد –رحمه الله– أن يؤخر كتابة تفسيره إلى مراحل متقدمة من عمره وكانت له حكمة من وراء ذلك؛ إذ لم يؤجله لعدم قدرته على الكتابة بل إن تعظيمه لكتاب الله ﷻ وإحساسه بمكانة علم التفسير هو الذي جعله يؤخر العمل إلى أن يصل إلى الوقت الذي يرى نفسه فيه أهلا لذلك، وقادرا على كتابة تدبر للقرآن الكريم كاملا، ولا أدل على ذلك من تلك المؤلفات التي مهدت له تنظيرا وتطبيقا.

فقد أراد أن يكون تفسيره التدبري فريدا متميزا ولو في آخر سنين حياته التي تفرغ فيها له وسخر كل ما يملك من قوة ووقت، "فما أكثر المتعجلين الذين يقدمون للمكتبة دراسات فجّة وأعمالا قاصرة...وما أكثر الذين يخوضون في كتاب الله دون مؤهلات تؤهلهم، ودون دراسات واسعة توجههم...ولكنه حب التكثر والظهور، وتسويد الأوراق"[2]، التي كان الشيخ بمنأى عنها.

حيث لما رأى الشيخ نفسه أهلا لذلك شرع يتدبر، بل أوجبه على نفسه قائلا: "وقد رأيت من الواجب علي أن أقدم ما أستطيع تقديمه من تدبر لسور هذا الكتاب العزيز المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه"[3].

والحمد لله الذي رزق الشيخ بعد أن قضى جل سنين حياته مع كتاب الله الهمة لكتابة هذا التدبر ولو في آخر سنين حياته، وسخر له من يحثه على نشر ما يكتب يقول "وقد ألحّ علي ناشر كتبي حفظه الله بأن أبدأ بنشر ما ينجزه الله لي من مجلدات في هذا التدبر"[4]، وإلا لضاع على الأمة خير كثير كما ضاع منها عدد من التفاسير الشفاهية.

وهو وإن لم يكمل هذا التدبر فقد فتح الباب لمن يأتي بعده لمواصلة المشوار وإتمام تدبر بقية السور، وقد أحس الشيخ بأنّه قد يسبق الأجل إلى إتمام تفسيره وعبر عليه قائلا: "وإذا لم تسعف القدرات، أو لم يسعف العمر باستكمال هذا التدبر لكل القرآن المجيد، فإن من المفيد جدا أن أقدم ما

---

[1] _ التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، مجد مكي، ص22.

[2] _ المرجع نفسه، ص22.

[3] _ معارج التفكر، ج1، ص5.

[4] _ معارج التفكر، مج1، ص5.

يفتح الله الوهاب علي فيه، عسى أن يتم العمل متدبرون لاحقون، محتذين أو مضيفين أو معدلين"[1].

ثانيا: المجلدات التي صدرت من التفسير.

اشتمل هذا التفسير الموسوعي على خمسة عشر مجلدا، بلغ عدد صفحاتها أحد عشر ألفا وثماني وثمانين صفحة، في طبعته الأولى والثانية أي بمعدل سبعمائة وتسع وثلاثين صفحة في كل مجلد[2]، تدبر فيها ست وثمانين سورة.

وقد قُسِّم الكتاب إلى ثلاث مجموعات كل واحدة ضمت ثلاث مجلدات، وهي حسب تسلسل صدورها، كالآتي:

– صدرت المجلدات الثلاثة الأولى التي اشتملت على تدبر ثمان وثلاثين سورة مكية[3] عام 1420هـ/2000م، وقد فرغ منها كما صرح في آخر المجلد الثالث في 13 رمضان 1419هـ[4].

– صدرت المجموعة الثانية عام 1421هـ/ 2000م، تدبر في المجلد الرابع والخامس منها سورتي (الأعراف) و(الجن) وقد فرغ من كتابتهما يوم الجمعة 27 رجب 1420هـ[5]، واشتمل المجلد السادس على تدبر سورتي (يس) و(الفرقان) وكان الفراغ من إعداده يوم الخميس 4 ذي القعدة 1420هـ[6].

– صدرت المجموعة الثالثة عام 1423هـ/ 2002م، اشتمل المجلد السابع منها على تدبر سورتي

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص6.

(2) _ هنا أنبه إلى التفاوت في عدد الصفحات بين المجلدات، حيث كان أكبرها حجما هو المجلد الثاني عشر بلغت صفحاته 838 صفحة، وأقلها حجا هو المجلد الأخير الخامس عشر بـ446 صفحة، وقد طبع الكتاب مرتين: الأولى عام 1420هـ/ 2000م، والثانية عام 1433هـ/ 2012م، ولا فرق بينهما وكلاهما عن دار القلم السورية التي تطبع للشيخ مؤلفاته.

(3) _ تناول في المجلد الأول ثمانية عشر سورة هي على التوالي: (العلق)، (المدثر)، (المزمل)، (القلم)، (الفاتحة)، (المسد)، (التكوير)، (الأعلى)، (الليل)، (الفجر)، (الضحى)، (الشرح)، (العصر)، (العاديات)، (الكوثر)، (التكاثر)، (الماعون)، (الكافرون).

وتناول في المجلد الثاني خمسة عشر سورة ترتيبها كالآتي: (الفيل)، (الفلق)، (الناس)، (الإخلاص)، (النجم)، (عبس)، (القدر)، (الشمس)، (البروج)، (التين)، (قريش)، (القارعة)، (القيامة)، (الهمزة)، (المرسلات).

وختم المجموعة بالمجلد الثالث الذي تدبر فيه خمس سور وهي: (ق)، (البلد)، (الطارق)، (القمر)، (ص).

وأردت التنبيه هنا على خطأ ربما يكون مطبعي وقع في الكتيب الذي عرّف فيه مجد مكي بتفسير (معارج التفكر)، حيث جاء فيه أن عدد السور في هذه المجلدات (28) سورة، وبمراجعة المجلدات الثلاث نجد فيها (38) سورة. وهذا الكتيب اعتمد عليه الكثير ممن كتب حول تفسير المعارج وبعضهم نقل دون أن يتأكد فوقع في الخطأ نفسه، مثل رشيد بوعافية. ينظر: التعريف بكتاب معارج التفكر، ص52/ قواعد التدبر القرآني بين التنظير والتطبيق، ص120.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج3، ص729.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج5، ص707.

(6) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص734.

(فاطر) و(مريم) وكان الفراغ من إعداده في غرّة جمادى الأولى سنة 1421هـ[1].

وتدبر في المجلد الثامن سورة (طه) و(الواقعة) و(الشعراء) وانتهى من إعداده في 22 رمضان 1421هـ[2]، وختم المجموعة بتدبر سورة (النمل) و(القصص) و(الإسراء) في المجلد التاسع الذي فرغ من تحبيره في 25 ربيع الأول 1422هـ[3].

- صدرت المجموعة الرابعة عام 1425هـ/ 2004م، جاء تدبر سورة (يونس) و(هود) و(يوسف) في المجلد العاشر الذي فرغ منه في آخر يوم من رمضان 1422هـ[4]، واشتمل المجلد الحادي عشر على تدبر سورة (الحجر) و(الأنعام) و(الصافات) ثم (لقمان)، وقد انتهى من تسطيره يوم الخميس 2 ربيع الآخر 1423هـ[5]، أما المجلد الثاني عشر فقد تدبر فيه ستة سور هي بالترتيب: (سبأ)، (الزمر)، (غافر)، (فصلت)، (الشورى)، (الزخرف)، وكان الفراغ من كتابته في رمضان 1423هـ[6].

- وآخر مجموعة هي المجموعة الخامسة التي صدرت مجلداتها الثلاثة عام 1427هـ، وكان فيها تدبر بقية السور المكية، اشتمل المجلد الثالث عشر على تدبر ثماني سور[7] وختم المجلد الرابع عشر بتفسير سورة (المعارج) وفسّر قبلها سبعة سور[8] وكان الفراغ من كتابته وهو بمكة المكرمة يوم الاثنين 30 رمضان 1434هـ، ليرجع بعدها إلى دمشق في شوال 1424هـ ويتدبر في هذه الفترة الوجيزة بقية السور المكية[9].

ثم افتتح القرآن المدني وبدأ بتدبر سورة (البقرة) واستخرج دروسها كعادته في تدبر باقي السور المكية[10]، ولكن سبقه الأجل إلى تحقيق الأمل فلم يكمل تدبرها هي وبقية السور المدنية وانتقل إلى

---

(1) _ وفي هذه الفترة بدأ المرض ينتشر في جسم الشيخ وقام بإجراء عملية لإزالة الورم، يقول في خاتمة المجلد السابع: "أتم ربي لي بأسبابه وألطافه الخفيّة تحبير هذا المجلد السابع، وأنا على سرير المرض، أُعاني من آثار عملية جراحية كبيرة وخطيرة وموجعة". معارج التفكر، مج7، ص691.

(2) _ ينظر: معارج التفكر، مج8، ص776.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص765- 766.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص771.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج11، ص793.

(6) _ ينظر: معارج التفكر، مج12، ص799.

(7) _ هي بالترتيب: (الدخان)، (الجاثية)، (الأحقاف)، (الذاريات)، (الغاشية)، (الكهف)، (النحل)، (نوح).

(8) _ وهي: (إبراهيم)، (الأنبياء)، (المؤمنون)، (السجدة)، (الطور)، (الملك)، (الحاقة).

(9) _ وهي: تتمة سورة (المعارج)، (النبأ)، (النازعات)، (الانفطار)، (الانشقاق)، (الروم)، (العنكبوت)، (المطففين).

(10) - ينظر: معارج التفكر، مج15، ص341.

الرفيق الأعلى يوم الأربعاء 25 جمادى الآخرة سنة 1425هـ الموافق لـ11 أوت 2004م[1].

وفي الختام أقول:

– إن الشيخ –رحمه الله– كان ذا قلم سيال، فقد كتب هذا الكم الهائل من الصفحات في ستّ سنوات فقط[2] مع تقدم سنه، وهذا دليل على سعة علمه وفهمه، فلو لم يكن له زاد لما استطاع أن يكتب على هذا المنوال.

– الهمة العالية التي رُزقها الشيخ فرغم شيخوخته وما صاحبها من مرض، وفراق زوجته[3] فقد كان يكتب، واستغل وقته في تدبر كتاب الله ﷻ إلى آخر أيامه، يقول: "لقد كنت ألتقط الساعات التي أستطيع أن أعمل فيها التقاطا، من الزمن الذي أكون فيه طريحا على فراشي أو على البساط...وكنت ألجأ إلى الله بالدعاء أن يعينني ويمدني بمدده، فأجد نفسي معانا إعانة عجيبة"[4].

– حرص مفسرنا –رحمه الله– على إتمام تفسيره أشد الحرص، حيث كان يتدبر كتاب الله في حله وترحاله؛ فقد كتب أكثر مجلداته في دار إقامته بمكة، كما كتب في جدة وفي دمشق وكان حريصا على تدوين زمن ومكان الكتابة في خاتمة كل مجلد.

يقول في خاتمة أحد المجلدات: "وقد أعانني الله ﷻ على كتابة هذا المجلد وأنا أتقلب على شيخوختي ومرضي، بين مسكني في مكة، وبعض كبريات المستشفيات في جدة..."[5].

* الشغف بطباعة ونشر الأجزاء المنجزة من التفسير، والدليل على ذلك هو الفارق الزمني اليسير بين تاريخ انتهاء الشيخ من الكتابة وتاريخ النشر كما سبق بيانه؛ إذ لم يدفع الكتاب بتمامه مرة واحدة إلى المطبعة.

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج15، ص424.

[2] _ فقد سجل في ختام المقدمة العامة للكتاب "مكة المكرمة 11/5/ 1418هـ و3/ 3/ 1998م"، ويمكن اعتبار هذا هو تاريخ الشروع في إعداد تفسيره وقد استمر في الكتابة قبل وفاته بأيام قلائل كما جاء في خاتمة المجلد الأخير "24 جمادى الآخرة 1425هـ/ 11 أوت 2004م". ينظر: معارج التفكر، مج1، ص6/ مج15، ص424.

[3] _ فقد توفيت زوجته والتي كانت خير سند له وهو يكتب في المجلد الثاني عشر. ينظر: معارج التفكر، مج12، ص799.

[4] _ معارج التفكر، مج7، ص691.

[5] _ معارج التفكر، مج12، ص798.

الفرع الثاني: مصادر المفسر في تفسيره ومنهجه العام في تدبر السور.

يعد الوقوف على المصادر والمراجع التي استقى منها المفسر أصول مادته التفسيرية من الأهمية بمكان، فهي تبين المعين الذي نهل منه والميدان الذي جال فيه، وتبرز الجديد الذي أضافه، كما تعكس اتجاهه وسعة اطّلاعه وقدرته على توظيفه للمعلومات والأقوال قبولا وردا وترجيحا بينها.

وسيأتي هذا الفرع لبيان أهم المصادر والمراجع التي اعتمد عليها صاحب (معارج التفكر) في تدبره، كما يرشدنا إلى المنهج والخطة التي سار عليها المفسر والمنهجية التي اتبعها في تفسيره لسور القرآن الكريم سورة سورة.

أولا: مصادره.

إن المتصفح لتفسير (معارج التفكر) يلحظ للوهلة الأولى أن المفسر –رحمه الله– قليل العزو على المصادر والمراجع، فمن يمرُّ ببصره على حواشي الكتاب لا يراها مثقلة بكثرة الإحالات والتخريجات، بل هناك شح في العزو وقلة في التنبيه على المصادر، وربما يقوده هذا إلى الحكم بقصور اطلاع المفسر وضيق آفاق بحثه لاسيما أنه من المعاصرين، حيث أصبح العزو والتهميش من أهم ما تتميّز به البحوث الجادة والدراسات الأكاديمية.

لكن من بحث في سيرة الشيخ ومسيرته العلمية يفنّد هذه الأقوال، ويُرجّح فرضية كون المفسّر هضم الكثير من كتب أهل العلم دراسة واستيعابا لما فيها[1] مما شكل لديه ثقافة موسوعية جعلت الكلام ينساب منه أثناء تأليفه لا يحتاج فيه إلى حشد الأقوال وجمعها، شأنه شأن الكثير من العلماء الذين درجوا على ذلك[2]، وقد سئل عن مصادر تفسيره ومراجعه فأجاب: "بأنه ليس له مصادر، ومنهجه أن يقرأ وبعد ذلك يكتب بعد أن تختمر الأفكار في ذهنه"[3]، فقد كان لا يحب التقليد وكثرة الإحالات والنقول كما صرّح بنفسه قائلا في أحد اللقاءات: "على العموم أنا لا أحب أن أنقل، ولا

---

[1] _ وقد صرّح بهذا المعنى في الكثير من المواضع، يقول في خاتمة المجلد التاسع: "وما أخطأت فيه، فهو مني، ومن عجزي، ونقص قدراتي عن بلوغ المأمول، مهما اجتهدت في التفكر والتدبر، والنظر في حقائق العلوم وفي المعقول، والتأمل فيما سبق إلى تدوينه الفحول". معارج التفكر، مج9، ص675. ينظر: التعريف بكتاب معارج التفكر، مجد مكي، ص29.

[2] _ أمثال الشيخ السعدي في تفسيره (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان).

[3] _ وقد سأله الباحث طه محمد فارس في لقاء جمعه به في دبي. تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص848.

أحب أن أقلد، وكتابة المؤلفات على طريقة قص وصل...هذا لا أبدؤه واتجهت إلى المصادر الأولى القرآن الكريم والسنة والفكر هذا منهجي في كل ما كتبته، أصول الحقائق الفكرية والعلمية الثابتة سواء عند الغرب أو عندنا مما ثبت كحقيقة علمية..."[1].

وهذا لا يعني أنه استغنى عن جهود السابقين كلية، بل أفاد منها وأحال على بعضها في الهامش، وترك بعضا آخر ربما لأنه استوعب مضمونها فأراد صياغتها بأسلوبه وطريقته، فهو أحيانا يتصرف في الكلام المنقول أو ينقل بالمعنى فقط.

وقد تنوعت مصادره على قلتها إذا ما قرناها بكبر حجم تفسيره، ولعلي أشير إلى عدد منها.

✿ مصادره من كتب التفسير:

1. جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (ت: 310هـ)[2].
2. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري (ت: 671هـ)[3].
3. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ت: 774هـ)[4].
4. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني (ت: 1250هـ)[5].
5. تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (ت: 1393هـ)[6].

✿ مصادره من كتب الحديث:

1. مسند الإمام أحمد (ت: 241هـ)[7].
2. الجامع الصحيح للإمام البخاري (ت: 256هـ)[8].
3. صحيح مسلم بن الحجاج (ت: 261هـ)[9].

---

(1) _ حديث الذكريات مع الشيخ عبد الرحمن حبنكة، جاسم المطوع. https://www.youtube.com/watch

(2) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص89/ مج10، ص94/ مج11، ص322/ مج14، ص577.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج3، ص628/ مج5، ص393/ مج10، ص447/ مج11، ص52- ص763.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص755/ مج10، ص604/ مج11، ص96/ مج12، ص161.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج2، ص396/ مج13، ص418.

(6) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص102/ مج4، ص570/ مج9، ص521/ مج11، ص728.

(7) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص247/ مج5، ص298/ مج15، ص326.

(8) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص33/ مج2، ص306/ مج10، ص615/ مج15، ص321.

(9) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص183/ مج14، ص572/ مج15، ص402.

4. كتب السنن الأربعة[1]: سنن أبي داود (ت: 275هـ)، سنن ابن ماجه (275هـ)، سنن الترمذي (ت: 279هـ)، سنن النسائي (303هـ).

5. شعب الإيمان للبيهقي (ت: 457هـ)[2].

✿ مصادره من كتب اللغة ومعاجمها:

1. تهذيب اللغة، أبو منصور الأزهري (ت: 370هـ)[3].
2. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (ت: 370هـ)[4].
3. لسان العرب، لابن منظور (ت: 711هـ)[5].

✿ مصادره من كتب السيرة والتاريخ:

1. سيرة ابن هشام (ت: 218هـ)[6].
2. قصص الأنبياء لابن كثير (ت: 774هـ)[7].
3. أطلس تاريخ الإسلام، لحسين مؤنس (ت: 1416هـ)[8].

وهذه من أهم المصادر التي اعتمدها في تفسيره على تفاوت في مقدار الاعتماد عليها، وهي كتب لها مكانتها في بابها، وتنوعها ترك بصمته في التفسير وأعطى صورة عن مدى سعة أفقه -رحمه الله- وإحاطته بالعلوم المختلفة، فقد استفاد من المكتبة الإسلامية العامرة وتفاعل مع التراث الإسلامي عامة، إذ كل عقل يتغذى بما أنتجته العقول التي سبقته.

كما أنّه رجع إلى مؤلفاته، ومن بينها:

1. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ[9].

---

(1) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص55/ مج10، ص304/ مج11، ص137/ مج15، ص92.
(2) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص279/ مج8، ص428/ مج11، ص248.
(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج2، ص320/ مج4، ص265/ مج10، ص188/ مج11، ص190.
(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج3، ص45/ مج10، ص494/ مج12، ص217.
(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص46- ص705/ مج10، ص660- ص720.
(6) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص 105/ مج2، ص208/ مج9، ص315/ مج13، ص657.
(7) _ ينظر: معارج التفكر، مج4، ص130/ مج8، ص85.
(8) _ ينظر: معارج التفكر، مج4، ص399/ مج9، ص375.
(9) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص124/ مج10، ص116/ مج12، ص229/ مج15، ص103.

2. نوح عليه السلام وقومه في القرآن[1].

3. الأخلاق الإسلامية وأسسها[2].

وقد تركت الحديث عن منهجه في التعامل مع هذه المصادر طلبا للاختصار، ولعل من الباحثين من كفاني البحث في ذلك لما له من أهمية وخدمة لبحثه[3].

ثانيا: منهج المفسر العام في تدبره لسور وآيات القرآن الكريم.

كان للمفسر –رحمه الله– في تدوينه لتفسيره منهج عام يكاد يكون موحّدا[4]، وهذا الأخير يمكن اعتباره بمثابة المنهجية التي سار عليها واتبعها في تفسيره للسور والآيات وعرضه للمادة التفسيرية، والتي ضمنها جملة من العناصر حاولت تلخيصها في نقاط بعد استقرائي للسور التي تناولها بالتفسير.

ويمكن الإشارة أولا أنه قبل أن يشرع في تدبره لسور القرآن الكريم سورة سورة وفق ترتيب النزول الذي اعتمده، فإنه قدم بحثا حول الاستعاذة والبسملة في أكثر من عشرين صفحة عنون له بـ: "مقدمات حول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وبسم الله الرحمن الرحيم"[5].

لينطلق بعدها في تدبره لسورة (العلق) وباقي سور القرآن المكي على النحو الآتي:

1. يخصص الصفحة الأولى في بداية تدبره لكل سورة لذكر اسم السورة أو أسمائها إن كان لها أكثر من واحد، ثم يذكر ترتيبها في المصحف ويتبعه بترتيبها في النزول، ويشير إلى الآيات المدنية منها إن وُجدت، وأحيانا يذكر عدد آياتها[6] وسبب تسميتها[7].

فعند تدبره مثلا لسورة (القلم) نجده قبل الشروع في تدبرها يسجل المعلومات الآتية:

---

(1) _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص387/ مج11، ص318/ مج13، ص249/ مج14، ص334.

(2) _ ينظر: معارج التفكر، مج11، ص724/ مج12، ص649/ مج15، ص281.

(3) _ ينظر تفصيل ذلك في: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، نادي حسن علي صبرا، ص70 وما بعدها.

(4) _ على وجه العموم وإن كانت بعض العناصر قد تغيب في بعض السور، أو يكون بين هذه العناصر تقديم وتأخير أو ذكر عناصر أخرى سيأتي الإشارة إلى بعضها.

(5) _ حيث ذكر ضمن هذه المقدمات جملة من العناصر منها: "مفهوم كل من الاستعاذة والبسملة وحكم قراءتهما". ينظر: معارج التفكر، مج1، ص9 وما بعدها.

(6) _ كما فعل في سورة (الواقعة) فذكر أن آياتها (96) آية. ينظر: معارج التفكر، مج8، ص421.

(7) _ مثل صنيعه في سورة (الحجر)، حيث قال: "وسُمّيت سورة "الحجر" لانفرادها بذكر لفظة الحِجْر فيها وهي أرض ثمود". معارج التفكر، مج11، ص5.

"سورة القلم أو (ن والقلم) أو (ن)

68 في المصحف 4 نزول

وهي فيما ترجح لدي بالنظر إلى معظمها السورة الرابعة نزولا فهي من أوائل التنزيل المكي باتفاق

وفيها آيات مدنية

والآيات المدنية منها هي:

1- من الآية (17) وحتى غاية الآية (33)

2- ومن الآية (48) وحتى غاية الآية (50)

وآيات السورة 52 آية"[1].

2. يذكر نص السورة كاملا مكتوبا بالرسم العثماني ويضع سطر تحت الكلمات التي سيورد ما فيها من فرش القراءات إن وجد[2] والذي يفصل فيه في أسفل السورة بذكر من قرأ بها من الأئمة العشرة[3]، على النحو الآتي[4]:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

٣ - قرأ أبو جعفر [إِنَّ شَانِئَكَ] في الوقف والوصل.
وحمزة في الوقف فقط وقرأ الباقون: [إِنَّ شَانِئَكَ] بتحقيق الهمزة.

3. يسرد ما جاء في السنة بشأن السورة، فيذكر ما ورد في فضلها من أحاديث نبوية وآثار عن السلف إن وُجدت، فيقول مثلا: مما ورد في فضل سورة (يس)[5]، مما ورد في السنة بشأن سورة

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص195.

[2] - ومثاله صنيعه في سورة (الفيل)، التي بدأ بعد ذكر نص السورة ببيان "معاني مفردات لغوية". ينظر: معارج التفكر، مج2، ص7.

[3] _ وقد يسبق ذكره لنص السورة وما فيها من فرش القراءات بعض العناصر أو المقدمات، فيذكر مثلا: بحث حول نزولها مثل ما فعل في سورة (العلق) وسورة (المزمل) وغيرهما، مقدمة حول تسمية السورة كما فعل في سورة (الفاتحة)، ينظر: معارج التفكر، مج 1، ص30- ص149- ص279.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص649.

[5] - ينظر: معارج التفكر، مج6، ص15.

(الأنبياء)[1].

وقد يسبق ذلك بذكر ما ورد من روايات في سبب نزول السورة[2]، أو يجمع بينهما قائلا: مما روي بشأن هذه السورة وسبب نزولها[3].

4. يذكر موضوع السورة وذلك بالحديث عن الدروس الواردة فيها، مؤكدا على ما بين تلك الدروس من ترابط موضوعي.

5. يقسم السورة إلى دروس[4]، ويرى أن ذلك "من الأفضل لحسن التدبر"[5] ويوزع آياتها بين هذه الدروس، ثم يتحدث عن موضوع كل درس. فيقول مثلا: دروس سورة (فاطر)[6].

وقد يتحدث عن دروس السورة قبل موضوعها[7] أو يجمع بينهما.

6. يشرع في التدبر التحليلي لآيات السورة، ويكون عرضه للمادة العلمية غالبا وفق التسلسل الآتي:

– يذكر مقطع الآيات التي تدخل ضمن الدرس محل التدبر، مكتوبة بالرسم العثماني.

– يذكر ما ورد في الآيات من القراءات المتواترة إن وجدت، ويحاول توجيهها، وبيان ما فيها من تكامل فكري أو تكامل في الآداء البياني.

– يفتتح تحليله للآيات بتمهيد يُجمل فيه القول عن مضمون الآيات وما يتعلق بها، أو يتحدث فيه عن ارتباط الدرس بموضوع السورة وعن ارتباطه بغيره من الدروس.

– يشرع في التدبر التحليلي للآيات ويهتم بالكلمة القرآنية ويعطيها عناية بالغة، فيدرسها دراسة معجمية، كما يهتم ببيان المعنى الاصطلاحي لها[8] ويذكر أحيانا ما قاله المفسرون حول معناها ويختار

---

(1) – ينظر: معارج التفكر، مج14، ص254.

(2) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص701.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص649.

(4) _ وهذا في الغالب الأعم، وقد لا يقسمها إلى دروس إذا كانت لا تحتمل ذلك بل يكتفي بذكر موضوع السورة ثم التدبر التحليلي لآياتها مباشرة كما فعل في سورة (الماعون). ينظر: معارج التفكر، مج1، ص687 وما بعدها.

(5) – معارج التفكر، مج11، ص455.

(6) _ معارج التفكر، مج7، ص16.

(7) _ معارج التفكر، مج1، ص516 .

(8) _ مثاله بيان المراد من لفظ "القرآن" في اللغة وفي الاصطلاح الديني. ينظر: معارج التفكر، مج8، ص338 .

"المعنى الأكثر ملائمة للجملة القرآنية التي هي من جهة ارتباطها بوحدة موضوع السورة، ومن جهة ارتباطها أيضا بموضوع أشباهها ونظائرها الموزعات في سور القرآن المجيد"[1].

ويفتتح ذلك بالعنونة، فيقول مثلا: "نظرات تدبرية تحليلية تفصيلية لفقرات هذا الدرس الثالث"[2].

– بعد شرح الكلمات الواردة في الآية[3]، يقدم حوصلة حول المعنى الإجمالي للآية أو لجملة من الآيات مع بعضها إذا اتحد موضوعها.

– يُكمل تحليله لباقي الآيات، ليقدم في نهاية الدرس أو المقطع المعنى الإجمالي له، وقد يختم هذه الدروس بتلخيص أهم ما ورد فيها قائلا مثلا: "تلخيص ما اشتملت عليه السورة"[4].

وهذه أهم العناصر التي شكلت التدبر التحليلي لكل سورة، وقد يسقط بعضها أو يتغير ترتيبها أحيانا، أضف إلى ذلك أنها قد تتخللها دراسات معترضة كما سماها المفسر، حيث إنه بعد أن خصص بعض الصفحات للحديث عن "مراحل الحوار في القرآن مع منكري البعث"[5]، عنون قائلا: "متابعة تدبر سورة (الدخان)" ثم قال: "بعد هذه الدراسة المعترِضة أعود إلى استكمال تدبر آيات الدرس الرابع من دروس سورة (الدخان)"[6].

وهذا عن منهجه العام والطريقة التي اتبعها في تفسيره، ويمكن أيضا أن نشير هنا إلى عدد من النقاط التي تدخل ضمن هذا المنهج والتي بدت واضحة جلية في تفسيره:

– **الاكتفاء بالإحالة:** وقد استعان بذلك المفسر في الكثير من الأحيان، واكتفى بالإحالة على ما سبق تدبره في ثنايا التدبر التحليلي[7] أو في الملاحق[8]، كما أحال على باقي مؤلفاته[9]، بل وحتى على

---

(1) _ التعريف بكتاب معارج التفكر، مجد مكي، ص40 .

(2) – معارج التفكر، مج3، ص43.

(3) _ هو ليس من منهجه بيان معاني الآيات لفظة لفظة، بل يتطرق إلى ما يراه يحتاج إلى بيان، ففي تدبره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[طه: 118_119] لم يفسر من كلتا الآيتين إلا عبارة: ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾. ينظر: معارج التفكر، مج8، ص348 .

(4) _ معارج التفكر، مج2، ص617 .

(5) – معارج التفكر، مج13، ص42.

(6) – معارج التفكر، مج13، ص48.

(7) – ينظر: معارج التفكر، مج10، ص178– ص322.

(8) – ينظر: معارج التفكر، مج9، ص76/ مج11، ص65.

(9) – ينظر: معارج التفكر، مج8، ص341/ مج10، ص360.

كتب غيره[1].

– **الإشارة إلى المطوي:** وهذه السمة بارزة جليا في ثنايا تدبره للآيات، فقد عُني المفسر بالكشف عما طُوي الحديث عنه في آيات الذكر الحكيم، واستعان للوصول إليه بطرق عدة فاعتمد على التدبر التكاملي[2]، وعلى السباق والسياق وإيحاءات النص[3] وغيرها[4].

يقول عند تدبره لقوله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾[ص: 8]: "وكلمة "بل" أشارت إلى المحذوفات المطويات التي يصل إلى إدراكها المتدبر المتأني الباحث في العمق، تتبعا للوازم الفكرية، مما يقتضيه اللفظ المصرح به من معان لم يصرح بها"[5].

– **الاستعانة بالملاحق:** كان المفسّر –رحمه الله– يذيّل تدبره للسورة بعدد من الملاحق، منها تلك التي يجمع فيها الآيات التي تتناول موضوعا واحدا في القرآن كله ثم يدرسها دراسة تكاملية مما لم يسع المقام لسرده أثناء التدبر[6]، وقد عُني بها كثيرا خاصة في الأجزاء الأولى من تفسيره، أما في المجلد التاسع وانطلاقا من تدبر سورة (القصص) وما جاء بعده اكتفى فقط بالمستخرجات البلاغية، ويرجع ذلك في نظري إلى سوء حالة الشيخ الصحية التي ألزمته الفراش وأنقصت من قوته فكان حريصا على إتمام التفسير والإسراع فيه فاستغنى عنها إلا عندما تطلب المقام ذلك ومثاله الملحق الذي تحدث فيه عن إبراهيم عليه السلام في القرآن والسنة[7].

وقد بلغ عدد هذه الملاحق التدبرية زهاء خمسين ملحقا، يصلح معظمها أن يفرد بكتاب أو كتيب مستقل[8].

---

(1) – ينظر: معارج التفكر، مج1، ص605.

(2) – يقول: "التدبر التكاملي للنصوص القرآنية حول موضوع واحد يكشف المطويات". معارج التفكر، مج10، ص226.

(3) – ينظر: معارج التفكر، مج11، ص383.

(4) – ينظر: معارج التفكر، مج13، ص171.

(5) – معارج التفكر، مج3، ص501.

(6) – يقول مثلا: "هذه النصوص تحتاج دراسة تكاملية تحليلية أستعين بالله العظيم الوهاب على تدبرها هنا، إذ لقلتها لا تحتاج فرزا في ملحق خاص بالنبي الرسول "يونس" عليه السلام". معارج التفكر، مج11، ص630.

(7) – ينظر: معارج التفكر، مج14، ص96.

(8) – وقد جمعها مجد مكي وذكرها باختصار. ينظر: التعريف بكتاب معارج التفكر، ص45 وما بعدها.

- **خاتمة المجلدات:** حيث كان يختم كل مجلد بخاتمة يشير فيها إلى ما تدبره من سور، ويدعو الله بالتوفيق والسداد وأن يجعل التدبر خالصا لوجهه ويكتب له القبول وينفع به، كما يبيّن تاريخ الانتهاء من كتابة المجلدات ومكانه أحيانا، إضافة إلى ذكره لبعض التفاصيل التي مر بها وهو يكتب المجلد مثل مرضه ومرض زوجته وسفرها للعلاج وغير ذلك.

ولعلي اختم هنا بما كان يختم به الشيخ تدبره للسور، فيقول في ختام تدبره لسورة (البروج) مثلا: "وبهذا أنتهي من تدبر سورة "البروج" والحمد لله على توفيقه وفتحه وفيوض عطاءاته، وأساله التوفيق للشكر، والمزيد من فيوض العطاء"[1].

[1] _ معارج التفكر، مج2، ص392.

المبحث الثاني:

مصادر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).

يعد الحديث عن مصادر[1] المفسر في تفسيره ذو أهمية بالغة، فهو يوقف القارئ على معالم عدّة ومواصفات شتى: أولها وجه الجدّة في هذا التفسير، ووجه تميزه، أو استفادته ممن سبقه، ليحكم عليه بعدها هل أجاد وأفاد ملتزما بأحسن طرق التفسير[2]، أم أنه حاد عن الصواب وكان سفره مجرد تكرار.

وتزداد هذه الأهمية إذا كان المفسر قد خالف من سبقه من السلف، وسار على طريقة مستحدثة لم تُعرف إلا عند عدد من المعاصرين؛ ومن أجل ذلك وغيره فقد عقدت هذا المبحث لبيان أهم مصادر حبنكة الميداني في تفسيره (معارج التفكر)[3] وكيف تعامل معها وما هو موقفه من بعضها، وكذا الكشف عن تأثير ترتيب النزول فيها، وذلك بالإجابة على جملة من التساؤلات الآتية:

هل اعتمد المفسّر على أحسن طرق التفسير التي نص عليها العلماء؟

هل أثّر اعتماده الترتيب النزولي السور بديلا عن الترتيب المصحفي على مصادره في التفسير؟

ما هي المصادر التي برز فيها أثر الترتيب النزولي جليا؟

كل ذلك بإجمال واختصار مقصدي منه تجلية مصادر المفسر في تفسيره؛ فيقف القارئ عليها وتكون له فكرة حول أصالتها ومدى تأثير ترتيب السور وفق نزولها فيها.

---

[1] _ وهي: "المراجع الأولية التي يرجع إليها المفسر عند تفسيره لكتاب الله...وإنما قيل: "المراجع الأولية"؛ لئلا تدخل كتب التفسير؛ لأنها تعتبر مصادر...وقد اصطلح شيخ الإسلام ابن تيمية...على تسميتها بـ (طرق التفسير)...وجعلها بدر الدين الزركشي...مآخذ التفسير، وذكر أمهاتها...". مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، مساعد الطيار، ص127. ينظر: مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص39 وما بعدها/ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج2، ص156.

وقد أرشدني إلى تقسيم المبحث على هذا النحو د. مساعد الطيار –حفظه الله–.

[2] _ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن...فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة...وحينئذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة...إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع الكثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين...". مقدمة في أصول التفسير، ص39 وما بعدها. ينظر: تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح الخالدي، ص67.

[3] _ وهنا أنبه إلى أن التفسير لم يكتمل، وعليه فإن البحث محصور في السور التي تدبرها أي القسم المكي دون المدني.

المطلب الأول: القرآن الكريم والسنة النبوية.

يستند المبيِّن لمعاني كتاب الله المجيد إلى عدد من المصادر، يأتي في مقدمتها القرآن الكريم نفسه ثم السنة النبوية، اللذان يعدان الأساس الذي تبنى عليه العملية التفسيرية إذ لا غنى لكل مفسر عنهما.

يقول الخالدي: "وكل مفسر لم ينطلق من هاتين الخطوتين، ولم يلتزم بهاتين المرحلتين، يكون منهجه في التفسير مطعونا فيه، ويكون في تفسيره أخطاء منهجية، تنتج عنها أخطاء عديدة!"[1].

ومفسرنا ممن طرقوا هذا الباب، حيث حرص في تدبره على اعتمادهما، وفي هذا المطلب حديث عنهما في فرعين اثنين.

الفرع الأول: القرآن الكريم.

يعتبر تفسير القرآن بالقرآن من أشرف أنواع التفسير، فهو منهج النبي ﷺ والصحابة ثم السلف من بعدهم في تفسير آيات الكتاب المبين؛ أقوم المسالك وأرضاها وأصحّها في بيان مراد الله ﷻ من كلامه ففيه يُفسر القرآن بالقرآن نفسه.

يقول صاحب (التفسير والمفسرون): "وليس هذا عملاً آلياً لا يقوم على شيء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبر والتعقل، إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهيّن الذي يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة"[2].

ولعل ممن حاول أن يكون منهم صاحب (معارج التفكر)، فالقرآن الكريم كان المصدر الأول في تدبره، حيث حرص على جمع الآيات المتناسبة في المعنى الواحد، ليكتمل الفهم ويستبين المراد وقد ظهر ذلك في ثنايا تدبره التحليلي لآيات القرآن الكريم وبرز جليا فيما تدبره من موضوعات قرآنية.

---

[1] _ تعريف الدارسين، ص147.

[2] _ التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج1، ص33. والذهبي هنا يتحدث عن الشق الثاني من تفسير القرآن بالقرآن الذي يكون من باب اجتهاد المفسر وإعمال رأيه في حمل معنى آية على آية أخرى، وهذا ليس كله مقبولا مقطوعا بصحته، بل منه المقبول ومنه المردود، فقد يحيد المفسر بالآية عن المراد ولو فسرها بغيرها؛ أما الشق الأول فيدخل ضمنه ما ثبت فيه دليل صحيح على أنه من باب تفسير القرآن بالقرآن فهو توقيفي لا اجتهاد ولا رأي فيه ولا يجوز العدول عنه ولا الزيادة عليه. ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج2، ص175 وما بعدها/ تفسير القرآن بالقرآن دراسة تأصيلية، أحمد البريدي، ص20 (مقال)/ شرح مقدمة في أصول التفسير، مساعد الطيار، ص271.

يقول: "ولدى تدبر ما جاء في القرآن عن القرآن، لابد من جمع كل النصوص القرآنية المتعلقة بالقرآن وفق ترتيب نزولها، وتدبرها تدبرا تكامليا متأنيا"[1].

وبعد تتبع المواضع التي وظّف فيها المفسر هذا المصدر في ثنايا تدبره ثم النظر فيها، اتضحت لي أهم طرق إفادته من القرآن الكريم[2]، سأذكرها بشيء من التفصيل لأنها من الركائز التي بنى عليها المفسر تدبره وطبّقها على نطاق واسع وظهر فيها اهتمامه بترتيب النزول، ممثلة لها كالآتي:

أولا: بيان ما جاء في آية قرآنية بآية قرآنية أخرى.

يفسّر –رحمه الله– الآية بنظائرها ومثيلاتها فيبيّن المعنى الذي تضمنته ثم يذكر ما يقوّيه أو يوضّحه، سواء كانت الآية المفسِّرة متقدمة أم متأخرة في ترتيب النزول عن الآية المفسَّرة.

فانظر مثلا لما جاء إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾[طه: 123] تدبرها قائلا: "أي قال الله ﷻ لآدم وزوجه: اهبطا من الجنة إلى الأرض...ولوحظ في آدم وزوجه وذريتهما بعبارة: ﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ﴾، ويزيد هذا المعنى وضوحا ما جاء في الآية (38) من سورة (البقرة) وهو قول الله ﷻ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا ﴾[البقرة: 38] بضمير المتكلم العظيم، والفاعل في ﴿ ٱهۡبِطُواْ ﴾ ضمير جماعة المخاطبين، وهم آدم وزوجه، وذريتهما في ظهر آدم"[3].

وهو بقوله هذا يسير على ما درج عليه المفسرون في بيان معنى الآية أمثال ابن كثير[4] في تفسيره، وإن كان الفرق بينهما أن هذا الأخير استشهد على ما جاء في سورة (البقرة) بما جاء في سورة (طه) لأنها سبقتها في الترتيب المصحفي بينما هو العكس، وذلك لتقدم سورة (طه) في الترتيب النزولي على سورة (البقرة)[5].

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص310.

[2] _ وهي تدخل ضمن أنواع تفسير القرآن بالقرآن كما سماها الشنقيطي وغيره، أو أوجه تفسير القرآن بالقرآن كما سماها أحمد البريدي، وهي من التوسع الذي يكون في تطبيقات المصطلح كما أشار مساعد الطيار، فالمفسر يجتهد في الكشف عن وجود رابط بين الآية المفسِّرة والآية المفسَّرة، وقد ينص على أوجه الربط بين الآيتين أو يكتفي بالإشارة فقط. ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج1، ص8 وما بعدها/ تفسير القرآن بالقرآن دراسة تأصيلية، ص41/ مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، ص130.

[3] _ معارج التفكر، مج8، ص354- 355. ينظر: مج2، ص299/ مج10، ص155/ مج11، ص326/ مج13، ص624.

[4] _ هو: عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصري ثم الدمشقي أبو الفداء، الفقيه الشافعي، أخذ عن: الحافظ المزي وابن تيمية، من مؤلفاته: البداية والنهاية، تفسير القرآن العظيم، واختصار علوم الحديث، توفي سنة: 774هـ. ينظر: الدرر الكامنة، ابن حجر، ج1، ص445/ طبقات المفسرين، الأدنروي، ج1، ص260.

[5] _ ينظر: تفسير القرآن العظيم، ج1، ص 240.

ثانيا: تأييد المعنى الذي تضمنه الآية أو جزء منها، والتدليل عليه بآيات أخرى أو التمثيل له.

يقول المفسر عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾[النمل: 85]: "أي: فهم عقب وقوع القول الرباني عليهم لا ينطقون، شعورا منهم بأنهم كانوا مجرمين حقا، يستحقون ما قضى الله ﷻ بشأنهم، وعجزا أن يقدموا عذرا ما، فقد شهدت عليهم بجرائمهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم كلها، وقد دلت على هذا نصوص أخرى، منها قول الله ﷻ في سورة (يس/36 مصحف/ 41 نزول): ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[يس: 65].

وقول الله ﷻ في سورة (فصلت/ 41 مصحف/ 61 نزول): ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ... ﴾[فصلت: 19- 21]"[1].

وقد مثّل للغيب المذكور في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[النمل: 65] بقوله: "ومن هذا الغيب ما جاء بيانه في قوله ﷻ في سورة (لقمان/ 31 مصحف/ 57 نزول) ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان: 34]"[2].

ويظهر من هذين المثالين أنّ المفسر -رحمه الله- لم يأت بفهم جديد لمعاني الآيات بما يحيد به عمّا درج عليه المفسرون، وإنما اجتهد في استحضار ما يؤيّد ما تضمنته من معاني من القرآن الكريم نفسه، مما زاد المعنى وضوحا وجلاء وهذا من حسن تدبر المفسر لآيات الذكر الحكيم.

ثالثا: دفع توهم التعارض بين معاني الآيات والجمع بينها.

لما جاء المفسر إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾[الأنبياء: 101- 102] بيّن معناها ولم يكتف بذلك، بل سعى إلى إزالة ما قد يظهر من تعارض بينها وبين ما سبق تدبره في نجوم التنزيل وهي قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[مريم: 71- 72].

فقال: "ولا يتعارض هذا [أي ما جاء سورة (الأنبياء)] مع ما جاء في الآيتين (71 و72) من سورة (مريم/ 44 نزول) بشأن ورود المؤمنين وغيرهم على جهنم، لأن ما جاء فيهما هو الورود على

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص191- 192. وينظر: مج1، ص297/ مج2، ص159/ مج14، ص340.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص147.

الصراط...فهو بالنسبة إلى الذين سبقت لهم من ربهم الحسنى يكون ورودهم جهنم ورود إشراف سريع قبل دخولهم الجنة...ولا يصاحبه شيء مما يعكر صفوهم أو يؤذيهم"[1].

والمفسر بذلك يرجح ما ذهب إليه أكثر المفسرين في أن الخطاب في آيتي سورة (مريم) عام، يدخل فيه المؤمن وغير المؤمن، وإن اختلفوا في معنى الورود على أقوال[2]، ترجح منها عنده أن الآيتين تتحدثان عن الورود على الصراط، والذي يكون في حق المؤمنين ورود إشراف مستندا في ذلك إلى ما ثبت في الأحاديث الصحيحة، وما قال به أهل اللغة[3].

وعلى ضوء ذلك يمكن فهم الآيات والجمع بينها، ويزول ما يبدو بينها من تعارض.

رابعا: بيان ما أُجمل الحديث عنه في آية بآية أو آيات أخرى.

أجمل الله ﷻ الحديث عن طعام أهل النار في قوله: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾[المزمل: 13]، وبيّنه في مواضع أخرى جمعها المفسر فقال: "وقد جاء في نصوص أخرى بيان نوع طعامهم في جهنم:

فجاء في سورة الدخان (44 مصحف/ 64 نزول): ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾[الدخان: 43 - 46]...

وجاء في سورة (الصافات/ 37 مصحف/ 65 نزول): ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾[الصافات: 62- 68]...

وجاء في سورة (الغاشية/ 88 مصحف/ 68 نزول) بشأن المعذبين بالنار: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن

---

[1] _ معارج التفكر، مج14، ص375- 376.

[2] _ قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار"، وقال ابن كثير: "إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط...نجّى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا". ينظر: جامع البيان، ج18، ص234/ تفسير القرآن العظيم، ج5، ص256.

ومنهم من ذهب إلى تفسيرها على خلاف ذلك مستندا على سياق ما سبقها من الآيات التي تحدثت عن منكري البعث، قال ابن عاشور:"فليس الخطاب في قوله وإن منكم إلا واردها لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النار مع الكافرين ثم ينجون من عذابها، لأن هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق، إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة". التحرير والتنوير، ج16، ص151.

[3] _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص594.

ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ [الغاشية: 6- 7]...

وجاء في سورة (الحاقة/ 69 مصحف/ 78 نزول) بشأن طعام المعذّب في النار: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: 35- 37].

ويبدو أن هذه أنواع من أطعمة أهل النار بحسب دركاتهم فيها"[1].

خامسا: بيان معنى مفردة في آية بآية أخرى.

فعند تدبره –رحمه الله– لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف: 87] قال: "أي: أما المؤمنون فإنهم يعلمون أن الله رحيم بعباده، وأنه على كل شيء قدير، فإذا لجؤوا إليه، وتوكلوا عليه، ودعوه مخلصين، رحمهم فأغاثهم وأسعفهم بالفرج من لدنه.

وجاء في سورة (العنكبوت/ 29 مصحف/ 85 نزول) قول الله ﷻ بشأن الكافرين.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[العنكبوت:23] ونفهم من هذه الآية أن المراد بروح الله رحمته"[2].

ويظهر من المثال أن المفسّر لما ظهر له أنّ في كلمة: ﴿ رَّوْحِ ﴾ شيء من الغموض وضّحها بآية أخرى، والمعنى الذي ذهب إليه وارد في تفسير السلف[3].

سادسا: جمع آيات الموضوع الواحد ومقابلة بعضها ببعض وبيان تكامل النصوص القرآنية في الدلالة على المعنى، واستبعاد احتمال التكرير لمجرد التأكيد ما أمكن، هذا ما نص عليه في القاعدة السادسة[4] وطبقه في (معارج التفكر)، إذ إن "البحث عن معنى الآية أو الآيات من خلال جمعها والمقارنة بينها وبين مواضع تكرارها طريق عظيم الأثر في فهم القرآن"[5].

وقد وظف ذلك إما في ثنايا تدبره التحليلي إذا كانت الآيات قليلة، أما إذا طالت وكثرت فإنه

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص177 وما بعدها. ينظر: مج2، ص152.

(2) _ معارج التفكر، مج10، ص725. ينظر: مج1، ص57/ مج2، ص168/ مج8، ص104.

(3) _ قال مقاتل: في تفسيره للآية: ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾[يوسف: 87]، "يعني: من رحمة الله". وقد ذكر الطبري روايتين الأولى عن قتادة والثانية عن الضحاك جاء فيهما تفسير روح الله بأنها رحمته. ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ج2، ص348/ جامع البيان، الطبري، ج16، ص233/ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج9، ص252.

(4) _ ينظر: قواعد التدبر، ص 67.

(5) _ المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الرحمن الجذيع، ص298.

يخصها بملحق يتدبر فيه الموضوع المراد بالتفصيل، وقد تركت التفصيل هنا لأنه سيأتي الحديث عن هذه المسائل في محل قادم من هذه الدراسة، وأكتفي بمثال مختصر يبين المقصود:

عندما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[طه: 123] قال: "والمعنى: فمن كلّف نفسه أن يتبع هداي، فإنه يحمي نفسه من الضلال في الحياة الدنيا، ومن الضياع في متاهات العقائد والأعمال الفاسدة الباطلة، ومن الشقاء في الحياة الدنيا والآخرة.

وجاء في الآية (38) من سورة (البقرة) قول الله تعالى حول الموضوع نفسه: ﴿ ...فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[البقرة: 38]: أي: فمن تبع هداي بدون تكلف وزيادة جهد واجتهاد...فهؤلاء لا خوف عليهم من عذاب يوم الدين، ولا يحزنون على شيء فاتهم أو يفوتهم في الدنيا والآخرة... فتكامل النصان في بيان المعنى المراد"[1].

هذه الدراسات التحليلية التكاملية أحد أهم السمات البارزة في تدبره والتي أضافت قيمة لتفسيره وميَّزته عن غيره من المفسرين ممن اتبع ترتيب النزول وغيرهم، إذ فيها تجلت العناية الفائقة له بتفسير القرآن بالقرآن والحرص على بيان تكامل النصوص في دلالاتها وما أضافته كل آية عن سابقتها وفق ترتيب النزول[2].

سابعا: جمع آيات القصة الواحدة ودراستها دراسة تكاملية لإعطاء تصور شامل حولها، وتدبر كامل لها؛ فإذا كانت أحداث القصة الواحدة مذكورة في مواضع متفرقة من القرآن الكريم، فمرّة يجمع تفاصيلها الموزعة على نجوم التنزيل في موضع واحد، ويكتفي في أخرى بذكر ما يكمل المعنى في مقطع القصة المذكور في السورة التي هو بصدد تدبرها، فما جاء موجزا في موضع جاء مبسوطا في موضع آخر.

فانظر لما جاء إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾[الصافات: 93] من قصة إبراهيم عليه السلام ذكر ما يكملها من سورة (الأنبياء) بشأن إبراهيم عليه السلام وتكسيره أصنام قومه وهو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾[الأنبياء: 58] ثم قال: "فلما رجعوا من عيدهم وجدوا آلهتم من الأصنام مكسورة، إلا الصنم الكبير منها، واشتد غضب القوم ممن كسر آلهتم، فتساءلوا: من فعل هذا بآلهتنا، وهنا يأتي التكميل في سورة (الأنبياء/ 73 نزول): ﴿ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

---

[1] _ معارج التفكر، مج8، ص355- 356. ينظر: مج1، ص404/ مج6، ص62/ مج9، ص156/ مج10، ص185.

[2] _ وقولي هذا لا ينفي ما قد يرد على هذه الدراسات الموضوعية من تعقبات ومآخذ سيأتي الحديث عنها.

[الأنبياء: 59] كان هذا الذي جاء في سورة (الأنبياء/ 73 نزول) قد اقتطع من القصة في سورة (الصافات) وجيء منها بمختزل، وفق المنهج القرآني في التوزيع التكاملي في السورة لغرض القصص فيه"[1].

ثامنا: ربط الآية التي يفسرها بما سبقها في نجوم التنزيل.

حيث يلتفت إلى ما سبق الآية في ترتيب النزول في محاولة منه لإيجاد علاقة ورابط بينها، ولعل هذه أيضا من أبرز السمات التي تميَّز بها (معارج التفكر) والتي جمع فيها المفسر بين تفسير القرآن بالقرآن وبين تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، فكانت من العناصر التجديدية في توظيفه لهذا المصدر من مصادر التفسير[2].

وتأمل صنيعه لما ذكر قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[يس: 47] حاول أن يربط تدبره بما سبق في نجوم التنزيل، يقول: "ولم يأت هُنا في سورة (يس) جوابُ مقالة الذين كفروا، لأنه قد سبق في نجوم التنزيل...ما يدل على أن كلا من مقادير التوسعة في الرزق والتضييق فيه، إنما هو للابتلاء...ومما سبق بيانا لحكمة الابتلاء في مجال بسط الرزق وتضييقه، قول الله ﷻ في سورة (الفجر/ 89 مصحف/ 10 نزول): ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الفجر: 15 - 18].

فزجر الله ﷻ في هذا النص من يتصور أن التوسعة في الرزق للإهانة"[3].

تاسعا: الاستدلال بالقرآن الكريم على قضية لغوية أو على مسألة فقهية، دلت عليها الآية ثم اختياره لأحد الأقوال استنادا إلى آية أخرى، ويظهر ذلك جليا في تدبره لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[الواقعة: 2] حيث قال: "أي لا يوجد بعد وقعة أحداث الواقعة العظمى نفس كاذبة، فلفظ "كاذبة" صفة لموصوف محذوف تقديره: "نفس" وهذا نظيره قول الله ﷻ في سورة (فاطر/ 35 مصحف/ 43 نزول): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾[فاطر: 18] فاللام في عبارة ﴿لِوَقۡعَتِهَا﴾ هي بمعنى: "بعد" مثل اللام في قوله ﷻ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾[الإسراء: 78]: أي: بعد زوال الشمس عن كبد السماء..."[4].

---

[1] _ معارج التفكر، مج11، ص603- 604. وسيأتي تخصيص مبحث مستقل في الحديث عن القصص القرآني في تفسير (معارج التفكر).

[2] _ نبهت إليها باختصار لارتباطها الوثيق بالموضوع المطروق هنا وسيأتي تفصيلها في الفصل اللاحق.

[3] _ معارج التفكر، مج6، ص138- 139.

[4] _ معارج التفكر، مج8، ص434. وينظر: مج9، ص650.

وعند تدبره لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[يونس: 87] قال: "أمر الله ﷻ موسى وهارون عليهما السلام وسائر المؤمنين المسلمين من بني إسرائيل بإقامة الصلاة...والصلاة التي أمر الله بها بني إسرائيل هي امتداد للصلاة التي كان إبراهيم عليه السلام يؤديها، وفيها الركوع والسجود، والدليل على هذا قول الله ﷻ في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول): ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[البقرة: 125]"[1].

عاشرا: توظيف القراءات القرآنية والاستعانة بها في بيان معاني الآيات.

عُني مفسرنا بالقراءات العشر المتواترة واهتم بتوجيهها وتوضيحها اهتماما بالغا[2]، خاصة تلك التي لها ارتباط وثيق بالمعنى ولها تأثير في الفهم السديد والتدبر السليم.

وقد كان مدركا لأهمية هذا الأصل في تفسير القرآن الكريم، حريصا على بيان ما تحمله القراءات الواردة في اللفظ القرآني من معاني إضافية أو توضيحية أو تكميلية[3]، باعتبارها مظهرا من مظاهر "الإيجاز في القرآن الكريم"[4] على قوله، وأحيانا يبيّن أوجه الإعراب تبعا لتعدد القراءات المتواترة[5]، وفي أخرى يزيل ما قد يظهر من إشكال حول قراءة معينة.

فتراه مثلا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾[يوسف: 110] يذكر الآية ثم يشير إلى القراءة الأخرى [كذِّبوا] قائلا: "أما قراءة [كذِّبوا] فظاهرة، أي: وظنوا أن بعض الذين آمنوا بهم واتبعوهم قد وصلوا إلى الشعور بأن رسلهم قد كذبوا عليهم...وأما قراءة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾[يوسف: 110] بتخفيف الذال، فضمير ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ لا يصلح أن يعود على الرسل؛ لأن الرسل لا يقع في ظنهم أن الوحي كذَبَهم فيما أخبرهم به من وعد ووعيد. لكن قد يقع في نفوس بعض

---

(1) _ معارج التفكر، مج10، ص220.

(2) _ حيث خصّها بالحديث في القاعدة الأربعين من كتابه (قواعد التدبر الأمثل) ذاكرا موقفه منها وأغراضها، كما وظفها في ثنايا تدبره التحليلي في تفسيره وكان جهده فيها واضح، وقد اعتمد على القراءات العشر المتواترة؛ يقول منوّها بأهميتها: "على متدبر كتاب الله أن يبحث عن المعاني وعن الصور البيانية الموصولة بإعجاز القرآن، التي تدل عليها وجوه القراءات المختلفة التي لا يظهر فيها بوضوح أن الغرض من الاختلاف فيها مجرد التهوين أو التسهيل على ألسنة الناطقين العرب، إبان تنزيل القرآن، مراعاة للهجاتهم المختلفة وقواعد ألسنتهم". قواعد التدبر، ص722.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص37- ص213- ص617/ مج11، ص330.

(4) _ معارج التفكر، مج10، ص407.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص39- ص577/ مج10، ص510/ مج11، ص302- ص191.

أتباعهم من ضعفاء الإيمان، شك في أن ما وصل إلى الرسل من بيانات الوعد والوعيد قد يكون كاذبا غير مطابق للواقع، ومنه احتمال الخطأ في التلقي لأخبار الوعد والوعيد، ومثل هذه الظنون قد تقع في نفوس ضعفاء الإيمان إذا نفد صبرهم. وبناء على هذا الفهم فلا إشكال في هذه القراءة"[1].

وهذه أهم معالم منهجه في تفسيره للقرآن بالقرآن والتي تيسر جمعها وترتيبها، ولا أدعي أني قد أتيت عليها كلها لأن ذلك يحتاج إلى رسالة مستقلة أو بحث يفصل فيها؛ وهو بتوظيفه لهذه الأنواع في تفسيره يكون متبعا لا مبتدعا فأغلبها استعملها المفسرون قبله وعلى رأسهم ابن كثير في (تفسير القرآن العظيم)[2] والشنقيطي[3] في (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن) وغيرهم، وإن كان خالفهم في طريقة عرضها باعتماده لترتيب السور وفق نزولها لا وفق ترتيب المصحف الذي اعتمدوه في تفاسيرهم.

حيث اجتهد –رحمه الله– في الاستدلال بالقرآن الكريم على صحة ما ذهب إليه من قول أو جاء به من رأي، محاولا ترك بصمات لترتيب النزول في هذه الأنواع، وهو ما يظهر جليا في ربطه الآيات بما سبقها في نجوم التنزيل، وكذلك في جمع آيات الموضوع الواحد وفي دراسته للقصص وترتيبها وفق ترتيب النزول ليخرج بنظرة تكاملية حول الموضوع، وهذه من السمات التجديدية في توظيفه لهذا المصدر من مصادر التفسير ومن آثار اعتماد المفسر لتفسير وفق ترتيب النزول لسور القرآن الكريم.

الفرع الثاني: السنة النبوية.

دبّج الشيخ حبنكة كتابه في التفسير بمقدمة أثبت فيها جملة القواعد التي يسير عليها في خطى تفسيره، ومن بينها ما قرره حول التفسير بالمأثور عامة وحول البيان النبوي[4] خاصة قائلا: "أما البيان النبوي لمعنى النص القرآني، فإن صح فهو الذي يجب المصير إليه، وقد يكون البيان النبوي بعض ما

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص757- 758.

[2] _ حيث يعتبر من أكثر الكتب سردا للآيات المتناسبة في المعنى الواحد. ينظر: التفسير والمفسرون، ج1، ص175/ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص395.

[3] – هو: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجنكي الشنقيطي، مفسّر مدرس من علماء شنقيط (موريتانيا حاليا)، من أهم مؤلفاته: أضواء البيان في تفسير القرآن، آداب البحث والمناظرة، وله ألفية في المنطق، توفي سنة: 1393هـ. ينظر: الأعلام، الزركلي، ج6، ص45/ مشاهير علماء نجد، عبد الرحمن آل الشيخ، ص540.

[4] _ والمفسر هنا عبّر بالبيان النبوي، والمراد بيانه في هذا الفرع هو طريقة توظيفه للسنة النبوية وكيفية تعامله معها بشكل عام خلال تدبره للآيات، إذ بين مصطلحي التفسير النبوي والتفسير بالسنة عموم وخصوص، فالثاني أعم وأشمل، "ويمكن القول بأن كل إفادة يستفيدها المفسر من السنة في بيان القرآن وتفسيره فإنها من التفسير بالسنة، وهذه الإفادة من عمل المفسر واجتهاده في الغالب.
أما التفسير النبوي، فيلحظ فيه إضافته إلى النبي ﷺ، ويمكن أن يقال: هو كل قول أو فعل صدر عن النبي ﷺ صريحا في إرادة التفسير" . ينظر: مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، مساعد الطيار، ص139 وما بعدها.

اشتمل عليه عموم النص، أو بعض ما اشتملت عليه دلالاته، فيكون ما جاء في البيان أحد المعاني التي اشتملت عليها دلالاته"[1].

أكّد الشيخ في هذا النص على أهمية البيان النبوي في تفسير القرآن الكريم، وأنه هو الذي يجب المصير إليه واشترط الصحة في ذلك، ومفسرنا بهذه القاعدة يقتفي خطى السلف ومن سبقه من المفسرين في العناية بهذا المصدر وتقديمه على غيره[2].

يقول ابن العربي[3]: "وبعد تفسير النبي ﷺ فلا تفسير، وليس للمتعرض إلى غيره إلا النكير، وقد كان يمكن لولا تفسير النبي ﷺ أن أحرر في ذلك مقالا وجيزا، وأسبك من سنام المعارف إبريزا، إلا أن الجوهر الأغلى من عند النبي ﷺ أولى وأعلى"[4].

وقد سلك مفسرنا هذه الطريقة الحميدة في تدبره، لكن هل امتثل ما نص عليه في القاعدة وطبقه في تفسيره؟ وإلى أي مدى التزم به واعتمد عليه؟

أقول: إن المتصفح لتدبر الميداني لسور القرآن الكريم يظهر له ولأوّل وهلة عنايته بالتفسير بالسنة النبوية، وهذا الفرع ضمنته جملة من المسائل التي يتضح بها منهج مفسرنا في تعامله معه وطريقة توظيفه واعتماده.

المسألة الأولى: مواطن توظيف المفسر لتفسير القرآن بالسنة.

سبق وأن بيّنت المنهج العام الذي يسير عليه في تدبره لسور القرآن الكريم، فقد كانت له منهجية طبقها ووظف السنة النبوية في أغلبها، حيث شغلت مكانة كبيرة في (معارج التفكر)، سيأتي الإشارة إليها والتمثيل لها في نقاط كالآتي:

---

[1] _ قواعد التدبر، ص133.

[2] _ يمكن الإشارة هنا إلى أن تفسير القرآن بالسنة على قسمين: "الأول: توقيفي وهو ما صدر عن النبي ﷺ بلفظه وموطنه...والثاني: اجتهادي وهو ما ورد عنه واجتهد المفسر في الاستدلال به على تفسير الآية أو اللفظة القرآنية، وهذا النوع الثاني فيه المقبول والمردود لأنه محل نظر واجتهاد ففيه الخطأ والصواب". مطبوعة موجهة لطلبة ل م د، مادة أصول التفسير، عادل مقراني، ص29.

[3] _ هو: محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الاشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي القاضي من حفاظ الحديث، برع في الأدب وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، تنوعت مؤلفاته بين الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب، منها: العواصم من القواصم، عارضة الأحوذي في شرح الترمذي، توفي سنة: 543هـ. ينظر: الديباج المذهب، ابن فرحون، ج2، ص252/ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج4، ص296.

[4] _ أحكام القرآن، ج3، ص113.

1. توظيف السنة النبوية في تحديد تاريخ نزول السورة، وذلك بالبحث عن وقت نزولها، واستناده لما صح في ذلك إن وُجد.

ففي محاولته لتحديد تاريخ نزول سورة (المدثر) يقول: "بعد الدراسة التحليلية ترجح لدي أن صدر سورة (المدثر) قد نزل بعد سورة (العلق) فهي باعتبار صدرها ثاني سورة مكية، وهي على وجه العموم من أوائل التنزيل المكي باتفاق، وجاء في الصحيح تأكيد أن أول ما نزل على الرسول ﷺ بعد فترة الوحي قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[المدثر: 1-3]"[1].

فهو يؤكد ترجيحه لنزول سورة (المدثر) بعد سورة (العلق) بما صح من حديثه ﷺ، ليذكر بعدها الروايات التي اعتمدها نقلا عن (الجامع الصحيح)[2].

2. توظيف السنة النبوية في بيان ما جاء بشأن السورة، فالمفسر يحرص على إثبات ما ورد عن النبي ﷺ في ذلك وأمثلته كثيرة[3]، منها ما ذكره بشأن سورة (الواقعة) حيث ذكر عدة أحاديث، منها قوله: "روى الترمذي عن ابن عباس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله ﷺ قد شبت، قال: «شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»"[4].

3. توظيف السنة النبوية في بيان سبب نزول السورة كاملة أو بعض آياتها.

فتأمل صنيع المفسر مثلا لما وصل إلى الآية 52 من سورة (الأنعام)، حيث قال: "روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: "كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي: أطرد هؤلاء لا يجترئون علينا...فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾[الأنعام: 52]...[ثم ذكر أقوالا في المعنيين بالطرد وأعقبها بقوله] أقول: الحادثة وقعت، وكانت سبب نزول الآية، وليس من المهم معرفة كل أسماء المستضعفين

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص77.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص80.

[3] _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص304/ مج11، ص137/ مج 12، ص143/ مج14، ص411/ مج15، ص72. وغيرها من المواضع التي ساق فيها المفسر أحاديث في بيان فضائل السورة وما ورد في شأنها، وهذه الأخيرة تحتاج إلى دراسة حديثية تجمع فيها تلك المواضع وتدرس لتستبين الصحيح وما دونه من الحسن والضعيف.

[4] _ معارج التفكر، مج8، ص428. أخرجه الترمذي في سننه، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الواقعة، رقم: 3297، ج5، ص402. قال الألباني: صحيح. ينظر: صحيح سنن الترمذي، ج3، ص343.

المعنيين بالطرد"[1].

4. توظيف السنة النبوية أثناء تحليل الآيات وبيان معانيها وما تضمنته من حكم وأحكام، وقد اجتهدت في جمع المواضع التفسيرية التي وظّف فيها المفسر الحديث النبوي أثناء تدبره التحليلي للآيات فوجدت أنه: يؤكد به على معاني الآيات ويوضحها[2]، يرجح به أحد المعاني على الأخرى أو يمثل به للمعنى الذي تضمنته الآية[3]، يبين به لفظا قرآنيا[4]، يستدل به على قضية عقدية[5] أو على حكم شرعي[6]، وغيرها من المواضع التي يصعب حصرها في هذا المقام، والتي سأكتفي بالتمثيل لاثنين منها كالآتي:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين: 14]

بيّن المفسر معنى الآية وأعقبه بقوله: "والبيان النبوي يجلي معنى الآية بوضوح كاف...عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ..»"[7].

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾[النمل: 16]

قال -رحمه الله-: "الميراث ما يملكه خلف عن سلف دون عوض وهو يشمل الماديات والمعنويات...أما المال الخاص بداوود، فالرأي الراجح عند المفسرين وأهل الحديث أنه لم يكن له منه ميراث، أخذا مما صح عن الرسول ﷺ من أن أموال الأنبياء لا تورث...

فقد روى البخاري في صحيحه أنّ أبا بكر ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا نورث ما تركناه

---

[1] _ معارج التفكر، مج11، ص248- 249. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: فضائل الصحابة، باب: في فضل سعد بن أبي وقاص، رقم: 2413، ص983.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص40/ مج12، ص33/ مج12، ص621/ مج14، ص59- 60.

[3] _ ينظر: معارج التفكر، مج11، ص779.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج12، ص199- 200.

[5] _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص93/ مج11، ص 364- 365.

[6] _ ينظر: معارج التفكر، مج 2، ص64/ مج11، ص52.

[7] _ معارج التفكر، مج15، ص326. أخرجه الترمذي في سننه، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ويل للمطففين، رقم: 3334، ج5، ص434. قال الألباني: حسن. ينظر: صحيح سنن الترمذي، ج3، ص364.

صدقة، إنما يأكل آل محمد في هذا المال»"[1].

ثم يورد بعد ذلك رواية صحيح مسلم وينبه إلى ورود نظير الروايتين عند أصحاب السنن وغيرهم، ومن ثمّ فقد استشهد المفسر بما صح عن النبي ﷺ لبيان حكم شرعي وهو ميراث الأنبياء.

5. توظيف السنة النبوية في معالجة أحد مواضيع القرآن الكريم، فالمفسر بعد إيراد الآيات القرآنية في الموضوع يعززها بما ثبت من أحاديثه ﷺ.

فقد جعل مثلا الملحق الثاني لتدبره لسورة (إبراهيم) بعنوان: "إبراهيم عليه السلام في القرآن والسنة" وقسّمه إلى بابين، الأول كان للحديث عن "إبراهيم عليه السلام في القرآن"[2] والثاني لـ"بعض ما جاء في السنة بشأن إبراهيم عليه السلام"[3]، وقد ذكر تحته تسعة أحاديث كلها في صحيح البخاري ومسلم إلا الحديث السابع جاء في مسند أحمد.

وقد يقتصر فقط على ما جاء في صحيح السنة بشأن موضوع معين تعلق بمضمون الآية؛ فبعد تدبره مثلا لقوله تعالى: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾[النمل: 82] ذكر ما جاء في صحيح السنة بشأن الدابة[4].

المسألة الثانية: مدى التزام المفسر بما ثبت وصح من السنة النبوية.

قال –رحمه الله–: "أما البيان النبوي لمعنى النص القرآني، فإن صح فهو الذي يجب المصير إليه"[5]، ومن ثمّ فإن مفسرنا يدعو إلى وجوب الصيرورة إلى ما صح من أقوال الرسول ﷺ في بيان معاني القرآن الكريم وتدبر آياته.

وفي محاولة التعرف على مدى تطبيقه لهذه القاعدة نجده قد التزم بها على وجه العموم ويظهر ذلك في أمرين اثنين:

الأول: اعتماد المفسر على الأحاديث الصحيحة وتقديمه لما جاء في الصحيحين على غيرهما في

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص56. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: أصحاب النبي ﷺ، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ، رقم: 3711، ج5، ص20.

[2] _ معارج التفكر، مج14، ص96 وما بعدها.

[3] _ معارج التفكر، مج14، ص232 وما يعدها. ينظر: مج4، ص58.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص183. وينظر: مج8، 726/ مج10، ص230/ مج15، ص321.

[5] _ قواعد التدبر، ص133.

أغلب الأحوال، فهو يبدأ بذكر ما ثبت فيهما ثم بعد ذلك يذكر باقي الروايات التي جاءت عند أصحاب السنن وغيرهم غالبا إذا ذكر مجموعة من الأحاديث، أو يقدمها على غيرها ويكتفي بها إذا ذكر رواية واحدة في كثير من الأحيان[1].

ونمثل لذلك بصنيع المفسر في ثنايا تدبره لآيات سورة (الكهف)، حيث نجده افتتح تدبره للدرس الثامن من دروس السورة والذي تحدث عن قصة موسى مع الخضر عليهما السلام بذكر ما جاء في الصحيحين بشأن القصة ليبني عليها تدبره للآيات بعد ذلك.

يقول: "ألتزم في الفهم التدبري ما جاء في الحديث الصحيح عن الرسول ﷺ الذي سبق ذكره"[2].

وقد التزم بذلك فعلا في تدبر القصة والبحث في تفاصيلها معرضا عما سواه من الروايات والخرافات الإسرائيلية.

الثاني: ابتعاد المفسر عن الأحاديث الضعيفة، فهو لا يعتمد عليها غالبا في تدبره.

يقول في حديثه عن الدابة وأوصافها بعد أن ذكر جملة من الأحاديث في ذلك: "وجاءت آثار في وصف هذه الدابة، ووصف بعض أعمالها، لا ترقى إلى مستوى الاحتجاج بها، أعرضت عن ذكرها"[3].

كما أنه زهد فيما ذكره المفسرون من أقوال ليس لها سند عن رسول الله ﷺ، فنجده مثلا بعد ذكره لجملة من الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[القصص: 24]، يقول: "وإذ لا توجد أسانيد تصحح هذه الأقوال فلا داعي لاعتمادها"[4].

وإن كان –رحمه الله– وقع كغيره من المفسرين في هفوات ومؤاخذات كان الأولى أن يُنزه تدبر كتاب الله ﷻ منها، ومن ذلك استشهاده بمجموعة من الأحاديث الضعيفة واستناده إليها وكأنها صحيحة خالية من أي علّة، فقد نقل مثلا ما رُوي عن أنس ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "الحواميم

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص6/ مج6، ص88/ مج8، ص44.

[2] _ معارج التفكر، مج 13، ص422.

[3] _ معارج التفكر، مج9، ص185. ينظر: مج13، ص11.

[4] _ معارج التفكر، مج9، ص378.

ديباج القرآن"[1]، واعتمد عليه في التنبيه على فضائل الحواميم وبيان شأنها وعلو منزلتها، ولم يعلق عليه مع أنه ذكره عدة مرات[2] بل كان يحيل عليه.

يقول في سورة (الشورى) مثلا: "هذه السورة من "الحواميم السبع"...وجاء فيما سبق أن الحواميم ديباج القرآن، أي: فيها زينة، ونفاسة ولين"[3].

فهذه الأحاديث على قلتها[4] كان ينبغي عليه أن يبتعد عنها في الاستشهاد أو بيان فضائل سور القرآن، وهذا مما يؤخذ عليه في هذا الباب وإن كان الخطأ والنسيان من سمات البشر.

المسألة الثالثة: منهج المفسر في إيراد الحديث النبوي وطريقة تعامله معه.

أورد الشيخ الكثير من الأحاديث في تفسيره، أحاول أن أوجز القول في أهم الملامح التي طغت على تعامله معها فيما يأتي:

1. عزو المفسر للأحاديث وتخريجها: اهتم -رحمه الله- بالأحاديث النبوية، ولكنه لم يُعن كثيرا بتخريجها وعزوها إلى مصادرها الأصلية من كتب السنة إلا في القليل النادر[5]، بل كان يكتفي بذكر اسم المصدر وصاحبه وراوي الحديث ثم يذكر نص الحديث دون أن يهتم بباقي المعلومات التي يتطلبها المنهج العلمي السليم، بل نجده في بعض المواضع يقتصر على ذكر نص الحديث فقط ويهمل حتى ذكر الراوي وأحيانا أخرى يعزوه إلى من ذكره من أصحاب التفاسير[6].

وربما يرجع قلة حرصه وعدم اهتمامه بالأمور المنهجية إلى انشغاله بمضمون الأحاديث وكيفية توظيفها على الوجه السليم، أو أنه وقع له ذلك سهوا، أو أنه لم يرجع إلى المصادر بل نقله من كتب التفسير دون التحري والرجوع إلى المصادر الأصلية وغيرها من الفرضيات التي لا تُعفي هذا التفسير من النقد، إذ عدم اعتنائه بتخريج الأحاديث تبقى من الأمور السلبية التي تؤخذ عليه.

2. حكم المفسر على الأحاديث بالصحة أو الضعف: أشرت سابقا إلى أنه كان حريصا على تقديم ما صح على غيره في إيراده للأحاديث النبوية، ولكنه كان يذكر كذلك الأحاديث التي دونها في

---

[1] _ قال الألباني: موضوع. ينظر: معارج التفكر، مج12، ص309/ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ج8، ص31.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج12، ص452- ص688/ مج13، ص10- ص148.

[3] _ معارج التفكر، مج12، ص562.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج4، ص156/ مج10، ص674-675.

[5] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص185/ مج12، ص276.

[6] _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص87/ مج10، ص9- ص45- ص512/ مج11، ص52/ مج13، ص48.

الصحة دون أن يعلق عليها، وإذا علق في بعض المواضع فهو يعتمد على أقوال النقاد في ذلك[1] دون أن يفصل ويبن علة الضعف، وإن كان كلامه على صحة الأحاديث أكثر من كلامه على ضعفها[2].

3. طريقة عرض المفسر للأحاديث:

- حذف الأسانيد: سار مفسرنا على نهج المفسرين المتأخرين في تناول الحديث النبوي، وذلك بتجريده للحديث من أسانيده غالبا، فهو يذكر الأحاديث مع حذف أسانيدها، والاكتفاء بذكر راوي الحديث[3].

- الاقتصار على موضع الشاهد من الحديث في تفسيره للآية، ومثاله ما ذكره بشأن سورة (الصافات)[4].

- ذكر الحديث رغم طوله، فقد ذكر مثلا حديثا بشأن إبراهيم عليه السلام شغل أكثر من أربعة صفحات[5].

وهذه أهم ملامح منهجه –رحمه الله– في تعامله مع التفسير بالسنة، وإن كان حصرها في نقاط والتنصيص على منهج محدد صعب جدا لأنه لم يلتزم منهجا واحدا وطريقا واضحا.

وصفوة القول في ذلك: أن الشيخ –رحمه الله– قد التزم بما نص عليه في قواعده على وجه العموم، وذلك بتقديمه للصحيح واعتماده عليه غالبا، وتركه للضعيف وعدم اعتباره.

فقد أفاد من السنة النبوية كثيرا وأحسن توظيفها في تدبره لكتاب الله عز وجل، وأكد مرارا على ضرورة المحافظة عليها والعمل بما صح منها، وإن كان قد وقع فيما وقع فيه غيره من المفسرين من زلات وهفوات ولكنها لا ترقى إلى الطعن في تفسيره أو المساس بقيمته، وإنما تحتاج إلى جهود طلاب مجدين؛ فلو اقتصرت إحدى الرسائل على تخريج الأحاديث التي ذكرها والحكم عليها لجاءت رسالة قيّمة تجمع بين علمي التفسير والحديث، وتخدم أحد أنفع كتب التفسير في العصر الحديث.

وباعتماد المفسر للتفسير بالسنة النبوية يكون متبعا لسنة من سبقه من أهل التفسير، حيث لم يكن لاختياره لتفسير السور وفق ترتيب نزولها أثر سلبي في توظيفه لهذا المصدر.

---

(1) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص16- ص454/ مج11، ص137/ مج12، ص200/ مج15، ص403.

(2) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص185/ مج10، ص230/ مج15، ص326.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص174/ مج7، ص597/ مج8، ص428.

(4) _ معارج التفكر، مج11، ص539. ينظر: ج14، ص368.

(5) _ معارج التفكر، مج14، ص233 وما بعدها. ينظر: مج9، ص538.

المطلب الثاني: أقوال الصحابة والتابعين ومرويات أهل الكتاب.

يستقي المفسر مادته التفسيرية من جملة من المصادر، لعل من أهمها بعد المصدرين اللذين سبق الحديث عنهما أن يرجع إلى أقوال الصحابة ﷺ، الذين باشروا الوقائع والنوازل وشهدوا تنزيل الوحي، "فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم... ويدركون ما لا يدركه غيرهم...والشاهد يرى ما لا يرى الغائب"[1]، ويُلحق بهم تلاميذهم من التابعين الذين نقلوا عنهم وأفادوا منهم؛ وقد أفردت الفرع الأول من هذا المطلب للحديث عن عناية مفسرنا بهذه الأقوال إيرادا وتوظيفا لها في ثنايا تدبره التحليلي.

أما الفرع الثاني فأردت فيه التنبيه إلى مصدر آخر بدا نقل المفسر منه واضحا في ثنايا تدبره، ويشترك مع الأول في كون كليهما يعتمد على الرواية، ألا وهو مرويات أهل الكتاب.

الفرع الأول: أقوال الصحابة والتابعين.

"على متدبر كلام الله أن ينظر في التفسير المأثور لمعنى النص القرآني، فهو حريّ أن يكون في كثير من الأحيان فهما صحيحا، وإن لم يكن شاملا لكل ما يهدف إليه النص القرآني. ويشمل التفسير المأثور ما فهمه الصحابة والتابعون"[2].

هكذا نص -رحمه الله- في إحدى قواعد تدبره لكتاب الله ﷻ، فالتفسير بالمأثور عنده من أهم القواعد التي ينبغي العناية بها، منبها على أنّه يشمل فهم الصحابة والتابعين، فهم أقرب إلى الفهم الصحيح وإصابة الحق من غيرهم.

وقد نص المفسر في أكثر من موضع على التزامه بمضمون هذه القواعد قدر المستطاع، فهل تمكن هنا من امتثال هذه القاعدة؟ وتوظيف أقوال الصحابة والتابعين في فهم الآيات فهما صحيحا؟

أقول: إن المتتبع لأقوال الصحابة والتابعين ﷺ في (معارج التفكر) يجد أنها قليلة مقارنة بحجم التفسير، فأحيانا نجد مجلدا في أكثر من سبعمائة صفحة يستشهد فيه بأقل من خمسة أقوال[3].

---

(1) _ الموافقات، الشاطبي، ج4، ص128.

(2) _ قواعد التدبر، حبنكة الميداني، ص133.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص463- ص667- ص755.

وقلتها لا تعني عدم ذكرها من قبل المفسر فهو لا يُغيِّب النقول عنهم ولا يبتعد عن فهومهم، فقد وظّفها في عديد المواضع، إليك بيانها مع ذكر أمثلة عنها:

1. في الحديث عن سبب نزول السور والآيات:

نقل المفسر مثلا ما "روى مكحول: أنّ رجلا من المشركين سمع النبي ﷺ، وهو يقول في سجوده: "يا رحمن يا رحيم" فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحدا، وهو يدعوا اثنين، فأنزل الله ﷻ: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾[الإسراء: 110]"[1].

2. في بيان فضائل السور:

مثاله ما ختم به المفسر حديثه عن ما ورد في السنة بشأن سورة (الأنعام)، حيث ذكر عددا من الأحاديث النبوية وأردفها بما روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: "نزلت الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح"[2].

3. عند تحديد المكي والمدني من السور والآيات:

ففي سورة (هود) مثلا نجد المفسر يستند إلى أقوال الصحابة في تحديد ما استثني منها من آيات مدنية، يقول: "وهي سورة مكية قال ابن عباس وقتادة إلا الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[هود: 114]"[3].

4. أثناء التدبر التحليلي للآيات وبيان معانيها:

فعند تدبره مثلا لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ ﴾[الإسراء: 60] نجده يدلل على معنى الرؤيا بما "نقل عن ابن عباس أن الرؤيا في الآية هنا هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس"[4].

5. في الحديث عن القصص القرآني:

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص755. ينظر: مج1، ص555/ مج6، ص364/ مج11، ص385.

[2] _ معارج التفكر، مج11، ص138.

[3] _ معارج التفكر، مج10، ص28. ينظر: مج1، ص152.

[4] _ معارج التفكر، مج9، ص667. ينظر: مج6، ص89/ مج10، ص68- ص220/ مج11، ص611/ مج12، ص763/ مج14، ص417.

فعند حديث المفسر عن قصة قارون عند أهل التاريخ أثناء تدبره للدرس الخامس من دروس سورة القصص، افتتح ذلك بما "روي عن ابن عباس أنه كان ابن عم موسى، فهو من الإسرائيليين في مصر"[1].

6. للتدليل على قضية لغوية:

ومثاله ما ذكره المفسر عند تدبره لقوله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: 98] حيث قال: "وفي حديث أبي بكر ﷺ، أنه أخذ بلسانه، وقال: "هذا الذي أوردني الموارد" أي: أوردني الموارد المهلكة..."[2].

وهذه أهم المعالم المنهجية التي وظّف فيها المفسر –رحمه الله– تفسير الصحابة والتابعين ونقولهم، وهو في الغالب يصرح بأسماء من نقل عنهم وذلك بنسبة الأقوال إلى أصحابها[3] مع حذف أسانيدها وذكر متن الرواية.

وقبل أن أختم هذا الفرع أردت تسجيل جملة من الملاحظات:

– أن المفسر –رحمه الله– يُعرض عن الروايات الضعيفة وتلك التي لم تثبت بأسانيد صحيحة في الغالب، وقد نص على ذلك في أكثر من موضع، يقول: "توجد مرويات في قصة قارون ما استسغتها، ولم أجد لها أسانيد تجعلها مقبولة فيما يروى، فأعرضت عنها"[4].

وفي إجابته على السؤال الذي طرحه في ثنايا تدبره من هو ذي القرنين؟ قال: "ليس لدينا في التاريخ ما يحدد اسمه، ولا نشأته...وقد خلط الناس بشأنه تخليطات لا تعتمد على أسانيد صحيحة، فينبغي الإعراض عنها، وعدم تسويد صفحات ولا أسطر بها"[5]، واعتمد بعد ذلك على ما جاء في القرآن بشأنه دون سواه.

– أن الآثار المروية عن الصحابة والتابعين كان حالها حال الأحاديث الواردة في ثنايا التدبر، إذ لم يعلق عليها غالبا[6]، بل اكتفى بصيغة "رُوي" أو "نُقل" عند الاستشهاد بها[7]، ما عدا تلك التي عزاها

---

(1) _ معارج التفكر، مج9، ص463.

(2) _ معارج التفكر، مج10، ص494. ينظر: مج10، ص499.

(3) _ وعلى رأسهم ابن عباس، علي، ابن مسعود، مكحول، عكرمة وغيرهم ﷺ. ينظر: معارج التفكر، مج6، ص119/ مج9، ص463/ مج10، ص64/ مج11، ص270/ مج12، ص747/ مج13، ص17/ مج14، ص350.

(4) _ معارج التفكر، مج9، ص467. ينظر: مج6، ص68.

(5) _ معارج التفكر، مج13، ص447.

(6) _ وإن كان يعلق مواضع قليلة. ينظر: معارج التفكر، مج2، ص418- 419/ مج13، ص17.

(7) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص89/ مج9، ص667/ مج10، ص64/ مج11، ص270.

إلى مصدرها سواء من كتب الحديث أو التفسير فإنه صدّرها بصيغة "روى"[1].

– أن من منهج المفسر في تعامله مع الآثار الجمع بينها لتقارب ألفاظها، وكذا ذكر عدد من الرواة لرواية واحدة[2].

الفرع الثاني: مرويات أهل الكتاب.

بتتبع المواضع التي نقل فيها المفسر مرويات أهل الكتاب في تدبره ثم النظر فيها، ظهر لي أنه لم يكن له منهج واضح بيّن في تعامله معها، لذلك كان من الصعب تحديد موقفه منها، خاصة وأنه لم يتحدث عنها في قواعده ولا عن أقسامها وعلاقتها بالتفسير ولم يشر إلى منهجه في التعامل معها، كي نحاكمه لما ذكر.

ومع ذلك وبعد جمع المواطن التي نقل فيها عنهم تم وضع بعض الخطوط العريضة التي تكشف عن موقفه الغالب في تعامله معها، والذي قسمته إلى قسمين:

القسم الأول: أدرجت تحته أهم معالم إجادة المفسر في تعامله مع مرويات أهل الكتاب، وإليك بيانها:

– تجنب ذكرها أصالة، حيث كان يعرض أحيانا عن بعض المرويات التي اعتاد كثير من المفسرين على ذكرها، والتي لا جدوى منها.

ومثاله قصة أصحاب الكهف التي اعتمد في تدبرها على ما جاء به البيان النبوي وأعرض عما سواه من الروايات التي عجت بها كتب التفسير [3]، وكذا قصة سفينة نوح[4] وغيرهما.

وهذه مزية كبيرة له فقد كفى القارئ مؤنة تصفح ما لا يقبله عقل ولا نقل من أساطير وخرافات.

– التنبيه على عدد من الأساطير والأخبار دون ذكرها لأنها لم تثبت بأسانيد صحيحة، وهو يصرح بذلك وينص عليه في عدد من المواضع منها:

قوله: "جاء في قصة موت سليمان عليه السلام حكايات ليس لها أسانيد تجعلها ذات قيمة خبرية، فمن

---

(1) _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص188/ مج11، ص138/ مج13، ص438- ص725.

(2) _ ينظر: معارج التفكر، مج11، ص381/ مج12، ص763/ مج14، ص337- 338.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج13، ص42 وما بعدها.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص396 وما بعدها.

الخير عدم ذكر شيء منها"[1].

وعند تدبره لقوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾[يونس: 94] قال: "وقد قرأت ما جاء في إصحاحات سفر الخروج المعتمدة الآن عندهم، فوجدت أنهم يفصلون الأحداث المشار إليها تفصيلات كثيرات، قد جاءت في القرآن مجملات محررات، خاليات من تزيُّدات كتاب كتبهم، أو ناقلي قصصها"[2].

فقوله هذا يدل على سعة اطّلاعه على ما جاء في كتبهم وانتقائه منها، فلم يكن حاطب ليل يجمع كل ما يقع عليه نظره، بل كان ينتقي منها ما يراه لا يخالف الشرع ولا يأباه العقل.

– إيراده لبعض الروايات لبيان ما جاء فيها من تحريفات وتصحيفات، فهو يشير إلى وجودها وعدم صحتها وأنها مخالفة لما جاء في القرآن وأنه هو المهيمن.

ففي حديثه عن يونس عليه السلام وقصة إلقائه في البحر، يقول: "...ويوجد سفر عند أهل الكتاب بعنوان "يونان" من ثلاث صفحات ونصف، فيه قصة إلقائه في البحر والْتقام الحوت له، لكن فيه أنه عصى ابتداء أن يذهب إلى أهل "نينوى" كما أمره الرب...وهذا مخالف لما جاء في القرآن عنه. ويظهر أن كاتب السفر كتبه من الروايات الشائعة المحرفة في زمانه. والقرآن هو المهيمن المطابق للحق"[3].

ويقول في قصة يوسف عليه السلام: "أما قصة "يوسف" عليه السلام فالمرجع الصحيح المهيمن فيها هو ما جاء في السورة المسماة باسمه"[4].

وفي حديثه عن وسوسة الشيطان لآدم، قال: "وأما كيف وسوس الشيطان لآدم وزوجه في الجنة؟ فقضية من قضايا الغيب التي لم يرد في النصوص الإسلامية الصحيحة بيان عنها، فلا داعي لإيراد إسرائيليات لا نعلم مدى الصدق في واحد منها"[5].

– رفضه ما يخالف الشريعة وابتعاده عنه قدر المستطاع؛ أما ما لم يأت في الشرع ما يخالفه فهو مسكوت عنه نقل منه في ثنايا تدبره، للتفصيل في القصة القرآنية مثلا أو ذكر بعض الأسماء المبهمة فيها[6].

---

[1] _ معارج التفكر، مج12، ص54.

[2] _ معارج التفكر، مج10، ص236.

[3] _ معارج التفكر، مج11، ص324.

[4] _ معارج التفكر، مج10، ص609.

[5] _ معارج التفكر، مج4، ص133.

[6] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص387/ مج10، ص632 - ص666- ص 728- ص73.

– المقارنة بين ما جاء عند الإسرائيليين وما جاء به البيان القرآني، واعتماد الأخير في تدبر الآيات أو بيان أوجه التشابه بينهما، وكذا الجمع بينهما إن أمكن[1].

فعند تدبره لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الأنعام: 74]: قال: "ظاهر الآية أنّ اسم أبي إبراهيم عليه السلام لفظ "آزر" ويبدو أنه كان هو المعروف عند العرب، وجاء في كتب الإسرائيليين أن اسم أبيه "تارح".

وأقرب احتمالات الجمع أن أصل اسمه: "تارح" ولقب بعد ذلك بلفظ "آزر" ولما دعا إبراهيم عليه السلام أباه بما جاء في هذه الآية، كان اللفظ المشهور به بين عشيرته هو لفظ "ءازر" فاختار الله ذكره بذلك، ويؤيد هذا الفهم قراءة يعقوب: "ءازر" بضم الراء، على أنه منادى مفرد علم"[2].

وخلاصة القول في ذلك: أن المفسر –رحمه الله– كانت له وقفات محمودة مع أقوال أهل الكتاب، وموقفه منها يوافق ما ذهب إليه في التفسير بالمأثور عامة، وموقفه من أقوال المفسرين وآرائهم على وجه الخصوص، حيث دعا إلى التمييز بينها وتمحيصها، قائلا: "فلا يكون المتدبر متدبرا حقا حتى يعرف ما ينتقي من آراء أهل التأويل، ويعرف ما يدع ويعرف ما هو ساقط مردود...أي: أن تكون له الملكة لذلك، وإن كان عرضة للخطأ في بعض الأحيان"[3].

ومن هذه الأخطاء ما سيأتي التنبيه إليه في القسم الموالي.

القسم الثاني: يدخل تحته المواضع التي تسربت إلى تفسير (معارج التفكر) من مرويات كان الأولى بالمفسر الابتعاد عنها، وإليك تفصيلها:

– الاكتفاء بعزو مرويات أهل الكتاب إلى كتبهم، وقد نقل بصفة خاصة عن الإصحاح من سفر الخروج وسفر التكوين وقاموس الكتاب المقدس وغيرها[4].

حيث كان يورد بعض النصوص التي جاءت عندهم دون إطالة بل مقاطع فقط، مكتفيا بمحل الشاهد منها؛ وهو ينقلها دون تحر أو بحث عن أسانيدها ورواتها من الصحابة والتابعين كما أنه لا يعلق

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص689- 69/ مج12، ص749.

[2] _ معارج التفكر، مج11، ص305.

[3] _ قواعد التدبر، ص133- 134.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص447- ص675/ مج11، ص618- ص626/ مج12، ص51.

بيانا لصحتها أو ضعفها[1]، وهذا مما يجب أن تنزه منه كتب التفسير لأن القارئ لها يعتقد صحتها لعدم التنبيه على ضعفها، فكان الأولى بمفسرنا إما البحث عن أصولها أو الاستغناء عن ذكرها.

– تحكيم العقل في قبول بعض الإسرائيليات: فرغم أن المفسر يُقر بالأغاليط الكثيرة التي تحويها كتبهم، إلا أنه يرى أنه لا مانع من اعتماد بعض ما جاء فيها مما لا يخالف العقل.

فعند إجابته مثلا عن السؤال الذي طرحه في ثنايا تدبره، من الشيخ أبو المرأتين من أهل مدين؟

ذكر ما جاء عند المفسرين من أنه شعيب الرسول عليه السلام، واستبعده لأنه ليس له سند يرفعه إلى النبي ﷺ ثم ذكر أقوالا أخرى وبعدها قال:

"أقول: جاء في الإصحاح (2) من سفر الخروج أن اسمه "رعوئيل...وجاء في الإصحاح (3) من سفر الخروج أن اسمه "يثرون". وجاء في قاموس الكتاب المقدس: أن "يثرون" معناه: فضل، وأن "رعوئيل معناه: صديق، أو خليل الله. قالوا: ويظهر أن هذا الاسم كان اسمه الشخصي، وأن "يثرون" لقب شرف أطلق عليه.

والذي أراه أنه لا داعي لاعتماد قول بعينه، وعلى الرغم مما عند أهل الكتاب من أغاليط كثيرة، فلا مانع عقلا من أن يكون هذا الرجل "رعوئيل" وأن لفظ "يثرون" لقب شرف أطلق عليه، وأنه كان كاهن "مديان" أي كان ذا رياسة دينية في قومه، على ملة الرسول شعيب عليه السلام"[2].

ليعتمد على هذا الاسم في تدبره التحليلي لباقي آيات القصة ويقول مثلا: "فلما علم "يثرون" أخبار موسى في مصر، واستوثق من ابنته أنه قوي أمين"[3].

– نقل المفسر لبعض الروايات التي فيها خدش بعصمة الأنبياء، وهذا من أخطر ما وقع فيه الشيخ من هنات، اغتر فيها بما قرأ لهم فنقل دون بيّنة.

ومثاله ما نقله من روايات إسرائيلية في قصة أيوب عليه السلام عن المؤرخين والمفسرين دون تعليق عليها بل ساقها وكأنه موافق لما جاء فيها[4]، وكذا صنيعه في قصه داود عليه السلام[5].

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص390/ مج10، ص460/ مج11، ص618 / مج12، ص51/ مج14، ص349.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص381.

[3] _ معارج التفكر، مج9، ص382.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج3، ص578 وما بعدها.

[5] _ حيث ذكر استحسان داود عليه السلام امرأة أحد قواده الكبار، وتمنيها وسؤاله أن يتنازل عنها ، وارتياحه لموته ليخطبها ويتزوجها بعد ذلك!!. ينظر: معارج التفكر، مج3، ص527.

ولو رجع لأقوال العلماء لوقف على نصوص كثيرة تدل على بطلان ما جاء في القصتين عن أهل الكتاب[1].

وقد استغربت نقله عنهم كثيرا، خاصة حينما وقفت وأنا أقلب صفحات سفره على نصوص يؤكد فيها على تحريف أهل الكتاب لكتبهم، فلو حاكمناه لما قال لأسقطنا الكثير من الصفحات من تفسيره:

يقول: "إن ما جاء في القرآن من قضايا الدين التي سبق إنزال معانيها في الكتب الربانية السابقة...يؤكد أن المنزّل واحد، هو الله ﷻ، لو أن هذه الكتب السابقة قد بقيت كما أنزلت غير محرفة، ولا مبدلة، ولا ضائعة الأصول.

لكن ما يتداوله أهل الكتاب إنما هو مكتوبات محرفة مبدلة عن أصولها الصحيحة، بتغيير وزيادة ونقص، فلا تطابق بين واقعها الذي هو في أيدي أهل الكتاب وبين ما جاء في القرآن، باستثناء القدر القليل غير المحرف منها"[2].

ويقول في موضع آخر: "أخبار الإسرائيليين في كتبهم قد دخل فيها تحريف وحذف كثير، ويصعب انتقاء الصحيح منها"[3].

فقد أقر بذلك وأكد أنها محرفة ولكنه نقل عنها!!

وصفوة القول في ذلك: أن حبنكة الميداني كان على درايته بخطر مرويات أهل الكتاب المحدق بتفسير القرآن الكريم، وقد ترجم ذلك نظريا بكثرة النصوص التي أكّد فيها على تحريفهم لكتبهم، وعلى ضرورة الابتعاد عنها، خاصة تلك التي لم يرد في النصوص الإسلامية بيان صحيح عنها، كما طبق عمليا حيث كان المفسر مقلا من ذكرها حذرا في إيرادها، فلم يذكر الروايات التي لها علاقة بأصول الدين والعقائد أو الأحكام وحتى التي لها صلة بالمواعظ والقصص كان محتاطا في ذكرها وقد كانت له وقفات محمودة في ذلك، حيث صان تفسيره في كثير من الأحيان مما لا طائل منه ويمكن الاستغناء عن معرفته، مما وقع فيه غيره من أصحاب التفاسير حيث كان ينتقي منها ويدقق فيما ينقله، وهذا الموقف يحسب

---

[1] _ يقول ابن كثير في قصة داود عليه السلام: "قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب إتباعه...فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله ﷻ"، ويقول ابن عاشور: "ولأهل القصص فيها مبالغات لا تليق بمقام النبوة"، يريد قصة أيوب عليه السلام. ينظر: تفسير القرآن العظيم، ج7، ص60/ التحرير والتنوير، ج17، ص126.

[2] _ معارج التفكر، مج6، ص360- 361.

[3] _ معارج التفكر، مج4، ص626.

له ويضفي قيمة لتدبره؛ وإن كان وقع له القليل منها وذلك متصل بحديثه عن آيات القصص وعنايته بها، حيث استهوته تفاصيلها وتسربت إلى تفسيره وكان الأولى به أن لا يقحمها في تدبره لما فيها من الخرافات والأباطيل خاصة ما تعلق بعصمة الأنبياء، ويقتصر على موطن العبرة والعظة ولا يلتفت لها أصالة، وهذه من الهفوات التي تؤخذ عليه والخطأ وارد فهو من سمات البشر، إذ أن هذه المرويات لا يكاد يخلوا منها سفر وكأن الحديث عنها أو الإشارة إليها أمر لا مفر منه فهي تعد قاسما مشتركا عند أكثر المفسرين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: علوم العربية واجتهادات المفسر.

يستلزم الحديث عن مصادر المفسر في تفسيره والطرق التي سلكها بيانا لمعاني كتاب الله ﷻ، البحث في مسألتين تكملان ما سبق بيانه جعلت كل واحدة منها في فرع مستقل؛ فالفرع الأول خُص بالحديث عن اهتمام المفسر بمصدر آخر لا يقل أهمية عن سابقيه، إذ يعد الأداة والوسيلة التي ينبغي للمفسر أن يلّم بها ويحيط بدقائقها، اللغة العربية لسان القرآن الذي به نزل.

أما الفرع الثاني فحاولت فيه أن أبرز مدى إعمال المفسر لفكره واجتهاده في تدبره لآي الذكر الحكيم.

الفرع الأول: علوم العربية.

شغلت علوم العربية حيّزا كبيرا من تفسير (معارج التفكر)، لذا كان من الصعب جدا حصر ملامح عناية مفسرنا بها في فرع واحد، فقد وظفها في تفسيره بكل فنونها واغترف من نبعها الصافي في جميع مناحي تدبره، ولكني حاولت في هذا المقام أن أركز على أهمها ضمن نواح ثلاث:

1. **الناحية اللغوية**، وتجلت في:

– بيان المفسر معاني المفردات القرآنية والاهتمام بذكر أصولها اللغوية واشتقاقاتها ليتدبر الآيات على ضوئها، وأمثلة هذا كثيرة[1] أذكر منها:

بيان معنى "الوزع" في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾[النمل: 83]، بقوله: "أصل الوزع في اللغة: الكف والحبس...والمراد هنا كفُّ الأفواج الأئمّة من المكذبين بآيات الله لدى جمعهم في مكان واحد، بعد انتزاع كل فوج من أمته التي هو منها"[2].

وعند تدبره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾[النبأ: 21] قال: "أي إن جهنم دار عذاب العصاة الظالمين يوم الدين؛ جعلها الله ﷻ موضع مراقبة أهل موقف الحساب والجزاء ورصدهم...فمن حكم الله عليه بأن يعذّب فيها جذب إليها وأدخل فيها"[3]؛ وهذا المعنى بناه على المراد من كلمة "المرصاد" الذي بيّنه قائلا: "هو في اللغة طريق، أو موضع الرصد والمراقبة، يقال لغة: "رصده، يرصده، رصْدا، ورصَدا"

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص42- ص201/ مج10، ص47- ص418/ مج12، ص62.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص188.

[3] _ معارج التفكر، مج15، ص23.

أي: قعَد له على الطريق يرقبه"[1].

– جمع المفسر بين المعاني اللغوية الواردة في اللفظ القرآني وعدم إهمال إحداها "إذا كانت ملائمة ولا تعارض بينها، وكان اللفظ قابلا عربيا للدلالة عليها"[2] لأن ذلك "من ثراء الإيجاز القرآني"[3] كما جاء على لسانه، مؤكدا على أن: "دلالة اللفظ على معْنَيَيْه فأكثر من معانيه هو ما عليه معظم الأئمة المجتهدين، ومنهم "مالك، والشافعي، وأحمد" رحمهم الله ورضي عنهم، وهو الملائم لما يفهم من كثير من الكلمات القرآنية ذوات المعاني المتعددة"[4].

فلما جاء إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾[الفرقان: 5] قال: "﴿ أَسَٰطِيرُ ﴾ تأتي في اللغة بمعنيين: فتأتي بمعنى: أباطيل، وأحاديث لا نظام لها... وتأتي بمعنى: مكتوبات الأوّلين ومسطوراتهم...

أقول: فيمكن حمل قول الذين كفروا عن القرآن: "أساطير الأولين اكتتبها" على المعنيين معا"[5].

– اختيار المفسر أحد المعاني اللغوية إذا رآه أنسب من غيره بيانا لمعنى الآية:

ومما يؤكد ذلك تدبره لقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ [يوسف:14]، حيث ذكر لكلمة الخاسر ثلاثة معان اختار منها واحد، يقول: "﴿لَّخَٰسِرُونَ ﴾ الخاسر: يأتي في اللغة بمعنى؛ المغبون في تجارته الذي نقص ماله. وبمعنى: الهالك. وبمعنى الضَّالِّ. والمعنى الملائم هنا الضالون، أي: إنا نكون حينئذ ضالين بعيدين عن المنهج القويم الذي يسلكه العقلاء الراشدون"[6].

وهو وإن رأى هذا المعنى هو الأنسب فقد خالف بذلك ما ذهب إليه من سبقه، فالخاسرون عند أكثر المفسرين هم الهالكون العاجزون المستحقون للهلاك[7]، ولم أقف على من ذهب إلى المعنى الذي

---

(1) _ معارج التفكر، مج15، ص23.

(2) _ معارج التفكر، مج12، ص747.

(3) _ معارج التفكر، مج12، ص747.

(4) _ معارج التفكر، مج12، ص63. ينظر: مج13، ص12.

(5) _ معارج التفكر، مج6، ص358.

(6) _ معارج التفكر، مج10، ص629. ينظر: مج9، ص354/ مج10، ص435/ مج12، ص62.

(7) _ ينظر: جامع البيان، الطبري، ج15، ص573/ البحر المحيط، أبو حيان، ج5، 287/ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج4، ص373/ روح المعاني الآلوسي، ج6، ص388/ تفسير المراغي، المراغي، ج12، ص119.

اختاره مفسرنا[1].

2. **الناحية النحوية:** يلتفت حبنكة -رحمه الله- في تدبره لقضايا النحو ذات الصلة بالآيات القرآنية محل التدبر، مبرزا أوجه الإعراب وما يترتب عليه من معان، وحروف المعاني وما تحمله من زيادة توضيح وبيان، مهتما بكل ما يعين على فهم الآيات والتعمق في تدبرها، وإليك نماذج من ذلك:

– عناية المفسر بإعراب المفردات والجمل وتوظيفها في بيان المعنى:

فعند تدبره مثلا لقوله تعالى: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ﴾[القصص: 32] قال: "﴿ فَذَٰنِكَ ﴾ الفاء عاطفة للتفريع على ما أجرى الله ﷻ من آيتي العصا واليد. "ذان" اسم إشارة للمثنى المذكر. والكاف لخطاب المفرد المذكر، والمشار إليه آيتا العصا واليد"[2].

– اهتمام المفسر ببيان دلالات الفعل المضارع وما يستفاد منه من معان تعين على التعمق في فهم الآيات:

ومن ذلك ما ذكره عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[الإسراء: 47] قائلا: "جاء في العبارة استعمال الفعل المضارع: ﴿ يَقُولُ ﴾[3] للدلالة على أنهم صاروا يرددونها ليشيعوها بين الناس، بينما جاءت العبارة في سورة (الفرقان/ 25 مصحف/ 42 نزول) بقول الله ﷻ:

﴿ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾[الفرقان: 8] ويظهر أنهم بعد أن قالوها إبان سورة (الفرقان) بدا لهم أن يرددوها لتكون شائعة مقبولة عند الناس، فجاء التعبير في سورة (الإسراء) بعبارة: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾"[4].

– توظيف المفسر حروف المعاني في تدبره والاسترشاد بها في فهم الآيات:

---

[1] _ وإن كان هناك إلى من ذهب معاني أخرى، قال القرطبي: "﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ أي: في حفظنا أغنامنا؛ أي إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا. وقيل: "لخاسرون" لجاهلون بحقه. وقيل : لعاجزون".
أما ابن عاشور فذهب إلى أن المراد بالخسران: "انتفاء النفع المرجو من الرجال...أي إنا إذا لمسلوبون من صفات الفتوة من قوة ومقدرة ويقظة". ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ج9، ص141/ التحرير والتنوير، ج12، ص232.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص393. ينظر: مج9، ص354- 355/ مج14، ص538.

[3] _ وفي الكتاب: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ وهو خطأ مطبعي لعدم ورود اللفظ بهذه الصيغة في الآية.

[4] _ معارج التفكر، مج9، ص643. ينظر: مج9، ص189/ مج10، ص505.

فتأمل صنيعه لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[الأنعام: 11] حيث قال: "إن مشاهدة آثار المهلكين من كفار القرون السابقة تحتاج سيرا في الأرض...وجاء العطف بحرف "ثم" الدال على التراخي في ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ لحكمتين:

الأولى: أن الآثار قد تكون بعيدة عن المدعوين للسير في الأرض، كالآثار الفرعونية...فلا ينطبق عليها العطف بالفاء، بل العطف بـ "ثم" لتدل على بعد المسافة، والمراد بالنظر نظر الأعين.

الثانية: أن من آثار المهلكين السابقين ما هو مدفون في باطن الأرض، وكشفه يتطلب تنقيبا وحفريات يقوم بها الباحثون عن الآثار، وهذا يحتاج أزمانا يلائمها التعبير بـ"ثم""[1].

– توظيف المفسر حروف المعاني لرفع الإشكال الذي قد يُتوهم في فهم الآيات:

يقول: "كثير من الناس يخطئون في فهم قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] فيرون أن اللام في ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هي لام التعليل، وأن الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق الجن والإنس لعبادته، فعصى العصاة منهم إرادة الله فيهم، وهذا المعنى مصادم مصادمة كلية لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] فلو كان مراد الله أن يكونوا عابدين، لكانوا جميعا كالملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون...والمعنى الذي انتهيت إليه، الجامع الذي تتكامل به النصوص، هو أن الله خلق الجن والإنس ليبلوهم، وهذا المعنى نافذ ومتحقق في كل مؤهل منهم للابتلاء...والمطلوب في هذا الابتلاء هو أن يعبدوه، ومعلوم أن مخالفة المطلوب ليس فيه مخالفة لإرادة الله... فاللام في قوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ هي لام المطلوب وليست لام التعليل"[2].

3. الناحية البلاغية: كُتب (معارج التفكر) بلغة عالية جزلة واضحة ولا غرو في ذلك؛ فمؤلفه من أرباب البلاغة حيث أفردها بالتأليف تنظيرا[3]، وعُني بها في تفسيره التدبري تطبيقا حيث وظف علوم البلاغة كلها من بيان وبديع ومعاني في ثنايا التدبر التحليلي، بل كان يختم حديثه عن كل سورة بملحق بلاغي يجمع فيه ما تناثر الحديث عنه في السورة في موضع واحد وهذا لتضلعه ورسوخ قدمه في هذا الفن.

---

[1] _ معارج التفكر، مج11، ص165- 166. ينظر: مج6، ص108/ مج9، ص80/ مج15، ص12.

[2] _ معارج التفكر، مج13، ص261.

[3] _ وذلك في كتابه: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها.

فنجده مثلا يقف عند قوله تعالى ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[هود: 44]، ويعنون قائلا: ما في هذه الآية (44) من إبداع بلاغي أدبي، ثم يقول: "في هذه الآية إبداعات أدبيات رائعات" ويذكر بعدها تسعة أنواع منها: ""المناسبة" التامة بين: "ابلعي" و "اقلعي" فبينهما تناسب بديع، وتلاؤم في اللفظ، وهذا يدخل فيما يسمى عند علماء البديع: "ائتلاف اللفظ مع اللفظ، وائتلاف اللفظ مع المعنى""[1].

وهذا مما ذكره في باب البديع وأمثلته كثيرة ومتنوعة، ونحوه ما ذكره في علم البيان، وعلم المعاني[2]، وتركت التمثيل في هذا المقام لأن الشيخ وفّى هذا الموضوع حقه في ثنايا التدبر وأحال عليه في الملاحق، فاستغنيت بهذه الأخيرة عن التفصيل[3].

وفي ختام الحديث عن عناية المفسر بعلوم العربية أردت التنبيه إلى عدد من المسائل التي تلحق بالموضوع:

الأولى: اهتمام المفسر بالمفهوم الشرعي للمفردات أخذا من الاستعمالات القرآنية المختلفة له، إذ يحاول التنصيص على هذا المعنى الذي تحمله اللفظة مهما دارت في القرآن الكريم كما يسعى إلى الجمع بين المعنى الاصطلاحي وبين المعنى اللغوي[4].

ومثاله قوله تعالى: "﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[يونس: 3] يقول: "فعل: "تذكر، يتذكر" ومصدره وتصاريفُه، استعمل في القرآن المجيد للدلالة على الأثر النفسي والقلبي لحضور المعلومة المطلوب حضورها في الذاكرة...

فصار هذا المراد بهذه المادة اللغوية بمثابة مصطلح قرآني، كمصطلح الصلاة، والزكاة، في الدلالة على معانيها الدينية"[5].

الثانية: استئناس المفسر في عدد من المواضع بالشعر.

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص401 وما بعدها.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص105/ مج9، ص115/ مج10، ص204/ مج11، ص123/ مج13، ص710.

[3] _ ينظر الملاحق البلاغية في آخر كل سورة، حيث لم يستغن الشيخ عنها كما استغنى عما سواها في الأجراء الأخيرة من تدبره، بل ظلت ملازمة لكل سورة يتدبرها.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص46/ مج13، ص108/ مج14، ص80.

[5] _ معارج التفكر، مج10، ص42. ينظر: مج13، ص66.

ضرب أمثلة يصدق عليها قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: 216] فذكر منها مثال حول المتعجل المغرور الذي "طلب لنفسه الشر في حقيقة الأمر، بطلبه لنفسه ما رآه بتعجله وقصر نظره خيرا له. [ومثّل لذلك بـ] قصة أمير طلب عسلا مذابا بالماء، فدسّ فيه بعض أعدائه سمّا قاتلا، فشربه متلذذا به.

فقال أعرابي فصيح علم بالأمر شعرا:

مـــن ســـيحمي نفـــس الأمـــير وقـــد شـــرب السُّـــمَّ شُـــربه العســـلا "[1].

الثالثة: حرص المفسر على التعريف ببعض أنواع علم البلاغة التي قد تخفى على العامة.

ومما يؤكد ذلك ما ذكره عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[غافر: 75]، قائلا: "بين لفظتي "تفرحون" و"تمرحون" من البديع، ما يسمى عند علماء البلاغة "الجناس المضارع" وهو ما اختلف فيه اللفظان المتشابهان في نوع حرف واحد منهما، مع تقاربهما في النطق، في الأول أو الوسط أو الآخر"[2].

وخلاصة القول في ذلك: أن الحس اللغوي الأدبي ظهر جليا في تفسير المعارج، حيث وظف حبنكة الميداني علوم العربية وأفاد منها في جميع مناحي تدبره لكتاب الله ﷻ، ولم يكن لاعتماده لترتيب السور حسب نزولها ذلك الأثر السلبي الذي يحول دون الاستفادة منها والسير على خطى سلفه في تدبرهم لكتاب الله ﷻ وإن خالفهم في طريقة ترتيب السور.

الفرع الثاني: إعمال المفسر لفهمه واجتهاده.

تدبر عبد الرحمن حبنكة –رحمه الله– أكثر سور القرآن الكريم، وكانت نزعته إلى الاجتهاد وإعمال الفكر والنظر لتدبر آيات الذكر الحكيم والتفكر في معانيها، والتبصر في حقائقها وإدراك مقاصدها بارزة في تحليلاته وتأملاته الاستنباطية، وقد تجلت بوضوح في جملة من المعالم أبرزها[3]:

– استنباط المفسر أربعين قاعدة من قواعد التفسير أثناء رحلته الطويلة في تدبر كتاب الله ﷻ،

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص119. ينظر: مج9، ص570.

[2] _ معارج التفكر، مج12، ص421. ينظر: مج12، ص126.

[3] _ وإن كان اجتهاده في التفسير داخل في جميع الطرق التي سبق ذكرها، غير منفك عنها.

جمعها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ) الذي يعد مقدمة لتفسيره، حيث سطّر وخطط فيه القواعد والأسس التي يجب التزامها من طرف المقبلين على تدبر كتاب الله تعالى.

– اختيار المفسر لتفسير السور وفق ترتيب نزولها بديلا عن الترتيب المصحفي لها، ولاشك أن هذا من أهم المواضع التي ظهر فيها إعمال المفسر لرأيه واجتهاده، وقد كان له دوافع وأسباب ومقاصد سعى إلى تحقيقها سيأتي تفصيل الحديث عنها في الفصل الموالي.

– توظيف المفسر لترتيب النزول في ثنايا تدبره التحليلي: حيث اجتهد في ترك بصمة لترتيب النزول أثناء تدبره للآيات، أردت التنبيه إليها هنا فقط وسيأتي تفصيلها في ما سيأتي من فصول الرسالة، وأكتفي هنا بضرب مثال يتضح به المراد ويتبين به المقصود.

عند تدبر المفسر لقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ﴾ [الصافات: 41- 42] يقول: "في هذا البيان إحالة على ما جاء في سورة (الواقعة) بشأن ثواب أصحاب اليمين...فقد جاء في سورة (الواقعة/ 46 نزول) قوله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة27- 33]: فالرزق الذي سبق العلم به من الفواكه هو أنه لا مقطوع ولا ممنوع...وغاب هذا المعنى عن ملاحظة المفسرين، لأنهم لم يضعوا في خطة تدبرهم ترتيب النزول"[1].

– تصريح المفسر وتنصيصه على اجتهاداته وترجيحاته في تدبره لآيات القرآن الكريم وما فتح الله به عليه من فهوم، معبرا عنها بقوله: "ظهر لي..."، "وضح لي وترجح في فهمي..."، "أرى..."، "ترجح عندي..."، "فتح الله به عليّ في فهم هذه العبارة"، وغيرها من العبارات[2].

فانظر مثلا لما جاء إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[الحجر: 87] قال: "وقد ذكر أهل التأويل وجوها متعددة لتفسير كون القرآن مثاني...والذي ظهر لي بعد النظر الطويل في تدبر آيات القرآن المجيد، أن المراد بوصف القرآن بأنه مثاني أن له سطوحا ظاهرة، وهي ما يدرك من الكلمات المقروءات في ظهر كل مثناة منه، وأن فيه مطويات في باطن الثّنيات هي محذوفات لفظا، ويمكن إدراكها ذهنا، عن طريق اللوازم الفكرية، أو الدلالات اللفظية، كحرف جر، أو حرف

---

[1] _ معارج التفكر، مج11، ص573.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص36/ مج9، ص704/ مج10، ص142- ص221- ص322/ مج11، ص88- ص391- ص656/ مج13، ص225- ص351- ص438.

عطف...وكملء فراغات القصص القرآنية بعضها من بعض...وكل ذلك من الإعجاز الإيجازي في القرآن المجيد"[1].

– موقف المفسر من أقوال من سبقه من المفسرين، وذلك من خلال: نقده وتعقيبه، مناقشته واختياره، موافقته ومخالفته لها:

فهو يستأنس بأقوالهم ولا يهملها أحيانا' ويحاول الجمع والتوفيق بين ما ذهبوا إليه أحيانا أخرى، ويخالف ويستبعد ما ذهبوا إليه في فهم الآيات في كثير من المواضع، بل نجده يذهب إلى أبعد من ذلك بوصفه الأقوال المأثورة عند قدماء المفسرين بأنها قاصرة أو أنهم لم ينتبهوا إلى المعنى الذي بدا له فكانت لهم آراء متكلفة لا يحتملها النص[2].

يقول مبيّنا معنى "الإثم" في قوله تعالى: ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: 120] "هو في اللغة الذنب، وباستقراء لفظة الإثم في القرآن الكريم، وجدت أنها تستعمل للدلالة على جميع المعاصي التي نهى الله عنها...وما جاء في الأقوال المأثورة عن قدماء المفسرين أقوال قاصرة عن دلالة هذا الاستقراء القرآني لاستعمال مادة الإثم ومشتقاتها، وما دل عليه هذا الاستقراء هو الذي يجب اعتماده"[3]، فهو يعتد برأيه ويرى أنه هو الذي يجب المصير إليه، ونجده في موضع آخر يشير إلى أن المعنى الذي ذهب إليه لم يخطر في بال أهل التفسير[4]، وفي آخر يصرح بأن المعنى الذي ذهب إليه لم يُسبق إليه[5].

– اجتهاد المفسر في إسقاط معاني الآيات التي يتدبرها على واقعه المعيش، علاجا لمشكلات الأمة وما تعانيه من خطوب، فهو يحاول في عدد من المواضع أن يربط الآيات بالواقع ويسقطها على ما يعيشه الناس في زمانه[6]؛ ومثاله ما ذكره من صور التبذير المعاصرة عند تدبره لما جاء النهي عنه في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[الإسراء: 26- 27]

---

[1] _ معارج التفكر، مج11، ص88- 89.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج5، ص88/ مج6، ص94- ص100/ مج9، ص66- ص380- ص588/ مج10، ص505/ مج11، ص202/ مج14، ص86.

[3] _ معارج التفكر، مج11، ص405.

[4] _ معارج التفكر، مج11، ص345.

[5] _ معارج التفكر، مج6، ص457.

[6] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص550- ص675/ مج13، ص94/ مج15، ص103.

حيث مثّل له قائلا: "فمن التبذير إنفاق الأموال في شراء المسكرات، والمخدّرات... ومن التبذير ما يزيد على حاجات المدعوين في الولائم، ثم يُرمى الزائد في القمامات، ومن التبذير إنفاق أموال كثيرة في إطلاق قذائف نارية تُرِي في الجو ما يعجب النظر، وتنطفئ في عدد من الثواني..."[1].

– تنبيه المفسر إلى ما تتضمنه الآيات من قيم سلوكية وأخلاقية وحضارية، مع بيان أثرها وأهميتها في حياة الأفراد والمجتمعات.

فمثلا لما وصل إلى قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[الأعراف: 3]، عنون لما يريد بيانه بـ "قيمة التذكر وأثره في السلوك" وقال: "لما كان الذي يحرك شيئا من جوانب النفس إقبالا أو إدبارا بعاطفة من العواطف، أو انفعال من الانفعالات، ويحرك إرادتها...لابد أن يمر في ساحة التذكر الحاضر، كان من الحكمة في البيان القرآني التنبيه على قضية التذكر للمعارف والقضايا الدينيّة"[2].

والقارئ لتفسير المعارج يستشعر ذلك الحس الدعوي الذي تميّز به مفسرنا فهو يحاول دائما توجيه القارئ ببث القيم والإرشاد إلى فضائل الأخلاق، فلا يُغفل تلك العبر والعظات التي تبوح بها الآيات، بل يحاول إيصالها وتبليغها بأحسن الأساليب[3].

وهذه أهم الملامح التي برز فيها رأي المفسر واجتهاده وإن كان يميل إلى الاجتهاد في جميع نواحي تدبره لكتاب الله ﷻ.

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص603.

[2] _ معارج التفكر، مج4، ص65 وما بعدها.

[3] _ ينظر: معارج التفكر، مج4، ص78/ مج6، ص224/ مج9، ص617.

وفي الختام أقول: سار عبد الرحمن حبنكة الميداني في خطى تدبره على منهج بناه على مصادر أصيلة وطرق عدّها العلماء من أحسن طرق التفسير، وقد أجاد في توظيفها في كثير من الأحيان فعُد ذلك من مزايا تدبره، كما وقع في بعض الهفوات التي لا يكاد يخلو كتاب في التفسير منها.

فهو وإن خالف المفسرين باعتماده على الترتيب النزولي بديلا عن الترتيب المصحفي فإن ذلك لم يؤثر سلبا في قضايا المنهج، حيث لم يظهر في التفسير مصادر وطرق مبتدعة جديدة لم تعرف عند السلف.

وقولي هذا لا ينفي وجود بعض المواضع التي برز فيها تأثير ترتيب النزول وعلى رأسها تفسير القرآن بالقرآن، حيث ترك بصمة في تعامل المفسر معه فكان ذلك من العناصر التجديدية الترتيبية في التفسير، أضف إليه توظيفه له في تحليلاته وتأملاته الاستنباطية.

فالكتاب إذن بالرغم من تلك المآخذ التي سجّلت عليه فهي قليلة قياسا على ما اشتمل عليه من علوم ومعارف، ولا يكاد يوجد كتاب في التفسير سلم منها جميعا.

يقول الخطيب البغدادي[1]: "ولا أعلم في التفسير كتابا مصنفا سلم من علة فيه أو عُري من مطعن عليه"[2].

---

[1] _ هو: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن احمد بن مهدي بن ثابت البغدادي، المعروف بالخطيب، ولد سنة: 392هـ وكان من العلماء الحفاظ المتقنين، من مؤلفاته: تاريخ بغداد، الكفاية في علم الرواية، توفي سنة: 463هـ. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ج44، ص29/ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج1، ص93.

[2] _ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ج2، ص163.

الفصل الثالث:

الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)

المبحث الأول: اختيار المفسّر ترتيب السور وفق نزولها واقعه، وأسسه، ومبرراته

المبحث الثاني: ملامح التفسير وفق الترتيب النزولي للسور في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) -عرض وتقويم-

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

حمل راية تفسير كتاب الله ﷻ علماء أجلاء أفنوا أعمارهم في خدمته، ووقفوا حياتهم بيانا لمعانيه والكشف عن حقائقه والوقوف على هداياته، لتتواصل جهودهم بجهود السابقين من السلف، وتتصل جهودهم باللاحقين من الخلف.

واهتم الجميع بالترتيب المصحفي حتى اقترن تفسير القرآن الكريم به، إلّا أنه ظهر في العصر الحديث من خالفهم واستحدث طريقة جديدة فسّر فيها السور وفق ترتيب نزولها أمثال محمد عزة دروزة في كتابه (التفسير الحديث)، وعبد القادر ملا حويش في (بيان المعاني)، وبعدهما (تفسير القرآن المرتب) لأسعد علي، وقد وُجهت لها انتقادات حادة، وكانت نظرة العلماء لهذا الصنيع تشوبها مخاوف ومحاذير من المساس بسلامة القرآن الكريم وتعريضه للتحريف والتبديل.

ورغم هذه المخاوف فقد أقدم عبد الرحمن حبنكة الميداني بعد قرابة نصف قرن من ظهور النواة الأولى للتفسير وفق ترتيب نزول السور على خوض غماره وتدبر القرآن الكريم على وفقه، وكان ذلك في أواخر سنوات حياته بعد مسيرة علمية حافلة بالعلم والتعليم، في سفر سماه: (معارج التفكر ودقائق التدبر) وهو تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ).

وتوضيحا لما ذكرت آنفا فقد رأيت من الضروري الوقوف على:

– واقع اختيار المفسر لترتيب النزول في تدبره لسور القرآن الكريم وبيان الأسس العامة له، ثم الكشف عن أسباب ومبررات تمسكه به.

– تطبيقات المفسّر لترتيب النزول في ثنايا تدبره لآيات الذكر الحكيم، والإشارة إلى مدى تفاعله معه.

المبحث الأول:

اختيار المفسر ترتيب السور وفق نزولها واقعه، وأسسه، ومبرراته.

مال عبد الرحمن حبنكة الميداني في مؤلفاته إلى الاجتهاد وسعى إلى بحث واكتشاف ما لم يُسبق إليه في فهم الدين والقرآن الكريم[1]؛ ويشهد لذلك تفسيره التدبري الذي سعى إلى أن يكسوه الجديد في شكله ومضمونه، فاختار الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم بدلا عن الترتيب المصحفي.

وهذا المبحث معقود ومبسوط للحديث عن أهم القضايا المرتبطة باختياره وقد وزعت عناصره على مطالب ثلاثة؛ مهّدت في الأول منها للموضوع بالحديث عن عناية السلف بترتيب نزول السور في تفاسيرهم وفق الترتيب المصحفي، ثم عن أصالة فكرة ترتيب السور وفق نزولها عند المفسر وكذا التأصيل لها، وأوضحت في الثاني الأسس العامة التي بنى عليها المفسر اختياره، وختمت بالمطلب الثالث الذي جعلته لعرض أسباب ودوافع اختياره له ثم تقويمها.

[1] _ فقد كان حريصا على بيان كل ما يرى أنه اكتشفه ولم يسبق إليه، وقد نبهت لذلك زوجته فيما كتبته عنه في حياته فذكرت جملة منها، كما تحدث عنها تلميذه مجد مكي. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص41 وما بعدها/ التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، ص34 وما بعدها.

المطلب الأول: التفسير وفق ترتيب النزول بين الأصالة والتأصيل.

أردت في هذا المطلب التمهيد لما سيطرق بابه في ثنايا الفصل محل الدراسة، وذلك بالحديث عن عدد من المسائل التي نثرت مادتها على فروع ثلاثة؛ خصصت الأول منها للحديث عن سبق السلف إلى العناية بترتيب النزول في تفاسيرهم، وأظهرت في الثاني أصالة فكرة ترتيب السور حسب نزولها عند المفسّر، أما الثالث فجعلته للحديث عن التأصيل العلمي لهذه الفكرة واعتمادها أثناء تدبر سور القرآن الكريم.

الفرع الأول: سبق السلف إلى العناية بترتيب نزول السور في تفاسيرهم.

تزخر المكتبة القرآنية عامة والتفسيرية على وجه الخصوص بكم هائل من التفاسير التي حمل عدد منها بين طيّاته إشارات يحسن الانطلاق منها إثباتا لعناية السلف بترتيب النزول في تفسيرهم للقرآن الكريم وفق الترتيب المصحفي، ونفيا لمن يدّعي أن العناية به جاءت متأخرة وأنه لم يُعرف إلا عند المتأخرين من المعاصرين.

ولعل أول ما يحسن الانطلاق منه في هذا المقام ذلك الأثر الثابت عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ والذي أقسم فيه قائلا: "والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه"[1].

وهذا خير شاهد على العناية المبكرة بتفاصيل نزول القرآن الكريم ولاشك أن منها معرفة ترتيب نزول سوره وآياته، وإن كان لم يصلنا ترتيب ثابت مقطوع به لكل سور القرآن الكريم كما سبق التفصيل في ذلك.

يقول ابن جزي: "وكان القرآن على عهد رسول الله ﷺ متفرقا في الصحف وفي صدور الرجال، فلما توفي رسول الله ﷺ قعد علي بن أبي طالب ﷺ في بيته، فجمعه على ترتيب نزوله، ولو وجد

---

[1] _ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، باب: القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم: 5002، ج6، ص187.

مصحفه لكان فيه علم كبير، ولكنه لم يوجد"[1].

ومن ثمّ فإن العناية بتاريخ النزول والحرص على معرفة تفاصيله تزامنت مع نزول الوحي؛ وما يهمنا في هذا المقام هو البحث في تفاسير السلف تأكيدا على العناية المبكرة بمراعاة ترتيب النزول.

أقول وبالله التوفيق:

عُني المفسرون من السلف ومن جاء بعدهم بتاريخ نزول السور والآيات وتناثر تطبيقه في ثنايا تفاسيرهم، بل عُدَّ من قواعد الترجيح عندهم؛ "فإذا اختلف العلماء في تفسير آية من كتاب الله، فالقول الذي يوافق تاريخ نزول الآية هو القول الراجح، والقول الذي يخالف تاريخ نزولها، ولا يتفق معه فهو قول ضعيف أو مردود"[2] كما جاء على لسان حسين الحربي، والذي بيّن العمدة فيه قائلا: "فالعمدة على ثبوت تاريخ الآية المفسَّرة، سواء استقلت بتاريخ غير تاريخ بقية السورة، أو كان تاريخها هو تاريخ نزول السورة.

ولا أعني بالتاريخ ضرورة معرفة الساعة واليوم والعام، بل قد يكفي في التاريخ مرحلة زمنية كالعهد المكي قبل الهجرة، أو حادثة معينة كالإسراء...أو القبلية والبعدية بالنسبة لسورة أخرى، كأن يقال سورة كذا نزلت قبل سورة كذا"[3].

وهذا الجزء الأخير من كلامه هو الذي أردت التنبيه إليه[4]، إذ به يتضح المراد بيانه في هذا المقام، وإليك أمثلة من صنيع المفسرين تطبيقا له:

– قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام: 119].

اختلف المفسرون في المحال عليه في هذه الآية على أقوال منها:

ما ذكره الرازي قائلا: "قوله ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أكثر المفسرين قالوا: المراد منه قوله تعالى في أول سورة المائدة ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾[المائدة: 3] وفيه إشكال: وهو أن سورة

---

[1] _ التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص12.

[2] _ قواعد الترجيح، ص258.

[3] _ المرجع نفسه، ص260.

[4] _ لتفصيل الحديث في العناية بتاريخ النزول عند المفسرين. ينظر: أثر التاريخ في تفسير القرآن الكريم، عبد السلام بن صالح، ص22 وما بعدها (مقال)/ اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح، محمد بن زيلعي، مج1، ص179- 180/ قواعد الترجيح، حسين الحربي، ص258 وما بعدها.

الأنعام مكية وسورة المائدة مدنية، وهي آخر ما أنزل الله بالمدينة، وقوله ﴿ وَقَدۡ فَصَّلَ ﴾ يقتضي أن يكون ذلك المفصل مقدما على هذا المجمل والمدني متأخر عن المكي والمتأخر يمتنع كونه متقدما، بل الأولى أن يقال المراد بعد هذه الآية: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ ﴾[الأنعام: 145]"[1].

ويقول القرطبي في تفسيره للآية: "قيل: ﴿فَصَّلَ ﴾ بيّن، وهو ما ذكره في سورة (المائدة) من قوله: ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ ﴾[المائدة: 3].

قلت: هذا فيه نظر؛ فإن (الأنعام) مكية، و(المائدة) مدنية، فكيف يحيل البيان على ما لم ينزل بعد"[2].

ومما سبق يظهر كيف تم استبعاد أن يكون المراد بآية سورة (الأنعام) ما جاء تفصيله في سورة (المائدة) لأن الأولى مكية والثانية مدنية، ومن ثمّ فقد وظّف المفسران ترتيب نزول السورتين في إهمال وعدم اعتبار أحد الأقوال المشهورة في تفسير الآية[3].

– قوله تعالى: ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ ﴾[النساء: 140].

قال ابن كثير: "أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها، وأقررتموهم على ذلك، فقد شاركتموهم في الذي هم فيه...في المأثم...والذي أحيل عليه في هذه الآية من النهي في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام وهي مكيّة ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ ﴾[الأنعام: 68]"[4].

من هذا النقل يتضح أن المفسر أثناء تدبره لسورة مدنية وهي سورة (النساء) استند في بيان المراد والمحال عليه في الآية إلى ما نزل قبل هذه السورة وهي سورة الأنعام (المكية)، مع أن هذه الأخيرة في

---

(1) _ مفاتيح الغيب، ج13، ص129.

(2) _ الجامع لأحكام القرآن، ج7، ص37.

(3) _ إذ الإحالة على سورة (المائدة) جاءت عند عدد من أعلام المفسرين وعلى رأسهم ابن جرير الطبري، أما مفسرنا فقد استند على قول الرازي في بيان معنى الآية وإن لم يصرح بذلك، يقول: "وقد فصل لكم في هذه السورة التي نزلت جملة واحدة، ما حرم عليكم أكله من الحيوانات، وهذا التفصيل نجده في الآية (145) الآتية، والإحالة عليها لا إشكال فيه، ولو كان ترتيبها بعد نحو (25) آية، لأن السورة نزلت جملة واحدة". ينظر: جامع البيان، ج12، ص69/ معارج التفكر، مج11، ص404.

(4) _ تفسير القرآن العظيم، ج2، ص435.

الترتيب المصحفي والذي اعتمده في تفسيره للقرآن الكريم رُتّبت بعد السورة التي كان بصدد تفسيرها، وهذا دليل على اعتباره لزمن وترتيب نزول السور أثناء تفسيره لها.

وفي موضع آخر قرن –رحمه الله– بين سبب النزول وترتيب النزول، يقول عند ذكره لسبب نزول مشروعية التيمم لما وصل إلى تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 43]: "إنما ذكرنا ذلك هاهنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة[1]، وبيانه أن هذه نزلت قبل تحتم تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير بعد أحد بيسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل، ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب هاهنا، وبالله الثقة"[2]. وبعد ذلك استرسل في ذكر ما روي سببا للنزول.

ومما لابد من التنبيه إليه هنا أيضا أنّ عددا من العلماء اعتمد الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم في بحث موضوع معين من القرآن الكريم ذاته، ولعل خير ما نمثل به في هذا المقام هو صنيع ابن القيم في حديثه عن التدرج في تشريع الجهاد، حيث تتبع مراحل فرضه على المسلمين بدئا بما نزل من الوحي بمكة إلى أن جاء التصريح به في المدينة ووفاه حقه إيضاحا وبيانا، حيث عقد له فصلا جعله بعنوان "ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله ﷻ"[3].

وبعد هذا العرض يتضح أن فكرة اعتماد ترتيب نزول سور القرآن الكريم أو تاريخ النزول عامة كانت موجودة عند من ألف وفق الترتيب المصحفي من السلف ومن جاء بعدهم، إذ كانت من الأدوات التي استعانوا بها بيانا لمعاني الآيات، وإن كانت عنايتهم بزمن نزول الآية أو السورة أكثر من اهتمامهم بالبحث في الترتيب النزولي لجميع سور القرآن الكريم سورة سورة.

وهنا أردت التنبيه إلى أني قصدت الاختصار في بيان سبق السلف إلى العناية بالترتيب النزولي، لأن البحث في جهود المفسرين في عنايتهم به بشكل عام طويل السلم، والحديث عنه شيّق ماتع، ويستحق أن يفرد ببحث مستقل فأسأل الله آن يوفقني للكتابة والتفصيل فيه مستقبلا.

---

[1] _ يقصد قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِ﴾[المائدة: 6].

[2] _ تفسير القرآن العظيم، ج2، ص435.

[3] _ زاد المعاد في هدي خير العباد، ج3، ص143 وما بعدها.

الفرع الثاني: أصالة فكرة تدبر السور وفق ترتيب نزولها عند المفسر.

تقتضي طبيعة البحث العلمي عن مسألة التنقيب عن المنابع الأولى لها، لاسيما إذا تعلق الأمر بمسألة جوهرية بُني عليها تفسير القرآن الكريم كاملا.

لذا آثرت قبل الخوض في غمار الحديث عن تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول عند مفسرنا، البحث عن أصول الفكرة عند الرجل هل ظهرت عنده قبل أن يؤلف في تدبر القرآن الكريم كاملا، بمعنى أنّها كانت لها تطبيقات قبل ذلك مهدت لظهور تفسير المعارج؟ أم أنّها اقترنت به فقط حيث أُعجب بالفكرة فكان مقلدا لمن فسّر قبله وفق ترتيب نزول السور؟

أقول وبالله التوفيق:

حرصت على تتبع أصول فكرة ترتيب السور حسب النزول فيما خلفه الشيخ من موروث علمي وفيما كُتب عنه، ونظرت فيها عساني أقف على البذور الأولى لهذه الفكرة ومصدرها؛ وقد توصلت إلى حقيقة مفادها أنّ هذه الفكرة لم تأت فجأة ولا نزوة في آخر حياته، بل يمكن القول إن تأليفه في تدبر القرآن الكريم كاملا تأخر، لكن فكرته كانت قبل ذلك بسنوات عديدة، وتجسدت في ناحيتين:

الأولى: الناحية الشفاهية.

حيث كان للشيخ –رحمه الله– برنامج إذاعي أسبوعي يُلقيه من المملكة العربية السعودية، يتدبر فيه كتاب الله ﷻ وفق الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، استمر أكثر من خمسة عشرة عاما كما جاء على لسان زوجته[1]، وإن كانت لم تحدد بدقة تاريخ الانطلاق فيه وإنّما ذكرت مكان إلقائه الذي نستخلص منه أنّه بدأ فيه بعد سنة 1387هـ/ 1967م[2].

وقد سُئل المفسّر قبل وفاته بثلاث سنوات عن تاريخ بدايته في التفسير فأجاب عن ذلك بما أثار استغراب السائل، الذي يقول: "إلا أنّ الأستاذ حبنكة أخبرني خلال لقاء جمعني معه في مدينة دبي سنة 2001م، أنه بدأ بالتفسير قبل 26 عاما، أي حوالي سنة 1975م، وذلك قبل صدور الطبعة الأولى

---

[1] _ ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص46.

[2] _ وهو تاريخ انتقال الشيخ إلى المملكة العربية السعودية. ينظر: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص19/ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ج3، ص60- 61.

من قواعده التي طبعت لأول مرة سنة 1980؟!"[1].

والعجب في ذلك كيف بدأ بالتفسير في تلك الفترة وهو لم يؤلف حتى كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، الذي سبق تأليف (معارج التفكر) بسنوات عديدة![2].

وأظن أنّ الشيخ –رحمه الله– أخبر طه محمد فارس عن تاريخ نضج فكرة التفسير في ذهنه، وعن بداية تجسيدها في البرامج الإذاعية وغيرها، أي الجانب الشفهي الذي لم يقترن بالتدوين وهو الذي يمكن اعتباره أصل الفكرة ومنطلقها.

وصفوة القول في ذلك أنّ البدايات الأولى للتفسير وفق ترتيب النزول عند المفسر كانت لها أصول شفاهية، اهتدى إليها الشيخ بعد خروجه من بلده لما لقيه فيها من تضييق وصد من قبل السلطات السورية[3]، إذ المفسّر ابن بيئته يتعايش مع هموم الأمة ويتفاعل مع قضاياها، ويمكن اعتبار ما كان يعانيه واقعه من أبرز العوامل التي دفعت بالشيخ إلى البحث عن طريقة جديدة تقرب النّاس من أجواء النزول القرآني علاجا لمشكلات عصره وأمته.

وهو الذي يحكي بنفسه عن واقعه فيقول: "بالنظر إلى واقع دول وشعوب الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر، البعيد عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الأنظمة والقوانين منذ عهد بعيد، حتى صار حالها مماثلاً لأحوال أمة دخلت في الإسلام حديثاً، مبتدئة بالقاعدة الإيمائية، فالصلاة بصورة افرادية لا إلزام بها من قبل السلطة الإدارية.

وبالنظر إلى ضغوط الدول العظمى في العالم على المسلمين، ومؤامراتها الكيدية في كل مكان...

فالذي ينبغي لأهل العقل والرأي السديد، والرشد والحكمة اتخاذه...أن يعمدوا إلى سنة التدرج التي...رأينا فيها أن الحكمة في السياسة الشرعية تقتضي الالتزام بها، لدى إصدار القوانين والأنظمة والقرارات..."[4].

---

[1] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص765.

[2] _ حيث كتب في مقدمة الطبعة الأولى للقواعد: سنة 1399هـ/ 1979م، وبدأ في تفسير المعارج سنة 1414هـ/ 1998م كما أثبت في المقدمة العامة للكتاب. ينظر: قواعد التدبر الأمثل، ط1، ص8/ معارج التفكر، مج1، ص6.

[3] _ ينظر تفصيل الحديث عن تلك الفترة وما لقيه عبد الرحمن ووالده فيها: عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص19/ علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ج3، ص60- 61.

وقد فصّل باسم فارس في عصر المفسر –رحمه الله– وجمع أهم مظاهر الحياة فيه بما يفي بالغرض، ويغني عن بحثه هنا أو الزيادة عليه. ينظر: القضايا العلمية في تفسير "معارج التفكر ودقائق التدبر"، ص3 وما بعدها.

[4] _ الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق، ص49.

الثانية: التدوين والتأليف.

لما رجعت إلى مؤلفات المفسّر ورتبتها زمنيا حسب تاريخ صدورها انطلاقا من كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها)، وجدت أنّ عنايته –رحمه الله– بترتيب السور وفق نزولها تزامنت مع البدايات الأولى له في التأليف، حيث كان يشير عند استشهاده بالآيات إلى ترتيبها في المصحف ثم إلى ترتيبها في النزول، وهو وإن لم يُطبِّق ذلك في أوّل مولود له من كتبه[1]، فإنّه اعتمد ذلك في المؤلفات التي صدرت بعده مباشرة، منها كتاب (أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير– الاستشراق– الاستعمار))[2].

والذي تحدث فيه عن عدد من المواضيع منها ما عنون له بـ "الوسائل الرئيسية للغزو الفكري"[3]، يقول في الوسيلة الأخيرة: "الوسيلة الثامنة: استخدام الخطوات المتدرجة للنقل من موقع فكري إلى موقع فكريّ آخر...ومن الخطوات المتدرجة التحريف في مفاهيم الإسلام شيئا فشيئا، على فترات زمنية متباعدة.

وهذه الوسيلة هي من وسائل الشيطان التي حذّرنا الله منها، في أربعة مواضع من القرآن الكريم:

الموضع الأول: في سورة (الأنعام/ 6 مصحف/ 55 نزول) المكية، وفي سياق التحذير من تحريم ما أحلّ الله من بهيمة الأنعام، فقال الله تعالى فيها خطابا للناس عامة:

﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾[الأنعام: 142].

وفي هذا دلالة على أن للشيطان خطوات يبدأ فيها بتزيين تحريم بعض ما أحل الله، ثم ينتقل إلى تزيين تحريم أمر آخر...وتستمر الخطوات تتتابع حتى يكون الشيطان هو معبود الناس...

الموضع الثاني: في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول) أوّل سورة مدنية، وقد أتبع الله النهي عن اتّباع خطوات الشيطان ببيان أن الشيطان يأمر بالسوء والفحشاء والافتراء على الله...

---

[1] _ أقصد كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها) الذي صدرت أول طبعة له سنة 1385هـ/ 1966م. ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص10/ عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص57.

[2] _ "تزامن صدور هذا الكتاب مع بدء وعي الأمة الإسلامية لما يحاك ضدها من مؤامرات تجاوزت الغزو المادي المسلح إلى غزو معنوي خطير جدا...الأمر الذي حاد (بالشيخ) لينبري لتعرية هذا الغزو وبيان خطورته...فقد عمد...إلى الكتابة عنها وإذاعتها...لمدة عامين متتاليين: من عام 1388_ 1389هـ، الموفق 1968_ 1969م". عبد الرحمن حبنكة الميداني، عائدة الجراح، ص118. ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، حبنكة الميداني، ص13.

[3] _ المرجع نفسه، ص47.

فقال الله ﷻ فيها خطابا للناس أجمعين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: 169].

الموضع الثالث: في سورة (البقرة) أيضا...

الموضع الرابع: في سورة (النور/ 24 مصحف/ 102 نزول) المدنية، في سياق عرض قصة الإفك على أم المؤمنين عائشة ﵂...والتحذير من إشاعة الفاحشة...ونشر شائعات السوء، لأن ذلك من الخطوات التي تشجع على ارتكاب الفاحشة...فقال الله تعالى فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾[النور: 21]"[1].

ومن هذا المثال يمكن تسجيل عدد من النقاط:

– ربط المفسّر المواضيع التي يدرسها بما جاء في القرآن الكريم، حيث نلاحظ هنا كيف تدرج في حديثه حتى قرنه بآيات الذكر الحكيم، فالموضوع وسائل الغزو الفكري التي منها استخدام الخطوات المتدرجة للنقل من موقع فكري لآخر التي منها التحريف في مفاهيم الإسلام، وهذه الأخيرة من وسائل الشيطان التي حذّر الله منها في أربعة مواضع.

– بيان نوع السورة مكية أو مدنية، دليل على اجتهاده واختياره لترتيب معين اعتمد عليه منذ بداياته الأولى في التأليف.

– تعليق الشيخ على الشواهد القرآنية بذكر ترتيب السورة في المصحف أولا ثم ترتيبها في النزول.

– ترتيب المواضع الأربعة اعتمادا على الترتيب النزولي للسور التي تندرج تحتها الآيات محل الاستشهاد.

– جمع آيات الموضوع الواحد "وسائل الشيطان التي حذر الله منها" وتدبرها.

وهذه النقاط وغيرها تؤكد العناية المبكرة للشيخ بالتفسير وفق الترتيب النزولي للسور، فبذوره ظهرت مع اللّبنات الأولى له في التأليف، فلو لم يكن بَحث المسألة واختار ترتيبا نزوليا معينا لما تمكن من تحديد نوع السورة وذكر ترتيبها.

---

[1] _ أجنحة المكر الثلاثة، ص50 وما بعدها.

وما أشرت إليه لم يظهر في هذا الكتاب فحسب بل كان بارزا في جل مؤلفاته في الدراسات الإسلامية عامة[1]، وفي الدراسات القرآنية على وجه الخصوص[2]، رغم كِبر أحجامها وكثرة الشواهد القرآنية فيها.

فالرجل لما تبنى الفكرة ظهرت مباشرة في مؤلفاته؛ ومن ثمّ فإن ملامح الترتيب التاريخي للسور ظهرت قبل تفسيره التدبري، بل وحتى قبل كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)[3] الذي اعتمد فيه الفكرة وأقرّها إذ جعلها من القواعد التي ينبغي على متدبر كتاب الله أخذها بعين الاعتبار، وهي القاعدة التاسعة "حول تتبع مراحل التنزيل" التي دعا فيها إلى ضرورة تتبع مراحل التنزيل المكية والمدنية[4].

وقد استعجل عدد من الباحثين في الحكم على البدايات الأولى لهذه الفكرة ومدى توظيفها في مؤلفاته، وإليك ما قاله اثنين منهم:

الأول: وهو طه محمد فارس في قوله "ومن خلال تتبع مؤلفات حبنكة التي انصبت على الدراسات القرآنية والإسلامية، نجد أنه لم يمارس فكرة تتبع المراحل الزمنية للتنزيل بشكل عملي إلا بعد ظهور الطبعة الثانية من قواعد التدبر الأمثل، أي بعد عام 1989م، أما كتبه التي ظهرت قبل ذلك فلم يكن يهتم فيها بجانب ترتيب النزول للسور أو يشير إليه"[5].

والرد على ذلك أنّ تتبعه كان ناقصا فقد غاب عنه إشارات واضحة من الشيخ إلى ترتيب النزول تؤكد اقتناعه بالفكرة قبل ذلك بكثير؛ بل تدل على بداية العناية به واعتماده في دراسة موضوعات القرآن الكريم، وما سبق عرضه يُؤكد هذا.

أما كتابه القواعد فقد ظهرت الفكرة فيه بشكل واضح في محاولته التأصيل لها بعد أن نضجت في ذهنه.

---

(1) _ ينظر: كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، ص116- ص120- ص139 وما بعدها/ البلاغة العربية، ج1، ص49-50/ ج2، ص21 وما بعدها.

(2) _ ينظر: نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، ص5 وما بعدها/ ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، ج1، ص108-ص585.

(3) _ طبع لأول مرة سنة: 1400هـ. ينظر: قواعد التدبر الأمثل، ص12.

(4) _ ينظر: قواعد التدبر الأمثل، ص151.

(5) _ تفاسير القرآن حسب ترتيب النزول، ص764.

الثاني: وهو عبد الرحمن نصر الذي علق قائلا: "ولكن إحقاقا للحق ومن باب الأمانة في النقل والبلاغ، فإن للرجل كذلك آثارا علمية كبيرة الحجم، تجاهل ولم يذكر فيها هذا التعليق، ولم يشر من قريب أو من بعيد إلى رقم السورة في المصحف ولا في ترتيب النزول.

ومن هذه المؤلفات ما يلي: الأخلاق الإسلامية وأسسها...العقيدة الإسلامية وأسسها...مكايد يهودية عبر التاريخ...غزو في الصميم...البلاغة العربية"[1].

وأقول إحقاقا للحق كان ينبغي على من يجزم بهذا ويصدر أحكام نهائية أن يُراجع المسألة في جميع تلك المؤلفات؛ إذ لو صنع الباحث ذلك لتبيّن له خلاف ما قال في عدد منها.

وقد تعجبت لقوله خاصة لما رجعت إلى كتاب البلاغة العربية الذي ظهر فيه اعتماد الشيخ لترتيب النزول وليس فقط الإشارة إليه[2]، وتأمل صنيعه كذلك في كتابه (غزو في الصميم) حيث قال: "خاطب الله رسوله محمدا ﷺ في سورة (القلم) وهي ثاني سورة نزلت من القرآن بقوله: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾[القلم: 46]. فكان هذا أوّل ما نزل في هذا الموضوع...[يقصد اتهام الرسل بالمصلحة الشخصية] ثم أمر الله رسوله ﷺ بأن يصرح لقومه بأنه لا يسألهم أيّ أجر على نصحه في دعوته، فأنزل عليه قوله في سورة (ص): ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[ص: 86-87] ...[ثم ذكر كل الآيات التي تخدم الموضوع مرتبا سورها على وفق نزولها، وبعدها قال:] فاكتمل بذلك عقد الموضوع من كلّ أطرافه، وظهرت حركيّة التربية في مراحلها الزمنية، خلال المدّة المكيّة من دعوة الرسول ﷺ"[3].

أما باقي ما ذكره فأوافقه فيما ذهب إليه إذ غيّب الشيخ حتى الإشارة إلى ترتيب نزول السور[4].

وخلاصة القول في ذلك: أنّ فكرة التفسير حسب ترتيب النزول أصيلة عند مفسرنا، فهو لم يتسرع في كتابة التفسير فشرع فيه بمجرد ظهور الفكرة في ذهنه ولا حتى بعد إقرارها قاعدة من (قواعد التدبر الأمثل)، بل حتى جسّدها وطبقها تطبيقا عمليا في عدد من المؤلفات، فنضجت الفكرة واستوت على سوقها وختمت وتوجت بتفسيره (معارج التفكر).

---

(1) _ عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، ص479.

(2) _ ينظر: البلاغة العربية، ج2، ص33 وما بعدها- ص323 وما بعدها.

(3) _ غزو في الصميم، ص125 وما بعدها. ينظر: المرجع نفسه، ص154- ص188.

(4) _ ينظر: العقيدة الإسلامية وأسسها، ص99- ص616/ مكايد يهودية عبر التاريخ، ص27- ص78/ الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج1، ص578- ج2، ص17.

الفرع الثالث: التأصيل لفكرة التفسير وفق ترتيب النزول عند المفسر.

تأكّد مما سبق أنّ عناية مفسرنا –رحمه الله– بفكرة ترتيب السور وفق نزولها عريقة الأصول تزامنت مع البدايات الأولى له في التأليف، ثم تجسدت بإقراره لها ضمن (قواعد التدبر الأمثل) ليطبقها مراعيا في الفهم مراحل التنزيل في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر)؛ فسلك بذلك طريقة التفسير وفق ترتيب نزول السور، وهذه الأخيرة لم تعرف عند السلف ولم تحظ بالدراسة الكافية تنظيرا وتطبيقا عند الخلف، مع أنّها بحاجة ماسة إلى أصول وأسس تضبط مسارها، كان يفترض على من تبناها واقتنع بها أن يُفصح عنها، وخاصة مفسرنا الذي جاء تفسيره بعد ثلاثة تفاسير معاصرة لقيت اعتراضا كبيرا وتخوفا من المساس بسلامة القرآن الكريم، وأُخذ عليها أنّها اتبعت التفسير وفق ترتيب النزول قبل أن تؤسس له.

وفي هذا العرض حديث عن مسألة التأصيل العلمي للتفسير وفق ترتيب النزول عند مفسّرنا، والتي آثرت تقسيمها إلى قسمين: يوضّح الأول أهم المعالم التي ظهر عليها ما يمكن أن يدخل في باب التأصيل لهذه الطريقة المستحدثة، أما الثاني فيبرز العناصر التي غيّب المفسر الحديث عنها.

القسم الأوّل: ملامح تأصيل المفسّر للتفسير وفق الترتيب النزولي لسور القرآن لكريم.

رجعت إلى مؤلفات المفسّر التي عُني فيها بتوظيف الترتيب النزولي، وحاولت أن استشف منها بعض السّمات التي يمكن القول إنها تدخل في حيِّز التأصيل له، وتبيّن بعد البحث أن المفسّر حاول التأصيل لما أقدم عليه والتنظير له في كتابه (قواعد التدبر) وفي المقدمة العامة لتفسيره (معارج التفكر)[1]، وإليك أهم ما جاء فيهما:

أولا: كتاب (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ).

ضم هذا الكتاب بين دفتيه أربعين قاعدة تقدم للمتدبرين "أصول التفسير الأقوم للقرآن الكريم"[2] كما جاء على لسان صاحبه، فهي من الضوابط التي أكّد على ضرورة مراعاتها في العملية التفسيرية.

ولعل من أهمها تلك القواعد التي نلمح في ظاهرها محاولة المفسرّ التأسيس للتفسير وفق ترتيب نزول السور ووضع الدعائم التي يبني عليها تدبره بعد ذلك، وإليك بيانها:

---

[1] _ أما باقي مؤلفاته فقد مارس فيها الشيخ الفكرة وطبقها عمليا، دون أن يظهر عليها محاولات للتأصيل والتنظير.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص5.

1. **القاعدة الرابعة:** أكّد فيها على ضرورة مراعاة "بيئة نزول النص البشرية والزمانية والمكانية والنفسية والفكرية والفردية والاجتماعية"، يقول:

"على متدبر كتاب الله أن يضع في اعتباره لدى تدبر نصّ منه ملاحظة الأمور التالية:

الأول: تصور العصر الإسلامي الأوّل...

الثاني: تصور الحالة النفسية والفكرية والاجتماعية التي كانوا عليها حين نزول الآيات الموضوعة للدراسة...

الثالث: تصور الظرفين الزماني والمكاني اللذين أنزلت فيهما الآيات الموضوعة للتدبر والدراسة... فهو يقدم للمتدبر نفعا جليلا، ويهديه إلى مفاهيم أكثر دقة، وأقرب إلى المراد، وذلك أنّ من الأساليب البيانية ما يلائم ظرفا من الظروف الزمانية أو المكانية، في حين أنّه قد لا يلائم ظرفا آخر..."[1].

دعا المفسّر في العنصر الثالث من هذه القاعدة إلى مراعاة البيئة الزمانية والمكانية لنزول آيات الذكر الحكيم لما له من أهمية نص عليها؛ وهي وإن كان فيها إشارة ولو من طرف خفي إلى ضرورة التفسير وفق ترتيب النزول وتأكيد على أهميته للمتدبر، فإنه لا يمكن الاستناد إليها لتبرير ما أقدم عليه، إذ إن من المفسرين من خالفه واعتمد الترتيب المصحفي وارتكز عليها في تفسيره.

ومما يؤكد ذلك ما أسنده ابن جرير الطبري إلى ابن زيد في تفسير قوله تعالى: "﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾[الفتح: 15]...الآية، قال الله ﷻ حين رجع من غزوه، ﴿ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾[التوبة: 83]...الآية يريدون أن يبدلوا كلام الله: أرادوا أن يغيروا كلام الله الذي قال لنبيّه ﷺ ويخرجوا معه، وأبى الله ذلك عليهم ونبيّه ﷺ"[2].

علق ابن جرير على هذا فقال: "وهذا الذي قاله ابن زيد قول لا وجه له، لأن قول الله ﷻ ﴿ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾ إنما نزل على رسول الله ﷺ منصرفه من تبوك، وعُني به الذين تخلفوا عنه حين توجه إلى تبوك لغزو الروم، ولا اختلاف بين أهل العلم بمغازي رسول الله ﷺ أن تبوك كانت بعد فتح خيبر وبعد فتح مكة أيضا، فكيف يجوز أن يكون الأمر على ما وصفنا معنيا بقول الله ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ وهو خبر عن المتخلفين عن المسير مع رسول الله

---

[1] _ قواعد التدبر الأمثل، ص53.

[2] _ جامع البيان، ج22، ص216- 217.

ﷺ، إذ شخص معتمرا يريد البيت، فصده المشركون عن البيت، الذين تخلفوا عنه في غزوة تبوك، وغزوة تبوك لم تكن كانت يوم نزلت هذه الآية، ولا كان أوحي إلى رسول الله ﷺ قوله ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾"[1].

ومن هذا النقل يظهر كيف بنى المفسّر –رحمه الله– فهمه للآية على مراعاة بيئة نزول النص المكانية والزمانية، ورد بذلك قول ابن زيد لعدم مراعاتهما في تفسيره[2].

وبناء على ذلك فإن ما جاء في ثنايا القاعدة الرابعة من تأكيد على ضرورة مراعاة بيئة النص الزمانية والمكانية رغم أهميته وارتباطه بالناحية التاريخية لنزول القرآن الكريم؛ فإنه ليس فيه ما يمكن أن يختص به التأصيل للتفسير على ترتيب النزول وإنما هو عنصر لابد من توفره في تفسير القرآن الكريم، فقد كانت مثلا من ضمن القواعد التفسيرية التي ذكرها عبد الرحمن الجذيع في ثنايا كتابه، يقول: "مراعاة بيئة النص الزمانية والمكانية، وذلك بتصور عهد نزول القرآن وواقع الناس يومئذ، والمكان الذي كان ينزل فيه القرآن، والطريق إليه: معرفة أسباب النزول، والوقائع التي استعمل فيها نص القرآن، والدراية بسيرة النبي ﷺ"[3].

2. القاعدة التاسعة: خُصّت هذه القاعدة بالحديث عن ضرورة تتبع مراحل التنزيل، يقول فيها:

"على متدبر كتاب الله أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيل القرآن، ويبني فهمه على أساس التدرج في التشريع، حتى لا يقع في خطأ اعتماد آية سابقة النزول في تدرج التشريع مع أنه قد نزل بعدها تكميل أو بيان كاشف لأحكام المرحلة اللاحقة، وحتى لا يقع في خطأ تصور معارضة الآية السابقة لما نزل بعدها في موضوعها التي تعالجه من موضوعات التكاليف والأحكام، ووسائل التربية، وطرائق الإصلاح، وأساليب الدعوة، وألوان الجهاد"[4].

يؤكد الشيخ في هذا النقل على أهمية تتبع مراحل التنزيل، ويحث على ضرورة بناء الفهم على أساس التدرج في التشريع، وأساس ذلك كلّه هو ترتيب نزول السور، يقول:

---

[1] _ جامع البيان، ج22، ص217.

[2] _ وقد خالف ابن زيد في تفسير الآية أبو حيان الأندلسي وابن جزي أيضا مستندين في ذلك إلى زمن نزول الآيات. ينظر: تفسير البحر المحيط، ج8، ص94/ التسهيل لعلوم التنزيل، ج2، ص288.

[3] _ المقدمات الأساسية في علوم القرآن، ص428.

[4] _ قواعد التدبر الأمثل، ص151.

"تنزيل القرآن المجيد كان منجماً تنجيماً تكاملياً عجيباً في بناء المعرفة الدينية، وفي التربية للرسول ﷺ وللمؤمنين، وفي معالجة الكافرين على اختلاف مواقع بعدهم أو قربهم من الاستجابة للحق، وفي الجدليات والمناظرات والإقناعات، وفي إنزال الشرائع والأحكام على وفق سنة التدرج بحسب الأولويات.

فعلى متدبر كتاب الله المجيد أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيله، مستفيداً مما ذكره العلماء بالتنزيل من ترتيب نزول السور"[1].

وهذا الترتيب هو الذي ختم به القاعدة، حيث أقرّه في جدول رتّب فيه السور المكية فالمدنية على ترتيب نزولها[2].

ولعل هذه القاعدة ضمّت عددا من النقاط المختصرة التي يمكن عدّها من باب التأصيل والتنظير للتفسير وفق ترتيب النزول والتمهيد لظهور تفسير (معارج التفكر)، نذكر أهمها:

- التنبيه إلى أهمية مراعاة مراحل التنزيل وبناء الفهم على أساس التدرج في التشريع.
- الدعوة إلى الاستفادة مما ذكره العلماء بالتنزيل في ترتيب نزول السور.
- الاجتهاد في وضع جدول لترتيب السور المكية والمدنية حسب ترتيب النزول.

وإن كانت هذه الثلاثة تحتاج إلى تفصيل يُظهر ضرورتها وأهميتها في التفسير وفق الترتيب النزولي للسور.

ثانيا: المقدمة العامة لتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

اشتملت على التنبيه إلى عدد من المسائل التي يمكن اعتبارها أصول بنى عليها المفسر تدبره للسور وفق ترتيب نزولها، وهي كالآتي:

- الالتزام بمضمون القواعد الأربعين التي نصّ عليها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل)، والتي منها القاعدتان اللتان سبق الإشارة إليهما.

قال -رحمه الله-: "وقد رأيت من الواجب عليّ أن أقدم ما أستطيع تقديمه من تدبر لسور هذا الكتاب العزيز...ملتزما على مقدار استطاعتي بمضمون القواعد التي فتح الله بها عليّ"[3].

---

(1) _ الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق، ص28- 29.

(2) _ قواعد التدبر الأمثل، ص178 وما بعدها.

(3) _ معارج التفكر، مج1، ص5.

– موقفه من ترتيب سور القرآن الكريم.

يقول في حديثه عن تفسيره التدبري: "الذي ترجح لدي فيه أن أتابع تدبر السور على ما ذكره العلماء بعلوم القرآن الكريم، من ترتيب نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهادي في المصاحف"[1].

– الإشارة إلى ما توصل إليه باعتماده للتفسير وفق ترتيب النزول، تنبيها منه على أهميته.

قال: "واكتشفت في هذا التدبر أمورا جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين، وحركة المعالجات التربوية الربانية الشاملة..."[2].

وهذه المسائل غاية في الأهمية، وقد نبهت إليها هنا باختصار لأنها تدخل في باب التأصيل لما أقدم عليه مفسرنا، وسيأتي تفصيل القول فيها في المطلب الثاني والثالث من هذا المبحث.

القسم الثاني: عناصر غيّب المفسّر الحديث عنها.

كتب –رحمه الله– في تدبر القرآن الكريم تفسيرا ضخما رغم أنّه لم يكتمل[3]؛ وأنا أبحث في طيّاته وأقلب صفحاته وددت لو أن المفسّر كما أطلق العنان لقلمه وهو يتدبر آيات الذكر الحكيم أن يكون قد دبّج صنيعه بما يكشف اللّثام عن اختياره للتفسير وفق الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم؛ هذه الطريقة المستحدثة التي لا يزال الحديث عنها غضا طريا يحتاج إلى بحوث ودراسات جادّة تؤصل لها، ولو كان المفسر طرق بابها تنظيرا لكان أسلم له وأدق، ولكن الأمر لم يكن كذلك فقد أغفل بحث عدد من المسائل الرئيسة، أبرزها:

– غياب تخصيص قاعدة مستقلة من قواعد التدبر الأمثل للحديث عن "التفسير وفق الترتيب النزولي للسور"، رغم ما جاء فيما سبق ذكره من إشارات حوله.

– إهمال الحديث عن ماهية "التفسير وفق الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم"، تعريفا به وبيانا لأهدافه ومقاصده.

يقول عمران سميح: "ومما يؤخذ على هذه التفاسير [يقصد المرتبة وفق ترتيب نزول السور] أنها دخلت في التفسير التاريخي قبل تأسيس علم في تاريخ النزول، ولم تكن العناية بالمعرفة التاريخية فيها

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص6.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص7.

[3] _ فقد ترك خمسة عشرة مجلدا مع المقدمة وهي كتاب (قواعد التدبر الأمثل)، وتضمنت تفسير السور المكية فقط.

كافية، لا في معرفة تاريخ نزول الآيات ولا السور..."[1].

– السطحية في الطرح، وعدم التفاته إلى تلك الردود والانتقادات الحادة التي حُف بها الحديث عن التفاسير التي سبقته وفق ترتيب نزول السور.

وقد وددت وأنا أطالع كتاب (أجنحة المكر الثلاثة) الذي ظهرت فيه البذور الأولى للتفسير وفق الترتيب النزولي عند المفسر، والذي تحدث فيه عن المستشرقين وأعمالهم وخصّهم بفصل مستقل[2]، أن أقف على حديث له أو رد على مسألة مهمّة عندهم وعنده وهي دعواهم لإعادة ترتيب القرآن الكريم وفق ترتيب نزوله، لكن للأسف لم يشر إلى ذلك ولو فعل لكان أبان الفرق بين صنيعه وما دعوا إليه، وأظهر اختلاف الدوافع وتباين المقاصد بينهما وأسكت الكثير من الكلام المثار حول ما أقدم عليه.

– ترك العناية ببيان أوجه التباين بينه وبين من سبقه ممن ألف وفق ترتيب نزول السور، والجديد الذي أضافه والذي يمكن أن يعطي له الشرعية لخوض غماره.

– عدم بيان شروط وأهمّ مؤهلات المفسّر المجدد وضوابط التفسير وفق ترتيب نزول السور، التي هي قسم من ضوابط التجديد.

هذه أهم النقاط في نظري التي تُظهر الفرق بين ما استحدثه المفسر ومن سبقه ممن فسر وفق ترتيب نزول السور، وبين المفسرين وفق الترتيب المصحفي.

---

[1] _ الوحدة التاريخية للسور القرآنية، ص69.

[2] _ ينظر: أجنحة المكر الثلاثة، ص117 وما بعدها.

وفي الختام أقول: طغى طابع الإعجاب بالتفسير وفق الترتيب النزولي للسور على الجانب التأصيلي له عند مفسّرنا؛ فولَعُه به ساقه إلى التركيز على أهميته وما يقدمه من نفع للمتدبر على حساب التفصيل في مسائل جوهرية يُبنى عليها حول كيفية التعامل معه، ومدى إمكانية تطبيقه.

ومن ثمّ فإن الفكرة أصيلة عنده –رحمه الله–، لكن خانها التأصيل والتفصيل بما يدرجها في مصاف المناهج المستحدثة في علم التفسير ويحجز لها مكانا بينها، ويخفف من حدة النقد الموّجه إليها.

وربما يرجع إغفاله كتابة دراسة تأصيلية إلى:

– صعوبة الحديث في المسألة.

– حدة النقد الموجه لها.

– غلق الباب أمام انتقادات أخرى ستفتح لو طرق باب التنظير.

– الرغبة في السير وفق أصول التفسير التقليدي مع اعتماد ترتيب النزول بهدف تحقيق جملة من الفوائد.

وعدم إشباع جانب التأصيل العلمي والتأسيس المنهجي للتفسير حسب ترتيب النزول بحثا، يقودنا إلى البحث والتنقيب عن الأسس والدعائم التي ارتكز عليها المفسّر في تدبره، والتي هي موضوع المطلب الموالي.

المطلب الثاني: الأسس العامة للتفسير وفق ترتيب النزول عند المفسّر.

طُرق باب التفسير في العصر الحديث من قبل الكثيرين؛ بل أصبح هو المنفذ للدخول إلى الدين ثم الطعن في المقدس عند المسلمين، لذا كان واجبا التنبيه على ذلك، ودراسة الأسس التي تقوم عليها كل حركة تجديدية والنظر فيها وفي مدى مطابقتها للأصول التي لا يستقيم التفسير إلا بها إقامة للحق وردا للبدعة.

وتحقيقا لذلك فقد اجتهدت في جمع ودراسة الأسس التي بنى عليها المفسر اختياره، لبيان مدى علمية وسلامة الطريقة التي اعتمدها بالحديث عن:

- موقفه من الترتيب المصحفي والترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.
- طرق الوصول إلى ترتيب النزول عنده.
- حقيقة الترتيب النزولي الذي اعتمده.
- تمييزه بين النصوص الخبرية ونصوص التشريع والأحكام.

الفرع الأول: موقف المفسّر من ترتيب سور القرآن الكريم.

يعد الاهتمام بمعرفة موقف صاحب التفسير محل الدراسة من قضايا علوم القرآن عامة وبموقفه من ترتيب السور على وجه الخصوص من أهم ما ينبغي التركيز عليه؛ لاسيما أنّ مفسّرنا خالف الترتيب المصحفي في تدبره وبناه على الترتيب النزولي، فلا بد أنّ هذا لم يكن منطلقه من فراغ وإنما كان الأمر مبني على أسس أبرزها موقفه من ترتيب السور.

وقبل الحديث عن موقفه أردت التنبيه إلى قضيتين رئيستين سبق عرضهما في الفصل التمهيدي:

الأولى: وضّحت فيها موقف العلماء من الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم، حيث وقفنا هنالك أنّ للعلماء فيه مذاهب ترجح منها القول بالتوقيف فيما استقر عليه ترتيب المصاحف في عهد عثمان ﷺ، وإن كان للقول بالاجتهاد سلف فقد رجّحه عدد من علماء الأمة فلا يمكن تجاهله وتوهينه.

الثانية: تأكّد فيها أنّ الترتيب النزولي لا يمكن القطع فيه بشيء، فهو ظني في معظمه إذ هو مما لم تسعفنا به الروايات الصحيحة الثابتة التي ترقى لدرجة الاحتجاج بها وبناء ترتيب لسور القرآن الكريم كاملة على وفقها.

أقول وبالله التوفيق:

دبج الميداني –رحمه الله– مدونته في التفسير بمقدمة مختصرة جدا سماها بالمقدمة العامة للكتاب، جاءت في صفحتين حمد الله فيها وأثنى عليه، ثم نوّه بأهمية كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، وقال بعد ذلك: "وقد ألح علي ناشر كتبي أن أبدأ بنشر ما يُنْجِزهُ الله لي من مجلدات في هذا التدبر، الذي ترجح لدي فيه أن أُتابع تدبر السور على ما ذكره العلماء بعلوم القرآن الكريم، من ترتيب نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهادي في المصاحف، التزاما بترتيب المصحف الذي وُزعت نسخ منه على معظم أمصار المسلمين في عهد عثمان ﷺ، فمن الثّابت قطعا أن كثيرا من السُّور، مثل: "البقرة وآل عمران والنساء والأنفال" هي من التنزيل المدني، وأنّ كثيرا من السُّور هي من التنزيل المكّي قطعا مثل سورة "العلق"، وقد رأيت بالتدبر الميداني للسور أنّ ما ذكره المختصُّون بعلوم القرآن الكريم من ترتيب نزول، هو في معظمه حقٌّ، أخذا من تسلسل البناء المعرفي التكاملي، وتسلسل التكامل التربوي"[1].

وفي هذه الفقرة أكّد الشيخ على ترجيح تدبر سور القرآن الكريم على وفق الترتيب النزولي للسور، واعتماده بديلا عن الترتيب المصحفي، مشيرا فيها إلى موقفه من مسألتين رئيسيتين:

المسألة الأولى: موقف المفسر من الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم.

حكم المفسّر على ترتيب السور في المصحف الشريف بأنّه اجتهادي، دون الإشارة إلى أصل المسألة والخلاف الثابت المشهور فيها.

والمفسّر بذلك لا يؤخذ عليه اختياره وترجيحه القول بالاجتهاد، لأنّه قول معتبر فقد مال إليه عدد من كبار العلماء أي أنه لم يأت برأي شاذ ليس له سلف، وإنما ما يؤخذ عليه هو طريقة بيانه لموقفه فلم يشر حتى إلى أنه "اختار" أو "رجح" القول بالاجتهاد، بل ساق المسألة وكأنها محل اتفاق بين العلماء.

وقد يُعذر في هذا الموضع لو كان أصّل للمسألة وبيّن مذاهب العلماء فيها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)، ثم اختار ورجح أحدها بالحجة والدليل مقتفيا أثر من بحث المسألة قديما

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص6.

وحديثا؛ إذ الحديث عنها شغل بال جُلّ من ألف في تفسير القرآن الكريم تنظيرا وتطبيقا، وجاء المفسّر وأعرض عنها جميعا رغم أهميتها ومكانتها في التفسير عامة وفيما اختاره على وجه الخصوص.

يقول مصطفى مسلم: "وكان من المفترض أن يتناول الشيخ حبنكة هذا الأمر بالاهتمام الزائد ويورد أقوال الذاهبين إلى التوقيف، ويورد حجج القائلين بالاجتهاد ثم يرجح ما يراه بالأدلة والبراهين. وبخاصة أن الشيخ يقدم على أمر غير مسبوق إليه إلا من قلة قليلة في تفسير القرآن حسب ترتيب النزول"[1].

والمفسر بقوله بالاجتهاد خالف موقف من سبقه في تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، أمثال محمد عزة دروزة وملا حويش اللذان أقرا بأن ترتيب السور في المصحف توقيفي لأنه بوحي ومع ذلك لم يجدا مانعا من مخالفته.

يقول دروزة: "إن في القرآن ملهمات...تدل أو تقوم قرينة على أن القرآن كان يدون بانتظام ويحفظ بانتظام، وأن آياته قد رتبت في السور، وسوره قد رتبت في تسلسل في حياة النبي ﷺ"[2].

ويقول ملا حويش: "أما بعد: فإن القرآن العظيم جمع ورتبت سوره وآياته في المصاحف التي بأيدينا طبق مراد الله تعالى بأمر من رسوله الأعظم، ودلالة من الأمين جبريل المكرم"[3].

وقال في موضع آخر: "لا محل للاجتهاد في شيء من ذلك ولا في ترتيب السور والآيات بل هو أمر توقيفي...ومن قال خلاف هذا فلا قيمة لقوله"[4].

وبناء على ذلك فإن المفسر وإن وافق هؤلاء في اعتماد الترتيب النزولي للسور أثناء التفسير، فلم يكن مقلدا لهم وسائرا على خطاهم في موقفهم من الترتيب المصحفي للسور فهم قالوا بالتوقيف فيه وهو قال بالاجتهاد.

المسألة الثانية: موقفه من الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.

بعدما أفصح المفسّر عن موقفه من الترتيب المصحفي، حرص أن يبرهن على صحة الترتيب النزولي للسور، وظهر ذلك في تأكيده بقطعية الحكم على مكية بعض السور أو مدنيتها، ووصف ما ذهب إليه

---

[1] _ التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان. (مقال)

[2] _ التفسير الحديث، ج1، ص99- 100.

[3] _ بيان المعاني، ج1، ص3.

[4] _ المرجع نفسه، ج1، ص30.

المختصون بعلوم القرآن الكريم في ترتيب النزول بأنّه في معظمه حق.

وهو بذلك يحاول أن يجد مسوّغا لاختياره، ويستدل على ما بنى عليه تفسيره، وقد نقل طه محمد فارس تصريح الشيخ بموقفه من هذا الترتيب قائلا: "وأذكر أنني عندما التقيت به في مدينة دبي، وكان زائراً لها رحمه الله، وسألته عن مستند الترتيب الذي اعتمده، فقلت: إنّه مخالف لإجماع الصحابة، ولم تثبت في الترتيب رواية صحيحة ؟!.

كان جوابه غريباً محيّراً حيث قال: ترتيب النزول قطعي، أما ترتيب المصحف اجتهادي من الصحابة!!"[1].

وبعدما ذكر الباحث هذا القول علق عليه قائلا: "وما قاله غريب حقاً، يدل على عدم بحثه واطلاعه على أقوال العلماء في ذلك، وكان ينبغي عليه وهو ينشئ تفسيراً كاملاً لكتاب الله على ترتيب النزول، أن يبحث في مستند هذه الطريقة، ويراجع أقوال العلماء في ذلك"[2].

وأحسب أنّ الباحث قد تسرع في الحكم، ومثل هذا الكلام مستبعد في حق المفسّر؛ إذ إن أقوال العلماء في ترتيب السور في المصحف وموقفهم من هذا الترتيب معلوم عند طلاب العلم المبتدئين ولكل من له ميل للدراسات القرآنية، فكيف تخفى على من تخرج على يديه أجيال من طلبة العلم في المساجد والمعاهد والجامعات!.

بل الظاهر أنه –رحمه الله– كان مطلعا على أقوال العلماء وعلى مذاهبهم في ترتيب السور، ولكنّه ترجّح لديه القول بالاجتهاد حيث كانت لديه خلفية مسبقة وموقف تبناه فلم ير من الحاجة ذكر الأقوال والتفصيل فيها؛ ومن ثم فالانتقاد يُوّجه له من باب التقصير في التنظير للمسألة وإعطاءها حقها من الدراسة وإشباعها بحثا وتحريرا، وله أن يرجح بعدها ما يراه راجحا بالدليل.

وقول المفسر بقطعية الترتيب النزولي[3] تتضح به العبارة التي أسلفت نقلها وهي قوله: "...الذي ترجح لدّي فيه أن أتابع السور على ما ذكره العلماء...من ترتيب نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهادي في المصاحف"[4].

---

[1] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص216.

[2] _ المرجع نفسه، ص216.

[3] _ إن صح القول الذي ذكره طه محمد فارس، فالعهد على الراوي كما يقال.

[4] _ معارج التفكر، مج1، ص6.

أي أنه اعتمد على القطعي في الترتيب، ولم يعتمد ما اجتهد فيه الصحابة ﷺ، وهو بذلك يخالف ما ذهب إليه علماء السلف والخلف، إذ لم أقف على من قال بقطعية ترتيب النزول في مقابل القول بالاجتهاد في ترتيب المصحف، بل أكدّوا على صعوبة الوقوف عليه في مقابل دعوتهم إلى التمسك بالترتيب المصحفي[1].

ومن الباحثين المعاصرين الذين سعوا إلى إنصاف ما أقدم عليه مفسرنا وغيره سعيد بوعصاب، الذي نجده يدعو من فسّر وفق الترتيب النزولي إلى بيان أن هذا الأخير ليس توقيفي بقوله: "على من يسلك هذه الطريق...أن يشير إلى أن الترتيب الذي يعتمده هو ترتيب "اجتهادي" وليس توقيفي، إذ لا يوجد نصوص صحيحة ثابتة يعول عليها في منهج الترتيب النزولي آية آية، وسورة سورة، وإنما هو أخذ بالملامح العامة، واعتماد على غالبية الظن، وتماش مع موضوع السورة العام، وفقا لما قرره أهل العلم في بيان المكي والمدني"[2].

أما محمد مكي فقد نحا منحى آخر في محاولة تبرير صنيع واختيار شيخه بقوله: إن "ترتيب السور التي في المصحف الذي أجمع المسلمون عليه...لم يلتزم مراحل النزول، ومن الثابت قطعا أن كثيرا من السور...هي من التنزيل المدني، وأن كثيرا من السور هي من التنزيل المكي قطعا... وبعضها مختلف فيه، ويُعتمد على روايات ظنية، فإذا اعتمد الشيخ في تتبع مراحل النزول، وهي في بعضها روايات ظنية احتمالية...، واكتشف من خلال التدبر الميداني أن ترتيب مراحله في معظمه حق، فالأخذ بما يفيد الظن في مراحل النزول لتدبر القرآن ومحاولة فهمه أولى من الاعتماد في تدبره على الترتيب الثابت قطعا بأنه لم يراع مراحل التنزيل، مع التأكيد على احترام هذا الترتيب، وضرورة المحافظة عليه في طباعة المصحف وتلاوته والتعبد به"[3].

وهذا القول غريب، فكيف يبنى تفسير القرآن الكريم كاملا على ترتيب يفيد الظن من أجل مراعاة مراحل التنزيل؟ كيف يراعي مراحل التنزيل وهو ليس مقطوعا به؟ وكيف تُعتمد الفوائد التي يُتوصل إليها؟

---

[1] _ ينظر: الانتصار للقرآن، الباقلاني، ج1، ص 238/ البرهان في علوم القرآن، الزركشي مج1، ص260/ تاريخ القرآن الكريم دراسة نقدية تحليلية، التيجاني بن أحمدي، ص230/ ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص47 (مقال)/ المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، مصطفى مسلم وعبد الكريم الخطيب، ص5. (مقال)/ معجزة الترتيب القرآني، عبد الله جلغوم، ص15. (مقال)

[2] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، ص121.

[3] _ التعريف بكتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، ص28.

نعم قد يكون لمراعاة مراحل التنزيل فوائد لكن فيما صح منه؛ لذا فإن الباحث أراد أن يبرر صنيع شيخه، لكنه ربما زاد من الانتقادات الموجه إليه لاعترافه بظنية الترتيب النزولي.

يقول صاحب الظِلال: "وعلى كل ما في محاولة تتبع آيات القرآن وسوره وفق الترتيب الزمني للنزول من قيمة، ومن مساعدة على تصور منهج الحركة الإسلامية ومراحلها وخطواتها، فإن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقا كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية ظنية، وليست نهائية يقينية...وقد تترتب على هذه النتائج الظنية التقريبية نتائج أخرى خطيرة..لذلك آثرت في هذه الظلال أن أعرض القرآن بترتيب سوره في المصحف العثماني مع محاولة الإلمام بالملابسات التاريخية لكل سورة.. والاستئناس بهذا في إيضاح الجو والملابسات المحيطة بالنص"[1].

وخلاصة القول في ذلك: أن المفسر –رحمه الله– أشار إلى موقفه من ترتيب السور في مقدمة تفسيره دون شرح أو تفصيل، فأكد على القول بالاجتهاد في ترتيب السور في المصحف وبنى عليه جواز العدول عنه ومخالفته، واعتماد الترتيب النزولي في تدبر سور القرآن الكريم لما فيه من مراعاة مراحل التنزيل.

ومما يؤخذ عليه هنا ليس اختياره القول بالاجتهاد، بل تغييبه التفصيل في المسألة وإيراد أقوال ومذاهب العلماء، إذ لم يحطها بالدراسة والبحث والتأصيل رغم بالغ أهميتها.

ومن ثمّ فإن موقفه من ترتيب السور أحد أهم الأسس التي بنى عليها تدبره لسور الذكر الحكيم وفق الترتيب النزولي، وهذا ما يسوقنا للحديث عن طرق الوصول عند المفسر إلى هذا الأخير.

الفرع الثاني: طرق الوصول إلى ترتيب النزول عند المفسّر.

ضمت القاعدة التاسعة من (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ) الإشارة إلى عدد من المسائل؛ أظهرها بيان المفسّر لطرق معرفة ترتيب نزول سور القرآن الكريم، وإليك ما جاء على لسانه قائلا: "يُعرف ترتيب نزول القرآن بالنظر في ترتيب نزول السور المبيّن عند علماء التنزيل...وقد يُعرف ترتيب النزول بالتبصر العقلي الهادي إلى قواعد سنة الله التي جرى وفقها إنزال معظم النصوص القرآنية وأحكام التشريع"[2].

وهذا النص نفهم منه أنّ لمعرفة ترتيب النزول طريقين عنده أحدهما أصلي رئيس والآخر ثانوي، وإليك بيانهما:

---

[1] _ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج3، ص1429.

[2] _ قواعد التدبر، ص153.

الطريق الأول: النظر في ترتيب نزول السور المبين عند علماء التنزيل.

يقول مؤكّدا على ما سبق بيانه: "فعلى متدبر كتاب الله المجيد أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيله، مستفيداً مما ذكره العلماء بالتنزيل من ترتيب نزول السور"[1].

ويفصّل في أول سورة (الفاتحة) فيقول: "وقد نزلت هذه السورة في أوائل العهد المكي وهي السورة الخامسة بحسب النزول كما هو مدون لدى علماء علوم القرآن، وهو المرجح لدى العلماء بروايات التنزيل..."[2].

والمفسّر يدعو بذلك إلى ضرورة التمسك بما ذهب إليه العلماء في هذا الباب، فهو موافق لرأيهم معتد بأقوالهم حيث وصفها بأنّها في معظمها حق بقوله: "وقد رأيت بالتدبر الميداني للسور أنّ ما ذكره المختصون بعلوم القرآن الكريم من ترتيب نزول هو في معظمه حق"[3].

يقول عبد الرحمن نصر معلقا على قوله هذا: "النص هنا واضح في التسليم بأغلب ما جاء به الأولون من آراء وما سطروه في كتبهم من مسائل تتعلق بالقرآن الكريم، نظرا لأنهم كانوا أقرب زمنا، وأشد تثبتا في الأخذ بالروايات بعد التنقيب عن مصدرها ومعرفة درجة صحتها من عدمه"[4].

وهذا الموقف يحسب للمفسّر؛ ونحن لا نخالفه في الدعوة إلى ضرورة التمسك بما قاله السلف وعدم مفارقة أقوالهم، ولكن ما أردت التنبيه إليه والذي لم يُشر إليه هو الاختلاف بين التراتيب المروية، إذ لا يوجد ترتيب كان محل اتفاق بينهم بدءا من العصر الأوّل؛ كما سبق وأن بيّنت في هذه الدراسة[5].

يقول الباقلاني: "لا نص من الرسول قاطع على أول ما أنزل عليه من ذلك وآخره، وعلى تفصيل مكيه ومدنيه...ومما يدل أيضا على صحة ما قلناه أن المختلفين في ذلك من الصحابة لا يرون اختلافهم فيه عن رسول الله ﷺ بل إنما يخبرون بذلك عن أنفسهم وما أداهم إليه اجتهادهم...وإن روى بعضهم في ذلك عن النبي ﷺ شيئا لم يروه نصا قاطعا، وإنما يحكى عنه قولا محتملا...وليس يجب اتفاقهم على ما هذه سبيله، ولا أن يكون نقلهم لما سمعوه منه في هذا الباب من الكلام المحتمل ظاهرا منتشرا إذا كان لم يقع من الرسول وقوعا معلنا بحضرة من تقوم به الحجة، ولا هو مما أراد وقصد وقت

---

[1] _ الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق، ص16.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص280.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص6.

[4] _ عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، ص452.

[5] _ ينظر: الفصل الأول، ص48.

قوله ذلك للواحد والاثنين أن يذاع عنه وينتشر من قبله حتى يكرره ويردده ويقصد إذاعته وإقامة الحجة بإظهاره"[1].

والملاحظ على صنيع المفسّر أنّه بعد إشارته إلى هذا الطريق وهو النظر في ترتيب النزول المبيّن عند علماء التنزيل، لم يكلّف نفسه مؤنة البحث في صحة ما قالوه، فقد أعرض صفحا عن الروايات والآثار الواردة في ذلك، عدا تلك الإشارة السريعة إلى ما ذكره الزركشي في (البرهان في علوم القرآن) والتي اكتفى فيها بذكر ملخص ما تضمنه كلامه[2].

ولو كان الحديث عن الروايات الواردة في الترتيب النزولي مسألة جزئية ثانوية في تدبره، أو كان هناك ترتيب نزولي ثابت أجمع عليه العلماء ربما يُعذر، لكن المفسّر تبنّى هذا الترتيب منهجا عمليا اعتمده في مؤلفاته وطبّقه وسار عليه في تدبره ثم بنى عليه عددا من القضايا، فكان الأولى به البحث في صحة ما روي والاجتهاد في الوصول إلى أصح ما قيل في ترتيب كل سورة خاصة وإن كان ذلك ربما يتعذر عليه، إذ "لا يوجد دليل شرعي وتاريخي يمكن اعتماده في كل سورة وآية، ويعوّل عليه في هذا الترتيب ويكون محل اتفاق بين أهل هذا الشأن"[3].

يقول صاحب الظِلال: "الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء- اللهم إلا من ناحية أن هذا قرآن مكي وهذا قرآن مدني على وجه الإجمال، على ما في هذا من خلافات قليلة- فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة، فيكاد يكون متعذرا ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئا مستيقنا- إلا في آيات معدودات تتوافر بشأنها الروايات أو تقطع بشأنها بعض الروايات..."[4].

ومن ثمّ فقد كان لزاما للمفسر على الأقل أن يطرق بابها ويبيّن خطأها من صوابها، خاصة أنّ هذه القضية كانت المحرك الرئيسي لعجلة الانتقادات التي وُجهت لفكرة التفسير حسب ترتيب النزول، والسبب المحوري للعدول عنها.

والمستخلص من هذا أنّ المفسر -رحمه الله- لم يُعط مسألة دراسة المروي في ترتيب نزول السور حقها من البحث والتفصيل رغم أهميتها؛ ومن باب إقرار الحق فإنه -رحمه الله- وإن وصف بالتقصير في

---

[1] _ الانتصار للقرآن، ج1، ص238- 239.

[2] _ ينظر: قواعد التدبر الأمثل، ص153.

[3] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب، ص119.

[4] _ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج3، ص1429.

المسألة فإن مسلكه هنا كان أقوم وأسلم إذا ما قرناه بمن سبقه من المحدَثين ممن فسر وفق ترتيب نزول السور، وإليك محمد عزة دروزة مثلا في "طريقة تعامله مع الروايات، حيث كان يردها لاحتمالات تراءت له، من غير أي مستند من ضعف في السند أو طعن في أحد رجاله، سوى معارضة المتن لما يراه وفق اجتهاده..."[1].

ومن ثم فإنه –رحمه الله– وإن لم يكن لتعامله مع مرويات ترتيب النزول أثر ايجابي، بالبحث فيها وتحري الصحيح منها وتمحيصها، فإنه كذلك لم يسر على خطى من سبقه في مسلكهم في الطعن والشكيك في حديثهم عن هذا الطريق الأول، فما هو الطريق الثاني الذي قال به أيضا؟

الطريق الثاني: إعمال العقل.

فتح مفسرنا الباب أمام التبصر العقلي، وترك احتمال معرفة ترتيب النزول قائما يحتاج إلى بحث وإعمال فكر، فهل لقوله هذا سبق؟ أم أنه جاء ببدع من القول؟

أقول:

رجعت إلى عدد من المؤلفات التي بحثت مسألة الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم[2]، وكان معظم حديثها ينصب على ذكر الروايات الواردة في ذلك، والتعليق عليها وبيان اختلافها وإرجاع ذلك إلى أنه لم يثبت فيها شيء بل هي اجتهادات من الصحابة والتابعين ﷺ على تفاوت بينها، ولم يُفتح فيها الباب للعقل إلا من باب دراسة الروايات وتمحيصها وبيان ضعفها ووهنها في إفادة الترتيب؛ فهل غاب التبصر العقلي في سنن الله عن السلف؟ أم أنّ في هذا العصر من بلغ من الفهم والمعرفة بالتنزيل وطريقة الترتيب ما فاتهم؟

كلا أن يقال هذا في أمثالهم، بل هم ربما تعمدوا ترك الخوض في ذلك حرصا على حفظ نظام القرآن الكريم، حيث اكتفوا بالتنبيه على ضرورة الالتزام بالترتيب المصحفي، لأن الجزم بترتيب نزولي لجميع السور دون خرق القتاد.

---

[1] _ جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم، أحمد بشير قباوة، ص388. ينظر: التفسير الحديث، ج1، ص365/ ج5، ص427/ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص195.

[2] _ ينظر: تنزيل القرآن، ابن شهاب الزهري، ص23/ النكت والعيون، الماوردي، ج6، ص309/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص309/ في ظلال القرآن، سيد قطب، ج3، ص1423/ ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص35(مقال)/ تاريخ القرآن الكريم، التيجاني بن أحمدي، ص217/ ترتيب القرآن الكريم، علي بن سليمان، ص46 وما بعدها/ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص253 .

يقول أبو بكر الباقلاني: "فإن قال قائل:...فألا ألفوه على تاريخ نزوله فبدءوا بالمكي منه قبل المدني، وبما أُنزل منه أولا ثم بما أُنزل بعده على ترتيب نزوله، فيكونون بذلك أقرب إلى الصواب وترتيب إنزاله أو إلى معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ وما يحتاج إليه في معرفة الأحكام؟

قيل له إنما لم يفعلوا ذلك لأنه أمر لا يصح إلا بنقض آيات سور القرآن وإفساد نظمها وتغييرها عما حد لهم..."[1].

بل لابد من الإشارة هنا إلى أن القول الذي ذكره المفسر قد يفتح الباب للطعن في القرآن الكريم، يقول عبد الرحمن نصر: "نعم نزلت النصوص وفق قواعد سنة الله ﷻ، لكن أن نهتدي إلى معرفة الترتيب بالتبصر العقلي فذلك ما لا سبيل إليه، ولو كان على قلة...ولو أيدناه في هذا المسلك فلماذا نعتب على المستشرقين إذن حين يحاولون القول بذلك؟

نعم الغرض غير الغرض، والنية غير النية، وإخلاص الرجل لدينه ووفاؤه له معروف من سيرته ظاهر من كتاباته"[2].

وهذا لا ينكره إلا جاحد؛ وإن اعترفنا له بهذا فذلك لا يعني أن نوافقه في كل ما يقول، لأن فتح الباب أمام التبصر العقلي للوصول إلى ترتيب النزول فيه خطر عظيم على الأمة، خاصة وأن الموضوع هو منفذ للكثير من المستشرقين وغيرهم.

وكان على المفسر بدل أن يقول بهذا، أن يدعو إلى ضرورة دراسة تلك الآثار والمرويات عن السلف بغية الوصول إلى ما صح منها؛ ويبقى الكلام هنا نظري العمدة فيه ما نص عليه في قواعده، أما الحديث عن التطبيق العملي لما نص عليه، لمعرفة هل استعمله المفسر حقا في بعض اختياراته أو اجتهاداته؟ وهل نص في تفسيره على كون آية أو سورة قبل أخرى أو بعدها إعمالا للعقل والاجتهاد والرأي...فسيأتي التفصيل فيه عند الحديث عن علم المكي والمدني في تفسير (معارج التفكر) في المبحث الأول من الفصل الرابع من هذه الدراسة.

---

[1] _ الانتصار للقرآن، ج1، ص288.

[2] _ عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، ص470.

الفرع الثالث: حقيقة الترتيب النزولي المتّبع في تفسير (معارج التفكر).

آثرت في هذا الفرع أن أبحث موضوعه ضمن جدول، فيه سرد لأسماء السور التي تدبرها الشيخ في تفسيره (معارج التفكر) وهي ست وثمانين سورة شكّلت القسم المكي على رأيه، أما القسم المدني فقد شرع في تدبر سوره مفتتحا إياها بسورة (البقرة) لكن حال الأجل دون إتمامها.

وبما أنّ الشيخ أشار إلى مخالفته للمصحف المعتمد عنده قبل ذكره لجدول المكي والمدني لسور القرآن الكريم بقوله: "وأثبت في هذا الجدول ما أثبته علماء القراءات في المصاحف المعتمدة من شيخ المقارئ المصرية الشيخ محمد خلف حسيني، معتمدا فيما أثبته على أمهات كتب القراءات والتفسير على خلاف يسير في بعض ذلك"[1].

فإنه سيأتي فيما يلي ذكر ترتيب السور المكية في المصحف المعتمد، والترتيب الذي ارتآه المفسر في كتابه (قواعد التدبر) مقارنة مع تفسيره (معارج التفكر):

رقم ترتيب نزول السورة	ترتيب السور المكية في المصحف الذي اعتمده الشيخ محمد علي خلف	ترتيب السور المكية في كتاب (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)	ترتيب السور المكية في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)
.1	العلق	العلق	العلق
.2	**القلم**	**القلم**	**المدثر**
.3	المزمل	المزمل	المزمل
.4	**المدثر**	**المدثر**	**القلم**
.5	الفاتحة	الفاتحة	الفاتحة
.6	المسد	المسد	المسد
.7	التكوير	التكوير	التكوير
.8	الأعلى	الأعلى	الأعلى
.9	الليل	الليل	الليل

[1] _ قواعد التدبر، ص178. ينظر: معارج التفكر، مج1، ص151.

.10	الفجر	الفجر	الفجر
.11	الضحى	الضحى	الضحى
.12	الشرح	الشرح	الشرح
.13	العصر	العصر	العصر
.14	العاديات	العاديات	العاديات
.15	التكوير	التكوير	التكوير
.16	التكاثر	التكاثر	التكاثر
.17	الماعون	الماعون	الماعون
.18	الكافرون	الكافرون	الكافرون
.19	الفيل	الفيل	الفيل
.20	الفلق	الفلق	الفلق
.21	الناس	الناس	الناس
.22	الإخلاص	الإخلاص	الإخلاص
.23	النجم	النجم	النجم
.24	عبس	عبس	عبس
.25	القدر	القدر	القدر
.26	الشمس	الشمس	الشمس
.27	البروج	البروج	البروج
.28	التين	التين	التين
.29	قريش	قريش	قريش
.30	القارعة	القارعة	القارعة
.31	القيامة	القيامة	القيامة
.32	الهمزة	الهمزة	الهمزة
.33	المرسلات	المرسلات	المرسلات
.34	ق	ق	ق
.35	البلد	البلد	البلد
.36	الطارق	الطارق	الطارق
.37	القمر	القمر	القمر

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

.38	صٓ	صٓ	صٓ
.39	الأعراف	الأعراف	الأعراف
.40	الجن	الجن	الجن
.41	يسٓ	يسٓ	يسٓ
.42	الفرقان	الفرقان	الفرقان
.43	فاطر	فاطر	فاطر
.44	مريم	مريم	مريم
.45	طه	طه	طه
.46	الواقعة	الواقعة	الواقعة
.47	الشعراء	الشعراء	الشعراء
.48	النمل	النمل	النمل
.49	القصص	القصص	القصص
.50	الإسراء	الإسراء	الإسراء
.51	يونس	يونس	يونس
.52	هود	هود	هود
.53	يوسف	يوسف	يوسف
.54	الحجر	الحجر	الحجر
.55	الأنعام	الأنعام	الأنعام
.56	الصافات	الصافات	الصافات
.57	لقمان	لقمان	لقمان
.58	سبأ	سبأ	سبأ
.59	الزمر	الزمر	الزمر
.60	غافر	غافر	غافر
.61	فصلت	فصلت	فصلت
.62	الشورى	الشورى	الشورى
.63	الزخرف	الزخرف	الزخرف
.64	الدخان	الدخان	الدخان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

.65	الجاثية	الجاثية	الجاثية
.66	الأحقاف	الأحقاف	الأحقاف
.67	الذاريات	الذاريات	الذاريات
.68	الغاشية	الغاشية	الغاشية
.69	الكهف	الكهف	الكهف
.70	النحل	النحل	النحل
.71	نوح	نوح	نوح
.72	إبراهيم	إبراهيم	إبراهيم
.73	الأنبياء	الأنبياء	الأنبياء
.74	المؤمنون	المؤمنون	المؤمنون
.75	السجدة	السجدة	السجدة
.76	الطور	الطور	الطور
.77	الملك	الملك	الملك
.78	الحاقة	الحاقة	الحاقة
.79	المعارج	المعارج	المعارج
.80	النبأ	النبأ	النبأ
.81	النازعات	النازعات	النازعات
.82	الانفطار	الانفطار	الانفطار
.83	الانشقاق	الانشقاق	الانشقاق
.84	الروم	الروم	الروم
.85	العنكبوت	العنكبوت	العنكبوت
.86	المطففين	المطففين	المطففين

التعليق على الجدول:

- صرّح المفسّر بالترتيب الذي اعتمده واختاره، ثم أثبته في جدول في كتابه القواعد قبل أن يشرع في تدبره لسور القرآن الكريم كاملا بسنوات عديدة.

- عيّن المفسّر الترتيب النزولي الذي اعتمده ووقع عليه اختياره مباشرة دون أن يفصّل القول فيه، مع أنّه أهم أساس يُبنى عليه تفسيره التدبري الذي خالف به ما تعارف عليه السلف في تأليفهم للتفسير.
- الترتيب الذي نقله المفسّر في جدول المكي والمدني في (قواعد التدبر) مطابق لترتيب المصحف الذي اعتمده ولا أثر للخلاف اليسير الذي نبّه إليه.
- مال الشيخ إلى التقليد وذلك بالسير على ما قرّره علماء القراءات في كتابه (قواعد التدبر)، مسلّما بما تضمنه الترتيب المعتمد عند شيخ المقارئ المصرية دون مناقشة أو تعقيب وكأنه مما تلقته الأمة بالقبول، إذ لم يقف المفسر عليه موقف الناقد البصير.
- اجتهد المفسّر في الترتيب الذي سار عليه في تدبره للسور في (معارج التفكر) فخالف بذلك ما أقرّه في الجدول الذي جاء في (قواعد التدبر) والمطابق للمصحف المعتمد عنده، وإن كان ذلك في مواضع يسيرة جدا في سورتين وهما سورة (القلم) التي كان ترتيبها الثاني وأصبحت الرابعة، و(المدثر) التي قدّمها من الترتيب الرابع إلى الثاني، وتتوسطهما سورة (المزمل).

يقول في سورة (المدثر): "بعد الدراسة التحليلية ترجح لدي أن صدر سورة (المدثر) قد نزل بعد سورة (العلق) فهي باعتبار صدرها ثاني سورة مكية، وهي على وجه العموم من أوائل التنزيل المكي باتفاق، وجاء في الصحيح أن أول ما نزل على الرسول ﷺ من القرآن بعد أن فتر الوحي قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾[المدثر: 1-3]. فهي بعد الآيات الخمس الأولى من سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ حتما"[1].

وهو بقوله هذا يعتمد على نزول صدر السورة في ترتيبها، مستندا في ذلك إلى ما ثبت في الصحيحين[2]، وقد وُفق في ذلك ووافق ما ذهب إليه جمع من العلماء في أن صدر سورة (المدثر) نزل بعد سورة (العلق) أخذا من الروايات الثابتة في ذلك[3].

قال ابن حجر: "وظاهر الأحاديث الصحيحة تأخر المزمل؛ لأن فيها ذكر قيام الليل وغير ذلك مما تراخى عن ابتداء نزول الوحي، بخلاف المدثر فإن فيها ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[المدثر: 2]"[4].

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص77.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص80.

[3] _ ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ج1، ص12- 13/ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج8، ص262/ التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج29، ص292.

[4] _ فتح الباري، ج8، ص678.

الفرع الرابع: التمييز بين النصوص الخبرية ونصوص التشريع والأحكام.

دعا المفسر أثناء حديثه عن ضرورة تتبع مراحل التنزيل في القاعدة التاسعة من (قواعد التدبر الأمثل) إلى التفريق بين النصوص الخبرية ونصوص الأحكام والتشريعات، وقد عبّر عن هذا بقوله: "على متدبر كتاب الله أن يجتهد في تتبع مراحل التنزيل، ويبني فهمه على أساس تدرج التشريع... أما النصوص الخبرية المبيِّنة للعقائد وأصول الدين الكبرى فيضم اللاحق منها للسابق، وتُفهم متكاملة الدلالة كأنها أنزلت في وقت واحد، لأن مضامينها حقائق لا تكاليف ولا مراحل تربوية، ومراحل بيان تعليمي، يتضمن فنونا بلاغية، وأدلة من الإعجاز البلاغي والفكري، والعلمي"[1].

ومعنى هذا أن المفسّر يَفْصل في تعامله مع النصوص القرآنية، فمنها ما يصلح أن يُراعى فيه ترتيب النزول ومنها ما ليس كذلك وقد زاد هذا وضوحا ما قاله: "إن النصوص المتأخرة نزولا في الأحكام والتشريعات هي الأحق بأن تكون عمدة الأحكام والتشريعات النهائية، إن كانت معارضة تماما لما نزل قبلها، ومكمّلة ومبيّنة إذا لم تكن معارضة تماما لم نزل قبلها...بخلاف النصوص الخبرية عن الكون، والنصوص التي تبين مسائل العقائد وأصول الدين الكلية العامة، فالمرحلية فيها مرحلية بيان تعليمي، وليست مرحلية تدرج تربوي، تكليفي، حتى يُعتبر العمل باللاحق هو الأمر المستقر، بل كلُّها ذوات دلالات مقصودات على الدوام، واللاحق منها يُضم إلى السابق، وتُفهم معا كأنها أنزلت دفعة واحدة، فهي متكاملة في دلالاتها يكمّل بعضها أيضا"[2].

وانطلاقا من هذا النص وسابقه تقسّم النصوص القرآنية في التعامل معها وفق ترتيب النزول على رأي المفسر إلى قسمين:

"القسم الأول: النصوص الخبرية المبينة للعقائد وأصول الدين، وهذه لا يراعى فيها ترتيب النزول، إنما يضم بعضها إلى بعض وتفهم متكاملة الدلالة كأنها نزلت في وقت واحد؛ وذلك لأن مضامينها حقائق وليست مراحل تربوية.

القسم الثاني: النصوص التشريعية والأحكام، وهذه لابد فيها من مراعاة ترتيب النزول، فقد يكون النص المتأخر مبينا أو مقيدا لمطلق، أو مخصصا للعموم، أو مثبتا حكما لم يكن ثابتا سابقا أو ناسخا أو

---

[1] _قواعد التدبر، ص151.

[2] _ قواعد التدبر، ص152. ينظر: الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق، حبنكة الميداني، ص30.

مكملا، فهي مراحل تدرج تربوي وتعليمي"[1].

وهذا التقسيم والتفريق الذي أكّد عليه الشيخ -رحمه الله- يُضاف إلى جملة الأسس التي سبق بيانها، فهو يدعو إلى تتبع مراحل التنزيل في نصوص الأحكام والتشريعات وقد قدم نماذج لذلك في (قواعد التدبر) بدراسته للتدرج في تحريم الخمر، والتدرج في وسائل التربية وغيرهما[2].

وظهر ذلك جليا في تفسيره التدبري لتلك الدراسات الموضوعية التي يجمع فيها آيات الموضوع الواحد ويتدبرها تكامليا مبيّنا ما أضافه السابق للاحق على ترتيب النزول، وسيأتي ذكر نماذج منها لاحقا.

وقد اعتُرِض على تقسيمه هذا؛ جاء في أحد المقالات ما نصه: "لقد فرّق الشيخ بين تفسير الآيات الخبرية والآيات التشريعية، والصواب -من وجهة نظر الباحثَين- عدم التفريق بينهما؛ بل على المفسر أن يفسر الآيات القرآنية في ظل بعضها، إذ لا تعارض البتة بين آية وأخرى، ولا فرق في التعامل بين آيات الأحكام وآيات الأخبار؛ ومراعاة الترتيب في نزول الآيات لا يكون إلا من باب فهم التدرج التشريعي لبعض الأحكام...مما قام الدليل على تدرج التشريع فيه"[3].

وأرى أن في هذا القول مبالغة، حيث قوّلا المفسّر ما لم يقله ومالا به إلى فهم بعيد عن مراده منه والله أعلم؛ فهو لم يدّعِ التعارض بين الآيات، بل إن من قواعد التدبر الأمثل عنده القاعدة السادسة: "حول تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها"[4]، والتي أكّد على ضرورتها عند تدبره في عدد من المواضع[5].

أما عن التفريق في التعامل بين النصوص التشريعية ونصوص العقائد فهو لم يقل به على إطلاقه بل من حيث مراعاة ترتيب النزول فيها لمعرفة المتقدم والمتأخر وبناء الفهم على ذلك، ولاشك أن ما ثبت وصح في ترتيب عدد من الآيات والسور له عظيم الأثر في فهم الكثير من الموضوعات منها موضوع النسخ والعام والخاص وغيرها مما نبه إليه، ولكن لا يعمم هذا القول في ترتيب جميع السور لأنه لم يصح في ذلك شيء كما أؤكد في كل مرّة.

---

[1] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص771.

[2] _ ينظر: قواعد التدبر، ص155 وما بعدها.

[3] _ قواعد التدبر الأمثل تحليل ونقد، روان فوزان وجهاد نصيرات، ص1190. (مقال)

[4] _ قواعد التدبر الأمثل، ص67.

[5] _ ينظر: معارج التفكر، مج4، ص106/ مج13، ص729.

ومن الباحثين من ذهب إلى أن هذا التقسيم يؤثر في طريقة التفسير، يقول سعيد إسماعيل في حديثه عن تنوع مضمونات القرآن الكريم: "يمكن تقسيمها إلى قسمين رئيسين: آيات الأحكام، وآيات الأخبار. فهذا التقسيم يؤثر في طريقة التفسير والتعامل مع آيات القرآن، من حيث الدقة في القراءة، ومن حيث الصرامة في تطبيق قواعد التفسير. فآيات الأحكام يجب أن تخضع لشروط صارمة أكثر من آيات الأخبار"[1].

ويقول غيره: إن "النظر إلى ما تعطيه البيئة وتلهمه للقارئ إنما يُراعى في حال البحث عن النسخ فقط أو التدرج في التشريع، وليست كل الأحكام القرآنية متدرجة، وليست كل آيات القرآن تتحدث عن الأحكام، وأما سائر الآيات القرآنية التي لا تتحدث عن الأحكام فليس للبيئة دور فيها"[2].

وبناء على ذلك فإن التقسيم الذي ذكره مفسرنا وارد ولا يمكن إلغاؤه وتجاهله، وأظن أن ما أصّل ونظّر له –رحمه الله– واضح لا يحتاج إلى زيادة بيان وتفصيل، ويشهد له قول الإمام الرازي[3]: "اعلم أن الكلام في أن هذه السورة مكية أو مدنية طريقه الآحاد. ومتى لم يكن في السورة ما يتصل بالأحكام الشرعية فنزولها بمكة والمدينة سواء، وإنما يختلف الغرض في ذلك إذا حصل فيه ناسخ ومنسوخ فيكون فيه فائدة عظيمة"[4].

وصفوة القول في ذلك كله: أن مخالفة المفسر لما دأب عليه المفسرين في تدبره بني على أسس عامة استند إليها، محورها وجوهرها هو ترتيب نزول سور القرآن الكريم، لذلك كان هو المحرك الرئيس لعجلة النقد الموجه لاختياره لأنه لم يلق حقه من البحث عنده من مناح عدة، أهمها:

– التفصيل في موقفه منه، وكذا في موقفه من الترتيب المصحفي حيث صرح أن هذا الأخير اجتهادي في محاولة منه لإيجاد مسوغ لاختياره بشكل عابر.

---

[1] _ منهج أبحاث المفسرين، ص110.

[2] _ ضوابط التفسير عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، أسماء عبد الرحمن ونصار أسعد، ص220. (مقال)

[3] _ هو: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري أبو عبد الله، فخر الدين الرازي، الفقيه الشافعي، اشتهر بالطب والتفسير وعلم الكلام، له مؤلفات كثيرة منها: تفسيره الكبير مفاتيح الغيب، المطالب العالية، وأساس التقديس، توفي سنة: 606هـ. ينظر: عيون الأنباء، ابن أبي أصيبعه، ص462/ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج4، ص249.

[4] _ مفاتيح الغيب، ج19، ص56.

– التسليم لما ذكره العلماء في ترتيب نزول السور، وعدم الإشارة إلى صعوبة الوصول إلى ترتيب ثابت وإلى اختلاف التراتيب المروية، فضلا عن الدراسة والبحث والتنقيب في صحة المرويات والآثار المنقولة في ذلك.

– تبني ترتيب نزولي لسور القرآن الكريم كاملة، دون تعقيب عليه أو مناقشته وكأنه مما تلقته الأمة بالقبول مع اجتهادات بسيطة فيه.

وهذه من أهم المؤاخذات على المفسر، فهو لم يشبعها بحثا ولم يفصل الحديث عن عدد من المسائل الجوهرية المرتبطة بها بما قد يخفف من حدّة الانتقادات الموجهة إليه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: أسباب ودوافع ومبررات اختيار المفسر ترتيب السور وفق نزولها في تفسيره -عرض وتقويم-.

لما كان اعتماد الترتيب النزولي للسور في تفسير القرآن الكريم بديلا عن الترتيب المصحفي مستحدثا في علم التفسير إذ لم يطرق بابه السّلف من قبل، كان لزاما على كل من يسلكه أن يُفصح عن أسباب اختياره له وتبنيه للفكرة وعدم اعتماده على ما درج عليه المفسرون في بيان آيات الذكر الحكيم.

إذ إن "الذي يقدم على أمر كبير يخالف فيه جماهير العلماء من السلف والخلف ينبغي أن تكون الأسباب الدافعة له واضحة المعالم محددة الأهداف، مدعمة بالبراهين والأدلة بحيث تحمل كل من يقرؤها على القناعة بجدوى هذا الأمر ناهيك عن إزالة الشكوك والشبهات من الأذهان"[1].

ومن أجل ذلك فقد حرصت في هذا المطلب على استقصاء البحث في أسباب ودوافع اختيار المفسر تدبر السور وفق ترتيب نزولها وذلك بعرضها في فرع أول، ثم التنبيه لمختلف الانتقادات الموجهة إليها وتقويمها في فرع ثان.

الفرع الأول: بيان الأسباب والدوافع والمبررات.

عُني مفسرنا كغيره ممن سبقه إلى التفسير وفق الترتيب النزولي للسور، ببيان أسباب اختياره له حيث جاءت مبثوثة في ثنايا مؤلفاته، قمت بجمعها ثم عرضها في نقاط إليك بيانها:

1- الدعوة إلى ضرورة التفريق بين ترتيب السور أثناء تفسير القرآن الكريم وبين ترتيبها في المصحف الشريف؛ حيث أكّد المفسّر على أنّه أقبل على وضع تفسير لفهم القرآن الكريم ولم يُقدم على طبع مصحف للتلاوة والتعبد.

يقول في تصريح له في أحد اللقاءات: "بأنّه لا يطبع مصحفا، وهذا الترتيب يعينه على الفهم"[2].

---

[1] _ التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان، مصطفى مسلم. (مقال)

[2] _ صرّح بهذا في لقائه مع طه فارس في دبي. تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص770.

وقد تفطن "مجد مكي" إلى هذه النقطة ونافح دفاعا عما وُجّه لشيخه من انتقادات حولها، وأترك القارئ يتأمل نص قوله: "وقد ظنَّ بعض المتعجلين في إصدار الأحكام، أنّ الشّيخ يدعو في تطبيقه هذا المنهج إلى تغيير ما توارث المسلمون عليه من ترتيب سور القرآن!!.

والحقُّ أن هذا الظنّ عار عن البرهان، فالشيخ يؤكِّد على ضرورة المحافظة على ترتيب سور القرآن، التي أجمع عليها الصحابة ﷺ، سواء أكانت بتوقيف من الرسول ﷺ، أو باجتهاد من الصحابة ﷺ، ويرى أن الخروج عن هذا المنهج بدعة في الدين...ولكن الترتيب الذي أجمع عليه المسلمون، والذي يجب المحافظة عليه في طباعة المصحف وتلاوته التعبدية، لا يمنع من تدبر القرآن بتتبع مراحل نزوله"[1].

ولاشك أن التفريق بين مسألة إعادة ترتيب المصحف الشريف على ترتيب النزول وبين التفسير وفق هذا الأخير من الأهمية بمكان[2]؛ إذ: "على من يسلك هذه الطريق أن يبين في مقدمة تفسيره أن هذا "تفسير لفهم القرآن لا مصحف للتلاوة""[3] كما قال سعيد بوعصاب.

2- الرغبة في تطبيق مضمون ما فتح الله به عليه من قواعد والالتزام بها، فرغم أنها "تقدم للمتدبرين أصول التفسير الأقوم للقرآن الكريم"[4] على قوله، لم تحض باهتمام المفسرين ومن أهمها القاعدة التاسعة التي دعا فيها إلى ضرورة تتبع مراحل التنزيل[5].

يقول: "وبعد فقد فتح الله ﷻ علي من خلال تدبري الطويل لكتابه المجيد، باستخراج أربعين قاعدة من قواعد التدبر الأمثل لكتابه، قابلة للزيادة عليها...وقد دونت هذه القواعد مقرونة بأمثلتها في كتابي (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ)...ولم أجد في المفسرين من اهتم بالتزام مضمونها، ولا بالتزام كثير منها.

وقد رأيت من الواجب عليّ أن أقدم ما أستطيع تقديمه من تدبر لسور هذا الكتاب العزيز

---

(1) _ التعريف بكتاب معارج التفكر، ص27. وقد أكد الشيخ المعاني التي أقرّها تلميذه في حديثه عن تلقي القرآن وتدوينه وتدبره. ينظر: الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها، ص435 وما بعدها.

(2) _ فهي من معايير الفصل بين فريقين، فريق دعا إلى إعادة ترتيب المصحف الشريف وكان سيء النيّة خبيث الطوية يريد العبث بالمقدس عند المسلمين مثل الشيعة والمستشرقين، وفريق كان غرضه البحث عن طريقة تقرب الناس من أجواء النزول القرآني فسعى إلى إخراج تفسير يحمل الجدّة في شكله ومضمونه.

(3) _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، ص121.

(4) _ معارج التفكر، مج1، ص5.

(5) _ ينظر: قواعد التدبر، ص151.

المعجز... ملتزماً على مقدار استطاعتي بمضمون القواعد التي فتح الله بها عليّ..."[1].

يقول مصطفى مسلم في ذلك: "إن تدبره الميداني الطويل لكتاب الله [يقصد مفسرنا]، واستنباطه للقواعد التي ذكرها في كتابه (قواعد التدبر الأمثل) كان من جملة ما دعاه إلى إتباع هذا المنهج"[2].

3- الاجتهاد في تتبع مراحل التنزيل، والتأكيد على ضرورة بناء فهم المفسر على أساس التدرج في التشريع لما له من أهمية لخصها قائلا: "على متدبر كتاب الله أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيل القرآن، ويبني فهمه على أساس تدرج التشريع، حتى لا يقع في خطأ اعتماد آية سابقة النزول في تدرج التشريع مع أنه نزل بعدها تكميل بيان كاشف لأحكام المرحلة اللاحقة، وحتى لا يقع في خطأ تصور معارضة الآية السابقة لما نزل بعدها في موضوعها الذي تعالجه من موضوعات التكاليف والأحكام، ووسائل التربية..."[3].

4- الكشف عن تدرج الخطوات التربوية، بتتبع مراحل النزول للنصوص التربوية، يقول: "وتتبع مراحل النزول للنصوص التربوية يكشف للباحث عن التدرج في الخطوات التربوية، والتكرير في استعمال العلاج التربوي، بغية تأثيره والحصول على الفائدة منه، كالعلاج الدوائي في مجال الصحة الجسدية.

فالنصوص التربوية ذوات مراحل تدريجية توائم الحالة النفسية للفرد الذي توجه له بها أساليب التربية القرآنية، وتوائم الحالة النفسية والاجتماعية للمجموعة من الناس الذين تتوجه لهم بها أساليب التربية القرآنية. وكذلك النصوص الحركية في طرائق الإصلاح، وأساليب الدعوة وألوان الجهاد"[4].

5- تجنب الوقوع في الأخطاء التفسيرية، التي قد تزل فيها أقدام المفسرين لكتاب الله ﷻ، وقد أوضح ذلك بقوله: "إن مراعاة مراحل التنزيل وأزمانه، وملاحظتها لدى التدبر، تحمي من أخطاء تفسيرية قد يقع بها بعض المفسرين. فبعضهم يأتي بقصص مدنية فيضعها شرحا أو سببا لنص مكي، ويُحمل بذلك النص القرآني ما لا يحمل، وقد يقع من جراء ذلك في خطأ فادح..."[5].

6- الاستفادة مما يجلبه تتبع مراحل التنزيل من نفع كبير للمتدبر، يقول مبينا ذلك: "فهو يهديه [أي: المتدبر] إلى مفاهيم جليلة تتصل بحكمة التدرج، وبمعرفة الغاية من التكرير إذا وُجد في القرآن دون

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص5.

(2) _ التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان. (مقال)

(3) _ قواعد التدبر الأمثل، ص151.

(4) _ قواعد التدبر الأمثل، ص152.

(5) _ قواعد التدبر الأمثل، ص152.

فرق بين النصوص اقتضاه غرض التكامل"[1].

7– تحقيق تسلسل البناء المعرفي وتسلسل التكامل التربوي.

يقول: "وقد رأيت بالتدبر الميداني للسور أن ما ذكره المختصون بعلوم القرآن من ترتيب النزول هو في معظمه حق، أخذاً من تسلسل البناء المعرفي التكاملي وتسلسل التكامل التربوي..."[2].

8– الكشف عن أمور جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي لأمور الدين، وحركة المعالجات التربوية الربانية، يقول فيها: "واكتشفت أموراً جليلة تتعلق بحركة البناء المعرفي الشاملة لرسول الله ﷺ وللذين آمنوا معه واتبعوه، وللذين لم يستجيبوا لدعوة الرسول متريثين، أو مكذبين كافرين"[3].

9– الاستفادة من الأفكار والفوائد، يقول: "إن هذا الترتيب يفيد في البناء الفكري، والبناء التربوي، والبناء الأخلاقي...هناك آلاف الأفكار والفوائد تستفاد من هذه الطريقة"[4].

10– إدراك الإحالات القرآنية على ما سبق في النزول، وهو يعبر عن ذلك بقوله: "والمتدبر الذي لا يلاحظ ترتيب نزول النصوص القرآنية، كما جاء في بيانات ترتيب النزول، لا يستطيع إدراك الإحالات القرآنية على ما سبق في النزول، ولا يستطيع معرفة التدرج في الأحكام، ووسائل وأساليب التربية، وعمليات التكامل الفكري في الموضوعات القرآنية، ولا معرفة الناسخ والمنسوخ إن وجد، وقد يقع في أخطاء فاحشة لا تليق بمن يتدبر كتاب الله المجيد"[5].

وهذه الدوافع والأسباب لا نلمح فيها مساسا صريحا بقدسية القرآن الكريم، ولا طعنا في عقيدة المسلمين، ولا غرو في ذلك فصاحبها سخّر فكره دفاعا عن الإسلام والمسلمين، وعوّد قلمه الذود عن مقدساتهم وعلى رأسها القرآن الكريم دفعا للشبه المثارة حوله.

ولعلي في ختام الحديث عنها أردد وراء سعيد بوعصاب ما قاله إنصافا لمطالب المفسرين وفق ترتيب النزول: "لا يستريب عاقل أو يجادل منصف في واقعية هذه المطالب، ومسيس الحاجة إليها، فهي مطالب عالية، وغايات سامية، وهي بلا شك من جعلنا نحترم كل الاحترام، ونقدر كل التقدير من

---

[1] _ قواعد التدبر الأمثل، ص153.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص6.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص6.

[4] _ وهذا قوله خلال لقاء مع طه محمد فارس في مدينة دبي. ينظر: تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص770.

[5] _ الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق، ص31.

سلك هذا المنهج لتحقيقها، ولدينا الأمل أن أصحابها مثابون إن شاء الله، فهم بين مصيب مأجور مرتين، أو مخطئ مأجور مرة واحدة" [1].

وهذا القول وإن كان عاما يشمل جميع من فسّر وفق ترتيب النزول على رأي الباحث؛ فالمقصود به في هذا المقام "عبد الرحمن حبنكة الميداني" دون سواه؛ كما أن الإقرار بما تضمنه لا يعني عدم دراسة هذه المطالب ومناقشتها وبيان واقعيتها وهو ما سيأتي بيانه في الفرع الموالي.

الفرع الثاني: تقويم الأسباب والدوافع والمبررات.

حمل عدد من الباحثين المعاصرين لواء الرد وانتقاد أسباب ودوافع من سلك ترتيب النزول في تفسيره لسور القرآن الكريم[2]؛ لذا آثرت تلخيص تلك الأسباب والجمع بين ما تشابه مضمونها ثم سرد ما ورد على أهمها من انتقادات وأتبعها بالإضافة أو التعليق أو التعقيب إذا لزم الأمر، كالآتي:

أولا: قول المفسر أنّ (معارج التفكر ودقائق التدبر) تفسير تدبري للقرآن الكريم حسب ترتيب النزول، وليس مصحفا للتلاوة.

هذه الحجة سُبِق إليها مفسرنا، فقد عزز بها محمد عزة دروزة موقفه من التفسير وفق ترتيب النزول مستندا في ذلك إلى ما أفتاه به علماء عصره[3]؛ وعليه فإنه –رحمه الله– ردد ما قاله من سبقه وإن لم يصرح بذلك.

وهذه المقولة واردة ويمكن الاستناد إليها بيانا لصحة ما أقدموا عليه في حال ثبت ترتيب صحيح لسور القرآن الكريم، إذ شتان بين وضع كتاب في التفسير وبين تأليف مصحف للتلاوة؛ ولكن "الاختلاف في تحديد المكي والمدني من السور والآيات لا يزال قائما بين المفسرين، ولما يصلوا بعد إلى رأي قاطع في ذلك، وأعتقد أن مجرد البحث في هذه المسألة يحتاج من الباحثين في علوم القرآن والباحثين في علوم القرآن والحديث إلى جهد طويل، ذلك أن العمل في هذه القضية يحتاج إلى جمع

---

[1] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، ص116.

[2] _أمثال محمد شعباني، مصطفى مسلم، طه محمد فارس، محمد مجلي، إبراهيم رحماني، عبد الرحمن نصر وغيرهم. ينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن، ص60/ التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان، (مقال)/ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص769 وما بعدها/ تفسير القرآن منبعه وفوائده، ص162 وما بعدها (مقال)/ التفسير المعاصر للقرآن الكريم وفق مرويات النزول، ص25 وما بعدها (مقال)/ عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، ص368 وما بعدها.

[3] _ وأقصد بها فتوى الشيخ أبو يسر عابدين وفتوى الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. ينظر: التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ج1، ص10- 11.

الروايات، مع بيان صحيحها من سقيمها...وهذا عمل في ذاته يحتاج إلى جهد كبير، لو أن أولئك السادة من المفسرين قاموا به لاستفرغ منهم الجهد والطاقة"[1]، كما قال سعيد بوعصاب؛ ولكنهم لو أقدموا على ذلك لكانوا جاءوا بما هو أجدى وأجود وأسلم.

وقد انتقد هذا طه محمد فارس فقال: إن "هذه الطريقة في التفسير وإن لم تكن مصحفا يُتلى، إلا أنها تحدث نوعا من التشويش للقارئ، وتزيد من عنائه في الوصول إلى النص والسورة التي يريد تفسيرها، فهو يحتاج إلى أن يحفظ ترتيب السور المتبع في التفسير..."[2].

وهذا القول فيه شيء من المبالغة؛ بل أقول إنه لو ثبت ترتيب صحيح لكان في بحث القارئ عن السورة التي يريد تفسيرها عظيم الفائدة، فهو يقرأ ويتتبع كيف نزل الوحي على المصطفى ﷺ حتى يصل إلى مبتغاه.

ثانيا: بناء الفهم على أساس التدرج في التشريع.

وفي هذه المسألة وُجهت للمفسر جملة من الانتقادات أهمها:

يقول طه محمد فارس: "قوله بأنه سلك ترتيب النزول ليبني فهمه على أساس التدرج التشريعي...، كلام لا يصح، وهو منقوض من ناحيتين:

أما الناحية الأولى: فهو أنه عندما تناول السور بالتفسير على ترتيب النزول... لم يكن هذا الترتيب ليعطي تصورا صحيحا للمراحل التي مر بها التشريع؛ ذلك لأن هذا الترتيب المعتمد يذكر السور التي نزلت مفرقة في أزمنة متباعدة جملة واحدة، مما يصعب معرفة التدرج التشريعي من خلال ترتيب النزول.

أما من الناحية الثانية: لم يكن التفسير على ترتيب المصحف الذي بين أيدينا مانعا من فهم التدرج التشريعي في الأحكام، بل إن فهم التدرج التشريعي كان معلوما من زمن الصحابة ﷺ...والأستاذ حبنكة لم يأت بشيء جديد في بيان التدرج الشريعي لم يقل به المفسرون من قبل، فما هي ميزة اعتماد ترتيب النزول إذا وهو لم يُقدِّم لنا جديدا في فهم التدرج التشريعي؟!"[3].

أقول كي لا نغبط المفسر حقه أو نتحامل عليه اندفاعا لنقض ما تبناه أثناء تدبره للسور، فإنه – رحمه الله– تنبه للنقطة الأولى التي ذكرها الباحث ووجد لها مخرجا فهو يقف في كثير من الأحيان ويجمع

---

[1] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، ص119.

[2] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص459.

[3] _ المرجع نفسه، ص772.

ما سبق الآية في نجوم التنزيل في الموضوع ويظهر التدرج في التشريع فيها، أو يدرسها ويذكر ما سيأتي بعدها وبالتالي فأنا لا أسير معه في نقضه هذا.

أما الناحية الثانية التي ذكرها فقد كان انتقاده وجيها، إذ التدرج في التشريع عُني به السلف من العلماء والمفسرين، والمفسّر وإن كان يصبوا إلى إظهار ذلك التدرج جليا باعتماده الترتيب حسب النزول التاريخي إلا أن ذلك لا يرقى إلى اتخاذه مبررا لمخالفة صنيع ما عليه تواتر منهج السلف ومن جاء بعدهم من الخلف.

ثالثا: السلامة والعصمة من الأخطاء.

وألخص جملة هذه الأخطاء في:

– خطأ تصور معارضة الآية السابقة لما نزل بعدها في موضوعها، وكذا اعتماد آية سابقة قبل التي تليها في الأحكام الشرعية.

– خطأ الإتيان بقصص مدنية ووضعها شرحا وسببا لنص مكي أو العكس، واعتماد قصة آية مدنية في تفسير آية مكية أو العكس، إذ ذلك يحمل الآية ما لا تحتمل.

وألخص كذلك ما قاله طه محمد فارس في الرد عليهما: "حل هذه المشكلة لا يكون بالاعتماد على ترتيب النزول؛...وإنما يكون بمعرفة الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والخاص والعام...

والمفسرون المحققون لم يقعوا بما أشار إليه حبنكة من أخطاء، رغم أنهم فسّروا القرآن على ترتيب المصحف وليس على ترتيب النزول"[1].

وهذا قول وجيه، ويضاف إليه أن هذا الترتيب يحمل في ثناياه الإشكال والاختلاف فهو وإن كان يُزيل باعتماده الوقوع في بعض الأخطاء التفسيرية، فالانتقاد يوجه له من جهة عدم الجزم بترتيب جميع السور حسب نزولها.

أما قول الباحث: "والأستاذ حبنكة لم يضرب لنا أمثلة يبين لنا فيها صورا مما أشكل على المفسرين السابقين، وأزال هو الإشكال بسلوكه ترتيب النزول"[2].

ففيه نظر، وسيأتي ذكر نماذج وأمثلة لهذا في المبحث الموالي إن شاء الله.

---

[1] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص772- 773.

[2] _ المرجع نفسه، ص773.

رابعا: تحقيق تسلسل البناء المعرفي والتكامل التربوي والبناء الأخلاقي واكتشاف أمور تتعلق بذلك.

يقول مصطفى مسلم تعليقا على هذه العبارات: "لقد لجأ الشيخ كسابقيه [يقصد به من فسّر على ترتيب النزول] إلى استخدام عبارات مطاطة عامة غير واضحة المعالم (البناء المعرفي التكاملي) (التكامل التربوي) (حركة البناء المعرفي) (المعالجات التربوية).

وحبذا لو ساق لنا فضيلة الشيخ أمثلة تطبيقية من خلال تفسيره حسب ترتيب النزول على هذا البناء المعرفي التكاملي، والتكامل التربوي، وحركة البناء المعرفي، والمعالجات التربوية"[1].

أقول: لقد ساق المفسر الكثير من الأمثلة التطبيقية، وسيأتي عرض بعضها في المطلب الموالي.

وخلاصة القول في ذلك: أن الأسباب التي صرّح بها المفسر –رحمه الله– واختار الترتيب النزولي بهدف تحقيقها هي مطالب مشروعة، وليس فيها ما يُمكن أن يعتبر فيه مساس بقدسية القرآن الكريم، ولكن رغم ذلك فهي لا ترقى إلى مستوى تعليل ما أقدم عليه وخالف به الترتيب المصحفي المتواتر الذي سار عليه أغلب المفسرين في بيانهم لمعاني كتاب الله ﷻ، كما أنه أغفل الحديث على النقاط التي انتقدت على من سبقه كي يخفف من حدة النقد الموجه إليها، ولعل من أهمها اختيار ترتيب دون دراسة وبحث، وكذا ترك الاستعانة بالمصادر التي تعين على معرفته والوصول إليه ولو بشكل تقريبي.

ومن ثم يمكن القول إن مفسّرنا لم يوف الطريقة التي اختارها وسار عليها في تدبره لسور القرآن الكريم، حقها من البحث والتحرير والتفصيل في مسائلها وقضاياها وإن كانت له بعض الجهود في ذلك مما لا يمكن إهماله وتجاهله، وهذا من الناحية التنظيرية والتقعيدية التي يسوقنا الحديث عنها إلى دراسة الناحية التطبيقية في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) وهي موضوع المبحث الموالي بإذن الله.

---

[1] _ الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق، ص16.

المبحث الثاني:

ملامح التفسير وفق الترتيب النزولي للسور في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) -عرض وتقويم-.

حرصت أثناء دراسة تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) على جمع الشواهد والنصوص التي تفاعل فيها المفسر مع الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم؛ مركزة على تتبع المادة العلمية التي أفرزها اعتماده لهذا الأخير والتي يمكن أن تسهم في تشكيل خصائص التفاسير الترتيبية المستحدثة[1].

والحديث عن تطبيقات ترتيب نزول السور وما ترتب عليه لا يعني التسليم بصحة الترتيب المعتمد فقد سبق بيان ضعفه وعدم الاطمئنان له؛ وإنما الغرض تسليط الضوء على أثرها في تفسير القرآن الكريم إيجابا أو سلبا، خاصة وقد أظهر المفسر إعجابه وولعه وتشبعه بالفكرة، وحرص على توظيفها على نطاق واسع في الكثير من المواضع التي أشاد بها تلميذه مجد مكي بقوله: إن "التطبيق العملي لدراساته العميقة كشف عن الكثير من الحقائق والمفاهيم العلمية والتربوية والتشريعية التي غابت عن كثير من المفسِّرين الذين لم يراعوا في تفسيرهم جوَّ السورة التي نزلت فيه، وتسلسل ترتيبها في النزول"[2].

وبيانا لذلك فقد اجتهدت في تقسيم تطبيقات المفسر لترتيب نزول السور أثناء تدبره حسب طريقته في توظيفها إلى قسمين[3]، شكّل الحديث عنهما المطلب الأول والثاني من هذا المبحث، أما المطلب الثالث فقد حاولت فيه بيان البعد المقاصدي في توظيفه لها.

---

[1] _ أقصد التفاسير وفق ترتيب نزول السور، وقد استفدت هذا الاصطلاح مما كتبه محمد نبيل غنايم، حيث سماها بالتفاسير التجديدية الترتيبية. ينظر: جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم، ص376.

[2] _ التعريف بكتاب معارج التفكر، ص29.

[3] _ وهذا التقسيم رأيته الأنسب هنا فقد زاوج المفسر في تدبره للآيات بين التدبر التحليلي والتدبر الموضوعي، وأقصد بالأول جمع التطبيقات التي وظف فيها المفسر ترتيب النزول في ثنايا تدبره التحليلي، أما الثاني فالمراد به تلك الوقفات التي كان يخصصها الشيخ لدراسة موضوع من موضوعات القرآن الكريم، مستحضرا في بيان ذلك جمع من الآيات التي تخدم الموضوع وفق ترتيب نزولها.

المطلب الأول: توظيف المفسر ترتيب النزول في تدبره التحليلي.

سبق عرض طريقة المفسر في تدبره التحليلي للسور القرآنية؛ وتبيّن منهجه العام في تناوله لها بالبيان والتحليل؛ وفي فروع هذا المطلب عرض وتقويم لأهم الملامح التي حرص -رحمه الله- على ترك أثر التفسير وفق ترتيب النزول فيها.

الفرع الأول: مراعاة مرحلة وترتيب نزول السورة أثناء تدبره لها.

اجتهد مفسرنا وهو يتدبر السور المكيّة أن يربطها بالإطار التاريخي لها ويضعها في الفترة الزمنية التي نزلت فيها مراعيا في ذلك بيئة نزول النص[1]، في محاولة منه لاستخلاص أهم ما تضمنته من معان إبان نزولها، وما وصفته من علاج بما يلائم المرحلة التي نزلت فيها.

وقد تجلى هذا في عدد من المعالم رأيت أن أذكرها وأمثل لها بنماذج من ثنايا التفسير تنبيها بها على غيرها، وبيانها كالآتي:

1- الحرص على وضع السور في جو التنزيل: وظهر ذلك فيما كان يمهد به للسورة ودروسها وكذا في حديثه عن موضوعها، فهو يرجع بالمتدبر لكتاب الله ﷻ إلى تلك المرحلة والجوّ الذي نزلت فيه ليستحضر معه المخاطبين بها من المسلمين أو الكفرة المعاندين، والطور الذي كانوا عليه.

ففي موضوع سورة (النمل) مثلا يقول: "موضوع هذه السورة يسير على ثلاثة خطوط كبرى، تتفرع عنها فروع مشتقة من عناصرها:

الخط الأول: متابعة معالجة كبراء مشركي مكة وما حولها، ويلحق بهم أتباعهم، وفق الطور الذي كانوا فيه إبان نزول سورة (النمل) كفرا وتصرفات جدلية وكيدية...

الخط الثاني: متابعة تربية الرسول محمد ﷺ بحسب الحال التي كان عليها إبان نزول السورة...

الخط الثالث: تثبيت المؤمنين على إيمانهم والانتفاع بالقرآن...وعلى الالتزام بإقامة الصلاة وإيتاء

---

[1] _ ويشهد لذلك ما قرره في القاعدة الرابعة من ضرورة مراعاة "بيئة نزول النص البشرية والزمانية والمكانية والنفسية والفكرية الفردية والاجتماعية". ينظر: قواعد التدبر الأمثل، ص54.

الزكاة، ضمن حدود التكاليف المرحلية، التي أبانها الرسول لهم، حتى نزول السورة..."[1].

ويلحق في هذا المقام تأكيد المفسر في الكثير من الأحيان على ملاءمة ما تضمنته السورة من قضايا أو معالجات أو أسلوب للمرحلة التي نزلت فيها:

فانظر لما جاء إلى تدبر قول الله ﷻ: ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾[المزمل: 13]، قال: "إن الوعيد الذي جاء في هذا النص للمكذبين قد جاء كناية وتعريضا وإلماحا لا تصريحا، لأن المرحلة ما زالت مرحلة أوائل الدعوة التي يحسن فيها هذا الأسلوب، وهو أسلوب التنبيه على وجود عذاب عند الله لمستحقّيه، ووجود أدوات لهذا العذاب"[2].

حيث نجد الشيخ يذكّر بمراعاة السورة لحال المخاطبين وأسلوب مخاطبتهم بما يلائم المرحلة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك مجتهدا في بيان مراعاة مرحلة النزول في اختيار المفردات:

ففي حديثه عن موضوع سورة (البلد) بعد تساؤله بمثل ماذا يكون اقتحام العقبة؟، يجيب: "...بعتق رقبة عبد من الرق، أو بإطعام الطعام في يوم ذي مسغبة...وفي اختيار العتق والإطعام مراعاة للمرحلة المكية التي نزلت فيها السورة، إذ كان توجيه الاهتمام فيها لمساعدة ذوي الضرورات والحاجات في المجتمع، والتحلي بفضائل الأخلاق، عقب الدعوة إلى الإيمان الصحيح"[3].

وهذا المعنى سُبق إليه المفسر ممن اعتمد الترتيب المصحفي في تفسيره لسور القرآن الكريم، يقول صاحب الظِلال: "ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمسّ الحاجة إليه: فك الرقاب العانية وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة...وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر وليست له دولة تقوم على شريعته. وكان الرق عاما في الجزيرة العربية وفي العالم من حولها"[4].

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص19- 20. ينظر: مج11، ص150/ مج12، ص16- ص143.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص179. ينظر: مج2، ص8/ مج10، ص463- ص507/ مج12، ص348- ص349/ مج11، ص14- ص 494.

[3] _ معارج التفكر، مج3، ص175.

[4] _ في ظلال القرآن، سيد قطب، ج6، ص3912.

2- الإشارة إلى ما تضمنته السورة من قضايا ظهرت إبان نزولها، لم يُطرق بابها فيما نزل قبلها من السور:

ومثاله ما أشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18] قال: "وبالتأمل التحليلي الذي سبق في التمهيد، مع مراجعة السور التي نزلت قبل سورة (يونس/51) يظهر للمتدبر أنّ هذه المقالة ظهرت إبان نزول هذه السورة، ليدفع المشركون عن أنفسهم معرّة عبادتهم ما لا ينفعهم ولا يضرّهم، التي شنّع عليهم بها القرآن فيما نزل منه قبل سورة (يونس/51)"[1].

وكذا ما نبه إليه في الملحق الثاني لسورتي (الفلق) و(الناس) بقوله: "والاستعاذة بالله ﷻ، هي في الحقيقة توكّل على الله ودعاء له في آن واحد. وهاتان عبادتان في حركات القلب وذكر اللسان.

وفي الربع الأول من التنزيل المكي أنزل الله ﷻ سورتي المعوذتين، يعلمنا فيهما كيف نستعيذ به من شر كل ذي شر، نظرا إلى أن الاستعاذة به من أوائل مظاهر السلوك الإيماني، بعد إعلان التوحيد، وبعد الاستعانة بالله في كل الأعمال، وبعد الصلاة له وبعض ألوان العبادات القولية والعملية"[2].

ويضاف إلى هذه الأمثلة ما كان ينبه إليه المفسر من قضايا مستجدة عالجتها السورة، وما أضافته مقارنة بسابقاتها في ترتيب النزول، مما يتطلب بيانه في المرحلة التي نزلت فيها السورة[3].

3- التّنبيه إلى المسائل المشتركة بين السور، وربط كل منها بالفترة التي نزلت فيها:

يقول في الدرس الرابع من دروس سورة (هود) وهو الآيات من (12- 14): "هذا الدرس موصول بما سبق أن نزل قبل سورة (هود) من سور، بشأن القرآن وحال الرسول ﷺ تجاه مواقف كبراء مشركي قريش...فمنها ما جاء في الآيات من (15- 17) من سورة (يونس/ 51 نزول)...وفي الآيتين (86) و(87) من سورة (القصص/ 49 نزول) إلى سائر ما جاء في السور قبل ذلك.

ومتدبر الآيات التي سبق أن نزلت بأناة، يلاحظ أن ما اشتملت عليه من معالجات وتربيات ربانية، متسق اتساقا ملائما لترتيب نزول السور التي هي منها"[4].

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص69. ينظر: مج11، ص84- 85.

[2] _ معارج التفكر، مج2، ص50. ينظر: مج14، ص387.

[3] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص629/ مج3، ص172- ص497/ مج10، ص57- ص383.

[4] _ معارج التفكر، مج10، ص331. ينظر: مج11، ص94.

وهنا نلاحظ كيف أن الشيخ يحاول أن يبني المعنى على ما سبق ويربط بين السور برباط واحد، يظهر فيه ما أضافته كل سورة على سابقتها بما يتلاءم مع ترتيبها والمرحلة التي نزلت فيها، ويظهر هذا بجلاء فيما ختم به المثال الآتي:

يقول أثناء تدبره لسورة (التكاثر): "وإذا ربطنا فكرة سورة (التكاثر/ 102 مصحف/ 16 نزول) بفكرة سورة (العصر/ 103 مصحف/ 13 نزول) السابقة في النزول...وضح لنا أن سورة (التكاثر) تبين دافع رغبة الإنسان في التكاثر من فانيات الحياة الدنيا، الذي هو أحد أسباب انغماس الإنسان في واقع الخسر الدائم مع لحظات عمره، الذي جاء بيانه في سورة (العصر).

ثم إذا تأملنا ما جاء في سورة (العاديات/ 100 مصحف/ 14 نزول) التي نزلت بعد سورة (العصر) وقبل سورة (التكاثر) وجدنا أنها قد تحدثت عن حب الإنسان الشديد للمال...

ومن هذه السور الثلاثة نستخلص أن دافع حب المال حبا شديدا، مع رغبة التكاثر منه ومن الأولاد وسائر زينة الحياة الدنيا...من أعظم أسباب وقوع الإنسان في الخسر...

وهكذا يتكامل بناء الأفكار المعرفية في القرآن، مع مراحل التنزيل، لبنة فلبنة، وضمن هذا المنهج التدرجي تتكامل الموضوعات القرآنية جامعة كل عناصرها"[1].

4- التذكير بما تضمنته السورة من متابعات لسابقاتها في ترتيب النزول:

يرجع المفسر في الكثير من الأحيان وهو يتدبر السورة ليُذكّر بما تضمنته من متابعات، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾[يونس: 20] حيث قال: "في هذه الآية متابعة لما جاء في الآيات من (90- 93) من سورة (الإسراء/ 50 نزول) إذ جاء فيها تعليق أئمة المشركين في مكة إيمانهم بالرسول على أن يأتيهم بآيات مادية يقترحونها، وهم في ذلك متعنتون كاذبون.

ودلت هذه الآية من سورة (يونس/ 51 نزول) على أنهم جعلوا يكررون مطالبة الرسول بآية مادية على وفق مقترحاتهم، وأنهم اتخذوا عدم استجابة الرسول لمقترحاتهم ذريعة لاتهامه بأنه ليس رسولا مرسلا من رب العالمين...قائلين: هلا أنزل عليه آية من ربه كما طلبنا منه...فكان من الحكمة أن يعلم الله رسوله ما يرد به عليهم، إذ كانت هذه الإشاعة الإعلامية تتردد إبان نزول سورة (يونس)"[2].

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص671

[2] _ معارج التفكر، مج10، ص73.

وقد اجتهد المفسر في تتبع ما بين سورة (يونس) و(الإسراء) السابقة لها في عدد من المواضع يقول في ختام الحديث عن أحدها: "..سورة (يونس/ 51 نزول) قد اشتملت على متابعات فيها إضافات وشرح وتفصيل لقضايا اشتملت عليها سورة (الإسراء/ 50 نزول) فكأنها امتداد لها"[1].

ويستدرك على كلامه هذا في موضع آخر فيقول: "لكن هذه المتابعات تشتمل على إضافات، وتنويع وتغيير في الأساليب، تكشف جوانب رائعة من إعجاز القرآن المجيد البياني"[2].

فمن مميزات تفسير المعارج هو حرص صاحبه على التتبع، وهو ما نص عليه عند ختام تدبره لسورة (الذاريات) عندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾[الذاريات: 60]، قال: "أي: الذي يوعدونه آنا فآنا في نجوم التنزيل، وتتبع ما سبق إنزاله من سور قبل سورة (الذاريات) يكشف للباحث المتدبر أن معظم ما سبق إنزاله قبل هذه السورة يشتمل على الوعيد بعذاب الله يوم الدين للكافرين، كما يشتمل على الوعد بالنعيم الخالد في جنات النعيم"[3].

فالمفسر –رحمه الله– وهو يتدبر السورة يحاول دائما أن يستحضر ما سبقها في النزول حرصا منه على الكشف على العلاقة بينها، وبيان التنوع في أساليب عرض مضمونها لأن ذلك يكشف عن جوانب من إعجاز القرآن الكريم.

5– الإشارة إلى ما تضمنته السورة من تمهيد وتوطئة لما سينزل بعدها:

ومثاله ما نبه إليه عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[العنكبوت: 46].

حيث قال: "...جاء هذا البيان في أواخر التنزيل المكي، توطئة لما سيجري في المرحلة المدنية القادمة القريبة في علم الله من حاجة إلى المجادلة مع أهل الكتاب ولاسيما اليهود منهم، إذ لبعض قبائلهم وجود وافد إليها منذ قرون"[4].

وهذه النقاط التي أشرت إليها ووضحتها بالأمثلة، تعد من أهم المعالم التي ظهر عليها مراعاة مرحلة وترتيب نزول السورة أثناء تدبره لها، ولا شك أن القارئ وقف معي على جهود المفسر في هذا الباب وحرصه على الاجتهاد في إثبات ما يلوح له في ذلك.

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص102. ينظر: مج10، ص157.

[2] _ معارج التفكر، مج10، ص305. ينظر: مج10، ص55– ص62/ مج11، ص160.

[3] _ معارج التفكر، مج13، ص264.

[4] _ معارج التفكر، مج15، ص275– 276. ينظر: مج1، ص127/ مج15، ص230.

الفرع الثاني: الاستعانة بترتيب النزول في فهم معاني الآيات والوقوف على دلالاتها.

أضفى ترتيب السور حسب تاريخ نزولها صبغة على فهم المفسّر لمعاني الآيات، حيث وظفه واتخذه وسيلة وأداة استعان في تدبره للسور، وقد ظهرت ملامح ذلك فيما سيأتي بيانه:

1- اعتماد المفسر في بيان معاني الآيات وفهم دلالاتها على ما سبقها في نجوم التنزيل:

فتأمل صنيعه عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾[الأحقاف: 8] يقول: "وقد ظهر لي أن المراد بعبارة: فإن افتريت قرآنا كما تحبون لأرضيكم، كما سبق أن طلبتم مني، إبان نزول سورة (يونس/ 10/ 51 نزول) فأنزل الله علي فيها الآيات من (15- 17) عاقبني الله عقابا شديدا أدناه أن يُمِتني ويمنعني من أن أنطق بما افتريته. ولو كان ما أبلغكم عن ربي من افترائي لافتريت لكم ما يُرضيكم مني لتستجيبوا لدعوتي"[1].

ومثاله أيضا ما ذكره عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[لقمان: 34] حيث استعان في بيان دلالاتها بالآية (187) من سورة (الأعراف/ 39 نزول) التي سبق تدبرها معلقا بقوله: "ويظهر لي أن ما جاء في سورة (لقمان/ 57 نزول) استغني فيه عن إيراد نص قطعي الدلالة يدل على أن الله لم يعلم أحدا من خلقه بوقت قيام الساعة، اعتمادا على ما جاء في آية سورة (الأعراف/ 39) السابقة نزولا"[2].

ولاشك أن في هذه النقطة يظهر أثر ترتيب النزول جليا، لأنه لو لم يبني الفهم على ما سبق لما توصل إلى هذا المعنى الذي يرشد إليه ترتيب النزول.

2- تعيين زمن النزول ومدته وتدبر الآيات على أساسه:

ومثاله ما نبه إليه عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾[المزمل: 11] يقول: "والإمهال القليل

---

[1] _ معارج التفكر، مج13، ص161. ينظر: مج10، 42/ مج13، ص264.

[2] _ يقصد قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: 187]. معارج التفكر، مج11، ص778. ينظر: مج9، ص157/ مج11، ص294.

تنصرف القلة فيه إلى الزمن، والسنوات العشر التي مرت في المرحلة المكية قبل مواجهة المكذبين في معارك قتالية بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وإقامة الدولة الإسلامية، تعتبر في تاريخ الدعوات مدة قليلة، فقد كان إمهالهم طوال المرحلة المكية إمهالا قليلا"[1].

فالمفسر هنا اجتهد في الربط بين معنى الآية والفترة التي نزلت فيها.

3- دفع إشكال قد يتوهم في فهم الآية باستعمال ترتيب النزول:

يعنون المفسر لإحدى فقرات تدبره التحليلي بقوله: "إشكال ودفعه" ثم يقول:

"أشكل على بعض المفسرين وصف "مناة" في الآية بقوله تعالى: ﴿ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: 20] قال: الآخر والأخر إنما يوصف بهما الثاني والثانية، لا الثالث والثالثة، وقال: لا داعي للأخرى بعد وصفها بكونها الثالثة.

وأجيب: بأنه جيء بالأخرى لمراعاة رؤوس الآيات، وتوازن الفقرات.

أقول: وأرى مع هذا أنه لما كانت اللات والعزى لقريش، وكانت سورة (النجم) من أوائل التنزيل المكي خاطبهم الله بقوله فيها: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾ [النجم:19] ؟!!.

أما "مناة" فكانت للأوس والخزرج في يثرب، فكان من المناسب أن يخصصها الله بقوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾[النجم:20] ولما كانت في مقابل مجموع ما تعبد قريش كانت أخرى، على أنها أحد الشيئين المذكورين للفريقين.

أو نقول: أخرى هنا مؤنث آخر...على أنه وصف يحمل معنى التأخر، لا على أنه أحد الشيئين، والمعنى: ومناة الأكثر تأخرا، فهي كالبعدى، إذ كان المخاطبون من قريش لا يضعونها مع اللات والعزى في المرتبة، فخوطبوا بحسب واقع حالهم، والله أعلم"[2].

4- الجمع بين ما تضمنته الآية من مفردات وما حملته من معان اقترنت بترتيب نزولها:

ومن ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[يونس: 2].

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص175.

[2] _ معارج التفكر، مج2، ص125- 126. ينظر: مج8، ص718.

حيث افتتح تدبره للآية بقوله: "وقد سبق في سورة (ص/ 18 نزول) بيان أنهم قالوا بشأن الرسول ﷺ هذا ساحر كذاب، إذ جاء فيها قول الله ﷻ: ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾[ص: 4] فدل هذا على أنهم إبان نزول سورة (يونس/ 51 نزول) زادوا مقالتهم توكيدا، وادعاء بأن كونه ساحرا أمر مبين واضح جلي، وبأن سحره يتعلق بما يأتي به من كلام بليغ يأسر العقول والنفوس، فقالوا بشأن الرسول: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٞ ﴾[يونس: 2] وقالوا بشأن القرآن: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾[يونس: 76] ومعلوم أن كلا من الادعاءين يلزم عنه الآخر، وهم بهذا يتهربون من إعلان الحق والإذعان له"[1].

ويحسن التنبيه هنا إلى تلك الإشارات من المفسر حول استعمال الفعل المضارع في الآيات، ومثاله قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾[الإسراء: 47] قال: "جاء في العبارة استعمال الفعل المضارع: للدلالة على أنهم صاروا يرددونها ليشيعوها بين الناس، بينما جاءت العبارة في سورة (الفرقان/ 25 مصحف/ 42 نزول) بقول الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾[الفرقان: 8] ويظهر أنهم بعد أن قالوها إبان سورة (الفرقان) بدا لهم أن يرددوها لتكون شائعة مقبولة عند الناس، فجاء التعبير في سورة (الإسراء) بعبارة: ﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾"[2].

وفي هذا خير شاهد على تتبع المفسر للآيات التي سبق تدبرها وفق ترتيب نزولها، ومحاولة استحضار معانيها والتنبيه على بنية وتركيب الآية.

5- توظيف ترتيب نزول السور في تحديد زمن حادثة، وفهم معاني الآيات على أساسه:

يقول المفسر: "السنة التي امتن الله ﷻ فيها على الرسول ﷺ بالإسراء والمعراج:

وردت في تحديد السنة التي امتن الله فيها على الرسول محمد ﷺ بالإسراء والمعراج عدة روايات ليس فيها ما يرقى إلى درجة الصحيح أو الحسن...

وقد نظرت إلى ترتيب نزول سورة (الإسراء) فوجدت أنها الخمسون بحسب ترتيب النزول، وأن بينها وبين أول سورة مدنية وهي سورة (البقرة/ 87 نزول) ستا وعشرين سورة؟، وقد عددت صفحاتها مع صفحات سورة (الإسراء) فوجدتها (196) صفحة تزيد أو تنقص أقل من صفحة، ووجدت أن

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص33. ينظر: مج1، ص233/ مج9، ص 661/ مج11، ص160.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص643. ينظر: مج10، ص342.

هذه الصفحات تعادل ثلث القرآن تقريبا. ثم نظرت في قول الله ﷻ... ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[الإسراء:106] ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: أي على تمهل فيه توقف وانتظار بين تنزيل نجومه.

فرأيت أن ثلث المصحف مع حكمة التمهل يحتاج خمس سنين أو أربع سنين تتنزل فيها نجومه.

ولهذا أستبعد بشدة أن يكون هذا القدر قد نزل في أقل من أربع سنين، وقياسا على ما نزل قبله من سور مكية.

وعلى هذا فمنة الله...على رسوله محمد ﷺ بالإسراء والمعراج، قد كانت قبل الهجرة بخمس سنين، أو بأربع سنين على أقل تقدير.

وعلى هذا فالصلوات الخمس قد فرضت في السنة الثامنة، أو التاسعة، من بعثة الرسول محمد ﷺ، لأنها قد فرضت في ليلة الإسراء والمعراج، كما جاء في الأحاديث الكثيرة الصحيحة الصريحة"[1].

6- استغلال ترتيب النزول في البحث عن المحال عليه في الآية التي يتدبرها:

ومثاله صنيعه في تدبر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾[الإسراء: 60] قال: "أي: واذكر يا محمد إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس، ووضعك معنى هذه الإحاطة في ذاكرتك، يجعلك مطمئنا مع وعد ربك لك وللذين آمنوا بك واتبعوك بالنصر...

هذه هي القضية الثانية التي دل عليها العلاج الرباني، بالتذكير بما سبق تنزيله في نجوم القرآن، قبل نزول سورة (الإسراء).

وقد بحثت في سوابق التنزيل بحسب ترتيب نزول السور، فوجدت أنّ المحال عليه والمطلوب تذكّره دواما، هو قول الله ﷻ في سورة (البروج/ 85 مصحف/ 27 نزول) بشأن الذين كفروا معاندين من أئمة مشركي مكة وكبرائهم: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾ [البروج: 19- 20]"[2].

7- بيان المعنى الذي غاب على المفسرين لعدم مراعاتهم ترتيب النزول:

وهو ما قاله عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ﴾[الصافات: 41- 42]: " أي: أولئك المخلصون...رفيعو المكانة عندنا لهم رزق من الفواكه معلوم، أي: سبق أن أعلمناكم به...

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص541- 542.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص665.

في هذا البيان إحالة على ما جاء في سورة الواقعة بشأن ثواب أصحاب اليمين في جنات النعيم، وأن لهم فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، فقد جاء في سورة (الواقعة/ 46 نزول) قول الله تعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾[الواقعة: 27- 33].

فالرزق الذي سبق العلم به من الفواكه هو أنه لا مقطوع ولا ممنوع...

وغاب هذا المعنى عن ملاحظة المفسرين، لأنهم لم يضعوا في خطة تدبرهم ترتيب النزول"[1].

وخلاصة القول في ذلك: أن اعتماد المفسر ترتيب النزول كان له الأثر الواضح في تدبره للسور القرآنية، وذلك بربطها بمرحلة نزولها وما رافقها من قضايا وتوجيهات تلائم المرحلة التي نزلت فيها من جهة، وأثناء بيانه لمعاني الآيات والوقوف على دلالاتها من جهة ثانية، إذ كان لا يفوّت أي فرصة تتاح له لتوظيفه وقد بذل في سبيل ذلك جهدا كبيرا يظهر لكل متصفح لتفسيره بجلاء.

الفرع الثالث: النقد والتقويم.

حرصت في الفرعين السابقين على إعطاء صورة واضحة عن تطبيقات المفسر لترتيب نزول سور القرآن الكريم في تدبره التحليلي، بعرض نماذج من ذلك والإحالة على غيرها، ويأتي هذا الفرع لنقد وتقويم تلك التطبيقات بإبراز ما حملته من إيجابيات تحسب للمفسر وتعد من مزايا تفسيره التدبري، والتنبيه على ما تضمنته من هفوات تؤخذ على المفسر فهي من محاذير هذا النوع من التفاسير.

أولا: محاسن توظيف المفسر ترتيب النزول في تدبره التحليلي.

وقد تجلت في:

– اجتهاد المفسر في ترك بصمة الترتيب النزولي الذي تبناه أثناء تدبره للسور؛ إذ حرص على التنبيه إلى المعاني والروابط المشتركة بين السور، وهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على تمكّنه من استحضار السور حسب ترتيب نزولها، وقدرته على استنباط ما يلوح له باعتماد هذا الترتيب، وله كل الشكر والتقدير لاسيما من هذه الزاوية.

– أنه –رحمه الله– لم يتبع ترتيب نزول السور أثناء تدبره لمجرد تقليد من سبقه، أو من باب مخالفة السلف ليشتهر تفسيره، بل حرص على توظيف ما اختاره وحاول أن يجعل القارئ يعيش في جو التنزيل.

---

[1] _ معارج التفكر، مج11، ص573. ينظر: مج9، ص181.

– أن ما توصل إليه الشيخ من اجتهادات بتوظيفه لترتيب النزول لم أقف فيه على ما يطعن في الدين أو يخالف عقيدة المسلمين، كما أنه لم يحمل بين طيّاته نزعة إلى التعصب العقدي أو انتصارا لمذهب فقهي لا تصريحا ولا تلميحا، فقد سلمت تطبيقاته من نصرة الآراء الشاذة والأقوال المتطرفة، وهذا ما يزيد من سعة البون بين صنيعه –رحمه الله– وبين ما يهدف إليه دعاة إعادة ترتيب المصحف حسب ترتيب النزول.

– تفوّق المفسر على سابقيه ممن فسّر وفق ترتيب النزول أثناء توظيفه لهذا الأخير في تدبره لسور القرآن الكريم؛ إذ أكاد أجزم أنه أحسن من طبّق هذه الطريقة في تفسير القسم المكي من القرآن الكريم، وإن خانه صحة الترتيب الذي اعتمده.

فانظر مثلا حديثه عن رحلة المعراج عندما وصل إلى قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾[النجم: 13- 18]·

حيث سار في تدبره للحادثة على ما أجمع عليه المفسرون[1]، مثبتا ما نال النبي ﷺ من كرامة فيها، ومذكّرا بالروايات الواردة بشأن رؤية الرسول ﷺ لجبريل عليه السلام في النزلة الأولى[2]، وأن هذه الرؤية كانت "في رحلة العروج به إلى السماوات، واطلاعه على ملكوت الله الأعلى"[3].

وفي الختام يقول: "هذا الدرس الأول من دروس السورة اشتمل على الدفاع عن صدق الرسول ﷺ في دعوى رسالته واتصاله بالوحي، وفي أن الله ﷻ قد تفضل عليه وأكرمه بالعروج في السموات العليا حتى سدرة المنتهى..."[4].

فالمفسر لم يتكلف في ربط الحادثة بترتيب نزول السور وسار فيها على ما قال به العلماء، وإن كان في غير هذا الموضع اجتهد في تحديد سنة حادثة الإسراء والمعراج اعتمادا على ترتيب النزول[5].

---

[1] _ ينظر: جامع البيان، الطبري، ج22، ص509/ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثعلبي، ج9، ص142/ معالم التنزيل، البغوي، ج4، ص305/ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ج5، ص158/ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج7، ص451/ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، ج27، ص97.

[2] _ معارج التفكر، مج2، ص113 وما بعدها.

[3] _ معارج التفكر، مج2، ص115.

[4] _ معارج التفكر، مج2، ص119.

[5] _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص541.

أما إذا رجعنا إلى محمد عزة دروزة نجده قد أنكر أن يكون في هذه الآيات دلالة على حادثة الإسراء والمعراج بحجة أن سورة (النجم) كانت من أوائل السور نزولا والمعراج تأخر عن ذلك، وأورد في ذلك كلاما طويلا تحت ما عنون له بـ"تعليق على حادث الإسراء والمعراج وما ورد في ذلك من أحاديث"[1]، خلط فيه بين الروايات ووضع صحيحها وسقيمها في صعيد واحد، واستند إلى حجج ضعيفة لا ترقى لإنكار ما أثبته العلماء.

ولم يذهب بعيدا عن هذا ملا حويش فقد ذكر الكثير من الغرائب مما لا يسع المقام للتفصيل فيه[2]، إذ الغرض هنا إثبات سلامة ما ذهب إليه مفسرنا أثناء تدبره للحادثة مقارنة بسابقيه.

– الارتكاز على ترتيب النزول والتدقيق فيما تضمنته الآيات من معاني ومتابعات لما سبقها في نجوم التنزيل، كان هو الأساس الذي بنى عليه –رحمه الله– ما توصل إليه من استنباطات ولطائف ومُلح؛ دون الخوض في الروايات فضلا عن التشكيك والطعن فيها لاحتمالات تراءت له كما هو الحال بالنسبة لمن سبقه إلى التفسير وفق ترتيب نزول السور، فاستمع مثلا إلى محمد عزة دروزة وهو يقول: "تعليق على ما يمكن أن يلهمه أسلوب ومضامين هذه السورة [(الانشقاق)] وما قبلها من احتمال تبكير نزولها، وننبّه على أن بين أسلوب هذه السورة ومضامينها وكذلك أسلوب السور السابقة لها...ومضامينها، وبين أسلوب ومضامين كثير من السور المبكرة في النزول...تماثل كبير مما يبعث الشكّ في صحة ترتيب نزولها في أواخر العهد المكيّ ومما يسوغ الظنّ بأنها مما نزل في عهد مبكر وإن كان ترتيبها في تراتيب النزول العديدة المرويّة متقاربا مع ترتيبها الذي ذكر في المصحف الذي اعتمدنا عليه وسرنا وفقه"[3].

يظهر من هذا النقل كيف أن "دروزة" يشكك في صحة الروايات لاحتمالات ظهرت له ليس له فيها مستند، وهذا ما جعل "أحمد بشير قباوة" بعد عرضه لجملة المؤاخذات التي انتقدت على أصحاب التفاسير وفق ترتيب النزول يستدرك عليها بقوله: "ولكن ينبغي التأكيد أيضا على أن هذا المنهج في ترتيب سور

---

[1] _ التفسير الحديث، ج2، ص81 وما بعدها.

[2] _ ينظر: بيان المعاني، ج2، ص420 وما بعدها. وقد تكفّل فضل عباس بالرد على المفسرين، منبها إلى ما وقع فيه كليهما من هفوات. ينظر: التفسير والمفسرون في العصر الحديث، ج3، ص191– ص263.

[3] _التفسير الحديث، ج5، ص427. ينظر: ج1، ص113/ ج5، 486.

وكذلك الحال بالنسبة لما حويش الذي رد أحاديث ثابتة في الصحيحين، وشكك في صحة الأحاديث الواردة فيهما قائلا: "ولعمري ليس كل شيء ما في الصحيحين صحيحا قطعا، فإن فيهما الضعيف والمنكر. وإن البخاري ومسلما رحمهما الله وإن كانا من أحسن الناس نقلا، لكنهما نقلا عن أناس قد يطعن فيهم، أو أنه دس هذا فيما نقلاه ... ". بيان المعاني، ج1، ص187. ينظر: ج1، ص121/ ج2، ص255.

القرآن الكريم لم يكن هو السبب الأكبر في تلك النتائج التي انتهى إليها الأستاذ دروزة، فها نحن نرى الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني...قد اتبع نفس الطريقة...ولكنه لم ينته إلى تلك النتائج...ولذا أرى أن نقد طريقة الاعتماد على الظن والتخمين في محاكمة الروايات خير من نقد طريقة ترتيب السور القرآنية بحسب ترتيب النزول، لأن هذه الطريقة بحد ذاتها لا أثر لها على التفسير –فيما أرى– وحسبنا في ذلك صنيع الشيخ عبد الرحمن ...، نعم كان للعقل والتأمل دور كبير في تفسيره كذلك، ولكن ليس في مقابل الروايات، ودليل ذلك عدم خروجه فيما استنبطه عما أجمع عليه جمهور المسلمين"[1].

وكلامه هذا فيه نظر؛ نعم سلامة منهج المفسر في تعامله مع المرويات خفف من حدة النقد الموجه إليه مقارنة بسابقيه، لكن لا بد من نقد طريقة ترتيب السور وفق نزولها من جهة أنها ظنية ولم تثبت رواية في صحة الترتيب الذي اعتمده هو أو غيره.

– تأكيد المفسر في عديد من المرات على صلاحية القرآن الكريم وإصلاحه لكل زمان ومكان[2]؛ فتأمل قوله تقريرا لذلك: "إن آيات القرآن المجيد دستور تعليمي للناس في كل عصورهم، وفي كل أحوالهم، وهذا الدستور لابد أن يبقى كل أمر فيه على وجهه كما أنزل، وكذلك كل نهي، وكل استفهام وكل خبر، وكل حرف وكل كلمة"[3].

وقال في موضع آخر: "وليفهم المجتهدون المستنبطون للأحكام أن الأوامر والنواهي الموجهة للرسول هي أوامر ونواه موجهة لكل تابع له من أمته، ما لم يكن الأمر والنهي من خصوصيات الرسول بالنص"[4].

وهذه أهم محاسن توظيف المفسر لترتيب النزول في تدبره التحليلي، وحتى لا نغبط المفسر حقه فقد كانت له التفاتات قيّمة ونظرات سديدة لا يمكن اختزالها، تجعل القارئ يستشعر جو التنزيل القرآني

---

[1] _ جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم، ص388- 389.

[2] _ وهذا يدفع عنه شبهة اعتماد ترتيب نزول السور لإثبات ارتباط القرآن بواقعه، وعدم تجاوزه لحدود البيئة التي نزل فيها أو ما يسمى بتاريخية القرآن الكريم التي اجتر الحديث عنها عدد من المعاصرين. ينظر: تاريخية القرآن في الفكر الحداثي العربي، عبد الله القرني، ص11 وما بعدها/ علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود، ص175 وما بعدها/ العلمانيون والقرآن الكريم، أحمد الطعان، ص332 وما بعدها/ إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، مرزوق العمري، ص87.

[3] _ معارج التفكر، مج2، ص27. ينظر: مج4، ص447- ص530.

[4] _ معارج التفكر، مج6، ص431.

ويعايش نزول الآيات[1]، يقول عبد الرحمن الشهري: "إنني بعد قراءة طويلة في كتاب معارج التفكر، فقد قرأت أكثر مجلداته الخمسة عشر...فوجدته من أنفع التفاسير، وللمؤلف فيه استنباطات دقيقة وتوجيهات موفقة لا تجدها في غيره، فأنصح به إخواني الباحثين المعنيين بدروس التفسير وتدريسه"[2].

ثانيا: المؤخذات على توظيف المفسر ترتيب النزول في تدبره التحليلي.

– ضعف المستند وظنية الترتيب المعتمد: ولعل هذا فاتحة ما ينبغي التنبيه عليه دائما، إذ هو الأصل الذي بنى عليه تلك التطبيقات وما توصل إليه من اجتهادات.

– صحيح أن ما توصل إليه المفسر باعتماد ترتيب النزول يدخل في باب الاجتهاد في التفسير، ولكن هنا أرى أنه لابد من التفصيل، حيث أن ما توصل إليه عند تدبره للسور التي ثبت صحة الترتيب بينها يدخل حقا في باب الاجتهاد منه المقبول والمردود والمفسر في كليهما لا يعدم الأجر، أما ما توصل إليه خلال تدبره للسور التي لم يثبت صحة الترتيب بينها فهو من باب التكلف المنهي عنه والله أعلم.

– رغم ما تضمنته اجتهادات المفسر من معاني نبيلة وغايات سامية حاول أن يستحضرها ويرشد إليها أثناء تدبره، إلا أنها لا ترقى لأن تتخذ مبررا لمخالفة ما كان عليه السلف؛ إذ هذه العناية ليست جديدة كل الجدة في مجال الدراسات القرآنية، فالعلماء منذ القدم حرصوا على توظيف ترتيب النزول كما سبق الإشارة إليه وإن كان مفسرنا توسع في تطبيقه له، كما أنها لا تكاد تفصح عن رؤية واضحة للغايات المتوخاة من تطبيق ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم كاملا، بل لو اعتمد المفسر ترتيب المصحف ووظفها في ثنايا تدبره أو خصها بملاحق في ختام السورة لكان أسلم له.

– أنه على القارئ لهذا التفسير أن يستحضر اعتماد المفسر على الترتيب الظني، كي لا يتبنى كل ما يقع عليه نظره؛ لذا أسأل الله أن يسخر لهذا السفر من يعيد ترتيبه ويفيد من تلك الاجتهادات فينبه عليها إما في الهوامش أو يضم كل ما تحمله سورة بملحق يختمها به.

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص92/ مج2، ص42/ مج10، ص76.

[2] _ التعريف بكتاب (معارج التفكر ودقائق التدبر). (مقال)

المطلب الثاني: توظيف المفسر ترتيب النزول في تدبره الموضوعي.

تميّز تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) بتلك اللمسات التدبرية التي سعى المفسّر فيها إلى استحضار الآيات التي يجمعها رابط واحد، رأى أنّه "من المفيد استعراضها بحسب ترتيب نزولها، مقرونة بنظرات تدبّريّة"[1]، موظفا إياها إما كدراسات مُعْتَرِضة[2] تخللت التدبر التحليلي أو كان يخصها بملحق من الملاحق في ختام تدبره للسورة.

فكانت خير مثال لتوظيف المفسر لترتيب النزول، لأنها بالإضافة إلى أنها ميزة اختص بها[3] فإنها ضمت إلى القسم المكي الذي تدبره نماذج من القسم المدني الذي توفي قبل إتمامه.

الفرع الأول: استعراض آيات الموضوع وفق ترتيب نزول سورها.

ظهرت ملامح التفسير وفق ترتيب النزول في دراسة المفسر وجمعه لآيات الموضوع الواحد في عدد من المناحي، حاولت جمعها ولخصتها في نقاط أهمها:

1- التذكير بما سبق في نجوم التنزيل قبل السورة التي يتدبرها استدلالا على ما يريد بيانه:

يقول مثلا: "وبالنظر في السور التي نزلت قبل سورة (العاديات) مع هذه السورة نلاحظ أن الله ﷻ قد وصف الإنسان، والمراد معظم النوع بما يلي:

(1) في سورة (العلق/ 96 مصحف/ 1 نزول) وصف الله الإنسان بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[العلق: 6-7].

---

(1) _ معارج التفكر، مج2، ص332. ينظر: مج13، ص729.

(2) _ فهكذا عبرّ المفسر عنها. ينظر: معارج التفكر، مج13، ص48.

(3) _ وهذه الميزة ظهرت في جل مصنفاته يقول تلميذه مجد مكي: "من الجدير بالذكر أن جهود الشيخ العلمية ومؤلفاته الموسوعية أكثرها يدور حول كتاب الله ﷻ، جمعاً للآيات المتعلقة بموضوع كتابه، وترتيباً لها حسب منهج الشيخ في تتبُّع مراحل النُّزول، وتحليلاً لألفاظ الكلمة القرآنية، واستقراء لها، وانتهاء بالنظرية العلمية الشاملة، والوحدة الموضوعية الجامعة". لمحات من كتاب معارج التفكر ودقائق التدبر، مجد مكي، ص2- 3.

(2) وفي سورة (الفجر/ 89 مصحف/ 10 نزول) وصف الله الإنسان بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾[الفجر: 15-17].

(3) وفي سورة (العصر/ 103 مصحف/ 13 نزول) وصف الله الإنسان بقوله: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾[العصر: 1- 2].

(4) وفي سورة (العاديات/ 100 مصحف/ 14 نزول) وصف الله الإنسان بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[العاديات: 6- 8].

وفي هذه الأوصاف تكامل في التعريف بالإنسان المحتاج إلى دين يهديه إلى الحق والخير والفضيلة، ويبشره ويحذّره وينذره"[1].

وأحيانا أخرى يقف مثلا فيعنون قائلا: "سوابق الحديث عن القرآن في نجوم التنزيل"[2]، "القسم في سوابق نجوم التنزيل لتأكيد قدوم يوم الدين"[3] وغيرها، فيذكّر بالنصوص التي سبق فيها الحديث عن الموضوع ويختم ببيان "مجمل ما اشتملت عليه النصوص من دلالات"[4].

2- التنبيه إلى ما سبق فيه الحديث عن الموضوع وإلى ما سيأتي بيانه في نجوم التنزيل:

فعندما وصل مثلا إلى تدبره لقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾[هود: 35] قال: إن "موضوع اتهام كبراء كفار مكة إبان التنزيل محمدا ﷺ، بأنه قد افترى القرآن على ربه من عنده، قد جاء الرد عليه في القرآن مجزأ في بناء فكري، سبق هذا النص بعضه في نجوم التنزيل، ونزل بعده نجوم أخرى أتمت عناصر الرد القرآني وافيا بحسب الشبهات التي كانوا يطرحونها أو تخطر على أذهانهم.

وقد سبق هذا النص...الآيات من (4-6) من سورة (الفرقان/ 25 مصحف/ 42 نزول)... ونزلت بعده عدة نصوص، وهي الآية (111) من سورة (يوسف/ 12 مصحف/ 35 نزول)..."[5].

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص643.

(2) _ معارج التفكر، مج2، ص282.

(3) _ معارج التفكر، مج2، ص550.

(4) _ معارج التفكر، مج2، ص285.

(5) _ معارج التفكر، مج10، ص385. ينظر: مج2، ص339 وما بعدها.

3-النظرة التدبرية التكاملية وفق ترتيب النزول: حيث وجّه عناية خاصة لبيان التكامل بين الآيات الواردة في السورة وبين سائر الآيات حول الموضوع، بما فيها ما نزل قبل وبعد الآية التي يتدبرها.

يقول في ختام تدبره لأحد المواضيع التي طرقها في ثنايا التدبر التحليلي: "هذا ما دل عليه الجمع بين مختلف النصوص، وهو المنهج الذي يجب إتباعه في كل النصوص القرآنية الدائرة حول موضوع كلي واحد"[1].

ويؤكد هذا المعنى عند تدبره للآية 21 من سورة (الزمر) فيقول: "بين آية هذا الدرس، وبين ما سبق إنزاله في نجوم التنزيل، بشأن منة الله على الناس بالماء الذي ينزل من السماء، بعد أن يصعده بالتبخر ويجعله سحابا، تكامل بديع مع تأكيد أصل الامتنان.

والتدبر التكاملي لها يحتاج بحثا خاصا، وقد نظرت في سوابق التنزيل فظهرت لي النصوص الآتية:

(1) الآية من (9- 11) من سورة (ق/ 50 مصحف/ 34 نزول)...

(10) الآية (21) من سورة (الزمر/ 39 مصحف/ 59 نزول) وهي: التي يجري تدبرها بمعونة الله ومدد منه. وسيأتي في نجوم التنزيل اللاحق نصوص أخرى.

ومتدبر هذه النصوص تدبرا تكامليا متأنيا بأناة وتأمل عميق، يلاحظ ما في كل منها من بيان جانب أو أكثر لم يأت في غيره من النصوص، فتبارك الله منزل هذا الكتاب المعجز، الذي لا تنتهي عجائبه وروائعه الدالة على أنه منزل من حكيم عليم"[2].

بل إنه عقد مقارنة بين سورتين ليجمع بينهما جمعا تكامليا وهما سورتي (العصر) و(التين)[3]، وختمها بقوله: "فتكاملت السورتان في بياناتهما حول موضوع التفضيل في أصل الخلق للإنسان، وخسارته عبر رحلة امتحانه بإرادته الحرة في الدرجات والدركات، إلى مستوى قد يصل به إلى أسفل سافلين"[4].

4- استمداد تسلسل تفاصيل أحد الموضوعات القرآنية من ترتيب نزول سورها:

ومن أمثلة ذلك حديثه عن "مراحل الحوار في القرآن مع منكري البعث ويوم الدين" حيث قال: "(1) كان أئمة مشركي مكة ينكرون البعث، والحياة الأخرى...والجزاء الرباني يوم الدين... بحجة

---

(1) _ معارج التفكر، مج2، ص601.

(2) _ معارج التفكر، مج12، ص194.

(3) _ عنون لها بـ: "مقارنة بين ما جاء في سورة العصر وما جاء في سورة التين". معارج التفكر، مج2، ص410- 411.

(4) _ معارج التفكر، مج2، ص411.

الاستبعاد، وعدم مشاهدة أموات من آبائهم يبعثون، ويحدثونهم عما شهدوا بعد الموت.

(2) حتى قال قائلهم للرسول ﷺ...ما جاء بيانه في سورة (يس/ 41 نزول): ﴿ ...قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾[يس: 78].

فعلّم الله رسوله ﷺ الجواب البرهاني المفحم، فقال له فيها: ﴿ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس: 79].

(3) فرفضوا قبول هذا البرهان العقلي، وأصروا على موقفهم المكذب بالبعث وبالجزاء يوم الدين، دون أن تكون لهم حجة إلا الاستبعاد والاستغراب. دل على هذا الموقف ما جاء بيانه في سورة (الإسراء/ 50 نزول)، فقد جاء فيها قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴾ [الإسراء: 49].

ومع إفحامهم بالدليل البرهاني استمروا على إصرارهم على إنكار البعث والجزاء يوم الدين، مدعين أنه لا توجد حياة أخرى غير هذه الحياة الدنيا.

جاء بيان إصرارهم هذا في سورة (الأنعام/ 55 نزول) فقال الله تعالى فيها: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴾[الأنعام: 29]...

(8) وتواردت عليهم البيانات القرآنية بأن الله هو الذي يحي ويميت، في نصوص متعددة سابقة التنزيل لسورة (الجاثية/ 65 نزول)..."[1].

وفي هذا المثال يظهر كيف أن المفسر بنى ترتيب تفاصيل حديثه عن موضوع قرآني على ترتيب نزول السور، بل نجده في موضع آخر يصرح قائلا: "فتأمل التدرج الارتقائي التكاملي، في بيانات النصوص التي وردت في القرآن المجيد، بشأن نظام الزوجية، والذي استفدناه من تتبع ترتيب نزول السور"[2].

5- استعراض نظائر عبارة تكرر ورودها في القرآن الكريم وتدبرها وفق ترتيب النزول:

ومثاله ما عنون له بقوله: "استعراض سائر النصوص القرآنية حول: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾"[3]، فذكر الآيات الخمس التي وردت فيها هذه العبارة وأتبعها بالتدبر وفق ترتيبها النزولي الذي اعتمده.

---

[1] _ معارج التفكر، مج13، ص42 وما بعدها.

[2] _ معارج التفكر، مج6، ص113.

[3] _ معارج التفكر، مج10، ص246 وما بعدها.

6- الاكتفاء بالإحالة إلى ما سبق تدبره سواء في تفسيره أو فيما كتبه من دراسات موضوعية اعتمد فيها على ترتيب نزول السور.

فنجده يعنون مثلا "مقدمة للتدبر" ثم يقول: "سبق أن كتبت بمعونة الله وتوفيقه كتابا مستقلا بشأن نوح عليه السلام...تدبرت فيه (27 نصا) من القرآن تدبرا تكامليا...وظهر لي أنها متكاملة فيما بينها...فلا حاجة بي هنا في دراسة الآيات المتعلقة به إلى التعرض للتدبر التكاملي بينها وبين سائر النصوص التي جاء فيها ذكره في القرآن الكريم، وإني أحيل القارئ على الدراسة الشاملة التي جاءت في هذا الكتاب المستقل..."[1].

وفي النقاط التي سبق عرضها مقرونة بأمثلة يظهر تمسك المفسر بالتفسير وفق الترتيب النزولي للسور والاجتهاد في توظيفه بما يخدم تدبره للآيات، حرصا منه على إثبات التكامل بين النصوص وإظهار المعاني المشتركة بين ما سبق السورة التي يتدبرها وبين ما سيأتي بعدها.

الفرع الثاني: تتبع مراحل التنزيل وبناء الفهم على أساس التدرج في التشريع.

وقفت وأنا أقرأ وأتتبع معالم التفسير وفق ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر) على ذلك الحرص الشديد والعناية الخاصة التي أولاها المفسر لتتبع مراحل التنزيل، فقد اجتهد في سبر وجمع والتنبيه إلى كل ما يلوح له مما له علاقة بذلك ترسيخا للمعاني، وجمعا لدلالاتها، وتنبيها على التدرج فيها.

وقد تعددت الأساليب التي اتبعها تحقيقا لذلك، وإليك أهمها:

1- بيان أول ما نزل من القرآن بشأن موضوع معين وتتبع ما نزل بعد ذلك وفق تسلسل النزول:

ومثاله ما ذكره في أحكام التحريم والتحليل حيث قال: "كان أوّل ما نزل بشأن أحكام التحريم والتحليل الجاهلية في القرآن المجيد، قول الله عز وجل في سورة (الأعراف/ 7 مصحف/ 39 نزول)...﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: 32].

ثم أنزل الله عز وجل الآيتين (59 و60) من سورة (يونس/ 51 نزول) التي نتدبرها.

---

[1] _ معارج التفكر، مج15، ص235. ينظر: مج3، ص51/ مج11، ص40.

ثم أنزل الله ﷻ الآيات من (138- 140) من سورة (الأنعام/ 6 مصحف/ 55نزول) وقد جاء فيها بعض تفصيل لأحكام الجاهلية في تحريم بعض الأنعام وبعض الحرث...

ثم أنزل الله ﷻ في سورة (المائدة/ 5 مصحف/ 112 نزول) الآية (103) وفيها ذكر تفصيلي للأنعام التي حرمها أهل الجاهلية، فجاء فيها ذكر البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي"[1].

وقد حاول في مواضع أخرى الكشف عن سر الاختلاف بين النصوص حول موضوع معين، يقول مثلا: "جاء في القرآن المجيد وصف العمل لتحقيق متاعات الناس من الحياة الدنيا في أربعة نصوص، هذا أوّلها بحسب ترتيب النزول[2]، وفيه قصر هذه المتاعات على اللعب واللهو، بتقديم اللعب على اللهو.

ثم أنزل الله ﷻ بعده في سورة (العنكبوت/ 29 مصحف/ 85 نزول) قوله تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[العنكبوت: 64]...

ثم أنزل الله ﷻ قوله في سورة (الحديد/ 57 مصحف/ 94نزول) خطابا للناس: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[الحديد: 20]

...فأنزل الله ﷻ قوله في سورة (محمد/ 47 مصحف/ 95 نزول) في معرض الحديث عن الذين في قلوبهم مرض قريب من النفاق الخالص، معالجة لما في قلوبهم ونفوسهم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾[محمد: 36] فجاء في هذا النص تقديم اللعب على اللهو، وجاء فيه الاقتصار عليهما مع الحصر.

ويجب تدبر هذه النصوص الأربعة تدبرا تكامليا"[3]، ليتدبرها بعد ذلك ويختم بقوله: "وبهذا التدبر التكاملي فهمنا سر اختلاف النصوص حول هذا الموضوع"[4].

2- الكشف عن تدرج الخطوات التربوية:

فالمفسر يرجع بشريط الأحداث لينطلق من أول موضع فيه حديث عن الموضوع ثم يسترسل حتى

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص164- 165. ينظر: مج9، ص632/ مج15، ص319 - 320.

[2] _ يقصد قوله تعالى: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[الأنعام: 32].

[3] _ معارج التفكر، مج11، ص208 وما بعدها.

[4] _ معارج التفكر، مج11، ص213.

يصل إلى موضع السورة محل التدبر، سعيا منه إلى بيان حركة المعالجات التربوية الربانية.

مثاله ما عنون له بقوله: "تتابع التوجيه التربوي لذكر الله حتى نزول سورة الأعلى:

(1) في سورة "العلق" بدأ التوجيه لذكر اسم الرب مقترنا بالأمر بالقراءة فقال الله ﷻ فيها: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[العلق: 1].

(2) ثم في سورة "المدثر" أنزل الله قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾[المدثر: 3]....

(3) ثم في سورة "المزمل" أنزل الله قوله: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾[المزمل: 8]....

(4) ثم في سورة (الفاتحة) أنزل الله قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة: 2- 3].

(5) ثم في سورة (الأعلى) أنزل الله قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[الأعلى: 1]...

دلالة هذا الترتيب:

ونستطيع أن نستدل من هذا الترتيب في مراحل التنزيل القرآني على ما يلي:

أولا: العلم هو الخطوة الأولى، والعلم عن الرب الخالق وسيلته قراءة الكتاب المنزل من لدنه، وتدوين العلم بالقلم، مع الاستعانة باسم الرب الذي خلق...

ثانيا: العلم بالله يهدي إلى تعظيم الله وتكبيره، وأنه أكبر من كل كبير يمكن أن تتخيله الأفكار...

ثالثا: طريق الوصول إلى حقيقة العبودية لله ﷻ مداومة ذكر اسم الرب، والتبتل إليه، بالانقطاع إليه عن كل شرك...

رابعا: بعد التحقق بالمراحل السابقة، صار الإنسان المتدرج على وفق بنائها التربوي مستعدا لأن تكون نفسه ويكون قلبه وفكره في حالة سبح ضمن آفاق تصورات صفات الرب الأعلى...

عند هذه المرحلة أنزل الله على رسوله سورة (الأعلى) ...

ولابد أن نلاحظ أن هذا البناء التربوي المتدرج ملاحظ فيه بالدرجة الأولى قمة البشر جميعا، وهو رسول الله ﷺ.

ثم على وفقه يكون تدرج البناء التربوي بالنسبة إلى غيره، مع مراعاة حالة استعداد كل منهم للمدة التي يحتاجها، حتى ينتقل من مرحلة إلى التي تليها"[1].

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص 438 وما بعدها.

وفي موضع آخر نجده يقدّم دراسة حول: "تربية الله لرسوله في القرآن كله أن لا يحزن على الذين كفروا معاندين"، فيقول: "لقد تدرجت تربية الله ﷻ لرسوله بشأن توصيته أن لا يحزن من أجل الذين كفروا عنادا وإصرارا على الباطل وقد جاء هذا في تسعة نصوص.

(1) فأنزل الله ﷻ...خطابا لرسوله: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: 8] ...نلاحظ في هذه الآية أن الله ﷻ أوصى رسوله بأن لا يحزن حزنا شديدا مميتا...

(2) ثم أنزل الله ﷻ عليه قوله... ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء: 3]...ويظهر أن الرسول ﷺ قد خفف من حزنه عليهم، طاعة لربه في الوصية التي جاءت في سورة (فاطر) ...إلا أن آية (الشعراء) لم تنه عن كل الحزن أيضا، بل عن شديده القاتل احتمالا قتلا سريعا"[1].

ثم يسترسل في ذكر الآيات التي تدرج فيها الحديث عن الموضوع ليصل إلى المدنية منها ويذكرها حتى يصل إلى آخر ما أنزل في الموضوع، يقول: "(9) ثم أنزل الله ﷻ في أواخر العهد المدني بشأن طائفة من المنافقين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾[المائدة: 41]...وهكذا ظهر لنا تكامل النصوص حول هذا الموضوع"[2].

ويتضح من هذه الأمثلة أن المفسر حاول أن يجسّد بعض الدوافع التي خطها لتدبره؛ إذ من مبررات اختياره للتفسير وفق ترتيب النزول التي نص عليها تحقيق البناء المعرفي وتسلسل التكامل التربوي[3].

3- الكشف عن تدرج البيان التعليمي والتوجيهي :

ومثاله صنيعه -رحمه الله- في سورة (عبس) التي أدرج في ثنايا التدبر التحليلي لها دراسة معترضة قال فيها: "سوابق الحديث عن الإنسان في نجوم التنزيل:

أولا: أبان الله ﷻ في سورة (العلق/ 96 مصحف/ 1 نزول) ثلاث قضايا تتعلق بالإنسان:

القضية الأولى: كونه خلق من علق...

القضية الثانية: كون الله تعالى قد أعطاه الجهاز القابل للعلم...

القضية الثالثة: أن الإنسان متى رأى نفسه قد استغنى سلك مسالك الطغيان...

---

(1) _ معارج التفكر، مج9، ص156 وما بعدها.

(2) _ معارج التفكر، مج9، ص162.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص6 .

ثانيا: وفي سورة (الفجر/ 89 مصحف/ 10 نزول) ...

سادسا: وفي سورة (عبس/ 80 مصحف/ 24نزول) أبان الله ﷻ أن الإنسان بالنظر إلى أكثر أفراده كثير الكفر بربه، وكثير الكفر بنعمه عليه..."[1].

وقد ختم بذكره لتسع أفكار جاءت عن الإنسان بقوله: "نظرة إلى تسلسل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في نجوم التنزيل:

وإذا نظرنا في تسلسل الأفكار التي جاءت عن الإنسان في هذا الاستعراض السابق، وجدنا أنها مرتبة ترتيبا منطقيا بديعا، مطابقا لتدرج البيان التعليمي والتوجيهي:

(1) فالفكرة الأولى تتعلق بخلق الإنسان.

(2) والفكرة الثانية تتعلق بتعليم الإنسان.

(3) والفكرة الثالثة تتعلق بوصف واقع حال الإنسان الخلقي والسلوكي..."[2].

وهذا يدل على سبره الشامل لآيات الموضوع، فالمفسر لا يفسر فقط بما سبق بل يحاول الاستشراف على ما سيأتي بيانه في العهد المدني تبعا لنظرته التكاملية، وتحقيقا لما برر به صنيعه.

4- التذكير بالقضايا التي عالجتها المرحلة المكية وترتيبها وفق نزولها تمهيدا لطرح القضية التي عالجتها السورة، وتنبيها على ما اقتضته حكمة التدرج في التشريع:

نلمح هذا فيما نص عليه عند تدبر قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: 5- 10].

يقول: "وبالنظر إلى سنّة التدرج الربانية في إنزال شرائع الدين، نلاحظ أن العناية الربانية في هذه المرحلة المبكرة من تنزلات القرآن، قد وجهت لقضايا الإيمان أولا، وأتبعتها بالتوجيه للصلاة، فبالتوجيه للعطاء المالي مساعدة للفقراء...، وهذا التوجيه للعطاء المالي في هذه المرحلة المبكرة، فيه دليل على أن سد حاجات المحتاجين في المجتمع تأتي في التعليمات الإسلامية عقب التوجيه للصلاة، ولهذا اقترنت الزكاة بالصلاة في معظم النصوص القرآنية، وهذا التوجيه في هذه المرحلة المبكرة، قد جاء تمهيدا لفريضة الزكاة التي تأخر تحديدها، والإلزام بالمقدار الواجب بذله إلى المرحلة المدنية.

---

[1] _ معارج التفكر، مج2، ص231 وما بعدها. ينظر: مج12، ص535.

[2] _ معارج التفكر، مج2، ص234- 235.

وبالنظر إلى السور التي نزلت قبل سورة (الليل) نلاحظ أنه قد جاء تمهيد خفيف جدا لقضية بذل المال في سورة (العلق) أول سورة أنزلت، ببيان أن مشاعر الاستغناء من أسباب طغيان الإنسان، إذ جاء فيها قول الله ﷻ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[العلق6- 7] . وبعدها جاء في سورة (المدثر) السورة الثانية بحسب ترتيب النزول...

أما سورة (الليل) السورة التاسعة بحسب ترتيب النزول، فقد جاء فيها الترغيب بإعطاء المال واضحا وبقوة، وهو ترغيب مقرون بالوعد والثواب"[1].

5- التنبيه إلى التدرج في البيان في نجوم التنزيل:

فتأمل لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾[القارعة: 7] قال: "ولم يأت في السورة بيان تفصيلي عن الدرجات المتفاضلات في جنات النعيم، أخذا بحكمة التدرج في البيان، وتجزئة تقديم المعارف الدينية على مراحل، وتوزيعها على متفرقات النصوص في القرآن، ففي السور التي نزلت بعد سورة (القارعة) حتى آخر ما نزل من قرآن تفصيلات كافيات يتمم بعضها بعضا، وهذا منهج قرآني يدل على أنه منزل من لدن حكيم حميد، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[2].

وهذه أهم الملامح التي وظف فيها المفسر ترتيب النزول في تدبره الموضوعي، وإلا فإنه خصص أكثر الملاحق التي ختم بها تدبره للسور لدراسات موضوعات قرآنية وُزعت آياتها في السور، وحاول استعراضها بشيء من التدبر وفق ترتيب نزول سورها، مع استنباط ما تحمله آياتها من معان ومقاصد[3].

وخلاصة القول في ذلك: أن اجتهاد المفسر في ربط القارئ بمراحل التنزيل يتعدى التدبر التحليلي إلى ما قدمه من دراسات موضوعية، وهذه الأخيرة شغلت حيّزا كبيرا من تفسيره بل ربما تجلت فيها معالم التفسير وفق ترتيب النزول أكثر من سابقتها، إذ من خلالها سعى إلى الوصول إلى نظرة متكاملة تكشف تتابع التوجيه وتعكس أوجه التدرج، كما أنها جسّدت بعض الفوائد التي سعى إلى تحقيقها، فكانت ميزة خُص بها يدرك منها القارئ ولع المفسر بالتدبر وفق ترتيب نزول السور.

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص493.

[2] _ معارج التفكر، مج2، ص455 .

[3] _ ينظر: معارج التفكر، مج2، ص387/ مج9، ص107- ص544/ مج10، ص68، ص384/ مج12، ص665.

الفرع الثالث: النقد والتقويم.

حرصت فيما سبق على إعطاء صورة واضحة عن تطبيقات المفسر للتفسير وفق ترتيب النزول أثناء تدبره الموضوعي، ونأتي هنا لنقدها وتقويمها بالحديث عن محاسنها ومحاذيرها.

أولا: محاسن توظيف المفسر ترتيب نزول السور في دراسته الموضوعية.

سبق وأن نبهت إلى معظم ما يمكن أن يقال أنه من محاسن توظيف المفسر لترتيب النزول في تدبره التحليلي، وأغلبها ينطبق هنا أيضا لذا أكتفي بالحديث عن ما لم يسبق التنبيه إليه في نقاط إليك أهمها:

– أن تطبيقات المفسر لترتيب النزول في تدبره الموضوعي أظهرت بعض معالم التفسير وفق ترتيب نزول السور عنده بشكل واضح؛ فرغم أنها كانت لها جذور في التفسير وفق ترتيب المصحف عند السلف والخلف وعناية أيضا ممن ألف وفق طريقته في التفسير، إلا أنّ المفسر يحسب له التوسع في تطبيقها وإظهارها بشكل واضح بل التنصيص أحيانا على أن ما توصل إليه كان باعتماده ترتيب النزول.

– أن المفسر حرص على بيان فوائد معرفة الترتيب النزولي في تدبره الموضوعي، وذلك من خلال:

* تسليط الضوء على المقاصد القرآنية المراد ترسيخها مع البدايات الأولى لنزول الوحي.
* التذكير بسنّة التدرج في الخطوات التربوية، وفي تشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام وفي غيرهما.
* بيان التكامل بين النصوص القرآنية، والإرشاد إلى تنويع دلالاتها ترسيخا لمعانيها.

ولا شك أن هذه مقاصد سامية وغايات نبيلة، لموافقتها لأهداف القرآن الكريم ومقاصده، يقول عبد الرحمن الشهري: "في ترتيب سور القرآن الكريم من حيث النزول خلاف بين العلماء تجده في كتب علوم القرآن، وقد اجتهد عدد من العلماء في تحرير هذه المسألة ومنهم الشيخ عبد الرحمن حبنكة حيث حاول تتبع هذه المسألة لكي يبني عليها تفسيره وقد وفق في ذلك إلى حد بعيد"[1].

– تفوق المفسر على من سبقه إلى التفسير وفق الترتيب النزولي للسور باعتماده التدبر الموضوعي: فإذا رجعنا إلى من ألف قبله في محاولة للمقارنة بينهم فيما يخص ملامح تطبيقهم لترتيب النزول في تفاسيرهم وأثره على بيانهم للمعاني، نجد أن مفسرنا قد كان له الريادة في ذلك، حيث حاول أن يبدي تفاعلا معه وأن يوظفه على صعيد واسع.

---

[1] _ التفسير حسب ترتيب النزول، (مقال).

وأمثل في هذا المقام بذكر أنموذج تطبيقي[1] حول تفسير آيات التحدي بالقرآن الكريم، لارتباطها الوثيق بترتيب النزول، فهي من أهم المسائل التي لا ينبغي صرف النظر عنها أثناء البحث عن جهود المفسرين في التفسير وفق ترتيب النزول.

أقول: جاء الحديث عن آيات التحدي بالقرآن الكريم مبثوث في عدد من السور، نركز في هذا المقام على اثنين منها وهما آية سورة (يونس) حيث تحدى الله فيها المشركين بالإتيان بسورة منه، والثانية آية سورة (هود) والتي تحداهم فيها بالإتيان بعشر سور.

فبالنظر في ترتيب نزول السورتين الذي اعتمده من فسّر وفق ترتيب النزول تكون سورة (يونس) قبل سورة(هود)، فيكون القرآن الكريم تحدى المشركين على الإتيان بسورة واحدة ثم تحداهم بعشر سور؟! أي تحداهم بالأقل فلم يستطيعوا فكيف يتحداهم بالأكثر؟!

وهذا الإشكال ترتب على توظيف ترتيب النزول، فهل حاول مفسرنا ومن سبقه إيجاد مخرج له؟

إذا رجعنا إلى (التفسير الحديث) بحثا عن موقف صاحبه من هذه المسألة نجده يمر عليها مرور الكرام، فهو لم يعرها اهتماما ولم يحاول بيان أثر ترتيب النزول في ترتيب تفاصيلها، يقول في تفسيره لآية سورة (يونس) وبالضبط تفسيره لكلمة "سورة": "ومهما يكن من أصل اشتقاقها اللغوي وأصل معناها، فإن السياق الذي وردت فيه هذه الكلمة في القرآن، يدل دلالة لا ريب فيها، على أنها تعني مجموعة مستقلة وكاملة من الآيات...ولما كانت هذه الكلمة قد وردت بعد نزول طائفة كبيرة من القرآن المكي، فمن الممكن أن يقال إن كثيرا من السور القرآنية، كان في هذا العهد قائم الشخصية، وفي سورة هود التي يجيء ترتيبها في روايات النزول بعد سورة يونس تحد للكفار بعشر سور مما فيه تأييد لما نقول"[2].

وفي آية سورة (هود) يقول: "وتضمنت الآية الثانية ترديدا لما كانوا ينسبونه إلى النبي ﷺ من افتراء القرآن، وأمر يتجسد بهم بالمقابلة فليأتوا بعشر سور مثله إذا كانوا صادقين في زعمهم بأنه مفترى، وليستعينوا بمن يستطيعون على ذلك"[3].

وأردد في هذا المقام وراء فضل عباس تعليقه على صنيع المفسر حيث يقول: "فنحن نرى ...أن المفسر الفاضل، لم يتعرض من قريب أو من بعيد لهذه النقطة الهامة، مع أن لها صلة تاريخية بأمر هام

---

(1) _ ولا شك أن البحث في سبيل المقارنة بين مفسرين أو أكثر يتطلب دراسة كل تفسير على حدى أولا، وهذا مما لا يسع المقام للتفصيل فيه، لذا أردت التمثيل لاجتهاد المفسر في بحث مسائل مهمة اقترنت بالتفسير وفق ترتيب النزول وغيّب غيره الحديث عنها.

(2) _ التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، ج3، ص471.

(3) _ المرجع نفسه، ج3، ص509.

من الأمور التي قصدها القرآن وهو التحدي"[1]، وهذا بالنسبة لدروزة أما بالنسبة لعبد القادر ملا حويش فإنه أيضا لم يبيّن الحكمة من ذلك بل كان رأيه عجيبا غريبا[2].

بينما لم يكن الحال كذلك عند مفسرنا فقد تعرض لها بالتفصيل واجتهد في بيان الحكمة من ترتيب آيات التحدي وفق ترتيب نزولها، حيث يقول عند تدبره لقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[يونس: 38]: "هذا أحد الأجوبة التي علم الله رسوله أن يجيب بها على هذا الإدعاء من إدعاءاتهم التي كرروها في مقلاتهم الإعلامية الظالمة.

وقد أنزل الله ﷻ قبل هذا في سورة (الإسراء/ 17 مصحف/ 50 نزول): ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء: 88].

وجاء في سورة (هود/ 11 مصحف/ 52 نزول) قول الله ﷻ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[هود: 13].

وخاطب الله ﷻ المرتابين منْ مَا نزّل الله على رسوله من قرآن. في أول سورة مدنية، فقال ﷻ في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول): ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة: 23].

فجاء في هذه النصوص التحدي بالإتيان بمثل القرآن كله، وجاء فيها التحدي بالإتيان بسورة مثله، وجاء فيها التحدي بالإتيان بعشر سور مثله.

ولكن جاء فيها التحدي بالإتيان بعشر سور مثله بعد التحدي بالإتيان بسورة مثله في ترتيب النزول...على خلاف المتبادر من التحدي بالأقل بعد التحدي بالأكثر. ما الحكمة من هذا الإجراء؟

أقول: لما جاء التحدي بالقرآن عموما في سورة (الإسراء/ 50 نزول) كان وقعه على المكذبين بأنه كلام الله مثيرا لاعتراضهم بأن الرسول لم يأت بالقرآن جملة واحدة، حتى يتحدانا به، إنما يأتينا به مفرقا نجما بعد نجم، ولم يستكمل بعد قرآنه حتى يتحدانا به، ولسنا ندري ماذا سيأتينا به مما يذكر أنه قرآن. فأنزل الله ﷻ في سورة (يونس/ 51 نزول) تحدّيَهم بأن يأتوا بسورة مثله مستعينين بمن يستطيعون الاستعانة به من دون الله، مع العلم بأن السور القريبة التنزيل من سورة (يونس/ 51 نزول) هي ما يلي:

---

[1] _ التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ج3، ص190.

[2] _ ينظر: بيان المعاني، ج3، ص40- ص102.

سورة (الإسراء/ 50 نزول) وهي (111) آية، سورة (القصص/ 49 نزول) وهي (88) آية، سورة (النمل/ 48 نزول) وهي (93) آية...فهي ونحوها المعنيات بالتحدي.

ولعل بعض المكذبين تساءل بلسانه أو بنفسه: أيتحدانا محمد بأن نأتي بسورة مما جاءنا به من قصار السور، كسورتي (الفلق) و(الناس) وسورة (قريش)...؟! إننا سنأتي بمثل سورة من هذه السور وأشباهها.

وقطعا للجدل فيما يمكن أن يتحدوا به من قول مماثل لبعض قصار السور فيما يزعمون، أنزل الله ﷻ في سورة (هود/ 52 نزول) تحديهم بأن يأتوا بعشر سور مماثلات لعشر سور من قصار سور القرآن، التي ظنوا أن بإمكانهم أن يأتوا بمثل واحدة منها، وأن يثيروا به جدلا حول المماثلة أو عدمها...على أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثل قصار سور القرآن ضمن الأبعاد الواسعة لتدبرها، ولكن علم الله رسوله أن يتحداهم بمثل عشر سور من قصار السور قطعا لجدلياتهم، لأنهم إذا أمكنهم أن يجادلوا بشأن ما يماثل سورة قصيرة واحدة، فإنهم لا يستطيعون أن يجادلوا بما يزعمون مماثلته لعشر سور قصار.

وهذا من الأساليب الجدالية التي يرشدنا الله ﷻ إليها، كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام في مناظرته لنمرود، وهو ما جاء بيانه في قوله ﷻ...: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[البقرة: 258].

انتقل إبراهيم عليه السلام في مناظرته من مثال استطاع نمرود أن يغالط فيه، إلى مثال لا يستطيع أن يغالط فيه، وهذا من براعة الأساليب والمناظرات"[1].

وقد نقلت اجتهاده في بيان الحكمة من ترتيب آيات التحدي رغم طوله لأهميته، وما أردت بيانه هنا ليس كون المفسر وُفّق أو لم يوفّق في اجتهاده، لأنه كما هو ظاهر لم يبنه على مخالفة عقدية أو شرعية أو طعن به في صحة المروي، مما يدعوا إلى بيان بطلانه والتحذير منه بل هو اجتهد فقد يصيب وقد يخطأ، وإنما أردت التأكيد على جهود المفسر في إزالة الالتباس على ما قد يتبادر من اختياره تدبر السور وفق ترتيب النزول مما غيّبه غيره رغم اعتمادهم لنفس الطريقة[2].

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص123 وما بعدها.

[2] _ والمفسر هنا اجتهد في إيجاد مخرج يوفق فيه بين ترتيب نزول السور وبين مضمون الآيات، وقد خالف غيره جمهور المفسرين في حديثهم عنها أمثال محمد عبده الذي قال: "وإنني أجزم هنا – بعد التأمل في جميع آيات التحدي وتاريخ نزول سورها– أنها لم يكن مراعى بها الترتيب التاريخي في مخاطبة المشركين كما زعم جمهور المفسرين، بل ذكر كل منها بمناسبة سياق سورته". والحديث في هذه=

ثانيا: محاذير توظيف المفسر ترتيب النزول في دراسته الموضوعية.

وهنا أيضا يصدق ما ذكرته من مؤاخذات بتوظيفه له في تدبره التحليلي، وأجمل القول في أهم ما ينبغي التنبيه عليه:

– التأكيد على عدم الجزم بصحة الترتيب النزولي الذي اعتمده المفسر، وتقصيره في البحث أولا في صحة الترتيب في كل موضوع يطرقه، وقد كنا نتغاضى عنه هنا لو أصَّل للمسألة ابتداء وحررها جيدا وأعطى للترتيب الذي اختاره حقه من البحث ولكن الأمر لم يكن كذلك، لذا فأنا أسير مع طه محمد فارس في قوله: "قد نسلم ببعض النتائج التي وصل إليها أو أكثرها، ولكن ليس على أساس صحة ترتيب النزول الذي اعتمده، لأننا لم نطمئن لصحته، إنما لأنها لم تخالف ما علم من أساسيات الدين والشريعة"[1].

– قلة اليقين بالترتيب الذي اعتمده، وكون السور لم تنزل دفعة واحدة، إذ هناك سور ظلت مفتوحة لسنين وتخلل نزولها نزول غيرها من السور والآيات، جعل المفسر يرتبك أحيانا في ترتيب آيات الموضوع الواحد.

فانظر إلى صنيعه مثلا في حديثه عن موضوع أمر النبي ﷺ بالصبر في مراحل التنزيل قبل نزول سورة (الفرقان)، ذكر أنه قد جاء الحديث عنه ثلاث مرات فقط[2]، بينما إذا راجعنا الترتيب النزولي الذي اعتمده نجده قد ذُكر خمس مرات في خمس سور[3]، ولما تتبعت كلام المفسر وجدته أسقط اثنين منها عمدا يقول: "وإذ قال قائل: إننا نجد في سورة (القلم: 68 مصحف/ 4 نزول) قول الله ﷻ لرسوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾[القلم: 48].

ونجد في سورة (المزمل/ 73 مصحف/ 3 نزول) قول الله ﷻ لرسوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾[المزمل: 10].

فلم لم تذكرهما في مراحل التنزيل السابقة؟

=المسألة يطول وقد وقفت على بحوث قيمة فصّلت فيها. ينظر: تفسير القرآن الحكيم، ج12، ص38/ آيات التحدي في القرآن الكريم الدلالة والإيحاء، عبد العزيز العمّار، ص22 وما بعدها/ آيات التحدي بالقرآن الكريم –جمعا ودراسة–، ناصر الصائغ، ص118 وما بعدها.

[1] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، طه محمد فارس، ص256.

[2] _ معارج التفكر، مج6، ص429.

[3] _ وهي: سورة (المدثر)، (المزمل)، (القلم)، (ق)، (ص).

فالجواب: أن هذين النصين مدنيان تنزيلا، ضمّا على سورتين هما من أوائل التنزيل المكي"[1].

وإذا كان المفسر تنبّه هنا ونبّه عن سبب إغفاله الحديث عن الآيات التي جاء فيها حديث عن الموضوع[2]، فإنه في مواضع أخرى لم يثبت على ترتيب واحد، فتأمل حديثه عن اهتمام الرسول ﷺ بأنه شاعر أثناء تدبره لسورة (يس) ذكر ستة مواضع رتبها على النحو الآتي: سورة (يس)، (الصافات)، (الأنبياء)، (الطور)، (الحاقة)، (الشعراء)[3].

وهذه المواضع الست نفسها ذكرها في حديثه عن الأطوار التي كانت تتطور عليها مزاعم المشركين بشأن القرآن الكريم والرسول ﷺ أثناء تدبره لسورة (الشعراء)، ولكن غاير الترتيب الذي اعتمده أولا، ورتبها كالآتي: سورة (يس)، (الشعراء)، (الصافات)، (الأنبياء)، (الطور)، (الحاقة)[4]، وبهذا الترتيب الثاني يكون قد وافق الترتيب النزولي الذي اعتمده للسور في ترتيب سورة (الشعراء)، أما الترتيب الذي سار عليه في سورة (يس) فقد خالف به الترتيب المعتمد عنده لأنه حكم على آيات سورة (الشعراء) محل الاستشهاد بأنها مدنية التنزيل[5].

ومن ثم فإن المفسر –رحمه الله– وقع في اضطراب أثناء ترتيبه لآيات سورة (الشعراء)، فرتبها مرة على وفق ترتيب نزول السورة التابعة لها وعدها مكيّة، وأخرها في الثانية وعدها مدنية مستثناة من السورة، وهنا يظهر تكلّف المفسّر في تتبع المعاني وفق ترتيب النزول إذ لما وافق تسلسل المعاني الترتيب عدّها مكية ولما أشكلت عليه أدرجها في القسم المدني وأخرها.

– إذا أردنا تقويم هذه التطبيقات فعدنا فاستحضرنا ما ذكره من فوائد، فإننا نجده وإن سعى إلى تحقيق بعضها فإنه لم يجسدها كلها إذ لم أقف مثلا على الأخطاء التفسيرية التي تجنبها باعتماده ترتيب النزول بديلا عن الترتيب المصحفي[6]، كما أن غيرها من تحقيق تسلسل البناء المعرفي والكشف عن التدرج في التشريع كان يمكن الاستفادة منها ولو على ترتيب المصحف وقد سبق التنبيه إلى العناية بها من قبل من سبقه من المفسرين.

---

(1) _ معارج التفكر، مج6، ص431.

(2) _ بغض النظر عن صحة استثناء هذه الآيات وعدها مدنية، إذ سيأتي التفصيل فيها في المبحث الأول من الفصل الموالي.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص194 وما بعدها.

(4) _ معارج التفكر، مج8، ص751 وما بعدها.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص197.

(6) _ ينظر: قواعد التدبر الأمثل، ص152 .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن المفسر تدبر القسم المكي فقط من السور فالحكم يقتصر عليها، إذ قد يكون من الأهداف التي خطها ما لا يبرز إلا في القسم المدني، خاصة وأنه يكثر فيه الحديث عن التشريع ومن أهم الأسباب التي خطها المفسر هي الكشف عن التدرج فيه.

– الجزم بما توصل إليه من فوائد وأفكار، دون التنبيه إلى ظنية ما بُنيت عليه، ولعل هذا من الآثار السلبية لاعتماده على ترتيب النزول، لذا لابد للقارئ أن يتنبه إلى أنها اجتهادات فيها المقبول وفيها المتكلف.

– إن الدراسات الموضوعية ليست حكرا على التفسير وفق ترتيب النزول، بل سبقه المفسرون في العناية بها، والمفسر نفسه نبه إلى من جمع بين النصوص من المفسرين أي أنه يقر أنه سبق بذلك، يقول: "وقد ذكر القرطبي...صاحب التفسير المشهور، في كتابه "التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة" جمعا بين الآيات الواردة في أحوال الكافرين في الآخرة، ما خلاصته أن الناس لا يكونون يوم الدين على حالة واحدة دواما، بل لهم أحوال، وأن اختلاف بعض النصوص عن بعضها، ليس تعارضا فيما بينها، ولكن بعضها يتحدث عن بعض الأحوال، وبعضها الآخر يتحدث عن أحوال أخرى.

وهذا الذي ذكره القرطبي حقّ وواضح من دلالات النصوص"[1].

– إن الدراسات التي خصها المفسر بالتدبر الموضوعي كان بالإمكان الاستغناء عنها أثناء تدبره للسور؛ لذا لو أن مفسرنا رتب تدبره على ما تواتر عليه السلف ووظف اجتهاداته في الملاحق التي كان يختم بها السورة ثم حرص على تحري صحيح الرواية في الترتيب الذي يعتمده لكان وُفّق في ذلك إلى حد كبير ولسلم من الكثير من المؤاخذات.

[1] _ معارج التفكر، مج6، ص396.

وخلاصة القول في ذلك كله: أن أهم ما يُؤخذ على مفسرنا أثناء توظيفه للترتيب النزولي للسور في تدبره التحليلي أو الموضوعي هو قلة اليقين بالترتيب الذي بنى عليه اجتهاداته من جهة، وتقصيره في التثبت منه من جهة ثانية، لذا كان هو محور مجمل الانتقادات الموجهة إليه.

ومن باب إنصاف المفسر فإنه يمكن أن يقال أنه فتح أمام التفسير وفق ترتيب نزول السور أفق جديدة ظهرت في تلك التطبيقات التي سعى فيها إلى الاهتمام به قدر المستطاع، فقد حاول أن يجعل القارئ يدرك كنهه وأهميته في تدبر القرآن الكريم ويجعله يعيش في أجواء التنزيل، ضف إلى أن ما أثبته من اجتهادات لم يحمل بين طياته ما يدعوا إلى التحذير منه، وإن لم يسلم من التكلف أحيانا.

ويمكن القول إن مفسرنا قدم أنموذجا قد يخفف من حدّة النقد الموجه لمن فسّر وفق ترتيب النزول، ليس من جهة صحة الترتيب المعتمد وإنما من ناحية منهجية تطبيقه واعتماده للمصادر والمعاني التي استقر عليها السلف في تفاسيرهم، وإن خالفهم في بعضها.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث: البعد المقاصدي للتفسير وفق ترتيب نزول السور في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

أنزل الله ﷻ القرآن وشرع الأحكام لمقاصد جليلة وغايات سامية نبيلة، روعي فيها مصالح العباد الدينية والدنيوية بما يحقق لهم السعادة في الدارين.

ولاشك أن العناية بمقاصد القرآن الكريم[1] له منزلة خاصة في تدبر آياته، فقد عدّه الشاطبي أساس التدبر، يقول في سياق الرد على من زعم أن للقرآن ظاهر وباطن: "وإذا حصل التدبر لم يوجد في القرآن اختلاف البتة...فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن؛ فلم يحصل منهم تدبر"[2].

وهذا النقل يؤكد أهمية البحث في التوجه المقاصدي لمفسرنا أثناء توظيفه لترتيب النزول في تدبره للقسم المكي من السور[3]، والذي سيأتي تفصيله في فرعين اثنين، تحدثت في الأول منهما عن عناية المفسر بمقصد التوحيد والعقيدة، أما الثاني فتناولت فيه مقصد الأخلاق والتربية.

وهذه ذكرتها لِما وقفت عليه من حرص المفسر على إثباتها والاجتهاد في التذكير بها ، وإلا فالحديث عن المقاصد القرآنية في تطبيقاته لترتيب النزول لا ينحصر فيها فقط.

---

[1] _ يقول العز بن عبد السلام: "معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها". ويقول البقاعي في تعريفه لعلم المقاصد القرآنية: "فهو علم يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه آيات السور، كل سورة على حيالها، وغايته: معرفة الحق من تفسير كل آية من تلك السورة، ومنفعته: التبحر في علم التفسير، فإنه يثمر التسهيل له والتيسير". وأختم بما جاء على لسان عبد الكريم الحامدي حيث عرفها قائلا: "الغايات التي أنزل القرآن لأجلها تحقيقا لمصالح العباد". ينظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج1، ص8/ مصاعد النظر، ج1، ص155/ مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، ص29.

[2] _ الموافقات، ج4، ص209.

[3] _ إذ ليس الغرض هنا بحث مقاصد القرآن الكريم في تفسير (معارج التفكر)، فهو يحتاج إلى دراسة مستقلة أسأل الله أن يوفقنا للكتابة في الموضوع مستقبلا لأني لم أقف على من بحثه أو حتى أشار إليه.

الفرع الأول: مقصد التوحيد والعقيدة.

إن عناية المفسر –رحمه الله– بمقصد التوحيد والعقيدة كان من أبرز معالم منهجه في التأليف عامة وفي تدبر القرآن الكريم على وجه الخصوص[1]، فهو وسيلته الفعالة في مشروعه التجديدي التدبري وفق ترتيب النزول، أراد به ترسيخ معالم التوحيد وتقرير العقيدة الصحيحة وتصحيح المفاهيم حولها وبثّها من جديد في نفوس المتلقين في تدبره التحليلي من جهة، وكذا في دراساته الموضوعية من جهة ثانية.

ومن أجل ذلك اجتهدت في جمع وتلخيص ما ذكره المفسر تقريرا لهذا الأصل العظيم مما ارتبط الحديث عنه بترتيب النزول في نقاط إليك أهمها:

1– التذكير بأن ما نزل في الدعوة المكية يعالج بالدرجة الأولى تأسيس قضايا الإيمان:

قال ﷻ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الملك: 29]، يقول المفسر متدبرا هذه الآية: "ولما كان الإيمان هو الأساس الأول في بناء الدين، وجدنا أن أول ما بدأت به دعوات الرسل عليهم الصلاة والسلام، تأسيس الإيمان في قلوب من يدعونهم إلى دين الله، ووجدنا سيدنا محمدا ...قد بدأ أوّل ما بدأ بالدّعوة إلى تصحيح الإيمان، والاهتمام بتأسيسه...ووجدنا القرآن الكريم يوجه أعظم اهتمامه لقضايا الإيمان، ووجدنا أن ما نزل منه في مدّة الدعوة المكيّة –وهي المدة الأولى في الدعوة المحمدية الإسلامية– يعالج بالدرجة الأولى تأسيس قضايا الإيمان بمختلف الوسائل الإقناعية، ويوجه اهتمامه الأكبر لتصحيح عقائد الناس بالنسبة إليها"[2].

والمفسر –رحمه الله– لم يقف عند هذا، بل حاول أن يقرب المعاني التي ذكرها للقارئ ليستشعر أهميتها وأثرها في حياته، يقول: "إن المفاهيم الاعتقادية الإيمانية ضرورية لتوجيه كل سلوك إنساني...إننا حين نلاحظ أنواع سلوكنا العادي في الحياة، نجد أن إراداتنا تتصرف بتوجيه من مفاهيمنا الثابتة في نفوسنا...ومن هنا ندرك أهمية مفاهيمنا الثابتة –وهي مجموعة عقائدنا– في توجيه إراداتنا لأنواع السلوك، نتصور أنها تجلب لنا مصالح أو منافع...أو نتصور أنها تدفع عنا مفاسد أو مضار"[3].

---

[1] _ فقد شغلت مباحث الاعتقاد عددا مؤلفاته، وعُني بها كثيرا تقريرا للأصول وبيانا للفروع وذودا عنها متصديا لجميع ضروب التطرف والإلحاد، بل كانت موضوع فاتحة مؤلفاته وهو كتابه (العقيدة الإسلامية وأسسها).

[2] _ معارج التفكر، مج6، ص674.

[3] _ معارج التفكر، مج6، ص674- 675.

2- الربط بين مرحلة نزول السورة وما قررته من قضايا العقيدة:

ومن ذلك ما ختم به المفسر تدبره التحليلي لسورة (الإخلاص)، يقول: "لم تتضمن سورة الإخلاص الدليل على أحدية الخالق الرب ﷻ...ولم تتضمن الدليل على صمديته...بل جاءت البيانات فيها بأسلوب تقريري للأحكام التي تضمنتها جملها.

والسبب في هذا أن المرحلة التي نزلت فيها السورة مرحلة استفسار عن نسب الخالق الرب الذي يدعو محمد إلى عبادته وحده، وإلى نبذ عبادة كل المعبودات من دونه، وقد جاء هذا الاستفسار على لسان بعض المشركين، وهو يقتضي بيان الجواب بطريقة تقريرية خبرية، لا بطريقة استدلالية... وقد اشتمل القرآن المنزل بعد هذه السورة على أدلة هذه الحقائق عن الله ﷻ، وتنزه عما لا يليق بأزليته وأبديته، وبصفات الكمال التي هي له"[1].

فالمفسر هنا اجتهد في الكشف عن العلاقة بين الأحكام العقدية التي تضمنتها السورة، وبين المرحلة الزمنية لنزولها، منبها إلى ما سيأتي التفصيل فيه في السور التي تليها في ترتيب النزول.

3- تتبع مواقف أهل مكة الشركية اتجاه دعوة التوحيد المحمدية أثناء تدبره للسور المكية:

وهذه حرص على بيانها في تدبره التحليلي فكان ينبه إليها كل ما لاح له معنى يؤيّدها، بل نجده خصصها بدراسة معترضة جعلها تحت عنوان: "بيان أطوار مواقف مشركي مكة تجاه عناصر موضوع السورة منذ بدء البعثة المحمدية حتى نزول سورة الفرقان".

تتبع فيها مواقفهم الشركية وما تضمنته من صد ورفض لعقيدة التوحيد، باستقراء وسبر المعاني القرآنية النازلة قبل سورة (الفرقان)، ثم تدبرها ليكشف عن ما حملته الآيات من دلالات حول تطور مواقفهم مع مرور نزول السور، يقول: "الطور الأول طور كان مع بدء الدعوة، إذ ظهرت محاولات أولى من بعض أفرادهم لمنع الرسول من الصلاة، والصد عنها، لئلا يفتتن الناس بصلاته فيتبعوا دينه...دل على هذا الموقف قوله ﷻ في سورة (العلق/ 96 مصحف/ 1 نزول): ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾[العلق: 9- 10]..."[2]، واستمر في ذكر الأطوار حتى وصل إلى "الطور الثامن عشر: وكان إبان نزول سورة (الفرقان/ 25 مصحف/ 42 نزول) إذ تابع الذي كفروا الحرب الكلامية وتوجيه الشتائم للرسول، فقالوا عن القرآن: هو إفك، واتهموا الرسول بأنه افتراه...وكان موقفهم هذا له صفة التحرك الجماعي، لا

---

[1] _ معارج التفكر، مج2، ص87- 88. ينظر: مج10، ص42.

[2] _ معارج التفكر، مج6، ص308.

الأعمال الفردية المتناثرة"[1].

4- إفراد أهم مباحث العقيدة بالتدبر الموضوعي وفق الترتيب النزولي:

فتأمل صنيعه مثلا لما وصل إلى سورة (فاطر) إذ ختمها بعدد من الملاحق، منها الملحق الثالث الذي جعله تحت عنوان: "توحيد الربوبية وتوحيد الإلهيّة في الدلالات القرآنية"[2].

افتتحه بمفهومات تأسيسية أصّل فيها لما يريد بيانه، ثم انتقل بعدها فذكر "أمثلة من الأدلة القرآنية على توحيد الربوبية لله ﷻ" مرتبا إياها وفق ترتيب نزول سورها[3]، ليختمها بقوله: "ومن هذه النصوص وأشباهها في القرآن نستخلص أن علاقة العباد بالله ﷻ علاقة مربوبين برب، إذ كل ما في ذواتهم، وكل ما يجري لهم أو عليهم...إنما هي آثارٌ من آثار ربوبية الله ﷻ لهم، التي لا تنقطع عنهم طرفة عين ولا أقل من ذلك"[4].

كما ذكر "أمثلة من الأدلة القرآنية على توحيد الإلهية لله ﷻ"، ورتبها هي الأخرى وفق ترتيب نزول سورها[5]، وانتقل بعدها إلى الحديث عن "عقائد المشركين في جاهلياتهم أخذا من الدلالات القرآنية"[6].

والمفسر -رحمه الله- لم يقف عند هذا بل حرص على إيجاد أوجه الارتباط بين ما أثبته أخذا من الدلالات القرآنية والواقع الذي يعيشه أهل زمانه ليصف العلاج القرآني له، إرشادا منه إلى العقيدة السليمة وتنبيها إلى البدع؛ حيث حذّر من الفرق التي ظهرت في زمانه ببيان أسس اعتقاداتهم الشركية ومن ذلك حديثه عن "القبوريين من المسلمين" وما يقومون به من بدع تضاهي أحوال المشركين من الجاهلية وجب التصدي لها، يقول: "الواجب سد الذريعة منذ بوادرها الأولى، واقتلاع نبتتها منذ بداياتها مهما كانت خفيفة، حتى لا تتفاقم في نفوس الجاهلين، فالنفوس البشرية سريعة الانسياق وراء الأوهام إلى أودية الشرك الخفيّ، فالشرك الجليّ"[7].

---

[1] _ معارج التفكر، مج6، ص313.

[2] _ معارج التفكر، مج7، ص291.

[3] _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص315- ص322- ص324- ص327.

[4] _ معارج التفكر، مج7، ص328.

[5] _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص328 وما بعدها.

[6] _ معارج التفكر، مج7، ص335 وما بعدها.

[7] _ معارج التفكر، مج7، ص350.

وقد خصّ المفسر الحديث عن الإيمان بالملائكة أيضا بملحق مستقل جعله "حول معالجة المشركين بشأن عقيدتهم في الملائكة"، يقول: "جاء في القرآن المجيد حول موضوع عقيدة المشركين في الملائكة... تسع نصوص في ثماني مراحل من العهد المكي، بثماني سور.

وجاءت معالجة هذا الموضوع موزعة في هذه المراحل، مع إعادة ما يقتضي السياق والعلاج التربوي والإقناعي الأفضل إعادته منها، ومع إضافة ما يقتضي الأسلوب التدريجي إضافته"[1].

وقد ذكر تلك المعالجات الواحدة تلوا الأخرى أخذا من تسلسل نزولها، وختمها بخلاصة عدد فيها العناصر التربوية التي تستفاد منها[2].

ولم يغفل مفسرنا الحديث عن الإيمان باليوم الآخر، بل جعله موضوع الملحق الثاني بسورة (النمل) تحت عنوان: "تَعلَّة المكذبين بيوم الدين هي توجيه الاستفهام التعجبي"، جمع فيه جميع الآيات التي ظهر له أن فيها حديثا عن الموضوع وتدبرها وفق ترتيب نزولها، يقول: "لم يكن لدى الكافرين المكذبين بيوم الدين طوال المرحلة المكية، وحتى المرحلة المدنية...من تعلة يتذرعون بها غير توجيه الاستفهام التعجبي من الإحياء بعد الموت...ولدينا في القرآن المجيد عشرة نصوص تنزلت في مراحل من نجوم التنزيل في سبع سور"[3].

5. اعتماد الترتيب النزولي للسور للتذكير بأن وظيفة القرآن والرسول ﷺ وظيفة بيان وتذكير:

اجتهد المفسر في ترسيخ هذا المعنى في نفوس المتلقين، وذلك بجمع كل النصوص الواردة في القرآن الكريم حوله وتدبرها وفق ترتيب نزول سورها، يقول: "وهذا ما تواطأت على بيانه وتأكيده النصوص القرآنية، في مراحل متباعدة من نجوم التنزيل. ونجد في القرآن الكريم سبعة عشر نصا تبيّن هذه الحقيقة، وتؤكدها، ضمن منهج حركي تربوي حكيم. وفيما يلي بيانها بحسب ترتيب نزولها، مقرونة بشيء من التدبر"[4].

ثم عرض الآيات التي جاء فيها حديث عن الموضوع وأتبعها بالتدبر كما قال، وأترك القارئ يستمع إلى بعض ما جاء على لسانه بما يظهر به محاولته الجمع بين ما قررته الآيات حول الموضوع وبين ترتيب نزولها، يقول في تدبره للنص السابع عشر: "قول الله ﷻ في سورة (الإنسان/ 76 مصحف/ 98

---

[1] _ معارج التفكر، مج2، ص172- 173.

[2] _ ينظر: معارج التفكر، مج2، ص191 وما بعدها.

[3] _ معارج التفكر، مج9، ص226.

[4] _ معارج التفكر، مج2، ص262.

نزول): ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾[الإنسان: 29] في هذا النص يقفل الله موضوع حرية مشيئة الإنسان في الإيمان والكفر والعمل الصالح والسيئ، بمثل النص الذي بدأ به هذا الموضوع في سورة (المزمل: ثالث سورة نزلت من القرآن المجيد)، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[المزمل: 19]. وأنزلت فيما بينهما نصوص بلغت (15) نصا، ملأ كل منها فراغ حبّة في عقد الموضوع، على تكاملية في المعاني، مع مراعاة المناسبات الداعية لإيراد كل منها في السورة التي هو منها.

وأطبق الله ﷻ على هذا القفل قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾[الإنسان: 30- 31]...وبهذا تكامل عقد الموضوع وأدّت النصوص أدوارها التربوية بحسب مراحلها الزمنية، وبحسب الحاجة الحركية الدعوية، ومقتضياتها التربوية"[1].

6. استنباط ما تحمله الآيات من معاني عقدية يحسن الاهتداء بها:

فقد حرص المفسر على استحضار مرحلة نزول السورة في الكشف عن ما ترشد إليه الآيات من معاني يمكن الاستفادة منها وتطبيقها في الواقع، في محاولة منه وصف العلاج القرآني المناسب للعلل التي يعانيها أهل زمانه، فتأمل مثلا لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[يونس: 3] قال: "يعلمنا ربنا ﷻ أسلوب العودة إلى الإقناع بأركان القاعدة الإيمانية في الدين، لدى دعوة المشركين، أو الكافرين ببعض صفات رب العالمين، ولوازمها الفكرية، فآمنوا بأفكار باطلة، والتزموا بلوازمها في السلوك.

فهذا المنهج السليم في الإقناع بالحق، والحوار الجدي، والمجادلة بالتي هي أحسن.

أما الحوار والمجادلة في الفروع قبل تصحيح القاعدة الإيمانية ولوازمها الفكرية والسلوكية، فعمل غير ذي جدوى، وربما يكون ضرره أكثر من نفعه"[2].

وبعد هذه الجولة في رحاب التوجه المقاصدي العقدي في تطبيقات المفسر لترتيب النزول أثناء تدبره للسور، يحسن تسجيل جملة من الملاحظات أهمها:

---

[1] _ معارج التفكر، مج2، ص277- 278.

[2] _ معارج التفكر، مج2، ص277.

– إن العناية بغرس العقيدة السليمة والتوحيد الخالص ونبذ الشرك ومظاهره كان من أولى أولويات المفسر أثناء تدبره للآيات، وهذه الحقيقة أفصح عنها في أول مؤلف له من كتبه بقوله: "لما كان للفكرة هذا الأثر العظيم في وجود الإنسان وحياته؛ كانت الأسس الفكرية في حياته –التي تمثل عقائده– أول ما يجب العناية به عناية بالغة النهاية، لأن كل تصرف من تصرفاته سيصبح أدنى إلى كمال السلامة، متى انضبطت هذه الأسس في نفسه وبنيت على الحق"[1].

يقول مازن عطية: "وكتابه (معارج التفكر ودقائق التدبر) يعتبر مرجعا هاما في بيان العقيدة الإسلامية وتوضيحها والرد على من خالفها، خاصة وأنه في تفسير القرآن المكي الذي يتناول مسائل العقيدة جميعا"[2].

– اقتفى المفسر –رحمه الله– خطى سلفه من العلماء والمفسرين في عنايتهم بمقصد العقيدة في تفسيرهم لسور القرآن الكريم.

– إن التفات المفسر إلى مقصد العقيدة أثناء توظيفه للتفسير وفق الترتيب النزولي للسور المكية يحسب له، خاصة في جمعه لآيات الموضوع الواحد وتدبرها، مما أظهر جليا أحد أهم مميزات القسم المكي، وهو العناية بالتوحيد ونبذ الشرك ومظاهره.

يقول الشاطبي: "وغالب المكي أنه مقرر لثلاثة معان، أصلها معنى واحد وهو الدعاء إلى عبادة الله تعالى، أحدها: تقرير الوحدانية لله الواحد الحق...والثاني: تقرير النبوة للنبي محمد...والثالث: إثبات أمر البعث والدار الآخرة...فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر..."[3].

ويقول علي البشر: "وللتدبر ارتباط واضح بمقاصد العقيدة في كتاب الله، وذلك بالنظر العام في آيات التوحيد وتلمس الحكم من خلالها. فجمع آيات التوحيد والتأمل فيها بهذه الشمولية، وتدبرها على هذا النسق، وهو ما يثمر الوقوف على المقصود منها"[4].

– ابتعاد المفسر عن التعصب العقدي واستغلال الترتيب النزولي انتصارا لمذهب أو فرقة معينة، بل

---

(1) _ العقيدة الإسلامية وأسسها، ص8.

(2) _ الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني وآراؤه في العقيدة الإسلامية، ص4.

(3) _ الموافقات، ج4، ص269- 270.

(4) _ مقاصد القرآن الكريم وصلتها بالتدبر، ص12.

كان إلى مذهب السلف في عرضها أقرب[1].

– اجتهاد المفسر في تنزيل البعد المقاصدي للآيات الذي استلهمه من الترتيب النزولي على واقعه المعيش، تحريكا للنفوس واستنهاضا للهمم، وسعيا منه إلى إعادة الناس إلى العقيدة الصافية التي بعث المصطفى ﷺ لإقامتها بعد أن اتسعت الهوة بينهم وبين تدبر القرآن الكريم.

وهذه النقاط التي ذكرت تعد من محاسن تفسيره التدبري، وأهم ما يؤخذ عليه هنا هو ما سبق الإشارة إليه من ترك التثبت من صحة الترتيب الذي اعتمده، بالإضافة إلى باقي النقاط التي أشرت إليها سابقا.

الفرع الثاني: المقصد الأخلاقي والتربوي.

زادت الحاجة في العصر الحديث إلى الدعوة للتحلي بمحاسن الأخلاق ومكارم السجايا، رتقا للفتق بين واقع المسلمين وتعاليم القرآن الكريم، لذا فقد كان إبراز المقاصد الأخلاقية والتربوية من أهم ما عُني به المفسرون المعاصرون وعلى رأسهم مفسرنا أثناء تدبره للسور وفق ترتيب نزولها، حرصا منه على إنشاء جيل وفق قواعد التربية الربانية وإقامة مجتمع إسلامي قوامه الأخلاق القرآنية.

وتوضيحا لذلك فقد اجتهدت في جمع وتلخيص بعض ما ذكره المفسر مما ارتبط الحديث عنه بترتيب النزول في نقاط إليك أهمها:

1– التنبيه إلى ما حملته السورة من قضايا أخلاقية وتربوية اقترنت بترتيب نزولها:

فتأمل مثلا لما وصل في تدبره إلى سورة (الفجر) المكيّة التي عدّها العاشرة في ترتيب النزول الذي اختاره، قال: "واختير في السورة من أنواع السلوك الإسلامي المطلوب مع أوائل تنزيل القرآن توجيه العناية لقضية التكافل الاجتماعي، وضرورة حمل الموسّع عليهم في الرزق على أن يبذلوا من أموالهم، لتحقيق هذا التكافل، ولدفع البؤس عن البؤساء، ومواساة الضعفاء، ورحمتهم بالعون والمساعدة.

وفي توجيه العناية في هذه السورة لهذه القضية متابعة لما جاء في سورة (الليل) وخطوة مضافة إلى الخطوات التي جاءت حول الموضوع في السور السابقة نزولا، ضمن سنة البناء المتدرج في التعليم والتربية والتوجيه والنصح والإرشاد"[2].

---

[1] _ وأنبه هنا إلى أنه ليس الغرض التفصيل في عرض عقيدة المفسر ومذهبه فقد سُبقت إلى هذا برسالتين؛ الأولى بعنوان: آراء الشيخ عبد الرحمن الميداني العقدية (عرض ونقد) من إعداد آمنه عامر البشري، والثانية: الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني وآراؤه في العقيدة الإسلامية (عرض ونقد) لمازن عطية.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص516.

يظهر من هذا النقل حرص المفسر –رحمه الله– على كشف العلاقة بين زمن ومرحلة نزول السورة والبعد المقاصدي الذي ترمي إليه آياتها، منبها إلى سنة التدرج بين السور وفق ترتيب نزولها في التعليم والتربية.

2– الكشف عن ما تضمنته السورة من معالجات للسلوكيات الجاهلية التي ظهرت صور منها في الواقع المعاصر:

يقول في الحديث عن موضوع سورة (العاديات): "بعد القضايا التي عالجتها السور التي نزلت قبل سورة "العاديات" والتي اهتمت بقضايا العلم، وحرية الإدارة لدى الإنسان المكلّف، وقضايا الإيمان والإسلام، وعبادة الله بالصلاة، وقضايا البذل والعطاء...جاء دور معالجة قبيحة غزو الناس بعضهم لبعض، بغية سلب ونهب أموالهم، والسطو على ممتلكاتهم، ولو نجم عن ذلك سفك الدماء، وإزهاق الأرواح...نظرا إلى أن هذا الغزو قد كان إحدى الظواهر السلوكية الشنيعة من سلوكيات الجاهليات العربية وغير العربية، وما الاستعمار الذي تقوم به الإمبراطوريات والدول التي تعتز بما لديها من قوى عسكرية إلا إحدى صور هذا الغزو القبيح الشنيع"[1].

ومن ثمّ فإن المفسر –رحمه الله– أرشد إلى ما تضمنته السورة من تصحيح لبعض السلوكيات الجاهلية التي حذّر منها القرآن الكريم، ولم يقف عند ذلك بل حاول أن يسقط ما تضمنته الآيات على واقعه المعاصر بذكر أنموذج عن تلك السلوكيات الشنيعة.

3– التذكير بصفات عباد الرحمن أخذا من دلالات القرآن الكريم: وقد جعل أول صفة هي صفة الإيمان التي دل عليها قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الملك: 29]. يقول: "الصفة الأولى: هي صفة الإيمان، ومن المعلوم في الدين والقواعد الأولى، أن الإيمان شرط أساسي للنجاة، ولا يمكن الارتقاء في مرتبة من المراتب الصاعدة التي ترفع الإنسان إلى مرتبة المحسنين، دون التحقق بشرط صحة الإيمان...وهي الأساس لكل أبنية الكمال الإنساني، الذي يقرب العبد إلى ربه، ويحقق له السعادة العظمى...إن المفاهيم الاعتقادية الإيمانية ضرورية لتوجيه كل أنواع السلوك الإنساني..."[2].

ليسقط بعدها هذه الحقيقة في واقعه قائلا: "وقد أدرك الباحثون من غير المسلمين حديثا قيمة

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص629. ينظر: مج3، ص172– ص497/ مج10، ص57– ص383.

[2] _ معارج التفكر، مج6، ص673– 674.

العقائد الإيمانية في توجيه السلوك الإنسان، فبدؤوا يتحدثون عنها تحت عنوان: "أيديولوجيات" ولكنهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى المستوى الذي وصل إليه الإسلام"[1].

وقد استرسل بعد ذلك في ذكر باقي الصفات أخذا من دلالات الآيات؛ وما أردت التنبيه إليه هنا أن المفسّر –رحمه الله– خالف ترتيب نزول السور في ذكره لهاته الصفات، إذ بدأ بما لابد من الافتتاح به وإن خالف ترتيب السور المعتمد عنده الذي جاءت فيه الصفات غير مرتبة، وهذا يحسب للمفسر من جهة فهو لم يتكلف في ترتيبها وفق نزول سورها، ومن جهة أخرى يمكن عدّه من النماذج التي تُظهر عدم صلاحية الأخذ بترتيب النزول في الحديث عن جميع الموضوعات القرآنية إذ منها ما لا يمكن اعتماده فيها.

4– الإشارة إلى الأساليب التربوية في بث القيم والتحلي بمكارم الأخلاق بما يتوافق مع مراحل التنزيل:

ولعل خير ما نمثل به في هذا المقام هو حديث المفسر عن خلق الصبر أخذا من دلالات ترتيب نزول السور، يقول: "ويلاحظ أن الله ﷻ قد أمر رسوله محمدا ﷺ بالصبر في مراحل التنزيل قبل نزول سورة الفرقان ثلاث مرات:

أولا: ففي سورة (المدثر/ 74 مصحف/ 2 نزول) قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾[المدثر: 1- 7].

فكان ما جاء في هذا النص أول أمر بالصبر موجه من الله لرسوله محمدا ﷺ.

ثانيا: ثم أنزل الله ﷻ عليه في سورة (ق/ 50 مصحف/ 14 نزول) قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾[ق: 39- 40].

وقد أمر الله رسوله بالصبر في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (ق) تثبيتا له، في مقابل ما تعرض له من تكذيب ...وأنواع من الأذى...

ثالثا: ثم أنزل الله ﷻ عليه في سورة (ص/ 38 مصحف/ 38 نزول) قوله تعالى: ﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾[ص: 17].

---

[1] _ معارج التفكر، مج6، ص676.

وقد أمر الله رسوله بالصبر في هذه المرحلة التي نزلت فيها سورة (ص) تثبيتا آخر له، في مقابل تصاعد اتهامات الكبراء من قومه له...

رابعا: ثم أنزل الله ﷻ عليه هذا التوجيه الرابع للصبر...بصيغة ﴿أَتَصۡبِرُونَ﴾[1] فضم الله ﷻ مع توجيه رسوله للصبر توجيه الدعاة من أتباع الرسول للصبر صراحة...واقتضى الأسلوب التربوي أن يوجه الأمر بالصبر لرسول الله أول المسلمين، الذي حقق المطلوب منه فعلا قبل توجيه الأمر له، ليفهم الدعاة من بعده أنهم هم المقصودون بالتوجيه، وأن الأمر بالصبر عام شامل لكل داع إلى الله ابتداء من الرسول أول الدعاة، حتى آخر داع إلى الله ما توالت القرون من بعده"[2].

ومن هنا يتضح كيف أنه –رحمه الله– حرص على إظهار المقصد من الأمر بالصبر مع مرور مراحل التنزيل، حتى ضم إلى توجيه الرسول بالصبر جميع الدعاة من أمته من بعده.

وهذه النماذج التي ذكرت حاولت فيها تسليط الضوء على التوجه المقاصدي الأخلاقي والتربوي في تطبيقات المفسر لترتيب نزول السور أثناء تدبره للسور المكية التي يكثر فيها ترسيخه، يقول الإمام الشاطبي: "وأما ما يرجع إلى الاتصاف بمكارم الأخلاق وما ينضاف إليها، فهو أول ما خوطبوا به، وأكثر ما تجد ذلك في السور المكية، من حيث كان آنس لهم، وأجري على ما يتمدح به عندهم"[3]، تأكيدا على تفاعل المفسر مع هذا الترتيب واجتهاده في توظيفه، وإلا فالتفصيل فيها يطول[4].

وخلاصة القول في ذلك: أن الفهم المقاصدي كان من سمات تفسير عبد الرحمن حبنكة الميداني وفق ترتيب نزول السور، تفعيلا للقرآن الكريم في واقع الأمة ليصلح به ما فسد من أحوالها، فالمفسر يدعوا إلى الانتفاع بآيات الله ترقية للغايات الدنيوية عن طلب الدنيّات، وربطها بالباقيات الصالحات يقول: "وكلما اكتشف الناس آية ذات منفعة لهم من آيات الله في كونه، يسارعون إلى الانتفاع بها في حياتهم ومعيشتهم بصورة مفاجئة عجيبة، دون أن ينتفوا من دلالاتها الإيمانية التي تهدي أولي الألباب إلى إدراك بعض صفات الرب ﷻ، وإدراك نعمه التي تستوجب منهم أن يشكروه، بالإيمان، والإسلام،

---

(1) _ قال ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾[الفرقان: 20].

(2) _ معارج التفكر، مج6، ص429 وما بعدها.

(3) _ الموافقات، ج2، ص122- 123.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج2، ص489/ مج3، ص211/ مج6، ص740/ مج 14، ص602.

والطاعة، والعبادة على ما يرضي، وان لا يشركوا به شيئا"[1].

وأنبه إلى أن ترتيب نزول سور القرآن الكريم وإن كان من ناحية ثبوته فيه مقال، إلا أن مفسرنا تفاعل معه وعاش القرآن الكريم وكأنه ينزل على الرسول ﷺ في تلك الفترة، واجتهد في الكشف عن الرابط بين موضوعات السور ليبين تكاملها وتكميل المعاني بينها.

وفي ختام هذا الفصل أقول: إن مراعاة ترتيب النزول في تدبر كلام الله ﷻ فكرة أصيلة عُني بها السلف من العلماء والمفسرين وإن لم تطبق عندهم في تفسير جميع سور القرآن الكريم، حتى العصر الحديث أين ظهرت تفاسير سارت عليها جاء في المرتبة الرابعة من ظهورها تفسير (معارج التفكر)، الذي ظهر عليه تشبع صاحبه بالفكرة فهي أصيلة عنده، ولكن خانها التأصيل لها والتفصيل في أهم القضايا المرتبطة بالترتيب النزولي للسور، وإن كان صرّح ببعض الأهداف والدوافع التي برّر بها اختياره فوُفق في بعضها ونوقش في أخرى وهذا كله يدخل ضمن الناحية التنظيرية لاختياره، وإذا ولجنا في تطبيقاته لترتيب النزول نجد أنه –رحمه الله– تفاعل معه وحاول تفعيله في تدبره من ناحيتين اثنتين، كانت له فيهما التفاتات قيّمة وقدرة على التتبع واستحضار الآيات واستنباط المعاني المشتركة بين دلالاتها وهذه تحسب للمفسر وتعد من محاسن تفسيره التدبري، وربما من هذا الباب امتدحه عدد من الباحثين المعاصرين، ولكنّها لم تسلم من عدد من المؤاخذات وعلى رأسها عدم التثبت من صحة الترتيب النزولي.

والمفسر باعتماده للترتيب النزولي للسور المكيّة حاول مراعاة مقاصد نزول القرآن الكريم وأهدافه الأصيلة دون تكلف أو تعسف في التأويل، مجتهدا في تنزيل معاني الآيات على واقعه وما يعانيه أهل زمانه، حرصا منه على الكشف عن العلاج القرآني لها، وهذا من مظاهر ربطه بين التفسير وفق ترتيب نزول السور وما يستفاد منه في الواقع المعيش.

---

[1] _ معارج التفكر، مج6، ص224.

الفصل الرابع:

أثر ترتيب النزول في بعض مسائل علوم القرآن والتفسير في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)

المبحث الأول: أثر ترتيب النزول في علم المكي والمدني في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)

المبحث الثاني: أثر ترتيب النزول في علم المناسبات في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)

المبحث الثالث: أثر ترتيب النزول في تدبر آيات القصص في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)

توطئة:

تتعلق مباحث علوم القرآن بتفسير كتاب الله ﷻ، تعلقا وطيدا وذلك أنّها تمثل وسيلة مهمة لفهم معناه والإلمام بمحتواه.

أدرك المفسرون هذه الأهمية، وقدّروا فعالية موقعها من التفسير، فلا يكاد يخلو تفسير من ذكرها وتوظيفها؛ إذ هي من الأسس والقواعد التي يرتكز عليها بيان مراد الله ﷻ؛ ومن هؤلاء مفسرنا عبد الرحمن حبنكة الميداني حيث جاءت مبثوثة في ثنايا تفسيره المرتب على وفق الترتيب النزولي للسور لا على الترتيب الذي عهده المفسرون في تأليفهم للتفسير وتوظيفهم لعلوم القرآن الكريم من خلاله.

وقد خصصت هذا الفصل للحديث عن تلك الأنواع التي لها اتصال وثيق بزمن وترتيب نزول سور القرآن الكريم وارتبط بها فهم الآيات، ممثلة لها بعلم المكي والمدني وعلم المناسبات[1] في المبحثين الأول والثاني، أما الثالث فعرجت فيه على تدبر المفسر لآيات القصص القرآني؛ في محاولة للوقوف على أثر التفسير وفق الترتيب النزولي في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، من خلال الحديث عنها وبيان موقف مفسرنا منها والتركيز على الفرق بين تناولها وفق هذه الطريقة، وبين ترتيبها وفق الترتيب المصحفي؛ بمعنى محاولة معرفة ما إذا كان لجمع السور المكية وترتيبها وتفسيرها إضافة جديدة لتلك المباحث.

---

[1] _ وهناك مباحث أخرى ذات اتصال وثيق بزمن وترتيب النزول تركت الحديث عنها، ولعل من أهمها علم الناسخ والمنسوخ وذلك لعدم توفر المادة العلمية الكافية لدراستها فالمفسر لم يكمل تدبر القسم المدني الذي يكثر فيه الحديث عنه، وإنما تناول القسم المكي فقط الذي وقفت له فيه على مثال واحد أشرت إليه في ثنايا الحديث عن مبحث المكي والمدني.

المبحث الأول:

أثر ترتيب النزول في علم المكي والمدني في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

يرتبط علم المكي والمدني بنزول القرآن عامة[1] وبالترتيب والمكان والزمان خاصة ارتباطا وثيقا، فإذا عُلم المكي من السور والمدني منها تيسر الوقوف على المتقدم والمتأخر في ترتيب النزول.

استعان المفسرون بهذا المبحث الذي له عظيم الأثر في تفسير كتاب الله ﷻ خلال تدبرهم للآيات وتفسيرها والكشف عن مراد الله منها، إذ به يُعرف تاريخ النزول ويتبيّن الناسخ من الآيات والمنسوخ منها وتنكشف مراحل التدرج التشريعي.

قال الفيروز آبادي: "اعلم أن نزول آيات القرآن، وأسبابه، وترتيب نزول السور المكية، والمدنية، من أشرف علوم القرآن"[2].

وبهذه المكانة السامية لعلم المكي والمدني والعلاقة الوثيقة بينه وبين ترتيب النزول، تتأكد أهمية هذا المبحث الذي قسمته إلى مطالب ثلاثة، أتحدث في الأول منها عن المكي والمدني عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، وأعرض في الثاني الآيات المدنية في السور المكية في تفسير (معارج التفكر)، أما الثالث فقد خصصته لدراسة المكي والمدني حسب الترتيب النزولي للسور عند المفسر.

---

[1] _ فهو فرع عنه كما قال مساعد الطيار. ينظر: المحرر في علوم القرآن، ص100.

[2] _ بصائر ذوي التمييز، ج1، ص100.

المطلب الأول: المكي والمدني عند عبد الرحمن حبنكة الميداني.

بدأت العناية بعلم المكي والمدني منذ عهد مبكر؛ إذ ثبت حرص الصحابة ﷺ على تتبع مراحل النزول وأوقاته وأماكنه بدقة، ثم اقتفى أثرهم من جاء بعدهم وساروا على نهجهم في ذلك، حيث تتابعت فيه المؤلفات عبر مر العصور، ووفيت الكثير من مسائله حقها من الدارسة والبحث[1] بما يغني عن التفصيل فيها في هذا المطلب، الذي سيُعنى ببيان الاصطلاح المعتبر عند المفسر في تعريفه، ومسلكه في التعامل معه في تدبره، للوقوف على مدى تأثير ترتيب النزول فيهما من خلال فرعين اثنين.

الفرع الأول: الاصطلاح المعتبر عند المفسر في تعريف المكي والمدني.

انقسم العلماء في تعيين المكي والمدني على اصطلاحات ثلاثة، كل واحد منها بُني على اعتبار خاص إليك بيانها[2]:

الاصطلاح الأول: المعتبر فيه هو مكان النزول، وعليه فإن المكي ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات، والمدني ما نزل بالمدينة وضواحيها كأحد وقباء سواء قبل الهجرة أو بعدها.

الاصطلاح الثاني: المعتبر فيه هو المعني بالخطاب، فالمكي ما كان خطابا لأهل مكة، والمدني ما كان خطابا لأهل المدينة، فما كان مبدوءا بـ"يأيها الناس" أو "يا بني آدم" فهو مكي، وما كان مبدوءا بـ "يأيها الذين آمنوا" فهو مدني.

الاصطلاح الثالث: المعتبر فيه هو زمن النزول، فالمكي ما نزل قبل الهجرة، حتى وإن كان خارج مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة ولو بغير المدينة، فجُعلت الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة حدا زمنيا يفصل بينهما.

---

[1] _ فقد افتتح به السيوطي أنواع علوم القرآن التي يجب على الباحث في القرآن الكريم معرفتها والإلمام بتفاصيلها. ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص187/ الإتقان، ج1، ص43/ الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ابن عقيلة المكي، ج1، ص203/ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص159/ علوم القرآن، نور الدين عتر، ص55.

[2] _ ينظر تفصيل هذه الاصطلاحات وما أثير حولها من مآخذ واعتراضات. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص187/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص45/ إتقان البرهان، فضل عباس، ج1، ص367/ المكي والمدني في القرآن الكريم، محمد بن عبد الرحمن الشايع، ص7 وما بعدها/ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص42 وما بعدها.

وهو أرجح الاصطلاحات المذكورة وأحسنها وأضبطها، لأنه الأكثر دقة بشمول تقسيمه جميع سور وآيات القرآن الكريم[1].

قال ابن كثير: "فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي البلاد كان، حتى ولو كان بمكة أو عرفة"[2].

ويقول صابر حسن: "... لم نتردد في تفضيل التقسيم الزمني في المكي والمدني، لأننا أمام موضوع وثيق الصلة بالتاريخ؛ فليس لنا أن نختار في مثله التبويب المكاني مادمنا نرمي إلى تحديد ما نزل بمكة أو بالمدينة ابتداء ووسطا وختاما، فإن هذه الأطوار المتعاقبة تفرض أن يكون اختيار الترتيب الزمني أمرا بديهيا لا مجال للتردد فيه..."[3].

وهذه التوطئة مقصودة في بحثنا هذا؛ إذ من خلالها أردت التنبيه على الاصطلاح المعتبر عند مفسرنا في تعريفه للمكي والمدني هل هو المشهور عند العلماء أم أنه اختار غيره؟

أقول وبالله التوفيق:

إن علم المكي والمدني لم يُفرد بالبحث عند المفسر –رحمه الله–، إذ لم يخصه بالدراسة والتحقيق في (قواعد التدبر الأمثل) ولم يُعن بالحديث عن تفاصيله في (معارج التفكر)؛ لذا لم أقف له على تصريح مباشر بالاعتبار المختار عنده في تحديد السور المكية والمدنية، لكن بعد القراءة المتأنية للقاعدة العاشرة[4] واستخراج جملة من النصوص التي تحدث فيها عن نزول السور والآيات المكية والمدنية من تدبره؛ ظهر لي أن الاصطلاح المختار عند الشيخ يخالف المشهور عند العلماء فهو يُرجح الاعتبار المكاني، وعليه فإن المكي عنده ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة، وإليك هذه النصوص التي تعتبر خير شاهد على ما ذهب إليه:

---

[1] _ ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص187/ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، ج1، ص161/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص45/ لطائف الإشارات لفنون القراءات، القسطلاني، ص54/ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، طاش كبرى زادة، ج2، ص345/ المدخل لدراسة القرآن الكريم، أبو شهبة، ص220/ إتقان البرهان، فضل عباس، ج1، ص369/ المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله الجذيع، ص57/ مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص168/ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص44.

[2] _ فضائل القرآن، ص37.

[3] _ مورد الضمآن، ص21- 22. ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص168- 169.

[4] _ جعلها حول الحكمة من وضع آيات مدنية التنزيل في سور مكية ووضع آيات مكية التنزيل في سور مدنية.

يقول في القاعدة العاشرة: "أولا: السور المكية التي ضمت إليها آيات نزلت **في المدينة** هي (33) ثلاث وثلاثون سورة.

والسور المدنية التي ضمت إليها آيات نزلت **في مكة** هي ثلاث سور فقط"[1].

يُفهم من هذا أن المعتبر عند الشيخ في تحديد الآيات المكية والمدنية هو مكان النزول وليس هجرة الرسول ﷺ، فالآيات المدنية هي التي نزلت بالمدينة والمكية هي التي نزلت بمكة، فلم يقل ضُمت إليها آيات مدنية أو آيات مكية وإنما قيّدها بالمكان فقال نزلت في المدينة ونزلت في مكة.

ويقول بعد ذلك عند ذكره للنماذج:

"المثال الأول: سورة (القلم/68 مصحف/2نزول) فهي ثاني سورة نزلت على الرسول ﷺ بمكة"[2].

"المثال الثاني: سورة (المزمل/73 مصحف/3نزول) فهي ثالث سورة نزلت على الرسول ﷺ بمكة"[3].

وما صرح به خلال عرضه للمثالين خير شاهد على أن الاصطلاح المختار عنده هو مكان النزول؛ وهذه النماذج من كتابه (قواعد التدبر) وإذا رجعنا إلى تفسيره (معارج التفكر) فإننا نجده يصرح أيضا بالاعتبار المكاني، ففي تفسيره لسورة (العلق)، يقول: "هي مكية باتفاق، ولا شيء منها مدني، نزلت بمكة"[4]، وفي سورة (المزمل) رجح كون الآية الأخيرة منها مدنية يقول بعد ذكر مستنده في الحكم عليها: "وهذا يفيد أن الآية الأخيرة من السورة **نزلت في المدينة**، لأن مُقام الرسول في مكة بعد البعثة قد كان عشر سنين في قول جمهور علماء السيرة"[5]، فقال في المدينة ولم يقل بعد الهجرة.

أما الآيات التي لم تنزل بمكة ولا بالمدينة فهو ينص على مكان نزولها، يقول مثلا في القاعدة العاشرة: "وسورة (المائدة) من أواخر التنزيل المدني، وقد تأخر نزول الآية (3) منها إلى حجة الوداع، فقد نزلت هذه الآية بعرفات في حجة الوداع، بعد نزول سورة (التوبة)"[6].

وفي سورة (الزخرف) يقول: "مكية إلا الآية (54) فمدنية والآية (45) منها نزلت في بيت

---

(1) _ قواعد التدبر، ص185.

(2) _ قواعد التدبر، ص187.

(3) _ قواعد التدبر، ص191.

(4) _ معارج التفكر، مج1، ص31.

(5) _ معارج التفكر، مج1، ص152.

(6) _ قواعد التدبر، ص185.

المقدس ليلة أسري بالرسولﷺ"[1].

وفي سورة (القصص) يقول: "وهي سورة مكية ...والآية (85) نزلت في الجحفة أثناء الهجرة إلى المدينة"[2].

يظهر من هذه النماذج وغيرها اختيار المفسر للاعتبار المكاني، إذ نادرا ما تلمح في بيان المفسر لنوع السور أو آياتها حديثا عن الهجرة النبوية إلى المدنية المنورة[3]، رغم إتباعه لطريقة التفسير وفق ترتيب النزول التي روعي فيها التسلسل الزمني لنزول السور.

وخلاصة القول في ذلك: أنّ الظاهر من كلام الشيخ –رحمه الله– أنه يعتمد التقسيم المكاني في تحديد المكي والمدني؛ فالمكي عنده هو ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة وما كان غير ذلك نص عليه، وهو برأيه هذا وإن خالف الاصطلاح المشهور، إلا أنه اختار أحد الاصطلاحات الثلاثة المعتبرة عند العلماء، وحُق له أن يختار ما يراه الأنسب مادام النبي ﷺ لم يضع مفهوما محددا للفظ المكي والمدني وإنما هي اصطلاحات تواضع عليها العلماء.

قال الباقلاني: " لم يكن من النبي ﷺ في ذلك قول ولا نص، ولا قال أحد ولا روى أنه جمعه، أو فرقة عظيمة منهم تقوم بهم الحجة وقال: اعلموا أن قدر ما أنزل علي من القرآن بمكة هو كذا وكذا، وأن ما أنزل بالمدينة كذا وكذا، وفصله لهم وألزمهم معرفته، ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر، وعرفت الحال فيه.

وإنما عدل ﷺ عن ذلك لأنه مما لم يؤمر فيه، ولم يجعل الله تعالى علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم مع معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، ليعرف الحكم الذي ضمنها، وقد يعرف ذلك بغير نص الرسول بعينه"[4].

---

[1] _ وهذا ما قاله في القواعد، ولما رجعت إلى الصفحة الأولى من تدبره للسورة وجدته تراجع عن قوله حيث أكد على مكيتها دون استثناء قائلا: "وهي مكية كلها"، وكذلك لما جاء إلى تدبر الآيات. ينظر: معارج التفكر، مج12، ص677- ص748.

[2] _ وهذا نبه إليه في أوّل صفحة افتتح بها تدبره للسورة، ثم أكّده خلال تدبره للآية (85). ينظر: معارج التفكر، مج9، ص321-ص487.

[3] _ منها ما نبه إليه عند تدبره للآية (58) من سورة (مريم)، قائلا: "هذه الآية مدنية التنزيل تأخر إنزالها لأن فيها بيانا عن بعض الذين آمنوا من اليهود بعد الهجرة"، ويقول في تدبره للآيتين (81 و82) من سورة (الواقعة): "هاتان آيتان مدنيتان اقتضت الحكمة الحركية تأخير إنزالهما إلى ما بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة". ينظر: معارج التفكر، مج7، ص549/ مج8، ص509.

[4] _ الانتصار، ج1، ص247. ونقل قوله الزركشي وأحال عليه. ينظر: البرهان في علوم القرآن، مج1، ص191.

الفرع الثاني: مسلك المفسر في بيان السور المكية.

رسم الشيخ –رحمه الله– في كتابه القواعد جدولا ألحقه بالقاعدة التاسعة[1] وضّح فيه السور المكية والسور المدنية بحسب ترتيب نزولها، كما أشار فيه إلى الآيات المدنية في السور المكية والآيات المكية في السور المدنية وما نزل من الآيات بغير مكة ولا المدينة، باختصار دون أن يُفصّل فيها ويتحدث عن كل سورة على حدى.

وإذا كان هذا صنيعه في القواعد فما هو مسلكه في بيان السور المكية عند الشروع في تدبرها؟ وهل أثّر تفسير السور وفق ترتيب نزولها على ذلك؟

أقول:

بعد تتبع السور التي تدبرها المفسر وقفت على أنه –رحمه الله– حرص على بيان نوع غالب السور التي تدبرها وتعددت طرقه في سبيل ذلك؛ اجتهدت في جمع ما تشابه منها وتقسيمه على النحو الآتي:

أولا. سور جزم بأنّها مكية، وظهر ذلك من خلال:

– التصريح بالاتفاق على مكيتها، وهي ثلاث سور: (العلق)، (الذاريات)، (الغاشية)[2].

ويلحق بها سورة (النحل) التي ذكر أنّها "مكية كلها على قول الجمهور"[3].

– التأكيد على مكيتها بقوله: "وهي مكية كلها"، وهي اثنا عشرة سورة: (عبس)، (الجن)، (فاطر)، (طه)، (النمل)، (الصافات)، (الزخرف)، (الدخان)، (الجاثية)، (نوح)، (المؤمنون)، (الملك)[4].

ويلحق بها بعض السور التي قال بمكيتها ثم استثنى آيات منها، وهي سورة (ق)، (القمر)، (الأعراف)، (يس)، (الفرقان)، (مريم)، (الواقعة)، (الشعراء)، (القصص)، (الإسراء)، (هود)، (الحجر)،

---

(1) _ ينظر: قواعد التدبر، ص178.

(2) _ معارج التفكر، مج1، ص77/ مج13، ص213– ص269. ينظر تفصيل القول في الاتفاق على مكيتها: المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، ص565– ص335– ص531.

(3) _ معارج التفكر، مج13، ص481. وهي كذلك عند جمهور العلماء وقد أفاض في الحديث عن الاتفاق على مكيتها عبد الرزاق حسين. ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم، ص351.

(4) _ معارج التفكر، مج2، ص205/ مج5، ص515/ مج7، ص5/ مج8، ص5/ مج9، ص5/ مج11، ص527/ مج12، ص677/ مج13، ص5– ص71– ص491/ مج14، ص399– ص605. ينظر تفصيل القول فيها وأدلة الجمهور على مكيتها: المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، ص493– ص449– ص237– ص103– ص181– ص249– ص285– ص291– ص299– ص445– ص147– ص427.

(سبأ)، (غافر)، (الشورى)، (الأحقاف)، (إبراهيم)[1].

– نفي وجود الخلاف حول مكية السورة، يقول: "وهي مكية كلها بلا خلاف"، وقد ذكر ذلك في سبع سور: (فصلت)، (الطور)، (الحاقة)، (المعارج)، (النازعات)، (الانفطار)، (الانشقاق)، (الروم)[2].

ويلحق بها سورة (السجدة) التي رجح مكيتها قائلا: "وهي سورة مكية ولم يصح استثناء بعض آيات منها وجعلها مدنية"[3].

– الإشارة إلى مكيّة السورة، يقول: "وهي سورة مكية"، وذكر ذلك في سورتي: (الأنبياء) و(النبأ)[4].

وهذه السور التي ذكرها في هذا القسم اعتمد في القول بمكيتها على الإجماع ثالث مصادر التشريع، موافقا في حكمه عليها ما ذهب إليه جمهور العلماء[5]، إذ لم يكتف بترتيبها في الدلالة على مكيتها وإنما نص على ذلك؛ وهو أحيانا يحكي الإجماع بالدليل مثل صنيعه في سورة (العلق) معتمدا على ما روي عن الصحابة والتابعين ﷺ ومن جاء بعدهم، وموافقا بذلك الطريق الأول من طرق معرفة المكي والمدني وهو الرواية والسماع[6] من خلال ما أورده في بحثه حول (ما جاء في السنة حول نزولها)[7]، وفي الغالب لا يعلل إذ لا يعلق ولا يذكر الدليل.

ثانيا: سور اكتفى بذكر ترتيبها دون الإشارة إلى أنها مكية، وهي سورة: (المزمل)، (المسد)، (التكوير)، (الأعلى)، (الليل)، (الفجر)، (الضحى)، (الشرح)، (العصر)، (العاديات)، (الكوثر)،

---

[1] _ معارج التفكر، مج3، ص5- ص311/ مج4، ص5/ مج6، ص5- ص293/ مج7، ص355/ مج8، ص421- ص541/ مج9، ص321- ص503/ مج10، ص285/ مج11، ص5/ مج12، ص5- ص295- ص553/ مج13، ص141/ مج14، ص5.

[2] _ معارج التفكر، مج12، ص443/ مج14، ص567- ص643- ص675/ مج15، ص37- ص69- ص89- ص111. ينظر تفصيل القول في الأدلة والمصادر التي حكت الإجماع على مكية هاته السور: المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، ص273- ص339- ص437- ص441- ص489- ص501- ص513.

[3] _ معارج التفكر، مج14، ص521. ينظر: المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، ص219.

[4] _ معارج التفكر، مج14، ص241/ مج15، ص5. ينظر تحرير القول في الاتفاق على مكية السورة والمصادر التي حكت الإجماع: المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، ص109- ص485.

[5] _ التفصيل والإحالة على المصادر في كل سورة لا يسع المقام له لذا آثرت الإحالة على الرسائل التي أفاضت القول في ذلك، ووجدت أن من أهمها الرسالتان اللتان أحلت عليهما.

[6] _ ينظر طرق معرفة المكي والمدني: البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص189/ المحرر في علوم القرآن، مساعد الطيار، ص112.

[7] _ معارج التفكر، مج1، ص31.

(التكاثر)، (الماعون)، (الكافرون)، (الفيل)، (الفلق والناس)، (الإخلاص)، (الشمس)، (البروج)، (التين)، (قريش)، (القارعة)، (القيامة)، (الهمزة)، (المرسلات)، (البلد)، (الطارق)، (ص)[1].

وهاته السور التي سكت عن بيان مكيتها معتمدا على الترتيب الذي اختاره وسار عليه في تدبره، أكثرها كان محل اتفاق بين العلماء مثل سورة (المسد) و(الماعون) و(الكافرون) و(التكاثر)[2] وغيرها، لكن منها المختلف فيه ومن ذلك سورتا المعوذتين فالعلماء اختلفوا فيهما على قولين ولكل واحد منهما أدلته أعرض عنها المفسر جميعا[3]، وكذا سورة (الكوثر) التي اختلف فيها أيضا[4].

ثالثا: سور ذكر فيها الرأي الراجح عنده دون ذكر الأساس الذي رجح به، وهي سورة: (القدر)، (يوسف)، (الأنعام)، (الزمر)، (الكهف)، (العنكبوت)، (المطففين)[5].

يقول في سورة (الكهف) مثلا: "وهي مكية كلها على الراجح وقيل توجد فيها آيات مدنية"[6].

وهذه من المعالم التي برزت فيها شخصية المفسّر العلمية، وإن كان ذكر ما ترجح عنده دون بيان للأقوال ومناقشتها.

رابعا: سور أفصح فيها عن الأسس التي اعتمدها في ترجيح مكيتها؛ وقد وقفت له على أربعة:

الأساس الأول: وهو الاعتماد على الدراسة التحليلية يقول في بداية سورة (المدثر): "بعد الدراسة

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص149- ص375- ص393- ص433- ص481- ص509- ص553- ص581- ص603- ص625- ص647- ص661- ص685- ص699/ مج2، ص5- ص21- ص71- ص303- ص345- ص393- ص429- ص441- ص457- ص525- ص541/ مج3، ص169- ص247- ص461.

(2) _ يراجع تفصيل أقوال العلماء فيها. إتقان البرهان، فضل عباس، ج1، ص401/ المكي والمدني من السور والآيات، محمد الفالح، ص633- ص615- ص625- ص595.

(3) _ فقد رجّح مدنيتهما جمع من كبار المفسرين أمثال: البغوي، ابن الجوزي، فخر الدين الرازي، الفيروز آبادي، السيوطي، وغيرهم. ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم، ج5، ص332- ص336/ زاد المسير في علم التفسير، ج4، ص507/ مفاتيح الغيب، ج32، ص369- ص376/ بصائر ذوي التمييز، ج1، ص556- 557/ الإتقان، ج1، ص83.

ورجح مكيتهما الكثير أيضا. ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، ج6، ص598- ص603/ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج20، ص251- ص260/ اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ج20، ص568- ص576/ موقف المفسرين من سبب نزول سورتي المعوذتين، محمد هشام، ص1060. (مقال)

(4) _ يقول ابن عاشور: "تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضا شديدا، فهي مكية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين...والأظهر أن هذه السورة مدنية، وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها"، والقول بمدنيتها اعتمده غير واحد من أعلام المفسرين أمثال ابن كثير والسيوطي وغيرهما. ينظر: تفسير القرآن العظيم، ج8، ص498/ الإتقان، ج1، ص81/ التحرير والتنوير، ج30، ص572.

(5) _ معارج التفكر، مج2، ص279/ مج10، ص579/ مج11، ص107/ مج12، ص131/ مج13، ص291/ مج15، ص203- ص311.

(6) _ معارج التفكر، مج13، ص291.

التحليلية ترجح لدي أن صدر سورة (المدثر) قد نزل بعد سورة (العلق) فهي باعتبار صدرها ثاني سورة مكية، وهي على وجه العموم من أوائل التنزيل المكي باتفاق"[1].

الأساس الثاني: الاعتماد على الرواية وعلى ما تضمنته السورة، يقول: "بالنظر إلى ما جاء عند البخاري بشأن نزول سورة (المدثر) وما جاء في إحدى الروايتين عن جابر -ﷺ-...

وبالنظر إلى ما جاء في صدر سورة (المزمل) وبعض آيات فيها، ترجح لدي أن سورة (المزمل) هي ثالث سورة مكية، باستثناء عدة آيات منها نزلت في المدينة على الأرجح"[2].

الأساس الثالث: النظر إلى معظم السورة، يقول في سورة (القلم): "وهي فيما ترجح لدي بالنظر إلى معظمها السورة الرابعة نزولا فهي من أوائل التنزيل المكي باتفاق وفيها آيات مدنية"[3].

الأساس الرابع: الاعتماد على أقوال العلماء، يقول في سورة (الفاتحة):

" وقد نزلت هذه السورة في أوائل العهد المكي، وهي السورة الخامسة بحسب ترتيب النزول، كما هو مدون لدى علماء علوم القرآن، هو المرجّح لدى العلماء بروايات التنزيل.

وزعم بعض أهل العلم أنها أول سورة أنزلت، على اعتبار أنها أم القرآن، والجامعة لأمهات أغراضه، وهذا منه تحكيم للرأي فيما لا مجال للرأي فيه"[4].

وفي الختام أقول: تنوعت طرق المفسر في بيان نوع السور التي تدبرها، وتعددت أساليبه في الحكم بمكيتها، فوافق بذلك ما ذهب إليه العلماء المحققون في حكمهم على السورة غالبا، وخالفهم في بعض السور.

وهذا الاهتمام بمبحث المكي والمدني يحسب للمفسر إذ رغم اختياره للترتيب المعتمد من شيخ المقارئ المصرية والذي حُددت فيه السور المكية والمدنية فإنه اجتهد في الحديث عنها فأصاب وأخطأ وهذا من جهة، ولكن من جهة أخرى قد يُعاب على المفسر التقصير في ذلك؛ إذ أن الحديث عن مكية السورة هو لب وأساس التفسير وفق الترتيب النزولي الذي اعتمده، لذا فقد كان عليه أن يوليها اهتماما أكبر، فيعقد مثلا في مدخل كل سورة بابا للحديث عن هويتها ويعتمد أقوال أهل العلم في بيان ذلك

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص77.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص151.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص195.

[4] _ معارج التفكر، مج1، ص280.

ويرجح ما يراه راجحا بالدليل إذ لا يكفي التفصيل في بعضها والتقصير في أخرى.

ولو اقتفى مفسرنا أثر من سبقه لكان أسلم وأنفع له كثيرا في هذا الباب، فنجد ابن الجوزي مثلا يعقد في كتابه في علوم القرآن بابا في "بيان السور المكية من المدنية"[1] ويحيل فيه على ما ذكره في كتب التفسير، أما ابن جزي فقد كتب فيه في المقدمة الأولى من تفسيره يقول: "الباب الثاني: في السور المكية والمدنية"[2].

[1] _ فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ص335.

[2] _ التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص13. ينظر: شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل، مساعد الطيار، ص65.

المطلب الثاني: مسلك المفسر في بيان الآيات المدنية في السور المكية.

حرص العلماء من الصحابة والتابعين ﷺ ومن جاء بعدهم من المفسرين على التنبيه إلى الآيات المستثناة من السور ونُقلت عنهم العديد من الآثار، لما في ذلك من الأثر المباشر على تفسير الآية وبيان معانيها تبعا للمرحلة التي نزلت فيها.

قال ابن حجر: "وقد اعتنى بعض الأئمة ببيان ما نزل من الآيات بالمدينة في السور المكية...وأما عكس ذلك...فلم أره إلا نادرا"[1].

ويقول غيره: "فكل سورة فيه إما مكية أو مدنية، وقد تستثنى من السورة المكية آيات مدنية، ومن السور المدنية آيات مكية: كما أن كل آية في القرآن معروفة "الهوية" واضحة السيرة فإذا اختلطت بغير زمرتها أخضعها العلماء الثقات لمقاييسهم النقدية الدقيقة حتى قطعوا أو كادوا يقطعون بأنها تنتمي إلى النوازل المكية أو المدنية"[2].

وهذه الأقوال وغيرها تسوقنا للبحث عن المسألة في التفسير محل الدراسة، إذ الحديث عن طريقة تعامل المفسر مع الآيات المستثناة من السور من الأهمية بمكان في هذا المقام، خاصة وقد اختار التفسير وفق الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.

وبيانا لذلك أقول:

أولى المفسر مسألة الآيات المستثناة من السور عناية كبيرة، ظهرت بداية في (قواعد التدبر الأمثل) حيث أشار إليها وحددها في "جدول المكي والمدني لسور القرآن المجيد" الذي ألحقه بالقاعدة التاسعة[3]، ثم فصّل الحديث عن المسألة وخصص لها القاعدة العاشرة التي جعلها "حول الحكمة من وضع آيات مدنية التنزيل في سور مكية ووضع آيات مكية التنزيل في سور مدنية".

حصر المفسر في هذه القاعدة الآيات المدنية في ثلاث وثلاثين سورة قائلا: "السور المكيّة التي

---

[1] _ فتح الباري، ج9، ص41.

[2] _ مورد الضمآن، صابر حسن، ص19.

[3] _ ينظر: قواعد التدبر، ص178 وما بعدها.

ضمت إليها آيات نزلت في المدينة هي (33) ثلاث وثلاثون سورة"[1].

وهذه لمحة موجزة عن عناية المفسر بالآيات المستثناة في قواعده، لكن إذا رجعنا إلى تفسيره: هل نجده تدبر كل الآيات التي ذكرها على أنّها مدنية التنزيل وبيّن الحكمة من استثنائها؟ أم أنّه خالف ما نص عليه وفسّرها على أنها مكيّة؟ وهل هناك آيات أغفل التنبيه إليها في الجدول ثم فسّرها على أنّها مدنية؟

إن الإجابة على هذه التساؤلات تطلب الرجوع إلى التفسير ومراجعة جميع الآيات التي تدبرها آية آية ومقارنتها مع ما ذكره في قواعد، وقد خلصت إلى أنّ الشيخ -رحمه الله - سلك في بيان الآيات المدنية في السور المكية مقارنة مع ما ذكره في الجدول مسلكين رئيسين جعلتهما موضوع الفرع الأول والثاني من هذا المطلب.

الفرع الأول: موافقة المفسر لما أثبته في جدول المكي والمدني.

أريد بالموافقة هنا تأكيد ما ذهب إليه في جدول المكي والمدني، وذلك من خلال الإشارة إلى مدنية الآيات قبل الشروع في تدبرها[2] ثم تدبرها على أنّها كذلك، وهذين الشرطين لم يتوفرا إلا في عدد قليل من السور الثلاثة والثلاثين، وإليك بيانها:

- **سورة (المزمل)**[3]: دبج الشيخ -رحمه الله- تدبره للسورة ببحث حول نزولها أكّد فيه على مكيتها واستثنى منها عدة آيات قال أنها "نزلت في المدينة على الأرجح"[4].

مستندا في القول بذلك على ما روي عن ابن عباس وقتادة أن الآيتين (10) و (11) نزلتا بالمدينة. وهما: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ [المزمل: 10- 11].

---

[1] _ وهي: سورة (القلم)، (المزمل)، (النجم)، (المرسلات)، (ق)، (الأعراف)، (يس)، (الفرقان)، (مريم)، (طه)، (الواقعة)، (الشعراء)، (القصص)، (الإسراء)، (يونس)، (هود)، (يوسف)، (الحجر)، (الأنعام)، (لقمان)، (سبأ)، (الزمر)، (غافر)، (الشورى)، (الزخرف)، (الجاثية)، (الأحقاف)، (الكهف)، (النحل)، (إبراهيم)، (السجدة)، (الروم)، (العنكبوت).

وقد نبهت إلى هذه السور دون تلك التي قال أنها ضمت إليها آيات مكية، لأن المفسر فسّر القسم المكي فقط ولم يكمل القسم المدني. ينظر: قواعد التدبر، ص185.

[2] _ ويكون ذلك غالبا في الصفحة الأولى من التدبر، إذ يذكر فيها اسم السورة وهويتها والآيات المستثناة منها.

[3] _ ذكرت سورة (المزمل) قبل سورة (القلم) استنادا على الترتيب الذي اعتمده في التفسير والذي خالف فيه الجدول.

[4] _ معارج التفكر، مج1، ص151.

ولما وصل إلى التدبر التحليلي للآيتين قال: "هاتان الآيتان من التنزيل المدني نزلتا بعد أن حقق الرسول ﷺ المطلوب منه في المرحلة المكية التي نزلت فيها السورة، وقد ضمتا إليها"[1].

أما الآية الأخيرة من السورة فقد استند في القول بمدنيتها إلى ما رواه الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال: "لما أنزل الله على نبيه ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ...﴾[المزمل: 1- 2] مكث النبي ﷺ على هذا الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله بعد عشر سنين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ...﴾[المزمل: 20]"[2].

والذي أردفه بقوله: "وهذا يفيد أن الآية الأخيرة من السورة نزلت في المدينة، لأن مقام الرسول في مكة بعد البعثة قد كان عشر سنين في قول جمهور علماء السيرة المحمدية"[3]، فهذه الآية ناسخة لما جاء في صدر السورة من إيجاب قيام الليل الذي عمل به النبي ﷺ وبعض أصحابه قبل نزولها كما جاء على لسانه خلال التدبر التحليلي لها، منبّها إلى الغرض من ضمها للسورة[4].

وعليه فإن المفسر اعتمد القول بمدنية ثلاث آيات من السورة وبنى عليها تدبره لها، واجتهد بل قل تكلف في بيان الحكمة من ذلك[5]، وهو هنا وإن اعتمد على المروي عن السلف ﷺ، إلا أنه لم يتثبت من الأقوال ولم يُعن ببحثها وتمحيصها رغم أنها لم تسلم عند العلماء من النقد، إذ ذهب أكثر العلماء إلى القول بمكية السورة دون استثناء لبعض آياتها[6].

– **سورة (القلم)**: استثنى منها عددا من الآيات في الصفحة الأولى من تدبره لها وقال بمدنيتها[7]، وإذا رجعنا بعدها إلى التدبر التحليلي لها نجده يؤكد على ذلك فيعنون قائلا: "درس مدني التنزيل" مرتين[8]؛ وبهذا يتأكد حكم المفسر على الاستثناءات التي ذكرها في جدول المكي والمدني؛ لكن قوله هذا لم يفصح عن مستنده فيه إذ لا نجد أثرا للتحقيق في صحة القول بمدنيتها أو استنادا لأقوال

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص172.

(2) _ معارج التفكر، مج1، ص152. ينظر: جامع البيان، الطبري، ج23، ص679.

(3) _ معارج التفكر، مج1، ص152. ينظر: قواعد التدبر، ص178.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص187.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص172- ص187.

(6) _ ينظر تفصيل الحديث في الآيات الثلاث وأقوال العلماء فيها: إتقان البرهان، فضل عباس، ج1، ص397- 398/ المكي والمدني من الآيات والسور، محمد الفالح، ص455 وما بعدها.

(7) _ معارج التفكر، مج1، ص195.

(8) _ معارج التفكر، مج1، ص234- ص265.

السلف في ذلك؛ وهو صنيعه أيضا في سورة (النجم)، (ق)، (الأعراف)، (مريم)، (الواقعة)، (القصص)، (يونس)، بل نجده يذكر الحكمة من تأخيرها ومناسبة ضمها إلى سورة مكية وما روعي من اقتضاءات ويستثمر ذلك في تدبره[1].

أما سورة (يس) فقد نبه فيها إلى اعتماده على أقوال المختصين بعلوم القرآن في حديثه عن الآية (45) المستثناة منها، قائلا: "ذكر المختصون بعلوم القرآن أن هذه الآية من السورة آية نزلت في المدينة، وقد ضمت إلى سورة (يس) المكية"[2].

وفي سورة (الإسراء) أسند القول بمدنية الآيات إلى علماء القراءات، بقوله: "وهي مكية إلا: الآية (56) فمدنية والآيتين (32 و33) فمدنيتين والآية (57) فمدنية والآيات من (73_ 80) فمدنية. على ما ذكر علماء القراءات والله أعلم"[3].

لكن لما رجعت إلى التدبر وجدت المفسر يتدبر بعضها فقط على أنها مدنية، فنجده مثلا في الآيات من (73) إلى (77) يشير في التمهيد للدرس الثالث من دروس السورة أنّه مدني التنزيل ثم يذكّر بعدها بالحكمة من تأخيره في ختام تفسير الآية (74)[4]، أما البقية فمر عليها ولم ينبه حتى إلى مدنيتها مثل الآية (26) والآية (57) وغيرهما[5].

وصفوة القول في ذلك: بعد تقصي جميع الآيات التي تدبرها وحصرها أن مجموع السور التي تدبر المفسر جملة من الآيات المستثناة منها على أنها مدنية هي إحدى عشرة سورة فقط من أصل ثلاث وثلاثين سورة ذكر في القواعد أنها تضمنت آيات مدنية، وإذا جئنا نفصل فإنّه تدبر جميع الآيات التي استثناها على أنها مدنية في ثماني سور فقط وهي: (المزمل)، (القلم)، (النجم)، (ق)، (الأعراف)، (يس)، (الواقعة)، (القصص)، أما سورة (مريم)، (الإسراء) و(يونس) فإن فيها آيات وإن ذكرها فإنه لم يتدبرها على أنها مدنية.

---

(1) _ ينظر: معارج التفكر، مج2، ص89- ص143/ مج3، ص5- ص125/ مج4، ص5- ص675- ص685- ص691- 692/ مج7، ص355- ص549- ص594/ مج8، ص421- ص509/ مج9، ص321- ص423/ مج10، ص5- ص128- ص235- ص238.

(2) _ معارج التفكر، مج6، ص130- 131.

(3) _ معارج التفكر، مج9، ص503.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص696- ص699.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج9، ص611- ص656- ص701.

والآيات التي تدبرها –رحمه الله– على أنها مدنية اجتهد في بيان الحكمة من ضمها إلى سور مكية، وسبب تأخيرها إلى العهد المدني وما روعي في ذلك من اقتضاءات[1].

وعليه فإن مفسرنا وافق ما جاء في المصاحف المعتمدة من شيخ المقارئ المصرية في بعض السور دون البعض، لكن هل وافق بذلك أيضا ما ذهب إليه العلماء في حكمهم على الآيات؟

أقول: إن الإجابة على هذا التساؤل يتطلب مراجعة ما قاله العلماء في الآيات السالفة الذكر آية آية وهذا فيه نظر طويل والمقام لا يسع له هنا[2]، وإنما أردت ذكر أنموذج واحد إتماما لما سبق بيانه في سورة (المزمل)، وأقف في هذا الموطن على ما قاله في سورة (مريم) وأدلى به العلماء في حديثهم عنها.

"سورة مريم ...مكية كلها إلا الآية (58) والآية (71) فهما مدنيتان"[3]؛ هذا ما نبه إليه المفسر في صدر السورة، مؤكدا على أنّ المستثنى منها آيتين، لكنه خلال تدبره لها تدبر الأولى فقط على أنها مدنية[4]، وفيما يلي تفصيل الحديث عنها:

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[مريم: 58].

لما وصل المفسر إلى التدبر التحليلي للآية قال: "هذه الآية مدنية التنزيل تأخر إنزالها لأن فيها بيانا عن بعض الذين آمنوا من اليهود بعد الهجرة، فهداهم الله كعبد الله بن سلام، وضمت إلى سورة (مريم) المكية للمناسبة الفكرية"[5].

وبمراجعة أقوال العلماء فيها نقف على حقيقة مفادها أن المفسر اعتمد على قول مقاتل بن سليمان في حكمه على الآية كما هو ظاهر من قوله وإن لم يصرح بذلك[6]، وحكمه هذا لا يستقيم إذ

---

(1) _ ينظر: قواعد التدبر، ص185- ص202/ معارج التفكر، مج1، ص234/ مج3، ص418/ مج4، ص685- ص691-692/ مج9، ص701.

(2) _ وقد جمعت مادتها العلمية وشرعت في تحريرها، لكن تركتها خشيت الإطالة، فأسأل الله أن يوفقني لكتابة مقال حولها، ودراسة ما ذكره من حكمة استثنائها وضمها إلى سور مكية تحت عنوان: "الآيات المدنية والحكمة من ضمها إلى السور المكية في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) – عرض ونقد–" مستقبلا.

(3) _ معارج التفكر، مج7، ص355.

(4) _ أما الآية (71) فقد تدبرها على أنها مكية. ينظر: معارج التفكر، مج7، ص355- ص549- ص594.

(5) _ معارج التفكر، مج7، ص549.

(6) _ إذ معظم من نقل القول نسبه إليه. ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان، ج2، ص632/ زاد المسير، ابن الجوزي، ج3، ص116/ الإتقان، السيوطي، ج1، ص93/ روح المعاني، الألوسي، ج8، ص377.

لا دليل صحيح عليه سوى قوله أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وهذا لا يعد حجة في استثناء الآية إذ ليست كل آية تحدثت عنهم مدنية[1]، لذا رجح أكثر العلماء عدم صحة الاستثناء منها وإليك نزر من أقوالهم:

قال ابن كثير: "هذه السورة بتمامها مكية، لم ينزل منها شيء بعد الهجرة"[2].

أما ابن عاشور فيعقب على قول مقاتل بن سليمان قائلا: "وهي مكية عند الجمهور. وعن مقاتل أن آية السجدة مدنية. ولا يستقيم هذا القول؛ لاتصال تلك الآية بالآيات التي قبلها، إلا أن تكون ألحقت بها في النزول، وهو بعيد"[3].

ولدى الشيخ محمد الغزالي كلمة غاية في الأهمية في هذا المقام، يقول فيها: "وهناك آيات تعرضت لأهل الكتاب فجاء الرواة وعدّوها مدنية، كأن الكلام عن أهل الكتاب في مكة لا محل له!.

والواقع أن هذه الروايات ينقصها التمحيص العلمي والتحقيق التاريخي، وشيوعها بهذه الصورة يشبه شيوع القول بالنسخ مع ضعف سنده من ناحيتي النقل والعقل..

والغريب أن هذه الروايات الواهية هي التي أثبتها دون غيرها نفر من الحفاظ أشرفوا على طبع هذا المصحف أخيرا في دار الكتب المصرية"[4].

لذا فإن: "ما يكتب في بداية تفسير السور في كتب التفسير وكتب علوم القرآن بل وفي طبعات بعض المصاحف الشريفة من ذكر ترتيب نزول السور وذكر المكي والمدني وما استثنى من الآيات. لا علاقة له بتواتر القرآن الكريم بل فيه ما لا يصح ذكره. فإنها نقلت من كتب علوم القرآن والتفسير من غير تحقيق ولا دراسة فلا يُوثق بشيء من ذلك والأحرى بل الواجب كتابة المصاحف من غير أن يلحق غير القرآن الكريم به، كما أوصى بذلك السلف الصالح"[5].

---

[1] _ وقد استند إلى هذا في عدد من الآيات. ينظر: معارج التفكر، مج4، ص691- 692.

[2] _ تفسير القرآن العظيم، ج5، ص269.

[3] _ التحرير والتنوير، ج16، ص57.

[4] _ نظرات في القرآن، ص214.

[5] _ دراسات في المكي والمدني -تحقيق القول فيما استثني من الآيات والسور-، عبد الحميد محمود البطاوي، ص3. (مقال)

الفرع الثاني: مخالفة المفسر لما أثبته في جدول المكي والمدني.

استرعى انتباهي خلال تتبعي للآيات المستثناة من السور المكية في تفسير (معارج التفكر) مخالفة المفسر لما ذكره في الجدول في عدد من الآيات، وقد ظهر ذلك من خلال مسألتين اثنتين:

الأولى: استبعاد القول باستثناء عدد من الآيات التي أشار إليها في جدول المكي والمدني، مثل سورة (المرسلات) التي استثنى الآية (48) منها وقال بأنها مدنية[1]؛ لكنه تراجع عن ذلك في تدبره لها إذ لم يشر إليها في بداية السورة كعادته[2]، بل صرح باستبعاد مدنيتها خلال تدبره التحليلي لها فقال: "رُوي أن هذا الدرس من التنزيل المدني، وأرى أن السباق والسياق يدلان على أنه من التنزيل المكي، فالظاهر أنه لم يتأخر عن نزول السورة، والله أعلم"[3].

وبحكمه على مكية الآية يوفّق فيوافق ما ذهب إليه العلماء المحققون[4]، وهو صنيعه أيضا في سورة (السجدة) إذ يقول: "وهي سورة مكية ولم يصح استثناء بعض آيات منها وجعلها مدنية"[5]، وكذا في سورة (الروم) التي حكم بأنها "مكية كلها بلا خلاف"[6].

وأردت التنبيه هنا إلى أن هناك سورا أيضا أشار إلى وجود آيات مدنية فيها في الجدول وأكد ذلك في الصفحة الأولى من تدبره للسورة، لكنه تدبرها على أنها مكية، ومثاله ما ذكره في سورة: (الفرقان)، (الشعراء)، (هود)، (لقمان)، (سبأ)، (الأنعام) وغيرها[7]، حيث لما رجعت إلى مواضع تدبر تلك الآيات المستثناة وجدت أن الشيخ -رحمه الله- لا يتدبرها على كونها مدنية ولا حتى يشير إلى ذلك، فغالب الظن أنه استبعد كونها مدنية ورجح أن السورة كلها مكية.

---

(1) _ ينظر: قواعد التدبر، ص179.

(2) _ عدا تلك الرواية عن ابن عباس ﷺ التي ذكرها في حديثه عن ما روي بشأن السورة. ينظر: معارج التفكر، مج2، ص541-ص546.

(3) _ معارج التفكر، مج2، ص613.

(4) _ ينظر تفصيل القول فيها: المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص817.

(5) _ معارج التفكر، مج14، ص521. ينظر: قواعد التدبر، ص182.

(6) _ معارج التفكر، مج15، ص111.

قال ابن عاشور: "وهي مكية كلها باتفاق، حكاه ابن عطية والقرطبي، ولم يذكرها صاحب الإتقان في السور المختلف في مكيتها ولا في بعض آيها". التحرير والتنوير، ج21، ص39.

(7) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص293- ص631/ مج8، ص541/ مج10، ص285- ص514/ مج11، ص671-ص749- ص753- ص756/ مج12، ص5- ص33.

الثانية: استثناء آيات أغفل الحديث عن القول بمدنيتها في الجدول.

إذ في سورة (القمر) لم يشر المفسر إلى وجود الخلاف فيها في جدول المكي والمدني ولم يحصها ضمن السور الثلاثة والثلاثين التي تضمنت آيات مدنية التنزيل، بل صرح في الجدول فقال: "كلها مكية"[1]؛ ثم تراجع عن هذا في بداية تدبره للسور فقال: "سورة مكية كلها. وقيل إلا الآيات (44 و45 و46) لكن جاء في صحيح البخاري عن عائشة ﵂ أن الآية: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[القمر: 46] قد أنزلت في مكة، وهي جارية تلعب.

وعلى هذا فالمدني منها إن صح مقتصر على قوله ﷻ فيها: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[القمر:44- 45]"[2].

ويتضح من هذا النص أنه –رحمه الله– ذكر ثلاث آيات قيل أنها مدنية، ثم استبعد الآية (46) لما ثبت في الصحيح حول مكيتها[3]، وترك احتمال صحة كون الآية (44 و45) مدنية التنزيل.

يقول فيهما: "...أنزل الله في العهد المدني آيتين أُضيفتا إلى سورة (القمر) كما ذكر مُقاتل من المفسرين، وهما عند الجمهور من التنزيل المكي مع تنزيل آيات السورة"[4].

وهنا أقر بأنه تبنى قول مقاتل بن سليمان مع مخالفته لقول جمهور المفسرين الذين أجمعوا على أن الآيتين من التنزيل المكي، ثم اجتهد في بيان الحكمة من تأخير إنزالهما إلى العهد المدني[5].

وهذا أهم ما أردت بيانه؛ وأضيف إليه أن هذه المخالفة لما جاء في المصحف المعتمد عنده، وتعقباته على دعاوى مدنية الآيات، وإن وافق في بعضها ما ذهب إليه العلماء المحققون وهذا يحسب له، إلا أنه كان عليه أن يشير إلى الخلاف المذكور في بعضها ويرجح ما يراه راجحا.

---

(1) _ قواعد التدبر، ص179.

(2) _ معارج التفكر، مج3، ص311.

(3) _ ففي ختام حديثه عن الآيات يفصل في هذه الآية ويخالف قول مقاتل بن سليمان مستدلا بالحديث الصحيح المروي عن عائشة ﵂، يقول: "وأما ما روي عن مقاتل من أن الآية (46) من التنزيل المدني أيضا مع الآيتين (44 و45) فمعارض بما صح عن عائشة أم المؤمنين ﵂"، ثم يذكر نصه كاملا ويختم بقوله: "فدل هذا الحديث على أن هذه الآية من التنزيل المكي". ينظر: معارج التفكر، مج3، ص418- 419.

(4) _ معارج التفكر، مج3، ص318- 319.

(5) _ معارج التفكر، مج3، ص418.

ومثاله سورة (هود) التي استثنى المفسر ثلاث آيات منها وقال بمدنيتها في الجدول[1]، لكن لما راجعت تدبره لها وجدت خلاف ذلك، فالمفسر تراجع عن قوله بمدنية الآيات الثلاث؛ وأبقى على احتمال كون الآية (114)[2] فقط مدنية في الصفحة الأولى من التدبر ونسب القول بذلك إلى ابن عباس وقتادة[3]، ليستبعده بعد ذلك ويتدبرها على أنها مكية دون إشارة إلى ما قاله سابقا من احتمال القول بمدنيتها[4]، مع أنه قول معتبر وقال به غير واحد من كبار العلماء، أمثال: ابن حجر، والبقاعي وغيرهما[5].

وفي الختام أقول: إن مسألة الآيات المدنية في السور المكية كانت لها مكانة خاصة في تفسير (معارج التفكر) فقد عني بها المفسر كثيرا، إذ حاول بيان الآيات المستثناة من كل سورة وأتبعها بالحديث عن الحكمة من تأخيرها وضمها إلى السورة المكية وما روعي في ذلك من اقتضاءات، وربما يرجع حرصه هذا إلى اهتمامه بالتفسير وفق الترتيب النزولي للسور عامة حيث أكد في أكثر من موضع على ضرورة مراعاة مراحل التنزيل وعدد فوائد ذلك، وإن كان هذا الأخير لم ألمس له تأثيرا مباشرا في حكمه على الآيات وترجيح القول بمكيتها أو مدنيتها بل العكس فالمفسر خالف الترتيب النزولي الذي اعتمده في الكثير من الآيات المستثناة.

وقبل أن أطوي الحديث عن هذه المسألة أردت تسجيل جملة من الملاحظات إليك أهمها:

– أن المفسر وافق الترتيب المعتمد عنده في حديثه عن عدد من الآيات المستثناة من السور، ولكن قوله بمدنية تلك الآيات لازال يحتاج إلى بحث وتحري في صحة ما أثبته[6].

– أن المفسر خالف الترتيب المعتمد عنده في الآيات المستثناة من السور المكية في عدد من

---

(1) _ قال فيها: "مكية إلا الآيات (12) و (17) و(114) فمدنية". ينظر: قواعد التدبر، ص180.

(2) _ وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: 114].

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج10، ص285.

(4) _ ليوافق بذلك ما ذهب إليه عدد من المفسرين أمثال ابن عاشور الذي قال: "والأصح أنها مكية كلها". ينظر: التحرير والتنوير، ج11، ص312/ معارج التفكر، مج10، ص514.

(5) _ قال البقاعي: "هذه الآية من هذه السورة المكية مدنية"، وقال الشنقيطي: "وهي آية مدنية في سورة مكية"، وقال عبد الله الجذيع: "جاءت بعض الآيات المدنية ضمن سور مكية، وثبتت بذلك الرواية، كذلك جاءت آية مكية ضمن سورة مدنية. وقمت بتتبع ذلك بأسانيده، فخلصت منه إلى أن الذي ثبتت به الرواية من المدني في المكي في تسع سور"، ثم ذكرها مفتتحا إياها بآية سورة (هود). ينظر: فتح الباري، ج8، ص356/ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج3، ص587/ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج1، ص280/ القواعد الأساسية في علوم القرآن، ص67.

(6) _ يقول محمد محسن: "الشيخ يذكر ما في السورة من المكي والمدني؛ لكنه لا يأتي بدليل على قوله ولا يناقش المسألة كعادته إلا نادرا، ولعل هدفه هو نقل ما قرأه من كتب التفسير، وإن كان هذا مأخذا عليه لا له". جهود الشيخ عد الرحمن حسن حبنكة الميداني في الدراسات القرآنية، ص243.

المواضع، موافقا بذلك ما قاله العلماء وهذه من إيجابيات ومحاسن تفسيره التدبري، وإن كان فاته في ذلك ما يتطلب التدقيق والمراجعة وحسبي أني أشرت إلى بعضها بما يفتح الشهية لدراسة وبحث البقية.

– إن غياب التأصيل العلمي لمسألة الآيات المستثناة من السور رغم كونه لبنة أساسية يقوم عليها منهجه التدبري، وعدم استحضار المفسر لأصل المسألة وهو أنه لا يصح الاستثناء إلا بالدليل الصحيح الصريح لأنه خلاف الأصل هو الذي يفسر الارتباك والتردد الذي وقع فيه في حكمه على الآيات، فقد كان يعوزه الرجوع إلى أقوال السلف تحقيقا وتدقيقا فيها ثم بناء الحكم عليها.

يقول محمد رشيد رضا[1]: "لما كان وجود آيات مدنية في سورة مكية أو آيات مكية في سورة مدنية خلاف الأصل، فالمختار عدم قبول القول به إلا إذا ثبت برواية صحيحة السند، صريحة المتن، سالمة من المعارضة والاحتمال"[2].

ويقول صابر حسن: "ومما لا يدع مجالا للشك –إذا وضعنا العلوم القرآنية موضع الموازنة– في أن العلم بالمكي والمدني أحوجها إلى تمحيص الروايات، وتحقيق النصوص، والتحاكم إلى التاريخ الصحيح"[3].

وربما هذا من الآثار السلبية لاختياره –رحمه الله– للتفسير وفق الترتيب النزولي، إذ ولعه به جعله يطلق الأحكام دون دراسة وبحث.

– أن الآيات التي قطع المفسر بمدنيتها وتدبرها كذلك، نجده تدبرها في مواضعها من السورة أي لم يؤخرها عن سورها كما قد يتصور البعض بناءا على ترتيب المفسر لتفسيره على ترتيب النزول، وعليه فإن هذا الأخير لا يقتضي تأخير الآيات عن سورها وفي صنيع المفسر خير دليل وإن لم يصرح كما صرح بذلك من سبقه إليه؛ يقول ملا حويش بيانا لذلك: "ولئلا يختل النظم المبرأ من كل خلل؛ أبقيت الآيات المدنيات في سورها المكيات، والآيات المكيات في سورها المدنيات، وأشرت إلى كل في محله حسب المستطاع، إذ لا يمكن أن يشار إلى كل آية بزمنها؛ أي: بزمن نزولها"[4].

---

[1] _ هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد، البغدادي الأصل، أحد رجال الإصلاح في العصر الحديث، وصاحب مجلة المنار، =لازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ على يديه، من مؤلفاته: الوحي المحمدي، يسر الإسلام وأصول التشريع العام، توفي سنة: 1354هـ. ينظر: السيد رشيد رضا، شكيب أرسلان، ص20 وما بعدها/ الأعلام، الزركلي، ج6، ص126.

[2] _ تفسير القرآن الحكيم، ج7، ص237– 238. وقد جعلها عبد الرزاق حسين أحمد ضمن القواعد التي يقوم عليها علم المكي والمدني، يقول: "القاعدة الثانية: الأصل في السورة المكية أن تكون كل آياتها مكية ولا يقبل القول بمدنية آياتها إلا بدليل استثنائي صحيح، كما أن السورة المدنية يحكم بجميع آياتها بانها مدنية إلا إذا خرج بدليل استثنائي صحيح". ينظر: المكي والمدني في القرآن الكريم، ص147– 148.

[3] _ مورد الضمآن، ص19.

[4] _ بيان المعاني، ج1، ص26.

المطلب الثالث: المكي والمدني وفق ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) -عرض ونقد-.

تأكد مما سبق عناية المفسر بمبحث المكي والمدني واهتمامه بالحديث عن نوع السورة وما تضمنته من آيات مستثناة، وتتمة لذلك يأتي هذا المطلب للكشف عن أثر التفسير وفق ترتيب السور حسب نزولها في مبحث المكي والمدني وذلك من خلال فروع ثلاثة الغاية منها الإجابة على عدد من التساؤلات، إليك أهمها:

– ما هو أثر التفسير وفق ترتيب النزول على أهمية مبحث المكي والمدني؟ بمعنى هل يرجى من ترتيب السور المكية ثم المدنية تحقيق زيادة فائدة على ما يحققه معرفة هذا العلم من فائدة عظيمة في فهم كتاب الله؟

– هل أثر التفسير وفق ترتيب النزول على تطبيقات المكي والمدني في تفسير المعارج، فأثر بدوره على فهم المعاني وتوجيه دلالاتها؟

– ماذا قدّم هذا الترتيب لمبحث المكي والمدني من قضايا جديدة لم يسبق طرق بابها من قبل المفسرين وفق الترتيب المصحفي؟

الفرع الأول: أهمية علم المكي والمدني وفق ترتيب النزول.

عدد العلماء الكثير من الفوائد لعلم المكي والمدني، بل عُد من الشروط الواجب توفرها على كل من يقبل على القرآن الكريم تفسيرا وبيانا، ونأتي في هذا المقام للوقوف على ما قاله مفسرنا بيانا لذلك.

أقول وبالله التوفيق:

سبق وأن أشرت إلى أنّ حبنكة –رحمه الله– لم يخص مبحث المكي والمدني ببحث مستقل ضمن قواعده أو في تفسيره، لذا فإن حديثه عن أهميته جاء ضمنيا نستشفه من عنايته وتأكيده على ضرورة تتبع مراحل التنزيل خلال عملية التدبر، فهذه الأخيرة أولاها عناية كبيرة وتوسع في الحديث عنها في العديد من المواضع[1]؛ وهنا أردت التنبيه إلى تلك الفوائد التي يمكن أن نستخلصها من تطبيقات المفسر للمكي والمدني في ثنايا تدبره للسور حسب ترتيب نزولها، مقتصرة على أهمها مع ذكر نماذج مختصرة، وإليك بيان ذلك:

---

[1] _ ومن ذلك ما أكد عليه في القاعدة الرابعة من ضرورة مراعاة بيئة النص بأبعادها الثلاث، وما أثبته في القاعدة التاسعة "حول تتبع مراحل التنزيل" وغيرهما. ينظر: قواعد التدبر، ص54– ص151.

1. الاهتداء إلى مفاهيم جليلة تتعلق بحكمة التدرج في التشريع؛ إذ تعد هذه من أهم أسباب اختيار المفسر للتفسير وفق الترتيب النزولي للسور، التي حرص على بيانها والتأكيد عليها في الكثير من المواطن وجمع بينها وبين ضرورة تتبع مراحل التنزيل، يقول: "على متدبر كتاب الله أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيل القرآن، ويبني فهمه على أساس التدرج في التشريع..."[1].

وينص مؤكدا على مكانة ترتيب النزول في بيان هذه الحكمة عند حديثه عن نظام الزوجية في القرآن الكريم قائلا: "فتأمل التدرج الارتقائي التكاملي، في بيانات النصوص في القرآن المجيد، بشأن نظام الزوجية، والذي استفدناه من تتبع ترتيب نزول السور"[2].

وقد جاء تدبره لكتاب الله ﷻ حافلا ببيانه لسنة التدرج التي هي منهج قرآني كما جاء على لسانه بقوله في سورة (القارعة): "ولم يأت بيان تفصيلي عن الدرجات المتفاضلات في جنات النعيم، أخذا بحكمة التدرج في البيان، وتجزئة تقديم المعارف الدينية على مراحل، وتوزيعها على متفرقات النصوص في القرآن، ففي السور التي نزلت بعد سورة (القارعة) حتى آخر ما نزل من قرآن تفصيلات كافيات يتمم بعضها بعضا، وهذا منهج قرآني يدل على أنه منزل من لدن حكيم حميد، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"[3].

وقد أظهر هذا المنهج في مجالات شتى إليك بيان بعضها:

* التدرج في إنزال شرائع الدين، يقول: "وبالنظر إلى سنة التدرج الرباني في إنزال شرائع الدين، نلاحظ أن العناية الربانية في هذه المرحلة المبكرة من تنزلات القرآن، قد وجهت لقضايا الإيمان أولا، وأتبعها بالتوجيه للصلاة، فبالتوجيه للعطاء المالي مساعدة للفقراء والمساكين...وهذا التوجيه..فيه دليل على أن سد حاجات المحتاجين في المجتمع تأتي في التعليمات الإسلامية عقب التوجيه للصلاة، ولهذا اقترنت الزكاة بالصلاة في معظم النصوص القرآنية، وهذا التوجيه...قد جاء تمهيدا لفريضة الزكاة التي تأخر تحديدها...إلى المرحلة المدنية"[4].

* التدرج في تربية: يقول المفسر بيانا لذلك: "على مثل التدرج في أحكام التشريع، كان التدرج في استخدام أساليب التربية ووسائلها، ومتتبع القرآن المجيد يجد أن القاعدة مسايرة تماما لمراحل

---

(1) _ قواعد التدبر، ص151.

(2) _ معارج التفكر، مج6، ص113.

(3) _ معارج التفكر، مج2، ص455.

(4) _ معارج التفكر، مج1، ص493.

التنزيل"[1].

وفي حديثه عن تربية الرسول ﷺ أن لا يحزن على الذين كفروا معاندين يقول: "لقد تدرجت تربية الله ﷻ لرسوله بشأن توصيته أن لا يحزن من أجل الذين كفروا...وقد جاء هذا في تسعة نصوص"[2].

* التدرج في الدعوة، يقول في ذلك مثلا:"ولما كانت سورة (الأعلى) من أوائل التنزيل القرآني كان من حكمة التدرج في الدعوة إلى دين الله وتطبيقاته في السلوك الاقتصار على التوجيه لعبادة الله بذكر أسمائه وصفاته...، والصلاة له، دون تحديد لركعاتها وأركانها وشروطها..." [3].

وهذه الاجتهادات من المفسر تحسب له إذ لا يمكن إلغاؤها أو تجاهلها، فحرصه على بيان سنة التدرج ظهر جليا في تدبره؛ ولكن لابد من الإشارة إلى أن هذه الفائدة لم تظهر نتيجة اعتماد المفسر للتفسير وفق ترتيب النزول فقد كانت معلومة عند السلف واجتهدوا في بيانها والحديث عنها، وما قد يلفت الانتباه عند المفسر هو التوسع في ذكرها وتعدد الموضوعات التي طبقها عليها، حيث حاول أن يبصر القارئ بالمراحل التدريجية التي سار فيها التشريع فيقف على الطريقة الحكيمة فيما سن الله لعباده من أحكام وما تقتضيه من أولويات حسب مراحل النزول، فيستشعر الحكمة من ذلك.

2. الوقوف على أسس المنهج السليم للدعوة إلى الله ﷻ:

إذ العلم بالمكي والمدني "يعد بحق منطلق العلماء لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الإسلامية، والتعرف على خطواتها الحكيمة المتدرجة مع الأحداث والظروف والتطلع إلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية في مكة والمدينة، وفي البادية والحاضرة، والوقوف على أساليبها المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب"[4].

وقد كان الحال كذلك بالنسبة لمفسرنا؛ فقد اجتهد في بيانها وهو يتدبر السور وفق ترتيب نزولها فكانت له توجيهات سديدة وتنبيهات قيمة، بل جعل استحضارها من طرق الفهم الصحيح، يقول مثلا: "وحين يضع المتدبر لسورة (يس) ظروف هذه المدة الزمنية من تاريخ دعوة الرسول، فلابد أن تتفتح أمامه أبواب الفهم الصحيح لآيات السورة، وإدراك دلالاتها، وإدراك ما ترمي إليه من أغراض"[5].

---

[1] _ قواعد التدبر، ص162 وما بعدها.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص156

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص463.

[4] _ مورد الضمآن، صابر حسن، ص19. ينظر: مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص167.

[5] _ معارج التفكر، مج6، ص27.

ونجده أيضا يقف أحيانا خلال تدبره التحليلي للآيات، ويكتب في موضوعات في الدعوة استفادها من ترتيب السور المكية، فقد عنون في ختام تدبره لسورة (الشرح) قائلا: "ما يستفاد للدعوة والدعاة من سورتي الضحى والشرح"[1]، وبعدها قال: "نستطيع أن نستنبط من سورتي الضحى والشرح للدعوة والدعاة، أن التأهيل لحمل رسالة عظمى ذات مسؤوليات كبرى، فيها تبليغ ودعوة وجهاد وكفاح وقيادة ومواجهة لخصوم وأعداء، ذوي كيد وحسد...يتطلب التأهيل بنوعين أساسيين:

النوع الأول: ما يتعلق برعايته في أمور ثلاث:...نشأته في الطفولة...تربيته الفكرية...تأمين معاشه. وقد أبانت سورة (الضحى) ما يتعلق بهذا النوع...

النوع الثاني: ما يتعلق بالإعداد النفسي..."[2]، وهذا على قوله يتطلب أربعة أمور أبانت عنها سورة (الشرح).

وإتماما للفائدة يجدر التنبيه هنا إلى أن المفسر خصص عددا من الملاحق للحديث عن موضوع الدعوة، منها: "سياسة الداعي في أحوال المدعو الذي لم يستجب"[3]، "مناهج الدعوة ووسائل التربية"[4].

وعليه فإن "معايشة أحداث الدعوة، والوقوف على مراحلها، ومعرفة المنهج القرآني لتربية الجيل الأول وإعداده لتحمل الأمانة ونشر الإسلام"[5]، ثم تنزيلها على الواقع بإرشاد الدعاة إلى القدوة الصالحة محمد ﷺ وصحابته الكرام وبيان المثل العليا والقيم السامية، كان من أهم الأهداف التي خطها لتدبره لسور القرآن الكريم وفق ترتيب نزولها والتي استفادها من تدبره للمرحلة المكيّة.

3. تيسير الدراسة الموضوعية التكاملية وفق ترتيب النزول:

يقول فضل عباس في حديثه عن فائدة معرفة المكي والمدني: "ومن فوائد معرفة المكي والمدني تيسير فهم الموضوعات القرآنية بحيث تدرس القضايا القرآنية دراسة موضوعية مبنية على الترتيب الزمني بحيث تجمع النجوم المتفرقة في الموضوع الواحد الأول فالأول، وهذه الطريقة المثلى لدراسة ما يعرف اليوم بالتفسير الموضوعي"[6].

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص597.

(2) _ معارج التفكر، مج1، ص597- 598. ينظر: مج1، ص200/ مج6، ص431.

(3) _ معارج التفكر، مج2، ص193.

(4) _ معارج التفكر، مج6، ص736.

(5) _ أسباب النزول حسب ترتيب النزول، أمين يوسف الدميري، ص60.

(6) _ إتقان البرهان، ج1، ص370- 371 .

ولعل هذه النقطة من أهم ما يحسب للمفسر في هذا الباب، فقد اجتهد في إبرازها جليا في تدبره، وعني بها تنظيرا وتطبيقا[1]، لذا يمكن عدها من عناصر التجديد في إبراز أهمية المكي والمدني في التفسير وفق ترتيب النزول عنده.

يقول بيانا لها: "وممارس تدبر كتاب الله يلاحظ أن أسلوب القرآن قائم على توزيع عناصر موضوع واحد في سور متعددة، فإذا جمعت هذه العناصر تكامل منها الموضوع الكلي المراد بيانه، وهذا الأسلوب مع التكامل الدقيق هو من عناصر إعجاز القرآن. ومن فوائد هذا التوزيع التركيز على العنصر المختار في البيان الذي يساق فيه، مع التذكير بأصل الموضوع الكلي الموزع، والتخلص من ركاكة التكرير، وإبعاد المتدبر عن الملل والسّأم فيما لو جمعت له كل العناصر حول موضوع واحد"[2].

وتعد هذه النقاط الثلاث أهم ما ذكره المفسر بيانا لأهمية علم المكي والمدني والتي استخلصتها من تطبيقاته له في تدبره لسور القرآن الكريم وفق ترتيب النزول؛ وفي الختام أردت التنبيه إلى نقطة استرعت انتباهي وأنا أبحث في الموضوع وهي أن أهم ما ذكره العلماء في بيانهم لأهمية علم المكي والمدني لم تحض بالعناية الكافية من قبل مفسرنا وهي تمييز الناسخ من الآيات والمنسوخ منها[3].

يقول أبو جعفر النحاس: "وإنما يذكر ما نزل بمكة والمدينة، لأن فيه أعظم الفائدة في الناسخ والمنسوخ، لأن الآية إذا كانت مكية وكان فيها حكم، وكان في غيرها مما نزل بالمدينة غيره علم أن المدنية نسخت المكية"[4].

ويقول مكي بن أبي طالب: "ويجب أن تعلم المكي من السور من المدني؛ فذلك مما يقوي ويفهم معرفة الناسخ والمنسوخ"[5].

وقد يعترض أحدهم على ما نبهت إليه، ويعلل ذلك بأن المفسر تدبر القسم المكي فقط الذي قل الحديث فيه عن الناسخ والمنسوخ، أقول نعم قد أوافق هذا الرأي لو أنه لم يتحدث عن الأهمية في

---

(1) _ فقد خصص القاعدة السادسة للحديث عنها، وجعلها "حول تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها". ينظر: قواعد التدبر، ص67.

(2) _ معارج التفكر، مج1، ص47.

(3) _ فقد أكد عليها جل من كتب في أهمية علم المكي والمدني، ينظر: الإتقان، السيوطي، ج1 ص43/ مفتاح السعادة، طاش كبرى زاده، ج2، ص344/ مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص161/ المقدمات الأساسية في علوم القرآن، الجذيع، ص62/ الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا ومحي الدين ديب، ص67.

(4) _ الناسخ والمنسوخ، ص649.

(5) _ الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، ص113- 114.

كتابه القواعد لكن مادام أشار إلى الموضوع فإن تأكيده على أهميته في تمييز الناسخ والمنسوخ كان من باب أولى؛ بل أقول أنه ربما يرجع ذلك إلى تركيزه على بيان التدرج في الأحكام في المرحلة المكية، يقول: "وعلى المتدبر لكتاب الله أن يكون على بصيرة من الحقيقة التالية: وهي أن التدرج في إنزال الأحكام ليس من النسخ، إذ الأمر المسكوت عنه في البيان لا يعتبر بيان حكمه بعد ذلك نسخا له...على أن النسخ من أساسه...إنما هو بيان انتهاء المدة المقررة للحكم السابق"[1].

وهذا لا يعني أنه لم يتطرق إلى موضوع النسخ خلال تدبره للآيات إطلاقا، فقد تحدث عنه في عدد من المواضع، أبان في أولها عن "حكمة النسخ في أحكام الدين"[2]، ولكنه لم يجتهد في إظهار أهمية مبحث المكي والمدني في دراسته خاصة وأنه رتب السور وفق ترتيب نزولها، يقول موسى لاشين: "والتمييز الزمني للآيات يعيننا كثيرا على فهمها. فمعرفة البيئة، ومعرفة المخاطبين، والظروف الملابسة للنزول، كلها مفاتيح للتفسير الصحيح، وبالتالي يعيننا على معرفة الناسخ والمنسوخ، وعلى معرفة تاريخ التشريع الإسلامي وتدرجه بالأمة إلى ما فيه سعادتها"[3].

الفرع الثاني: تطبيقات المكي والمدني فهما للآيات وتدبرا لمعانيها وفق ترتيب نزولها.

تأكد مما سبق عناية المفسر بمبحث المكي والمدني وحرصه على بيان نوع السورة وما تضمنته من استثناءات، ونأتي الآن إلى تطبيقاته للنظر فيها في محاولة للوقوف على أثر الترتيب النزولي للسور:

1. إعمال المفسر لقاعدة: "المدني من السور يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذا المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل"[4].

يقف القارئ لتفسير (معارج التفكر) على الحرص الشديد للمفسر امتثالا لهذه القاعدة وتطبيقها خلال تفسيره للآيات، إذ يمكن عدها من أسس منهجه التدبري لكتاب الله تعالى، يقول مؤكدا هذا: "إن النصوص المتأخرة قد تكون مبيّنة للمراد، وقد تكون مقيدة مطلقا، أو مخصصة عموما، أو مثبتة

---

[1] _ قواعد التدبر، ص141. ينظر: المرجع نفسه، ص151 .

[2] _ خلال تدبره للآية الأخيرة من سورة الآية (المزمل) الناسخة لما جاء في أول السورة من وجوب قيام الليل. معارج التفكر، مج1، 193. ينظر: مج13، ص646.

[3] _ اللآلئ الحسان في علوم القرآن، ص22.

[4] _ الموافقات، الشاطبي، ج4، ص256. ينظر: محاسن التأويل، القاسمي، ج1، ص91/ قواعد التفسير، خالد السبت، ج1، ص84.

حكم لم تثبته السابقة، أو مبينة انتهاء العمل بحكم السابقة، أو مكملة لأحكام أو دلالات لم تستوفها السابقة عن قصد، التزاما بحكمة التدرج في التشريع، وفي التربية، وفي التعليم"[1].

والأمثلة في إعمال المفسر لهذه القاعدة كثيرة، تأمل منها مثلا ما نبه إليه خلال تدبره لسورة (الأعراف)، فقد أشار إلى ما غاب الحديث عنه في هذه السورة المكية وجاء بيانه في سورة (البقرة) المدنية، ليكتمل الفهم ويستبين المراد يقول: "لم يأت في سورة (الأعراف) بيان العقوبة التي رتبها الله ﷻ على الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل. ولكن جاء بيان هذه العقوبة في اللقطات المختارات للبيان من قصة موسى وقومه، في سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول) فقال الله ﷻ فيها: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: 54] وقد أخر هذا البيان إلى العهد المدني، وأنزل في أول سورة مدنية لوجود اليهود يومئذ في المدينة، ودعوتهم إلى دين الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه، ولبدء احتكاك الرسول والمؤمنين بهم في المدينة"[2].

وهنا تظهر عناية المفسر بالقاعدة كما يظهر أثر ترتيب النزول عليها، فالمفسر وهو يتدبر السور يسعى إلى استحضار الآيات التي تخدم الموضوع، سواء فيما سبق نزوله في نجوم التنزيل أو ما سيأتي الحديث عنه لاحقا وهذا نوع من التكامل الذي حرص على إثباته في القرآن الكريم، كما فعل هنا في سورة (الأعراف) المكية التي أحال فيها على سورة (البقرة) معتمدا على الترتيب النزولي الذي يعد الأساس في هذه القاعدة، ويبقى دائما التنبيه إلى أن عدم ثبوت ترتيب لسور القرآن الكريم كاملة هو أهم ما يؤخذ عليه في الموضوع، إذ كان يمكنه أن يستفيد ويفيد من هذه القاعدة مع اعتماده على الترتيب المصحفي الذي سار عليه العلماء في تفاسيرهم وأعملوا هذه القاعدة[3].

2. الاعتماد على المكي والمدني في الترجيح بين الأقوال:

يعد زمن النزول من قواعد الترجيح المعتبرة عند المفسرين، يقول فيها حسين الحربي: "إذا ثبت تاريخ نزول الآية أو السورة فهو مرجح لما وافقه من أوجه التفسير"[4].

---

[1] _ قواعد التدبر، ص151- 152.

[2] _ معارج التفكر، مج4، ص622- 623. ينظر: مج2، ص87 - ص125/ مج9، ص665/ مج10، ص237/ مج11، ص282- ص740/ مج15، ص230.

[3] _ ينظر: قواعد التفسير عند مفسري الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، مسعود الركيتي، ص202- ص338- ص438.

[4] _ قواعد الترجيح عند المفسرين، ص258.

وهي معتبرة عند مفسرنا أيضا، وإليك نماذج من ذلك:

قال ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: 141].

لما وصل مفسرنا إلى تدبر هذه الآية قال: "قيل: إن هذه الآية مدنية، وعلى هذا يكون قوله تعالى فيها: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ دالا على الزكاة التي فرضت في السنة الثانية من الهجرة.

والراجح عند الأكثرين أن هذه الآية مكية إذ روي أن سورة (الأنعام) نزلت في مكة جملة واحدة، وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾: وآتوا الحق المتعارف لديكم أن تؤدوه للمساكين والسائلين الذين يحضرون الحصاد يوم حصاده، ويحتمل أن يكون هذا الأمر أمر إيجاب قبل فرض الزكاة ذات المقدار المحدد، وأن يكون أمر ندب، ونحن نعلم أن الله تحدث في العهد المكي عن الزكاة في نصوص متعددة من سور مكية، وجعلها مقارنة للصلاة، وهذا يرجح أن الله ﷻ أوجب على المؤمنين المسلمين أن يبذلوا من أموالهم للفقراء...منذ العهد المكي، إلا أن تحديد المقدار...قد تأخر إلى السنة الثانية من العهد المدني..."[1].

وتأمل صنيعه أيضا خلال تدبره لقوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: 175] قال: "قال بعض المفسرين، هو أبو عامر الراهب...كان نصرانيا من الخزرج، إحدى القبيلتين الكبريين في المدينة...ولا يصح هذا لأنه إنسان لم ترد له قصة تتلى في القرآن. وهذا الدرس من سورة (الأعراف) مكي التنزيل، وظهور هذا الرجل كان بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، فكيف ينزل نص مكي يحال فيه على حدث مضى، مع أنه لم يأت بعد في الواقع، هذا من الأغاليط...لكن النص ينطبق على علماء أهل الكتاب، اليهود والنصارى وأشباههم، فهم الذين تلقوا آيات الله في التوراة والإنجيل، فلبسوها، وآمنوا بها، وبعد ذلك انسلخوا منها، فلم يعملوا بمقتضاها، بل حرَّفوا فيها، وغيروا وبدلوا وكتموا..."[2].

مما سبق عرضه يظهر أثر المكي والمدني في تحرير الخلاف في معاني الآيات، فقد رد المفسر ما ذهب إليه المفسرون في بيان معنى الآية بالاعتماد على زمن النزول.

---

[1] _ معارج التفكر، مج11، ص450- 451. ينظر: مج1، ص572/ مج11، ص686/ مج12، ص469/مج14، ص66.
[2] _ معارج التفكر، مج5، ص29- 30.

3. اختلاف توجيه المعنى باختلاف القول بمكية الآية أو مدنيتها:

تتأكد أهمية تحديد الآيات المستثناة من السور إذا عُلمت مكانتها في توجيه معاني الآيات فثمة علاقة وثيقة بينهما، بل هي "من المباحث التطبيقية النفيسة التي تتداخل بين التفسير وعلوم القرآن" كما قال مساعد الطيار[1].

وقد سبق الحديث عن الآيات المدنية في السور المكية عند المفسر، وثبت أنه توسع فيها وخاض غمارها ولكن كان ينقصه التحقيق والتمحيص والتنقيح لما قيل فيها، ولو أن القول بها توقف عند تحديدها فربما يُعذر، لكن نجده بنى عليها فهمه للآية فخالف بذلك ما ذهب إليه المفسرين.

قال ﷻ: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾[يونس: 94]، هذه الآية من بين الآيات التي تدبرها المفسر على أنها مدنية التنزيل من سورة (يونس) المكية، يقول في بيان المقصود بها: "سبق في التمهيد أن هذا التوجيه للرسول ﷺ في الظاهر، ليس هو المقصود به، بل المقصودون به بعض حديثي الإسلام في المدينة...، وكان لهؤلاء صلة بيهود المدينة قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، ودخولهم في الإسلام، وإذ عَلم الله ما في نفوسهم دون أن يعربوا عنه بألسنتهم، وجه الله ﷻ لرسوله ما لو أعربوا عنه بألسنتهم، لكان الكلام موجها لهم، وللإشعار بهذا لم يضع الله هذا البيان في سورة مدنية مع أنه مدني التنزيل، بل وضعه في سورة مكية،ولو أن الرسول حدث في نفسه شك ما، لأنزل الله ﷻ هذا البيان مع إنزاله سورة (يونس) أو غيرها من السور المكية، ولم يؤخر إنزاله إلى العهد المدني، وقد وضعه في سورة مكية بينها وبين أول سورة مدنية هي سورة (البقرة/ 2 مصحف/ 87 نزول) من السور المكية (35) سورة"[2].

وقد خالف بقوله هذا ما ذهب إليه عددا من المفسرين في بيانهم للمراد بها[3]، يقول في ذلك صاحب الظلال: "نزلت السورة في هذا الجو. وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة، تواجه واقعا متصلا حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة. وهذا ما ينفي الرواية التي أخذ بها المشرفون على المصحف الأميري من كون الآيات 40، 94، 95، 96 مدنية.. فهذه الآيات متشابكة مع السياق، وبعضها

---

(1) _ المحرر في علوم القرآن، ص106.

(2) _ معارج التفكر، مج10، ص236- 237.

(3) _ أمثال: ابن كثير وأبو السعود والآلوسي. ينظر: تفسير القرآن العظيم، ج4، ص296/ إرشاد العقل السليم، ج4، ص175/ روح المعاني، مج6، ص178.

لا يتسق السياق بدونه أصلا! والترابط في سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها"[1].

ونلاحظ أن هذه المسألة من أهم الأمور التي ينبغي التنبيه إليها في التفسير محل الدراسة، كي لا يسير القارئ للتفسير على هذه المعاني في تدبره للآيات وقد بناها على استثناءات مظنونة في معظمها.

الفرع الثالث: معالم التجديد وملامح التنزيل على الواقع في توظيف المكي والمدني وفق ترتيب النزول.

يعد الحديث في هذا الفرع ثمرة ما سبق بيانه والتفصيل فيه في هذا المبحث، إذ من خلاله أردت تسجيل أهم السمات التي برز فيها جهد المفسر في دراسة علم المكي والمدني حسب ترتيب النزول، وإليك بيانها باختصار:

– الاهتمام بمبحث المكي والمدني؛ إذ أكد على أنه له ضرورته وأهميته في تدبر كتاب الله ﷻ ولا أدل على ذلك من بيانه لنوع السور والاستثناءات فيها وكذا استفادته منه في الاستدلال والاستنباط وتوجيه المعاني، وهذا من مظاهر التجديد في التفاسير الإصلاحية المعاصرة عامة.

تقول دلال بنت كويران في حديثها عن أبرز مظاهر التجديد الإصلاحي في التفسير: "الاهتمام بمسائل علوم القرآن الواردة في التفسير، وتحريرها تحريرا جيدا"[2].

والمفسر وإن امتثل الشق الأول من هذا الكلام باهتمامه بالمكي والمدني؛ فإنه ينقصه التحرير الجيد لمسائل هذا العلم، إذ لو وضع قاعدة جمع فيها شتات ما تناثر الحديث عنه حوله وأصّل له مما قاله أهل العلم فيه، تعريفا به وبيانا لقواعده وتحقيقا في مروياته، لكان أجدى وأجود ولسلم من الكثير من الانتقادات والاعتراضات التي وجهت لتفسيره وحُف بها التفسير وفق ترتيب النزولي لوثاقة الصلة بينهما.

– جمع السور المكية على صعيد واحد وترتيبها وفصلها عن السور المدنية، ثم تدبرها وفق ترتيب نزولها؛ ويمكن أن نقول تجوزا –على فرض التسليم للمفسر بهذا الترتيب– أن هذا ما يسر له دراسة مبحث المكي والمدني دراسة منتظمة مكنته من استنباط ما فيه من حكم وفوائد تعلقت بالمرحلة المكية؛ وهنا تبرز أهم العناصر التي يفترق فيها مفسرنا عن سابقيه من المفسرين وفق الترتيب المصحفي ممن اهتم منهم بالمكي والمدني في تفسيره.

---

[1] _ في ظلال القرآن، سيد قطب، ج3، ص1752.

[2] _ التجديد في التفسير في العصر الحديث، ص100.

– استصحاب منهج وفهم السلف في دراسة مبحث المكي والمدني؛ وهذا لا يعني أنه لم يخالفهم أو أنه سلم مما وقع فيه غيره من المفسرين إذ كانت له اجتهادات وهفوات سبق التنبيه إلى بعضها؛ ولكن يبقى أسلم من سابقيه ممن فسر وفق الترتيب النزولي للسور، وإليك محمد عزة دروزة مثلا في حديثه عن هذا المبحث يهمل أهم طرق معرفته وهو الرواية والسماع بل له جرأة كبيرة في رده، إذ نجده يشكك في صحة الكثير من الروايات خاصة في بيانه للآيات المستثناة والتي يردها انتصارا لرأيه الشخصي، وإعمالا للسياق العام للآيات، "فإذا كانت الرواية الصحيحة تقول إن الآية مكية ونزلت في سبب معين، فإن دروزة له الحق في رفض ذلك لأن سياق الآية عند دروزة وأسلوبها ليس مكيا... !!"[1].

وإليك نماذج مختصرة من ذلك:

يقول في سورة (سبأ): "والمصحف الذي اعتمدنا عليه يروي أن الآية [6] مدنية والرواية تتحمل التوقف لانسجام الآية الوثيق في السياق"[2].

وفي سورة (الشورى)، يقول: "وقد ذكر في المصحف الذي اعتمدناه أن الآيات [23- 25] مدنيات، وسياقها وأسلوبها يسوغان الشك في ذلك"[3].

وأغلب هذا سلم منه مفسرنا، فهو لا يلغي نقول السلف ولا يخالف انتصارا لرأيه فقط، وإن خالف فبأدب جم، وهذا بلا شك من معالم التجديد في التفسير وفق ترتيب النزول التي تحسب للمفسر، وذلك من خلال إحياء منهج السلف والحرص على التمسك به.

– سلامة التفسير من الآراء الشاذة والأقوال المتطرفة خلال حديث المفسر عن مبحث المكي والمدني وفق الترتيب النزولي للسور؛ إذ لم يتخذ المفسر هذا الأخير أداة للطعن في القرآن الكريم أو المساس بعقيدة المسلمين كما هو الحال بالنسبة لمن دعى إلى إعادة ترتيب المصحف وفق ترتيب النزول أمثال المستشرقين ومن سار على خطاهم[4].

---

(1) _ عيون الأقاويل، عبد الرحمن نصر، ص399.

(2) _ التفسير الحديث، ج4، ص264.

(3) _ المرجع نفسه، ج4، ص435. ينظر: ج3، ص420/ ج4، ص337 وما بعدها.

(4) _ فقد أثاروا الكثير من الشبهات التي لم تثبت أمام النقد العلمي الرصين من قبل عدد من الباحثين. ينظر: مناهل العرفان، الزرقاني، ج1، ص170/ علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص68/ الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن الكريم-دراسة ونقد-، أحمد محمد الفاضل، ص287 وما بعدها/ اللآلئ الحسان، موسى لاشين، ص22/ المكي والمدني في القرآن الكريم، عبد الرزاق حسين، ص997.

وعليه فإن عناية المفسر بمبحث المكي والمدني وإن لم يكن لها ذلك الأثر الإيجابي الواضح الذي له قيمة علمية تزيد من أهمية التفسير وفق الترتيب النزولي للسور، بما يدفعنا للدعوة إلى التمسك به واتخاذه منهجا موازيا لمنهج السلف القائم على الترتيب المصحفي ولا نقل بديلا فنلغي جهودهم وهذا مستبعد؛ فإنه كذلك عند مفسرنا لم يكن ذلك الأثر السلبي في التفسير الذي يمكن التحذير منه كما فعل فضل عباس في ختام حديثه عن تفسير ملا حويش المرتب وفق ترتيب النزول، حيث عنون قائلا: "إشفاقنا على المفسر وتحذيرنا من تفسيره"[1].

عدا تلك الهفوات والهنات التي أشرت إليها سابقا من ضعف التدقيق وغياب التمحيص للأقوال وقلة اعتماد صحة ثبوت المروي في هذا المقام.

– الاجتهاد في تنزيل تطبيقات المكي والمدني على الواقع: فحرص مفسرنا على استثمار الحديث في مبحث المكي والمدني في التوجيه والدعوة والإرشاد والإسقاط على الواقع علاجا لما يعانيه عصره ظهر جليا، ليستفيد القارئ من توجيهات القرآن في مجابهة العقبات وعلاج الأزمات ويستنير به كمنهج أمثل.

يقول في الآيتين (44- 45) من سورة (القلم): "في هاتين الآيتين..التفت البيان القرآني إلى الرسول ﷺ، ويلحق به الدعاة إلى الله من أمته، إذا كانوا في مثل الموقف الذي نزلت فيه سورة (القلم) فبيّن الله ﷻ فيه الموقف الذي يجب أن يتخذه تجاه المكذبين بآيات التنزيل، وهو موقف تركهم لله بارئهم، وعدم مصارعتهم، مع الاستمرار على العمل في طريق الدعوة إلى الله وإلى صراطه المستقيم.

إن الموقف هو موقف مراحل الدعوة الأولى، التي يجب فيها الصبر...مع الدأب في مجال الدعوى إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة...إنه مما لا شك فيه أن هذا هو المنهج الأمثل، إذ هو المنهج الرباني، وهو المنهج الذي أثبتت التطبيقات النبوية له أن ثمرته أعظم الثمرات وأكثرها وأثبتها وأدومُها.

ثم بمقدار التزام الدعاة إلى الله والتنظيمات الإسلامية بهذا المنهج الرباني كانت تأتي ثمرات أعمالهم، فتزداد هذه الثمرات بازدياد هذا الالتزام، وتتناقص بتناقص هذا الالتزام..."[2].

– التأكيد على أهمية الدراسة التكاملية، فقد كان للمفسر نظرة شمولية في دراسته للآيات والسور وفق تريب نزولها المكي منها والمدني باعتبارها مظهرا من مظاهر الإعجاز التي يسعى المفسر المجدد لإبرازها، يقول بهذا الصدد: "التكامل هو أحد خصائص القرآن الإعجازية القائمة على تجزئة عناصر

---

[1] _ التفسير والمفسرون في العصر الحديث، ج3، ص275.

[2] _ معارج التفكر، مج1، ص259. ينظر: مج1، ص53- 99- 216/ مج2، ص95/ مج9، ص207.

الموضوع الواحد في إطاره الكلي، وتوزيع دلالاتها في عدة نصوص، وفي أكثر من سورة، وقد تكرر بعض عناصر الموضوع لاستكمال الصورة البيانية في النص، أو للاهتمام بهذه العناصر وتأكيدها لكن لا على سبيل التطابق الكلي في الغالب"[1].

– تجلية فوائد دراسة المكي والمدني، خلال تطبيقاته التدبرية ومن أبرزها توظيف المكي والمدني في دراسة الموضوعات القرآنية؛ إذ هذه الأخيرة لقيت عناية خاصة من قبل المفسر جاعلا الأساس الذي تقوم عليه هو ترتيب آيات الموضوع وفق ترتيب نزولها.

– إبراز المناسبة والحكمة وما روعي من اقتضاءات في ضم الآيات المدنية للسور المكية، وهذا ربما يعكس مظهرا من مظاهر اهتمام المفسر بالتفسير وفق ترتيب النزول وحبه لإظهار واكتشاف الجديد الذي لم يسبق إليه[2]؛ وإن كان اجتهاده في بيان هذه الأخيرة كان على حساب الأصل الذي خانه في التأسيس له قلة زاده في علم الحديث وغياب الحس النقدي عنده، وترتب عليه تكلف المفسر أحيانا في بيان الحكمة من ضم الآيات المدنية إلى السور المكية خاصة فيما جزم العلماء بخلافه.

وهذه أهم عناصر التجديد في دراسة مبحث المكي والمدني حسب ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، وإن كان كتابه لا يخلو من ملاحظات حاله حال باقي التفاسير فلا يوجد كتاب كامل خال من النقص فكل كتاب يحتاج إلى تنقيح وغربلة، لا سيما أن مؤلفه توفي قبل إكماله ليعيد النظر فيه وتنقيحه بعد ذلك، وقد أحس المفسر بقرب الأجل ودعا من بعده إلى تصويب الخلل وما وقع فيه من زلل، قائلا: "وإذا لم تسعف القدرات أو لم يسعف العمر باستكمال هذا التدبر لكل القرآن المجيد، فإن من المفيد جدا أن أقدم ما يفتح الله الوهاب لي فيه، عسى أن يتم العمل متدبرون لاحقون، محتذين أو مضيفين أو معدلين"[3].

وفي حديثي عن تلك الهفوات التي وقع فيها المفسر لا يعني انتقاص من قيمة الرجل أو طعن فيما قدم، بل محاولة بسيطة في سبيل تهذيب هذا التفسير، الذي لم أشك يوما وأنا أقرأ فيه صدق نيّة المفسر في الدفاع عن القرآن الكريم والحرص على تدبره على الوجه الأمثل.

---

[1] _ معارج التفكر، مج7، ص65.

[2] _ وقد اجتهدت في البحث بين المفسرين عن أحد منهم ذكر الحكمة من ضم آيات مدنية إلى سور مكية، فلم أقف على من ذكر شيئا منها.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص6.

المبحث الثاني:
أثر ترتيب النزول في علم المناسبات في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

تحدى الله بالقرآن الكريم أرباب الفصاحة والبلاغة على أن يأتوا بمثله في نظمه فعجزوا؛ إذ أودعه حسن النظم وبديع السبك ما يعجز عن محاكاته المعاندين[1]، ويترسّخ به ويزداد إيمان ويقين المتدبرين.

أما معانيه فهي منسجمة انسجاما بديعا ومتسقة على نسق فريد، تحمل بين طيّاتها الكثير من الأسرار التي اجتهد العلماء في بحثها، ولعل من أهم الجهود المبذولة في ذلك مما له وثيق الصلة بإظهار عظمة القرآن الكريم سعيهم في الكشف عن العلة والرابط الذي يجمع بين الآيات والسور، فتظهر وكأنها لحمة واحدة منتظمة المباني مسبوكة المعاني، فكان ذلك أحد روافد علم التفسير عندهم وقد عرف بعلم المناسبات بين السور والآيات.

هذا العلم عند القائلين به كان منطلق البحث فيه هو الترتيب المصحفي بين الآيات في السورة الواحدة وكذلك بين السور، وعلى هذا درج العلماء في حديثهم عنه سواء في مؤلفات مستقلة أو ضمن كتب التفسير؛ لكن قد جاء من خالف هذا الترتيب واعتمد الترتيب النزولي بديلا عنه في تفسيره لسور القرآن الكريم، ولا شك أنّ هذا يؤثر في بحث المناسبات إن كان للمفسر عناية بذلك، وأقصد في هذا المقام عبد الرحمن حبنكة الميداني خلال تدبره للقسم المكي من السور في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).

وانطلاقا مما سبق عرضه تتأكد أهمية المسائل التي سيُطرق بابها في هذا المبحث والذي قسمته إلى مطلبين اثنين، جعلت الأول منهما مدخلا إلى علم المناسبات، والثاني خصصته للحديث عن علم المناسبات حسب ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

---

[1] _ يقول عبد الله دراز: "فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّما يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا". النبأ العظيم، ص113.

المطلب الأول: مدخل إلى علم المناسبات.

يتطلب الحديث عن أي علم من العلوم جمع ما تناثر من شتاته في بطون الكتب والمصنفات، فيُلم الباحث بالموضوع ويمسك ولو بجزء من ناصيته؛ وقبل أن يخوض غماره لابد له من تحديد معالم الطريق فتتضح للقارئ بالقيود التي يضعها ما ليس من صميم الدراسة.

لذا آثرت أن أفرد الدراسة النظرية لعلم المناسبات بمطلب مستقل فيه إطلالة عابرة توقف القارئ على جوانب من هذا العلم تحت عنوان مدخل إلى علم المناسبات، ضمنته فروعا ثلاثة؛ جاء الأول منها للحديث عن تعريف علم المناسبات ومكانته عند العلماء، والثاني لبيان أنواع المناسبات في القرآن الكريم، أما الثالث فأردت من خلاله إبراز صلة علم المناسبات بترتيب السور.

الفرع الأول: تعريف علم المناسبات ومكانته عند العلماء.

قُسّم هذا الفرع إلى قسمين، يُعنى الأول ببيان المراد من علم المناسبة من خلال استعراض معناها عند أهل اللغة، ثم التعريج على المراد بها في اصطلاح المفسرين؛ أما الثاني فخُص بالتذكير بمكانة علم المناسبات عند العلماء.

أ. تعريف علم المناسبات:

1. لغة: يدور معنى المناسبة في معاجم اللغة حول معان عدة: فهي تدل على المقاربة والمشاكلة والمشابهة والاتصال والمماثلة بين شيء وشيء آخر.

والنسب بمعنى القرابة، يقال: ناسب فلانا أي شاركه، ومنه النسيب القريب المتصل؛ وتقول: ليس بينهما مناسبة أي مشاكلة.

ويُقال: ناسب الأمر أو الشيء فلانا، أي لاءمه ووافق مزاجه، وتناسب الشيئان: تشاكلا[1].

قال ابن فارس: "النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيء بشيء. منه النسب، سمي لاتصاله وللاتصال به"[2].

---

[1] _ ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ج1، ص755/ القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ج1، ص130-131/ تاج العروس، الزبيدي، ت:عبد العليم الطحاوي، ج4، ص265.

[2] _ معجم مقاييس اللغة، ج5، ص423.

وعليه فإن المعاني اللغوية تكاد تتفق على أن المناسبة هي الرابط بين شيئين بأي وجه من الوجوه، فكل ما اتصل شيء بآخر فإن بينهما مناسبة، سواء ظهرت أو لم تظهر.

2. **اصطلاحا**: بعدما عرفنا المراد بالمناسبة عند أهل اللغة، ننتقل لبيان المراد منها في اصطلاح المفسرين وعلماء علوم القرآن، والتعريفات لها كثيرة ومتقاربة وإليك أهمها[1]:

قال الزركشي: "...المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، ومرجعها والله أعلم إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر"[2].

وقال البقاعي: "علم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعنى لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها"[3].

وعرفها مصطفى مسلم قائلا: "هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، وفي كتاب الله تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات تعني وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها"[4].

وقال في بيان المراد منها محمد بازمول: "معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المندرجة تحت جهة واحدة"[5].

وبعد هذه الجولة في رحاب ما قيل في تعريف علم المناسبات لغة واصطلاحا يمكن القول أن المعنى اللغوي يوافق المعنى الإصلاحي لها، إذ علم المناسبات في القرآن الكريم يعتمد على الاجتهاد في الكشف

---

[1] _ ينظر التفصيل في تعريف علم المناسبات: أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني، محمد عامر، ص13/ في مناسبات سور القرآن، محمد يعقوب، ص15/ مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل أبو العلاء، ص18/ المناسبات في القرآن الكريم ودراسة تطبيقية في سورتي الفاتحة والبقرة، عبد الله القرني، ص24.

[2] _ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص35. ينظر: الإتقان، السيوطي، ج5، ص1840.

[3] _ نظم الدرر، ج1، ص6.

[4] _ مباحث في التفسير الموضوعي، ص58. ينظر: المناسبات وأثرها في تفسير القرآن، عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم، ص5 (مقال)/ دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر الألمعي، ص83.

[5] _ علم المناسبات في السور والآيات، ص27.

عن الصلة الرابطة بين آيات القرآن الكريم ضمن السورة الواحدة، ووجوه الارتباط بين السور، حتى تعرف علل الترتيب.

ب. مكانة علم المناسبات وأقوال العلماء في بيان فضله:

يتعلق علم المناسبات بكتاب الله ﷻ فهو من أشرف العلوم؛ إذ "من المقرر أن فضل كل علم يقاس بفضل موضوعه، وموضوع علم المناسبة هو كلام الله العزيز"[1].

هذا وقد بحثه علماء أجلاء من السلف والخلف، فهو "لم يكن بدعا من العلوم القرآنية، بل هو حصيلة ما أفرزته عقول الأولين من إشارات ولمحات عابرة عن سر ترابط الآيات والسور وترتيبها"[2]، لما أدركوا له من الأهمية والفائدة في تدبر القرآن الكريم.

إذ الرابط بين المعنى واللفظ ركن متمم من أركان الكلام، يقول الخطابي: "إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة"[3].

وعلم المناسبات يعنى بإبراز أوجه النظم والربط في كتاب الله ﷻ، ويكشف وجه الإعجاز فيها لذا فهو: "وجه جدير بالدرس والقراءة والتحليل، فإن العلماء قد توسعوا في دراسة الكلمة، ومقامها في الفصاحة والبلاغة، ودرسوا نظمها في مجال محدود، بيد أن هذا العلم يفتح آفاقا واسعة في مجال دراسة أوجه الارتباط بمفهومه الكلي في نظم القرآن الكريم"[4].

وأترك القارئ بعد هذا العرض يستمع لأقوال نفيسة في ذكر فضل هذا العلم وعلو شأنه ورفعة منزلته:

يقول أبو بكر الباقلاني: "فأما نهج القرآن ونظمه، وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه في جهته،

---

[1] _ مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن وسوره، عادل أبو العلاء، ص22.

[2] _ بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، زهراء خالد، ص72 (مقال). ينظر نشأة علم المناسبة: أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية، عبد الحكيم الأنيس، ص17 (مقال)/ أنواع التصانيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، مساعد الطيار، ص151/ علم المناسبات في السور والآيات، محمد بازمول، ص18/ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص86 (مقال)/ مناسبات الآيات والسور، علي عبد العزيز سيور، ص26 (مقال)/ المناسبات وأثرها على تفسر القرآن الكريم، عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم، ص2. (مقال)

[3] _ بيان إعجاز القرآن، ص27.

[4] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب، ص54.

وتحار في بحره، وتضل دون وصفه"[1].

وقال الفخر الرازي في تفسيره لسورة (البقرة): "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ولعلّ الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور"[2].

وقد جعله الزركشي النوع الثاني من كتابه مما يدل على مكانته وأهميته، والتي يؤكدها قائلا: "واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول...وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[3].

وقال برهان الدين البقاعي: " علم المناسبات علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال...وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب، ويتمكن من اللب وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقين: أحدهما نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب. والثاني نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب"[4].

ويقول الزرقاني: إن "القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقا لأوله، وبدا أوله مواتيا لآخره"[5].

وفيما سبق عرضه كان من أحسن التعابير وأبلغها عن مكانة هذا العلم وفضله، بما يغني عن التفصيل فيه أو الزيادة عليه، فالشهادة له صدرت من علماء محققين أجلاء مارسوا علم التفسير وأغنوا المكتبة التفسيرية بمجلدات في ذلك طبقوا فيها هذا العلم فزاد تعلقهم به لما أدركوا من أهميته.

---

(1) _ إعجاز القرآن، ص79. ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص51.

(2) _ مفاتيح الغيب، ج7، ص106.

(3) _ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص35- 36.

(4) _ نظم الدرر، ص5 وما بعدها.

(5) _ مناهل العرفان، ج1، ص52- 53.

الفرع الثاني: أنواع المناسبات في القرآن الكريم.

ظهرت البذور الأولى للقول بالمناسبة في القرآن الكريم منذ عهد مبكر، حيث اهتم بها الكثير وأفردت بالتصنيف من قبل عدد منهم، وارتبط هذا بالتطبيق العملي الذي سبق التنظير والتقعيد للعلم حاله حال غيره من العلوم؛ وإن كانت محاولة "ضبط معالمه الفنية، وقواعده المنهجية، التي يمكن أن يترسمها من يريد المساهمة فيه بوجه"[1] متقدمة أيضا[2].

ولعل من بين أهم المعالم التي تدخل في باب التقعيد لهذا العلم هو ذكر الأنواع التي تندرج تحته، فقد تحدث عنها ثُلة من العلماء وتنوعت التقسيمات في كتب المهتمين به، وذلك راجع إلى أنها أمر اصطلاحي تتعدد فيه وجهات النظر؛ وعلى كل وبعد التتبع والتأمل فيها فقد اخترت منها ما وجدته الأشمل والأنسب لبيان المراد[3]، حيث تُقسم المناسبات القرآنية إلى قسمين رئيسين، يندرج تحت كل واحد منهما أنواع، وإليك بيان ذلك باختصار[4]:

القسم الأول: المناسبات في السورة الواحدة.

وهي أنواع أذكر منها: المناسبات في الآية الواحدة، المناسبات بين الآيات داخل السورة الواحدة، المناسبة بين مقاطع السورة أو دروسها تبعا لتقسيم المفسر لها، مناسبة فواتح السور لخواتمها، المناسبة بين اسم السورة وموضوعها أو مضمونها.

القسم الثاني: المناسبات بين السور.

وهنا أردت التنبيه أولا إلى أن هناك من اختار هذا التقسيم لكن حصر القسم الثاني منه في المناسبة

---

[1] _ مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن وسوره، ص56.

[2] _ إذ كان من الأبواب المطروقة في بحوث علوم القرآن عند المتقدمين، فتأمل مثلا صنيع الزركشي في البرهان الذي خصه بالحديث في النوع الثاني من أنواع علوم القرآن الكريم. ينظر: البرهان في علوم القرآن، مج1، ص35.

[3] _ وقد وقفت على عدد من التقسيمات منها: مناسبات الآي ومناسبات السور، المناسبات الموضعية والمناسبات الموضوعية، المناسبات الداخلية والمناسبات الخارجية، المناسبة التنزيلية و المناسبة التاريخية وغيرها. ينظر: إتقان البرهان، فضل عباس، ج2، ص809/ أهمية العلم بتاريخ نزول الآي، أحمد خالد وعمرن سميح، ص46/ علم المناسبات بين السور والآيات، محمد بازمول، ص28/ مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم وسوره، عادل أبو العلا، ص88/ المناسبات في القرآن الكريم، عبد الله القرني، ص149.

[4] _ اختار التقسيم الذي اعتمدته عدد من الباحثين أمثال: عبد الله الغماري، إبراهيم آل هويمل، مصطفى مسلم، علي عبد العزيز سيور وغيرهم. ينظر: جواهر البيان في تناسب سور القرآن، ص14 وما بعدها/ علم المناسبات بين المانعين والمجيزين، ص 193(مقال)/ مباحث في التفسير الموضوعي، ص68/ مناسبات الآيات والسور، ص36. (مقال)

بين السورتين المتجاورتين[1]، والمراد هنا المناسبة بين سورتين أو مجموعة من السور أي المناسبات بين السور بشكل عام، والتي يمكن أن ندرج تحتها مجموعة من الأنواع، أذكر منها: المناسبة بين فاتحة السورة وخاتمة ما قبلها، المناسبة بين فواتح السور المتتالية، المناسبة بين مقاصد السورة مع التي قبلها أو التي تليها، المناسبة بين موضوع سورتين أو أكثر، المناسبة بين مجموعة من الآيات ذات الموضوع الواحد، "فلا ينظر فيه إلى سورة بمفردها مع سورة أخرى، ولا إلى آية بمفردها مع آية أخرى، وهو مناسبة موضوع مجموعة من السور لمجموعة من السور أو لسورة"[2]، وهو ما يطلق عليه بالوحدة الموضوعية في القرآن الكريم[3].

وبناءا على هذا التقسيم سيكون الحديث عن علم المناسبات في (تفسير معارج التفكر ودقائق التدبر)، مع التفصيل بذكر النماذج التطبيقية.

وفي ختام هذا الفرع أردت التنبيه إلى مسألتين من الأهمية بمكان:

الأولى: وهي أن ما نقلته من فضل ومكانة لعلم المناسبات وبيان لأنواعها، لا يعني اتفاق جميع العلماء على القول بها، إذ صحيح أن "الكثير من العلماء ذهبوا إلى جواز طلب علم المناسبة، بل وحثّوا عليه كل حاذق ملمّ"[4] ولكن هناك أيضا من خالفهم، لذا فقد كان التفصيل في موقف العلماء من علم المناسبات هو موضوع عدد من البحوث والدراسات[5].

الثانية: وهي أن من العلماء المؤيدين لعلم المناسبات من ميّز في قوله بالمناسبة بين قسميها، فأكّد على أهمية القسم الأول وحث على ضرورته، ولم ير الثاني حقا على المفسر.

وأمثل هنا بموقف أحد كبار المفسرين في العصر الحديث وهو محمد الطاهر بن عاشور، الذي أفصح عن موقفه منهما بقوله:"وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة

---

(1) _ أمثال مصطفى مسلم، ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص82.

(2) _ علم المناسبات في السور والآيات، محمد بازمول، ص29.

(3) _ تطلق ويراد بها: "البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة؛ ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه؛ لنحقق الهدف؛ وهو الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم". الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، ص29.

(4) _ المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور –من خلال سورتي الأنفال والتوبة–، ندين بنت مصطفى، ص29.

(5) _ ينظر: التناسب القرآني عند الإمام البقاعي، مشهور موسى، ص44/ علم المناسبات بين المانعين والمجيزين، إبراهيم آل هويمل، ص116(مقال)/ علم المناسبات في السور والآيات، محمد بازمول، ص32/ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص70(مقال)/ في مناسبات سور القرآن، محمد يعقوب ذو الكفل، ص4/ المناسبات في القرآن الكريم، عبد الله القرني، ص109/ موقف الإمام الشوكاني في تفسيره من علم المناسبات، أحمد محمد الشرقاوي، ص5.(مقال)

العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عني به فخر الدين الرازي، وألف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى: (نظم الدرر في تناسب الآي والسور) إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفضل القول تتطلع. أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقا على المفسر"[1].

وعليه فإن صاحب (التحرير والتنوير) يفرّق في الحديث عن المناسبات بين قسميها، فيؤكد على أهمية إبراز المناسبات بين الآيات، إذ يرى أنه منزع جليل يحسن بالمفسر التأمل فيه أكثر، بينما يرى عدم ضرورة طلب المناسبات بين السور[2].

ومن خلال هذا النقل لم يظهر الأساس الذي اعتمد عليه المفسر في القول بالمناسبات بين الآيات، لكن بمراجعة التفسير نجد أنه أفصح عنه في بيانه لموقفه من ترتيب الآيات في السور يقول: "وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبي ﷺ حسب نزول الوحي....وذلك الترتيب مما يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه...فلهذا كان الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض، أو في الانتقال منه، أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل"[3].

ومن هنا يتضح أنه اعتمد على القول بالتوقيف في ترتيب الآيات للحكم بجواز القول بالمناسبة فيها؛ بينما رفض القول بالمناسبة بين السور والكشف عن السبب في ذلك هو ما سأفصل فيه خلال بيان الصلة بين ترتيب السور وعلم المناسبات الذي هو موضوع الفرع الموالي.

---

[1] _ التحرير والتنوير، ج1، ص8.

[2] _ ينظر تفصيل الحديث في موقف المفسر من علم المناسبات: المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير من خلال سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران، أحمد مذكور، ص72/ المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير من خلال سورتي الأنفال والتوبة، ندين بنت مصطفى، ص57.

[3] _ التحرير والتنوير، ج1، ص79.

الفرع الثالث: صلة علم المناسبات بترتيب سور القرآن الكريم.

يدور معنى المناسبة في الاصطلاح العام حول "علل الترتيب...وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب"[1]؛ وعليه فإن هذا الأخير يعد الركن المحوري لإثبات المناسبات في القرآن الكريم، وذلك أنّ الاختيار العلمي في المسألة: هل ترتيب السور توقيفي أو اجتهادي مما يترتب عليه أثره في القول بها.

أقول: ارتكز القائلون بالمناسبات بين سور القرآن الكريم وفق ترتيب المصحف على القول بالتوقيف في ترتيب السور فهو أساس إثبات التناسب بينها؛ يقول الزركشي مؤكدا ذلك: "قال بعض مشايخنا المحققين: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف...والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة...ففي ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له. قلت: وهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي وهذا الراجح...وإذا اعتبرت افتتاح كل سوره وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى"[2].

بل إن البحث عن الحكمة من هذا الترتيب كانت المحرك الرئيس في البحث عن المناسبات، فقد بلغنا أن الإمام أبو بكر النيسابوي[3] "كان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه الآية لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة ملاصقة للأخرى؟ وكان يلقي باللائمة على علماء

---

[1] _ نظم الدرر، ج1، ص5. ينظر: علم المناسبات في السور والآيات، محمد بازمول، ص27.

[2] _ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص37- 38. وقد كان القول بالتوقيف هو ديدن المعاصرين أيضا ممن ساهم في التنظير لعلم المناسبات، يقول مصطفى مسلم: "إن القول بوجود المناسبات بين السور يعتمد على القول بأن ترتيب السور في المصحف توقيفي لا اجتهادي"، أما عمر بازمول فقد افتتح دراسته بمدخل، عنون له بترتيب سور القرآن وآياته توقيفي، ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص78/ علم المناسبات في السور والآيات، ص11/ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص70. (مقال)

[3] _ هو: أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري، الفقيه العالم على مذهب الشافعي، من مؤلفاته: كتاب الأشراف والمبسوط عني فيهما باختلاف العلماء ونقل مذاهبهم، توفي سنة: 309هـ. ينظر: الفهرست، ابن النديم، ص302/ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج4، ص207.

بغداد لإهمالهم علم المناسبات"[1].

أي أن مخالفة الترتيب المصحفي للترتيب النزولي كان لحكمة، اجتهدوا في الكشف عنها من خلال بيان أوجه التناسب بين الآيات والسور، يقول عبد الله دراز: "إن كانت بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع؛ كمثل بنيان كان قائمًا على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضًا فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصًا يشد بعضه بعضًا كهيئته أول مرة"[2].

ويقول نور الدين عتر: "لو لم يكن هناك حكمة في العدول عن ترتيب القرآن حسب النزول لرتب حسب النزول الذي يستند إليه، فلما علمنا يقينا أنه نزل بعلم الله ورتب بوحيه علمنا أن له تعالى حكمة في ترتيب كتابه، ومن ذلك مراعاة تناسبه وإحكام نظامه"[3].

وعليه فإن القول بالمناسبات بين السور ارتكز على القول بالتوقيف في ترتيبها، وفي مقابل ذلك نجد أن القول بالاجتهاد هو الذي حال دون طلبها بين السور عند عدد من المؤيدين لها؛ أمثال محمد الطاهر بن عاشور الذي سبق التفصيل في موقفه من علم المناسبات وظهر أن القول بالتوقيف بين الآي كان عمدته في القول بالتناسب بينها، أما ترتيب السور فاختار فيه القول بالاجتهاد، يقول: "لا شك أن طوائف من سور القرآن كانت مرتبة في زمن النبي ﷺ على ترتيبها في المصحف الذي بأيدينا اليوم...فلا شك في أن سور المفصل كانت هي آخر القرآن ولذلك كانت سنة قراءة السورة في الصلوات المفروضة أن يكون في بعض الصلوات من طوال المفصل وفي بعضها من وسط المفصل وفي بعضها من قصار المفصل، وأن طائفة السور الطولى الأوائل في المصحف كانت مرتبة في زمن النبي ﷺ أول القرآن، والاحتمال فيما عدا ذلك"[4].

ومن خلال هذا النقل يتضح أن موقفه من ترتيب السور هو الذي يفسر إحجامه عن القول بالمناسبة بينها والدعوة إلى البحث فيها؛ وإلى هذا ذهب محمد هادي معرفة أيضا، يقول: "الثابت من ضرورة الربط والتناسب المعنوي هو ما بين آيات نزلن معا، أو القائم على أكتاف السورة، وهي الوحدة الموضوعية الجامعة بين أهدافها ومقاصدها...أما التناسب بين السور بعضها مع بعض -حسب ترتيبها

---

[1] _ البرهان في علوم القرآن، الزركشي، مج1، ص36.

[2] _ النبأ العظيم، ص187- 188.

[3] _ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم، ص77(مقال). ينظر: مدخل إلى علوم القرآن الكريم، محمد فاروق النبهان، ص141.

[4] _ التحرير والتنوير، ج1، ص86- 87.

الراهن في المصحف الشريف- فلا ضرورة تدعو إليه، وإن تكلفه أناس. إذ هذا النظم السوري القائم شيء صنعه أصحاب الجمع بعد وفاة الرسول ﷺ وليس مستندا إلى وحي السماء"[1].

وقد أكد سعيد بوعصاب على قضية الاختلاف في ترتيب السور خلال حديثه عن قلة التأليف في المناسبات بين السور في مقابل التأليف في المناسبات بين الآيات قائلا: "ومرجع القلة في هذا النوع من المناسبات يرجع...إلى قضية اختلافهم في الترتيب بين السور، إضافة إلى إيمان بعضهم بعدم جدوى البحث في هذا النوع من المناسبات"[2].

وبعد هذا العرض قد يتساءل القارئ إذا ما يمكن تعميم ما قيل من قبل، بمعنى هل كل من قال بالتوقيف في ترتيب السور وكان من المؤيدين لعلم المناسبة رأى بضرورة البحث فيها بين السور؟ وهل كل من قال بالاجتهاد في الترتيب بين السور من القائلين بالمناسبات لا يرى ضرورة البحث فيها؟ أم أن هناك من خالف هذا فقال بالاجتهاد وتتبع المناسبات بين السور؟ وإذا كانت الإجابة بنعم فما هي الطريقة التي سلكها في عرضها؟

وفي الإجابة عن الاستفسار الأول أقول أنه لا يمكن التعميم، إذ هناك من قال بالتوقيف في ترتيب السور وكان من المؤيدين لعلم المناسبات لكنّه لم ير ضرورة بحثها بين السور.

يقول صبحي الصالح: "والحق الذي ينبغي التنقيب عنه والاستيثاق من نتائجه، هو بالمقام الأول وجه المناسبة بين الآيات...أما التماس الترابط بين السور -على ما فيه من تعسف وتكلف- فهو مبني على أن ترتيب السور توقيفي- ولهذا انتصرنا وعليه عولنا- إلا أن ترتيب السور التوقيفي لا يستلزم حتما أن يكون بين كل سورة سابقة وكل سورة لاحقة أواصر قربى...وما نظن احتفال المفسرين قليلا بهذا النوع لدقته وحسب، بل لقلة جدواه وكثرة التكلف فيه، فإنهم يقطعون أنفاسهم من شدة اللهاث وهم يلتمسون بين سورتين لفظين يتشابهان، أو آيتين تتناظران، حيثما كان موضوعهما من السورتين في البداية أو الوسط أو الختام"[3].

وعليه فإنه ليس كل من قال بالتوقيف في ترتيب السور وكان من المؤيدين لعلم المناسبات قال بضرورة بحثها بين السور، أما الحديث عن إمكانية القول بالاجتهاد في ترتيب السور والبحث في الوقت نفسه عن التناسب في ترتيبها أي الإجابة عن الاستفسار الثاني، فهو موضوع البحث في المطلب الموالي بحول الله.

---

(1) _ التمهيد في علوم القرآن، ج5، ص254.

(2) _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، ص90.

(3) _ مباحث في علوم القرآن، ص151- ص156.

المطلب الثاني: المناسبات بين السور وفق ترتيب نزولها في تفسير (معارج التفكر) -عرض ونقد-.

اختار مفسرنا وهو يتدبر سور القرآن الكريم السير وفق الترتيب النزولي لها، ولاشك أن هذا أثر في تفسيره، وبُنيت عليه العديد من القضايا المحورية في تدبره، ولعل من أهمها وألصقها بالترتيب هو علم المناسبات بين السور الذي يعد الترتيب المصحفي الأساس الذي بُني عليه؛ لذا فإن من بين أهم الانتقادات التي حُف بها التفسير وفق ترتيب النزول أنه يُلغي جهود العلماء في باب المناسبات، ويضيّع الكثير من اللطائف والنكت التي اجتهد علماء أفذاذ في إثباتها.

فيأتي هذا المطلب ليظهر حقيقة هذا الانتقاد وحدود القول به، وقد قُسّم إلى ثلاثة فروع؛ أبان الأول منها عن موقف المفسر من علم المناسبات، والثاني تضمن الحديث عن اعتماد المفسر ترتيب النزول في بيان المناسبات بين السور، أما الثالث فركزت فيه على إظهار عناصر التجديد عند المفسر في دراسته لعلم المناسبات.

الفرع الأول: عناية المفسر بعلم المناسبات.

طُرِق باب المناسبات القرآنية من قبل عدد من كبار العلماء قديما وحديثا، غاصوا في المعاني وبحثوا عن أوجه الارتباط بينها ونظروا في الترتيب ليستخرجوا أوجه التناسب بينه.

وفي هذا الفرع حديث عن عناية أحد المفسرين المعاصرين وهو عبد الرحمن حبنكة الميداني بذلك، من خلال مسألتين اثنتين:

المسألة الأولى: موقف المفسر من علم المناسبات.

أفصح المفسر في كتابه (قواعد التدبر الأمثل) الذي رسم فيه خطى منهجه في تدبر كتاب الله ﷻ عن موقفه من المناسبات القرآنية، بل ظهر فيه ولَعُهُ به وإدراكه لأهميته والحث عليه، فكان موضوعه هو مضمون فاتحة القواعد الأربعين التي ذكرها[1]، وأترك القارئ يستمع إلى بعض ما قاله بيانا لأهميته وفضله في تدبر القرآن الكريم:

---

[1] _ فقد جاءت القاعدة الأولى تحت عنوان: "حول ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد". قواعد التدبر، ص13.

قال –رحمه الله–: "وعلى المتدبر أن يبحث ويتأمل حتى يكتشف المناسبة، أو الغرض التعليمي أو التربوي ضمن المنهج التعليمي القرآني العام"[1].

ويؤكد ذلك مرة أخرى، فيقول: "وعلى المتدبر العميق التفكير أن يكتشف ويحلل ويبرز عناصر الترابط، ويضع أسهم التناسق والترابط بين هذه النفائس الموزعة أبدع توزيع"[2].

وانتصارا منه لعلم المناسبات حذّر من إهماله قائلا: "وإهمال تدبر هذا الأمر العظيم، وعدم وضعه موضع العناية التامة والملاحظة المستمرة، يفوّت على المتدبر لكلام الله خيرا كثيرا، ومعاني جمة ويخفى عنه وجوه إعجاز جليلة، وقد يجنح به عن فهم المراد من الجملة أو الآية التي يتدبرها...فمن قواعد التدبر الأمثل تدبر هذه الارتباطات المختلفة، سواء أظهر فيها الرابط لفظا أو لم يظهر"[3].

وقد سار في هذا المعنى على خطى من سبقه، يقول الزركشي: "وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو الكثير منهم وفوائده غزيرة"[4].

وعليه فإن المفسر من المؤيدين لعلم المناسبات بين السور والآيات، وقد اتضح موقفه من خلال ما سبق من أقوال وغيرها فقد نقلت أهمها وإلا فإن كلامه من أوله إلى آخره ضمن القاعدة الأولى يتضمن بيانا لمكانة هذا العلم وضرورة ملاحظته خلال تدبر آيات وسور الذكر الحكيم، فهو وجه من وجوه الإعجاز كما قال[5]؛ ويكفي أنه صرح نصا بأنها من قواعد التدبر الأمثل عنده، وأنه حاول أن يلتزم هذه القاعدة في بحوثه ما تيسر له ذلك إذ التزامها يقدم نفعا عظيما ومفاهيم جليلة، يقول: "إن التزام هذه القاعدة من قواعد التدبر لكتاب الله، يقدم للمتدبر نفعا عظيما، ومفاهيم جليلة. وفي بحوث مختلفة في العقيدة والأخلاق والعبادات...حاولت ما تيسر لي الالتزام بهذه القاعدة، فمن أراد أن ينظر في هذه البحوث ليأخذ منها أمثلة تطبيقية، فسيجد فيها أمثلة كافية لاكتساب القناعة، حتى يتخذ هذه القاعدة منهجا في بحوثه القرآنية"[6].

---

(1) _ قواعد التدبر، ص14.

(2) _ قواعد التدبر، ص15.

(3) _ قواعد التدبر، ص15.

(4) _ البرهان في علوم القرآن، مج1، ص36.

(5) _ وهو كذلك عند العلماء المؤيدين لعلم المناسبات، يقول أبو بكر الباقلاني في الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن: "أنه بديع النظم عجيب التأليف، منتهاه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه". ويقول السيوطي: "الوجه الرابع من وجوه إعجازه: مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني". ينظر: إعجاز القرآن، ص69/ معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج1، ص43.

(6) _ قواعد التدبر، ص17.

وقد أشار –رحمه الله– إلى هذه البحوث ولم يذكر تفسيره التدبري لأنه كتبه بعد كتابة القواعد الأربعين؛ لذا أستدرك على قوله هذا فأضيف تفسير (معارج التفكر) الذي كان أفضل تطبيق عملي لهذه القاعدة، فأمثلة اعتماده لها جاءت مبثوثة في ثنايا تدبره بكثرة، تنبأ عن عظم المجهود الذي بذله في استخراجها، ولذلك أُحصي ضمن المهتمين بهذا العلم وكان إحدى حلقات سلسلة الأكثر عناية به، حيث ختم به عادل أبو العلاء حديثه عن تاريخ علم المناسبة سلسلة المهتمين بالمناسبات بين الآي قائلا: "وثمة جهد آخر في هذا المجال لما يكتمل صدوره بعد، وهو ذلك التفسير الذي يتابع إصداره الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (من علماء دمشق الكبار)، الذي يسير فيه على وفق ترتيب نزول السور...والشيخ الميداني في تفسيره هذا طويل النفس..يسلك في شعاب المعاني طرقا شتى، ولكنه في النهاية يرجع إلى تلخيص موضوع السورة الأساس، ومحورها الرئيس، فيما سماه (شجرة موضوع السورة)"[1].

وإذا أردنا التفصيل في موقف المفسر المؤيّد لعلم المناسبات، فإن الحديث فيه يتضمن شقين:

الأول: موقف المفسر من المناسبات بين الآيات داخل السورة الواحدة، وهذه وافق فيها العلماء المؤيدين لعلم المناسبات نظرا لموافقتهم في أصل القول به والأساس الذي بُني عليه وهو القول بالتوقيف في ترتيب الآيات، وعدم مخالفة ترتيبها داخل السورة الواحدة في تفسيره التدبري.

الثاني: موقف المفسر من المناسبات بين السور.

اتضح مما سبق بيانه أن العلماء القائلون بعلم المناسبات بين السور كان مستندهم هو القول بالتوقيف في الترتيب المصحفي، إذ من قال بالاجتهاد وإن أيّد المناسبات بين الآيات لم ير ضرورة طلبها بين السور؛ لكن قد يتساءل المطلع على ما سبق بيانه حول موقف مفسرنا من ترتيب السور في المصحف الشريف وعلى موقفه من علم المناسبات عن مسألة غاية في الأهمية، وهي كيف أنه –رحمه الله– رغم قوله بالاجتهاد[2] في ترتيب السور فهو من المؤيدين لعلم المناسبات؟!

والجواب على ذلك: أن القول بالاجتهاد الذي استند عليه العلماء في عدم قولهم بالمناسبات بين السور، كان هو المنفذ الذي ولج من خلاله مفسرنا إلى التفسير وفق ترتيب النزول أولا ثم البحث في المناسبات وفق هذا الترتيب بعد ذلك، وعليه فإن تتبع المناسبات بين السور عند المفسر هي إحدى ثمار

---

[1] _ مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن وسوره، عادل أبو العلاء، ص53- 54.

[2] _ وقد سبق بيان موقفه وأذكّر بما نص عليه بقوله: "وقد ألح علي ناشر كتبي...بأن أبدأ بنشر ما ينجزه الله لي من مجلدات في هذا التدبر، الذي ترجح لدي فيه أن أتابع تدبر السور على ما ذكره العلماء بعلوم القرآن، من ترتيب نزولها، لا على وفق ترتيبها الاجتهادي في المصاحف". معارج التفكر، مج1، ص6.

اختياره للتفسير وفق الترتيب النزولي، بل أهمها إذ بها ظهرت المخالفة لمنهج العلماء في تفسير القرآن الكريم جليا.

وما قلته هنا حول موقف مفسرنا يؤكده ما ذهب إليه أحد المعاصرين الذين تبنوا ترتيب النزول في دراسة علم المناسبات[1] ، يقول مبيننا سبب ذلك: "فعدم القطع بكون ترتيب السور توقيفيا، هو الذي جعلني أتتبع المناسبة بين السور حسب ترتيب النزول، وأستخرج منها لطائفا ونكتا، هي أبلغ دلالة على الوحدة الموضوعية للقرآن، والمنهجي الدعوي والتربوي، من ذكر المناسبة بين السور حسب ترتيب المصحف"[2].

ثم يجيب عن جدوى اعتماده قائلا: "فإن قال قائل: وما الجدوى من تتبع السور حسب ترتيب نزولها، وذكر المناسبة بينها، أفغاب هذا عن سلف هذه الأمة، وعن أعلام التفسير من كبار الأئمة؟!

فالجواب: إن خزائن الحكم القرآنية، وهبات الفيوض الربانية، لم يدع أحد من العلماء أن زمنها قد انقضى، أو أن كل علم من كتاب الله قد أغلق بابه وانتهى. بل لا زال كل عصر من العصور إلا ويفتح الله على من يشاء من عباده لتجديد الدين، وابتكار أسلوب يوافق عقول معاصريه من المسلمين...لذا، كان كل من تدبر وتأمل تناسب السور حسب ترتيب النزول، إلا وسيلاحظ أنها تلتقط لنا مراحل عدة من سيرة الرسول ﷺ...وأيضا بهذا التتبع للمناسبة...يمكننا اقتفاء المنهج الرباني في الدعوة إليه"[3].

وهذه إجابة شافية كافية عن سبب اختياره والتي يمكن أن نسقطها على مفسرنا أيضا، وذلك أنه وافقه في القول بالاجتهاد بين السور، كما التقى معه في بعض الأهداف التي خطها لتفسيره.

المسألة الثانية: منهج المفسر في إيراد المناسبات.

اهتم مفسرنا بذكر المناسبات في تفسيره اهتماما بالغا، وكانت له عبارات صريحة بيانا لها ومن تلك العبارات التي استخدمها قوله: (وتفكرت في المناسبة، المناسبة الفكرية، سورة ...تتمة لسورة...، ارتباط هذا الدرس بموضوع السورة، صلة هذا الدرس، متابعة لخط الحديث...) وغيرها[4].

---

(1) _ تواصلت مع الأستاذ محمد رفيق شخصيا، وسألته عن سبب عدوله عن منهج السلف وإتباع ترتيب النزول، فأرسل لي الإجابة موثقة في مقدمة كتابه "حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول".

(2) _ حصول المأمول، محمد رفيق، ص22.

(3) _ المرجع نفسه، ص6- 7.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص186- ص583/ مج2، ص355/ مج4، ص685/ مج8، ص330- ص341/ مج11، ص577/ مج13، ص725.

وهذه العبارات خير دليل على عناية المفسر بها والتصريح باعتمادها، وهنا أردت التنبيه إلى ما جاء في إحدى الرسائل التي اختصت بدراسة المناسبات عند المفسر، حيث أكدت صاحبتها على أن المفسر لم يصرح بلفظ المناسبة، تقول: "أكثر ابن حبنكة الميداني من استخدام المناسبة في التفسير ولكنه لم يصرح بلفظ المناسبة في التفسير"[1].

والجواب على ذلك أن المفسر صحيح كانت له إشارات للموضوع دون تصريح مباشر وهو نفسه وضّح ذلك، يقول في ختام تدبره للدرس الرابع من دروس سورة (الإسراء): "وقد سبق بيان صلة هذا الدرس بما قبله، بخطوط فكرية غير معبّر عنها بالألفاظ"[2]. ومع ذلك فقد صرّح أيضا، ولا أدري كيف غابت عنها تلك العبارات التي ذكرت سابقا، بل تعجبت من قولها لما وقفت على ما عنون له المفسر في تدبره بقوله: "المناسبة التي استدعت كل نص في السورة التي هو منها"[3].

وربما سبب عدولها عن الصواب يرجع إلى ضعف الاستقراء الشامل للكتاب وعدم الاطلاع على المقدمة الأولى من (قواعد التدبر الأمثل) أو إلى الاعتماد على ما قيل فيه دون تحر في الموضوع[4].

وهذا بالنسبة لطريقة المفسر في التعبير عن المناسبات، أما بالنسبة لطريقة عرضها في تدبره فقد اهتم بقسميها كما سبق وأن أشرت، وإليك التنبيه إليهما باختصار:

أ. المناسبات في السورة الواحدة: عُني المفسر بإظهار أنواع المناسبات التي تدرج في هذا القسم عناية خاصة، و إن كان لم يظهر عليه أثر الترتيب النزولي بين السور لأنه يبحث المناسبات داخل السورة الواحدة، لذا استغنيت عن التمثيل له بالإحالة على عدد من المواطن من تفسيره التدبري طلبا للاختصار[5].

---

(1) _ المناسبات عند عبد الرحمن حبكة الميداني، آلاء إسماعيل، ص47.

(2) _ معارج التفكر، مج9، ص572.

(3) _ معارج التفكر، مج5، ص357.

(4) _ فقد وقعت هي وغيرها من الباحثين تحت تأثير ما كتبه نادي صبرا حول منهج المفسر في عرض المناسبات، ونقلوا عنه دون تحر بل أحيانا دون توثيق وإن نقلوا ما قاله بنصه. ينظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، نادي صبرا، ص144/ جهود الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في الدراسات القرآنية، محمد محسن، ص253/ المناسبات عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، آلاء إسماعيل، ص44.

(5) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص38/ مج2، ص104/ مج5، ص41/ مج6، ص20/ مج8، ص332/ مج9، ص743/ مج11، ص138/ مج15، ص241. وقد كان للمفسر في إظهار المناسبات داخل السورة الواحدة جهود مشكورة واجتهادات بارزة، فأسأل الله أن يسخر لدراسة "المناسبات داخل السورة الواحدة عند عبد الرحمن حبنكة الميداني" طلاب مجدين، يتناولونه ضمن رسائلهم.

ب: المناسبات بين السور: وفي هذا القسم يظهر أثر اعتماد الترتيب النزولي في التفسير جليا، فالعلماء في حديثهم عنه اعتمدوا الترتيب المصحفي وقد أفرد بالتصنيف من قبل عدد منهم[1]، حيث أظهروا بجلاء الروابط التي تجمع السور فيما بينها وبذلوا في ذلك جهودا كبيرة، رأى المخالفين للتفسير وفق ترتيب النزول أن اعتماده فيه تضييع وإهدار لها.

يقول مصطفى مسلم وعبد الله الخطيب: "إن علم المناسبات يعتمد على ترتيب الآيات في السورة الواحدة، وترتيب السور بين بعضها حسب ترتيب المصحف...ولا يتحقق الإعجاز البياني للقرآن الكريم إلا بهذا الترتيب، ولقد توجه بعض المعاصرين إلى تفسير القرآن على ترتيب النزول إلا أن ذلك عندنا ليس بصائب لأمور عديدة منها: ...أن كثيرا من علماء التفسير أثبتوا المناسبة بين السور ومن هذه المناسبات المناسبة بين خاتمة السورة وافتتاحية ما بعدها...وهذه أمارة قوية ترجح الرأي الذي يقول بأن الترتيب الحالي توقيفي. ويعد هذا اللون من التناسب وجها من وجوه الإعجاز..."[2].

ويقول فريد مصطفى معلقا على ما بادر به محمد عزة دروزة: "لقد تنبه كثير من علماء الإسلام سابقا ولاحقا لأسرار ترتيب سور القرآن الكريم، والمناسبات فيما بينها واعتبر ذلك من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، ودلالة على أنه تنزيل من رب العالمين...والأستاذ دروزة في عمله هذا طمس جانبا مشرقا من جوانب فهم كتاب الله تعالى وإعجازه ولم يحقق مبتغاه في استشعار صور التنزيل..."[3].

ومن المخاطر والمحاذير التي ذكرها سليمان الدقور لاعتماد المنهج، أن "فيه تجاوز لكثير من الجوانب الأساسية في فهم القرآن وبيان تناسباته، والكشف عن أسرار إعجاز نظمه، بل تعد عليها"[4].

وانطلاقا من هذه الأقوال وغيرها تتأكد أهمية ما تبقى من فروع هذا المبحث، سعيا لإظهار حقيقة إغفال مفسرنا لجهود العلماء في علم المناسبات.

---

[1] _ وفي مقدمتهم ابن الزبير الغرناطي في "البرهان في تناسب سور القرآن"، وبرهان الدين البقاعي في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وكذا السيوطي في "تناسق الدرر في تناسب السور"، ومن المعاصرين عبد الله بن الصديق الغماري في "جواهر البيان في تناسب سور القرآن"، وغيرهم.

[2] _ المناسبات وأثرها في تفسير القرآن، عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم، ص5. (مقال)

[3] _ محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، فريد مصطفى سليمان، ص126.

[4] _ منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، ص14. (مقال)

الفرع الثاني: اعتماد المفسر ترتيب النزول في بيان المناسبات بين السور.

يتوقف بحث المناسبات بين السور على الترتيب المعتمد في الحديث عنها واستخراجها، ولاشك أن اعتماد الترتيب النزولي بديلا عن الترتيب المصحفي يؤثر في الأنواع التي تدخل ضمن هذا القسم.

لذا جمعت في هذا الفرع أهم تلك الأنواع في تفسير (معارج التفكر)، مع التمثيل لها بيانا لعناية المفسر بها وإثباتا لوقوعها على ترتيب النزول:

1- إثبات المفسر المناسبة بين مقصد وموضوع السورتين المتجاورتين في النزول:

إن المدقق في عناية المفسر ببيان المناسبة بين السورتين المتجاورتين في النزول يلحظ أنه كان هدفه الأسمى في ذلك هو بيان المناسبة بين مقصد السورتين وموضوعهما.

فتأمل مثلا لما جاء إلى سورة (ق)، قال: "يدور موضوع سورة (ق) حول متابعة الموضوع الذي دارت حوله (المرسلات/ 77 مصحف/ 33 نزول) التي نزلت قبل (ق) مباشرة.

وهو موضوع معالجة المكذبين بيوم الدين، وتضيف إليه تكذيبهم بالرسول ﷺ، بحجة أنه بشر منهم، زاعمين أن إرسال رسول من البشر إلى البشر أمر مستبعد...والمعالجة الفكرية والنفسية، للإقناع الفكري، واستثارة محوري الرَّهب والرَّغب النفسيين التي اشتملت عليها سورة (ق) معالجة تكميلية لما جاء في سورة (المرسلات) والسور قبلها في نجوم التنزيل، وليست مكررة تكريرا تطابقيا..."[1].

وهذا الذي توصل إليه المفسر باعتماده ترتيب النزول لم يبتعد فيه عما توصل إليه غيره ممن بحث المناسبة حسب ترتيب المصحف، يقول البقاعي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾[ق: 2]: "ولما كان المقام لتخويف من قدم بين يدي رسول الله ﷺ أو منّ عليه بالإسلام...أو لتخويف من أنكر البعث، اقتصر على النذارة فقال: ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾...وعجب منهم هذا العجب بقوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾ لأن العادة عندهم وعند جميع الناس أنه إذا كان النذير منهم لم يداخلهم في إنذاره شك...وهؤلاء خالفوا عادة الناس...لأنهم عجبوا أن كان الرسول بشراً وأوجبوا أن يكون الإله حجراً، وعجبوا من أن يعادوا من تراب...ولذلك سبب عنه قوله: ﴿فَقَالَ﴾ أي بسبب إنذاره بالبعث

---

[1] _ معارج التفكر، مج3، ص11. ينظر: مج3، ص172.

وعقبه ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فأظهر في موضع الإنذار إيذاناً بأنهم لم يخف عليهم شيء من أمره...وعبّر بما دل على النذارة لأنها المقصود الأعظم من هذه السورة، وجميع سياق الحجرات ظاهر فيها"[1].

يظهر من خلال هذا النقل بيان المفسر للمقصد الأعظم من السورة وهو النذارة الذي هو امتداد لسورة (الحجرات) السابقة لها في ترتيب المصحف، وهذا الذي ذكره هو نوع من أنواع المعالجات للمكذبين بيوم الدين التي نبه إليها مفسرنا والذي تابعت فيه السورة ما سبقها في ترتيب النزول، وعليه فإنه وإن خالفه في الترتيب إلا أنه التقى معه في بيان موضوع السورة ومناسبتها لما قبلها، وهذا مظهر من مظاهر التكامل بين موضوعات سور القرآن الكريم.

وأنظر كذلك لما جاء إلى سورة (فاطر) التي سُبِقت بسورة (الفرقان) حسب ترتيب النزول، بينما سبقت بسورة (سبأ) في ترتيب المصحف، يقول: "إن سورة (فاطر) سورة منفصلة، إلا أنها في البيانات التي اشتملت عليها بمثابة سورة ملحقة بسورة (الفرقان) وتابعة لها، ومضيفة تفصيلات تتعلق بعناصر موضوعها...وقد اقتضت الحكمة البيانية الربانية إتباع سورة (فاطر) لسورة (الفرقان) في التنزيل، وجعل آياتها تتوزع على الفروع نفسها التي توزعت عليها آيات سورة (الفرقان) استقصاء لكل ما يحسن تفصيله، ومحاصرة لنفوس المتلقين المبلغين من كل جوانبها الفكرية، والعاطفية، والوجدانية، بغية قطع أعذار المعرضين، والمدبرين، الذين يمكن أن يتذرعوا بباطلات المعاذير، لدى الحساب وفصل القضاء يوم الدين، أو لدى مناظرة المؤمنين الدعاة إلى الله لهم في الدنيا"[2].

وموضوع سورة (الفرقان): "يدور حول كليات كبرى من عناصر القاعدة الإيمانية تتعلق بالله الرب الخالق ﷻ، والقرآن المنزه المنزل من لدنه، وبالرسول المبلغ له ثم الدعاة من بعده، وبالمرسل إليهم إبان التنزيل ويلحق بهم من بعدهم"[3]، كما جاء على لسانه.

وعليه فإن موضوع سورة (فاطر) هو امتداد لسورة (الفرقان) على قول المفسر، وإذا رجعنا إلى من قال بالمناسبات على ترتيب المصحف ونظرنا في مقصد السورتين نجد أنهم وإن لم ينبهوا صراحة على ما يجمع بينهما إذ لم يعنوا بترتيب النزول إلا أن في حديثهم شيء من ذلك:

يقول البقاعي عن سورة (الفرقان): "ومقصودها إنذار عامة المكلفين بما له سبحانه من القدرة

---

[1] _ نظم الدرر، ج7، ص247.

[2] _ معارج التفكر، مج7، ص14 وما بعدها.

[3] _ معارج التفكر، مج6، ص305.

الشاملة، المستلزم للعلم التام، المدلول عليه بهذا القرآن المبين، المستلزم لأنه لا موجد على الحقيقة سواه، فهو الحق، وما سواه باطل"[1].

وفي سورة (فاطر) يذهب إلى قريب من ذلك، يقول: " فمقصودها إثبات القدرة الكاملة لله تعالى اللازم منها تمام القدرة على البعث"[2].

ومن خلال هذا النقل وما سبق بيانه يتضح أن مفسرنا في قوله بالمناسبات بين السور حسب ترتيب النزول لم يأت ببدع من القول أو جاء بالغريب الذي خالف به من سبقه في القول بالمناسبة أو خالف به أصول الدين ومقاصد الشريعة، بل هي اجتهادات يقترب فيها مما قاله من سبقه أحيانا ويبتعد فيها أحيانا أخرى[3].

2- إظهار المفسر لأوجه التناسب بين آي السور المتتالية في النزول:

حيث ظهر حرصه على استخراج الرابط بين آيات السور المتجاورة في النزول جليا، فأنظر مثلا لما جاء إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ﴾[الماعون: 5] قال: "يمكن ربط بيان سهوهم في هذه السورة، بقول الله ﷻ في سورة (التكاثر) السابقة لها في النزول خطابا لهم: ﴿ أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر: 1-2] أي: حب الدنيا ورغبة التكاثر منها، قد ألهاكم طوال حياتكم، فغفلتم وسهوتم عما تقتضيه منكم صلاتكم التي ورثتم آداءها عن دين صحيح، جاء به إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام"[4].

وهذه المناسبة التي توصل إليها بين آيتي السورتين مما انفرد به، إذ لم أقف عليها عند غيره وهذا راجع إلى مخالفته لأكثر المفسرين في معنى الآية علاوة على مخالفتهم في الترتيب[5]، فأنظر لما جاء إلى تدبره للآية سورة (الماعون) قال: "أي: عما تقتضيه منهم صلاتهم غافلون تتركون، وهو الإيمان

---

(1) _ نظم الدرر، ج5، ص291.

(2) _ المرجع نفسه، ج6، ص199.

(3) _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص516/ مج2، ص462/ مج3، ص11.

(4) _ معارج التفكر، مج1، ص695.

(5) _ وقد سبقت في ترتيب المصحف بسورة (قريش)، واجتهد عدد من المفسرين في بيان مناسبة هذه الآية للسورة التي قبلها، قال الألوسي: "ولما قال تعالى هناك: ﴿ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ﴾[قريش: 3] ذم سبحانه هنا من سها عن صلاته"، ونقلها عنه المراغي بنصها. ينظر: روح المعاني، ج15، ص474/ تفسير المراغي، ج30، ص247.

الصحيح، والأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله"[1].

أما المراد بالآية عند أكثر المفسرين فهو الغفلة عن الصلاة في حد ذاتها وإن اختلفت عباراتهم بيانا لذلك، فإما أن تؤخر "عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي"[2] كما قال ابن كثير.

3– تأكيد المفسر على المناسبة بين مجموعة من السور المتتالية في النزول، وخير مثال على ذلك صنيعه في الحواميم[3] التي يقول فيها: "ظهر لي أن "الحواميم السبع" ذات خط رئيس واحد، هو خط الحديث عن القرآن وموقف الكافرين منه إبان التنزيل.

وهي تدور حول معالجة مشركي مكة إبان تنزيلها، تجاه مواقفهم الكفرية من كثير من قضايا الدين الكبرى ومفهوماته، وهذه المواقف منه ما جاء علاجهم بشأنه تكامليا في السور، ومنها ما انفردت به بعض السور منها، وتكاد تكون "الحواميم السبع" عائلة واحدة مفصلة إلى سبع سور، ذوات ملامح وقسمات متشابهات، تدل على أنها شريفات أسرة واحدة"[4].

وهذه الحواميم السبع وافق ترتيبها في المصحف ترتيبها في النزول، قال السيوطي: "وروينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور: أن الحواميم نزلت عقب الزمر، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف: المؤمن، ثم السجدة، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف ولم يتخللها نزول غيرها وتلك مناسبة جلية واضحة في وضعها هكذا"[5].

وقال ابن عاشور: "والسور المفتتحة بكلمة حم سبع سور مرتبة في المصحف على ترتيبها في النزول"[6].

---

(1) _ معارج التفكر، مج1، ص695.

(2) _ تفسير القرآن العظيم، ج8، ص493. ينظر: التحرير والتنوير، ج30، ص658/ نظم الدرر، البقاعي، ج8، ص544.

(3) _ وهي: (غافر)، (فصلت)، (الشورى)، (الزخرف)، (الدخان)، (الجاثية)، (الأحقاف).

(4) _ معارج التفكر، مج12، ص689. ينظر: مج12، ص637/ مج13، ص152.

(5) _ أسرار ترتيب سور القرآن، ص130.

(6) _ التحرير والتنوير، ج24، ص76.

وعليه فإن البحث في المناسبات بينها يشترك فيه من بحثها وفق ترتيب المصحف[1] ومن اجتهد في بيانها وفق ترتيب النزول، وربما الجديد الذي طرحه المفسر هو أنه جعلها ذات خط رئيس واحد وهو خط الحديث عن القرآن الكريم وموقف المشركين منه إبان التنزيل، إبرازا منه للوحدة الموضوعية بينها.

ويؤيد هذا ما ذهب إليه ابن كثير بقوله: "كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة"[2].

وقد اجتهد عدد من المعاصرين أيضا في إبراز الوحدة الموضوعية بين هاته السور ولم يبتعدوا عن قول مفسرنا كثيرا، إذ جعلها أحد الباحثين تدور حول "تنزيل القرآن وصفاته"[3].

4- كشف المفسر عن أوجه التناسب بين دروس السور المتجاورة في النزول:

يقول في حديثه عن الدرس الأول من دروس سورة (النمل): "سبق في سورة (الشعراء) النازلة قبل سورة (النمل) عناية خاصة بالحديث عن القرآن لبيان التباين بينه وبين أقوال الكهان...وأقوال الإنس أو الجن، ...وهذا التباين يؤكد بصورة قطعية أنه تنزيل من رب العالمين، وأنه من غير الممكن أن يكون مفترى على الله ﷻ...وقد جاء في هذا الدرس...متابعة الحديث عن القرآن لبيان أنه هدى وبشرى للمؤمنين، ثم جاء في الآية (77) من السورة بيان أنه هدى ورحمة للمؤمنين...وهذه متابعة علاجية واضحة للذين كفروا...مع تثبيت للمؤمنين...ويتضمن هذا التثبيت الحث على متابعة تدبر ما ينزل من القرآن، والإيمان بحقائقه، والعمل بما يهديهم إليه"[4].

وهاتين السورتين متجاورتين في ترتيب المصحف أيضا، وفي المناسبة بينهما يقول ابن الزبير الغرناطي: "لما أوضح في سورة الشعراء عظيم رحمته بالكتاب وبيان ما تضمنه مما فضح به الأعداء أو رحم به الأولياء وبراءته من أن تتسور الشياطين عليه، وباهر آياته الداعية من اهتدى بها إليه، فتميز بعظيم آياته كونه فرقانا قاطعا ونورا ساطعا، أتبع سبحانه ذلك مدحة وثناء، وذكر من شملته رحمته به تخصيصا واعتناء"[5].

---

[1] _ ينظر: مصاعد النظر، البقاعي، ج1، ص149. نظم الدرر، البقاعي، ج3، ص444/ الانسجام النظمي في القرآن: مجموعة الحواميم أنموذجا، عائشة ويلايلاك، ص137. (مقال)

[2] _ تفسير القرآن العظيم، ج1، ص160.

[3] _ سور الحواميم دراسة بلاغية تحليلية، عبد القادر الحمداني، ص18 وما بعدها.

[4] _ معارج التفكر، مج9، ص25.

[5] _ البرهان في تناسب سور القرآن، ص265. ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ج5، ص405.

وقال الألوسي: "ووجه اتصالها بما قبلها أنها كالتتمة لها حيث زاد سبحانه فيها ذكر داود وسليمان وبسط فيها قصة لوط عليه السلام أبسط مما هي قبل...وقد اشتمل كل من السورتين على ذكر القرآن وكونه من الله تعالى وعلى تسليته ﷺ إلى غير ذلك"[1].

وعليه فقد وافق عبد الرحمن حبنكة ما ذهب إليه في المناسبة بين السورتين من سبقه من العلماء في ذلك، وان اختلفت العبارات في بيان كون القرآن الكريم هدى وبشرى للمؤمنين.

5- إثبات المفسر للوحدة الموضوعية للقرآن الكريم حسب ترتيب النزول:

يقول المفسر في ذلك: "على متدبر كتاب الله أن يبحث عن ارتباط المعنى المستفاد من جملة قرآنية بما تفرق في القرآن من معان تجتمع معه في موضوع واحد، وبمعاني الآية التي هي منها، والسورة التي هي فيها...- فالارتباط الأول- وهو ارتباط معنى الجملة القرآنية بما تفرق في القرآن من معان تجتمع معه في موضوع واحد، يتطلب من المتدبر للنص القرآني أن يتتبع ما في القرآن من نصوص ذات دلالات تشترك ولو بوجه من الوجوه مع المعنى الذي يبحث عنه في موضوع واحد، ليكتشف موقع هذا المعنى من جملة الموضوع"[2].

من خلال هذا النقل يتضح أن منطلق المفسر في البحث في المناسبة في القرآن الكريم والأساس الذي ارتكز عليه في تقسيمه لها هو الجملة القرآنية وما تضمنته من معان، من خلال البحث عما يربطها بغيرها خارج السورة التي هي منها، وكذا البحث في ارتباطاتها داخل السورة.

والحديث هنا عن النوع الأول الذي يعنى بإبراز الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم وفق ترتيب النزول، والذي كان للمفسر عناية خاصة به في ثنايا تدبره التحليلي وفي الملاحق التي كان يختم بها تدبره للسورة القرآنية، إذ به تظهر الحكمة التي اشتمل عليها القرآن الكريم، يقول بيانا لذلك: "والحكمة التي اشتمل عليها القرآن تظهر للمتدبرين الباحثين، في دلالات جمله وفقراته...وتظهر أيضا للمتدبرين الباحثين في موضوعاته المنبثة في ثنايا سوره، حين يجمعون نصوص كل موضوع، ويتدبرونها تدبرا تكامليا، فيكتشفون باستخراجها، وجمعها، وتدبرها تدبرا تكامليا، عجائب ودلالات لم يتوصل إلى اكتشافها علماء القرون السابقة، ويكتشفون أنه لا تناقض ولا تضاد بين نصوصه، على الرغم من بثها في مختلف السور، وتنزيلها في أزمان متعددة في نجوم متفرقة، ولو كان من عند غير الله لوجد الباحثون المنقبون فيه

---

[1] _ روح المعاني، ج10، ص151.

[2] _ قواعد التدبر، ص13- 14.

اختلافا كثيرا"[1].

ومن هنا يظهر أن من بين أسمى الأهداف لدراسته للوحدة الموضوعية هو الدفاع عن القرآن الكريم والرد على من ادعى عدم التناسق بين سوره وآياته، والأمثلة على إبراز هذا النوع كثيرة، سأكتفي بإحالة القارئ إلى بعضها إذ لا يسع المقام لذكرها، وتلخيصها قد يذهب بأهم ما جاء فيها.

فأنظر مثلا تفصيل حديثه عن موضوع "توجيه المؤمنين لقطع علائق قلوبهم ونفوسهم بالاعتزاز بغير الله"، الذي يفتتحه بقوله: "جاءت ستة نصوص قرآنية، في ست سور، وهي نصوص مترابطة فيما بينها ترابطا فكريا تاما، مع ارتباط كل نص منها بموضوع السورة التي هو فيها. وفيما يلي بيان هذه النصوص مرتبة بحسب ترتيب نزول سورها..."[2].

وقد استرسل المفسر في ذكر النصوص المكية منها ثم المدنية حسب ترتيب نزولها، مبينا في كل واحد منها وجه اتصاله بالسورة التي هو منها ووجه اتصاله بالموضوع وموقعه منه.

ويدخل في هذا الباب أيضا تلك السور التي توقف عند إحدى الموضوعات المطروحة فيها مستعرضا ما شابه الموضوع في سور سابقة لها في النزول، ومثاله صنيعه في سورة (الأعلى) حيث تابع التوجيه التربوي لذكر الله من أول سورة نزلت حتى نزولها[3]، وكذا ما بيّنه في سورة (الفرقان) من "أطوار مواقف مشركي مكة اتجاه عناصر موضوع السورة منذ بدء البعثة المحمدية حتى نزول السورة"[4]، والذي أظهر من خلاله مناسبة موضوع السورة لسابقاتها في التنزيل مثل سورة (العلق)، و(القلم)، و(المدثر).

وهناك أنواع أخرى ذكرها المفسر وتدخل ضمن المناسبات بين السور تركت التفصيل فيها طلبا للاختصار، إذ الغرض هنا ليس استقصاء كل أنواع المناسبات التي ذكرها بل التمثيل لبعضها بما يُثبت اجتهاده في الكشف عن المناسبات بين السور وفق ترتيب نزولها[5].

وبعد هذا العرض للمناسبات بين السور عند المفسر يمكن تسجيل جملة من الملاحظات، إليك أهمها:

– أن تسليم المفسر بترتيب النزول الذي اعتمده وعدم الاستيثاق منه، ثم بناء القول بالمناسبة عليه يجعل ما قاله في ذلك على قسمين:

---

[1] _ معارج التفكر، مج1، ص28- 29.

[2] _ قواعد التدبر، ص19 وما بعدها.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص437.

[4] _ معارج التفكر، مج6، ص308 وما بعدها. ينظر: مج7، ص265 وما بعدها.

[5] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص220/ مج6، ص11/ مج7، ص580/ مج10، ص602/ مج12، ص317.

الأول: يدخل في جملة اجتهاداته في تدبر آيات الذكر الحكيم، إذ "معرفة المناسبات والربط بين الآيات ليست أمرا توقيفيا، ولكنها تعتمد على اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعنى، منسجمة مع السياق، متفقة مع الأصول اللغوية في علوم العربية، كانت مقبولة لطيفة"[1] وتضاف إلى مزايا تفسيره التدبري؛ إذ المجهود المبذول في تتبع وإظهار أوجه الارتباط بين السور وبين الآيات ضمن وحدة الموضوع واضح، ضف إلى ذلك أن ما قاله في هذا الباب ليس فيه ما يدعوا إلى التحذير منه من مساس بأصول الدين أو طعن في العقيدة.

وهذا القسم يضم المناسبات بين السور التي وافق الترتيب فيما بينها الترتيب المصحفي أو تلك التي ثبت الترتيب النزولي بينها، ويلحق بهذا النوع أيضا ما قاله في المناسبات داخل السورة الواحدة.

أما **الثاني**: فيدخل ضمنه اجتهاداته في الكشف عن أوجه التناسب في السور التي لم يثبت صحة الترتيب بينها، فما قاله فيها يدرج ضمن التكلف الذي ذمه العلماء في القول بالمناسبات عامة، إذ لابد أن يصان كلام الله من هذا[2].

– أن خوض المفسر غمار علم المناسبات، واجتهاده في إبرازها بين السور والآيات بأسلوب شيّق يسير وسهل كما هو دأبه في بيان معاني القرآن الكريم، من محاسن تفسيره التدبري، قال السيوطي: "علم المناسبات علم شريف، قل اعتناء المفسرين به لدقته"[3].

ويقول فضل عباس: "وللمناسبات بين الآيات الكريمات والسور المحكمات أسرار ولطائف يكرم الله بها بفضله ومنته من يشاء من عباده"[4].

فهذا العلم كما قال مصطفى مسلم: "من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى فهم دقيق لمقاصد القرآن الكريم، وتذوق لنظم القرآن الكريم وبيانه المعجز، وإلى معايشه جو التنزيل، وكثيرًا ما تأتي إلى ذهن المفسر على شاكلة إشراقات فكرية أو روحية"[5].

---

[1] _ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص97.

[2] _ وقد اجتهد عدد من الباحثين في جمع شروط وضوابط إثبات المناسبات في القرآن الكريم اعتمادا على ما قاله العلماء. ينظر: علم المناسبات بين السور والآيات، محمد بازمول، ص37/ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص97/ علم المناسبات بين المانعين والمجيزين، إبراهيم بن سليمان، ص 129 وما بعدها. (مقال)

[3] _ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص97. ينظر: جواهر البيان في تناسب سور القرآن، عبد الله الغماري، ص2.

[4] _ إتقان البرهان، ج2، ص817.

[5] _ مباحث في التفسير الموضوعي، ص58. ينظر: المناسبات وأثرها في تفسير القرآن، عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم، ص6.

وقد كانت لمفسرنا جهود مشكورة في هذا الباب والتفاتات طيبة، ولاشك أنه بذل جهدا في التتبع والاستقصاء خاصة في دراساته الموضوعية التي سعى لإظهار ما بينها من تكامل، رغم مخالفته للعلماء في الترتيب الذي اعتمده؛ وهذا لا يعني أننا نعذره أو نقره على ذلك وإنما الحديث هنا عن القسم الأول الذي سبق بيانه.

وعليه فإن حكم طه فارس على التفسير وفق ترتيب النزول أنه "يغيّب عن ذهن المفسر ذلك الترابط بين سور القرآن، لذلك لم نجدهم يهتمون بالمناسبات بين السور"[1]، لا يدخل ضمنه مفسرنا وإن عممه، ومما يؤكد ذلك أنه أشار إلى نماذج من قول مفسرنا ولم يتعقبها ويناقشها كما فعل فيها عند دروزة وملا حويش[2].

– أن حبنكة لم يكن مجرد ناقل لما قيل في المناسبات القرآنية عمن سبقه من العلماء، بل كانت له آراء مستقلة وجهود بارزة فيها، وقد استفاد أيضا ممن سبقه وإن لم يصرح بذلك، ولو كان صرح أحيانا معززا بها ما ذهب إليه لكان أفضل خاصة وقد خالفهم في الأصل واعتمد الترتيب المصحفي.

الفرع الثالث: معالم التجديد وملامح التنزيل على الواقع في توظيف علم المناسبات وفق ترتيب النزول.

يحسن بالباحث بعد بيان المراد من علم المناسبات وموقف العلماء منه عامة وموقف مفسرنا على وجه الخصوص، الإشارة إلى المعالم التي ظهر عليها التجديد في دراسته لهذا العلم من خلال عرضها وإذا تطلب الأمر نقدها تفصيلا للإيجابيات وبيانا للسلبيات، وإليك أهمها:

– اعتماد المفسر الترتيب النزولي للسور بديلا عن الترتيب المصحفي الذي عهده العلماء خلال بحثهم في علم المناسبات: وهذا هو محور التجديد، إذ بُني عليه جل المسائل التي ارتبطت ببحثه في المناسبات بين السور، وهو وإن لم يصرح بهذا فقد وضحه غيره ممن سار على خطاه قائلا: "وأما الجديد في هذا البحث، فهو أني تتبعت المناسبة بين السور حسب ترتيب النزول، فألفيتها غاية في الظهور والمعقول، بلا تنطع أو تكلف، أو تشدّق أو تعسّف، ولا ينكر بيان تلاحمها وجلائها، ورباطها وتناسقها، إلا مكابر معاند، أو مقلد جامد"[3].

---

[1] _ تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول، ص865.

[2] _ ينظر: المرجع نفسه، ص358 وما بعدها.

[3] _ وهو يرى أن موضوع "ذكر المناسبة بين السور بحسب ترتيب نزولها، لم يُسبق إليه". والجواب على ذلك أنه لو قال لم يُفرد بالتأليف فيه لكان أسلم له، إذ الحديث عن الموضوع طرقه عدد من المفسرين لاسيما من فسر منهم حسب ترتيب النزول وخير شاهد على ذلك صنيع مفسرنا. ينظر: حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول، ص5.

ويقول عبد القادر أحمد عطا: "ولقد عرف سر ترتيب القرآن قديما بعلم المناسبات، وما عرف منه فإنما هو ما في ترتيب المصحف، أما أسرار ترتيب النزول فلا نعلم أحدا تعرض له في كتاب، لا في القديم ولا في الحديث"[1].

وقضية الترتيب النزولي المعتمد عند المفسر تزداد أهميتها في هذا المقام، ورغم ذلك لم يلتفت إليها في القاعدة الأولى التي خصصها للحديث عن المناسبات، وفصّل في مسائل أقل أهمية من المسألة المحورية التي بنى عليها تدبره وقوله بالمناسبات بين السور، وهذا ما يجعل ما قاله يُحتكم فيه إلا صحة الترتيب بين السور كما فصلت سابقا.

– تمسّك المفسر وشغفه بالحديث عن المناسبات بين السور وفق ترتيب النزول هو معلم من معالم التجديد في تفسير القرآن الكريم عامة وفي التفسير وفق ترتيب النزول على وجه الخصوص، فقد حرص خلال بيان المناسبات بين السور على "إظهار أهمية ترتيب النزول ودوره في معرفة التكامل فيما هدفت إليه السور المتجاورة في ترتيب النزول"[2].

وعليه فإن دراسة المفسر لعلم المناسبات وفق ترتيب النزول كان إحدى الأدوات التي سعى من خلالها إلى الدفاع عن صحة ما خالف به العلماء، وقد ترك بصمة واضحة في ذلك؛ ورغم هذا يبقى ما قاله اجتهادات لارتقى أن يُعتمد عليها في إثبات صحة ترتيب السور كاملة حسب نزولها، وإنما يستأنس بما قاله في السور التي صح الترتيب النزولي بينها.

– عناية المفسر بإبراز الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم: يعد "الاهتمام بالوحدة والتناسق الموضوعي في سور القرآن، والنظرة الكلية لآياته"[3] من أهم مظاهر التجديد الإصلاحي في التفاسير المعاصرة، وهي تستدعي أن يكون للمفسر "نظرة شاملة للقرآن الكريم، من خلال مدارسته للقرآن وحسن تدبره، واستحضار الآيات المتعلقة بموضوع واحد"[4].

فمفسرنا سُبِق في الحديث عنها من قبل عدد من الباحثين المعاصرين، لكن جديده يكمن في

---

[1] _ أسرار ترتيب سور القرآن، السيوطي، ص39. –مقدمة المحقق–

[2] _ المناسبات عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، آلاء إسماعيل، ص46.

[3] _ التجديد في التفسير في العصر الحديث، دلال بنت كويران، ص99.

[4] _ التجديد في التفسير، أحمد الشرقاوي، ص16.

تتبعها وفق الترتيب النزولي للسور[1]، إذ فيها ظهر أثر هذا الأخير جليا لأن حديثه عنها كان امتدادا لعنايته بالدراسات الموضوعية بشكل عام، يقول أحمد خالد وعمران سميح: "إن علم المناسبة الموضوعية مفتاح للتفسير الموضوعي لأنه يدرس الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة في سياق الوحدة الموضوعية للقرآن كله بحسب ترتيب النزول"[2].

– التأكيد على أن ما توصل إليه في باب المناسبات بين السور هو ثمرة اعتماده لترتيب النزول، ونقف على هذا جليا في السور التي وافق ترتيبها في المصحف ترتيبها النزولي الذي اعتمده، ورغم ذلك فإن المفسر يعرض صفحا عن الحديث عن الترتيب المصحفي بل يُظهر المناسبة حسب ترتيب النزول.

فاستمع مثلا لقوله: "سبق في سورة (فصلت/ 61 نزول) النازلة قبل سورة (الشورى/ 62 نزول) بيان عن القرآن وأنه تنزيل من الرحمن الرحيم، وأن محمدا ﷺ بشر يوحى إليه...وبما أن خطوط عناصر موضوع (الحواميم السبع) تسير فيها جميعا، ويأتي لاحقها مضافا إلى سابقها إضافات تكميلية، فالذي أراه أن عبارة ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ ﴾[الشورى: 3] مرتبطة بما جاء في الآية (6) من سورة (فصلت/ 61 نزول) وهي قوله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[فصلت: 6]"[3].

ولو كان –رحمه الله– يذكر المناسبة بين السور وفق الترتيب النزولي، ثم يؤكد على أهميتها وفق الترتيب المصحفي باجتهاده في بيانها أو نقل ما قاله العلماء فيها لكان أجدى وأجود، ولخفف من حدة الانتقادات التي توجه إليه، لاسيما وأنه سبق إلى هذا المسلك ممن سبقه إلى التفسير وفق ترتيب النزول، فقد استند إليه ملا حويش في عديد المواضع، يقول: "قد يكون بين كل سورة والتي تليها مناسبة على ترتيب النزول، وقد يكون أيضا على ترتيب المصاحف"[4].

وهذا جيّد منه ولو قلده مفسرنا في السور التي تدبرها لأبدع في ذلك وسلم من الانتقاد؛ بل لو

---

[1] _ بينما استند غيره على الترتيب المصحفي، يقول مثلا محمد بن محمود خوجة في حديثه عن الركائز التي تقوم عليها دراسته، "الركيزة الثانية: ترتيب السور في القرآن توقيفي"، إضافة إلى أنه حرص على إظهار الوحدة القرآنية بين السور المدنية والسور المكية المتعاقبة في الترتيب. ينظر: الوحدة القرآنية دراسة تحليلية مقارنة، محمد بن محمود خوجة، ص39– ص112/ الترتيب التوقيفي وصلته بالوحدة الموضوعية وعلم المناسبة، عبد الرحمن عبيد حسين، ص15 وما بعدها.

[2] _ أهمية العلم بتاريخ النزول ومصادره، ص49.

[3] _ معارج التفكر، مج12، ص569. ينظر: مج1، ص185– 186.

[4] _ بيان المعاني، ج1، ص275. ينظر: ج1، ص237.

أنه رتب تدبره للقرآن الكريم كاملا على الترتيب المصحفي، واجتهد في الكشف عن المناسبات بين السور وفق هذا الأخير ثم نبّه إلى ما يظهر له وفق ترتيب النزول لجاء بالجديد ذي الأصول السليمة.

– اجتهاد المفسر في إظهار مناسبة ما تضمنته الآيات والسور من معان لظروف عصر التنزيل وأحواله، وهذا يلاحظ كثيرا في تدبره وهو من ثمار اعتماده للترتيب النزولي للسور أيضا.

فتأمل صنيعه لما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[الإسراء: 110]. حيث قال: "ويبدو لي أن هذا التعليم، قد كان في مكة قبل التشريع بالجهر بالتلاوة في الركعتين الأولى والثانية من الصلوات الجهريّة...أما التلاوة والأذكار والأدعية في غير التلاوة التي شرع الجهر بها في الصلاة فقد بقيت على أن الأدب فيها أن تكون وسطا بين الجهر والمخافتة [1]. ولعل ظروف العهد المكي الاجتماعية، كان يلائمها التعليم الذي أبانه الله ﷻ في هذه الآية من سورة (الإسراء)"[2].

كما يتحدث عن ملائمة أسلوب الآية لمرحلة نزول السورة، يقول: "إن الوعيد الذي جاء في هذا النص للمكذبين قد جاء كناية وتعريضا وإلماحا لا تصريحا، لأن المرحلة ما زالت مرحلة أوائل الدعوة التي يحسن فيها هذا الأسلوب، وهو أسلوب التنبيه على وجود عذاب عند الله لمستحقيه، ووجود أدوات العذاب"[3].

مع تأكيده الحثيث على أن ما جاء في القرآن الكريم صالح ومصلح لكل زمان ومكان، يقول في سورة (الأنعام): "وما جاء في هذه السورة من كل ما سبق، ونظيره ما جاء في سائر سور القرآن، علم يستفاد منه حتى آخر مستفيد من الأحياء في رحلة الحياة الدنيا"[4].

– تسليط الضوء على مناسبة القرآن المكي للمدني، ويظهر ذلك بجلاء خلال اجتهاد المفسر في إظهار الحكمة من ضم الآيات المدنية للسور المكية، ولاشك أن ذلك إنما يعبر عن وجود التناسب بينها.

والأمثلة على ذلك كثيرة، واكتفي بالتمثيل بواحد منها تنبيها به على غيره، وهو ما ذكره المفسر لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[الأعراف: 167].

---

[1] _ وقد أحال هنا على ما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: 205]. معارج التفكر، مج9، ص757. ينظر: مج10، ص69/ مج13، ص264.

[2] _ معارج التفكر، مج7، ص756. ينظر: معارج التفكر، مج10، ص319.

[3] _ معارج التفكر، مج1، ص179. ينظر: مج14، ص384- ص494.

[4] _ معارج التفكر، مج11، ص139.

قائلا: "هذه الآية من التنزيل المدني، ضمت إلى سورة (الأعراف) المكية لمراعاة اقتضاءين: المناسبة الفكرية التي استدعت ضمه إلى سورة (الأعراف). والحكمة في تأخير التنزيل إلى العهد المدني، حيث ظهر فيه احتكاك اليهود بالرسول محمد ﷺ والمؤمنين"[1].

ويقال في هذا النوع من المناسبات ما قلته سابقا في الحديث عن موضوع الآيات المدنية في السور المكية، إذ ما ثبت منها بدليل صحيح صريح فقول المفسر فيها هو اجتهاد يحسب له وان كان يحتمل الصواب ودونه، وما كان غير ذلك فقول المفسر فيها يدخل في باب التكلف في القول بالمناسبة والله أعلم.

– إن عناية المفسر بعلم المناسبات وحرصه على إظهارها بين السور يدفع عنه شبهة الطعن في الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم باعتماده ترتيب النزول؛ فعلم المناسبات كان هو سبيل العلماء في الرد "على الشبهات التي أثارها بعض أعداء الإسلام حول الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، فقد طعن كثير منهم في هذه الوحدة وزعموا أن آيات القرآن لا يجمعها سياق، وليس بينها وفاق، وأوصوا بإعادة ترتيب القرآن وفق نزوله، تيسيرا على القارئ، وإعانة له على فهم المعنى على حسب زعمهم"[2]، وهذه الوصية سُخِّر لها من يطبقها ويدافع بها عن كتاب الله ﷻ، فجاءهم الرد من المنفذ الذي سلكوه في الطعن ورُدّ السهم إلى كبد راميه، فمفسرنا وغيره اجتهدوا في إثبات المناسبة بين السور حسب ترتيب النزول مما زاد الرد عليهم قوة، خاصة في السور التي ثبت ترتيب النزول بينها، أو وافق الترتيب بينها ترتيب المصحف.

ومن هنا تظهر سعة البون بين اجتهاد مفسرنا –رحمه الله– وبين تلك المزاعم الباطلة، إذ عمله لا يحمل في طياته ما يشير إلى سوء النوايا وخبث الطوايا، وهو بلا أدنى شك سعي منه لخدمة القرآن الكريم والدفاع عن حياضه من زاوية أخرى وهي إظهار إعجازه من جهة ترتيبه النزولي والتأكيد على سلامته؛ فاستمع لما جاء إلى تدبره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: 6] يقول: "في هذا النص يعلم الله ﷻ رسوله وكل داع إلى دين الله بعده الرد الذي يجيب به على من يزعم أن القرآن اكتتبه محمد من أساطير الأولين.

ومن الملاحظ أن هذه المقولة الجاهلية نفسها يرددها في عصورنا اليوم المبشرون والمستشرقون...على الرغم من سقوطها وبطلانها...وهي لا تزيد على كونها افتراء يكذّبه الواقع.

---

[1] _ معارج التفكر، مج4، ص687. ينظر: مج3، ص84.

[2] _ القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب، ص55. وللتفصيل في موقف المدرسة العلمانية من علم المناسبات، ينظر: موقف المدرسة العقلية المعاصرة من علوم القرآن وأصول التفسير، محمود بن علي، ج2، ص766.

أما قول من يزعم أن القرآن أباطيل وأحاديث لا نظام لها، فهو قول يسقطه بداهة استماع القرآن فقط، والتفكر العادي في دلالاته، فإعجاز القرآن في مبناه وفي معناه ينسف هذا الزعم نسفا، فهو لا يحتاج إلى رد"[1].

وأقول إتماما لما سبق أن سعي المفسر في خدمة القرآن الكريم يبقى عمل بشري لا يسلم من الانتقاد والمعارضة، إذ سلامة المقصد لا تعني دائما صحة العمل.

وخلاصة القول في هذا المبحث: أن عبد الرحمن حبنكة الميداني كان من المؤيدين لعلم المناسبات، الحريصين على إثباتها بنوعيها بين الآيات وبين السور، وهو وإن وافق العلماء في القسم الأول فقد خالفهم في الشق الثاني واعتمد فيه على القول بالاجتهاد في ترتيب المصحف، واجتهد في طلبها بين السور وفق ترتيب نزولها وقد كانت له في ذلك جهود بارزة وافق فيها العلماء أحيانا وأنفرد بها في أخرى؛ لذا فإنه إذا جئنا لتقويم أثر التفسير وفق ترتيب النزول في علم المناسبات، لابد من التدقيق وتحديد الزاوية التي نوجه منها الانتقاد بالنسبة لمفسرنا، وهي أنه لم يتأكد من صحة الترتيب ولم يتثبت منه ليبني عليه اجتهاده وقوله بالمناسبة؛ وإلا فإن الكلام فيها "من التدبر المأمور به متى سلم القول من الجهل والهوى والتكلف"[2]، ولعبد الله دراز كلام نفيس في هذا المعنى يقول فيه: "وهذا الباب من أبواب البحث والاستنباط الذي لا يمس أصلا من أصول الدين، لا يحل حراما، أو يحرم حلالا، لن يزال مفتوحا لكل مسلم أعطاه الله فهما في كتابه شريطة القصد والأناة في سير العقل ومع الاستضاءة في هذا السير بمصباحين من اللغة والشرع"[3].

وعليه فأنا لا أسير مع من قال أن اعتماد التفسير وفق ترتيب نزول السور يضيّع جهود العلماء في باب المناسبات، فهي محفوظة في مظانها متيسرة للاطلاع عليها، ولا يعقل إلزام المفسر بالقول بها وترديدها ولو اعتمد ترتيب المصحف، ضف إلى أنها كما قال مساعد الطيار من المعلومات التي تأتي بعد التفسير، يقول: "وغالب علم المناسبات من باب الملح واللطائف، لأن معرفتها لا تؤثر بالتفسير، وفقدها لا ينقص من معرفته"[4]؛ بل يمكن القول أنه أضاف لبنة أخرى في صرح المناسبات وإن كانت

---

[1] _ معارج التفكر، مج6، ص360.

[2] _ المناسبات في القرآن الكريم، عبد الله بن مقبل القرني، ص95.

[3] _ النبأ العظيم، ص204.

[4] _ مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، ص78.

ربما يشوبها النقص وقلة التحقيق والتدقيق، ولكنها تفتح المجال أمام الباحثين وتلفت أنظارهم إلى هذا النوع من المناسبات.

وكلامي طبعا مقصور على عبد الرحمن حبنكة -رحمه الله-، كما أنه محصور في القسم الأول الذي أكدت عليه سابقا والذي يضم السور التي ثبت الترتيب بينها أو وافق ترتيبها ترتيب المصحف، كما أنه ليس دعوى للتمسك بالتفسير وفق ترتيب النزول بل محاولة لوضع الحق في نصابه، فلا يسير بنا التحامل عليه لتضييع الجهود المبذولة في بحثه، بل لابد من الغربلة وأخذ ما صفا منها.

إذ لو تتضافر جهود عدد من الباحثين في إعادة ترتيب تفسير (معارج التفكر) وفق ترتيب المصحف، ثم تثبت في كل سورة ما ذكره المفسر لها من مناسبات وفق ترتيب النزول وتتبعه بالتعقيب إذا تطلب الأمر خاصة في السور التي لم يثبت الترتيب بينها وتعزز ذلك بما قاله العلماء قبله، لخدموا هذه الموسوعة التفسيرية خدمة عظيمة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثالث:

أثر ترتيب النزول في تدبر آيات القصص في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

حذّر عدد من العلماء والباحثين المعاصرين من مخالفة الترتيب المصحفي في تفسير القرآن الكريم، وانتقدوا التفاسير التي أُلِّفت وفق الترتيب النزولي بحدّة، وذلك للمحاذير التي حفّت بها.

ولكن هذا لم يمنع من وجود إشارات إلى أهمية اعتبار ترتيب النزول في جوانب من تفسير القرآن الكريم، إذ رغم انتقادهم له بشكل عام ومعارضتهم لتفسير القرآن الكريم كاملا على وفقه، فقد تركوا إمكانية ذلك في دراسة بعض المباحث القرآنية، مبرزين مكانته في الدراسات الموضوعية بشكل عام وفي دراسة القصة القرآنية على وجه الخصوص.

وهذا ما يفتح الباب لدراسة أثر ترتيب السور وفق نزولها في تدبر آيات القصص في تفسير (معارج التفكر)، خاصة وقد سبق الإشارة إلى الجهود التي أولاها مفسرنا للدراسات الموضوعية في تدبره، ولاشك أن آيات القصص كان لها أوفر النصيب من تلك الدراسات، باعتبار أن المفسر تدبر القسم المكي الذي يكثُر فيه الحديث عنه.

وانطلاقا من ذلك فقد تم تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين، أتحدث في الأول منهما عن القصص القرآني عند المفسر وذلك من خلال تعريفه وبيان موقفه منه ثم منهجه في التعامل معه في فروع ثلاثة، أما المطلب الثاني فجعلته بعنوان آيات القصص وفق ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) –عرض ونقد–، وتضمن هو الآخر ثلاثة فروع.

المطلب الأول: القصص القرآني عند عبد الرحمن حبنكة الميداني.

يمثل القصص القرآني جزءا غير يسير من القرآن الكريم[1]، خاصة القسم المكي منه الذي أتم مفسرنا تدبره، لذا فقد أولاه عناية كبيرة وكانت له مكانة خاصة، حاولت في هذا المطلب إبرازها من خلال فروعه الثلاثة؛ جعلت الأول منها للتعريف بالقصص القرآني، وعرجت في الثاني على موقف المفسر منه وختمت بالثالث الذي ضمنته خلاصة منهجه في عرضه.

الفرع الأول: تعريف القصص القرآني.

يتضمن هذا الفرع شقين، بدأت في الأول ببيان المدلول اللغوي، ثم خصصت الثاني للتعريف الاصطلاحي.

أ. لغة: القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء، من ذلك قولهم: اقتصصت الأثر، إذا تتبعته؛ يقال قصّ أثره أي تتبعه واقتفاه من خلال آثاره وشواهده، ويقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾[القصص: 11] أي: تتبعي أثره.

والقَصص: الخبر المقصوص وضع موضع المصدر حتّى صار غالبا عليه، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ ﴾[آل عمران: 62]، وقال ﷻ: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ ﴾[يوسف: 111].

والقِصص: جمع قصة: وهي الخبر والحادثة، والقاص الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها[2].

وقد أجمل القول في معنى القصة صاحب الكليات فقال: "هي الأمر والخبر، وقصصت الحديث: رويته على وجهه و﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾[يوسف: 3]، أي: نبيّن لك أحسن البيان، وقصّ عليه

---

[1] _ يقول فضل عباس: "المساحة التي شغلتها القصة القرآنية من كتاب الله كانت مساحة واسعة، ما نظن أن موضوعا آخر كان له ما كان للقصة من نصيب؛ فالقصص القرآني لا يقل الحيّز الذي شغله من كتاب الله تعالى عن الربع إن لم يزد قليلا". قصص القرآن الكريم، ص12.

[2] _ ينظر: كتاب العين، الفراهيدي، ج5، ص12/ معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج5، ص11/ المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ص671/ لسان العرب، ابن منظور، ج7، ص73/ الصحاح، الجوهري، ج3، ص188/ تاج العروس، الزبيدي، ج18، ص98/ مختار الصحاح، محمد الرازي، ص560.

الخبر قَصصا بالفتح. والقِصص بالكسر: اسم جمع القصة"[1].

ب. اصطلاحا: تطرق عدد من المفسرين والباحثين لبيان المراد بقصص القرآن، وإليك أهم ما وقفت عليه بيانا لذلك:

قال الفخر الرازي: "القصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة"[2].

وهذا التعريف يشمل القصص، وينطبق معناه على غيره من الخطب الدينية والمواعظ وغيرها، وعليه فهو ليس مانعا من دخول غير القصص القرآني ضمنه.

وعرفه ابن جزي بقوله: "وأما القصص: فهو ذكر أخبار الأنبياء المتقدمين وغيرهم كقصة أصحاب الكهف، وذي القرنين"[3].

وهنا لفت صاحب هذا التعريف إلى قيد ضروري، وهو كون القصص يُراد به أخبار الأمم الماضية من الأنبياء وغيرهم، ولكنه أغفل ما نبه إليه من سبقه، فيكون تعريفه بذلك مانعا غير جامع.

وما سبق ذكره هو تنبيه إلى ما أشار إليه المتقدمون في تعريفهم الاصطلاحي للقصص، والذي توسع في ذكره المفسرون والباحثون المعاصرون وإليك عدد من أقوالهم:

يقول صاحب الظلال في تعريفه للقصة: "القصة في القرآن ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه...إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية. والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء؛ والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها"[4].

وقال ابن عاشور: "الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها، فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصص مثل وقائع المسلمين مع عدوهم"[5].

وهنا نجده أكّد على القيد الذي نبه إليه ابن جزي وغيره وهو قيد غاية في الأهمية.

---

[1] _ الكليات، أبو البقاء الكفوي، ص734.

[2] _ مفاتيح الغيب، ج8، ص250.

[3] _ التسهيل لعلوم التنزيل، ج1، ص15.

[4] _ التصوير الفني، ص143.

[5] _ التحرير والتنوير، ج1، ص64.

وقال عبد الكريم الخطيب: "أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدث به من أخبار القرون الأولى: في مجال الرسالات السماوية، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال، وبين مواكب النور وجحافل الظلام"[1].

وهو بذلك يسير على ما قاله ابن جزي في تعريفه، مع بعض التفصيل، مُغفلا هو ومن سبقه جانب مهم، وهو الغرض من إيراد القصص في القرآن الكريم.

أما مناع القطان فقال: "وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة. وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ لأمم، وذكر البلاد والديار، وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه"[2].

وهذا التعريف رغم أنه اعتمده عدد من الباحثين المعاصرين[3]، إلا أنه يؤخذ عليه أنه أدرج ضمنه الحوادث الواقعة زمن الوحي[4]، إذ سيرة النبي ﷺ والحوادث التي كانت تقع في زمانه لا تعد من قبيل القصص القرآني، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾[طه: 99][5].

وتقول مريم السباعي مستخلصة معنى القصة في القرآن الكريم من الركائز اللغوية والمعاني القرآنية: "تتبع آثار وأخبار الأمم الماضية وإيراد مواقفهم وأعمالهم وبخاصة مع رسل الله إليهم، مع إظهار آثار الدعوات فيهم، وذلك بأسلوب حسن جميل مع التركيز على مواطن العبرة والعظة"[6].

وهذا التعريف من أوضح وأشمل التعاريف التي وقفت عليها، إلا أن صاحبته مالت فيه إلى التفصيل والشرح ولو كانت أجملت لكان تعريفها أدق والله أعلم.

---

(1) _ القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، ص40.

(2) _ مباحث في علوم القرآن، ص316- 317.

(3) _ ينظر: بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم، ص184/ دراسات في علوم القرآن، فهد الرومي، ص607/ اللآلئ الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين، ص221/ مورد الضمآن في علوم القرآن، صابر حسن، ص111.

(4) _ حيث قُسّم القصص القرآني عنده وعند غيره ممن مال إلى هذا التعريف إلى ثلاثة أنواع، الأول: قصص الأنبياء، والثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، والثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت زمن رسول الله ﷺ. ينظر: أصول في التفسير، محمد بن صالح العثيمين، ص50/ علوم القرآن، عبد الله شحاته، ص151/ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص317/ المساعد في أصول التفسير، محمد بن محمد بن سلامة، ص393/ المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان، ص9.

(5) _ ينظر: اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان الدقور، ص34.

(6) _ القصة في القرآن الكريم، ص35.

وأختم بما قاله مفسرنا محاولا التقريب بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، عندما جاء إلى تدبره لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: 176] "أي: فحدّث بأخبار الأولين، راجيا ممن تحدثهم أن يؤثّر فيهم حديثك، فيجعلهم يتفكرون، فيدركون من سنن الله في عباده، وتدبيره لشؤون تربيتهم، وتأديبهم، وعقابهم، ما يقنعهم ويعظهم، ويكون دافعا لهم للاستقامة على صراط الحق...يقال لغة: قص الشيء قصا، وقصصا، أي تتبع أثره، بالفعل، أو برواية الأخبار عنه. ويقال: قص عليه خبره، إذا أورده على وجهه. والقصة: الحديث، والأمر، والخبر، وجمعها القصص"[1].

ولما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾[يوسف: 3] نجده يقول بعد تذكيره بالمعنى اللغوي، "أي: أحسن القَصِّ، بانتقاء أحسن الأنباء النافعة المفيدة ذوات العبر، واختيار أفصح وأبلغ العبارات، وأحسن وسائل البيان ذي التأثير في نفوس أولي الألباب"[2].

وعناية المفسر بذكر المعنى اللغوي ومحاولته التوفيق بينه وبين المعنى الإصلاحي، يوقفنا على جانب من اهتمامه بالقصص القرآني بشكل عام.

وبعد عرض هذه التعريفات واستخلاص أهم الركائز التي يقوم عليها معنى القصص في الإصلاح، يمكن القول أنّ **قصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية من الأنبياء وغيرهم ممن كانوا قبل النبي ﷺ، بهدف العبرة والعظة والهداية.**

الفرع الثاني: موقف المفسر من القصص القرآني.

يُعد الحديث عن موقف المفسر من أهم القضايا التي بحثها العلماء في دراستهم لقصص القرآن الكريم ذو أهمية بالغة، يتضح من خلاله موافقته أو مخالفته لما قرره أهل العلم في ذلك بما يتناسب مع عظمة القرآن الكريم وإعجازه، لنحكم بعدها على مدى صلابة القاعدة التي يقف عليها خلال تدبره.

وتحقيقا لذلك فقد رجعت إلى مؤلفات المفسر التي عُني فيها بالحديث عن القصص القرآني بوضوح، وهي ثلاثة: (نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد)، (قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل)، (معارج التفكر ودقائق التدبر)، وحرصت على أن استخرج منها أهم معالم موقفه منه تنظيرا وتطبيقا، وإليك أهم ما وقفت عليه بإيجاز:

---

[1] _ معارج التفكر، مج5، ص33.

[2] _ معارج التفكر، مج10، ص605.

1- موقفه من التكرار في القصص القرآني: حرص مفسرنا على إثبات التكامل بين مواطن ورود آيات القصص مستبعدا القول بالتكرار ما أمكن، ومؤكدا على أن ذلك من قواعد التدبر الأمثل[1]، فتأمل قوله: "الأصل تكامل النصوص القرآنية الواردة حول موضوع واحد، والتأسيس في كل نص منها مقدم على التأكيد، أي فهم النص على أنه يحمل فكرة جديدة أولى من فهمه على أنه يؤكد فكرة سابقة...ومن ذلك توزيع القصص القرآنية على نجوم التنزيل، فمنها الموجز ومنها فوق ذلك...وعلى مراحل من البيان التعليمي، والتربوي، والتوجيهي، وتجزئتها مفرقة في سور من القرآن متعددة وضمن مناسبات، كل مناسبة منها تستدعي التنبيه على جانب من القصة القرآنية، تتصل العظة به، أو بيان ديني يوجد في هذا الجانب من القصة ما يكشف وحدة أصول الرسالات الربانية التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، أو يكشف تشابه قلوب الناس ونفوسهم وأنواع سلوكهم في مقابلة دعوات الحق التي تخالف أهواءهم"[2].

وما ذكره هنا ومثّل له[3]، حرص على اعتماده منهجا عمليا في تفسيره (معارج التفكر) خلال تدبره لآيات القصص بعد ذلك، يقول: "إن القصة الواحدة يؤتى بها للاعتبار والاتعاظ، بمناسبة موضوع معين، ويؤتى بها للاعتبار والاتعاظ بمناسبة موضوع آخر...وهكذا؛ ومع ذلك نجد في توجيه الأنظار للاعتبار والاتعاظ بقصص الأولين في القرآن تكاملا في عناصرها، لا تكرارا متطابقا، ففي كل مرة نجد تغييرات وإضافات، فإذا نظرنا إليها متدبرين نظرة كلية جامعة، وجدناها فيما بينها متكاملات غير مكررات تكريرا تطابقيّا"[4].

وعليه فإن إثبات التكامل ونفي التكرار من القضايا الجوهرية والمحورية التي حرص المفسر على التقعيد لها أولا، ثم تطبيقها خلال تدبره للسور، "فمهما أمكن استبعاد فكرة التكرير لمجرد التأكيد كان ذلك هو الذي ينبغي تدبر النص بمقتضاه"[5] على قوله، وقد كانت له في ذلك تعليلات وجيهة قيّمة

---

(1) _ فقد جعل القاعدة السادسة: "حول تكامل النصوص القرآنية في الموضوعات التي اشتمل عليها القرآن، واستبعاد احتمال التكرير لمجرّد التأكيد ما أمكن"، ثم خصص القاعدة الخامسة عشرة للتكرير وأغراضه. ينظر: قواعد التدبر، ص67- 309.

(2) _ قواعد التدبر، ص69- 70. وما قرره هنا أثبته عدد من العلماء، يقول مكي بن أبي طالب: "وحمل اللفظين على فائدتين ومعنيين، أولى من حملهما على التكرير بمعنى واحد"، ويقول محمد الأمين الشنقيطي: "النص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذا احتمل التأسيس والتأكيد معا، وجب حمله على التأسيس، ولا يجوز حمله على التأكيد إلا لدليل يجب الرجوع إليه". الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه، ص219/ أضواء البيان، ج6، ص755.

(3) _ أقصد في كتابه (قواعد التدبر الأمثل)، الذي مثّل فيه لما ذكره بقصة موسى عليه السلام بين سورتي (النمل) و(القصص)، مؤكّدا على التدرج التكاملي في عرض القصة مع مراحل التنزيل. ينظر: قواعد التدبر، ص121 وما بعدها.

(4) _ معارج التفكر، مج3، ص512- 513. ينظر: مج3، ص668/ مج4، ص317/ مج5، ص360.

(5) _ قواعد التدبر، ص315.

جعلته يسير على خطى سليمة، اقتفى بها أثر سلفه من العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين الذين أكدوا على ضرورة اعتماد هذا المبدأ[1].

2. موقفه من القول بحقيقة القصص القرآني: أكد –رحمه الله– على أن القصة القرآنية تتضمن حقائق تاريخية لا مجال للخيال فيها، فهي كما قال: "تقدم صورا عن الواقع الذي حدث فعلا في تاريخ الناس، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾[يوسف: 111]"[2].

منبها إلى النبي ﷺ لم يكن على علم بها، فاستمع له لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[يوسف:3] حيث قال: "أي والحال قد كنت من قبل أن نوحي إليك القرآن من الجاهلين، الذين لا علم لهم بمسائل الدين التي أنزلناها وننزلها في هذا القرآن، ولا بالقصص التي يشتمل عليها، ولكن جهلك جهل غفلة لا جهل نفور وابتعاد عن إدراك المعارف الدينية، وعلم بقصص السابقين"[3].

ومن خلال هذه النصوص يظهر موقف المفسر من إحدى أهم خصائص القصص القرآني، وهي كونه حقيقة لم يكن النبي ﷺ على علم به، وينفي بذلك قوله بأنه خيال وأساطير، وفي هذه المسألة زلت

---

[1] _ فقضية التكرار من أهم المسائل التي عُني العلماء ببحثها، مؤكدين على سلامة القرآن منه. فنجد من المتقدمين مثلا ابن قتيبة الذي عقد باب لتكرار الكلام والزيادة فيه، افتتحه بقوله: "وأما تكرار الأنباء والقصص، فإنّ الله تبارك وتعالى أنزل القرآن نجوما في ثلاث وعشرين سنة، بفرض بعد فرض: تيسيرا منه على العباد، وتدريجا لهم إلى كمال دينه، ووعظ بعد وعظ: تنبيها لهم من سنة الغفلة، وشحذا لقلوبهم بمُتجدِّد الموعظة...وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ للإسلام، فيُقرِئُهم المسلمون شيئا من القرآن...وكان يبعث إلى القبائل المتفرّقة بالسّور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثنّاة ومكرّرة لوقعت قصّة موسى إلى قوم، وقصة عيسى إلى قوم...فأراد الله، بلطفه ورحمته، أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع، ويثبتها في كل قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير...".

وقد فرّق الخطابي بين أنواع التكرار، منزها القرآن الكريم من التكرار المذموم، وعدد الزركشي فوائد تكرار القصص، مؤكدا على أنه كل مرة كررت فيها القصة كان لفائدة خلت عنه في موضع الآخر، أما فضل عباس فقد جعله الموضوع الذي ركّز عليه وخصص له كتابه كما جاء على لسانه. ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص148- 149/ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن –بيان إعجاز القرآن–، ص53/ البرهان في علوم القرآن، مج3، ص25 وما بعدها/ في ظلال القرآن، سيد قطب، مج1، ص55/ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص13 وما بعدها.

[2] _ نوح وقومه في القرآن المجيد، ص15.

[3] _ معارج التفكر، مج10، ص606.

أقدام عدد من الباحثين[1]، ومنهم محمد عزة دروزة الذي جعل القصص القرآني ضمن الخطى المثلى التي رسمها لتدبر القرآن الكريم، وقد تكلف في الحديث عنه وجاء بآراء غريبة، فهو يعتبره من المتشابه الذي يعجز عقل الإنسان عن إدراك أسراره، ويرى أنه كان معروفا لدى العرب قبل أن ينزل به القرآن الكريم، فالنبي ﷺ كان على علم به قبل أن يوحى إليه على قوله[2]؛ وهذه الآراء تكفل بمناقشتها والرد عليها وإظهار بطلانها عدد من العلماء والباحثين، فهي أفكار واهية لم تثبت أمام النقد العلمي الرصين[3].

وعليه فإن مفسرنا وإن كان يلتقي مع صاحب (التفسير الحديث) بإتباع كليهما ترتيب النزول في تفسير السور، إلا أنه يفترق معه في موقفه هذا[4]، فوُفِق بذلك ووافق موقف السلف، فـ"القصة القرآنية ليست عملا فنيا مستقلا أو تأريخيا لمجرد التأريخ أو سردا لمجرد التسلية والمتعة الفنية وهي ذات خصائص فنية راقية وتأثير فذّ في المتلقي فإنها صدق لا خيال فيها وحق لا زيغ فيها"[5].

3. موقف المفسر من إيراد الإسرائيليات في القصص القرآني:

قبل الحديث عن هذا الموضوع رأيت من الضروري الإشارة إلى أن المفسر كان يحرص على بيان تفاصيل بعض القصص بما جاء في الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، فقد نقل مثلا "ما جاء في الصحيحين بشأن قصة موسى والخضر عليهما السلام"[6]، وسار عليه خلال تدبره للقصة مؤكدا على ذلك بقوله: "ألتزم في الفهم التدبري ما جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ الذي سبق ذكره"[7]، وهذا من المواقف المحمودة التي تحسب له وتعد من محاسن تفسيره التدبري.

---

[1] _ ولعل أشهر من نمثل به في القول بهذا محمد أحمد خلف الله، الذي لا يتحرج من القول بأن بعض القصص القرآني وليد الخيال. ينظر: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص187- ص190- ص207.

وقد تكفل بالرد عليه عدد من معاصريه. ينظر: علوم القرآن، عدنان زرزور، ص362/ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، فضل عباس، ص427/ اللآلئ الحسان في علوم القرآن، موسى لاشين، ص261- 262/ منهج المدرسة العقلية في التفسير، فهد الرومي، ج2، ص636.

[2] _ ينظر: القرآن والملحدون، ص152/ القرآن المجيد، ص166- ص174.

[3] _ ينظر: التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل عباس، ج3، ص163 وما بعدها/ من روائع القرآن، محمد سعيد رمضان البوطي، ص204 وما بعدها/ شوائب التفسير في القرن الرابع عشر، عبد الرحيم فارس، ص242/ محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، فريد مصطفى، ص241 وما بعدها.

[4] _ كما يفترق مع محمد الجابري الذي فسّر أيضا على ترتيب النزول. ينظر الأسس التي اعتمدها في دراسة القصة وموقفه من حقيقة القصص. القراءة الجديدة للقصة القرآنية من منظور محمد عابد الجابري، محمد كنفوري، ص15 وما بعدها.

[5] _ قصص القرآن، فضل عباس، ص34.

[6] _ معارج التفكر، مج13، ص418.

[7] _ معارج التفكر، مج1، ص422. مج14، ص96.

ويُلحق بها أيضا تلك الوقفات التي كان يحذّر فيها من الإسرائيليات ويشير إلى ضعفها وتحريفها وضرورة ترك الاعتماد عليها وتجريدها مما يمس بعصمة الأنبياء خاصة.

وأضرب مثالا بقصة سليمان عليه السلام، إذ لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾[ص: 31- 33]. نجده يحكي "قصة هذه الحادثة التي ذكرها الله ﷻ بصورة موجزة مختزلة، أخذا من دلالات البيان القرآني الدال عليها في هذه السورة" كما جاء على لسانه[1].

ثم يعقب بعد ذكره للقصة قائلا: "أما ما ذكره بعض أهل التأويل حول الحادثة، فليس لهم فيه خبر مرفوع إلى الرسول محمد ﷺ، بل فيه إشكالات فكرية لا تتلاءم مع سمو هذا النص القرآني الجليل، [وقد ذكر عددا منها مما فيه مساس بعصمة الأنبياء ثم عقب قائلا]...لكل ما سبق كان الالتزام بما في النص من دلالات لا تكلف فيها، ولا تحتاج إلى تأويلات غير مستساغات، هو الأحرى بأن يكون عمدة التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ"[2].

وتأمل لما وصل إلى قوله ﷻ: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾[الأعراف: 20] قال: "وأما كيف وسوس الشيطان لآدم وزوجه في الجنة، فقضية من قضايا الغيب التي لم يرد في النصوص الإسلامية الصحيحة بيان عنها، فلا داعي لإيراد إسرائيليات لا نعلم مدى الصدق في واحد منها، ولا لإيراد أخبار ليست مروية عن المعصوم"[3].

وهذا جيّد منه لو أنه سار عليه واتخذه منهجا له، ولكن للأسف لم يكن هذا ديدنه في تدبره لجميع آيات القصص التي أوردها، فقد ظهر ميله -رحمه الله- إلى قبول وترديد بعض التفاصيل التي لها أصلا في القرآن بما جاء عند أهل الكتاب؛ وقد فتح عليه هذا باب الانتقاد، إذ أوقعه في بعض الهفوات وفاتته جزئيات وردت عندهم فيها مساس بعصمة الأنبياء رغم تأكيده على محاولة تجريد القصة منها[4]، وخير مثال على هذا صنيعه في قصة داود عليه السلام التي قال فيها: "فإذا جردنا من هذه القصة الإسرائيلية ما زاده الإسرائيليون افتراء على داود عليه السلام، مما لا يليق بمقام النبوة...بقي ما يمكن أن ينسجم معه ما جاء

---

(1) _ معارج التفكر، مج3، ص559.

(2) _ معارج التفكر، مج3، ص561.

(3) _ معارج التفكر، مج4، ص133. ينظر: مج9، ص185/ مج10، ص609.

(4) _ فنقل قصة الذين اعتدوا في السبت مما جاء في كتبهم، وخطاب عيسى عليه السلام للحواريين عن الإنجيل، وذكر ما جاء عن إسماعيل عند أهل الكتاب وغيرها كثير. ينظر: معارج التفكر، مج4، ص672/ مج7، ص484- ص522.

في القرآن من متابعة الله ﷻ لداود على سلوك ما جرى"[1]. وهنا قد يَسلم من الانتقاد لو التزم بما قاله -وهو الأنسب لمنهجه-، لكنه عند نقله للرواية وقع فيما حذّر منه وأترك القارئ يستمع لبعض ما حكاه: "رأى داود عليه السلام عرضا ومن دون قصد منه زوجة (أوريا الحثي) أحد قواده الكبار، وكانت امرأة حسناء، فاستحسنها وتمناها، وخطرت له خواطر من الأماني، وربما سأله يتنازل له عنها، فلما سقط (أوريا الحثي) قتيلا في المعارك الجهادية وجد نفسه راحة بما جرى، ثم خطب هذه المرأة التي استحسنها ضمن أحكام الزواج الشرعي...فولدت له سليمان عليهما السلام"[2].

وقد استغربت هذا النقل منه -رحمه الله- إذ حوى ما يجب أن ينزه عنه عباد الله الصالحين، فضلا عن أنبيائه المصطفين[3]، ضف إلى أنه مما يمكن الاستغناء عنه إذ لا فائدة ترجى من ذكره هو وأمثاله، فـ"هذه الجوانب التي لم يتعرض لها القرآن، لا يتعلق بها غرض ديني، ولا يتوقف على العلم بها أمر آخروي ولا يؤثر إهمالها. وعدم الخوض فيها على كمال الإيمان، بل التمسك بالكثير منها يوقع المسلم في حرج التشكيك في الدين، والطعن في مصدره وقائله"[4].

وهذه القصة ذكرها محمد عزة دروزة كاملة رغم غرابتها وما تضمنته من مساس صريح بعصمة الأنبياء دون أن يعلق عليها بكلمة[5]، أما ملا حويش فقد اختار مما ذكره القصاص من أقوال ما رآه "أعدلها وأقربها إلى المنطق وأصدقها عقلا"[6] رغم ما فيه من قدح صريح في مقام النبوة، ولو نقلها وسكت ولم يعلق لكان ربما أحسن؛ وعليه يمكن أن يقال أن موقف مفسرنا من إيراد الإسرائيليات في

---

(1) _ معارج التفكر، مج3، ص526.

(2) _ معارج التفكر، مج3، ص527.

(3) _ وقد فنّد ما روي في القصة عدد من العلماء، قال القاضي عياض: "وأما قصة داود عليه السلام فلا يجب أن يلتفت إلى ما سطره فيه الإخباريون عن أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين ولم ينص الله على شيء من ذلك ولا ورد في حديث صحيح"، وقال ابن كثير: "وقد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب إتباعه...فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يردّ علمها إلى الله ﷻ". ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج2، ص163/ تفسير القرآن العظيم، ج7، ص60.

(4) _ اللآلئ الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين، ص235 .

(5) _ وقد تعقبه فضل عباس وناقشه في إيراده للقصة. ينظر: التفسير الحديث، ج2، ص307/ التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ج3، ص234.

(6) _ بيان المعاني، ج1، ص305. وقد تتبع عبد الرحيم فارس منهج المفسر في عرض بعض القصص القرآني ثم علق قائلا: "وهكذا جمع العاني ملا حويش في تفسير القصة القرآنية الخرافة وكل غريب، وجمع بين الأحاديث الضعيفة والموضوعة والإسرائيليات...وتجد في كل قصة قرآنية تفسيرا غريبا، أو توهينا لمعجزة، أو خرافة إسرائيلية مما ينبغي أن يخرج من دائرة التفسير لتبقى عقيدة المسلمين خالصة لرب العالمين". شوائب التفسير خلال القرن الرابع عشر، ص242.

القصص القرآني أسلم من سابقيه ممن فسر وفق ترتيب النزول، وإن كان لم يسلم من بعضها، إذ جرفه تيار التقليد لمن سبقه من المفسرين ولم يتمكن من التخلص من جميعها.

4. موقف المفسر من المبهمات:

يعد الحديث عن هذه المسألة امتداد لما سبق بيانه، إذ لم ير المفسر في كثير من الأحيان مانع من الاعتماد على أهل الكتاب في تعيين مبهمات القرآن الكريم[1]، وقد سلك إلى جانب ذلك طرقا عديدة في تعيينها[2].

واشتغاله بتعيين المبهمات مما يؤخذ عليه؛ خاصة وأنه كان يتعب نفسه في أشياء لا طائل منها ولا فائدة ترجى من تعيينها، وسوّد فيها الكثير من الصفحات وهذا يخالف التدبر الأمثل الذي ارتضاه، فعندما وصل في تدبره لقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾[الكهف: 22] قال: "في هذا البيان توصية من الله ﷻ بالعناية بمواضع الفائدة والنفع والعظة من القصة، وعدم الاشتغال بما لا نفع فيه ولا فائدة ولا عظة، كمعرفة عدد الجماعة أصحاب القصة. وفيه استغلال حدث تاريخي ليدل على توجيه عام بشأن كل القصص التاريخية، ولا سيما القصص القرآنية. فأبان الله ﷻ أن الناس بعد سماعهم ما نزل في القرآن بشأن أصحاب الكهف، سيشغلون بالظنون الضعيفة التي لا تفيد علما صحيحا..."[3].

وهذه لفتة طيّبة منه؛ ولو التزم –رحمه الله– بما قاله هنا لسلم من النقد الذي يوجه له خاصة باعتماده مصادر غير موثوقة واتكاله على ظنه وعلى روايات ليس لها سندا في تعيينها.

وخلاصة القول في ذلك: أنّ المفسر –رحمه الله– كانت له بعض الأسس السليمة التي اتكأ عليها في دراسته للقصص القرآني، تنبئ عن فهمه له وتدبره العميق لما جاء فيه، وتجلى ذلك فيما نص عليه من ضرورة إظهار التكامل بين مواطن ورود القصة ونفي التكرار؛ ضف إلى أنه قرر أنه يجب فهم قصص القرآن على حقيقته مؤكدا على أنه لم يكن معروفا عند النبي ﷺ ولا عند العرب وهذا يُبعد عنه شبهة القول بالخيال، ولعل هذه من أهم الإيجابيات التي تحسب للمفسر، والتي لابد أن تسجل ضمن سلسة مزايا تدبره لسور القرآن الكريم.

---

(1) _ ينظر: معارج التفكر، مج6، ص68/ مج9، ص381.

(2) _ وتفصيل الحديث في هذه الطرق وذكر الأمثلة عنها عُني به عدد من الباحثين فاستغنيت بالإحالة عليها. ينظر: منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، نادي صبرا، ص191/ جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم، أحمد قباوة، ص481- 482.

(3) _ معارج التفكر، مج13، ص349.

وعليه فإن اعتماد المفسر ترتيب النزول خلال تدبره للسور لم يكن له الأثر السلبي الذي قد يدفع به إلى مخالفة ما أثبته العلماء، وما قاله غيره ممن سار على طريقته لم يكن نتيجة اعتمادهم لترتيب النزول في التفسير، ولا من آثاره السلبية، بل هي لا تعدوا أن تكون آراء شخصية سلِم منها مفسرنا ولم يتأثر بها، بل يُحسب له أن طهّره مما علق به مما قد يؤخذ على المفسرين وفقه بشكل عام.

أما بالنسبة لإيراد الإسرائيليات في تدبره، فلم يوفّق دائما فيما كان يصبو إليه، إذ فاته منها ما يؤخذ عليه خاصة ما ارتبط منها بعصمة الأنبياء، إذ "لابد للمفسر من معرفة ما يتوقف عليه التفسير مما ثبت في الصحيح من تفاصيل تلك القصص...أما تلك التي يكون فيها إنقاص بمكانة الأنبياء عليهم السلام، مما هو من رواية بني إسرائيل فينبغي الإعراض عنها صفحا"[1]، وعدم ذكرها أصالة إذ ما في القرآن الكريم يغنينا عنها.

ويلحق بذلك اشتغاله بتعيين المبهمات إذ كان الأولى به عدم التفصيل فيها، لأن ذلك أوقعه في العديد من المزالق التي تؤخذ عليه، وصار تدبره يؤتى من جهتها[2].

الفرع الثالث: منهج المفسر في عرض آيات القصص.

ظهرت عناية المفسر بقصص القرآن الكريم في تفسيره جليا، إذ وفّقه الله ﷻ لإتمام تدبر القسم المكي الذي يكثُر فيه الحديث عن أخبار الأولين وسير الأنبياء والمرسلين[3].

وقد وقفت خلال تتبع طريقة المفسر في تدبر مواطن ورود آيات القصص على منهجين رئيسين، إليك بيانهما باختصار:

أولا. منهج الدراسة الموضِعية لآيات القصص: وأقصد به تلك الوقفات التي كان يتدبر فيها المفسر آيات القصص في مواضعها من السور التي وردت فيها، ويظهر ذلك جليا من ناحيتين:

---

[1] _ علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، محمد صفا، ص260- 261.

[2] _ يقول أحمد قباوة: "ولئن كان أمر بيان المبهمات –مع استغنائنا عنه– ليس محل نقد، فإن الذي يبدو أنه محل مناسب للنقد هو اعتماده على كتب أهل الكتاب في تفصيل بعض القصص". وأقول أن كليهما يعد محل انتقاد لأن المفسر اعتمد على أهل الكتاب في تحديد المبهمات أيضا، ضف إلى أن الانشغال بها يشوش على القارئ إذ يصرفه التعمق في تفصيلها عن موضع العبرة والعظة فيها، ينظر: جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم، ص483.

[3] _ ينظر بسط الحديث في خصائص القصة القرآنية في العهد المكي والعهد المدني: بدائع الإضمار في القصص القرآني، كاظم الظواهري، ص33- ص43/ اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، ص201 وما بعدها.

الأولى: القصة التي لم يرد ذكرها إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، فهذه ليس لها تفاصيل في باقي السور، فيحرص على تدبرها في موضعها من السورة، ومثاله صنيعه في قصة أصحاب الجنة، وقصة أصحاب الفيل، وقصة يوسف عليه السلام، وقصة أصحاب الكهف[1].

الثانية: القصة التي كثُر الحديث عنها في القرآن الكريم، وتعددت مواطن ورودها والسور التي قصت فيها أحداثها، فهذه يستغني عن التدبر الموضوعي التكاملي لآياتها ويكتفي بتدبر الموضع المذكور في السورة رغم وجود تفصيل له في سور أخرى، ومثاله صنيعه في إحدى المواضع التي تحدثت عن قصة موسى عليه السلام في سورة (الأعراف) وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف: 135- 136].

حيث ختم التدبر التحليلي للآيتين بقوله: "وهذا الموجز قد جاء بعض تفصيل له في عدة سور من القرآن المجيد، ودراستها دراسة تكاملية، ضمن دراسة قصة موسى وهارون، وفرعون وقومه، وبني إسرائيل، في القرآن، تحتاج في ظني قرابة سفر أو سفرين كاملين وعسى أن يقضي الله لي بذلك في المستقبل، والله هو الموفق والمسدد المعين"[2].

وهذا المنهج الذي اعتمده مفسرنا معهود عند السلف، إذ سار عليه أكثر المفسرين في تفسيرهم لآيات القصص[3]، وعليه فهو وإن كان خالفهم باعتماده ترتيب النزول بديلا عن الترتيب المصحفي، إلا أن تلك المخالفة لم يظهر أثرها هنا، إذ كان المفسر يتدبر القصة في مواضعها من السور التي وردت فيها.

ثانيا. منهج الدراسة الموضوعية التكاملية لآيات القصص: وأقصد به جمع آيات القصة الواحدة أو أحد جزئياتها ودراستها دراسة تكاملية، وهو الذي ارتضاه المفسر لدراسة آيات القصص القرآني، وقد عبّر عن ذلك صراحة، بقوله: "وقد رأيت أن أقدم دراسة تدبرية لقصة نوح في القرآن، وفق المنهج الذي ارتضيه لدراسة القصص القرآنية دراسة تكاملية، وخشيت أن أطيل مسترسلا في التتبعات الجزئية فيحجب ذلك استبصار منهج الدراسة التطبيقية، الذي رأيته الأقوم والأنفع لفهم كتاب الله عز وجل"[4].

وعليه فإنه –رحمه الله– تبنى منهج الدراسة الموضوعية التكاملية في دراسة آيات قصص القرآن الكريم، وقد طبّقه في قصة نوح عليه السلام وخصّه بمؤلف مستقل، قبل أن يؤلف تفسيره التدبري، الذي حرص

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج1، ص236/ مج2، ص14/ مج10، ص606/ مج13، ص313.

[2] _معارج التفكر، مج4، ص517.

[3] _ رغم تنوع طرق عرضها وتفسيرها. ينظر: اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان الدقور، ص102.

[4] _ نوح وقومه في القرآن المجيد، ص6- 7.

فيه هو الآخر على الالتزام به والتوسع في تطبيقه، فجاء الكتاب حافلا بالعديد من النماذج التي سار فيها على وفقه، وقد صرح باعتماده له في الملحق الثالث من سورة (ص)، الذي خصه بما جاء في القرآن عن داود عليه السلام، قائلا: "جاء في القرآن المجيد بشأن داود عليه السلام تسعة نصوص في تسع سور...وأحاول دراسة جميع النصوص الواردة في هذه السور وتدبرها ضمن منهج التفسير الموضوعي في هذا الملحق إن شاء الله"[1]؛ فالقصة عنده عبارة عن نصوص متفرقة "تتداخل فيما بينها تداخلا تكامليا، كتشبيك أصابع عدد من الأيدي بمقدار عدد النصوص، تشابكا تكامليا، وبتشابكها جميعا تكتمل القصة المراد بيانها من القرآن المجيد"[2].

ويمكن تلخيص أهم معالم منهجه في الدراسة الموضوعية للقصص في نقاط، إليك أهمها:

– جمع مواطن ورود القصة الواحدة من القرآن الكريم كاملا عند أوّل ذكر لها حسب ترتيب نزول السور، ثم الاكتفاء بتدبر الموضع الوارد في السورة محل التدبر، وإحالة البقية على الملحق الذي يردفها به وهناك يدرسها دراسة تكاملية.

ومثاله صنيعه في "قصة خلق آدم واستكبار إبليس عن السجود له"[3]، حيث نبه إلى مواطن ورود القصة في القرآن الكريم دون ذكر الآيات، ثم اقصر على تدبر الآيات الواردة في سورة (ص) التي كان بصدد تدبرها، وأحال بقية الآيات على الملحق الرابع من السورة الذي جعله تحت عنوان: "قصة خلق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث"[4].

وهذه المواضع التي يتدبرها خلال الدراسة التكاملية للقصة، لما يصل إلى مواطنها من السور التي جاءت فيها لا يكرر تدبرها بل يقتصر إلى ما تدعو الحاجة إلى ذكره، ومثاله صنيعه لما وصل إلى تدبر أحد النصوص التي تحدثت عن القصة في سورة (طه)، حيث قال: "سبق في الملحق الرابع لتدبر سورة (ص/ 18 مصحف/ 18 نزول) تدبر النصوص القرآنية التي جاءت فيها لقطات متفرقات من قصة خلق آدم وما رافقه من أحداث، ضمن تدبر تكاملي...وهذا النص الوارد في هذا الدرس من دروس سورة (طه) واحد من هذه النصوص، ولهذا فإني أقتصر هنا على تدبر فقرات هذا الدرس، دون بسط

---

[1] _ مج3، ص647. ينظر: مج7، ص524.

[2] _ معارج التفكر، مج8، ص341.

[3] _ معارج التفكر، مج3، ص624.

[4] _ ينظر: معارج التفكر، مج3، ص668 وما بعدها.

النظرة التكاملية...وأقتصر على ما تدعو الحاجة إلى ذكره"[1].

– تدبر مواطن ورود القصة في ثنايا التدبر التحليلي؛ يلجأ المفسر لهذا إذا قل ورودها في القرآن الكريم إذ لا يخصها بملحق، بل يبسط النظرة التكاملية في دراسة معترضة تتخلل التدبر التحليلي لآيات السورة، من خلال جمع مواطن ورودها في سورة من السور التي تحدثت عنها.

ومثاله صنيعه خلال تدبره لآيات سورة (الصافات) التي تحدثت عن النبي يونس ﷺ، حيث استجمع كل النصوص التي تحدثت عنه في القرآن الكريم ثم قال: "هذه النصوص تحتاج دراسة تكاملية تحليلية أستعين بالله العظيم الوهاب على تدبرها هنا، إذ لقلتها لا تحتاج فرزا في ملحق خاص بالنبي الرسول "يونس" ﷺ"[2].

– الإحالة على كتابه (نوح ﷺ وقومه في القرآن المجيد)، الذي تدبر فيه آيات القصة بحسب ترتيب نزول سورها، يقول مثلا خلال تدبر أحد المواضع التي وردت فيها القصة، وهو ما جاء في سورة (الأعراف): "هذا هو النص الخامس من النصوص التي تعرض لبيان لقطات من قصة نوح ﷺ وقصة قومه معه، بحسب ترتيب النزول، من أصل ثمانية وعشرين نصا موزعة في ثمان وعشرين سورة. وقد تدبرتها مجتمعة تدبرا تكامليا، في كتاب مستقل، سميته "نوح ﷺ وقومه في القرآن المجيد""[3].

وفي الختام وبعد تتبع تدبر المفسر لآيات القصص خلال تفسيره لسور القرآن الكريم، وقفت على أن منهج الدراسة الموضوعية التكاملية هو الغالب على تعامله معها وتدبره لها، وقد كان ذلك أحد ثمار اهتمام المفسر بالدراسة الموضوعية بشكل عام، واعتماده التفسير وفق ترتيب النزول بشكل أخص.

والمتابع لما سبق ذكره قد يتبادر إلى ذهنه سؤال حول المعتبر عند المفسر في ترتيبه لآيات القصص؟ وحُق له ذلك إذ لابد في الدراسة الموضوعية من اعتماد طريقة معينة في ترتيب آيات القصة.

والإجابة على ذلك أن المفسر أكّد في أكثر من موضع على أنه اعتمد ترتيب النزول في تدبره لآيات القصص، يقول مثلا "جاء ذكر قصة "هود" ﷺ وقومه عاد في عشرين نصا في القرآن المجيد، من (19) سورة،...وأنقل هذه النصوص من المصحف أولا، مرتبة وفق ترتيب نزول سورها، وبعد ذلك

---

[1] _ معارج التفكر، مج8، ص341.

[2] _ معارج التفكر، مج11، ص630.

[3] _ معارج التفكر، مج4، ص317.

أشرع إن شاء الله بتدبر ما جاء فيها تدبرا تكامليا على ما يفتح به الله ﷻ به"[1].

وفي دراسته لقصة نوح عليه السلام يؤكد على ضرورة النظرة التكاملية التي "يتتبع الباحث فيها مراحل تنزيل نصوص الموضوع الواحد وفق ترتيب النزول مع تدبر سباق كل نص وسياقه في السورة التي هو منها، والتي يتدبر فيها أيضا سائر النصوص ذات الأفكار والقضايا التي تتصل بالأفكار الجزئية التي اشتملت عليها نصوص الموضوع الواحد مع ملاحظة أحداث بيئة نزول النص في الزمن الذي نزلت فيه تقريبا، ثم يجمع بينها جمعا فكريا تكامليا، ويتدبرها على أساس أنها متكاملة في دلالاتها تكاملا فكريا، أو تكاملا مرحليا، واستبصار ما هو مرحلي منها وما هو نهائي، مع النظر في فروق التعبيرات الواردات في مختلف النصوص والبحث في دلالات هذه الفروق"[2].

وبعد هذا العرض تتأكد أهمية البحث في قضية دراسة آيات القصص القرآني وفق ترتيب نزول السور، ومكانة هذه الطريقة المستحدثة التي ارتضاها في دراسته للقصص عند غيره، ومدى التزامه هو بترتيب مواطن ورودها حسب نزول سورها في جميع دراساته الموضوعية وغيرها من المسائل التي شكلت موضوع المطلب الموالي بإذن الله.

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص533.

[2] _ نوح وقومه في القرآن المجيد، ص5- 6.

المطلب الثاني: آيات القصص وفق ترتيب النزول - عرض ونقد-.

تعد القصة القرآنية من أبلغ وسائل التعبير تأثيرا في النفوس، فهي تجذب المتدبر والقارئ وتأسر لبّه وقلبه، وهدفها الأسمى تحقيق الغاية الكبرى من إنزال القرآن الكريم؛ قال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[يوسف: 111].

لذا كانت من الموضوعات القرآنية التي عرض لها المفسرون على اختلاف مناهجهم وتعدد اتجاهاتهم، وتعتبر جهودهم في ذلك "المصدر الأساس لبيان آيات القصص القرآني بشكل مفصل"[1].

وما سيأتي تسليط الضوء عليه في هذا المطلب هو اعتماد ترتيب النزول خلال تدبر آيات القصص الذي ارتضاه مفسرنا، وذلك من خلال فروع ثلاثة؛ أردت في الأول منها إبراز مكانة الترتيب النزولي في دراسة آيات القصص، وفي الثاني حاولت إظهار أهم الفروق بين دراسة القصص القرآني وفق ترتيب المصحف ووفق ترتيب النزول من خلال أنموذج تطبيقي، أما الثالث منها فلخصت فيه أهم الآثار العلمية لدراسة القصص القرآني وفق ترتيب النزول.

الفرع الأول: مكانة الترتيب النزولي في دراسة آيات القصص القرآني.

حرص مفسرنا –رحمة الله– على ترك بصمة الترتيب النزولي في عدد من مناحي تدبره لكتاب الله ﷻ، وكانت أهم ملامحها الدراسة الموضوعية التكاملية للكثير من موضوعات القرآن الكريم.

وإذا كان الفرع السابق قد كشف اللّثام عما اختطه –رحمه الله– من منهج في دراسته لآيات القصص القرآني، فإن هذا الفرع سيُظهر مكانة الترتيب النزولي في الدراسة الموضوعية لآيات القصص عند غيره من المفسرين والباحثين المعاصرين.

---

[1] _ على تفاوت بينها، وقد فصّل سليمان الدقور الحديث في القصص القرآني عند المفسرين. ينظر: اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، ص98 .

أقول وبالله التوفيق: التفت عدد من المفسرين والباحثين المعاصرين الذين انتقدوا التفسير وفق الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم، إلى بعض المباحث القرآنية التي يمكن فيها اعتماد ترتيب النزول بديلا عن ترتيب المصحف، ولعل من أهمها الدراسة الموضوعية لآيات القصص[1]، وقد وقفت على جملة من الأقوال في ذلك إليك أهمها:

يقول صاحب الظلال في حديثه عن ورود القصة مكررة في مواضع شتى في القرآن الكريم: "على أنّ هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررا في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة -يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها- فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئا فشيئا، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة"[2].

وقد جعل قصة موسى عليه السلام مثالا على هذا النظام، الذي رتّب فيه آياتها على ترتيب النزول لا على ترتيب المصحف؛ فيكون بصنيعه هذا من المبادرين إلى اعتماد ترتيب النزول في دراسة آيات القصص وهذا في كتابه (التصوير الفني)، كما كانت له إشارات إلى ذلك أيضا في تفسيره، فعندما وصل إلى تفسير آيات القصة السابقة في سورة (البقرة) عقب قائلا: "ولقد وردت آيات من قصة موسى عليه السلام قبل ذلك -حسب ترتيب النزول- في سور: المزمل، والفجر، وق، والقمر...وكلها إشارات قصيرة. وهذه أو سورة بعد تلك السور تجيء فيها هذه الحلقات الطويلة"[3].

وعليه فإنه -رحمه الله- أكّد على أهمية ملاحظة ترتيب النزول في دراسة آيات القصة الواحدة، إذ به يتضح النّظام المقرّر في عرض الحلقات المكررة.

ويؤكّد محمد علي الحسن على أهمية اعتماد الترتيب النزولي في الدراسة الموضوعية قائلا: "إن ترتيب نجوم القرآن حسب النزول أمر صعب المنال ولكنه في حيّز الإمكان وهو على غاية من الأهمية في التفسير الموضوعي الذي بدأ الاهتمام به في الدراسات الإسلامية، والمزلة فيه خطيرة، لها آثارها السّيئة ونتائجها الوخيمة في استنباط الأحكام. كما أنه على جانب عظيم من الأهمية لبيان حكمة الله

---

[1] _ وهنا لابد من التنبيه إلا أن المقصود الدراسات الموضوعية التي اتبع أصحابها ترتيب النزول، أما الدراسات الموضوعية للقصص على غير هذا الترتيب فغير معنية بالبحث هنا.

[2] _ التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص156.

[3] _ في ظلال القرآن، سيد قطب، ج3، ص1251. وأُذكّر هنا أنّه اعتمد الترتيب المصحفي في تفسيره ولم يخالفه، وقد نبّه إلى ذلك بقوله: "الترتيب الزمني للنزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء...فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن نزول كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة، فيكاد يكون متعذرا...إلا في آيات معدودات تتوافر بشأنها الروايات أو تقطع بشأنها بعض الروايات...لذلك آثرت في هذه الظلال أن أعرض القرآن بترتيب سوره في المصحف العثماني". في ظلال القرآن، ج3، ص1429.

التشريعية في البعد عن الطفرة والمفاجئة وأخذ الناس بالسهولة واليسر والرفق"[1].

والباحث مر معنا أنه انتقد التفاسير التي ألفت وفق ترتيب النزول بحدّة[2]، إلا أنه ترك إمكانية ذلك في الدراسات الموضوعية ولا شك أنّ دراسة آيات القصص القرآني جزء منها.

وقد قال بإمكانية ذلك أيضا مصطفى مسلم وعبد الكريم الخطيب، فقد جاء في مقال لهما: "ولقد توجه بعض المعاصرين إلى تفسير القرآن على ترتيب النزول إلا أن ذلك عندنا ليس بصائب لأمور عديدة ...[وقد ذكرا أربعة أمور، ثم تعقباها بقولهما:] نعم نقول لا بأس من مراعاة ترتيب النزول في الدراسات القرآنية عند بحث موضوع من الموضوعات من خلال القرآن، أما أن نطبع تفسيرا كاملا للقرآن الكريم مرتبا حسب النزول فهو غير مقبول"[3].

بل إن ترتيب الآيات حسب النزول كانت إحدى أهم الخطوات عند بعض من نظّر للتفسير الموضوعي، مثل: عبد الستار فتح الله سعيد[4]، ومصطفى مسلم الذي جعل ترتيب الآيات حسب زمن النزول هو الخطوة الثالثة[5]، وزاهر الألمعي الذي يقول في حديثه عن الطريقة الثانية للبحث في التفسير الموضوعي: "أن نجمع الآيات ذات الهدف المشترك، ونرتبها على حسب النزول –ما أمكن ذلك– مع الوقوف على أسباب النزول...مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم"[6].

وبعد التنويه بمكانة الترتيب النزولي للآيات في الدراسات الموضوعية بشكل عام، ننتقل إلى الحديث عنها عند من ألف في القصص القرآني بشكل مستقل.

أقول: بعد تتبع جهود الباحثين في هذه المسألة، وقفت على أنّ من أبرز من تحدث فيها بيانا لأهميتها هو فضل عباس الذي يقول: "الباحث في القصة كي تكون نتائجه مقبولة، وأحكامه صحيحة، لابد له من أن يقوم بدراسته دراسة موضوعية، وهذه لا تتم له إلا حينما تكون ركيزته الأولى بحث القصة من حيث ترتيب النزول ليعرف ما الذي نزل أولا، وما الذي نزل بعد ذلك. هذه هي الدراسة الموضوعية التي يمكننا أن نصدر بها أحكامًا صحيحة، وأن نصل بها إلى نتائج منطقية،

---

(1) _ ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، ص49. (مقال)

(2) _ ينظر: المرجع نفسه، ص47- 48. (مقال)

(3) _ المناسبات وأثرها في التفسير، ص5. (مقال)

(4) _ ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، ص56- ص86.

(5) _ ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، ص37.

(6) _ دراسات في التفسير الموضوعي لقرآن الكريم، ص26.

والحق أن هذه الركيزة ليست لدراسة القصة فحسب، بل لابد منها إذا أردنا أن نتناول أي موضوع من موضوعات القرآن الكريم"[1].

وقد نبه في موضع آخر إلى الطريقة المثلى في دراسة القصة القرآنية، قائلا: "إن الطريقة المثلى لنتذوق تذوقا صحيحا مواقع النجوم للقصة القرآنية، أن ندرسها من حيث ترتيب النزول، بحيث ندرس النجوم التي نزلت واحدا تلو الآخر. ولا يضيرنا كثيرا بأن ترتيب السور ليس أمرا مقطوعا به، ويكفينا في هذا أن نوازن بين الأقوال التي وردت في ترتيب السور لنأخذ أرجحها كما فعل العلماء، ثم إن بعض السور يمكن أن ندرك ترتيبها بلا عناء وهذا النهج هو الذي سنسير عليه في هذا الكتاب إن شاء الله"[2].

وقوله في بيان أهمية الترتيب النزولي قيّده بدراسة موضوعات خاصة في القرآن الكريم، فقد كان من المعارضين للتفسير وفق الترتيب النزولي للقرآن الكريم كاملا[3].

وقد تبنى موقفه هذا، وطريقته المثلى في دراسة القصص تلميذه سليمان الدقور، فتأمل قوله بيانا لذلك: "المنهج الموضوعي الذي بدأ الاهتمام به يظهر بشكل واضح مؤخرا، وهو المعول عليه –حسب رأيي– لإبراز القيم الحقيقية للقصة القرآنية"[4].

والباحث اجتهد في عرض منهج مقترح رأى أنه يحقق للقصة القرآنية الخدمة التي تستحقها وتكشف عن مكنوناتها وأهدافها وغاياتها، مؤكدا على أن الذي ينسجم ويتفق مع الخطوات التي يرى أنها تحقق المنهج التكاملي هو السير وفق ترتيب النزول[5].

وأختم بما أشار إليه كاظم الظواهري بيانا لأهمية الترتيب النزولي لآيات القصة وإن كان لا يدعوا إليه؛ ففي حديثه عن الفرق بين أسلوب عرض القصة في القرآن المكي والقرآن المدني وخصائص كل منها، نجده ينبه على ذلك بقوله: "وليس معنى هذا أن نرتب القصص بحسب ترتيب نزوله وإنما هذه السمة تؤخذ جملة لا تفصيلا؛ وإن كان التفصيل في هذا يوقفنا على معجزة جديدة من معجزات هذا الكتاب

---

[1] _ القصص القرآني، إيحاؤه ونفحاته، ص26.

[2] _ قصص القرآن الكريم، فضل عباس، ص83.

[3] _ وقد أبان عن موقفه خلال حديثه عن الترتيب الذي شذ به محمد عزة دروزة عن غيره من المفسرين. ينظر: التفسير والمفسرون أساسياته اتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ج3، ص186 وما بعدها.

[4] _ اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، ص249. ينظر: منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، ص13. (مقال)

[5] _ ينظر: اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، ص379. ينظر: منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول، سليمان الدقور، ص10. (مقال)

ودليل جديد على أنه لا يقوله بشر...فإذا علمنا أن أكثر ما ورد من أخبار موسى وبني إسرائيل كان في هذه السور المتأخرة نزولا وأن المتقدم نزولا في السابق قد أشار إلى ما فصل فيها إشارة من يعلم الحوادث ويجتزئ بالإشارة إليها...إذا علمنا ذلك، استدللنا على أن هذا الكتاب كان بلا شك كتابا كاملا مجتمعا قبل أن ينجم في نزوله على النبي ﷺ ببطحاء مكة وبين لابتى المدينة فليتدبره ذوو العقول!"[1].

وبعد هذا العرض الذي ظهر من خلاله مكانة الترتيب النزولي في الدراسة الموضوعية لآيات القصص وغيرها من الموضوعات، أردت تسجيل جملة من الملاحظات إليك أهمها:

– أن الشهادة لمكانة الترتيب النزولي في الدراسة الموضوعية قد صدرت من مفسرين وباحثين لهم مكانتهم في مجال الدراسات القرآنية، فلا بد أن نستمع لها؛ ضف إلى أنهم ميّزوا بين تفسير القرآن الكريم كاملا وبين تفسير بعض آياته وفق ترتيب النزول وهذا ما يظهر أهميتها، ويؤكد ضرورة دراسة الجهود المبذولة في ذلك تنظيرا أو تطبيقا وتقويمها بهدف المساهمة في إظهار معالم هذا المنهج المستحدث في دراسة القصة القرآنية والتنبيه على رواده، وبيان القيمة العلمية له والآثار الإيجابية أو السلبية المحتملة، ولعل ما سيأتي في الفروع الموالية يكون لبنة أولى في الموضوع تفتح المجال أمام الباحثين للتفصيل فيها وتخصيصها بالدراسة.

– أن الأقوال التي ذُكرت في بيان ضرورة الترتيب النزولي في دراسة آيات القصص غلب عليها طابع الإعجاب بالمنهج وبيان أهميته وأحيانا التطبيق عليه، لكن التنظير له ورسم معالم واضحة عن كيفية دراسة القصة وفق ترتيب النزول لا زالت تحتاج إلى جهود تأصيلية.

– أن المؤلفات التي عُنيت بالتأصيل لمنهج التفسير الموضوعي وأكدت على أهمية الترتيب بحسب النزول للآيات المتعلقة بموضوع الدراسة، لم تفصل كثيرا في كيفية اعتماد هذا الترتيب وأدلة ثبوته، إذ لم تأخذ أهم خطوة حقها من البحث، وهذا ما جعل ما قيل فيها محل انتقاد عند عدد من الباحثين[2].

– أن من اهتم بالإشارة إلى طرق الوصول إلى ترتيب نزول آيات الموضوع أو القصة القرآنية، إما أنه لم يطبق عليه فبقي كلامه نظريا أمثال محمد علي الحسن، أو أنه طبّق لكنه أغفل بحث المسألة واختار مباشرة ترتيبا اعتمده أمثال فضل حسن عباس[3].

---

[1] _ بدائع الإضمار في القصص القرآني، ص44.

[2] _ ينظر تفصيل مسألة الترتيب التاريخي لآيات القرآن الكريم في التفسير الموضوعي ومناقشتها. منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، سامر رشواني، ص153 وما بعدها.

[3] _ فقد طبق المنهج على عدد من القصص. ينظر: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص44 وما بعدها.

– أن من أظهروا مكانة هذا المنهج في دراسة آيات القصص القرآني قد ينطبق على بعضهم الانتقادات التي وجهوها لأصحاب التفاسير وفق ترتيب النزول؛ إذ لابد أولا من وضع أسس سليمة للتعامل مع هذا المنهج الذي لم تظهر معالمه بوضوح بعد، وأؤكد أن أول خطوة هي التأكد من صحة ثبوت الترتيب النزولي وهذه غابت عندهم أو ذكرت بشكل عابر، وهذا على فرض التسليم بجدوى هذه الدراسات المستحدثة.

– أن الحديث عن ترتيب النزول في دراسة آيات القصة، كان المنهج الذي تشبث به عدد من الباحثين لنفي التكرار بين حلقات القصة، إثباتا للتكامل بينها وإظهارا للإضافات التي يكشف عنها هذا الترتيب.

– أن الباحثين الذين أشادوا بمكانة دراسة القصص القرآني وفق ترتيب النزول، لم أقف على واحد منهم حاول إظهار جهد مفسرنا في هذا الباب أو حتى الإشارة إليه مع أنه يعد خير أنموذج تطبيقي لذلك، إذ جمع بين المنهج المعهود عند المفسرين في تعاملهم مع القصص ومنهج الدراسات الموضوعية عند الباحثين المعاصرين[1]، وهذا وإن دل على شيء فإنه يلفت نظرنا إلى أن الانتقادات التي لقيها المنهج كانت عامة، أو قل اتجهت لانتقاد التفاسير من حيث اعتمادها على ترتيب النزول الظني في تفسير السور، وهذا بلا شك أهم ما يؤخذ عليهم، لكن لابد أيضا من التدقيق في مناهجهم وإبراز مواطن الجد والجديد فيها دراسة وتقويما، وإن نوقشوا في مدى صحة اجتهادهم.

الفرع الثاني: القصص القرآني بين ترتيب النزول وترتيب المصحف.

ظهر مما سبق أن العناية بالترتيب النزولي عُدت ضرورة ملحة عند عدد من المعاصرين في دراسة القصص القرآني دراسة موضوعية، فهي المنهج الأمثل الذي يُظهر قيمة القصص ويبرز أهدافه على قولهم.

ومن المعلوم أن المفسرين وفق الترتيب المصحفي كانت لهم عناية خاصة بالقصص، المتقدمين منهم والمتأخرين، لذا فإن محاولة الموازنة بين منهج الدراسة الموضوعية للقصص القرآني وفق ترتيب النزول، ومنهج الدراسة الموضِعية للقصص القرآني وفق ترتيب المصحف، يحتاج إلى بحوث مستقلة تضم شقين نظري وتطبيقي أسأل الله أن ييسر البحث فيها لاحقا.

ولكن حسبي هنا أن أحاول إبراز جهد مفسرنا في ذلك مقارنة مع أحد المفسرين المعاصرين ممن

---

[1] _ لذا أقترح هنا رسالة بعنوان: "الدراسة الموضوعية لآيات القصص القرآني عند المفسرين عبد الرحمن حبنكة الميداني أنموذجا –دراسة نقدية–".

رتب تفسيره على ترتيب المصحف، من خلال إظهار المعالم المنهجية التي اعتمد عليها كليهما في دراستهما للقصة، وما تميّز به كل واحد عن الآخر علّها تكون لبنة أولى في الموضوع[1].

وهنا جعلت قصة زكريا ويحي عليهما السلام أنموذجا، كونها من القصص التي قل ورودها في القرآن الكريم، ضف إلى ذلك أن مفسرنا خصّها بدراسة موضوعية؛ مقارِنة هذه الأخيرة مع ما قاله محمد الطاهر ابن عاشور خلال تفسيره لآيات القصة ضمن سورها[2].

أقول وبالله التوفيق:

وردت قصة زكريا ويحيا عليهما السلام في القرآن الكريم أربع مرات[3]:

- في سورة (مريم/ 19 مصحف/ 44 نزول).
- في سورة (الأنعام/ 6 مصحف/ 55 نزول).
- في سورة (الأنبياء/ 21 مصحف/ 73 نزول).
- في سورة (آل عمران/ 3 مصحف/ 89 نزول).

وإليك أهم المعالم التي حاولت من خلالها إبراز مجهود كلا المفسرين في دراسة القصة، بعد تتبع مواطن ورودها عندهما:

1. موضع ذكر القصة أول مرة: تحدث مفسرنا عن القصة عند أول موضع وردت فيه حسب ترتيب النزول الذي اعتمده، وهو ما جاء في مدخل سورة (مريم)[4]، أما ابن عاشور فقد كان ما جاء في سورة (آل عمران) هو فاتحة ما ذكره في القصة[5].

---

(1) _ وذلك من ناحيتين؛ الأولى: إظهار الفرق بين دراسة آيات القصة مجتمعة وتفسيرها ضمن سورها، والثانية: بيان الفرق بين دراستها وفق ترتيب النزول وبين دراستها وفق ترتيب المصحف. وهذا ما ركزت عليه، وأشرت إلى ملامح أخرى دون تفصيل تجلية للمقصود وطلبا للاختصار.

(2) _ واخترت صاحب (التحرير والتنوير) كونه من المفسرين المعاصرين، كما هو الحال بالنسبة لمفسرنا، ضف إلى ذلك أنه كان من المهتمين بالقصص القرآني في تفسيره؛ فأذكر ما قاله مفسرنا أولا ثم أقارنه مع ما جاء عند ابن عاشور، وآثرت عقد هذه المقارنة على مقارنة ما قاله مفسرنا بما قاله من ألف في القصص استقلالا وجاءت القصة ضمن النماذج التي درسها مثل فضل حسن عباس، لأن الغرض إظهار جهود مفسرنا في باب التفسير وفق ترتيب النزول مقارنة مع غيره من المفسرين وفق ترتيب المصحف. ينظر: القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص376.

(3) _ ذكرتها وفقا للترتيب النزولي الذي اعتمده عبد الرحمن حبنكة. ينظر: معارج التفكر، مج7، ص375 .

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص374.

(5) _ ينظر: التحرير والتنوير، ج3، ص238.

وهذا الاختلاف في مواطن ذكر القصة أول مرة يفسّره اختلاف ترتيب السور التي وردت فيها القصة بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، فعلى الترتيب المصحفي الذي اعتمده ابن عاشور يكون ما جاء في سورة (آل عمران) أولا ثم ما جاء في سورة (الأنعام) ثم ما جاء في سورة (مريم) وأخيرا ما جاء في سورة (الأنبياء).

2. اتفاق المفسران في بعض تفاصيل طريقة عرض القصة واختلافهم في بعضها الآخر، وإليك بيان ذلك من خلال عدد من النقاط:

– التمهيد باختصار للقصة: قبل أن يبدأ مفسرنا الحديث عن تفاصيل القصة كما جاءت في القرآن الكريم، قدّم لها بتمهيد تحدث فيه عن صلة القرابة بين زكريا ويحي ومريم عليهم السلام[1]؛ وهذا أشار إليه ابن عاشور أيضا عند تفسيره لما ورد في سورة (الأنعام) محيلا إلى ما ذكره في سورة (البقرة)[2].

– التدبر الموضوعي التكاملي لآيات القصة عند مفسرنا والتدبر التحليلي الموضعي عند ابن عاشور: ولعل هذا من أهم ما ينبغي التركيز عليه إظهارا للفرق بينهما، فمفسرنا لما وصل في التدبر إلى ما ورد حول القصة في أوّل موطن ذكرت فيه، أشار إلى مواطن ورودها في القرآن الكريم كاملا، ثم نصّ على منهجه في التعامل معها قائلا: "والدراسة التدبرية التكاملية للنصوص القرآنية حول موضوع واحد، تتطلب تدبر هذه النصوص القرآنية الواردة في هذه السور معا، لاكتشاف ما اشتملت عليه من تكامل في المعاني والدلالات والأفكار والأساليب البيانية. وسأجتهد في دراستها تباعا وفق ترتيب نزول سورها إن شاء الله تعالى وأعان وفتح"[3].

وقد كان ذلك إذ تدبرها تدبرا تكامليا وفق ترتيب النزول، وفي ثنايا ذلك كان يحرص على تدبر كل مواضع تدبرا تحليليا يسير فيه وفق الخطوات المنهجية التي درج عليها[4]، وقد فصّل في الموضع الأول خاصة أما في البقية فاكتفى بالتدبر السريع لها كما صرح بذلك قائلا: "مع تدبر سريع لفقرات نص سورة (الأنبياء)"[5].

---

(1) _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص374- 375.

(2) _ ينظر: التحرير والتنوير، ج1، ص530- ص595/ ج16، ص62.

(3) _ وقد أكّد على ذلك بعد تدبره للموضع الذي جاء في سورة (مريم) محل التدبر وعنون قائلا: "استكمال تدبر ما جاء في سائر سور القرآن بشأن زكريا ويحي عليهما السلام: إن التدبر التكاملي يدعونا إلى أن نتدبر سائر النصوص التي جاءت في مختلف سور القرآن، بشأن زكريا وولده يحي عليهما السلام". ينظر: معارج التفكر، مج7، ص375- ص398.

(4) _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص376- ص381- ص400.

(5) _ معارج التفكر، مج7، ص404.

أما ابن عاشور نجده قد فسر كل موضع على حدى تفسيرا تحليليا، سار فيه هو كذلك على الخطوات التي عهدها في تفسيره للآيات عامة[1]، ومما لابد من تسجيله هنا هو دقته –رحمه الله– في بيان المعاني وتحليل المفردات والتوسع في دلالاتها[2].

– إظهار القضايا التي أضافها كل نص على سابقيه في ترتيب النزول: حرص مفسرنا على هذا، وكانت له إشارات دقيقة والتفاتات قيّمة[3]، اتضح من خلالها ما أكد عليه في (قواعد التدبر) وكان من أسس منهجه في التعامل مع القصص وهي قضية التكرار، فبعد ذكر القضايا التي أضافها نص سورة (الأنبياء) على سابقيه، يقول: "وبهذا التحليل ظهر لنا التكامل بين النص الذي جاء في سورة (مريم) والنص الذي جاء في سورة (الأنبياء) بشأن قصة زكريا وولده يحي عليهما السّلام.

ولدى التدبر الذي تمت به مقارنة فقرات النصين، وجدنا أنه لا توجد مكررات فيهما، بل توجد معلومات مضافات، أو التصريح بمعان تفهم باللزوم الفكري من دلالات النص الآخر، وهذا من عجائب القرآن المجيد"[4]، وأكد في موضع آخرا تتمة لما سبق: "وهو من مناهج القرآن التي انفرد بها في عرض موضوعاته"[5].

وهذا لم يركز عليه ابن عاشور وإن كانت له فيه إشارات عابرة[6]، ويرجع ذلك إلى أنه كان يتدبر الآيات في السياق الذي وردت فيه، حسب ترتيب سورها في المصحف الشريف.

3. أثر ترتيب مواطن ورود القصة على تدبرها وتفسيرها:

ظهر تمسّك صاحب (معارج التفكر) بالترتيب الذي اعتمده في حكاية تفاصيل القصة وحرصه على توظيفه في عدد من المواضع، سأسجل أهمها باختصار:

---

(1) _ ينظر المنهج العام للمفسر في تفسيره للآيات: منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير، نبيل أحمد صقر، ص43.

(2) _ ينظر: التحرير والتنوير، ج3، ص239/ ج16، ص61/ ج17، ص135.

(3) _ ومثاله القضايا الأربع أضافها نص سورة (الأنبياء) على ما سبقه، والقضايا الست التي أضافها نص سورة (آل عمران) إلى سابقيه. ينظر: مج7، ص401– ص408.

(4) _ معارج التفكر، مج7، ص404.

(5) _ معارج التفكر، مج7، ص412.

(6) _ مثلا نجده يشير في موضع سورة (آل عمران) إلى أنه سُبق بموضع سورة (مريم)، يقول: "وقد نبهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[آل عمران: 37] وقد كان في حسرة من عدم الولد كما حكى الله عنه في سورة مريم". التحرير والتنوير، ج3، ص238.

– التنبيه إلى بعض المعالم المنهجية الفنية للقصة كونه درسها مجتمعة، وخير مثال على ذلك أنه جعل للقصة عنوان وهو قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[مريم: 2]، قال: "هذه الآية هي بمثابة عنوان لقصة زكريا وولده يحيى عليهما السلام، والتي جاءت في هذا الدرس لقطات مقصودات بالبيان فيه"[1].

– الترجيح بين المعاني باعتماد ترتيب النزول، فتأمل مثلا ما قاله: "نلاحظ في نصّي (مريم) و(آل عمران) ما يلي:

1. أن نص سورة (مريم) جاء فيه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[مريم: 10].

2. وأن نص سورة (آل عمران) جاء فيه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾[آل عمران: 41].

فدل النصان على أن المراد ثلاث أيام بلياليها، وأن اليوم هو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. وبهذا تكون الحُبْسة قد بدأت بالليل، وانتهت عند غروب شمس اليوم الثالث، أو بدأت مع طلوع فجر اليوم الأول، وانتهت في آخر الليلة الثالثة.

وتقديم إنزال ما جاء في سورة (مريم) يشعر برجحان الاحتمال الأول، وأن الحُبسة بدأت بالليل، والله أعلم"[2]، واجتهاده هذا لم يوافقه فيه ابن عاشور الذي يقول في تفسيره لآية سورة (مريم): "وجعلت مدة انتفاء تكليمه الناس هنا ثلاث ليال، وجعلت في سورة آل عمران ثلاثة أيام فعلم أن المراد هنا ليال بأيامها وأن المراد في آل عمران أيام بلياليها. وأكد ذلك هنا بوصفها بـ ﴿سَوِيًّا﴾[مريم: 10] أي ثلاث ليال كاملة، أي بأيامها"[3]، وقد ذهب إلى هذا أيضا فضل عباس رغم أنه فسرها على ترتيب النزول[4].

– إظهار التكامل بين الآيات والحرص على بيان ما أضافه النص على سابقيه في ترتيب النزول ونفي التكرار بينها، وقد تعمدت ذكره سابقا وإعادته هنا باعتباره عنصرا مهما لابد من إدراجه ضمن منهجه في دراسة القصة، كما أنه أحد ثمار اختياره لترتيب النزول في تدبر القصة.

وهذه خلاصة ما ظهر من أثر لترتيب النزول في تدبر المفسر للقصة، أما ابن عاشور فقد كان يبني المعنى على ما سبقه من آيات وفق ترتيب المصحف، ويفسر كل موضع منها في سياقه الذي ورد فيه.

4. التنبيه إلى ما تضمنته القصة من عبر وعظات:

---

(1) _ معارج التفكر، مج7، ص377.

(2) _ معارج التفكر، مج7، ص392.

(3) _ التحرير والتنوير، ج16، ص73- 74.

(4) _ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، ص378.

وقفت على بعض الإشارات عند كلا المفسرين لما تضمنته القصة من فوائد وعبر لابد أن يحتذي بها القارئ ويجعلها نبراسا في حياته، ولعل من أهمها التركيز على التذكير بآداب الدعاء.

إذ ختم مفسرنا الحديث عنها بقوله: "من كل هذا نفهم أن زكريا عليه السلام كان ملتزما بأدب الذكر والدعاء، فنادى ربه في دعائه نداء خفيا.

وتحمل عبارة النداء على شدّة التوجه النفسي والقلبيّ، لا على رفع الصّوت، وقد غفل عن هذا المعنى بعض المفسرين"[1]، وهو لم يدقق كثيرا هنا بيانا لما يُستفاد من ذلك، بينما أبدع ابن عاشور قائلا: "وقد نبهه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة مع قول مريم: إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[آل عمران: 37] والحكمة ضالة المؤمن، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد في غير إبانه، وقد كان في حسرة من عدم الولد كما حكى الله عنه في سورة مريم. وأيضا فقد كان حينئذ في مكان شهد فيه فيضا إلهيا. ولم يزل أهل الخير يتوخون الأمكنة بما حدث فيها من خير، والأزمنة الصالحة كذلك"[2].

وفي ختام هذه المقارنة بين منهج المفسرين في عرض آيات قصة زكريا ويحي عليهما السلام لابد من تسجيل جملة من الملاحظات، إليك أهمها:

– أن تخصيص قصة زكريا ويحي عليهما السلام بالتدبر ضمن دراسة موضوعية لمواضع ورودها في القرآن الكريم، وإفرادها بالبحث سهّل الاطلاع عليها ومعرفة تفاصيلها في موضع واحد عند مفسرنا، بينما لابد من مراجعة كل سورة وردة فيها القصة عند ابن عاشور.

– إن المتدبر للقصة القرآنية الباحث عن تفاصيلها لابد له من مراجعة عدد من التفاسير، فهي مكملة لبعضها على تفاوت بينها، إذ قد يفتح الله لواحد في موضع ولغيره في آخر.

– تقصير مفسرنا في التثبت من صحة الترتيب النزولي الذي اعتمده في القصة، وذلك امتداد لتقصيره في البحث في الترتيب الذي اعتمده في تفسير السور بشكل عام، بينما سلم من هذا ابن عاشور لاعتماده الترتيب المصحفي.

– يؤخذ على صاحب المعارج الاعتماد في حكاية بعض تفاصيل القصة على ما جاء عند بني

---

[1] _ معارج التفكر، مج7، ص380.

[2] _ التحرير والتنوير، مج3، ص238.

إسرائيل[1]، وقد أكثر من ذلك مقارنة مع ابن عاشور وإن كان هو كذلك ذكر عددا منها[2]، وكان الأولى تنزيه القصة من ذلك، رغم أن ما نقلوه ليس فيه طعن في الدين أو مساس بعصمة الأنبياء.

الفرع الثالث: الآثار العلمية لتدبر أيات القصص وفق ترتيب النزول.

تأكّد مما سبق عرضه أن المفسّر كما تبنى ترتيب النزول في تدبره لسور القرآن الكريم، فإنه أيضا دعّمه بتلك الدراسات الموضوعية التي حرص فيها على امتثاله، ومن بينها تدبره لآيات القصص القرآني؛ وقد كان لاعتماده له في دراستها آثار إيجابية وجب التنبيه عليها، إشادة بجهود المفسر وبيانا لبعض محاسن تفسيره التدبري؛ وفي مقابل ذلك فإنّه من الضروري الإشارة إلى عدد من المحاذير والتحفظات التي حُفت بها، وانطلاقا من ذلك فقد قسمت هذا الفرع إلى قسمين:

القسم الأول: الآثار العلمية الإيجابية لتدبر آيات القصص وفق ترتيب النزول.

– إبراز القيمة العلمية للقصة القرآنية في القرآن المكي، وتجلى ذلك بتدبرها في مواضعها من السور التي وردت فيها أو من خلال الدراسات الموضوعية التكاملية؛ حيث أظهر المفسر مكانة القصص في هذا القسم الذي يكثر فيه إيراده، وكان ذلك ثمرة اعتماده للتفسير وفق الترتيب النزولي.

وهذه الميزة تؤخذ إجمالا لا تفصيلا، إذ يمكن الإشادة بها على اعتبار ضم السور المكية إلى بعضها إظهارا للميزات هذا القسم، دون تفصيل في الترتيب بين السور الذي هو غير مسلم به للمفسر كما سبق بيان ذلك.

– كشفت الدراسة التكاملية لآيات القصص القرآني عن أحد أهم الجوانب التي عُني فيها المفسر بالدراسة الموضوعية في تدبره للقسم المكي من سور القرآن الكريم، إذ "من أهم تجليات تطبيق المنهج الموضوعي في التفسير القصص القرآني، فالعلاقة وطيدة بين القصص القرآني والمنهج الموضوعي في التفسير"[3].

– إن الدراسة الموضوعية التكاملية لآيات القصة الواحدة يمثل أحد أهم مميزات تفسير (معارج

---

[1] _ ينظر: معارج التفكر، مج7، ص393- ص406.

[2] _ ينظر: التحرير والتنوير، ج3، 239.

[3] _ القصص القرآني ونشأة وتطور التفسير الموضوعي، عثمان بشير، ص21. (مقال)

التفكر) بشكل عام، وتدبر آيات القصص بشكل أخص؛ فهو الطريق الذي ارتضاه مفسرنا في دراستها، وفيه تجسّد جهده جليا من خلال جمع مواطن ورودها وتدبرها تدبرا تكامليا، سواء في ثنايا تدبره التحليلي أو في ما أردف به السورة من ملاحق؛ وهذا الاستيعاب ولا شك فيه فائدة بالنسبة للقارئ والمتدبر إذ يكفيه مؤنة الرجوع إلى مواطن ورود القصة في التفسير، والتي قد يغيب عنه بعضها، ليقف على مضمونها، ويتابع تسلسل أحداثها فيفهمها وينتفع بما جاءت فيها من دروس وعبر[1].

وقد يتعقب أحدهم هذا، فيقول فليراجعها في المؤلفات التي كتبت في القصص استقلالا؟

وأقول جوابا على ذلك: نعم، يمكنه ذلك لكن مفسرنا جمع بين الحسنيين كما يُقال، إذ جمع بين الدراسة الموضِعية التي ألفها المفسرون في دراستهم للقصص، وبين الدراسة الموضوعية التكاملية للقصة كما هو الحال بالنسبة للمؤلفات المستقلة، وهذا من عناصر التجديد في تفسير (معارج التفكر)، والتي زادت من قيمته، فكونه يقف في كل مرة يستجمع الآيات ويستحضر كل ما قيل في القصة ثم يتدبرها، فلا شك أنه عمل يذكر ليشكر، وإن نوقش في بعض المسائل وعلى رأسها صحة الترتيب الذي اعتمده.

وهذا ليس طعن في منهج السلف من المفسرين وفق الترتيب المصحفي، بل إن ما كتبوه في باب القصص هو الأصل الذي استند عليه من جاء بعدهم، فمن عندهم تستقى المادة العلمية؛ لكن ما تميّز به مفسرنا هو إظهارها والتنصيص عليها في مواطنها مما أكسبها مكانة مهمة في تدبره، وفيوض القرآن الكريم لا تنضب ولعل هذا مما تركه الأوّل للآخر[2].

– حرص المفسر على تدبر آيات القصة ضمن سياقها، وذلك بالتنبيه إلى مناسبة كل موطن وردت فيه القصة للسورة التي هو منها؛ وهذا جيّد منه إذ هو محاولة للتوفيق بين الدراسة التحليلية الموضعية والدراسة الموضوعية التكاملية، وقد أكّد على ضرورة ذلك في عدد من المواضع، يقول في مقدمة تدبره للآيات الواردة بشأن هود وقومه عاد: "تدبر هذه النصوص في مواضعها من سورها بعد النظر في سوابقها ولواحقها يكشف للمتدبر أن إيراد كل نص منها في السورة التي ورد فيها، قد استدعته

---

[1] _ وأود التنبيه هنا إلى موضوع جدير بالدراسة تصلح فيه رسالة علمية تحت عنوان: "القصص القرآني عند عبد الرحمن حبنكة الميداني –عرض وتقويم–"، إذ لو شحذ طالب همته في جمع جهود مفسرنا في باب القصص القرآني ودراستها وتقويمها، لجاء برسالة قيّمة.

[2] _ وقد نبه أحد الباحثين عن سبب ضمور الحديث عن القصص في التفسير، قائلا: "القصص القرآني نشأ في البداية في أحضان التفسير، لكنه انفصل ليجد مكانه في أحضان الأدب والتاريخ. والسبب في تألقه ضمن الأدب والتاريخ، وضموره ضمن التفسير هو أن التفسير في البداية كان يعتمد المنهج التحليلي، ولم يستخدم المنهج الموضوعي إلا في حدود ما يخدم التفسير التحليلي". ينظر: القصص القرآني ونشأة وتطور التفسير الموضوعي، بشير عثمان، ص19. (مقال)

مناسبة داعية لإيراده فيها. وعسى أن نكتشف بعد تدبرها أنها متكاملة فيما بينها، ولم يكرر فيها إلا ما يقتضيه إيراد القصة"[1].

بل كان يقف أحيانا ويعنون قائلا: "المناسبة التي استدعت كل نص في السورة التي هو منها"[2].

وصنيع المفسر ربما جاء استجابة لما أشار إليه سلفه من المفسرين، فهذا برهان الدين البقاعي ينبه إلى معنى ذلك بقوله: "...وأنّ كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى أدعى في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة؛ ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل مع أنها لا يخالف شيء من ذلك أصل المعنى الذي تكونت به القصة"[3].

– أن دراسة المفسر للقصص القرآني يطلعنا على جانب من تدبره للقسم المدني من السور الذي توفي قبل إتمامه، إذ نظرته الشاملة وإحاطته بآيات القرآن ومعانيها لم تتوقف عند القسم المكي بل تعدته إلى القسم المدني إذا كان للقصة تتمة فيه.

فمثلا وهو يتدبر مواطن ورود قصة مريم عليها السلام، نجده يلتفت إلى ما جاء في قصتها في القسم المدني من السور وهو يتدبر ما جاء في سورة (مريم) المكيّة، قائلا: "وعند هذا المقطع من سورة (مريم) المكيّة، نجد لقطة تكميليّة جاءت في سورة (التحريم/ 66 مصحف/ 107 نزول) النازلة في الثّلث الأخير من المرحلة المدنيَّة من تاريخ سيرة الرسول ﷺ بعد بعثته، وهي قول الله ﷻ في آخر آية منها: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾[التحريم: 12]"[4].

– انعكس استناد المفسر على أصول سليمة في تعامله مع القصص إيجابا خلال تدبره له، إذ لم يتكلف من جهة في تأويل القصص وصرفه عن ظاهره كما فعل غيره ممن سبقه إلى التفسير وفق ترتيب النزول، ومن جهة أخرى نجده ركّز جهده على إظهار التكامل بين مواطن وروده واستبعاد القول بالتكرار، محققا بذلك الهدف الأسمى الذي رسمه لتدبره للقصص القرآني، والذي هو من دوافع اختياره

---

[1] _ معارج التفكر، مج10، ص540. ينظر: مج5، ص360.

[2] _ معارج التفكر، مج5، ص357. ينظر: مج9، ص253.

[3] _ نظم الدرر، ج1، ص14.

[4] _ معارج التفكر، مج7، ص431. ينظر: مج9، ص267/ مج14، ص96.

للتفسير وفق ترتيب النزول[1]، وقد كانت له في ذلك التفاتات قيّمة وتوجيهات سديدة تنبئ عن تدبر عميق ودراسة وافية ومتأنية لكلام الله حرص عليها[2]، وشهد له بها عدد ممن كتب عنه.

فقد نبها روان فوزان وجهاد نصيرات في حديثهما عن إثبات التكامل بين النصوص القرآنية في الموضوع الواحد على أن المفسر اعتمد على "العلاقات السياقية، وعلى جهده العقلي في الربط بين النصوص؛ بهدف إثبات التكامل فيما بينها"[3]، ورغم أنهما انتقداه في بعض المواضع إلا أنهما شهدا له: "أنه قد أثبت براعته في ملاحظة الروابط بين الآيات، والعلاقات الدلالية بين المعنى"[4].

ويقول رشيد بوعافية: "ومن خلال تتبع تطبيق المؤلف لهذه القاعدة [يقصد القاعدة الخاصة بالتكرير وأغراضه[5]] عبر تفسيره (معارج التفكر) لمست أنه أبدع في تنزيلها في مختلف المواضع التي هي من الأشباه المتطابقة أو المتقاربة"[6]، وقد مثّل الباحث لذلك بما جاء في حديث المفسر عن آيات القصص وغيرها.

– تجرّد المفسر من التعصب لترتيب النزول، وإلزام نفسه به في تدبره لجميع مواطن ورود القصص: وهذه الحقيقة وقفت عليها بعد مراجعة أغلب آيات القصص التي تدبرها المفسر، إذ رغم أنه كان يُصرح حين يفتتح تدبرها باعتماده لترتيب النزول لكنه لم يلتزم بذلك دائما خلال تدبره لها، فهو يقدم ما يفرضه واقع القصة من تسلسل أحداثها و ترتيب معانيها على التقيّد بترتيب النزول بين مواطن ورودها، فإن وافق ترتيب النزول ذلك اعتمده[7]، وأن لم يوافق خالفه[8].

وهذا وإن دل على شيء فإنه يدل على حرص المفسر على خدمة القصة القرآنية لتبدو متناسقة ومتكاملة، وقد نص على المعتبر عنده في ترتيب أحداث القصة بقوله في قصة خلق آدم: "وفي هذا

---

(1) _ وقد سبق التفصيل فيها، وأذكّر هنا بما قاله: "تدبر القرآن مع مراعاة مراحل التنزيل وملاحظة ترتيب نزول الآيات يجلب نفعا كبيرا للمتدبر، فهو يهديه إلى مفاهيم جليلة تتصل بحكمة التدرج وبمعرفة الغاية من التكرير إذا وجد في القرآن دون فرق اقتضاء غرض التكامل". قواعد التدبر الأمثل، ص153.

(2) _ فتأمل قوله مثلا: "ومن شأن التدبر المتأني، دراسة هذه النصوص دراسة واعية بنظرة شمولية تكشف التكامل بينها". معارج التفكر، مج5، ص279.

(3) _ (قواعد التدبر الأمثل) للشيخ الميداني: تحليل ونقد، روان فوزان وجهاد نصيرات، ص1188. (مقال)

(4) _ المرجع نفسه، ص1189.

(5) _ قواعد التدبر الأمثل، ص307.

(6) _ قواعد التدبر القرآني بين التنظير والتطبيق عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص355. (مقال)

(7) _ ينظر: معارج التفكر: مج3، ص669/ مج7، ص524.

(8) _ ينظر: معارج التفكر، مج5، ص361/ مج9، ص269/ مج10، ص542/ مج11، ص630/ مج14، ص96.

الملحق أعرض ما انتهى إليه بتوفيق الله وفتحه تدبري لهذه النصوص، تدبرا تكامليا متأنيا، ناظرا إلى ما في هذه النصوص من فروق في الألفاظ ولو كانت طفيفة، وناظرا إلى ما يقتضيه التسلسل المنطقي للأحداث، وإلى ما يلزم عن الفكرة المنصوص عليها من أفكار أخرى مطوية إيجازا. وما انتهيت إليه هو بمثابة خطوة في طريق التدبر التكاملي لكتاب الله ﷻ، وهو طريق طويل"[1].

وهذه الخطوة أمثلتها كثيرة ويطول سرد ولو واحد منها فقط، لذا سأكتفي بالتنبيه إليه وأحيل إلى مواطنه لمن أراد التفصيل.

أقول: خص مفسرنا أحد الملاحق التدبرية لسورة (الأعراف) بدراسة تكاملية للنصوص بشأن لوط وقومه في القرآن المجيد، افتتحها بقوله: "جاء ذكر "لوط" ﷺ وقومه في خمسة عشر نصا في القرآن المجيد...وأنقل هذه النصوص من المصحف أوّلا، مرتّبةً وفق ترتيب نزول سورها، ثم أشرع إن شاء الله بتدبر ما جاء فيها تدبرا تكامليا على ما يفتح الله به"[2].

وقد كان ذلك إذ ذكر هذه النصوص وفق ترتيب نزولها، ثم لما بدأ في الحديث عن تفاصيل القصة التي قسّمها إلى فصول خمسة لم يلتزم في ترتيب النصوص الواردة فيها ترتيب النزول، بل ذكر لكل فصل ما يخدم موضوعه من نصوص دون التقيّد بترتيب النزول.

– ترك اعتماد المفسر لترتيب النزول في تدبره لبعض القصص أثرا واضحا ظهر في دراساته الموضوعية التكاملية، وتجلى خاصة من خلال إظهاره ما أضافه كل موطن من قضايا على ما سبقه وفق ترتيب النزول[3]، وهذا وإن كان يُنبأ عن حرص المفسر وجهوده، إلا أن ما قاله هنا يدخل ضمن اجتهادات المفسر التي يُحتكم في قبولها لصحة الترتيب النزولي.

– حرص المفسر على إظهار موضع العبرة والعظة من القصص القرآني، واجتهاده في تنزيل مضمونه على الواقع، علاجا لمشكلات عصره، وسعيا لإيجاد حلول للقضايا المعاصرة والأزمات التي يعانيها أهل زمانه.

ومثاله ما ذكره في خاتمة الملحق الثالث من سورة (النمل) الذي خصّه بدراسة حول صالح ﷺ وقومه ثمود في القرآن المجيد، حيث نجده عنون للفصل التاسع والأخير منه بـ"توجيه العظة للذين يكفرون

---

[1] _ معارج التفكر، مج3، ص668- 669.

[2] _ معارج التفكر، مج5، ص287.

[3] _ ومثاله صنيعه في قصة نوح ﷺ. ينظر: معارج التفكر، مج4، ص317.

برسالة محمد ﷺ بما أنزل الله بكفار ثمود"[1]، ثم يقول معمما ما جاء في القصة: "كل النصوص التي جاء فيها طرف من قصة ثمود، قد اشتملت على توجيه العظة للناس جميعا بعد بعثة محمد ﷺ، بأنهم عرضة لعقاب الله وعذابه في الدنيا قبل يوم الدين، إذا صارت أحوالهم مثل أحوال مجرمي ثمود"[2].

وتأمل قوله أيضا لما وصل إلى تدبر قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [الشعراء: 183] خلال تدبره التكاملي لقصة شعيب عليه السلام وقومه، قال: "ونلاحظ في زماننا الذي نعيش فيه، أنه قد ظهر الفساد في البر والبحر والجو بما كسبت أيدي الناس ظهورا شنيعا فاحشا.

ومن مظاهر هذا الفساد في الأرض انتشار الفواحش والمنكرات في المجتمع البشري، وانتشار الأوجاع والأمراض والأسقام، التي هي نتائج معاصي الناس لربهم، كمرض "الإيدز"...فالإفساد في الأرض من أخطر أنواع السلوك الإنساني، ومن أجل ذلك نهى الله ﷻ عنه في كل الرسالات التي كلف رسله أن يبلغوها للناس، فالله لا يحب المفسدين، بل ينتقم منهم ويهلكهم"[3].

وهذه أهم المحاسن التي وقفت عليها خلال تتبع الدراسات الموضوعية لآيات القصص، وأنتقل الآن لتسجيل جملة من الملاحظات والمؤاخذات حولها.

القسم الثاني: محاذير اعتماد ترتيب النزول في تدبر آيات القصص.

– التقصير في التثبت من صحة الترتيب النزولي المعتمد في ترتيب مواطن ورود القصة، وهذا يؤخذ على مفسرنا كما يؤخذ على غيره ممن أكد على ضرورة اعتماده، إذ رغم كونه الركن المحوري الذي تُبنى عليه حكاية تفاصيل القصة إلا أنه لم يلق عناية كافية، فمفسرنا يرتب المواضع وفق الترتيب الذي اعتمده في تدبره للسور وقد سبق الحديث عن عدم تثبته منه، وغيره أيضا فقد كانت عندهم مجرد إشارات إلى طريقة الوصول إليه.

ولو أدرج مفسرنا ضمن منهجه في الدراسة الموضوعية التكاملية لآيات القصص خطوة للتثبت من صحة الترتيب المعتمد، بذكر أقوال أهل العلم تحقيقا وتدقيقا فيها وترجيحا بينها، لأضاف للتفسير وفق الترتيب النزولي أهم عنصر أغفل الحديث عنه جل من اهتم به، ولقدم له خدمة عظيمة قد تحجز له مكانا بين المناهج المستحدثة في التفسير عامة وفي دراسة القصص على وجه الخصوص.

---

[1] _ معارج التفكر، مج9، ص320.

[2] _ معارج التفكر، مج9، ص320.

[3] _ معارج التفكر، مج5، ص371. ينظر: مج10، ص573.

– إن غياب التأصيل العلمي لمسألة الترتيب النزولي بين مواطن ورود قصص القرآن، قد نتجاوز الحديث عنه لو أن مفسرنا لم يُبدي تفاعلا معه؛ أما وإنه بنا عليه عددا من المسائل التي ارتكز عليها خلال تدبره لعدد من القصص، فإن البحث في صحته يعد ضرورة ملحة لتقويم ما قاله المفسر في ذلك[1].

– التعصب لترتيب النزول ومحاولة فرضه على أحداث القصة، ولو كانت تفاصيلها تأبى ذلك؛ وهذا سلم منه مفسرنا في كثير من الأحيان إذ كان لا يتعصب له ويخالفه كما سبق وأن أشرت، ولاشك أن في ذلك دليلا واضحا على عدم جدوى اعتماد ترتيب النزول في جميع القصص القرآني، فصحيح قد ينطبق على بعض القصص لكنه لا ينطبق عليها جميعا.

وهذا ما يفسر الارتباك الذي وقع فيه مفسرنا لما جاء إلى التطبيق، إذ رغم تصريحه بأنه المنهج الأمثل في دراسة القصص واعتماده له في الغالب إلا أنه خالفه أحيانا[2]، وهذه مزية تحسب له من جهة، ومثلبة تسجل عليه من جهة أخرى، ولعل ما أوقعه في ذلك هو الإعجاب بترتيب النزول وضعف إعطاء المسائل التنظيرية حقها من البحث، ومحاولته سد الثغرات التي وقع فيها من سبقه إليه، بهدف إعطائه بعض الشرعية التي قد تزيد من قيمته وتكسبه مكانة بين مناهج التفسير المستحدثة.

– إلغاء جهود السلف في باب الدراسة الموضوعية للقصص القرآني ونسبة ذلك للمعاصرين؛ وهذا ولا شك فيه إجحاف في حقهم، فقد كانت لهم في ذلك جهود طيبة والتفاتات قيّمة، وأمثل هنا بما وقفت عليه عند الخطيب الإسكافي[3] وهو يفسر قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[الأعراف: 59] استحضر ما جاء في معناها في سورتي (هود)[4] و(المؤمنين)[5]، ثم تعقبها بقوله: "للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكيات...

---

[1] _ أقصد هنا مثلا ما كان يذكره المفسر من قضايا أضافها كل موطن على سابقيه في ترتيب النزول، وكذا تلك الترجيحات التي اعتمد فيها عليه، وقد سبق التمثيل لكليهما.

[2] _ إذ شذّ عن منهجه هذا في قصة إبراهيم عليه السلام مثلا، حيث رتّب مواطن ورودها لما ذكرها ابتدءا وفق ترتيبها في المصحف، ثم قسّمها إلى فصول أدرج تحت كل واحد ما يخدمه من مواضع غير مرّتب إياها لا على ترتيب المصحف ولا على ترتيب النزول. ينظر: معارج التفكر، مج14، ص96- ص114.

[3] _ هو: محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله، عالم بالأدب واللغة، كان أسكافيا ثم خطيبا بالري، من مؤلفاته: مبادئ اللغة، درّة التنزيل وغرة التأويل، توفي سنة: 420هـ. ينظر: بغية الوعاة، السيوطي، ج1، ص149/ الأعلام، الزركلي، ج6، ص227 .

[4] _ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[هود: 25- 26].

[5] _ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[المؤمنون: 23].

والقصة قصة واحدة؟ والجواب أن يقال: إن للأنبياء صلوات الله عليهم مقامات مع أممهم يكرر فيها الإعذار والإنذار، ويرجع فيها عودا على بدء الوعد والوعيد، ولا يكون دعاؤهم إلى الإيمان بالله، ورفض عبادة ما سوى الله تعالى في موقف واحد بلفظ واحد لا يتغير عن حاله، مثل الواعظ يفتن في مقاله...جاءت المحكيات على اختلافها...لأنه قال لهم مرة باللفظ الذي حكى، ومرة أخرى بلفظ آخر في معناه كما ذكر.

وكذلك الجواب يرد من أقوام يكثر عددهم ويختلف كلامهم ومقصدهم...فلا وجه إذا للاعتراض على هذا ونحوه"[1].

وفي هذا المثال وغيره يوقفنا على عناية السلف بما عرف بعدهم بالمنهج الموضوعي، وربما ما يحسب للمعاصرين هو التوسع فيه واعتماده منهجا في دراسة القصة الواحدة بجمع كل ما ورد فيها في القرآن الكريم[2].

وبناءا على ما سبق فإنه كان بإمكان مفسرنا أن يرتب السور التي تدبرها على ترتيب المصحف، ويدرج ضمنها تلك الدراسات الموضوعية للقصص أو يحيل عليها في الملاحق، فيسلم من جل الانتقادات التي حف بها تفسيره من جهة اعتماده الترتيب النزولي؛ ولا ينافي هذا ما سبق وأن نبهت إليه من إيجابيات ومحاسن، فهي لا تحمل بين طياتها ما يدعوا إلى التمسك بتفسير القرآن الكريم كاملا حسب ترتيب النزول، بل فيها إبراز لجهود المفسر في ذلك والتي تبقى محفوظة إذا ما أعيد ترتيب هذا السفر وفق ترتيب المصحف.

– اعتماد المفسر على ما جاء عند أهل الكتاب في عرض تفاصيل القصة، وتحديد ما جاء مبهما فيها: وهذا لابد من تنقية ما علق بالتفاسير منه، وكدر صفو الحديث عن القصة والاستفادة بما فيها من عبر وعظات، إذ هو من أبرز ما ينبغي على المفسر المجدد العناية به إما بنقدها أو الإعراض عنها[3].

لذا فإنه لابد للمتدبر أن يضع نصب عينيه قاعدة، وهي: "أن هناك فرقا كبيرا بين قصص القرآن، والقصص التي يوردها المفسرون، فقصص القرآن حق لا شك فيه، وأما ما أورده المفسرون ففيه الحق

---

[1] _ درّة التنزيل وغرة التأويل، ج2، ص598- 599.

[2] _ ومنهج الدراسة الموضوعية بدأ يلقى رواجا عند الباحثين، من خلال الكشف عن ملامحه عند بعض المفسرين المعاصرين، تقول نادية عمارة: "ولقد اتبعت في عرضي لمضمون البحث اللون الموضوعي في التفسير، في أحد أشكاله التي رسمها بعض العلماء في معالجة المنهج الموضوعي في تفسير القرآن الكريم...[وتسترسل بعد ذلك ثم تقول:] ومن هنا تحدد لي الإطار الذي انطلقت منه في معالجتي للون الموضوعي من خلال تفسير الشعراوي للقصص القرآني". القصص القرآني في تفسير الشيخ الشعراوي، ص11.

[3] _ ينظر: التجديد في التفسير في العصر الحديث، دلال بنت هوبمل، ص99/ التجديد في التفسير، أحمد الشرقاوي، ص14. (مقال)

والباطل، وقد توسع بعض المفسرين في إيراد ما يصح وما لا يصح من القصص"[1].

– الحكم على الجهود المبذولة في التفسير وفق ترتيب النزول بشكل عام: فإن كان ما سبق وأن ذكرته يخص الجهود المبذولة في تطبيقه، فإن الكلام هنا عن الدراسات التقويمية لتلك الجهود؛ التي أرى من الضروري التخلص فيها من الأحكام العامة في باب القصص القرآني وغيره، إذ لابد من الحكم على كل جهد منها على حدى، فهم وإن اتجهوا إلى اختيار نفس الطريقة إلا أن عملهم وآراءهم افترقت في الكثير من الأحيان؛ بل أدقق أكثر وأقول أنه لابد في منهج المفسر الواحد من التفصيل، فمفسرنا مثلا لابد من التمييز بين دراساته لآيات القصص ضمن سورها وفق ترتيب النزول وبين الدراسات الموضوعية التي خصّها بها، فالأولى لم تتأثر بترتيب النزول، أما الثانية فيُعترض عليها بما سبق وأن بيّناه من ضعف مستند الترتيب المعتمد في أغلبها.

– التمسك بترتيب النزول بهدف الطعن في الدين، والتشكيك في المتواتر عند المسلمين: فإن كان مفسرنا أظهر صدق نيته وحسن مقصده في اعتماد ترتيب النزول في باب القصص وفي غيره، وإن خولف في صحة العمل الذي قدمه، فإن غيره تسلل منه للطعن والتشكيك في عدد من المسائل الثابتة المقررة عند المسلمين؛ وأمثل هنا بكتاب "أحسن القصص تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر مع ترتيب السور حسب النزول"، الذي يحتاج إلى دراسة مستقلة تبطل الدعاوي التي ضمها بين طياته، وأنقل هنا بعض ما قاله صاحبه مما يظهر سوء النوايا وخبث الطوايا، فهو يدعوا ابتداءا إلى التجرد والتمسك بالقرآن وحده والتخلص من جميع ما قيل في غيره، فتأمل قوله: "الكتابة في ترتيب السور حسب النزول لم يكن هدفا بحد ذاته، لولا أني وجدته من الضرورات القصوى عندما شرعت في الإعداد لكتابة تاريخ الإسلام في عصر محمد معتمدا القرآن الكريم كمصدر، دون الاستعانة بحديث أو تفسير، أو أي كتابات بشرية أخرى"[2]، بل هو يطعن في السلف وفي الترتيب المصحفي على حد سواء قائلا: "والسلف يتحملون وزر ترتيب سور القرآن بالشكل الذي هي عليه في المصحف، وضياع الشكل الصحيح للترتيب حسب النزول"[3].

ولا أطيل في ذكر هذه الأباطيل والأفكار المبنية على هدم الثوابت وأكتفي بها تنبيها على غيرها، وتحذيرا من هذا الكتاب.

وخلاصة القول في ذلك كله: أن مفسرنا كانت له جهود معتبرة في الحديث عن قصص القرآن

---

[1] _ قصة التفسير، الشرباصي، ص40.

[2] _ أحسن القصص، ابن قرناص، ص15.

[3] _ المرجع نفسه، ص17.

الكريم خلال تدبره للقسم المكي من السور مما يحسب له ويزيد من قيمة تفسيره التدبري، وإن كانت الدراسة الموضوعية لآيات القصص القرآني وفق ترتيب النزول عنده وعند غيره، لا زالت تحتاج إلى جهود للوصول إلى دراسة علمية مستندة إلى أسس ومعايير محددة وواضحة، تدبرا لها واستخلاصًا للعبر والعظات لنحياها واقعًا، إذ أهم ما ينغي التركيز عليه لقبول هذه الدراسات هو التثبت من صحة الترتيب النزولي أولا، ثم التأكد من موافقته لأحداث القصة ومجرياتها ثانيا.

وأؤكد على أن ما نبهت إليه من هفوات وقع فيها مفسرنا، لم يكن من باب الطعن فيه–رحمه الله– أو الانتقاص من قيمته، إذ حرصه على تدبر القرآن الكريم لا ينكره إلا جاحد مكابر، وإنما هي محاولات في طريق تهذيب هذا التفسير، استجابة لما دعا إليه هو نفسه في مدخل إحدى الدراسات الموضوعية لآيات القصص، حيث قال: "وأنقل هذه النصوص من المصحف أولا ثم أشرع بتدوين ما انتهى إليه تدبري، بالمقدار الذي فتح الله به عليّ، ويسّره لي، وأترك لمن يأتي على الطريق نفسه من بعدي، ما يفتح الله به عليه من إضافات أو تعديلات أو تصويبات، فسنّةُ الله في العلم الإنساني أن تكون حركات تراكميّة وتعديليّة وتصحيّحة"[1].

وفي الختام أسأل الله أن يسخر لهذا السفر من يقوم بتنقيحه وتهذيبه وإعادة ترتيبه وفق الترتيب المصحفي، من تلامذة الشيخ المقربين أمثال مجد مكي وهو أهل لذلك، فقد وقفت على ما قدمه من خدمة لأحد التفاسير، وتمنيت أن يوفّق لذلك في تفسير شيخه أو أن يُحتذى غيره بصنيعه وبمنهجه الذي بيّنه قائلا: "وبعد قراءتي للكتاب وصحبتي الطويلة للمؤلف، رأيت أنه لابد لخدمة هذا التفسير من باب النصيحة لكتاب الله ﷻ، من عملين اثنين متوازيين: التخلية والتحلية. فأما التخلية، فتكون بتحويل الاستطرادات الكثيرة والطويلة البعيدة عن موضوع الآية التي يقوم بتفسيرها إلى آخر السورة، مع التنبيه على ذلك في موضعه من الآية"[2]، وقد أثبت ذلك في الملاحق التي أدرجها آخر كل سورة [3]، وأما التحلية فقد اقتصر فيها على عدد من الجوانب نبه إليها في تقديمه للتفسير [4].

وما سار عليه في طريق تهذيب (التفسير المكي) جيّد، و يمكن اعتماده في تفسير (معارج التفكر).

---

[1] _ معارج التفكر، ج3، ص669.

[2] _ التفسير المكي "سورة النساء"، محمد طاهر الكردي، ص7.

[3] _ فقد جعل لسورة (النساء) وحدها خمس وعشرين ملحقا. ينظر: المرجع نفسه، ص395.

[4] _ ينظر: المرجع نفسه، ص8– 9.

خاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، أحمده تعالى أن وفقني ويسر لي إتمام ما أردت بيانه من أثر ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر)، وبعد تطواف طويل ماتع مع هذا الأخير؛ أوجز ما خلصت إليه من نتائج وتوصيات أهمها:

– أن جمع القرآن الكريم وحفظه في السطور كان عبر مراحل، توجت بترتيبه وفق صورة ثابتة تواتر نقلها في الأمة الإسلامية جيلا عن جيل، اتفق العلماء فيها حول توقيفية ترتيب الآيات، أما ترتيب السور فاختلفوا فيه على مذاهب أرجحها القول بالتوقيف فيما استقر عليه الجمع في عهد عثمان ﷺ.

– أن تفسير القرآن الكريم ينقسم باعتبار ترتيب السور إلى قسمين رئيسين؛ الأول يراعى فيه ترتيب المصحف وهو عريق الأصول ظهر مع البدايات الأولى لعلم التفسير، أما الثاني فالمعتمد فيه هو ترتيب النزول وهذا لم يشتهر إلا عند عدد من المعاصرين.

– أن بيان حكم مخالفة الترتيب المصحفي واعتماد الترتيب النزولي في تفسير سور القرآن الكريم، سكت عنه علماء السلف فلم يثبت عنهم شيء، أما العلماء والباحثون المعاصرون فانقسموا في ذلك بين قائل بالمنع وآخر بالجواز باعتباره ليس مصحفا للتلاوة والتعبد.

– أن الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم لا يتأتى إلا بالرواية، وقد وصلنا عدد منها لكن لم يثبت منها ما يرقى للاحتجاج به، فضلا على أن يُتخذ مستندا لترتيب صحيح؛ أما ترتيب بعض السور فيما بينها فيستفاد مما ثبت من روايات صحيحة، وكذا من جملة المصادر التي أشارت إلى ذلك فهي خير معين لمن استفاد منها وأحسن استغلالها.

– بيّنت هذه الدراسة أن إطلاق حكم عام على كل من اهتم بترتيب سور القرآن الكريم وفق نزولها فيه غلو وتعسف؛ لأن أسباب وأغراض البحث في هذا الترتيب هي التي تحدد ذلك، وقد تعددت بتعدد نوايا أصحابها، وأثر ما أقدموا عليه في فهم كتاب الله ﷻ.

– اتضح أيضا أن حركة التفسير وفق الترتيب النزولي للسور شهدت ظهور عدد من التفاسير، اتفقت في الناحية الشكلية المنهجية واشتركت في بعض المسائل التي بُنيت عليها أو قصدت تحقيقها، وافترقت في مضامينها حيث كان لكل مفسر اتجاهه وخطته التي تتبعها خلال مسايرته لترتيب النزول.

– أنّ عبد الرحمن حبنكة الميداني واحد من أهم الشخصيات الإسلامية المعاصرة التي برزت في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي، أثرت نشأته الطيّبة وما تحلى به من أخلاق حسنة في بناء شخصيته العلميّة التي أكسبته مكانة بين مصاف العلماء المعاصرين، وميّزته عن سابقيه ممن فسّر وفق

ترتيب نزول السّور.

– أن المفسر كانت له جهود بارزة في علم التفسير تنظيرا في كتابه (قواعد التدبر الأمثل)، وتطبيقا في مؤلفاته في ميدان الدراسات الموضوعية، قدّم من خلالها جهدا مشكورا في فكرته ومعالجته وأسلوبه، وشكلت الركيزة التي انطلق منها في العملية التفسيرية ومهّد بها لتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).

– يعتبر تفسير (معارج التفكر) خلاصة فكر المفسر، وثمرة جهود حثيثة في تدبر القرآن الكريم، فقد كتبه في أواخر سنين حياته، وحوى مادة تفسيرية غزيرة، تأثر فيها بترتيب النزول فتفاعل معه وفعّله خلال تدبره للقسم المكي من السور، أما المدني منها فقد توفي قبل إتمامه.

– تبيّن لنا من البحث أنّ صاحب (معارج التفكر) وإن خالف المفسرين باعتماده الترتيب النزولي بديلا عن الترتيب المصحفي فإن ذلك لم يؤثر سلبا في قضايا المنهج، فقد اعتمد على مصادر أصيلة وطرق عدّها العلماء من أحسن طرق التفسير؛ وهذا لا ينفي وجود بعض المواضع التي برز فيها أثر الترتيب النزولي وعلى رأسها تفسير القرآن بالقرآن.

– أظهرت الدراسة أن الاهتمام بترتيب نزول سور القرآن الكريم أو تاريخ النزول عامة، معهود عند من فسّر وفق الترتيب المصحفي من السلف ومن جاء بعدهم.

– اتضح أيضا من البحث أنّ فكرة التفسير وفق الترتيب النزولي للسور أصيلة عند مفسرنا، لكن خانها التأصيل والتفصيل في المسائل الجوهرية التي تُؤسِّس لها، بما يدرجها في مصاف المناهج المستحدثة في علم التفسير ويحجز لها مكانا بينها، ويخفف من حدة النقد الموّجه إليها.

– تجلى لنا أن مخالفة مفسرنا للترتيب المصحفي في تدبره لكتاب الله ﷻ بني على أسس عامة استند إليها محورها هو ترتيب نزول سور القرآن الكريم، لذلك كان هو المحرك الرئيسي لعجلة النقد الموجه لاختياره لأنه لم يلق حقه من البحث والتحقيق والتدقيق أولا، ثم تأثر به وأثر ذلك بدوره على تدبره لآيات وسور الذكر الحكيم بعد ذلك.

– برزت شخصية المفسر العلمية في عدد من المسائل خلال تدبره، فقد كانت له آراء خاصة ومناقشات، من أهمها تصريحه بالاجتهاد في ترتيب المصحف في مقابل قطعية ترتيب النزول، في محاولة منه لإيجاد مسوغ لاختياره.

– تبيّن بعد تتبع الأسباب التي صرّح بها المفسر واختار الترتيب النزولي بهدف تحقيقها، أنها مطالب مشروعة، وليس فيها ما يمس بالدين أو يطعن في قدسية القرآن الكريم؛ وفي مقابل ذلك اتضح

أنها لا ترقى إلى تعليل ما أقدم عليه وخالف به الترتيب المتواتر الذي سار عليه أغلب المفسرين في بيانهم لمعاني كتاب الله ﷻ.

– ظهرت ملامح التفسير وفق الترتيب النزولي للسور جليا في تفسير (معارج التفكر)، فقد وظّفه المفسر خلال تدبره التحليلي وكان له الأثر الواضح في تدبره للسور القرآنية من جهة؛ ومن جهة ثانية فقد اجتهد في اعتماده خلال ما قدمه من دراسات موضوعية، وهذه الأخيرة شغلت حيّزا كبيرا من تفسيره وتجلى فيها أثر الترتيب النزولي أكثر من سابقتها.

– إن الدراسة التقويمية لتطبيقات المفسر لترتيب النزول أثناء تدبره أظهرت جملة من محاسن تفسيره التدبري ومعالم التجديد فيه، كما أنها كشفت عن عدد من المؤاخذات التي كانت من الآثار السلبية لاعتماده الترتيب النزولي فهي من محاذير هذا النوع من التفاسير.

– أن الفهم المقاصدي كان من سمات تفسير عبد الرحمن حبنكة الميداني للسور المكية وفق ترتيبها النزولي؛ فقد اجتهد في مراعاة مقاصد القرآن الكريم وأهدافه الأصيلة دون تكلف أو تعسف في التأويل، حرصا منه على الربط بين التفسير وفق الترتيب النزولي وما يستفاد منه في واقعه وما يعانيه أهل زمانه.

– تبيّن من البحث أنه رغم وثاقة الصلة بين الترتيب الزمني للسور وعلم المكي والمدني، إلا أن مفسرنا لم يعط هذا الأخير حقه من البحث تعريفا به وتحقيقا في نوع كل سورة وما تحمله من آيات مستثناة وهذا من الناحية التنظيرية، أما من الناحية التطبيقية فقد ترك ترتيب السور المكيّة وفق نزولها جملة من الإيجابيات التي تحسب للمفسر فهي من معالم التجديد في توظيفه له، كما خلف آثار سلبية كان من الضروري لفت الانتباه إليها من باب تهذيب أحد أهم التفاسير وفق ترتيب النزول.

– اتضح من هذه الدراسة أن عبد الرحمن حبنكة الميداني وإن خالف العلماء في اعتماد الترتيب النزولي بديلا عن الترتيب المصحفي الذي يعد ركن القول بالمناسبات بين السور عند المؤيدين لها، إلا أنه لم يغفل الحديث عنها بل اجتهد في طلبها وفق الترتيب النزولي، وكانت له جهود حثيثة في الكشف عنها يُحتكم في قبولها إلى صحة الترتيب المعتمد فيها.

– ظهر بعد البحث أن ترتيب النزول ترك أثرا واضحا في تدبر المفسر لآيات القصص، من خلال الدراسات الموضوعية التي خصها بها واستند إليه في ترتيب أحداثها فكانت من مميزات تفسيره التدبري؛ وهذا النوع من الدراسات لا زال بحاجة إلى جهود تأصيلية تؤسس لدراسة علمية واضحة المعالم، إذ أهم ما ينبغي التركيز عليه هو التثبت من صحة الترتيب النزولي أولا، ثم التأكد من موافقته

لأحداث القصة ومجرياتها ثانيا.

– خلصت هذه الدراسة إلى أن المفسر وإن لم يتمكن من تحقيق جميع الأهداف التي خطها لتدبره، فقد جسّد بعضها، والحكم هنا قاصر على القسم المكي فقط دون المدني الذي –ربما– كانت الرؤية ستتضح فيه بشكل أفضل وأكمل.

– اجتهد الميداني في تطهير التفسير وفق الترتيب النزولي للسور مما ألحقه به من سبقه، فكان اعتماده عليه أسلم من سابقيه، وإن لم يسلم من بعض المحاذير والتحفظات وأهمها إهمال التثبت من صحة الترتيب النزولي الذي اعتمد عليه.

۞ التوصيات:

قبل أن أختم أردت التنبيه إلى عدد من التوصيات علّها تفتح أفقا جديدة للباحثين، وقد لخصتها في نقاط أهمها:

– أحث ورثة الشيخ من أبنائه وتلاميذه بتبني مشروع إعادة طباعة تفسير (معارج التفكر) حسب الترتيب المصحفي، إذ لو تتضافر جهود عدد من الباحثين في ترتيب السور التي تدبرها الشيخ وفق الترتيب المصحفي، وتختم كل سورة بملاحق تثبت فيها اجتهادات المفسر واستنباطاته وتطبيقاته لترتيب النزول مع التعليق عليها إذا تطلب الأمر ذلك لقدمت لهذا السفر خدمة عظيمة، ولزاد ذلك من قيمته وإقبال أهل العلم عليه.

– أوجه عناية المشتغلين بعلم التفسير إلى ضرورة الاستفادة من تفسير (معارج التفكر)، والإقبال عليه بحثا وإفادة، خاصة في الدروس العلمية الشفوية.

– أوصي بإقامة ندوات علمية لإبراز الجهود المعاصرة في تفسير القرآن الكريم التي خالفت المعهود عند السلف.

– كما اقترح جملة من المواضيع التي كنت نبهت إليها في ثنايا البحث، وأذكّر بأهمها:

* مقاصد القرآن الكريم في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).

* الآيات المدنية والحكمة من ضمها إلى السور المكية في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) – عرض ونقد–.

* المناسبات داخل السورة الواحدة عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.

* الدراسة الموضوعية لآيات القصص القرآني عند المفسرين، تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) أنموذجا –دراسة نقدية–.

* القصص القرآني عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني –عرض وتقويم–.

وبعد هذا الجهد المتواضع، أسال الله العلي القدير أن ينفع به ويتقبله بقبول حسن ويجعله في ميزان الحسنات إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهارس

أولا. فهرس الآيات القرآنية

ثانيا. فهرس الأحاديث النبوية

ثالثا. فهرس الآثار

رابعا. فهرس الأعلام المترجم لهم

خامسا. فهرس المصطلحات المعرّف بها

سادسا. ثبت المصادر والمراجع

سابعا. فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا. فهرس الآيات القرآنية:

الآية أو طرفها	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة (1)		
﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾	2 -3	232
سورة البقرة (2)		
﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ... ﴾	23	238
﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗا ... ﴾	38	130- 134
﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم ... ﴾	54	284
﴿ ... وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ ... ﴾	125	136
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ... ﴾	168	174
﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ... ﴾	216	159
﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ ... ﴾	219	56
﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا ... ﴾	234	57
﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ ... ﴾	258	239
سورة آل عمران (3)		
﴿ ... إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾	37	347-349
﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ... ﴾	41	348
﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ ... ﴾	62	324
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾	**102**	ب

سورة النساء (4)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ... ﴾	1	ب
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ... ﴾	43	170-56
﴿ ...وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾	**125**	33
﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ ... ﴾	140	169
سورة المائدة (5)		
﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾	3	168 -55 169-
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ... ﴾	6	170
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ... ﴾	41	233
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ ... ﴾	90	56
سورة الأنعام (6)		
﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾	11	157
﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾	29	229
﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... ﴾	32	231
﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ... ﴾	52	139
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ... ﴾	68	169
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ... ﴾	74	150
﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ... ﴾	82	34
﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ... ﴾	119	168
﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ... ﴾	120	161

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ... ﴾	141	285
﴿ كُلُوا۟ مِن مَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ... ﴾	142	173
﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ ... ﴾	145	169
سورة الأعراف (7)		
﴿ ... قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾	3	162
﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ... ﴾	20	331
﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ... ﴾	32	230
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ... ﴾	59	356
﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ... ﴾	135	335
﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ... ﴾	167	319
﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ... ﴾	175	285
﴿ ... فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	176	327
﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ... ﴾	187	217
﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ... ﴾	205	319
سورة التوبة (9)		
﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ... ﴾	83	179-178
﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... ﴾	128	6
سورة يونس (10)		
﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾	1	54
﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ... ﴾	2	218
﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ... ﴾	3	249-158

﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ ... ﴾	18	214
﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ ... ﴾	20	215
﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢٥ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ ﴾	25	356
﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ ... ﴾	38	238
﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾	76	219
﴿ ...وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۖ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾	87	136
﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ... ﴾	94	286-149
سورة هود (11)		
﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾	1	54
﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ... ﴾	13	238
﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ... ﴾	25	356
﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي ... ﴾	35	227
﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ ... ﴾	44	158
﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ ... ﴾	98	147
﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ ... ﴾	114	276-146
سورة يوسف (12)		
﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ... ﴾	3	324- 327- 329
﴿ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴾	14	155
﴿ ...إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾	87	133

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ... ﴾	110	136
﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا ... ﴾	111	-324 _329 339
سورة الحجر (15)		
﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾	9	4-2
﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾	87	160
سورة النحل (16)		
﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	44	33
سورة الإسراء (17)		
﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ... ﴾	27-26	161
﴿ ...إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾	47	219-156
﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾	49	229
﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ... ﴾	60	220-143
﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ... ﴾	78	135
﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ ... ﴾	88	238
﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾	106	220-30
﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ... ﴾	110	319-146
سورة الكهف (18)		
﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴾	22	333
سورة مريم (19)		
﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾	2	348

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا ﴾	10	348
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ ... ﴾	58	272
﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ... ﴾	72-71	131
سورة طه (20)		
﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ مَا قَدۡ سَبَقَ ... ﴾	99	326
﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾	118-119	125
﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ ... ﴾	123	130-134
سورة الأنبياء (21)		
﴿ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴾	58	134
﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾	59	134
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ... ﴾	101-102	131
سورة المؤمنون (23)		
﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ ﴾	23	365
سورة النور (24)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ... ﴾	21	174
سورة الفرقان (25)		
﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾	1	109
﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾	5	155
﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾	6	320
﴿ ... وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾	8	156-219

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ... ﴾	20	254
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ... ﴾	32	29
﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... ﴾	68	57
سورة الشعراء (26)		
﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾	3	233
﴿ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾	183	355
سورة النمل (27)		
﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ ... ﴾	16	140
﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾	65	131
﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ ... ﴾	82	141
﴿ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴾	83	154
﴿ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ ﴾	85	131
سورة القصص (28)		
﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ... ﴾	11	324
﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ ... ﴾	24	142
﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ ... ﴾	32	156
سورة العنكبوت (29)		
﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ ... ﴾	23	133
﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ... ﴾	46	216
﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ ... ﴾	64	231
سورة لقمان (31)		

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ ... ﴾	34	217-131
سورة الأحزاب (33)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾	70-71	ب
سورة فاطر (35)		
﴿ ...فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾	8	233
﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ... ﴾	18	135
سورة يس (36)		
﴿ ...إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾	47	135
﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾	65	131
﴿ ...قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾	78	229
﴿ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾	79	229
﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾	82	157
سورة الصافات (37)		
﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ٤١ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴾	42-41	220-160
﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ... ﴾	68-62	132
﴿ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴾	93	134
سورة ص (38)		
﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾	4	219
﴿ ...بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾	8	126
﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾	17	253
﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ ... ﴾	33-31	331

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾	87-86	176
سورة غافر (40)		
﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾	75	159
سورة فصلت (41)		
﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ... ﴾	6	318
﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ... ﴾	21-19	131
﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾	42	ب
سورة الشورى (42)		
﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾	3	318
سورة الدخان (44)		
﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ ... ﴾	46-43	132
سورة الأحقاف (46)		
﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ... ﴾	8	217
سورة محمد (47)		
﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ... ﴾	36	231
سورة الفتح (48)		
﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ... ﴾	15	178
سورة ق (50)		
﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾	2	308
﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾	40-39	253
سورة الذاريات (51)		

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾	56	157
﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾	60	216
سورة النجم (53)		
﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ... ﴾	18-13	222
﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾	19	218
﴿ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾	20	218
سورة القمر (54)		
﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾	45-44	275
﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾	46	275
سورة الواقعة (56)		
﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾	2	135
﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ... ﴾	33-27	221-160
سورة الحديد (57)		
﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ ... ﴾	20	231
سورة الطلاق (65)		
﴿ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾	4	57
سورة التحريم (66)		
﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ... ﴾	12	352
سورة الملك (67)		
﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾	29	252-245
سورة القلم (68)		
﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾	46	176

﴿ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾	48	240
سورة الحاقة (69)		
﴿ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ﴾	37-35	133
سورة المزمل (73)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾	2-1	270
﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾	8	232
﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ... ﴾	11-10	-217 269-240
﴿ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾	13	213-132
﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾	19	249
﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ... ﴾	20	270
سورة المدثر (74)		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ ... ﴾	7-1	-49 -139 -198 253-232
سورة الإنسان (76)		
﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾	29	249
﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾	31-30	249
سورة النبأ (78)		
﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴾	21	154
سورة المطففين (83)		
﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾	14	140

سورة البروج (85)		
﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴾	20-19	220
سورة الأعلى (86)		
﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾	1	232
سورة الغاشية (88)		
﴿ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴾	7-6	132
سورة الفجر (89)		
﴿ فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦ كَلَّا ... ﴾	18-15	227-135
سورة الليل (92)		
﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ... ﴾	10-5	234
سورة الشرح (94)		
﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾	8-7	92
سورة العلق (96)		
﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾	1	231-49
﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾	5	49
﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾	7-6	235-226
﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾	10-9	246
سورة العاديات (100)		
﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾	8-6	227
سورة القارعة (101)		

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾	7	235
سورة التكاثر (102)		
﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾	2-1	310
سورة العصر (103)		
﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾	2-1	127
سورة قريش (106)		
﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾	3	310
سورة الماعون (107)		
﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾	5	310
سورة الكوثر (108)		
﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾	3-1	123
سورة الكافرون (109)		
﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾	6	56

ثانيا. فهرس الأحاديث النبوية :

طرف الحديث	الراوي	الصفحة
أعطيت مكان التّوراة السّبع الطوال	واثلة بن الأصقع	17
إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء	أبو هريرة	140
الحواميم ديباج القرآن	أنس	142
شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات	ابن عباس	139
ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها	عثمان	4
لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عنّي غير القرآن فليمحه	أبو سعيد الخذري	5
لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب	عبادة بن الصامت	16
لا نورث ما تركناه صدقة	أبو بكر الصديق	140
ليس ذلك إنّما هو الشّرك	عبد الله بن مسعود	33
من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب	أبو هريرة	16

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثالثا. فهرس الآثار:

طرف الأثر	القائل	الصفحة
أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرّخصة	عبد الله بن مسعود	57
أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر	زيد بن ثابت	6
ألمن قتل مؤمنا متعمّدا من توبة؟	سعيد بن جبير	57
أنّ النّبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلة جمع كفَّيه	عائشة	17
أنّ حذيفة بن اليمان، قدم على عثمان	أنس بن مالك	8
أنّ رجلا من المشركين سمع النبي ﷺ	مكحول	146
أن عثمان ﷺ بعد نسخ الصحف في المصاحف	أنس	18
إني لأعلم حيث أنزلت، وأين أنزلت	عمر بن الخطاب	55
أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة	عائشة	49
رأيت مجاهدًا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن	ابن أبي مليكة	34
سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن	حذيفة الثقفي	16
صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة	حذيفة بن اليمان	20
عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات	مجاهد بن جبر	34
فتتبعت القرآن أجمعه في الرقاع والأكتاف	زيد بن ثابت	7
قال لي ابن عباس: تعلم...آخر سورة نزلت من القرآن	عبيد الله بن عتبة	50
قُبض النبي ﷺ ولم يكن القرآن جُمع في شيء	زيد بن ثابت	5
كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون	سعد بن أبي وقاص	139
لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرّجُل	أبو قلابة	8
ما حملكم أن عمدتم إلى براءة وهي من المئين	ابن عباس	20

نزلت الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة	ابن عباس	146
هذا الذي أوردني الموارد	أبو بكر	147
والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله	ابن مسعود	48- 167
يا أم المؤمنين أريني مصحفك	عائشة	20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

رابعا. فهرس الأعلام المترجم لهم:

العلم	شهرته	الصفحة
إبراهيم بن عمر بن إبراهيم	الجعبري	**11**
إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي	الشاطبي	80
أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت	الخطيب البغدادي	163
أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر	أبو بكر النيسابوري	299
أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي	ابن الزبير الغرناطي	16
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام	ابن تيمية	49
أحمد بن علي بن محمد	ابن حجر	7
أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد	ابن فارس	27
أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي	النحاس	17
أسعد أحمد علي	-	71
جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر	السيوطي	19
الحارث بن أسد المحاسبي	الحارث المحاسبي	5
حسن بن مرزوق بن عرابي بن غُنيم	حسن حبنكة الميداني	86
الحسين بن محمد بن المفضل	الراغب	27
الحسين بن مسعود بن محمد	البغوي	**15**
حسين خطاب الميداني الدمشقي	-	90
حمد بن محمد بن إبراهيم	الخطابي	5
زياد بن معاوية بن ضباب	النابغة	**11**
شهاب الدين محمود بن عبد الله	الآلوسي	**15**
صادق بن مرزوق بن عرابي بن غنيم	صادق حبنكة الميداني	90
عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن	ابن عطية	6

عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن عبيد الله	ابن الجوزي	49
عبد الرحمن بن حسن بن مرزوق بن عرابي	عبد الرحمن حبنكة الميداني	86
عبد الفتاح بن محمد بن بشير	أبو غدة	40
عبد القادر بن محمد حويش بن محمود	ملا حويش	69
عبد الله بن عباس بن عبد المطلب	ابن عباس ﷺ	33
عبد الله بن عبد القادر بن أحمد بن محمد	عبد الله التليدي	94
عثمان بن سعيد بن عثمان	أبو عمرو الداني	15
علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن	الماوردي	63
عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير	ابن كثير	130
عيسى بن يوسف بن أحمد منون	عيسى منون	91
مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي	مجاهد بن جبر ﷺ	35
مجد بن أحمد بن سعيد مكي	مجد مكي	94
محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر	الشنقيطي	137
محمد الحمدان	–	93
محمد الطاهر بن محمد الشاذلي	ابن عاشور	22
محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد	ابن القيم	50
محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح	القرطبي	50
محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله	ابن جزي	27
محمد بن أحمد بن مصطفى	أبو زهرة	91
محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر	أبو بكر الباقلاني	19
محمد بن بهادر بن عبد الله	الزركشي	**9**
محمد بن جرير بن يزيد الطبري	ابن جرير الطبري	33
محمد بن سليمان الرومي	الكافيجي	**12**
محمد بن عبد السلام بن عبد الله الناصري	ابن عبد السلام	37

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

محمد بن عبد الله	الخطيب الاسكافي	356
محمد بن عبد الله بن محمد المعافري	ابن العربي	138
محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه	الحاكم	**9**
محمد بن علي بن محمد بن عبد الله	الشوكاني	101
محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين	الفخر الرازي	201
محمد بن محمد أبي الخير عابدين	أبو اليسر عابدين	39
محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي	الفيروز آبادي	55
محمد بن يوسف بن علي	أبو حيان	28
محمد رشيد رضا	–	277
محمد سعيد ابن ملا رمضان البوطي	رمضان البوطي	93
محمد عبد العظيم	الزرقاني	**12**
محمد عزّة بن عبد الهادي بن درويش	دروزة	67
محمد علي بن عبد الغني الدقر	–	90
محمد علي دولة	–	94
محمود محمد شلتوت	–	91
مكي بن أبي طالب حموش بن محمد	مكي بن أبي طالب	6
موسى لكود	–	93

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

خامسا. فهرس المصطلحات المعرّف بها:

المصطلح	الصفحة
التجديد في التفسير	66
التدبر	101
الترتيب	10
ترتيب السور في المصحف	29
الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم	12
ترتيب نزول السور	30
التفسير	26
تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب السور في المصحف	29
تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب نزول السور	30
السورة	10
الشيعة	59
القواعد	101
قواعد التدبر	102
المستشرقون	61
معهد التوجيه الإسلامي	87
موقعة اليمامة	6
النزول	29

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سادسا. ثبت المصادر والمراجع:

❖ القرآن الكريم برواية حفص.

حرف الألف

1. الإبانة عن معاني القراءات، مكي بن أبي طالب (ت: 437هـ)، ت: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، د.ط، د.س، دار نهضة مصر، مصر.
2. الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن –دراسة ونقد–، أحمد محمد الفاضل، ط1، 2008م، مركز الناقد، دمشق: سوريا.
3. اتجاهات التأليف ومناهجه في القصص القرآني، سليمان الدقور، دكتوراه، إشراف: فضل حسن عباس، 1426هـ/ 2005م، جامعة اليرموك، الأردن.
4. إتقان البرهان في علوم القرآن، فضل حسن عباس (ت: 1432هـ)، ط1، 1997م، دار الفرقان، عمان: الأردن.
5. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ت: مركز الدراسات القرآنية، د.ط، 1426هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية.
6. إتمام الأعلام، نزار أباظة ومحمد رياض المالح، ط1، 1999م، دار الصادر، بيروت: لبنان.
7. أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني، محمد عامر محمد، دكتوراه، إشراف: علي كاظم أسد، 1432هـ/ 2011م، جامعة الكوفة، العراق.
8. أثر علم المناسبة في تدبر القرآن، عبد المحسن بن زين المطيري، د.ط، د.س، الكويت.
9. أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير– الاستشراق – الاستعمار) دراسة وتحليل وتوجيه، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط8، 1420هـ/ 2000م، دار القلم، دمشق: سوريا.
10. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب (ت: 776هـ)، ت: محمد عبد الله عدنان، ط1، 1395هـ/ 1975م، مكتبة الخانجي، القاهرة: مصر.
11. أحسن القصص –تاريخ الإسلام كما ورد من المصدر مع ترتيب السور حسب النزول–، ابن قرناس، ط1، 2010م، منشورات الجمل، بغداد: العراق.
12. أحكام القرآن، أبو بكر بن العربي (ت: 543هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه: محمد عبد القادر عطا، ط3، 1424هـ/ 2003م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

13. اختلاف المفسرين -دراسة تحليلية نقدية-، عادل مقراني، دكتوراه، إشراف: منصور كافي، 1433هـ/ 2012م، جامعة الحاج لخضر، باتنة: الجزائر.

14. اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح، محمد بن زيلعي هندي، ط1، 2010م، مكتبة المزيني، الطائف: المملكة العربية السعودية.

15. الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط5، 1460هـ/ 1990م، دار القلم، دمشق: سوريا.

16. آراء الشيخ عبد الرحمن الميداني العقدية (عرض ونقد)، آمنة بنت عامر البشري، دكتوراه، إشراف: محمد عبد الحافظ عبده، 1431هـ/ 2010م، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

17. آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره -دراسة ونقد-، عمر بن إبراهيم رضوان، ط1، 1413هـ/ 1992م، دار طيبة، الرياض: المملكة العربية السعودية.

18. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد بن علي الشوكاني (ت: 1250هـ)، ت: جماعة من العلماء، ط1، 1984م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

19. أسباب النزول حسب ترتيب النزول مع تعريف بالقرآن الكريم وبعض علومه، أمين يوسف الدميري، ط1، 2010م، مكتبة الآداب، القاهرة: مصر.

20. الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، أحمد عبد الرحيم السايح (ت: 1432هـ)، ط1، 1417هـ/ 1996م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة: مصر.

21. الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى بن حسين السباعي (ت: 1384هـ)، د.ط، د.س، دار الوراق للنشر والتوزيع، عمان: الأردن.

22. أسد الغابة في معرفة الصحابة، عز الدين بن الأثير (ت: 630هـ)، ت: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، د.ط، د.س، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

23. أسرار ترتيب القرآن، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ت: عبد القادر أحمد عطا، ط2، 1398هـ/ 1978م، دار الاعتصام، القاهرة، مصر.

24. الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شهبة (ت: 1403هـ)، ط4، 1408هـ، مكتبة السنة، القاهرة: مصر.

25. الأشباه والنظائر، تاج الدين السبكي (ت: 771هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، 1411هـ/ 1991م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

26. إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي العربي المعاصر، مرزوق العمري، ط1، 1433هـ/ 2012م، دار الأمان، الرباط: المغرب.

27. أصول في التفسير، محمد بن صالح العثيمين (ت: 1421هـ)، ت: قسم التحقيق بالمكتبة الإسلامية، ط1، 1422هـ/ 2001م، المكتبة الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

28. أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية –عرض ونقد–، ناصر بن عبد الله القفاري، ط1، 1414هـ/ 1993م، دار طيبة، الرياض: المملكة العربية السعودية.

29. الأصول من الكافي، محمد بن يعقوب الكليني (ت: 329هـ)، ط2، 1381هـ، مكتبة الصدق، طهران: إيران.

30. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت: 1393هـ)، ط1، 1326هـ، دار عالم الفوائد، مكة: المملكة العربية السعودية.

31. إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني (ت: 403هـ)، ت: أحمد صقر، ط5، 1997م، دار المعارف، مصر.

32. الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي (ت: 1378هـ)، ت: عبد الوهاب منصور، ط2، 1413هـ/ 1993م، المطبعة الملكية، الرباط: المغرب.

33. الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي (ت: 1396هـ)، ط15، 2002م، دار العلم للملايين، بيروت: لبنان.

34. الأغاني، علي بن الحسين أبو الفرج الأصفهاني (ت: 356هـ)، ت: سمير جابر، ط2، د. س، دار الفكر، بيروت: لبنان.

35. إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، أحمد بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، ت: محمد عبد المعيد خان، ط2، 1406هـ/ 1986م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

36. إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت: 646هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1406هـ/ 1982م، دار الفكر العربي: القاهرة، مصر.

37. الانتصار للقرآن، أبو بكر الباقلاني (ت: 403هـ)، ت: محمد عصام القضاة، ط1، 1422هـ/ 2001م، دار الفتح، عمان: الأردن.

38. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين العليمي (ت: 928هـ) ، ت: عدنان يونس نباتة، د.ط، 1420هـ/ 1999م، مكتبة دنديس، عمان: الأردن.

39. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين البيضاوي (ت: 685هـ)، ت: محمد مرعشلي، ط1، 1418هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.

40. أنواع التصانيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم، مساعد الطيار، ط2، 1423هـ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.

41. آيات التحدي في القرآن الدلالة والإيحاء، عبد العزيز بن صالح العمار، ط1، د.س، كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية.

42. أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري (ت: 1439هـ)، ط5، 1424هـ/ 2003م، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة: المملكة العربية السعودية.

43. الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ومعرفة أصوله واختلاف الناس فيه، مكي بن أبي طالب (ت: 437هـ)، ت: أحمد حسن فرحات، ط1، 1406هـ/ 1986م، دار المنارة، جدة: المملكة العربية السعودية.

حرف الباء

44. بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيم، ط2، 1416هـ/ 1996م، دار عمار، عمان: الأردن.

45. البداية والنهاية، عماد الدين إسماعيل بن كثير (ت: 774هـ)، ت: علي شيري، ط1، 1408هـ/ 1988م، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.

46. بدائع الإضمار القصصي في القرآن الكريم، كاظم الظواهري، ط1، 1991م، 1412هـ.

47. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني (ت: 1250هـ)، ط1، 1418هـ/ 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

48. البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي (ت: 708هـ)، ت: محمد شعباني، د.ط، 1410هـ/ 1990م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

49. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت: 794هـ)، ط1، 1376هـ/1957م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: مصر.

50. بصائر المسلم المعاصر، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط2، 1408هـ/ 1988م، دار القلم، دمشق: سوريا.

51. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين الفيروز آبادي (ت: 817هـ)، ت: محمد

علي النجار، د.ط، 1416هـ/ 1996م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة: مصر.

52. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين السيوطي (ت:911هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 2، 1399هـ/ 1979م، دار الفكر: بيروت، لبنان.

53. البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط1، 1416هـ/ 1996م، دار القلم، دمشق: سوريا.

54. بيان المعاني، عبد القادر بن ملا حويش العاني (ت:1398هـ)، ط1، 1382هـ/ 1962م، مطبعة الترقي، دمشق: سوريا.

55. البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت: 1325هـ)، ط8، 1401هـ/ 1981م، منشورات أنوار الهدى، إيران.

56. البيان في عد آي القرآن، عثمان بن سعيد أبو عمر الداني (ت: 444هـ)، ت: غانم قدوري الحمد، ط1، 1414هـ/ 1994م، مركز المخطوطات والتراث، الكويت.

حرف التاء

57. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت: 1205هـ)، **ج2**: ت: علي هلالي، ط2، 1407هـ/ 1987م. **ج4**: ت: عبد العليم الطحاوي، ط2، 1407هـ/ 1987م. **ج11**: ت: عبد الكريم العزباوي، د.ط، 1392هـ/ 1972م. **ج18**: ت: عبد الكريم العزباوي، د.ط، 1399هـ/ 1979م، مطبعة حكومة الكويت.

58. تاريخ القرآن الكريم دراسة نقدية تحليلية، التيجاني بن أحمدي، ط1، 1440هـ/ 2019م، دار الضياء، الكويت.

59. تأريخ القرآن، إبراهيم الأبياري (ت: 1414هـ)، ط3، 1411هـ/ 1991م، دار الكتاب المصري، القاهرة: مصر.

60. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت: بعد 292هـ)، ط1، 1883م، مطبعة بريل، ليدن: هولندا.

61. تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطّانها العلماء من غير أهلها وواريها، أبو بكر بن أحمد الخطيب البغدادي (ت: 463هـ)، ت: بشار عواد معروف، ط1، 1422هـ/ 2001م، دار الغرب الإسلامي: بيروت، لبنان.

62. تاريخ نزول القرآن الكريم، محمد طاهر الكردي (ت: 1400هـ)، د.ط، 1365هـ/ 1946م،

مطبعة الفتح، جدة: المملكة العربية السعودية.

63. تاريخية القرآن في الفكر الحداثي العربي، عبد الله بن محمد القرني، ط1، 1439هـ/ 2018م، تكوين للدراسات والأبحاث، المملكة العربية السعودية.

64. تأويل مشكل القرآن، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)، علق عليه ووضع حواشيه وفهرسته: إبراهيم شمس الدين، ط2، 1428هـ/ 2007م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

65. التبيان في آداب حملة القرآن، محيي الدين يحي بن شرف النووي (ت: 676هـ)، ت: محمد الحجار، ط3، 1414هـ/ 1994م، دار ابن حزم، بيروت: لبنان.

66. تتمة الأعلام للزركلي، محمد خير رمضان يوسف، ط2، 1422هـ/ 2002م، دار ابن حزم، بيروت: لبنان.

67. التجديد في التفسير في العصر الحديث -مفهومه وضوابطه واتجاهاته-، دلال بنت كويران بن هويمل، دكتوراه، إشراف: أمين محمد عطية، 1435هـ/ 2014م، جامعة أم القرى، مكة: المملكة العربية السعودية.

68. التجديد في التفسير -نظرة في المفهوم والضوابط-، عثمان أحمد عبد الرحيم، د.ط، د. س، المطبعة العصرية، الكويت.

69. التحبير في علم التفسير، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ت: فتحي عبد القادر فريد، ط1، 1402هـ/ 1982م، دار العلوم، الرياض: السعودية.

70. التحرير والتنوير -تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد-، محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ)، د.ط، 1984هـ، الدار التونسية للنشر، تونس.

71. تدبر سورة الفرقان في وحدة موضوع، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط1، 1412هـ/ 1991م، دار القلم، دمشق: سوريا.

72. التدرج في التشريع والتطبيق في الشريعة الإسلامية، محمد مصطفى الزحيلي، ط1، 1420هـ/ 2000م، إدارة البحوث الإسلامية، الكويت.

73. تذكرة الحفاظ، محمد بن أحمد الذهبي (ت: 748هـ)، ت: زكريا عميرات، ط1، 1419هـ/ 1998م، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

74. تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر وآثارهم الفقهية، عبد الفتاح أبو غدة (ت: 1417هـ)، ط1، 1417هـ/ 1997م، دار البشائر الإسلامية، بيروت: لبنان.

75. الترتيب التوقيفي وصلته بالوحدة الموضوعية وعلم المناسبة، عبد الرحمن عبيد حسين، ط1، 1429هـ/ 2008م، دار التجديد، ماليزيا.

76. ترتيب القرآن الكريم، علي بن سليمان العبيد، ط1، 1436هـ/ 2015م، دار التدمرية، الرياض: المملكة العربية السعودية.

77. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، عياض بن موسى بن عياض (ت: 544هـ)، ت: سعيد أحمد عراب، د.ط، 1403هـ/ 1983م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.

78. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي (ت: 741هـ)، ت: عبد الله الخالدي، ط1، 1416هـ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت: لبنان.

79. التصوير الفني في القرآن، إبراهيم حسين الشاربي سيد قطب (ت: 1385هـ)، ط17، 1425هـ/ 2004م، دار الشروق، القاهرة: مصر.

80. تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ط3، 1429هـ/ 2008م، دار القلم، دمشق: سوريا.

81. التعريف بكتاب (معارج التفكر ودقائق التدبر)، مجد مكي، ط1، 1427هـ/ 2006م، دار القلم، دمشق: سوريا.

82. التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (ت: 816هـ)، ت: إبراهيم الأبياري، ط1، 1405هـ، دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان.

83. تفاسير القرآن الكريم حسب ترتيب النزول دراسة وتقويم، طه محمد فارس، دكتوراه، إشراف: نور الدين عتر، 2006م، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.

84. تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (ت: 745هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد العوضي، ط1، 1422هـ/ 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

85. التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة محمد علي عبد الرحمن (ت: 1419هـ)، ط7، د.س، دار المعارف، القاهرة: مصر.

86. تفسير التابعين –عرض ودراسة مقارنة–، محمد بن عبد الله بن علي الخضيري، دكتوراه، إشراف: سعود بن عبد الله الفنيسان، د.س، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

87. التفسير الحديث، محمد عزت دروزة (ت: 1404هـ)، ط2، 1383هـ، دار إحياء الكتب العربية،

القاهرة: مصر.

88. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا (ت: 1354هـ)، د.ط، 1990م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

89. تفسير القرآن العظيم، عماد الدين إسماعيل بن كثير (ت: 774هـ)، ت: سامي بن محمد سلامة، ط2، 1420هـ/ 1999م، دار طيبة، الرياض: المملكة العربية السعودية.

90. تفسير القرآن المرتب منهج لليسر التربوي، أسعد أحمد علي، ط3، 1990م، دار السؤال، دمشق: سوريا.

91. تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (ت: 1371هـ)، ط1، 1365هـ/ 1964م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

92. التفسير المكي "سورة النساء"، محمد طاهر الكردي المكي الخطاط (ت: 1400هـ)، قدم له ورتبه وعلق عليه: مجد مكي، ط1، 1427هـ/ 2006م، دار نور المكتبات، جدة: المملكة العربية السعودية.

93. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي (ت: 1436هـ)، ط2، 1418هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت: لبنان.

94. تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر (ت: 104هـ)، ت: محمد عبد السلام، ط1، 1410هـ/ 1989م، دار الفكر الإسلامية الحديثة، مصر.

95. تفسير مقاتل بن سليمان، مقاتل بن سليمان بن بشير (ت: 150هـ)، ت: عبد الله محمود شحاته، ط1، 1423 هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.

96. التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، فضل حسن عباس (ت: 1432هـ)، ط1، 1437هـ/ 2016م، دار النفائس، الأردن.

97. التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي (ت: 1398هـ)، ط7، 2000م، مكتبة وهبة، القاهرة: مصر.

98. التمهيد في علوم القرآن، محمد هادي معرفة (ت: 1427هـ)، د.ط، 1423هـ/ 2011م، دار التعارف للمطبوعات، بيروت: لبنان.

99. التناسب القرآني عند الإمام البقاعي –دراسة بلاغية–، مشهور موسى مشهور، ماجستير، إشراف: محمد بركات، 2001م، الجامعة الأردنية، الأردن.

100. تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ت: عبد القادر أحمد عطا،

ط1، 1406هـ/ 1986م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

101. التنبيه على فضل علوم القرآن، الحسن بن محمد أبو القاسم النيسابوري (ت: 406هـ)، ت: محمد عبد الكريم كاظم الرضي، مجلة المورد، العدد: 4، مج: 17، 1409هـ/ 1988م، بغداد: العراق.

102. تنزيل القرآن، محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت: 124هـ)، ت: صلاح الدين المنجد، ط2، 1980م، دار الكتاب الحديث، بيروت: لبنان.

103. تهذيب التهذيب، أحمد بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، ط1، 1404هـ/ 1984م، دار الفكر: بيروت، لبنان.

104. التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي (ت: 1031هـ)، ت: محمد رضوان الداية، ط1، 1410هـ، دار الفكر المعاصر، بيروت: لبنان.

105. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي (ت: 1376هـ)، ت: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، 1420هـ/ 2000م، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

106. التيسير في قواعد علم التفسير، محي الدين الكافيجي (ت: 879هـ)، ت: محمد حسين الذهبي، ط1، 1419هـ/ 1998م، مكتبة القدسي، القاهرة: مصر.

حرف الثاء

107. ثلاث رسائل في إعجاز القرآن -بيان إعجاز القرآن-، حمد بن محمد الخطابي (ت: 388هـ)، ت: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط3، 1976م، دار المعارف، مصر.

حرف الجيم

108. جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، ت: أحمد محمد شاكر، ط1، 1420هـ/ 2000م، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

109. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل البخاري (ت: 256هـ)، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، 1422هـ، دار طوق النجاة، بيروت: لبنان.

110. الجامع لأحكام القرآن، شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، ت: هشام سمير البخاري، د.ط، 1423هـ/ 2003م، دار عالم الكتب، الرياض: المملكة العربية السعودية.

111. الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي (ت: 463هـ)، ت: محمود الطحان، د.ط، د.س، مكتبة المعارف، الرياض: المملكة العربية السعودية.

112. جمال القراء وكمال الإقراء، علم الدين السخاوي (ت: 643هـ)، ت: مروان عطية ومحسن خرابة، ط1، 1418هـ/ 1997م، دار المأمون للتراث، دمشق: سوريا.

113. جمع القرآن الكريم في عهد الخلفاء الراشدين، فهد بن سليمان الرومي، ط1، 1424هـ/ 2003م، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض: المملكة العربية السعودية.

114. جمع القرآن في عهد الخلفاء الراشدين، عبد القيوم بن عبد الغفور السندي، د.ط، د.س، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة: المملكة العربية السعودية.

115. جمهرة أنساب العرب، علي بن أحمد بن حزم (ت: 456هـ)، ط3، 1424هـ/ 2003م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

116. جهود الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في الدراسات القرآنية، محمد محسن سرحان، ماجستير، إشراف: محب جلال عبد الفراج، 1439هـ/ 2018م، جامعة الأزهر، المنصورة: مصر.

117. جهود علماء الشام في تفسير القرآن الكريم منذ القرن الرابع عشر الهجري، أحمد بشير قباوة، ماجستير، إشراف: محمد نبيل غنايم، 1425هـ/ 2004م، جامعة القاهرة، مصر.

118. جواهر البيان في تناسب سور القرآن، عبد الله محمد الصديق الغماري (ت: 1413هـ)، د.ط، د.س، مطبعة محمد عاطف، مصر.

حرف الحاء

119. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، زكريا بن محمد الأنصاري (ت: 926هـ)، ت: مازن المبارك، ط1، 1411هـ/ 1991م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

120. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1387هـ/ 1967م، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: مصر.

121. حصول المأمول في بيان تناسب السور حسب ترتيب النزول، محمد بن أحمد رفيق، ط1، 2019م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

122. الحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط1، 1418هـ/ 1998م، دار القلم، دمشق: سوريا.

123. حفريات في الذاكرة من بعيد (سيرة ذاتية من الصبا إلى سن العشرين)، محمد عابد الجابري (ت: 1431هـ)، ط1، 1997م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت: لبنان.

124. حياة علم من علماء الإسلام الشيخ عيسى منون، يوسف عبد الرزاق ومحمد عيسى منون، د.ط، 1377هـ/ 1957م، جامعة الأزهر، القاهرة: مصر.

حرف الدال

125. الدر النفيس في تفسير القرآن بالتنكيس، محمد بن عبد السلام الدرعي الناصري (ت: 239 هـ)، ت: طه محمد فارس، ط1، 1436هـ/ 2014م، شبكة الألوكة **www.alukah.net**.

126. دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر بن عواض الألمعي، ط4، 1428هـ/ 2007م، مكتبة الملك فهد، الرياض: المملكة العربية السعودية.

127. دراسات في علوم القرآن الكريم، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ط14، 1426هـ/ 2005م، مكتبة الملك فهد، الرياض: المملكة العربية السعودية.

128. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل (ت: 1426هـ)، ط2، 1419هـ/ 1999م، دار المنار، القاهرة: مصر.

129. دراسة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية التي أعدها ريجيس بلاشير، فودي سوريبا كمارا، ط1، 1422هـ، ندوة ترجمة معاني القرآن الكريم تقويم للماضي وتخطيط للمستقبل، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.

130. درّة التنزيل وغرة التأويل، محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (ت: 420هـ)، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى آيدين، ط1، 1422هـ/ 2001م، معهد البحوث العلمية، مكة: المملكة العربية السعودية.

131. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، ت: محمد عبد المعيد ضان، د.ط، 1392هـ/ 1972م، دار المعارف العثمانية، صيدر آباد: الهند.

132. دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ)، ت: محمد التنجي، ط1، 1995م، دار الكتاب العربي، بيروت: لبنان.

133. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر أحمد البيهقي (ت: 458هـ)، ت: عبد المعطى قلعجي، ط1، 1408هـ/ 1988م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

134. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، إبراهيم بن علي بن فرحون (ت: 799هـ)، ت: محمد الأحمدي، د.ط، 1972م، دار التراث، القاهرة: مصر.

135. ديوان النابغة الذبياني، زياد بن معاوية الذبياني (ت: نحو ق18هـ)، شرح وتعليق: حنا نصر الحتي،

ط1، 1411هـ/ 1991م، دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان.

حرف الذال

136. ذكريات من حياتي، عبد الله عبد القادر التليدي (ت: 1438هـ)، ط1، 1465هـ/ 2004م، دار القلم، دمشق: سوريا.

حرف الراء

137. رجال من التاريخ، علي الطنطاوي (ت: 1420هـ)، ط1، 1418هـ/ 1998م، دار البشير، مصر.

138. روائع من أقوال الرسول ﷺ -دراسة لغوية وفكرية وأدبية-، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط6، 1416هـ/ 1995م، دار القلم، دمشق: سوريا.

139. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين الألوسي (ت: 1270هـ)، ت: علي عبد الباري محمد عطية، ط1، 1415هـ، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

حرف الزاي

140. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين بن محمد الجوزي (ت: 597 هـ)، ت: عبد الرزاق المهدي، ط1، 1422هـ، دار الكتاب العربي، بيروت: لبنان.

141. زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين بن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، ط27، 1415هـ/ 1994م، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

142. الزيادة والإحسان في علوم القرآن، محمد بن أحمد بن عقيلة (ت: 1150هـ)، ت: مجموعة باحثين، ط1، 1427هـ، مركز البحوث والدراسات، الشارقة: الإمارات العربية المتحدة.

حرف السين

143. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيّئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني (ت: 1420هـ)، ط1، 1412هـ/ 1992م، دار المعارف، الرياض: المملكة العربية السعودية.

144. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجة (ت: 273هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط1، 1430هـ/ 2009م، دار الرسالة العالمية: دمشق، سوريا.

145. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث (ت: 275هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قرة بللي، ط1، 1430هـ/ 2009م، دار الرسالة العالمية: دمشق: سوريا.

146. سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي (ت: 279هـ)، ط2، 1395هـ/ 1975م، ت: أحمد

محمد شاكر وآخرون، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، مصر.

147. سور الحواميم دراسة بلاغية تحليلية، عبد القادر عبد الله الحمداني، ط1، 2011م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

148. السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، شكيب أرسلان، ط1، 1356هـ/ 1937م، مطبعة ابن زيدون، دمشق: سوريا.

149. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي (ت: 748هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط وعلي أبو زيد، ط2، 1402هـ/ 1982م، مؤسسة الرسالة: بيروت، لبنان.

حرف الشين

150. الشبه الإستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم للدكتور محمد عابد الجابري –رؤية نقدية، عبد السلام البكاري والصديق بوعلام، ط1، 1430هـ/ 2009م، دار الأمان، الرباط: المملكة المغربية.

151. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد مخلوف (ت: 1360هـ)، ت: عبد المجيد خيالي، ط1، 1424هـ/ 2003م، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

152. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد العكري (ت: 1089هـ)، ت: عبد القادر ومحمد الأرنؤوط، د.ط، 1406هـ، دار ابن كثير: دمشق، سوريا.

153. شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي (ت: 516هـ)، ت:شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، ط2، 1403هـ/ 1983م، المكتب الإسلامي: دمشق، سوريا.

154. شرح الكوكب المنير، تقي الدين أبو البقاء الشهير بابن النجار (ت: 972هـ)، ت: محمد الزحيلي ونزيه حماد، ط2، 1418هـ/ 1997م، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية.

155. شرح مقدمة التسهيل لعلوم التنزيل، مساعد بن سليمان الطيار، ط1، 1431هـ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.

156. شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، مساعد بن سليمان الطيار، ط2، 1428هـ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.

157. الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط1، 1420هـ/ 2000م، طبعة خاصة باللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، الكويت.

158. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى بن عياض (ت: 544هـ)، د.ط، 1409هـ/

1988م، دار الفكر، بيروت: لبنان.

159. الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، عصام الدين أحمد طاشكبري زاده (ت: 968م)، د.ط، 1395ه/ 1975م، دار الكتاب العربي، بيروت: لبنان.

160. شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، عبد الرحيم فارس أبو عبلة، دكتوراه، إشراف: أنس جميل طبارة، 1426ه/ 2005م، جامعة بيروت الإسلامية، لبنان.

161. الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وآراؤه في العقيدة الإسلامية –عرض ونقد–، مازم عطية إبراهيم مسالمة، ماجستير، إشراف: حافظ محمد حيدر الجعبري، 1435ه/ 2013م، جامعة الخليل، فلسطين.

162. الشيخ عبد القادر ملا حويش ومنهجه في تفسير آيات الأحكام من خلال تفسيره (بيان المعاني)، أسيل أحمد حسين، ماجستير، إشراف: عمار عباس المشهداني، 1441ه/ 2019م، جامعة بغداد، العراق.

163. الشيخ عبد القادر ملا حويش ومنهجه في تفسيره بيان المعاني، صفية العرابي، دكتوراه، إشراف: بلعياء محمد، 1439ه/ 2018م، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان: الجزائر.

164. الشيعة والسنة، إحسان إلهي ظهير (ت: 1407ه)، ط3، 1396ه/ 1979م، إدارة ترجمان السنة، لاهور: باكستان.

حرف الصاد

165. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت: 393ه)، ت: أحمد عبد الغفور عطار، ط4، 1407ه/ 1987م، دار العلم للملايين: بيروت، لبنان.

166. صحيح سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني (ت: 1420ه)، ط1، 1420ه/ 2000م، مكتبة المعارف، الرياض: المملكة العربية السعودية.

167. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري (ت: 261ه)، د.ط، 1419ه/ 1998م، بيت الأفكار الدولية، الرياض: المملكة العربية السعودية.

حرف الضاد

168. ضعيف أبي داود، محمد ناصر الدين الألباني (ت: 1420ه)، ط1، 1423ه، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت.

169. ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني (ت: 1420ه)، أشرف على طباعته والتعليق

عليه: زهير الشاويش، ط1، 1411هـ/ 1991م، المكتب الإسلامي، بيروت: لبنان.

170. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين محمد السخاوي (ت:902هـ)، د.ط، د.س، دار مكتبة الحياة، بيروت: لبنان.

حرف الطاء

171. طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي (ت: 771هـ)، ت: محمود محمد طانجي وعبد الفتاح محمد الحلو، ط2، 1413هـ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الجيزة: مصر.

172. طبقات الصوفية، محمد بن الحسين السّلمي (ت: 416هـ)، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، 1419هـ/ 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

173. طبقات الفقهاء الشافعية، تقي الدين عثمان بن الصلاح (ت: 643هـ)، ت: محيي الدين علي نجيب، د.ط، 1992م، دار البشائر الإسلامية، بيروت: لبنان.

174. طبقات الفقهاء، أبو إسحاق الشيرازي (ت: 476هـ)، ت: إحسان عباس، ط1، 1970هـ، دار الرائد العربي، بيروت: لبنان.

175. طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ت: علي محمد عمر، ط1، 1396هـ، مكتبة وهبة: القاهرة، مصر.

حرف الظاء

176. ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط2، 1434هـ/ 2013م، دار القلم، دمشق: سوريا.

حرف العين

177. عبد الرحمن حبنكة الميداني العالم المفكر المفسر، عائدة راغب الجراح (ت: 1423هـ)، ط1، 1422 هـ/2001م، دار القلم، دمشق: سوريا.

178. العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني (1425هـ)، ط2، 1399هـ/ 1979م، دار القلم، دمشق: سوريا.

179. علم المناسبات في السور والآيات، محمد بن عمر بازمول، ط1، 1423هـ/ 2002م، المكتبة المكية، مكة: المملكة العربية السعودية.

180. علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب (ت: 1420هـ)، ط4، 1992م، دار الشواف، الرياض:

المملكة العربية السعودية.

181. العلمانيون والقرآن الكريم -تاريخية النص-، أحمد إدريس الطعان، ط1، 1428هـ/ 2007م، دار ابن حزم، الرياض: المملكة العربية السعودية.

182. علوم القرآن الكريم، نور الدين محمد عتر (ت: 1442هـ) ، ط1، 1414هـ/ 1993م، مطبعة المصباح، دمشق: سوريا.

183. علوم القرآن في المنظور الحداثي -دراسة تحليلية نقدية لآراء الحداثيين في القرآن الكريم-، أحمد بوعود، ط1، 1436هـ/ 2015م، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة: مصر.

184. علوم القرآن -مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه-، عدنان محمد زرزور، ط1، 1401هـ/ 1981م، المكتب الإسلامي، بيروت: لبنان.

185. علوم القرآن من خلال مقدمات التفاسير، محمد صفا شيخ إبراهيم حقي، ط1، 1425هـ/ 2004م، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

186. علوم القرآن، عبد الله محمود شحاته، د.ط، 2002م، دار غريب، القاهرة: مصر.

187. العناية بالقرآن الكريم وعلومه من بداية القرن الرابع الهجري إلى عصرنا الحاضر، نبيل بن محمد آل إسماعيل، ط1، 1421هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودسة.

188. عيون الأقاويل في إبطال دعوى ترتيب القرآن وتفسيره على حسب التنزيل، عبد الرحمن نصر أحمد نصار، ط1، 1437هـ/ 2016م، دار الإمام الرازي، القاهرة: مصر.

189. عيون الأنباء في طبقات الأطباء، موفق الدين بن أبي أصيبعه (ت: 668هـ)، ت: نزار رضا، د.ط، د.س، دار مكتبة الحياة: بيروت، لبنان.

حرف الغين

190. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن النيسابوري (ت: 850هـ)، ت: زكريا عميرات، ط1، 1416هـ/ 1996م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

191. غزو في الصميم -دراسة واعية للغزو الفكري والنفسي والخلقي والسّلوكي-، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط1، 1402هـ/ 1982م، دار القلم، دمشق: سوريا.

192. غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، أحمد بن محمد مكي (ت: 1098هـ)، ت: أحمد بن محمد الحنفي، ط1، 1405هـ/ 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

حرف الفاء

193. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، 1379هـ ، دار المعرفة: بيروت، لبنان.

194. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (ت: 1250هـ)، ط1، 1414هـ، دار ابن كثير، دمشق: سوريا.

195. الفتوح الإسلامية عبر العصور –دراسة تاريخية لحركة الجهاد الإسلامي من عصر الرسول ﷺ حتى أواخر العصر العثماني–، عبد العزيز بن إبراهيم العمري، ط3، 1421هـ، دار إشبيلية، الرياض: المملكة العربية السعودية.

196. الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر الأسفراييني (ت: 429هـ)، ط2، 1977م، دار الآفاق الجديدة، بيروت: لبنان.

197. فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، محمد بن أيوب بن الضريس (ت: 294هـ)، ت: عروة بدير، ط1، 1408هـ/ 1987م، دار الفكر، دمشق: سوريا.

198. فضائل القرآن، عماد الدين إسماعيل بن كثير (ت: 774هـ)، ت: أبو إسحاق الحويني، ط1، 1416هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة: مصر.

199. فلسفة الإستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفتش، د.ط، 1418هـ/ 1998م، دار الفكر العربي، القاهرة: مصر.

200. الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، ط4، 1999م، سينا للنشر، القاهرة: مصر.

201. فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، عبد الرحمن بن الجوزي (ت: 597هـ)، ت: ضياء الدين عتر، ط1، 1408هـ/ 1987م، دار البشائر الإسلامية، بيروت: لبنان.

202. فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني (ت: 1382هـ)، ت: إحسان عباس، ط2، 1982م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: لبنان.

203. الفهرست، محمد بن إسحاق النديم (ت: 380هـ)، د.ط، 1398هـ/ 1978م، دار المعرفة، بيروت: لبنان.

204. فهم القرآن الحكيم، محمد عابد الجابري (ت: 1431هـ)، ط1، 2008م، دار النشر المغربية، الدار البيضاء: المغرب.

205. فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي (ت: 764هـ)، ت: إحسان عباس، ط1، 1974م، دار الصادر: بيروت، لبنان.

206. في ظلال القرآن، إبراهيم حسين الشاربي سيد قطب (ت: 1385هـ)، ط17، 1412هـ، دار الشروق، بيروت: لبنان.

207. في مناسبات سور القرآن الكريم، محمد يعقوب ذو الكفل، ماجستير، إشراف: أحمد إسماعيل نوفل، 1992م، الجامعة الأردنية، الأردن.

حرف القاف

208. القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت: 817هـ)، ط3، 1301هـ، المطبعة الأميرية، مصر.

209. القراءة الجديدة للقصة القرآنية من منظور محمد عابد الجابري -دراسة تحليلية نقدية تكميلية-، محمد كنفوري، مركز نماء للبحوث والدراسات.

210. القرآن الكريم بالتسلسل التاريخي وفقا للأزهر، سامي عوض الذيب، ط3، 2016م، مركز القانون العربي والإسلامي، سويسرا.

211. القرآن الكريم بين ترتيب المصحف وترتيب النزول، سعيد بوعصاب، ط1، 1438هـ/ 2017م، دار الأمان، الرباط: المملكة المغربية.

212. القرآن الكريم في المنظور الإستشراقي -دراسة نقدية تحليلية-، محمد محمد أبو ليلة، ط1، 1423هـ/ 2002م، دار النشر للجامعات، مصر.

213. القرآن المجيد، محمد عزة دروزة (ت: 1404هـ)، د.ط، د.س، منشورات المكتبة العصرية، بيروت: لبنان.

214. القرآن -نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره-، ريجيس بلاشير، نقله إلى العربية: رضا سعادة، ت: محمدة علي الزعبي، ط1، 1974م، دار الكتاب اللبناني، بيروت: لبنان.

215. القرآن والملحدون، محمد عزة دروزة (ت: 1404هـ)، ط1، 1393هـ/ 1973م، المكتب الإسلامي، دمشق: سوريا.

216. قصة التفسير، أحمد الشرباصي (ت: 1400هـ)، ط3، 1988م، دار الجيل، بيروت: لبنان.

217. القصة في القرآن الكريم، مريم السباعي، دكتوراه، إشراف: أحمد غلوش، 1404هـ، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.

218. قصص القرآن الكريم -صدق حدث وسمو هدف، إرهاف حس وتهذيب نفس-، فضل حسن عباس (ت: 1432هـ)، ط3، 1430هـ/ 2010م، دار النفائس، عمان: الأردن.

219. القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، ط1، 1419هـ/ 1998م، دار الشامية، بيروت: لبنان.

220. القصص القرآني في تفسير الشيخ الشعراوي -رؤية منهجية-، نادية عمارة، ط1، 2017م، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، مصر.

221. القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، عبد الكريم الخطيب (ت: 1390هـ)، ط3، 1395هـ/ 1975م، دار المعرفة، بيروت: لبنان.

222. قصيدة تقريب المأمول في ترتيب النزول، البرهان الجعبري (ت: 732هـ)، اعتنى بها: أحمد سالم ابن مقام الشنقيطي، ط1، 1434هـ/ 2013م، مكتب الشنقيطي للخدمات العلمية والبحثية، مكة: المملكة العربية السعودية.

223. القضايا العلمية في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني -دراسة ونقد-، باسم فارس، ماجستير، إشراف: حسن عبد الرحمن السلوادي، 1440هـ/ 2019م، جامعة الخليل، فلسطين.

224. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام (ت: 660هـ)، مراجعة وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، د.ط، 1414هـ/ 1991م، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة: مصر.

225. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، **ط1**، 1400هـ/ 1980م. **ط5**، 1433هـ/ 2012م، دار القلم، دمشق: سوريا.

226. قواعد التدبر القرآني بين التنظير والتطبيق عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، رشيد بوعافية، دكتوراه، إشراف: منصور كافي، 1440هـ/ 2019م، جامعة باتنة1، الجزائر.

227. قواعد الترجيح عند المفسرين دراسة نظرية تطبيقية، حسين بن علي الحربي، ط1، 1417هـ/ 1996م، دار القاسم، الرياض: المملكة العربية السعودية.

228. قواعد التفسير جمعا ودراسة، خالد بن عثمان السبت، ط1، 1421هـ، دار ابن عفان، القاهرة: مصر.

229. قواعد التفسير عند مفسري الغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، مسعود الركيتي، ط1، 1433هـ/ 2012م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية.

حرف الكاف

230. الكامل في التاريخ، علي بن أبي الكرم بن الأثير (ت: 630هـ)، ت: عبد الله القاضي، ط1، 1407هـ/ 1987م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

231. كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ)، ت: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، د.ط، د.س، دار ومكتبة الهلال، لبنان.

232. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمرو الزمخشري (ت: 538هـ)، ط3، 1407هـ، دار الكتاب العربي، بيروت: لبنان.

233. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد الثعلبي (ت: 427هـ)، ت: أبو محمد بن عاشور، ط1، 1422هـ/ 2002م، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.

234. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الكفوي (ت: 1094هـ)، ت: عدنان درويش ومحمد المصري، د.ط، 1419هـ/ 1998م، مؤسسة الرسالة: بيروت، لبنان.

235. كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط2، 1314هـ/ 1991م، دار القلم، دمشق: سوريا.

حرف اللام

236. اللآلئ الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين لاشين (ت: 1430هـ)، ط1، 1423هـ/ 2002م، دار الشروق، القاهرة: مصر.

237. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي ابن عادل (ت: بعد 880هـ)، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، 1419هـ/ 1998م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

238. لسان العرب، جمال الدين محمد ابن منظور (ت: 711هـ)، ط1، 1410هـ/ 1990م، دار الصادر: بيروت، لبنان.

239. لطائف الإشارات لفنون القراءات، أحمد بن محمد القسطلاني (ت: 923هـ)، ت: مركز الدراسات القرآنية، د.ط، 1434هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية.

حرف الميم

240. مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ط4، 1426هـ/ 2005م، دار القلم، دمشق: سوريا.

241. مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح (ت: 1407هـ)، ط24، 2000م، دار العلم للملايين، بيروت: لبنان.

242. مباحث في علوم القرآن، مناع القطان (ت: 1420هـ)، ط3، 1421هـ/ 2000م، مكتبة المعارف، الرياض: المملكة العربية السعودية.

243. مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد محمد بن باديس (ت: 1359هـ)، علق عليه وأخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، ط1، 1416هـ/ 1995م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

244. مجموع الفتاوى، تقي الدين بن تيمية الحراني (ت: 728هـ)، ت: أنور الباز وعامر الجزار، ط3، 1426هـ/ 2005م، دار الوفاء، مصر.

245. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي (ت: 1332هـ)، ت: محمد باسل عيون السود، ط1، 1418هـ، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

246. محاضرات في علوم القرآن، غانم قدوري، ط1، 1432هـ/ 2003م، دار عمان، عمان: الأردن.

247. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن عطية (ت: 546هـ)، ت: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، 1422هـ/ 2001م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

248. المحرر في علوم القرآن، مساعد بن سليمان الطيار، ط2، 1429هـ/ 2008م، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الشاطبي، جدة: المملكة العربية السعودية..

249. المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سيده (ت: 458هـ)، ت: عبد الحميد هنداوي، د.ط، 2000م، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

250. محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، فريد مصطفى سليمان، ط1، 1414هـ/ 1993م، مكتبة الرشد، الرياض: المملكة العربية السعودية.

251. محمد عزة دروزة ومنهجه في التفسير، يامنة القيقلان، دبلوم الدراسات العليا، إشراف: أحمد أبو زيد، 1418هـ/ 1997م، جامعة محمد الخامس، المملكة المغربية.

252. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت: بعد 666هـ)، ت: محمود خاطر، د.ط، 1415هـ/ 1995م، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت: لبنان.

253. المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ط2، 1411هـ/ 1991م، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر.

254. مدخل إلى التفسير وعلوم القرآن، عبد الجواد خلف، د.ط، 2003م، دار البيان العربي، القاهرة: مصر.

255. مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان محمد زرزور، ط2، 1419هـ/ 1998م، دار القلم، دمشق: سوريا.

256. المدخل إلى علوم القرآن الكريم، محمد فاروق النبهان، ط1، 1426هـ/ 2005م، دار عالم القرآن، حلب: سوريا.

257. المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد أبو شهبة (ت: 1403هـ)، ط2، 1423هـ/ 2003م، مكتبة السنة، القاهرة: مصر.

258. مذكرات محمد عزة دروزة، محمد عزة دروزة (ت: 104هـ)، ط1، 1993م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: لبنان.

259. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، شهاب الدين عبد الرحمن أبو شامة (ت: 665هـ)، ت: طيار آلتي قولاج، 1395هـ/ 1975م، دار الصادر، بيروت: لبنان.

260. المساعد في أصول التفسير على ضوء الكتاب والسنة، مصطفى بن محمد بن سلامة، ط1، 1429هـ/ 2008م، مكتبة الهدف للنشر والتوزيع، مصر.

261. المسائل السروية، الشيخ المفيد (ت:413هـ)، ت: صائب عبد الحميد، ط1، 1413هـ، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، مطبعة مهر، إيران.

262. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت: 405هـ)، ت: مصطفى عبد القادر عطا، ط1، 1411هـ/ 1990م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

263. المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، ط1، 1419هـ/ 1998م، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

264. مسند أبي داود الطيالسي، أبو داود سليمان بن جارود (ت: 204هـ)، ت: محمد بن عبد المحسن التركي، ط1، 1419هـ/ 1999م، دار الهجر، مصر.

265. مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل (ت: 241هـ)، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط2، 1420هـ/ 1999م، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

266. مشاهد القيامة في القرآن، إبراهيم حسين الشاربي سيد قطب (ت: 1385هـ)، ط14، 1423هـ/ 2002م، دار الشروق، القاهرة: مصر.

267. مشاهير علماء نجد وغيرهم، عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، ط3، 1394هـ، دار اليمامة، دمشق: سوريا.

268. مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد: 129، 1425هـ، المملكة العربية السعودية.

269. المصاحف المنسوبة للصحابة والرد على الشبهات المثارة حولها -عرض ودراسة-، محمد عبد الرحمن بن محمد الطاسان، ط1، 1433هـ/ 2012م، دار التدميرة، المملكة العربية السعودية.

270. المصاحف، أبو بكر بن أبي داود (ت: 316هـ)، ت: محمد بن عبده، ط1، 1423هـ/ 2002م، الفاروق الحديثة، القاهرة: مصر.

271. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، إبراهيم بن عمر البقاعي (ت: 885هـ)، ط1، 1408هـ/ 1987م، مكتبة المعارف، الرياض: المملكة العربية السعودية.

272. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد المقري الفيومي (ت: 1041هـ)، د.ط، د.س، المكتبة العلمية، بيروت: لبنان.

273. معارج التفكر ودقائق التدبر -تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وفق منهج كتاب "قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ"-، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط2، 1433هـ/ 2012م، دار القلم، دمشق: سوريا.

274. معالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم، عبد الله بن محمد البغوي (ت: 510هـ)، ت: عبد الرزاق مهدي، ط1، 1420هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.

275. معاني القرآن، يحيى بن زياد الفراء (ت: 207هـ)، ت: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، ط1، د.س، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

276. معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، ط1، 1408هـ/ 1988م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

277. معجزة ترتيب سور القرآن الكريم وآياته، عبد الله إبراهيم جلغوم، ط1، 1428هـ/ 2007م، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الإمارات العربية المتحدة.

278. معجم الأدباء -إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب-، ياقوت الحموي (ت: 626هـ)، ت: إحسان عباس، ط1، 1993م، دار الغرب الإسلامي، بيروت: لبنان.

279. معجم المفسرين من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويهض، ط2، 1409هـ/ 1988م،

مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت: لبنان.

280. المعجم الوسيط، أحمد الزيات وآخرون، ط4، 1425هـ/ 2004م، مكتبة الشروق الدولية: مصر.

281. معجم علوم القرآن، إبراهيم محمد الجرمي، ط1، 1422هـ/ 2001م، دار القلم، دمشق: سوريا.

282. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس (ت: 395هـ)، ت: عبد السلام هارون، د.ط، 1399هـ/ 1979م، دار الفكر، دمشق: سوريا.

283. معرفة القراء الكبار، شمس الدين الذهبي (748هـ)، ت: بشار عواد معروف وآخرون، ط1، 1404هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

284. مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي (ت: 606هـ)، ط3، 1420هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت: لبنان.

285. مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده (ت: 968هـ)، ط1، 1405هـ/ 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

286. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني (ت: 502هـ)، ت: صفوان عدنان الداودي، ط1، 1412هـ، دار القلم: دمشق، سورية.

287. المفسرون حياتهم ومنهجهم، محمد علي ايازى (ت: 1333هـ) ، ط1، 1212هـ، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران: إيران.

288. مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر، مساعد بن سليمان الطيار، ط2، 1427هـ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.

289. مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، عبد الكريم الحامدي، ط1، 1429هـ، دار ابن حزم، بيروت: لبنان.

290. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، علي بن إسماعيل الأشعري (ت: 324هـ)، تصحيح: هلكوت ريتر، ط3، 1400هـ/ 1980م، دار فرانز شتايز، فيسبادن: ألمانيا.

291. مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، مساعد الطيار، ط1، 1425هـ ، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض: المملكة العربية السعودية.

292. المقدمات الأساسية في علوم القرآن، عبد الله بن يوسف الجديع، ط1، 1422هـ/ 2001م، مركز البحوث الإسلامية ليدز، بريطانيا.

293. مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين ابن تيمية الحراني (ت: 728هـ)، د.ط، 1490هـ/ 1980م، دار مكتبة الحياة، بيروت: لبنان.

294. مقدمتان في علوم القرآن –مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية–، تصحيح ونشر آرثر جيفري، ط1، 1954م، مكتبة الخانجي، مصر.

295. مكايد يهودية عبر التاريخ، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط2، 1398هـ/ 1978م، دار القلم، دمشق: سورية.

296. المكي والمدني في القرآن الكريم –دراسة تأصيلية نقدية للسور والآيات من أول القرآن الكريم إلى نهاية سورة الإسراء–، عبد الرزاق حسين أحمد، ط1، 1420هـ/ 1999م، دار ابن عفان، القاهرة: مصر.

297. المكي والمدني في القرآن الكريم، محمد بن عبد الرحمن الشايع، ط1، 1418هـ/ 1997م، مركز تفسير للدراسات القرآنية، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض: المملكة العربية السعودية.

298. المكي والمدني من السور والآيات من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس، محمد بن عبد العزيز الفالح، ط1، 1433هـ/ 2012م، دار التدمرية، الرياض: المملكة العربية السعودية.

299. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من التنزيل، أحمد بن الزبير الغرناطي (ت: 708هـ)، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، د.ط، د.س، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

300. الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: 548هـ)، ت: محمد سيد كيلاني، د.ط، 1404هـ، دار المعرفة، بيروت: لبنان.

301. من روائع القرآن– تأملات علمية وأدبية في كتاب الله ﷻ–، محمد سعيد رمضان البوطي (ت: 1434هـ)، د. ط،1420هـ/ 1999م. مؤسسة الرسالة، بيروت: لبنان.

302. المناسبات عند عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه (معارج التفكر ودقائق التدبر)، آلاء إسماعيل إبراهيم، ماجستير، إشراف: بشير محمد محمود، 1439هـ/ 2017م، جامعة أسيوط، مصر.

303. المناسبات في القرآن الكريم ودراسة تطبيقية في سورتي الفاتحة والبقرة من تفسير الفخر الرازي، عبد الله بن مقبل القرني، ماجستير، إشراف: عبد الحميد عمر أمين، 1412هـ/ 1413م، جامعة أم القرى، مكة: المملكة العربية السعودية.

304. المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من خلال سورتي الأنفال والتوبة –جمعا ودراسة وتحليلا–، ندين بنت مصطفى السليمي، ماجستير، إشراف: عبد الله بن علي الغامدي،

1430هـ/ 2009م، جامعة أم القرى، مكة : المملكة العربية السعودية.

305. المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من خلال سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران –جمعا ودراسة ونقدا–، أحمد بن محمد مذكور، ماجستير، إشراف: إسماعيل بن عبد الستار، 1429هـ/ 2008م، جامعة أم القرى، مكة: المملكة العربية السعودية.

306. مناهج المفسرين من العصر الأول إلى العصر الحديث، محمود النقراشي السيد علي، ط1، 1407هـ/ 1987م، مكتبة النهضة، القصيم: المملكة العربية السعودية.

307. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني (ت: 1367هـ)، ت: فواز أحمد زملي، ط1، 1415هـ/ 1995م، دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان.

308. منهج أبحاث المفسرين (أصول التفسير في خطوات تطبيقية)، سعيد إسماعيل صالح صيني، 1439هـ، **www.saeedsieny.net**.

309. منهج الإمام الطاهر بن عاشور في التفسير، نبيل أحمد صقر، ط1، 1422هـ/ 2001م، الدار المصرية، القاهرة: مصر.

310. منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم –دراسة نقدية–، سامر عبد الرحمن رشواني، ط1، 1430هـ/ 2009م، دار الملتقى، حلب: سوريا.

311. منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، فهد بن سليمان الرومي، ماجستير، إشراف: مصطفى مسلم، 1400هـ/ 1980م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.

312. منهج عبد الرحمن حبنكة الميداني في التفسير، نادي حسن علي صبرا، ماجستير، إشراف: محمد خازن المجالي، 2006م، الجامعة الأردنية، عمان: الأردن.

313. الموافقات، إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت: 790هـ)، ت: حسن آل سلمان، ط1 ، 1417هـ/ 1997م، دار ابن عفان، القاهرة: نصر.

314. مورد الضمآن في علوم القرآن، صابر حسن محمد، ط1، 1404هـ/ 1984م، الدار السلفية، بومبائى: الهند.

315. موقف المدرسة العقلية المعاصرة من علوم القرآن وأصول التفسير، محمود بن علي أحمد صالح، ط1، 1436هـ/ 2015م، الرياض: المملكة العربية السعودية.

316. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت: 1402هـ)، ط1، 1417هـ/ 1997م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت: لبنان.

حرف النون

317. الناسخ والمنسوخ، أحمد بن محمد أبو جعفر النحاس (ت: 338هـ)، ت: محمد عبد السلام محمد، ط1، 1408هـ، مكتبة الفلاح: الكويت.

318. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز (ت: 1377هـ)، اعتنى به: أحمد مصطفى فضيلة، د.ط، 1426هـ/ 2005م، دار القلم، دمشق: سوريا.

319. نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، يوسف المرعشلي، ط1، 1427هـ/ 2006م، دار المعرفة، بيروت: لبنان.

320. نظرات في القرآن، محمد الغزالي (ت: 1416هـ)، ط6، 2005م، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

321. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي (ت: 885هـ)، ت: عبد الرزاق غالب المهدي، د.ط، 1415هـ/ 1995م، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

322. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري (ت: 1041هـ)، ت: إحسان عباس، د.ط، 1968م، دار الصادر: بيروت، لبنان.

323. نفحات من علوم القرآن، محمد أحمد المعبد (ت: 1430هـ)، ط2، 1426هـ/ 2005م، دار السلام، القاهرة: مصر.

324. النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي (ت: 450هـ)، ت: السيد بن عبد المقصود، د.ط، د.س، دار الكتب العلمية، بيروت: لبنان.

325. النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، محمد رجب البيومي (ت: 1432هـ)، ط1، 1415هـ/ 1995م، دار القلم، دمشق: سوريا.

326. نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط1، 1410هـ/ 1990م، دار القلم، دمشق: سوريا.

حرف الهاء

327. هدية العارفين -أسماء المؤلفين وآثار المصنفين-، إسماعيل باشا البغدادي (ت: 1339هـ)، د.ط، 1951م، دار إحياء التراث العربي: بيروت، لبنان.

حرف الواو

328. الواضح في علوم القرآن، مصطفى ديب البغا ومحي الدين ديب، ط2، 1418هـ/ 1998م، دار الكلم الطيب، دمشق: سوريا.

329. الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أيبك الصفدي (ت:764هـ)، ت: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط1، 1420هـ/ 2000م، دار إحياء التراث: بيروت، لبنان.

330. الوالد الداعية المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني -قصة عالم مجاهد حكيم شجاع-، عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ)، ط1، 1423هـ/ 2002م، دار البشير، جدة: المملكة العربية السعودية.

331. الوحدة التاريخية للسور القرآنية، عمران سميح نزال، ط1، 1427هـ/ 2006م، دار قتيبة، دمشق: سوريا.

332. الوحدة القرآنية دراسة تحليلية مقارنة، محمد بن محمود خوجة، ط1، 1431هـ/ 2010م، دار كنوز إشبيليا، الرياض: المملكة العربية السعودية.

333. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي (ت: 1440هـ)، ط2، 1424هـ/ 2004م، دار التفسير للطبع والنشر، الزقازيق: مصر.

334. وفيات الأعيان وأنباء الزمان، شمس الدين أحمد بن خلكان (ت:681هـ)، ت: إحسان عباس، **ج1**: د.ط، 1900م/ **ج4**: ط1، 1971م/ **ج5**: ط1، 1994م، دار الصادر: بيروت، لبنان.

۞ المقالات العلمية

335. أثر التاريخ في تفسير القرآن الكريم، عبد السلام بن صالح الجار الله، مجلة جامعة الملك خالد للعلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، العدد: 1، مج: 26، 1439هـ/ 2017م، المملكة العربية السعودية.

336. الأستاذ الداعية الناشر محمد علي دولة، عمر محمد العبسو، مراجعة وتنقيح: مجد مكي، رابطة العلماء السوريين، 1438هـ/ 2017م. **www .islamsyria.com**.

337. أضواء على ظهور علم المناسبات القرآنية، عبد الحكيم الأنيس، مجلة دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، العدد: 11، 1423هـ/ 2002م، الإمارات العربية المتحدة.

338. الانسجام النظمي في القرآن: مجموعة الحواميم أنموذجا، عائشة ويلايلاك، مجلة مركز بحوث القرآن بجامعة مالايا، العدد:2، مج:6، 2014م، ماليزيا.

339. آيات التحدي بالقرآن الكريم –جمعا ودراسة–، ناصر بن محمد بن صالح الصائغ، مجلة الدراسات القرآنية، العدد: 5، 1430هـ/ 2009م، المملكة العربية السعودية.

340. بين علم المناسبة والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم: دراسة منهجية مقارنة، زهراء خالد سعد الله العبيدي، المجلة العالمية لبحوث القرآن بجامعة مالايا، العدد:2، مج: 1، 2012م، ماليزيا.

341. تأملات في المناسبات ودراسة تطبيقية من القرآن الكريم، محمد آيدن، مجلة كلية الإلهيات بجامعة سكاريا، العدد: 17، 2008م، تركيا.

342. التجديد في تفسير القرآن فريضة شرعية وضرورة حضارية، أحمد محمد الشرقاوي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، العدد: 3، مج: 12، 1437هـ/2016م، الأردن.

343. تداخل الآيات المكية والمدنية في السور، جمال الدين عبد العزيز، ملتقى أهل التفسير، 08/31/ 2009م، سا: 16:10.

344. ترتيب سور القرآن الكريم –دراسة تحليلية لأقوال العلماء–، طه عابدين طه، مجلة البحوث والدراسات القرآنية، العدد: 9، السنة الخامسة والسادسة، المملكة العربية السعودية.

345. ترتيب نزول القرآن، محمد علي الحسن، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد: 16، 1419هـ/ 1998م، الإمارات العربية المتحدة.

346. التعريف بكتاب (معارج التفكر ودقائق التدبر)، عبد الرحمن الشهري، ملتقى أهل التفسير، 2007/08/09، سا: 11:12.

347. التفاسير حسب ترتيب النزول في الميزان، مصطفى مسلم، ملتقى أهل التفسير، 15/ 12/ 1432هـ، سا: 06:53.

348. تفسير القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول، محمد علي لساني فشاركي وسمية ذو القدرنيا، مجلة العلوم الإنسانية، العدد: 14، 1428هـ/ 2007م، طهران: إيران.

349. تفسير القرآن الكريم على ترتيب النزول (منبعه وفوائده)، محمد مجلي ربابعة، مجلة كلية علوم الشريعة والقانون بالجامعة الأردنية، العدد: 1، مج:37، 2010م، الأردن.

350. تفسير القرآن بالقرآن دراسة تأصيلية، أحمد بن محمد البريدي، مجلة الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد: 2، ذو الحجة 1427هـ، المملكة العربية السعودية.

351. التفسير المعاصر للقرآن الكريم وفق مرويات النزول –عرض ونقد–، إبراهيم رحماني، مجلة الشهاب، العدد: 2، 1437هـ/ 2016م، الجزائر.

352. التفسير بحسب النزول عند الحداثيين –الشيخ عبد القادر ملا حويش أنموذجا–، آمنة فاضل فياض، مجلة جامعة بغداد للدراسات الإسلامية، العدد27، 2019م، العراق.

353. التفسير حسب ترتيب النزول، عبد الرحمن الشهري، ملتقى أهل التفسير، 2004/04/12م، 11:05.

354. دراسات في المكي والمدني –تحقيق القول فيما استثني من الآيات والسور–، عبد الحميد محمود البطاوي، ملتقى أهل التفسير، 1438هـ/ 2017م، سا: 09:56.

355. الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني، ابنة الزهراء، موقع نسيم الشام، 04/ 10/ 2015م، **www. naseemalsham.com.**

356. ضوابط التفسير عند عبد الرحمن حبنكة الميداني، أسماء عبد الرحمن زعيتر ونصار أسعد نصار، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والقانونية، العدد:1، مج:14، 1438هـ/ 2017م، الإمارات العربية المتحدة.

357. العلامة الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني قصة حياة ومسيرة علم وجهاد، محمد علي دولة، 07/ 2013/09م، **www.itihad.org**.

358. العلامة المفكر المفسر الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني، مجد مكي، موقع رابطة العلماء السوريين، 1434هـ/ 2013م، **www .islamsyria.com**.

359. علم المناسبات بين المانعين والمجيزين، إبراهيم بن سليمان آل هويمل، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: 25، محرم 1420هـ، المملكة العربية السعودية.

360. علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم، نور الدين عتر، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد:11، 1416هـ/ 1995م، دبي: الإمارات العربية المتحدة.

361. القصص القرآني ونشأة وتطور التفسير الموضوعي، عثمان بشير، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد:29، الجزائر.

362. قواعد التدبر الأمثل للشيخ الميداني: تحليل ونقد، روان فوزان الحديد وجهاد محمد نصيرات، مجلة كلية علوم الشريعة والقانون بالجامعة الأردنية، مج:43، 2016م، الأردن.

363. محمد علي دولة وجاذبية الداعية، حسن قاطرجي، مجلة إشراقات، العدد:212، 1437هـ/ 2016م، بيروت: لبنان.

364. المعين على تدبر الكتاب المبين، مجد مكي، شبكة الألوكة، 1429 هـ، **www.alukah.net**.

365. مقاصد القرآن الكريم وصلتها بالتدبر، علي البشر، المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن الكريم، 1434هـ/ 2013م، الدوحة: قطر.

366. مقاصد القرآن الكريم ومحاوره عند المتقدمين والمتأخرين، عيسى بوعكاز، مجلة الإحياء، العدد:20، 2017م، الجزائر.

367. مناسبات الآيات والسور (نشأة علم المناسبة، محلها، ودلالتها وأثرها في التفسير)، علي عبد العزيز سيور، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، العدد:25، 1424هـ/ 2003م، دبي: الإمارات العربية المتحدة.

368. المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية، مج:2، عدد:2، 1426هـ/ 2005م، الإمارات العربية المتحدة.

369. منهج التعامل مع النص القرآني حسب ترتيب النزول: قراءة في كتاب الجابري (فهم القرآن الحكيم)، سليمان محمد الدقور، مؤتمر التعامل مع النصوص الشرعية (الكتاب والسنة) بالجامعة الأردنية، 2008م، الأردن.

370. موقف الإمام الشوكاني في تفسيره من المناسبات، أحمد محمد الشرقاوي، شبكة التفسير والدراسات القرآنية، 1423هـ، **www.tafsir.net**.

371. موقف المفسرين من سبب نزول سورتي المعوذتين، سامي محمد هشام، مجلة علوم الشريعة والقانون بجامعة العلوم الإسلامية العالمية، المجلد:41، 2014م، ، الأردن.

372. نقد الاستشراق، رضوان السيد، مجلة الاجتهاد، العددان: 50 و51، 1422هـ/2001م.

373. النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن، محمد عبد الله دراز، مجلة كنوز الفرقان، العددان: 1 و2، 1371هـ، مصر.

۞ البرامج التلفزيونية والمواقع الالكترونية:

374. حديث الذكريات مع الشيخ عبد الرحمن حبنكة، تقديم: جاسم المطوع، 30 جوان 2011م، **www.youtube.com**.

375. الموسوعة الحرة ويكيبيديا: **wikipedia.org**.

376. موقع اتحاد كتاب العرب في سوريا والوطن العرب: **www.awu.dam.org**.

377. موقع أسعد علي على الشبكة العالمية (الأنترنت): www.assadali8.com.

سابعا. فهرس الموضوعات:

الموضوع	الصفحة
الإهداء	
شكر وتقدير	
مقدمة	أ–ق
الفصل الأول: الترتيب المصحفي والترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.	
المبحث الأول: الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم.	3
المطلب الأول: جمع القرآن الكريم وترتيب سوره.	4
الفرع الأول: جمع القرآن الكريم.	4
الفرع الثاني: ترتيب سور القرآن الكريم.	9
المطلب الثاني: مذاهب العلماء في الترتيب المصحفي لسور القرآن الكريم.	14
الفرع الأول: القائلون بالتوقيف في ترتيب سور القرآن الكريم.	14
الفرع الثاني: القائلون بالاجتهاد في ترتيب سور القرآن الكريم.	19
الفرع الثالث: مناقشة وترجيح.	22
المطلب الثالث: تفسير القرآن الكريم وفق ترتيب المصحف.	26
الفرع الأول: أقسام تفسير القرآن الكريم باعتبار ترتيب السور.	26
الفرع الثاني: عناية السلف بترتيب المصحف في تفسيرهم للقرآن الكريم.	33
الفرع الثالث: حكم مخالفة الترتيب المصحفي في تفسير القرآن الكريم.	36

المبحث الثاني: الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.	43
المطلب الأول: الروايات الواردة في ترتيب نزول سور القرآن الكريم.	44
الفرع الأول: الروايات الواردة في ترتيب نزول مجمل سور القرآن الكريم.	44
الفرع الثاني: الروايات الواردة في ترتيب نزول بعض سور القرآن الكريم.	48
المطلب الثاني: تاريخ ترتيب نزول سور القرآن الكريم.	52
الفرع الأول: مصادر البحث في الترتيب النزولي للسور.	52
الفرع الثاني: فوائد معرفة تاريخ ترتيب النزول.	55
الفرع الثالث: أصول فكرة الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم.	58
المطلب الثالث: تفسير القرآن الكريم وفق الترتيب النزولي للسور.	66
الفرع الأول: مسار حركة التفسير وفق الترتيب النزولي.	66
الفرع الثاني: موقف العلماء من تفسير القرآن كاملا وفق ترتيب نزول السور.	75
الفصل الثاني: **عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).**	
المبحث الأول: التعريف بعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني وتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).	85
المطلب الأول: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني حياته وآثاره.	86
الفرع الأول: سيرة عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني.	86
الفرع الثاني: آثار المفسر العلمية ووفاته.	93
المطلب الثاني: جهود عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني التفسيرية قبل	100

كتابة تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).	
الفرع الأول: عناية الشيخ بتفسير القرآن الكريم تنظيرا.	100
الفرع الثاني: عناية الشيخ بتفسير القرآن الكريم تطبيقا.	107
المطلب الثالث: التعريف بتفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).	111
الفرع الأول: دراسة وصفية للكتاب.	111
الفرع الثاني: مصادر المفسر في تفسيره، ومنهجه العام في تدبر السور.	119
المبحث الثاني: مصادر عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في تفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر).	128
المطلب الأول: القرآن الكريم والسنة النبوية.	129
الفرع الأول: القرآن الكريم.	129
الفرع الثاني: السنة النبوية.	129
المطلب الثاني: أقوال الصحابة والتابعين ومرويات أهل الكتاب.	145
الفرع الأول: أقوال الصحابة والتابعين.	145
الفرع الثاني: مرويات أهل الكتاب.	145
المطلب الثالث: علوم العربية واجتهادات المفسر.	154
الفرع الأول: علوم العربية.	154
الفرع الثاني: إعمال المفسر لفهمه واجتهاده.	159
الفصل الثالث: الترتيب النزولي لسور القرآن الكريم في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).	
المبحث الأول: اختيار المفسر ترتيب السور وفق نزولها واقعه، وأسسه، ومبرراته.	166

المطلب الأول: التفسير وفق ترتيب النزول بين الأصالة والتأصيل.	167
الفرع الأول: سبق السلف إلى العناية بترتيب نزول السور في تفاسيرهم.	167
الفرع الثاني: أصالة فكرة تدبر السور وفق ترتيب نزولها عند المفسر.	171
الفرع الثالث: التأصيل لفكرة التفسير وفق ترتيب النزول عند المفسر.	177
المطلب الثاني: الأسس العامة للتفسير وفق ترتيب النزول عند المفسّر.	184
الفرع الأول موقف المفسّر من ترتيب سور القرآن الكريم.	184
الفرع الثاني: طرق الوصول إلى ترتيب النزول عند المفسّر.	189
الفرع الثالث: حقيقة الترتيب النزولي المتبع في تفسير (معارج التفكر).	194
الفرع الرابع: التمييز بين النصوص الخبرية ونصوص التشريع والأحكام.	199
المطلب الثالث: أسباب ودوافع ومبررات اختيار المفسّر ترتيب السور وفق نزولها –عرض وتقويم–.	203
الفرع الأول: بيان الأسباب والدوافع والمبررات.	203
الفرع الثاني: تقويم الأسباب والدوافع والمبررات.	207
المبحث الثاني: ملامح التفسير وفق الترتيب النزولي للسور في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر) –عرض وتقويم–.	211
المطلب الأول: توظيف المفسر ترتيب النزول في تدبره التحليلي.	212
الفرع الأول: مراعاة مرحلة وترتيب نزول السورة أثناء تدبره لها.	212
الفرع الثاني: الاستعانة بترتيب النزول في فهم معاني الآيات والوقوف على دلالاتها.	217
الفرع الثالث: النقد والتقويم .	221
المطلب الثاني: توظيف المفسر ترتيب النزول في تدبره الموضوعي.	226

الفرع الأول: استعراض آيات الموضوع وفق ترتيب نزول سورها.	226
الفرع الثاني: تتبع مراحل التنزيل وبناء الفهم على أساس التدرج في التشريع.	230
الفرع الثالث: النقد والتقويم.	236
المطلب الثالث: البعد المقاصدي للتفسير وفق ترتيب نزول السور في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).	244
الفرع الأول: مقصد التوحيد والعقيدة.	245
الفرع الثاني: المقصد الأخلاقي والتربوي.	251
الفصل الرابع: أثر ترتيب النزول في بعض مباحث علوم القرآن والتفسير في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).	
المبحث الأول: أثر ترتيب النزول في علم المكي والمدني في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).	258
المطلب الأول: المكي والمدني عند عبد الرحمن حبنكة الميداني.	259
الفرع الأول: الاصطلاح المعتبر عند المفسر في تعريف المكي والمدني.	259
الفرع الثاني: مسلك المفسر في بيان السور المكية.	263
المطلب الثاني: مسلك المفسر في بيان الآيات المدنية في السور المكية.	268
الفرع الأول: موافقة المفسر لما أثبته في جدول المكي والمدني.	269
الفرع الثاني: مخالفة المفسر لما أثبته في جدول المكي والمدني.	274
المطلب الثالث: المكي والمدني وفق ترتيب النزول في تفسير (معارج التفكر)– عرض ونقد–.	278

الفرع الأول: أهمية علم المكي والمدني وفق ترتيب النزول.	278
الفرع الثاني: تطبيقات المكي والمدني فهما للآيات وتدبرا لمعانيها وفق ترتيب نزولها.	283
الفرع الثالث: معالم التجديد وملامح التنزيل على الواقع في توظيف المكي والمدني وفق ترتيب النزول.	287
المبحث الثاني: أثر ترتيب النزول في علم المناسبات في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).	291
المطلب الأول: مدخل إلى علم المناسبات.	292
الفرع الأول: تعريف علم المناسبات ومكانته عند العلماء.	292
الفرع الثاني: أنواع المناسبات في القرآن الكريم.	296
الفرع الثالث: صلة علم المناسبات بترتيب سور القرآن الكريم.	299
المطلب الثاني: المناسبات بين السور وفق ترتيب نزولها في تفسير (معارج التفكر)–عرض ونقد–.	302
الفرع الأول: عناية المفسر بعلم المناسبات.	302
الفرع الثاني: اعتماد المفسر ترتيب النزول في بيان المناسبات بين السور.	308
الفرع الثالث: معالم التجديد وملامح التنزيل على الواقع في توظيف علم المناسبات وفق ترتيب النزول.	316
المبحث الثالث: أثر ترتيب النزول في تدبر آيات القصص في تفسير (معارج التفكر ودقائق التدبر).	323
المطلب الأول: القصص القرآني عند عبد الرحمن حبنكة الميداني.	324
الفرع الأول: تعريف القصص القرآني.	324
الفرع الثاني: موقف المفسر من القصص القرآني.	327

الفرع الثالث: منهج المفسر في عرض آيات القصص.	334
المطلب الثاني: آيات القصص وفق ترتيب النزول –عرض ونقد–.	339
الفرع الأول: مكانة الترتيب النزولي في دراسة آيات القصص القرآني.	339
الفرع الثاني: القصص القرآني بين ترتيب النزول وترتيب المصحف.	344
الفرع الثالث: الآثار العلمية لتدبر آيات القصص وفق ترتيب النزول.	350
خاتمة.	360
الفهارس	
فهرس الآيات القرآنية.	384
فهرس الأحاديث النبوية.	397
فهرس الآثار.	398
فهرس الأعلام المترجم لهم.	400
فهرس المصطلحات المعرّف بها.	403
ثبت المصادر والمراجع.	404
فهرس الموضوعات.	435

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص البحث:

شهد العصر الحديث ظهور عدد من التفاسير خالفت الترتيب المصحفي، واعتمدت الترتيب النزولي بديلا عنه، ولاشك أنّ لهذه المخالفة أثرا في بيان معاني كتاب الله ﷻ، من ثمّ انبثقت فكرة البحث في موضوع يعالج هذه المسألة بغرض الكشف عن خباياه، وقد جاء بعنوان: "أثر ترتيب النزول في تفسير القرآن الكريم (معارج التفكر ودقائق التدبر) لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أنموذجا -دراسة نقدية-"، ويهدف إلى تتبع تطبيقات المفسر لترتيب النزول أثناء تدبره للسور وفق ترتيب نزولها، مع بيان الإضافات المحتملة والسلبيات والإيجابيات المترتبة على توظيفه له ومعالم التجديد فيه؛ وتحقيقا لذلك فقد سرت في هذا البحث وفق خطة منهجية دبجتها بمقدمة، أعقبها أربعة فصول وخاتمة، تحدثت في الفصل الأول عن الترتيب المصحفي والترتيب النزولي تبيانا لأهم القضايا التي ترتبط بهما وتوطأت لما سيأتي عرضه في ثنايا البحث، أما الفصل الثاني فعرّفت فيه بالمفسر عبد الرحمن حبنكة الميداني، وتفسيره (معارج التفكر ودقائق التدبر) حيث أوضحت فيه أهم المصادر التي اعتمد عليها، ليأتي بعد ذلك بسط الحديث عن اعتماد المفسر لترتيب النزول في تدبره للقرآن الكريم تنظيرا وتطبيقا في الفصل الثالث، والفصل الرابع جاء بيانا لأثر ترتيب النزول في حديث المفسر عن علم المكي والمدني وعلم المناسبات وآيات القصص القرآني أثناء تدبره للسور، لأختم بعد ذلك الدراسة بجملة من النتائج أبرزها:

– أنّ اعتماد المفسر الترتيب النزولي بديلا عن الترتيب المصحفي لم يؤثر سلبا في قضايا المنهج، فقد اعتمد على مصادر أصيلة وطرق عدّها العلماء من أحسن طرق التفسير.

– أن ملامح التفسير وفق الترتيب النزولي للسور ظهرت جليا في تفسير (معارج التفكر)، فقد وظّفه المفسر أثناء تدبره التحليلي واجتهد في تطبيقه في الدراسات الموضوعية.

– أظهرت الدراسة التقويمية لتطبيقات المفسر لترتيب النزول أثناء تدبره جملة من محاسن تفسيره التدبري ومعالم التجديد فيه، كما كشفت عن عدد من المؤاخذات التي كانت من الآثار السلبية لاعتماده الترتيب النزولي فهي من محاذير هذا النوع من التفاسير.

والله تعالى ولي التوفيق.

Abstract:

Appearance of a set of interpretations that contradicted the Quran Book order had been witnessed in the modern age and had taken on the descending order as alternative to it, and this contradiction had effected Allah's Book meanings clarification. So the research idea in this topic emerged to treat the aim of detecting its mysteries, entitled: «The Descent Order Impact in the Noble Quran Interpretation (Maarij Al-Tafkir w Daqaiq Al-Tadbir) by Abd Al-Rahman Hasan Habanaka Al-Miydani a model - A Critical Study-» his goal was tracking the interpreter applications of to order the descent when he meditated the chapters according to their descent order, with show of the possible the additions, the disadvantages and the advantages resulting from his employment of it and the renewal hallmarks in it, I proceeded in this research according to a methodological outline with an introduction, followed by four chapters and a conclusion. In the first chapter, I dealt with the Quran Book order and the decent order to display the most important cases linked to them and I stepped for the research coming folds. While; in the second chapter I introduced the interpreter Abd Al-Rahman Hasan Habanaka Al-Miydani and his interpretation (Maarij Al-Tafkir w Daqaiq Al-Tadbir), where I clarified the eminent sources on which he had relied, then after that the discourse simplification of the interpreter approval to order the descent in his Noble Quran meditation theoretically and in practically, the third and the fourth chapters stated the descent order impact in the interpreter's discourse about Al-Makki and Al-Madani science, the facts science and the Quran narrations verses during his mediation of chapters. Therefore; the study will be concluded with a set of prominent findings that are:

- The interpreter's reliance on the descending order as an alternative for the Quran Book arrangement did not negatively affect the methodology cases, he relied on authentic sources and ways considered by scholars as the best interpretation ways.
- According to the descending order of the chapters, the interpretation hallmarks appeared clear in the interpretation of (Maarij Al-Tafsir); as the interpreter had used it during his analytical meditation and hardly reasoning to apply it in the objective studies.
- The interpreter's applications for the of descent order during his meditation the evaluation study had showed a set of his meditative interpretation advantages and its renewal hallmarks, also it revealed a number of misdeeds that were been negative effects for his reliance on the descending order, for is one of this type of interpretation cautions.

And Almighty Allah; is the Success Custodian.

Résumé :

L'apparition d'un ensemble d'interprétations qui contredisaient l'ordre du livre du Coran avait été témoin à l'ère moderne et avait pris l'ordre descendant comme alternative à celui-ci, et cette contradiction avait effectué la clarification de la signification du livre d'Allah. Ainsi l'idée de recherche dans ce sujet a émergé pour traiter l'objectif de détecter ses mystères, intitulé: «L'impact de l'ordre de descente dans l'interprétation du Noble Coran (Maarij El-Tafkir w Dakik El-Tadbir) par Abed El-Rahman Hasan Habanaka El-Maydani un modèle - Une Étude Critique - » son but était de suivre les applications d'interprète d'ordonner la descente quand il méditait les chapitres selon leur ordre de descente, en montrant les ajouts possibles, les inconvénients et les avantages résultant de son emploi de celui-ci et les signes distinctifs du renouveau, j'ai procédé à cette recherche selon un schéma méthodologique avec une introduction, suivi de quatre chapitres et d'une conclusion. Dans le premier chapitre, j'ai traité l'ordre du livre du Coran et l'ordre décent pour afficher les cas les plus importants qui leur sont liés et j'ai fait une entrée pour la recherche à venir. Tandis que; dans le deuxième chapitre j'ai présenté l'interprète Abed El-Rahman Hasan Habanaka El-Maydani et son interprétation (Maarij El-Tafkir w Dakik El-Tadbir), où j'ai clarifié les sources éminentes sur lesquelles il s'était appuyé, puis après cela la simplification du discours de l'approbation de l'interprète pour ordonner la descente dans sa méditation du Noble Coran théoriquement et dans la pratique, les troisième et quatrième chapitres ont déclaré l'impact de l'ordre de descente dans le discours de l'interprète sur la science d'El-Makki et

El-Madani, la science des faits et les versets des narrations du Coran pendant sa médiation des chapitres. Donc; l'étude se conclura par un ensemble de résultats importants qui sont:

- Le fait que l'interprète se fie à l'ordre décroissant comme alternative à l'arrangement du livre du Coran n'a pas eu d'incidence négative sur les cas méthodologiques, il s'est appuyé sur des sources authentiques et des moyens considérés par les savants comme les meilleurs moyens d'interprétation.

- Selon l'ordre décroissant des chapitres, les signes distinctifs d'interprétation sont apparus clairement dans l'interprétation de (Maarij El-Tafsir); comme l'interprète l'avait utilisé pendant sa méditation analytique et raisonnait pour l'appliquer dans les études objectives.

- Les demandes de l'interprète pour l'ordre de descendance pendant sa méditation, l'étude d'évaluation avait montré un ensemble de ses avantages d'interprétation méditative et ses caractéristiques de renouvellement, ainsi que de nombreux méfaits qui avaient des effets négatifs pour sa confiance dans l'ordre descendant, pour faire partie de ce type de mise en garde d'interprétation.

Allah Tout-Puissant; est Le Dépositaire du Succès.